

المُهَيِّدُ
فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ
الْعَلَّامَةُ مُحَمَّدُ هَادِي مُعْرِفَةُ

التمهيد

في علوم القرآن



العلامة محمد هادي معرفة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى محمد وآله الطاهرين



مرکز تحقیقات کتب و تاریخ علوم اسلامی



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

فهرس مواضيع الكتاب

١١		المقدمة
١٧		التفسير
١٧		التعريف بالتفسير
١٨		الحاجة إلى التفسير
٢١		الفرق بين التفسير والتأويل
٢٢		معاني التأويل
٢٤		مفاهيم عامة منتزعة من الآيات
٢٦		ضابطه التأويل
٣١		مزايم في التأويل
٤٢		هل يعلم التأويل غير الله
٤٤		هل التفسير توقيف
٤٩		صلاحية المفسر
٥٣		أوجه التفسير
٥٦		التفسير بالرأي
٦٣		خلاصة القول في التفسير بالرأي
٧٤		حجية ظواهر الكتاب
٧٩		نسبة خاطئة
٨٤		دلائل مزعومة
٨٥		منهج القرآن في الإفادة والبيان
١٠١		ترجمة القرآن
١٠١		مسائل ثلاث
١٠٢		التعريف بالترجمة
١٠٢		خطورة أمر الترجمة
١٠٤		أساليب الترجمة

١٠٧	جوانب القرآن الثلاثة
١٠٨	الترجمة الحرفية للقرآن
١١١	الترجمة المعنوية (الحرة)
١١٢	المنع من الترجمة وأخطارها
١١٧	دواع حاسم
١٢١	الترجمة من الوجهة الشرعية
١٢٢	وتأنيق شرعية
١٢٢	فتوى الحجة كاشف الغطاء
١٢٣	نظرة الإمام الخوئي
١٢٤	كتاب شيخ الأزهر
١٢٥	فتوى علماء الأزهر
١٢٧	قرار مجلس الوزراء المصري
١٢٧	محاولة دون تنفيذ القرار
١٢٩	مناقشات فقهية
١٣٣	ترجمة القرآن ضرورة دعائية
١٣٦	تراجع إسلامية عريقة
١٤١	كيفية ترجمة القرآن
١٤٤	نماذج من تراجم خاطئة
١٤٦	تراجع القرآن الكريم

مركز تحقيقات في علوم إسلامي

١٥٧	المرحلة الأولى: التفسير في عهد الرسالة
١٥٧	النبي ﷺ مفسراً
١٥٩	هل تناول النبي القرآن كله بالبيان
١٦٢	حجم المأثور من تفاسير الرسول ﷺ
١٦٣	أوجه بيان النبي لمعاني القرآن
١٦٨	نماذج من تفاسير مأثورة عن النبي ﷺ

١٨١	المرحلة الثانية: التفسير في دور الصحابة
١٨١	هم درجات عند الله
١٨٧	المفسرون من الأصحاب
١٨٨	أعلام الصحابة بمعاني القرآن والأعظم
١٨٨	١. علي بن أبي طالب عليه السلام

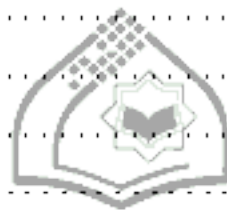
١٩٢	٢. عء الله بن مسعود
١٩٦	ملحوظة
١٩٧	٣. أبي بن كعب
١٩٨	٤. عء الله بن عباس
٢٠٣	توسعه في التفسفر
٢٠٥	منهجه في التفسفر
٢٠٦	أولاً: مراجعة ذات القرآن في فهم مراد الله
٢٠٧	ثانياً: رعايته لأسباب النزول
٢١٠	ثالثاً: اعتماده المأثور من التفسفر المروي
٢١٠	رابعاً: اضطراره بالأدب الرففع
٢١٣	مسائل ابن الأزرقي
٢١٩	مراجعة أهل الكناب
٢٢٣	نقد و تمحص
٢٢٤	التحذفر عن مراجعة أهل الكناب
٢٣٢	استعمال الراي والاجتهاد
٢٣٣	الطرق الفة في التفسفر
٢٥٤	تفسفر ابن عباس
٢٥٧	قيمة تفسفر الصحافي
٢٦٠	هل المأثور من الصحافي حديث مستند
٢٦٤	ميزات تفسفر الصحافي
٢٦٩	المرحلة الثالثة: التفسفر في دور التابعفن
٢٦٩	مدارس التفسفر
٢٧٧	أعلام التابعفن المفسرفن
٢٧٧	١. سعفء بن جبر
٢٨٠	٢. سعفء بن المسفب
٢٨٣	نمؤء من تفسفره
٢٨٦	من نوادر حكفته
٢٨٧	٣. مءاهد بن جبر
٢٨٧	مكافته في التفسفر
٢٨٨	حرّفته في التفسفر العقلف
٢٩٢	تفسفر مءاهد برواية ابن أبي نجف
٢٩٣	٤. طاؤوس بن كفسان

٢٩٧	٥. عكرمة مولى ابن عباس
٣٠٧	منهجه في التفسير
٣٠٨	نموذج من تفسيره
٣١٠	٦. عطاء بن أبي رباح
٣١٣	٧. عطاء بن السائب
٣١٤	٨. أبان بن تغلب بن رباح
٣١٧	٩. الحسن الصوري
٣٢٨	١٠. علقمة بن قيس
٣٣١	١١. محمد بن كعب القرظي
٣٣٣	١٢. أبو عبد الرحمن السلمي
٣٣٣	١٣. مسروق بن الأجدع
٣٤٢	١٤. الأسود بن يزيد النخعي
٣٤٣	١٥. مروة الهمداني
٣٤٣	١٦. عامر الشعبي
٣٤٤	١٧. عمرو بن شرحبيل
٣٤٥	١٨. زيد بن وهب
٣٤٥	١٩. أبو الشعثاء الكوفي
٣٤٦	٢٠. أبو الشعثاء الأزدي
٣٤٦	٢١. الأصعب بن سنان
٣٤٧	٢٢. زر بن حبیش
٣٤٧	٢٣. ابن أبي ليلى
٣٤٨	٢٤. عبدة بن قيس بن عمرو السلحاني
٣٤٨	٢٥. الربيع بن أنس السكري
٣٤٨	٢٦. الحارث بن قيس الجعفي الكوفي
٣٤٨	٢٧. قتادة بن دعامة
٣٥٤	٢٨. زيد بن أسلم
٣٥٥	٢٩. أبو العالية
٣٥٦	٣٠. جابر الجعفي
٣٥٨	قيمة تفسير التابعي
٣٦٦	ميزات تفسير التابعي
٣٧٨	منايع التفسير في عهد التابعين



مركز بحوث وتوثيق علوم إسلامي

٣٨٥	المرحلة الرابعة: كبار المفسرين من أتباع التابعين
٣٨٥	١. المضحك بن مزاحم الجهالي
٣٨٦	٢. شهر بن حوشب
٣٨٨	٣. السدي الكبير
٣٨٩	٤. ابن أبي نُجَيج
٣٨٩	٥. واصل بن عطاء
٣٩١	٦. عطاء الخراساني
٣٩٢	٧. أبو النضر الكلبي
٣٩٢	٨. أبو حمزة الثمالي
٣٩٣	٩. شبل بن عباد
٣٩٤	١٠. ابن جريج
٣٩٤	١١. يحيى بن كثير
٣٩٤	١٢. مقاتل بن حيان
٣٩٥	١٣. مقاتل بن سليمان
٣٩٥	١٤. معمر بن راشد
٣٩٦	١٥. أبو الجارود
٣٩٧	١٦. شعبة بن الحجاج
٣٩٩	١٧. ورقاء بن عمرو
٤٠٠	١٨. سفيان الثوري
٤٠٦	١٩. سفيان بن عيينة
٤١٠	٢٠. ابن أسلم (ابن زيد)
٤١١	٢١. أبو معاوية
٤١١	٢٢. السدي الصغير
٤١٢	٢٣. وكيع بن الجراح
٤١٤	٢٤. ابن كيسان الأصم
٤١٤	٢٥. يحيى بن زياد الفراء
٤١٥	٢٦. أبو المنذر الكندي
٤١٦	٢٧. روح بن عبادة
٤١٦	٢٨. يزيد بن هارون
٤١٧	٢٩. عبد الرزاق الصنعاني
٤١٨	٣٠. أبو عبد الله الفريابي
٤١٩	٣١. أبو عامر

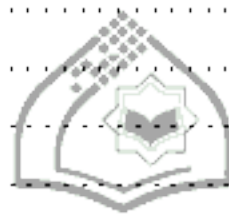


مرکز تحقیقات و پویا علوم اسلامی

٤١٩	٣٢. أبو حذيفة النهدي
٤٢٠	٣٣. أبو علي الجعفي
٤٢٠	٣٤. أبو النضر العياشي
٤٢١	٣٥. أبو مسلم الأصفهاني
٤٢٢	٣٦. علي بن إبراهيم القمي
٤٢٣	٣٧. أبو الحسن الرماني

المرحلة الخامسة: دور أهل البيت في التفسير ٤٢٧

٤٢٧	العترة إلى جنب القرآن
٤٢٩	المستفاد من حديث الثقلين أمور
٤٣٧	دورهم في التفسير دور تربية وتعليم
٤٣٨	المخاطب في التفاسير المأثورة
٤٤٤	الوضع عن لسان الأئمة
٤٥١	نماذج من تفاسير أهل البيت عليهم السلام
٤٥٢	أقول: آية الوضوء
٤٥٢	أ) مسح الرأس
٤٥٦	ب) مسح الرجلين
٤٥٨	الثاني: آية قصر الصلاة
٤٦١	الثالث: آية الخس
٤٦٤	الرابع: آية القطع
٤٦٦	الخامس: تحريم الخمر
٤٦٨	السادس: قتل المؤمن متعمداً
٤٧٠	السابع: الطلاق الثلاث
٤٧٧	الثامن: حديث المتعة
٤٧٧	أ) متعة النساء
٤٨٣	قصة المنع من المتعتين
٤٩٠	لا نسخ ولا تحريم
٤٩٥	محاورة مفيدة
٤٩٧	ب) متعة الحج
٤٩٩	مذاهب الفقهاء في حج التمتع
٥٠٠	التاسع: حديث الرجعة
٥١٢	العاشر: مسألة الداء



مركز بحوث و نشر علوم اسلامی

المقدمة

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، محمد وآله الطاهرين.
قال تعالى: «وَأَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ
لِّلْمُسْلِمِينَ»^١.

كان المسلمون في عهدهم الأول يفهمون القرآن على خالصته، ويستسيغون معانيه
على بساطتها الأولى، صافية تقيّة عن كدر الأهواء والدخائل؛ إذ كان قد نزل بلغتهم
وعلى أساليب كلامهم النصيح البليغ، كانوا يتلقّونه غصّاً طريّاً، ويجيدون فهمه عذبا
روياً.

ولئن كادت تكون لهم وقفات عند مبهمات التعابير؛ لدقّتھا ورقّة معانيها، فإنّ الوقفة لم
تكن لتطول بهم؛ حيث الرسول - وهو الذريعة العليا والوسيلة الكبرى للوصول إلى فهم
الشریعة في جميع مناحيها - في متناولهم القريب، فكان يبيّن لهم إذ ذاك ما خفي على
أفهامهم أو دقّ عن أذهانهم؛ إذ كان عليه البيان، كما كان عليه البلاغ، قال تعالى: «وَأَنزَلْنَا
إِلَيْكَ الذِّكْرَ نُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَنَعَلِّمُهُم بِتَفْكُرٍ»^٢.

* * *

و هكذا ظلّ المسلمون يفهمون القرآن على حقيقته، ويعملون به على يثقة من أمره،
 أقوياء أعزّاء، في سلامة وسعادة وعيش هنيء، مستمسكين بالعروة الوثقى التي لا انفصام
 لها. وقد تداومت بهم هذه الحياة العليا طوال عهد الرسالة، وشظراً بعدها غير قليل.
 ثم خلف من بعدهم خلف - على تناول الأيّام - أضاعوا بعض تلك الطريقة المثلّية،
 و اتبعوا السبل، فتفرقت بهم ذات اليمين وذات الشمال، ربّما في أهواء متباينة وآراء
 متضاربة؛ فكانت أحداث وبدع وضلالات، وابتداع مذاهب وانحيازات، كل يضرب
 على وتره، ويعمل على شاكلته..

* * *

و كان من جرّاء ذلك أن دخلت في الحديث والتفسير دخائل وأساطير مستوردة من
 أبناء إسرائيل ومسلمة أهل الكتاب، كان يميّزها بين المسلمين فئات تظاهرت بالإسلام إمّا
 لغلبة الجوّ والمحيط، أو لرغبة في المدسّ والتزوير.
 تلك كانت بليّة المسلمين، وقد كثر الخط والتخليط، ولم يفرق السليم عن السقيم،
 و كان نصيب التفسير من هذا الخطّ الوعر، بما أوتي هؤلاء من قدرة للاستحواذ
 على عقول الضعفاء وأهل الأضماع من الأمراء.

* * *

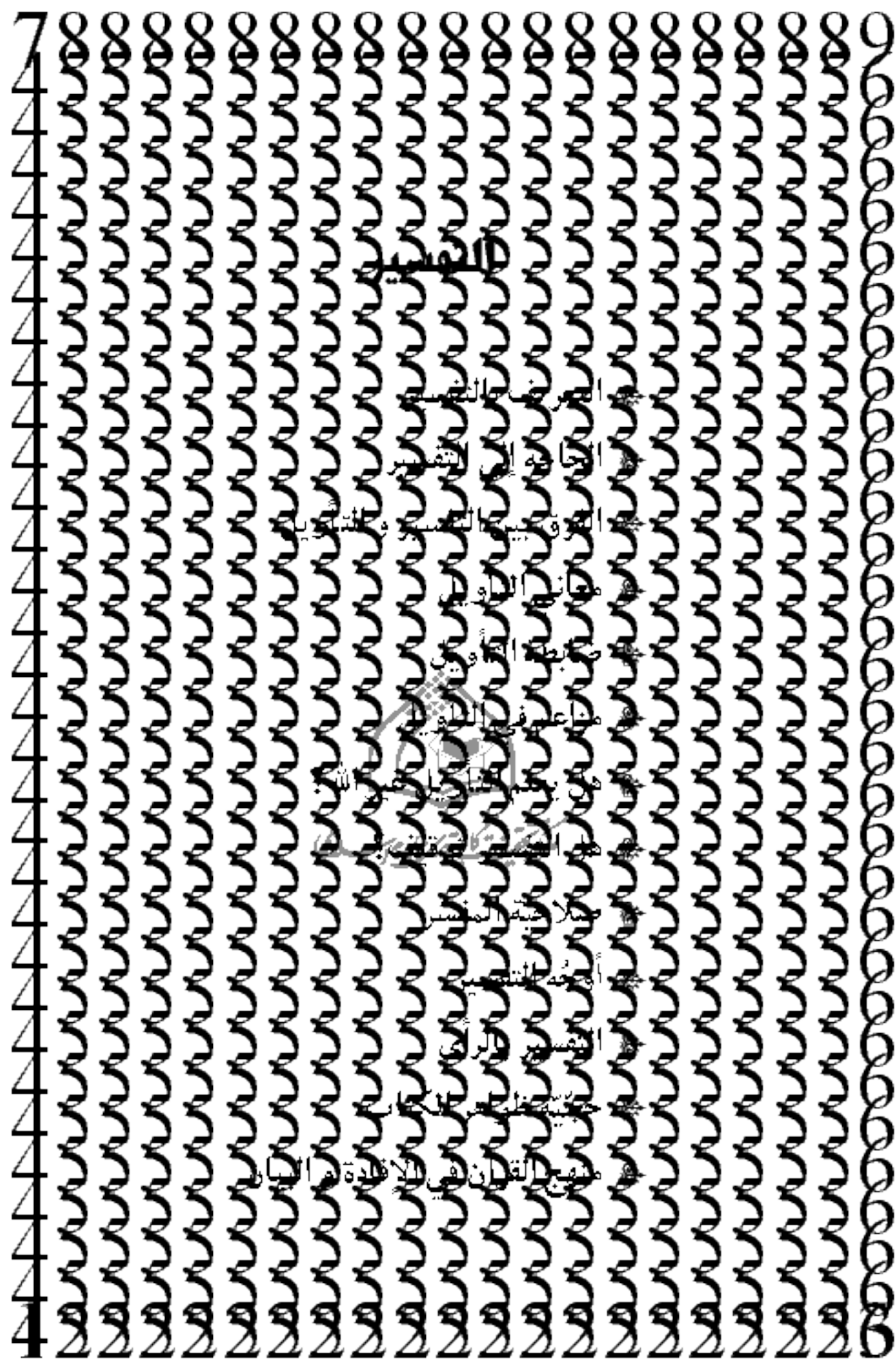
نعم، كانت هناك معايير ومقاييس تميّز الغثّ من السمين، وقد عرّفها النبي
 الكريم ﷺ للأئمة منذ أن أحسّ بدخائل أهل الضغائن على الإسلام، ممّن يتبعون
 المتشابهات من الآيات ابتغاء الفتنة وابتغاء التأويل.
 فوضع حدوداً دون رسوب تلکم الدسائس الخبيثة، وكان من أهمّها: العرض على
 محكمات الآيات «هـُ أُمُّ الْكِتَابِ»، تمّ اللجوء إلى العترة الطاهرة «الثقل الأصغر» كما في
 حديث الثقلين، وأنهما لن يفرقا حتّى يردا عليه الحوض. وعدم الافتراق، يعني:
 تلازمهما ولا غناء بأحدهما دون الآخر، فالكتاب أساس الدين، والطيّبون من العترة

حملته وحرصته؛ لأنهم ورتة سيد المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين.
و نحن إذ نحاول انتهاج منهج السلف الصالح: الصحابة الأخيار، والتابعين الكبار،
والسادة الأئمة، نتتبع طرائقهم في فهم كلام الله، واستنباط معانيه، والوقوف على مبانيه،
وفق ما رسمه لنا العلماء الأعلام والأئمة العظام، سائلين المولى تعالى التوفيق على ذلك
والتسديد، إنه ولي ذلك، وهو المستعان.





مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی





مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

التفسير

التعريف بالتفسير

التفسير من فسر، بمعنى أبان وكشف.

قال الراغب: الفسر و السفر متقاربان المعنى كتقارب لفظيهما، لكن جعل الفسر لإظهار المعنى المعتقول، و السفر لإبراز الأعيان للأبصار يقال: سَفَرَت المرأة عن وجهها و أسفرت، و أسفر الصبح، و قال تعالى: «وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا»^١ أي بياناً و تفصيلاً.^٢

و اصطلاحوا على أن التفسير، هو: إزاحة الإيهام عن اللفظ المشكل، أي المشكل في إفادة المعنى المقصود.

و كانت صياغته من باب «التنعيل» نظراً للمبالغة في محاولة استنباط المعنى، كما في كشف و اكتشاف، فإن في الثاني إفادة زيادة المحاولة في الكشف، فكان أخص من المجرد؛ و ذلك بناءً على أن زيادة المباني تدل على زيادة المعاني.

فالتفسير ليس مجرد كشف القناع عن اللفظ المشكل، بل هو محاولة لإزالة الخفاء في دلالة الكلام، فلا بد أن يكون هناك إيهام في وجه اللفظ؛ بحيث ستر وجه المعنى، و يحتاج

١. ذكر ذلك في مقدمته للتفسير، ص ٤٧.

٢. الفرقان (٣٥): ٣٣.

إلى محاولة واجتهاد بالغ حتى يزول الخفاء ويرتفع الإشكال.
وهذا هو الفارق بين التفسير والترجمة؛ لأنها حيث كان الجهل باللغة وعدم معرفة الوضع الذي يرتفع بمراجعة كتب اللغة المعروفة، وليس في ذلك كثير جهد وعناء.

الحاجة إلى التفسير

ما وجه الحاجة إلى تفسير القرآن، وقد أنزله الله نوراً وهدى وبصائر للناس وبياناً لكل شيء^١، كما أنه جاء ليكون بنفسه أحسن تفسيراً^٢، فهل هناك حاجة إلى تفسير؟

نعم، أنزل الله الكتاب ليكون بذاته بياناً للناس عامة وتفصيلاً لكل شيء^٣، غير أن بواعث الإيهام أمر عارض، ولعله كان من طبيعة البيان القرآني، جاء تشريعاً للأصول والمباني، وأجمل في البيان إيكالاً إلى تبيين النبي ﷺ ليبين للناس تفاصيل ما أنزل إليهم^٤.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «إن رسول الله ﷺ نزلت عليه الصلاة ولم يُسم لهم ثلاثاً ولا أربعاً، حتى كان رسول الله ﷺ هو الذي فسر لهم ذلك»^٥.

هذا جانب من الإجمال (الإيهام) الحاصل في وجه لثيف من آيات الأحكام، ولعله طبيعي في مثل البيان القرآني، كما نبهنا.

* * *

١. قال تعالى: «بما أنزلنا إليك الكتاب نوراً وهدى وبصائر للناس وهدى وبصائر للناس» (١٧٤: ١٧٤). «فما بيان للناس وهدى وبصائر للناس» (١٧٤: ١٧٤). «فما بيان للناس وهدى وبصائر للناس» (١٧٤: ١٧٤).

٢. «ولا يأتيك من القرآن شيء إلا جاءك باعق وأحسن تفسيراً» (٣٨: ٣٨). «فما بيان للناس وهدى وبصائر للناس» (١٧٤: ١٧٤).

٣. «و هو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً» (١٧٤: ١٧٤). «فما بيان للناس وهدى وبصائر للناس» (١٧٤: ١٧٤).

٤. «و أنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون» (١٧٤: ١٧٤).

٥. الكافي للكليني، ج ١، ص ٢٨٦.

و جانب آخر أهم: احتواء القرآن على معانٍ دقيقة ومفاهيم رقيقة، تنبؤك عن كمون الخليقة وأسرار الوجود، هي تعاليم وحكم راقية جاء بها القرآن، وكانت فوق مستوى البشرية آنذاك؛ ليقوم النبي ﷺ بتبيينها وشرح تفاصيلها، وكذا صحابته العلماء «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ».

و ذلك في مثل صفاته تعالى - الجلال والجمال -، ومعرفة وجود الإنسان، وسر خلقه، ومقدار تصرفه في الحياة، والهدف من الخلق والإيجاد، ومسائل المبدأ والمعاد. كل ذلك جاء في القرآن في إشارات عابرة، وفي ألفاظ وتعبير كنائية، واستعارة ومجاز؛ فكان حلها والكشف عن معانيها بحاجة إلى فقه ودراسة وتدبر، وإمعان نظر وتفكير.

و أيضاً فإن في القرآن إلماعات إلى حوامث عابرة وأمم خالية، جاء ذكرها لأجل العظة والاعتبار، إلى جنب عادات جاهلية كانت معاصرة، عارضها وشدت النكير عليها، في مثل مسألة النسيء، وأنها زيادة في الكفر^١، ونهي عن دخول البيوت من ظهورها^٢، ونحو ذلك، فاستكرها عليهم وعشهم عليها حتى أبادها، وقطعها من جذورها، فلم يبق منها سوى إشارات عابرة، لولا الوقوف عليها، لما أمكن فهم معاني تلكم الآيات.

كما تعرض لأمر أتى عليها من وجه كليتها وأهمل جانب تعيينها، فجاءت مجملة هي بحاجة إلى شرح وبيان، في مثل الدابة التي تخرج من الأرض فتكلم الناس^٣، والبرهان الذي عصم يوسف من ارتكاب الإثم^٤.

هذا مضافاً إلى غرائب اللغة التي جاءت في القرآن على أفصحها وأبلغها، وإن كان صعباً فهمها على عامة الناس، لولا الشرح والبيان.

٢. التوبة (٩): ٣٧.

٤. النمل (٣٧): ٨٢.

١. الجمعة (٦٢): ٢.

٣. البقرة (٢): ٨٩.

٥. يوسف (١٢): ٢٤.

قال الراغب: فالتفسير إنما أن يستعمل في غريب الألفاظ، نحو «التحيرة» و«السائبة» و«الوصيلة» أو في وجيز كلام يبين ويشرح، كقوله: «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ»^١ أو في كلام مضمّن بقصّة لا يمكن تصوّره إلا بمعرفتها، نحو قوله تعالى: «إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ»^٢ وقوله: «وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا النِّبُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا»^٣.

* * *

قال الإمام بدر الدين الزركشي: التفسير: علم يعرف به فهم كتاب الله، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه، وأن الله إنما خاطب خلقه بما يفهمونه؛ ولذلك أرسل كل رسول بلسان قومه، وأنزل كتابه على لغتهم.

و القرآن إنما أنزل بلسان عربي مبين في زمن أفصح العرب، وكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه، وإنما احتيج إلى التفسير، لما فيه من دقائق باطنة لا تظهر إلا بعد البحث والنظر، مع سؤال النبي ﷺ عنها في الأكثر، كسؤالهم لما نزل: «وَلَمْ يَكْنُسُوا إِمَائِهِمْ بِظُلْمٍ»^٤، فقالوا: أين لم يظلم نفسه! ففسره النبي ﷺ بالشرك، واستدل بقوله تعالى: «إِنَّ الشُّرَكَاءَ لَظُلُمٌ عَظِيمٌ»^٥، وكسؤال عائشة عن الحساب اليسير^٦، فقال: «ذلك العرض، ومن نوقش الحساب عذب»^٧، وكقصّة عدي بن حاتم في المحيط الذي وضعه تحت وسادته^٨، وغير ذلك مما سأله عن آحاد منه^٩.

قال: ولم ينتقل إلينا عنهم تفسير القرآن وتأويله بجملة، فنحن نحتاج إلى ما كانوا

١. المائدة (٥): ١٠٣. قال الراغب: التحيرة هي الشاقة إذا ولدت عشرة أبطن، شقوا أنفسهم وتركوها، فلا تركب ولا يحمل عليها. والسائبة: إذا ولدت خمسة أبطن، تسمى في المرح: فلا ترد عن حوض ولا كلام. والوصيلة: إذا ولدت الشاة ثورين ذكراً وأنثى، فلا يذبح الذكور ويقال: ولدت أخواها، فيتركونه لأجها، والحام: النحل إذا غريب، عشرة أبطن، كان يقال: حمي حبه، فلا يركب.

٢. البقرة (٩): ٣٧. ٣. البقرة (٢): ٨٨٩. راجع: مقدمته للتفسير ص ٤٨-٤٩.

٤. الأنعام (٦): ٨٣. ٥. لقمان (٣١): ٨٣.

٦. في قوله تعالى: «فَأَلَّا مِنْ أَوْفَى كِتَابِهِ يَنْبِيهِ مُصْرَفٌ بِحَاشِبٍ جَسَافاً يَسِيرًا» (الأشفاق: ٨٤): ٨٧.

٧. تفسير الصوري: ج ٣٠، ص ٨٤. ٨. المصدر نفسه: ج ٢، ص ٨٠٠.

٩. سوف نذكر نماذج من تفاسير مأثورة عن النبي ﷺ عند الكلام عن التفسير في عهد الرسالة.

يحتاجون إليه وزيادة؛ لتصورنا عن مدارك أحكام اللغة بغير تعلم، فنحن أشد الناس احتياجاً إلى التفسير.

قال: ومعلوم أن تفسير القرآن يكون بعضه من قبيل بسط الألفاظ الوجيهة وكشف معانيها، وبعضه من قبيل ترجيح بعض الاحتمالات على بعض؛ لبلاغته ولطف معانيه؛ ولهذا لا يستغنى عن قانون عام يعول في تفسيره عليه، ويرجع في تفسيره إليه، من معرفة مفردات ألفاظه ومركباتها، وسياقه، وظاهره وباطنه، وغير ذلك مما لا يدخل تحت الوهم، ويدق عنه الفهم.

بين أقوالهم حديث قصير هو سحر، وما سواه كلام

و في هذا تتفاوت الأذهان، وتتسابق في النظر إليه مسابقة الرهان. فمن سابق بنهمه، ورأى كبد الرمية بسهمه، وآخر رمى فأشوى^١ وخط في النظر خط عشواء، كما قيل: وأين الرقيق من المركب، وأين الزلال من الرهاق^٢.



الفرق بين التفسير والتأويل

كان التأويل في استعمال السلف مترادفاً مع التفسير، وقد دأب عليه أبو جعفر الطبري في جامع البيان. لكنه في مصطلح المتأخرين جاء متغايراً مع التفسير، وربما أخص منه. التفسير - كما عرفت - رفع الإيهام عن اللفظ المشكل، فمورده: إيهام المعنى بسبب تعقيد^٣ حاصل في اللفظ.

وأما التأويل فهو دفع الشبهة عن المتشابه من الأقوال والأفعال، فمورده حصول شبهة في قول أو عمل، أوجبت خفاء الحقيقة (الهدف الأقصى أو المعنى المراد) فالتأويل إزاحة هذا الخفاء.

١. يقال: أشوى الرجل، إذا أصاب شواء، ولم يصب مقصده. وأشوى: يخطئ الرأس وجده. وأشوى السهم: أخطأ الغرض.

٢. البرهان في علوم القرآن للزركلي، ج ١، ص ١٣٥-١٣٦. والزلال: الماء المر لا يهائي شربه.

٣. والتعقيد أسباب: لفظية ومعنوية مر شرحها.

فالتأويل - مضافاً إلى أنه رفع إيهام - فهو دفع شبهة أيضاً، فحيث كان تشابه في اللفظ كان إيهام في وجه المعنى أيضاً، فهو دفع ورفع معاً.
و لتكلم شيئاً في التأويل، في حقيقته و المعاني التي جاء استعمالها في القرآن و الحديث، و ما قيل أو قد يقال فيه.

* * *

التأويل: من الأول، وهو الرجوع إلى حيث المبدأ؛ فتأويل الشيء إرجاعه إلى أصله و حقيقته، فكان تأويل المتشابه توجيه ظاهره إلى حيث مستقر واقعه الأصيل.
و التشابه قد يكون في كلام إذا أوجب ظاهر تعبيره شبهة في نفس السامع، أو كان مثاراً للشبهة - كما في متشابهات القرآن -، كان يتبعها أهل التزيغ ابتغاء الفتنة و ابتغاء تأويلها، إلى حيث أهدافهم الخبيثة.

و قد يكون التشابه في عمل كان ظاهره مريباً، كما في أعمال قام بها صاحب موسى؛ بحيث لم يستطع موسى الصبر عليها دون استجوابه، و السؤال عن تصرفاته تلك المريبة؛ و قد بحثنا عن المتشابهات و أنواعها، و الأسباب الموجبة لوقوع التشابه في القرآن، في الجزء الثالث من التمهيد.

و الآن فلنذكر المعاني التي يحملها لفظ «التأويل» في عرف القرآن و استعمال السلف.

معاني التأويل

جاء استعمال لفظ «التأويل» في القرآن على ثلاثة وجوه:

١- تأويل المتشابه، بمعنى توجيهه حيث يصح و يقبله العقل و النقل، إما في تشابه القول، كما في قوله تعالى: «فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ...»^١، أو في تشابه الفعل، كما في قوله: «سَأْتِزُوكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا»، «ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا»^٢.

١. الكهف (١٨): ٧٨، ٨٢.

٢. آل عمران (٣): ٧٠.

٢- تعبير الرؤيا، وقد جاء مكرراً في سورة يوسف في تمانية مواضع: (٦، ٢١، ٣٦، ٣٧، ٤٤، ٤٥، ١٠٠ و ١٠١).

٣- مآل الأمر وعاقبته، وما ينتهي إليه الأمر في نهاية المطاف، قال تعالى: «وَرِئُوا بِانْقِطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا»^١، أي أعود نفعاً وأحسن عاقبة. ولعل منه قوله: «... فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا»^٢، أي ألتج فائدة وأفضل مآلاً.

و يحتمل أوجه تفسيراً وأتقن تخريجاً للمعنى المراد، نظير قوله تعالى: «وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ»^٣، وقال تعالى: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ»^٤، أي هل ينظرون ماذا يؤول إليه أمر الشريعة والقرآن، لكن لا يطول بهم الانتظار: «يَوْمَ يَكُونُ الْمَلَكُ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ»^٥، «كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَكُونُ مَا يُوْعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ»^٦، «وَلَا تَحِينَ مَنَاصٍ»^٧.

٤- والمعنى الرابع - للتأويل - جاء استعماله في كلام السلف: مفهوم عام، منزع من فحوى الآية الواردة بشأن خاص؛ حيث العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص المورد. وقد عبّر عنه بالبطن المنطوي عليه دلالة الآية في واقع المراد، في مقابلة الظاهر المدلول عليه بالوضع والاستعمال، حسب ظاهر الكلام. قال رسول الله ﷺ: «ما في القرآن آية إلا ولها ظن و بطن».

سئل الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام عن هذا الحديث المأثور عن رسول الله ﷺ، فقال: «ظهره تنزيله وبطنه تأويله، منه ما قد مضى ومنه ما لم يكن، يجري كما تجري الشمس والقمر»^٨.

١. الإسراء (١٧): ٣٥
٢. النساء (٤): ٨٣
٣. الفرقان (٢٥): ٥٢
٤. عن (٣٨): ٢٠
٥. النساء (٤): ٥٩
٦. الأعراف (٧): ٥٣
٧. الاحقاف (٤٦): ٣٥
٨. بصائر الدرجات للصّادق عليه السلام: ١٩٦

و قال ﷺ: «و لو أن الآية إذا نزلت في قوم ثم مات أولئك القوم، ماتت الآية، لما بقي من القرآن شيء. ولكن القرآن يجري أوله على آخره، ما دامت السماوات والأرض، ولكل قوم آية يتلوننها، وهم منها من خير أو شر»^١.

و في الحديث عنه ﷺ: «إن فيكم من يقاتل على تأويل القرآن، كما قاتلت على تنزيله، وهو علي بن أبي طالب»^٢.

فإنه ﷺ قاتل على تنزيل القرآن؛ حيث كان ينزل بشأن قريش ومشركي العرب ممن عاند الحق وعارض ظهور الإسلام. أما علي عليه السلام فقد قاتل أشباه القوم ممن عارضوا بناء الإسلام، على نمط معارضة أسلافهم في البدء.

و لهذا المعنى عرض عريض، ولعله هو الكافل لشمول القرآن وعمومه لكل الأزمان والأحيان. فلو لا تلك المفاهيم العامة، المنتزعة من موارد خاصة - وردت الآية بشأنها بالذات - لما بقيت لأكثر الآيات كثير فائدة، سوى تلاوتها وتربيلها ليل نهار.

و إليك بعض الأمثلة على ذلك:



مفاهيم عامة منتزعة من الآيات

قال تعالى: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ»^٣.
نزلت بشأن غنائم بدر، وغاية ما هناك أن عمّت غنائم جميع الحروب، على شرائطها. لكن الإمام أبا جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام نراه يأخذ بعموم الموصول، ويفسر «الغنيمة» بمطلق الثائدة، وأرباح المكاسب والتجارات، يربحها أرباب الصناعات والتجارات وغيرهم طول عامهم، في كل سنة بشكل عام.

قال ﷺ: «فأما الغنائم والفوائد فهي واجبة عليهم في كل عام، قال الله تعالى: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ».

٣. المصدر نفسه: ص ١٥ رقم ٦٠.

١. تفسير العنبري: ج ١، ص ١٠٠ رقم ٧.

٢. الأنفال (٨): ٤١.

و هكذا عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام: «الخُص في كلِّ ما أفاد الناس من قليل أو كثير»^١.

* * *

و قال تعالى: «وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ»^٢.
نزلت بشأن الإعداد للجهاد، دفاعاً عن حريم الإسلام، فكان مفروضاً على أصحاب التروات القيام بنفقات الجهاد، دون سيطرة العدو الذي لا يُبقي ولا يذر.
لكن «السبيل» لا يعني القتال فحسب، فهو يعم سبيل إعلاء كلمة الدين و تحكيم كلمة الله في الأرض، و يتلخص في تثبيت أركان الحكم الإسلامي في البلاد، في جميع أبعاده: الإداري و الاجتماعي و التربوي و السياسي و العسكري، و ما شابه. و هذا إنما يقوم بالمال؛ حيث المال طاقة يمكن تبديلها إلى أي طاقة شئت، و من ثم قالوا: قوام الملك بالمال.. فالدولة القائمة بذاتها إنما تكون قائمة إذا كانت تملك التروة اللازمة لإدارة البلاد في جميع مناحيها.

و هذا المال يجب توفره على أيدي العاشين تحت لواء الدولة الحاكمة، و يكون مفروضاً عليهم دفع الضرائب و المبيعات كل حسب مكنته و تروته، الأمر الذي يكون شيئاً وراء الأخماس و الزكوات التي لها مصارف خاصة، لا تعني شؤون الدولة فحسب.
و هذه هي (الضرائب) التي يكون تقديرها و توزيعها على الأموال و الممتلكات، حسب حاجة الدولة و تقديرها، و من ثم لم يتعين جانب تقديرها في الشريعة، على خلاف الزكوات و الأخماس؛ حيث تعين المقدار و المصروف و المورد فيها بالنص.
فقد فرض الإمام أمير المؤمنين عليه السلام على الخيل العتاق في كلِّ فرس في كلِّ عام دينارين، و على البراذين ديناراً^٣.

١. وسائل الشيعة للبحر العاصي: ج ٦، ص ٣٥٠، كتاب الخمس، باب ٨، رقم ٥ و ٦.

٢. وسائل الشيعة: ج ٦، ص ٥١.

٣. البقرة (٢): ١٩٥.

ضابطة التأويل

و مما يجدر التنبيه له أن للأخذ بدلائل الكلام - سواء أكانت جليّة أم خفيّة - شرائط ومعايير، لا بدّ من مراعاتها للحصول على الفهم الدقيق. فكما أن لتفسير الكلام - وهو الكشف عن المعاني الظاهرية للمقرآن - قواعد وأصولاً مقرّرة في علمي الأصول والمنطق، كذلك كانت لتأويل الكلام - وهو الحصول على المعاني الباطنية للمقرآن - شرائط ومعايير، لا ينبغي إغفالها وإلا كان تأويلاً بغير مقياس، بل كان من التفسير بالرأي الممقوت.

و ليعلم أن التأويل - وهو من الدلالات الباطنة (الخفيّة) للكلام - داخل في قسم الدلالات الالتزامية غير البيّنة، فهو من دلالة الألفاظ لكنّها غير البيّنة، ودلالة الألفاظ جميعاً مبتنية على مقاييس يشرحها علم الميزان؛ فكان التأويل - وهو دلالة خفيّة - بحاجة إلى معيار معروف كي يخرج منه عن كونه تفسيراً بالرأي.

فمن شرائط التأويل الصحيح - أي التأويل المتبول في مقابلة التأويل المرفوض - أولاً: رعاية المناسبة القرية بين ظهر الكلام وبطنه^١، أي بين الدلالة الظاهرة وهذه الدلالة الباطنة للكلام، فلا تكون أجنبيّة، لا مناسبة بينها وبين اللفظ بدءاً. فإذا كان التأويل - كما عرفناه - هو المفهوم العام المنتزع من فحوى الكلام، كان لا بدّ أن هناك مناسبة لفظيّة أو معنويّة استدعت هذا الانتزاع.

مثلاً: لفظة «الميزان» وضعت لألة الوزن المعروفة ذات الكفتين، وقد جاء الأمر بإقامتها وعدم البخس فيها، في قوله تعالى: «وَأَقِيمُوا الزُّنْ بِالنِّقْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ»^٢.

لكنّا إذا جرّدنا اللفظ من قرائن الوضع وغيره وأخلصناه من ملابسات الأنس المذهني،

١. بحيث يكون المفهوم العام المنتزع من بين الآية صالحاً للتطبيق على فروعها انضائي الكي على مصاديقه، حسبما يتّ في موارد من أمتة، ومنها: آية الميزان من أهل الذكر، حيث كان وجوب الرجوع إلى العالم، هي الكبرى الكيّة المستخرجة من بين الآية، وقد انضبت على مورد نزولها بالمنااسبة.

٢. الرحمن (٥٥): ٩.

فقد أخذنا بمفهومة العام: كل ما يوزن به الشيء، أي شيء، كان مادياً أم معنوياً، فإنه يشمل كل مقياس أو معيار كان يقاس به أو يوزن به في جميع شؤون الحياة، ولا يختص بهذه الآلة المادية فحسب.

قال الشيخ أبو جعفر الطوسي: فالميزان آلة التعديل في النقصان والرجحان، والوزن يعدل في ذلك، ولولا الميزان لتعدّر الوصول إلى كثير من الحقوق؛ فلذلك نبّه تعالى على النعمة فيه والهداية إليه. وقيل: المراد بالميزان: العدل؛ لأنّ المعادلة موازنة الأسباب.

و روى محمد بن العباس المعروف بماهيار (ت. ح ٣٣٠) - في كتابه الذي وضعه لبيان تأويل الآيات - بإسناده إلى الإمام الصادق عليه السلام قال: الميزان الذي وضعه الله للأنام، هو الإمام العادل الذي يحكم بالعدل، وبالعدل تقوم السماوات والأرض، وقد أمر الناس أن لا يطغوا عليه ويطيعوه بالتسبط والعدل، ولا يبغسوا من حقه، أو يتوانوا في امتثال أوامره.



و هكذا قوله تعالى: «قُلْ أَزَايِمُ مَنْ أَصْبَحَ مَلُوكُكُمْ غُوراً مَنْ يَأْتِيَكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ»^٢ كانت دلالة الآية في ظاهر تعبيرها واضحة؛ إنّ نعمة الوجود ووسائل العيش والتداوم في الحياة، كلّها مرهونة بإرادته تعالى وفق تدبيره الشامل لكافة أنحاء الوجود. والله تعالى هو الذي مهّد هذه البسيطة لإمكان الحياة عليها، ولولا فضل الله ورحمته لعباده لضاقت عليهم الأرض بما رحبت.

هذا هو ظاهر الآية الكريمة، حسب دلالة الوضع والمفاهيم العامّة. ولالإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام بيان يمسّ جانب باطن الآية ودلالة فحواها العام، قال:

١. البيان للشيخ الطوسي، ج ١، ص ٤٦٣.

٢. نقلاً بالمعنى، راجع: قويل الآيات الظاهرة للسيد شرف الدين الأسير الباقري، ج ٢، ص ٦٣٢-٦٣٣.

٣. الملك (٦٧)، ٣٠.

«إذا فقدتم إمامكم فلم تروه فماذا تصنعون».

وقال الإمام عليّ الرضا عليه السلام: «ماؤكم: أبوابكم الأئمة، والأئمة: أبواب الله، فمن يأتاكم بماء معين، أي يأتاكم بعلم الإمام»^١.

لا شك أن استعارة «الماء المعين» للمعلم النافع، ولا سيما المستند إلى وحي السماء - من نبي أو وصي نبي - أمر معروف ومتناسب لا غبار عليه.

فكما أن الماء أصل الحياة المادية والمنشأ الأول لإمكان المعيشة على الأرض، كذلك العلم النافع. وعلم الشريعة بالذات، هو الأساس لإمكان الحياة المعنوية التي هي سعادة الوجود والبقاء مع الخلود.

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ»^٢.

«لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ»^٣.

فهنا قد لوحظ الماء - وهو أصل الحياة - في مفهومه العام المنتزع منه الشامل للعلم، فيعم الحياة المادية والمعنوية.

مرکز تحقیق و ترویج علوم و معارف

و أيضاً قوله تعالى: «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ...»^٤، أي فليتمعن النظر في طعامه، كيف عملت الطبيعة في تهيئته و تمهيد إمكان الحصول عليه، ولم يأت به عفواً، ومن غير سابقة مقدّمات و تمهيدات. لو أمعن النظر فيها؛ لعرف مقدار فضله تعالى عليه، ولطفه و رحمته؛ وبذلك يكون تناول الطعام له سائغاً، ومستدعياً للقيام بالشكر الواجب.

هذا، وقد روى ثقة الإسلام الكليني بإسناده إلى زيد الشحام، قال: سألت الإمام جعفر ابن محمد الصادق عليه السلام قلت: ما طعامه؟ قال: «علمه الذي يأخذه عمن يأخذه»^٥.

١. تفسير الصافي لفيض الكاشاني، ج ٣، ص ٨٢٧، وراجع: تأويل الآيات الظاهرة، ج ٢، ص ٨٠٨.

٢. الأنفال (٨): ٢٤.

٣. البقرة (٢): ١٢٩.

٤. البقرة (٢): ٢١٧.

٥. البرهان في تفسير القرآن لبحراني، ج ٤، ص ٤٣٩.

و المناسبة هنا - أيضاً - ظاهرة؛ لأن العلم غذاء الروح، ولا بد من الاحتياط في الأخذ من منابعه الأصيلة، ولا سيما علم الشريعة وأحكام المدين الحنيف.

و ثانياً: مراعاة النظم والدقة في إلغاء الخصوصيات المكتنفة بالكلام؛ ليخلص صفوه ويجلو لبابه في مفهومه العام، الأمر الذي يكفله قانون «السبر والتقسيم» من قوانين علم الميزان (علم المنطق) والمعبر عنه في علم الأصول: بتنقيح المناط، الذي يستعمله الفقهاء للموقوف على الملائك القطعي لحكم شرعي؛ ليدور التكليف أو الوضع معه نفيًا وإيجابًا، ولتكون العبرة بعموم الفحوى المستفاد، لا بخصوص العنوان الوارد في لسان الدليل. وهذا أمر معروف في الفقه، وله شرائط معروفة.

و مثال تطبيقه على معنى قرآني، قوله تعالى - حكاية عن موسى عليه السلام -: «قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ»^١.

هذه قوله نبي الله موسى عليه السلام قالها تعهداً منه لله تعالى، تجاه ما أنعم عليه من البسطة في العلم والجسم: «وَمَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ أَيْمَانَهُ حَكَمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ»^٢ قضى على عدو له بوكزة وكزه بها، فحسب أنه قد فرط منه ما لا ينبغي له، فاستغفر ربه فغفر له. فقال ذلك تعهداً منه لله، أن لا يستخدم قواه وقدره الذاتية، والتي منحها الله بها، في سبيل الفساد في الأرض، ولا يجعل ما آتاه الله من إمكانيات معنوية ومادية في خدمة أهل الإجرام.

هذا ما يخص الآية في ظاهر تعبيرها بالذات.

و هل هذا أمر يخص موسى عليه السلام لكونه نبياً ومن الصالحين، أم هو حكم عقلي بات يشمل عامة أصحاب القدرات، من علماء وأدباء وحكماء وأرباب صنائع وفنون، وكل من آتاه الله العلم والحكمة وفصل الخطاب؟ لا ينبغي في شريعة العقل أن يجعل ذلك ذريعة سهلة في تناول أهل العبث والاستكبار في الأرض، بل يجعلها وسيلة ناجحة في

٢. القصص (٢٨) ١٤١.

١. القصص (٢٨) ١٧١.

سبيل إسعاد العباد وإحياء البلاد «هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا»^١.
 و هذا الفحوى العام للآية الكريمة إنما يعرف وفق قانون «السبر والتقسيم» وإلغاء
 الخصوصيات المكتشفة بالموضوع، فيستفح ملاك الحكم العام.
 و في القرآن كثير من هذا القبيل، إنما الشأن في إمعان النظر والتدبر في الذكر الحكيم؛
 وبذلك يبدو وجه استفادة فرض الأخماس من آية الغنيمة، ودفع الضرائب من آية
 الإنفاق في سبيل الله.

* * *

و عليه فالمعيار لصحة التأويل، أن يصبح هذا الفحوى العام المستخرج من بطن الآية،
 بمنزلة كبرى كلية و جامعاً شمولياً يستوعب مورد التنزيل، شمول الكلّي العام لمصادقه
 الخاص، و ليكون دليلاً عليه عقلياً، كما في آية السؤال؛ فإن العام المستحصل - وهو على
 الجاهل أن يراجع العالم فيما لا يعلمه - دليل عام منطبق على مورد التنزيل؛ حيث جهل
 المشركين بمسألة يعلمها أهل الكتاب.
 و هذه هي المناسبة القرينة بين التنزيل والتأويل (الفهر والبطن) والتي اشترطها
 الإمام الشاطبي قيده في صحة التأويل؛
 اشترط لكون الباطن مراداً من الخطاب شرطين:
 أحدهما: أن يصح على مقتضى الظاهر المتقرر في لسان العرب، ويجري على المقاصد
 العربية.

و الثاني: أن يكون له شاهد نصاً أو ظاهراً في محل آخر، يشهد لصحته من غير
 معارض^٢.
 و قد استوفينا شرح كلامه عند البحث عن شرائط التأويل، في مقدمة تفسيرنا الأثري
 الجامع، فراجع.

١. راجع الموافقات للشافعي، ج ٣، ص ٣٩٤.

٢. هود (١١): ٦٧.

مزايم في التأويل

هناك من حسب من تأويل القرآن شيئاً وراء المفاهيم الذهنية أو التعابير الكلامية، وكان من نمط الأعيان الخارجية، وكان ما ورد في القرآن من حكم و آداب و تكاليف و أحكام كلها تعود إليه؛ إذ تنترع منه و تنتهي إليه في نهاية المطاف، فكان ذلك تأويلاً للقرآن في جميع آياته الكريمة.

و قد اختلفوا في تبين تلك الحقيقة التي تعود إليها جميع الحقائق القرآنية في أصول معارفه و الأحكام:

ذكر ابن تيمية - في رسالة وضعها بشأن المتشابه و التأويل - : أن التأويل في عرف المتأخرين صرف اللفظ عن معناه الراجح إلى معنى مرجوح؛ لدليل يقتضيه. فالتأويل - على هذا - يحتاج إلى دليل، و المتأول عليه وظيفتان: بيان احتمال اللفظ للمعنى الذي يدعيه، و بيان الدليل الموجب للمعنى الذي يدعيه عن المعنى الظاهر.

قال: و أمّا التأويل - في عرف السلف - فله معنيان: أحدهما: ما يرادف التفسير و البيان، و هو الذي عنه مجاهد بقوله: إن العلماء يعلمون تأويل القرآن، أي تفسيره و تبينه. و الثاني: نفس المراد بالكلام، إن كان طلب فتأويله نفس العمل المطلوب، وإن كان خبراً فتأويله نفس الشيء المختار به.

قال: و بين هذا المعنى - الأخير - و الذي قبله - الذي جاء أولاً في عرف السلف، و الذي جاء في عرف المتأخرين - بون؛ فإن الذي قبله يكون التأويل فيه من باب العلم و الكلام كال تفسير و الشرح و الإيضاح، و يكون وجود التأويل في القلب و اللسان، له الوجود الذهني و اللفظي و الرسمي.

و أمّا هذا - المعنى الثاني في عرف السلف - فتأويل فيه نفس الأمور الموجودة في الخارج، سواء كانت ماضية أو مستقبلية. فإذا قيل: طلعت الشمس، فتأويل هذا نفس طلوعها.

قال: و هذا الوضع و العرف الثالث - الذي جاء ثانياً في عرف السلف - هو لغة القرآن

التي نزل بها.

وقال في تفسير سورة الإخلاص - بعد كلام تفصيلي له عن تأويل المتشابه من الآيات، وأن الراسخين في العلم يعلمون تأويله، واستعظام أن يكون جبرائيل ومحمد ﷺ والصحابة والتابعون لهم بإحسان وأئمة المسلمين لا يعرفون تأويل متشابه القرآن، ويكون الله تعالى قد استأنر بعلم معاني هذه الآيات كما استأنر بعلم الساعة، وأنهم جميعاً كانوا يقرأون ألفاظاً لا ينهمون لها معنى، كما يقرأ أحدنا كلاماً ليس من لحنه فلا يعرف معناه، من قال ذلك فقد كذب على القوم، والمأثور عنهم متواتراً يناقض هذا الزعم، وأنهم يفهمون معنى المتشابه كما يفهمون معنى المحكم - قال بعد ذلك:

فإن قيل: هذا يتدح فيما ذكرتم من الفرق بين التأويل الذي يراد به التفسير، وبين التأويل الذي في كتاب الله.

قيل: لا يتدح في ذلك، فإن معرفة تفسير اللفظ ومعناه وتصوره في القلب، غير معرفة الحقيقة الموجودة في الخارج، المرادة بذلك الكلام. فإن الشيء له وجود في الأعيان، ووجود في الأذهان، ووجود في اللسان، ووجود في البيان، فالكلام لفظ له معنى في القلب، ويكتب ذلك اللفظ بالخط، فإذا عرف الكلام وتصور معناه في القلب وعبر عنه باللسان، فهذا غير الحقيقة الموجودة في الخارج، وليس كل من عرف الأول عرف عين الثاني.

مثال ذلك: أن أهل الكتاب يعلمون ما في كتبهم من صفة النبي ﷺ وخبره ونعته، وهذا معرفة الكلام ومعناه وتفسيره، وتأويل ذلك هو نفس محمد المبعوث؛ فالمعرفة بعينه معرفة تأويل ذلك الكلام.

وكذلك الإنسان قد يعرف الحجّ والمشاعر، كالبیت والمساجد ومنى وعرفة ومزدلفة، ويفهم معنى ذلك ولا يعرف الأمكنة حتى يشاهدها، فيعرف أن الكعبة

المشاهدة هي المذكورة في قوله: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ»^١ وكذلك أرض عرفات وغيرها.

وكذلك الرؤيا يراها الرجل، ويذكر له العابر تأويلها فيفهمه ويتصوره، ثم إذا كان ذلك فهو تأويل الرؤيا، ليس تأويلها نفس علمه وتصوره وكلامه؛ ولهذا قال يوسف الصديق: «هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ»^٢ وقال: «لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِي إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا»^٣ فقد نبأهما بالتأويل قبل أن يأتي التأويل، فنحن نعلم تأويل ما ذكر الله في القرآن من الوعد والوعيد، وإن كنا لا نعرف متى يقع هذا التأويل المذكور في قوله تعالى: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ»^٤.

* * *

وقد أشاد السيد محمد رشيد رضا (منشئ مجلة المنار المصرية) من هذه النظرة التيمية بشأن تأويل القرآن، وأعجبته غاية الإعجاب. قال - بعد أن ثقل عن شيخه الأستاذ محمد عبده، أن التأويل بمعنى ما يؤول إليه الشيء وينطبق عليه، لا بمعنى ما يفسر به^٥ - ليس في كتب التفسير المتداولة ما يروي الغليل في هذه المسألة، وما ذكرناه آنفاً هو صفوة ما قالوه، وخيرة كلام الأئمة الإمام. وقد رأينا أن نرجع بعد كتابته إلى كلام في المشابه والتأويل، لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية، فرجعنا إليه وقرأناه بإمعان، فإذا هو منتهى التحقيق والعرفان، والبيان الذي ليس وراءه بيان، أثبت فيه أنه ليس في القرآن كلام لا يفهم معناه، وأن المشابه إضافي إذا شبه فيه الضعيف لا يشبه فيه الراسخ، وأن

١. يوسف (١٣): ١٠٠.

٢. آل عمران (٣): ٩٧.

٣. يوسف (١٢): ٣٧.

٤. الأعراف (٧): ٥٣. راجع رسالته في تفسير سورة الإخلاص: ص ١٠٣-١٠٤. ونقده محمد رشيد رضا في تفسير المنار: ج ٣، ص ٩٩٥-٩٩٦.

٥. يرى الأستاذ عبده من مشابهات القرآن الأمور الأخروية التي ورد ذكرها في القرآن، لأنها من ضرورة الدين ومن مفاصل الوحي؛ حيث العقيدة بأحوال الآخرة من أركان الدين، فيجب الإيمان بها، الأمر الذي لا يمكن الوقوف على حقيقتها إلا بعد مشاهدتها في الآخرة، فهي تأويلها ذلك اليوم، كما قال تعالى: «يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُكُمْ بِقَوْلِ الَّذِينَ نُسِئْتُمْ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْحَقِّ» (الأعراف (٧): ٥٣) (المنار: ج ٣، ص ٩٦٧).

التأويل الذي لا يعلمه إلا الله تعالى هو ما تؤول إليه تلك الآيات في الواقع، ككيفية صفاته تعالى، وكيفية عالم الغيب، وكيفية قدرته تعالى وتعلقها بالإيجاد والإعدام، وكيفية استوائه على العرش، ولا كيفية عذاب أهل النار، ولا نعيم أهل الجنة، كما قال تعالى: «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ» فليست نار الآخرة كنار الدنيا، وإنما هي شيء آخر. وليست نمرات الجنة ولبنها وعسلها من جنس المعهود لنا في هذا العالم، وإنما هو شيء آخر يليق بذلك العالم ويناسبه.

قال: وإنا نبين ذلك بالإطناب الذي يحتمله المقام، مستمدّين من كلام هذا الجبر العظيم، ناقلين بعض ما كتبه^١، وجعل ينقل ما سرده ابن تيمية بإسهاب.

* * *

وهذا الذي ذكره ابن تيمية وأشاده رشيد رضا، لا يعدو ما يعود إليه أمر الشيء، أخذاً بالمفهوم اللغوي لمادة «التأويل». أمّا العين الخارجية بالذات فلعلّه من اشتباه المصداق بالمفهوم، فإن الوجود العيني للأشياء هي عين تشخصاتها المعبر عنها بالمصاديق الخارجية، ولم يعهد إطلاق لفظ «التأويل» على المصداق في متعارف الاستعمال إلا أن يكون من عرفهما الخاص، ولا مساحة في الاصطلاح.

و على أيّ تقدير، فإنّهما لم يأتيا بشيء جديد، فإنّ مسألة الوجودات الأربعة للأشياء (الذهني والمفطني والكتبي والعيني) أمر تعارف عليه أرباب المنطق منذ عهد قديم، إلا أن الشيء الذي لم يتعارف عليه هو إطلاق اسم «التأويل» على العين الخارجية، باعتبارها مصداقاً للوجودات الثلاثة المنتزعة عنها، سوى كونه مصطلحاً جديداً غير معروف.

* * *

ولسيّدنا العلامة الطباطبائي كلام تحقيقي لطيف حول مسألة «التأويل»، يراه متغائراً مع المفاهيم، بعيداً عن جنس الأنماط والمعاني والتعابير، وإنما هي حقائق راهنة،

موطنها خارج الأذهان والعبارات.

إنه يُعَرِّضُ لكلام ابن تيمية، فصَحَّحه من جهة، وخطَّاه من جهة أخرى؛ صحَّحه من جهة قوله: بشمول التأويل لجميع آي القرآن، محكمه ومتشابهه، وقوله: بأنه خارج الأذهان والعبارات. لكن خطَّاه في حصره للتأويل في العين الخارجية البحت، فإنه مصداق وليس بتأويل، إنما التأويل حقائق راهنة، هي مصالح واقعية وأهداف وغايات مقصودة من وراء التكليف والأحكام، وكذا الحكم والمواعظ والآداب، وحتى القصص والأخبار والآثار التي جاءت في القرآن. قال - مناقشاً لم رأي ابن تيمية -:

«إنه وإن أصاب في بعض كلامه، لكنه أخطأ في بعضه الآخر. إنه أصاب في القول: بأن التأويل لا يختص بالمتشابه، بل هو عام لجميع القرآن، وكذا القول: بأن التأويل ليس من سنخ المدلول اللغوي، بل هو أمر خارجي يُنتهى عليه الكلام. لكنه أخطأ في عد كل أمر خارجي مرتبط بمضمون الكلام - حتى معناه - بالأخبار الحاكية عن المحوادث الماضية والمستقبلية - تأويلاً للكلام».

ثم قال: «الحق في تفسير التأويل أنه الحقيقة الواقعية التي تستند إليها البيانات القرآنية، من حكم أو موعظة أو حكمة، وأنه موجود لجميع الآيات القرآنية محكمها ومتشابهها، وأنه ليس من قبيل المناهيم المدلول عليها بالألفاظ، بل هي من الأمور العينية المتعالية من أن يحيط بها شبكات الألفاظ. وإنما قيدها الله سبحانه بقيد الألفاظ لتقريبها من أذهاننا بعض التقريب، فهي كالأمتال تُضرب ليقرب بها المقاصد وتوضح، بحسب ما يناسب فهم السامع، كما قال تعالى: «وَإِن كِتَابَ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا نَعَلِّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا نَعْلِي حَكِيمٌ».

و قال - في شرح الآية -:

«إن هناك كتاباً مبيناً عرض عليه جعله مقروءاً عربياً، وإنما ليس لبأس القراءة

و العربية ليحقله الناس، وإلا فإنه - وهو في أم الكتاب - عند الله علي لا تصعد إليه العقول، حكيم لا يوجد فيه فصل وفصل. فالكتاب المبين - في الآية - هو أصل القرآن العربي المبين، والقرآن موقع هو في الكتاب المكنون، وأن النزول حصل بعده، وهو الذي عبر عنه بأم الكتاب وباللوح المحفوظ. فالكتاب المبين الذي هو أصل القرآن وحكمه الخالي عن التفصيل، أمر وراء هذا المنزل، وإنما هذا بمنزلة اللباس لذاك. إن هذا المعنى، أعني كون القرآن في مرتبة النزول بالنسبة إلى الكتاب المبين، ونحن نسميه بحقيقة الكتاب، بمنزلة اللباس من المتلبس، وبمنزلة المثال من الحقيقة، وبمنزلة المثال من الغرض المقصود بالكلام...»^١

و أضاف: «فالحقيقة الخارجية التي توجب تشريع حكم من الأحكام أو بيان معرفة من المعارف الإلهية أو وقوع حادثة هي مضمون قصة من القصص القرآنية، وإن لم تكن أمراً يدل عليه بالمطابقة نفس الأمر والنهي أو البيان أو الواقعة الكذائية، إلا أن الحكم أو البيان أو الحادثة، لما كان كل منها ينشأ منها ويظهر منها، فهو أثرها الحاكي لها بنحو من الحكاية والإشارة»^٢.

من تحت قبة علي

و أخيراً لمخص كلامه في بيان التأويل بما يلي: «التأويل في عرف القرآن هو الحقيقة التي يتضمنها الشيء، ويؤول إليها ويستني عليها، كتأويل الرؤيا، وهو تعبيرها، وتأويل الحكم، وهو ملاكه، وتأويل الفعل، وهو مصلحته وغايته الحقيقية، وتأويل الواقعة، وهو علتها الواقعية، وهكذا»^٣.

* * *

غير أن وقفة فاحصة عند كلام هذا المحقق العلامة، تجعلنا نتردد في التوافق معه، إنه لو كان اقتصر على ما لمخضه أخيراً، من جعل ملاكات الأحكام والمصالح والغايات الملحوظة في التشريعات والتكاليف تأويلاً، أي أصلاً لها ومرجعها الأساسي لكل ذلك

٢. المصدر نفسه: ج ٣، ص ٥٣.

١. المصدر نفسه: ج ٤، ص ١٦٨.

٣. المصدر نفسه: ج ١٣، ص ٣٧٦.

المذكور؛ لأننا مرافقته.

لكنه توسع في ذلك، وفرض من تأويل أي القرآن كلها أمراً بسيطاً ذا أحكام رصين، ليس فيه شيء من هذه التجزئة والتفصيل الموجود في القرآن الحاضر الذي يتداوله المسلمون منذ أول يومهم فالى ما لا نهاية، فإن ذلك عارٍ عن كونه آية وسورة، وجوداً واحداً بسيطاً صرفاً، مستقرٌ في محلٍ رفيع، في كتاب مكنون لا يمسّه إلا المطهرون. وفرض من القرآن ذا وجودين: وجوداً ظاهرياً يتشكل في ألفاظ وعبارات ذوات مفاهيم معروفة، وهو الذي يتلى ويُقرأ ويُدرس، ويتداوله الناس حسبما ألفوه طوال عهد الإسلام.

ووجوداً آخر باطنياً، هو وجوده الحقيقي الأصيل، المسترفِع عن أن تناله العقول والأحلام، فضلاً عن الأوهام، وذلك الوجود الحقيقي الرفيع هو تأويل القرآن، أي أصله ومرجعه الأصيل.

قال - بصدد بيان نزول القرآن دفعة واحدة في ليلة القدر من شهر رمضان، وأنه لم يكن هذا القرآن المتلو الذي بأيدي الناس، فإنه نزل تدريجاً بلا ريب -

«و الذي يعطيه التدبر في آيات الكتاب مرة أخرى، فإن الآيات الناطقة بنزول القرآن في شهر رمضان أو في ليلة القدر إنما عبرت عن ذلك بلفظ الإنزال الدال على الدفعة، دون التزليل، واعتبار الدفعة إنما بلحاظ المجموع أو البعض، وإما لكون الكتاب ذا حقيقة أخرى وراء ما نفهمه بالفهم العادي، الذي يقضي فيه بالفتق والتفصيل والانبساط والتدريج، هو المصحح لكونه واحداً غير تدريجي ونازلاً بالإنزال دون التزليل؛ وهذا هو الملائع من الآيات الكريمة: «كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ»^١ فإن هذا الإحكام مقابل التفصيل، والتفصيل هو جعله فصلاً فصلاً وقطعة قطعة؛ فالإحكام كونه بحيث لا يتفصل فيه جزء من جزء، ولا يتميز بعض من بعض؛ لرجوعه إلى معنى واحد لا أجزاء فيه ولا

فصول. والآية ناطقة بأن هذا التفصيل المشاهد في القرآن، إنما ظراً عليه بعد كونه محكماً غير منقطع، وأوضح منه قوله تعالى: «حُمِّ وَانكِابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدِينَا لَعَلِّي حَكِيمٌ»^١ فإنه ظاهر في أن هناك كتاباً مبيناً عرض عليه جعله مقروءاً عربياً، وإنما لبس لباس القراءة و العربية ليعقله الناس، وإلا فإنه في أم الكتاب، عند الله علي لا يصعد إليه العقول، حكيم لا يوجد فيه فصل فصل. فالكتاب المبين الذي هو أصل القرآن وحكمه الخالي عن التفصيل أمر وراء هذا المنزل وإنما هذا بمنزلة اللباس لذلك»^٢.

ثم أحال تمام الكلام إلى بيانه الآتي حول آية المتشابهات، قال هناك: «الحق في تفسير التأويل أنه الحقيقة الواقعية التي تستند إليها البيانات القرآنية، وأنه موجود لجميع الآيات، وأنه ليس من قبيل المفاهيم بل من الأمور العينية المتعالية من أن يحيط بها شبكات الألفاظ، وإنما قيدها الله بقيد الألفاظ لتقريبها من أذهانتنا، قال تعالى: «إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدِينَا لَعَلِّي حَكِيمٌ»^٣ وفي القرآن تصريحات و تلويحات بهذا المعنى»^٤.



وبعد، فلنتساءل: ما هو السبب الداعي لفرض وجودين للقرآن الكريم: وجوداً لديه تعالى في كتاب مكنون، لا يمسه إلا المطهرون، عارياً عن التجزئة والتفصيل، متعالياً عن شبكات الألفاظ والعبارات؛ ووجوداً أرضياً نزل تدريجياً لهداية الناس، وألبس لباس العربية لعلهم يعقلونه؟!

ولعلنا ننظر إلى قوله تعالى: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ...»^٥ وقوله: «حُمِّ وَانكِابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْرًا مِنْ

١. الميزان، ج ٣، ص ١٤٠-١٤١.

٢. الميزان، ج ٣، ص ٤٩.

٣. الزخرف (٤٣): ٤.

٤. الزخرف (٤٣): ٤.

٥. البقرة (٢): ١٨٥.

عندنا»^١ وقوله: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ...»^٢

و قد ورد في الحديث - من طرق الفريقين - : أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ جُمْلَةً وَاحِدَةً فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، ثُمَّ نَزَلَ تَدْرِيجًا طَوَالَ عَشْرِينَ عَامًا^٣.

و لذلك فرض علامتنا الطباطبائي وجودين للقرآن الكريم ونزولين. وكان نزوله التدفيعي بوجوده البسيط الذي كان بمنزلة الروح لهذا القرآن، النازل تدريجياً بوجوده التفصيلي.

و بذلك نراه قد جمع بين ظواهر الآيات ودلالة الروايات، وأيد ذلك بالفارق اللغوي بين لفظتي «الإنزال» و «التنزيل».

* * *

لكن تشریف شهر رمضان إنما كان بنزول هذا القرآن المعهود لدى المخاطبين بهذا الخطاب، لا بأمر لا يعرفونه!

على أَنَّ الْقُرْآنَ النَّازِلَ فِي هَذَا الشَّهْرِ، قَدْ وَصِفَ بِكَوْنِهِ «هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ»^٤ و معلوم أَنَّ الهداية والبيّنات، إنما هي بهذا الكتاب الذي يتداولونه، لا بكتاب مكنون عند الله، محفوظ لديه في مكان علي، لا لكافة الأيدي والأبصار.

كما أَنَّ الَّذِي يَبْتَغِيهِ أَهْلُ الرِّيْغِ لِأَجْلِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، هُوَ تَفْسِيرُ الْآيَاتِ عَلَى غَيْرِ وَجْهِهَا، لَا وَجُوداً آخَرَ لِلْقُرْآنِ، هُوَ فِي أَعْلَىٰ عِلِّيِّينَ.

فَقَوْلُهُ ﷻ: «وَأَنَّهُ مَوْجُودٌ لِجَمِيعِ الْآيَاتِ مُحْكَمٌ وَمُتَشَابِهٌ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ قَبِيلِ الْمَنَاهِمِ بَلْ مِنَ الْأُمُورِ الْعَيْنِيَّةِ الْمُتَعَالِيَةِ مِنْ أَن يَحِيطَ بِهَا شَبَكَاتُ الْأَلْفَاظِ...» غير مفهوم لنا.

* * *

و الفرق بين «الإنزال» و «التنزيل» أمر أبده المرائب الأصهبائي، ولا شاهد له. قال: وإِنَّمَا خَصَّ لَفْظَ الْإِنْزَالِ دُونَ التَّنْزِيلِ؛ لِمَا رُوِيَ أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ دَفْعَةً وَاحِدَةً إِلَى

١. البخاري (٤٤٤) : ٥٠١.

٢. القدر (٩٧) : ١٧.

٣. بحار الأنوار للمجسبي، ج ٩، ص ١٤٠ رقم ٢٣.

٤. البقرة (٢) : ١٢٥.

سمااء الدنيا، ثم نزل نجماً فنجماً. ولفظ الإنزال أعم من التنزيل، قال: «لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ» ولم يقل: لو نزلنا، تنبيهاً إننا لو خولناه مرة ما خولناك مراراً «لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً»^١ و يَرُدُّ عَلَيْهِ مَا حَكَاهُ اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِ الْعَرَبُ: «لَوْ لَا نَزَّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمَّةً وَاحِدَةً»^٢، وكذلك قوله تعالى: «وَقَالُوا لَوْ لَا نَزَّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ»^٣، وقوله: «وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ»^٤، وقوله: «وَلَوْ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرطاسٍ فَلَمَسُوهُ...»^٥، وقوله: «لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَنَكًا رَسُولًا»^٦، كما جمع بين التعبيرين بشأن أمر واحد في قوله تعالى: «وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ»^٧.

كما جاء استعمال «الإنزال» بشأن التدريجيات أيضاً:

«أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ»^٨، «هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ»^٩، لأن الكتاب الذي منه محكم ومتشابه، هو هذا الكتاب الذي نزل تدريجياً، «أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا»^{١٠}، إذ الذي نزل مفصلاً هو هذا القرآن الذي نزل منجماً.



وأخيراً فما هي الفائدة المتوخاة من وواء نزول القرآن دفعة واحدة إلى السماء الدنيا أو إلى السماء الرابعة، في البيت المعمور أو بيت العزة - على الاختلاف في ألفاظ الروايات -، ثم نزوله بعد ذلك تدريجياً في طول عهد الرسالة؟
و هل لوجود القرآن بوجوده البسيط الروحاني - في ذلك المكان الرفيع - فائدة تعود على أهل السماوات أو سكان الأرضين؟

و أجاب النخعي الرازي عن ذلك، وعلل وجود القرآن هناك، في مكان نزل من العرش

١. الفرقان (٢٥): ٣٢.

٢. محمد (٤٧): ٢٠.

٣. الإسراء (١٧): ٨٥.

٤. البقرة (٢): ٢٥٢.

٥. الأنعام (٦): ١١٤.

٦. الحجر (٥٩): ٢٦.

٧. الأنعام (٦): ٣٧.

٨. الأنعام (٦): ١١٤.

٩. النحل (١٦): ٤٤.

١٠. آل عمران (٣): ٧١.

و أقرب إلى الأرض؛ ليسهل تناول منه لجبرائيل عند مسيس الحاجة.^١
 و علل بعض الأساتذة المعاصرين ذلك، بأن الرابط بين ذلك القرآن المحفوظ لديه
 تعالى، وهذا القرآن المعروف على الناس، هو «رابط العلية» فكل ما في هذا القرآن من
 حكم و مواعظ و آداب، و تعاليم و معارف و أحكام، إنما تنشأ متآ حواء ذلك القرآن، على
 بساطته و علو رفعة؛ فهذا الإشعاع من ذلك النور الساطع، و إفاضة من ذلك المقام الرفيع.^٢
 غير أن هذا كله تكلف في التأويل، و تمحل في القول بلا دليل، ولعلنا في غنى عن
 البسط فيه و التدليل.

و أمّا الآيات التي استندوا إليها لإثبات وجود آخر للقرآن محفوظ عند الله، في كتاب
 مكنون لا يمسه إلا المطهرون... فهي تعني أمراً آخر غير ما راموه.
 و ليعلم أن المقصود من الكتاب المكنون، هو: علم الله المخزون، المعبر عنه بـ «اللوح
 المحفوظ» أيضاً، وهكذا التعبير بـ «أم الكتاب» كناية عن علمه تعالى الذاتي الأزلي، بما
 يكون مع الأبد.

و قد ذكر العلامة الطباطبائي - في تفسير سورة الرعد - حديثاً عن الإمام الصادق عليه
 قال: «كل أمر يريد الله، فهو في علمه قبل أن يضعه، وليس شيء يبدوله إلا وقد كان في
 علمه»، قال: ذلك تفسير لقوله تعالى: «يَحْكُمُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ»^٣.
 فقوله تعالى: «وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ»^٤ يعني قضى الله في علمه الأزلي
 المحتم أن القرآن - في مسيرته الخالدة - سوف يشغل مقاماً علياً، مرفعاً عن أن تناله أيدي
 السفهاء، حكيماً مستحكما قوائمه، لا يتضعع و لا يتزلزل، يشق طريقه إلى الأمام
 بسلام.^٥ وكذا قوله: «بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي نَوْحٍ مَحْفُوظٍ»^٦ أي هكذا قدر في علمه تعالى

١. التفسير الكبير للفيض الرازي، ج ٥، ص ٨٥.

٢. راجع: مياني و روشديني تفسير قرآن لعلميد الزنجاني، ص ٨٧.

٣. الميزان، ج ١١، ص ٦٠، الرعد (١٣): ٣٩. ٤. الزخرف (٤٣): ٤.

٥. راجع: مجمع البيان للبرقي، ج ٩، ص ٣٩؛ البيان، ج ٩، ص ١٧٩؛ روض الجنان للرازي، ج ١٠، ص ١٧٤؛ التفسير

الكبير، ج ٣٧، ص ١٩٤. ٦. البروج (٨٥): ٢٦ و ٢٧.

الممكنون^١. وهكذا ذكر الطبرسي وغيره في تفسير قوله تعالى: «إِنَّهُ نَقَرَأْنُ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ»^٢ إِنَّهُ إشارة إلى مقامه الرفيع عند الله، وقد جرى في علمه تعالى أَنَّهُ محفوظ عن مناوشة المناوئين.

قال سيّد قطب: «إِنَّهُ لَقُرْآنُ كَرِيمٍ: كريم بمصدره، وكريم بذاته، وكريم باتجاهاته. في كتاب ممكن: مصون، وتفسير ذلك في قوله تعالى بعده: لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ. فقد زعم المشركون أَنَّ الشياطين تنزلت به، فهذا نفي لهذا الزعم. فالشيطان لَا يمسُّ هذا الكتاب الممكن في علم الله وحفظه، إِنَّمَا تنزل به الملائكة المطهَّرون؛ ولذلك قال -بعدها-: تنزيل من ربِّ العالمين، أي لَا تنزيل من الشياطين»^٣.

هل يعلم التأويل غير الله؟

سؤال أثارته ظاهرة الوقف على «إِلَّا اللَّهُ» من قوله تعالى: «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ» تم الاستئناف لقوله: «وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا»^٤. وما ورد في بعض الأحاديث من اختصاص علم التأويل بالله تعالى، وأن الراسخين في العلم لَا يعلمون تأويله، وإِنَّمَا يكلمون علمه إلى الله سبحانه؛ من ذلك ما ورد في خطبة الأشباح من كلام مولانا أمير المؤمنين عليه السلام:

«فانظر أَيُّهَا السَّائِلُ، فَمَا ذَلِكَ الْقُرْآنَ عَلَيْهِ مِنْ صِفَتِهِ فَائِثَمٌ بِهِ وَاسْتَضَىٰ بِنُورِ هِدَايَتِهِ، وَمَا كَلَّفَكَ الشَّيْطَانُ عِلْمَهُ مِمَّا لَيْسَ فِي الْكِتَابِ عَلَيْكَ فَرْضُهُ، وَلَا فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ وَتُحْمَةُ الْهَدَىٰ أَثَرُهُ، فَكُلُّ عِلْمَةٍ إِلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ. فَإِنَّ ذَلِكَ مُنْتَهَىٰ حَقِّ اللَّهِ عَلَيْكَ. وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ هُمُ الَّذِينَ أُغْنَاهُمْ عَنْ اقْتِحَامِ السُّدُودِ الْمَضْرُوبَةِ دُونَ الْغُيُوبِ، الْإِقْرَارُ بِجَمَلَةٍ مَا جَهِلُوا تَفْسِيرَهُ مِنَ الْغَيْبِ الْمَحْجُوبِ. فَمَدَحَ اللَّهُ تَعَالَىٰ اعْتِرَافَهُم بِالْعَجْزِ عَنْ تَنَاوُلِ

١. راجع: تصحيح الاعتقاد للشيخ المنيد، ص ٣٩؛ التفسير الكبير، ج ٣٣، ص ٦٦ و ج ٣٨، ص ٨٥٣.

٢. الواقعة (٥٦): ٨٧-٨٧.

٣. في خلال القرآن لميّد قطب، ج ٨، ص ٨٧ و راجع: مجمع البيان، ج ٩، ص ٣٣٦.

٤. آل عمران (٣): ٧.

ما لم يحيطوا به علماً، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخاً، فاقْتَصِرَ على ذلك، ولا تقدر عظمة الله سبحانه على قدر عقائد، فتكون من الهالكين^١. هذه الخطبة من جلائل الخطب وأعلاها سنداً، فلا تمعز في صحة إسنادها، وإنما الكلام في فحوى المراد منها.

وقد أجمع شراح النهج^٢ على أن مراده بالخطبة بهذا الكلام هو الصفات، وأن صفاته تعالى إنما يجب التعتد بها والتوقف فيها دون الولوج في معرفة كنهها؛ إذ لا سبيل إلى معرفة حقيقة الصفات، كما لا سبيل إلى معرفة حقيقة الذات. حيث قوله بالخطبة: «فما ذلك القرآن من صفته فأنتم به، وما كلفك الشيطان علمه مما ليس في الكتاب عليك فرضه». إذ من وظيفتنا أن نصفه تعالى بما وصف به نفسه في كلامه: سميع بصير، حكيم علیم، حي قيوم... ولم نكلف الولوج في معرفة حقائق هذه الصفات منسوبة إلى الله تعالى؛ إذ ضربت دون معرفتها السدد والحجوب، فلا سبيل إلى بلوغها؛ فيجب التوقف دونها.

إذن فلا مساس لكلامه ﷺ هنا، مع متشابهات الآيات التي لا ينبغي الجهل بها للراشدين في العلم؛ حيث تحليلهم بحلية العلم، هي التي مكنتهم من معرفة التنزيل والتأويل جميعاً.

نعم، لا نتحاشا التناول بأنهم في بدء مجاباتهم للمتشابهات يقفون لديها، وقفة المتأمل فيها؛ حيث المتشابه متشابه على الجميع على سواء، لولا أنهم بفضل جهودهم في سبيل كشفها وإرجاعها إلى محكمات الآيات صاروا يعرفونها في نهاية المطاف. فعجزهم البادئ كان من فضل رسوخهم في العلم، بأن المتشابه كلام صادر ممن صدر عنه المحكم، فزادت رغبتهم في معرفتها بالتأمل فيها والاستمداد من الله في العلم بها، ومن جد في أمر وجده يعون الله.

١. نهج البلاغة، الخطبة رقم ٩١: بحار الأنوار، ج ٤، ص ٢٨٧.

٢. راجع: منهاج البراعة لراوندي، ج ١، ص ٣٨٦؛ شرح نهج البلاغة لأبي الحديد، ج ٢، ص ١٤٠؛ شرح نهج

البلاغة لأبي بكر الجزائري، ج ٢، ص ٣٣٠؛ شرح الخطبة: منهاج البراعة للصوفي، ج ٢، ص ٣١٠.

فوجه تناسب استشهاده ﷺ بهذه الآية بشأن الصفات محضاً، هو العجز البادئ لدى المتشابهات، يُقرّ به الراسخون في أوّل مجابتههم للمتشابهات، وإن كان الأمر يفترق في نهاية المطاف.

قال ابن أبي الحديد: إنّ من الناس من وقف على قوله: «إِلَّا اللَّهُ»، ومنهم من لم يقف. وهذا القول أقوى من الأوّل؛ لأنّه إذا كان لا يعلم تأويل المتشابه إلا الله لم يكن في إنزاله ومخاطبة المكلفين به فائدة، بل يكون كخطاب العربي بالترنجيّة، ومعلوم أنّ ذلك عيب قبيح.

و أمّا موضع «يقولون» من الإعراب، فيمكن أن يكون نصباً على أنّه حال من الراسخين، ويمكن أن يكون كلاماً مستأنفاً، أي هؤلاء العالمون بالتأويل، يقولون: آمنا به. وقد روي عن ابن عباس أنّه تأوّل آية، فقال قائل من الصحابة: «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ»، فقال ابن عباس: «وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» وأنا من جملة الراسخين.

و نحن قد تكلمنا عن هذه الآية بشنصيل وتوضيح، عند الكلام عن متشابهات القرآن، فراجع^١.

مركز تحقيقات كتابي علوم اسلامی

هل التفسير توقيف؟

ربّما كان بعض السلف يحتشم عن القول في القرآن، خشية أن يكون قولاً على الله بغير علم، أو تفسيراً برأيه الممنوع شرعاً، وتبعهم على ذلك بعض الخلف، فأمسكوا عن تفسير القرآن، سوى ما ورد فيه أثر صحيح ونقل صريح.

فقد أخرج الطبري بإسناده إلى أبي معمر، قال: قال أبو بكر: «أَيُّ أَرْضٍ تَقْلَنِي وَأَيُّ سَمَاءٍ تَقْلَنِي إِذَا قُلْتُ فِي الْقُرْآنِ مَا لَا أَعْلَمُ»، وفي رواية أخرى أيضاً عنه: «إِذَا قُلْتُ فِي الْقُرْآنِ بَرَأِيي»^٢.

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٦، ص ٤٠٤-٤٠٥.

٢. تفسير الصيرفي، ج ١، ص ٢٧.

٣. التمهيد، ج ٣، ص ٤٥-٤٦.

و هذا عند ما سئل عن «الأب» في قوله تعالى: «وَإِنَّمَا مَتَاءٌ لَكُمْ وَلَآتِعَامِكُمْ»^١، فقد أخرج السيوطي بإسناده إلى إبراهيم التيمي، قال: سئل أبو بكر عن قوله تعالى: «وَإِنَّمَا»، فقال: «أبي سماء تظلني وأبي أرض تظلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم»^٢.

و هكذا روي عن عمر أنه جعل التكلم في الآية تكلفاً يجب تركه وإيكاله إلى الله، أخرج السيوطي بعدة أسانيد أن عمر قرأ على المنبر: «فَأَتَيْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِشْبًا وَقَضْبًا» إلى قوله: «وَإِنَّمَا» قال: كل هذا قد عرفناه، فما الأب؟ ثم رفض عصاً كانت في يده، فقال: هذا لعمر الله هو التكلف، فما عليك أن لا تدري ما الأب، اتبعوا ما بين لكم هداه من الكتاب فاعملوا به، وما لم تعرفوه فكلوه إلى ربّه^٣.

و عن عبيد الله بن عمر قال: لقد أدركت فقهاء المدينة، و أنهم ليعظمون القول في التفسير، منهم سالم بن عبد الله، و القاسم بن محمد، و سعيد بن المسيّب، و نافع، و عن يحيى بن سعيد، قال: سمعت رجلاً يسأل سعيد بن المسيّب عن آية من القرآن، فقال: لا أقول في القرآن شيئاً. و في رواية أخرى: أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال: أنا لا أقول في القرآن شيئاً، و كان لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن. قال يزيد: و إذا سألتنا سعيداً عن تفسير آية من القرآن، سكت كأن لم يسمع...

و عن ابن سيرين، قال: سألت عبيدة السلماني عن آية، قال: عليك بالسداد، فقد ذهب الذين علموا فيم أنزل القرآن.

و جاء طلق بن حبيب إلى جندب بن عبد الله، فسأله عن آية من القرآن، فقال له: أخرج عليك إن كنت مسلماً، لما قمت عني، أو قال: أن تعالسنني.

و روي عن الشعبي، قال: ثلاث لا أقول فيهن حتى أموت: القرآن، و الروح، و الرأي، و كان يقول: والله ما من آية إلا قد سألت عنها، و لكنها الرواية عن الله.

١. الدر المنثور للسيوطي، ج ٢، ص ٣١٧.

٢. عيسى (٨٩) ٣١ و ٣٢.

٣. المصدر نفسه: تفسير العبري، ج ٣٩، ص ٣٩.

و روي عنه أنه قال: أدركتهم - أي الأوائل - وما شيء، أبغض إليهم أن يسألوا عنه ولا هم له أهيب، من القرآن، ذكره صاحب كتاب المباني.

و روي في ذلك بطريق ضعيف عن عائشة، قالت: «ما كان النبي ﷺ يفسر شيئاً من القرآن إلا آياً تُعَدُّ، علّمنَّ إياه جبريل»، أي أنه ﷺ لم يكن يفسر إلا القلائل من الآيات، تلك القلائل أيضاً كان بوحى وتوقيف، ولم يكن عن فهمه.

و روي عن إبراهيم، قال: «كان أصحابنا يتقنون التفسير و يهابونه».

قال ابن كثير: فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف، محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم فيه، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة و شرعاً فلا حرج عليه؛ ولهذا روي عن هؤلاء، وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة؛ لأنهم تكلموا فيما علموه و سكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل واحد، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه؛ لقوله تعالى: «لَتَبَيِّنَنَّ لِنَاسٍ وَلَا تَكْتُمُونَهُ»^١.

و بعين ذلك ذكر ابن تيمية في مقدمة

و قال ابن جرير الطبري: إن معنى «إحجام» من أحجم عن القيل في تأويل القرآن و تفسيره من علماء السلف، إنما كان إحجامه عنه حذراً أن لا يبلغ أداء ما كُلف من إجابة صواب القول فيه، لا على أن تأويل ذلك محجوب عن علماء الأمة، غير موجود بين أظهرهم^٢.

قلت: والدليل على صحة ذلك أن من تحرّج من القول في معاني القرآن من السلف، كانوا هم القلة القليلة من الأصحاب و التابعين، أما الأكثرية الساحقة من علماء الأمة

١. تفسير الصبري: ج ١، ص ٢٩؛ مقدمة المباني في فهم المعاني، ص ١٨٣-١٨٤.

٢. تفسير ابن كثير: ج ١، ص ٦، و آل عمران (٣) ١٨٧.

٣. مقدمة في أصول التفسير: ص ٥٥. ٤. تفسير الصبري: ج ١، ص ٣٠.

ونبهاء الصحابة فقد عوا بتفسير القرآن و تأويله عناية بالغة، كانت الوفرة الوفيرة من رصيدنا اليوم في التفسير.

قال ابن عطية: «وكان جللة من السلف كثير عددهم يفسرونه، وهم أبقي على المسلمين في ذلك».

فأما صدر المفسرين و المؤيد فيهم فعلي بن أبي طالب عليه السلام، و يتلوه عبد الله بن عباس، و هو تجرد للأمر و كملته، و تبعه العلماء عليه، كمجاهد، و سعيد بن جبير، و غيرهما. و المحفوظ عنه في ذلك أكثر من المحفوظ عن علي بن أبي طالب عليه السلام.

و قال ابن عباس: «ما أخذت من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب». و كان علي بن أبي طالب يني على تفسير ابن عباس، و يحض على الأخذ عنه. و كان عبد الله بن مسعود يقول: نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس.

و هو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «اللهم فقهه في الدين»، و حسبك بهذه الدعوة. و قال عنه علي بن أبي طالب عليه السلام: «ابن عباس كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق». و يتلوه عبد الله بن مسعود، و أبي بن كعب، و زيد بن ثابت، و عبد الله بن عمرو بن العاص.

قال: و كل ما أخذ عن الصحابة فحسن متقدم.

* * *

و أما حديث عائشة - فضلاً عن تكلم ابن جرير و ابن عطية و غيرهما في تأويله و ضعف سنده - فالأرجح في تأويله: أنه ﷺ كان يفسر لهم القرآن أعداداً فأعداداً، كل فترة عددٌ خاصاً حسبما كان جبرئيل يعلمه عن الله - جلّ جلاله - و لم يكن التعليم فوضي من غير انتظام، و سيوافيك حديث ابن مسعود في ذلك: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات، لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن.

قال صاحب كتاب المباني: وأما ما روي عن عائشة، فإن ذلك يدل على أنه ﷺ كان يحتاج مع ما أنزل عليه من القرآن إلى تفسير آيات يعلمهن إياه جبريل ﷺ وتلك آيات معدودة قد أجملت فيها أحكام الشريعة، بحيث لا يوقف عليه إلا بيان الرسول عن الله تعالى.

و أما ما ذكره من امتناع من امتنع من القول في التفسير، فإن ذلك بمنزلة من امتنع منهم عن الرواية عن رسول الله ﷺ إلا فيما لم يجد فيه بطلاً.

ولذلك قلت روايات رجال من أكابر الصحابة، مثل عثمان وطلحة والزبير وغيرهم. روى عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال: قلت للزبير: ما لي لا أسمعك تحدث عن رسول الله، كما أسمع ابن مسعود و فلاناً و فلاناً؟ فقال: أما إني لم أفارقه منذ أسلمت، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

وقيل لربيعة: إنا لنجد عند غيرك من الحديث ما لا نجد عندك! فقال: ما عندهم شيء إلا وقد سمعت منه، ولكني سمعت رجلاً من آل المهدي يقول: صحبت طلحة و ما سمعته يحدث عن رسول الله ﷺ إلا حديثاً واحداً.

قال: وهذا عبد الله بن عباس، لم يدع كلمة في القرآن إلا وقد ذكر من تفسيرها، على ما روت عنه الرواة؛ ولذلك قيل: ابن عباس ترجمان القرآن.

و روي عن أبي مليكة قال: رأيت مجاهداً يسأل ابن عباس في تفسير القرآن ومعه الواح، فيقول ابن عباس: اكتبه، حتى سألته عن التفسير كله.

و روي عن سعيد بن جبير أنه قال: من قرأ القرآن ولم ينسره كان كالأعمى أو كالأعرجي.

و روى مسلم عن مسروق بن الأجدع قال: كان عبد الله يقرأ علينا السورة ثم يحدثنا فيها، وينسرها عامة النهار.

و عن أبي عبد الرحمن قال: حدثونا الذين كانوا يقرئونا: أنهم كانوا يستقرئون من النبي، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلنوها حتى يعلموا ما فيها من العمل، فيعلموا

القرآن والعمل جميعاً.

و عن ابن مسعود: كان الرجل مئاً إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن.

* * *

و بعد، فقد ذكر الراغب الأصبهاني هنا شرائط يجب توفرها في المفسر، حتى لا يكون تفسيره تفسيراً بالرأي الممنوع شرعاً والمقبوح عقلاً، نذكره بتفصيله، فإن فيه الفائدة المتوخاة في هذا الباب.

* * *

صلاحية المفسر

قال الراغب: اختلف الناس في تفسير القرآن، هل يجوز لكل ذي علم الخوض فيه؟ فبعض تشدد في ذلك، وقال: لا يجوز لأحد تفسير شيء من القرآن، وإن كان عالماً أدبياً، متسعاً في معرفة الأدلة والفقه والنحو والأخبار والآثار. وإنما له أن ينتهي إلى ما روي عن النبي ﷺ، وعن الذين شهدوا المنزّل من الصحابة، والذين أخذوا عنهم من التابعين. واحتجوا في ذلك بما روي عنه ﷺ: «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»، وقوله: «من فسر القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ». وفي خبر: «من قال في القرآن برأيه فقد كفر».

قال: وذكر آخرون أن من كان ذا أدب وسيع، فموسع له أن يفسره، فالعقلاء الأدباء فوضى فصاً في معرفة الأغراض. واحتجوا في ذلك بقوله تعالى: «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ».

و ذكر بعض المحققين أن المذهبيين هما: الغلو والتقصير، فمن اقتصر على المنقول إليه فقد ترك كثيراً مما يحتاج إليه، ومن أجاز لكل أحد الخوض فيه فقد عرضه للتخليط، ولم

يعتبر حقيقة قوله تعالى: «يَذْكُرُوا آيَاتِهِ وَيَتَذَكَّرُوا أَلْوَابِ».

قال: والواجب أن يبين أولاً ما ينطوي عليه القرآن، وما يحتاج إليه من العلوم، فنقول
و بالله التوفيق:

إن جميع شرائط الإيمان والإسلام التي دعينا إليها واشتمل القرآن عليها ضربان: علم
غايته الاعتقاد، وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وعلم غايته
العمل، وهو معرفة أحكام الدين والعمل بها.

والعلم مبدئ، والعمل تمام. ولا يتم العلم من دون عمل، ولا يخلص العمل دون العلم؛
ولذلك لم يفرّد تعالى أحدهما من الآخر في عامة القرآن، نحو قوله: «وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ
وَيَعْمَلْ صَالِحاً»، «وَمَنْ عَمِلْ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ»^١. «الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ»^٢.

ولا يمكن تحصيل هذين (العلم والعمل) إلا بعلوم نظئية، وعقلية، وموهبية:

فالأول: معرفة الألفاظ، وهو علم اللغة.

والثاني: مناسبة بعض الألفاظ إلى بعض، وهو علم الاشتقاق.

والثالث: معرفة أحكام ما يعرض للألفاظ من الأدبية والتعاريف والإعراب، وهو
النحو.

والرابع: ما يتعلق بذات التنزيل، وهو معرفة القراءات.

والخامس: ما يتعلق بالأسباب التي نزلت عندها الآيات، وشرح الأفاضيص التي
تنطوي عليها السور، من ذكر الأنبياء ﷺ والقرون الماضية، وهو علم الآثار والأخبار.

والسادس: ذكر السنن المنقولة عن النبي ﷺ وعن شهد الوحي، وما اتفقوا
عليه وما اختلفوا فيه، ممّا هو بيان لمجمل، أو تفسير لمبهم المنبأ عنه بقوله تعالى:
«وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ نُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ»^٣ وبقوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ

١. غافر (٤٠)، ٤٠.

٢. النحل (١٦)، ٤٤.

٣. التغابن (٦٤)، ٩.

٤. الرعد (١٣)، ٣٩.

أقننه»^١، وذلك علم السنن.

و السابع: معرفة الناسخ والمنسوخ، والعموم والخصوص، والإجماع والاختلاف، والمجمل والمنسّر، والقياسات الشرعية، والمواضع التي يصحّ فيها القياس، والتي لا يصحّ، وهو علم أصول الفقه.

و الثامن: أحكام الدين وآدابه، وآداب السياسات الثلاث التي هي سياسة النفس والأقارب والرعية؛ مع التمسك بالعدالة فيها، وهو علم الفقه والزهد.

و التاسع: معرفة الأدلة العقلية، والبراهين الحقيقية، والتقسيم والتحديد، والفرق بين المعقولات والمظنونيات وغير ذلك، وهو علم الكلام.

و العاشر: وهو علم الموهبة، وذلك علم يورثه الله من عمل بما علم. قال أمير المؤمنين عليه السلام: قالت الحكمة: من أرادني فليعمل بأحسن ما علم، ثم تلا «الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ»^٢. وروي عنه عليه السلام حيث سئل: هل عندك علم عن النبي لم يقع إلى غيرك؟ قال: «لا، إلا كتاب الله، وما في صحيفتي، وفهم يؤتيه الله من يشاء».

و هذا هو التذكر الذي رجّانا الله تعالى إدراكه بفعل الصالحات؛ حيث قال: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ - إِلَيَّ قَوْلُكُمْ لَعَنَكُمْ لَذَكَّرُونَ»^٣، وهو الهداية المزيدة للمهتدي في قوله: «وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى»^٤، وهو الطيّب من القول المذكور: «وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ»^٥.

فجملة العلوم التي هي كالآلة للمفسّر، ولا تتم صناعته إلا بها، هي هذه العشرة: علم اللغة، والاشتقاق، والنحو، والقراءات، والسير، والحديث، وأصول الفقه، وعلم الأحكام، وعلم الكلام، وعلم الموهبة.

فمن تكاملت فيه هذه العشرة واستعملها، خرج عن كونه مفسّراً للقرآن برأيه. ومن

٢. الزمر (٣٩): ١٨.

٣. محمد (٤٧): ١٧.

٤. الأنعام (٦): ١٠١.

٥. النحل (١٦): ٩٠.

٥. الحج (٣٣): ٣٤.

نقص عن بعض ذلك مما ليس بواجب معرفته في تفسير القرآن، وأحسن من نفسه في ذلك بنقصه، واستعان بأربابه، واقتبس منهم، واستضاء بأقوالهم، لم يكن - إن شاء الله - من المنسرين برأيهم.

و أخيراً قال: ومن حق من تصدى للتفسير أن يكون مستشعراً لتقوى الله، مستعيذاً من شرور نفسه والإعجاب بها، فالإعجاب أس كل فساد. وأن يكون اتّهامه لفهمه أكثر من اتّهامه لنهم أسلافه الذين عاشروا الرسول وشاهدوا التنزيل وبالله التوفيق.^١

ولقد أحسن وأجاد فيما أفاد، وأدّى الكلام حثّه في بيان الشرائط التي يجب توفّرها في كل منسّر، حتّى يخرج عن كونه منسّراً برأيه، وبشرط أن يراعي تقوى الله، فلا يقول في شيء بغير علم ولا كتاب منير.

* * *

قال جلال الدين السيوطي: ولعلّك تستشكل علم الموهبة، وتقول: هذا شيء ليس في قدرة الإنسان. وليس كما ظننت من الإشكال، والطريق في تحصيله ارتكاب الأسباب الموجبة له من العمل والزهد. قال الإمام بدر الدين الزركشي: اعلم أنّه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي، ولا يظهر له أسرارها، وفي قلبه بدعة، أو كبر، أو هوى، أو حب الدنيا، أو هو مصرّ على ذنب، أو غير متحقّق بالإيمان، أو ضعيف التحقيق، أو يعتمد على قول منسّر ليس عنده علم، أو راجع إلى معقوله. وهذه كلّها حجب وموانع بعضها أكد من البعض. قال السيوطي: وفي هذا المعنى قوله تعالى: «سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ»^٢. قال سفيان بن عيينة: يقول تعالى: أنزع عنهم فهم القرآن^٣.

قلت: وهكذا قوله تعالى: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ»^٤ فلا تتجلى حقائق القرآن ومعارفه الرشيدة إلا لمن خلص باطنه وزكّت نفسه عن الأدناس

١. مدّته في التفسير، ص ٩٣-٩٧.

٢. الأعراف (٧): ١٤٦.

٣. أخرجه ابن أبي حاتم: الإقنان في علوم القرآن، ج ٤: ص ١٨٨.

٤. الواقعة (٥٦): ٨٧-٨٩.

والأرجاس.

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام - في خطبة خطبها بذي قار - : «إِنَّ عِلْمَ الْقُرْآنِ لَيْسَ يَعْلَمُ مَا هُوَ إِلَّا مَنْ ذَاقَ طَعْمَهُ، فَعَلِمَ بِالْعِلْمِ جَهْلَهُ، وَبَصَرَ بِهِ عَمَاهُ، وَسَمِعَ بِهِ صَمَمَهُ، وَأَدْرَكَ بِهِ عِلْمَ مَا فَاتَ، وَحَيِيَ بِهِ بَعْدَ إِذْ مَاتَ، وَتَبَتَ عِنْدَ اللَّهِ الْحَسَنَاتُ، وَمَحَا بِهِ السَّيِّئَاتُ، وَأَدْرَكَ بِهِ رِضْوَانًا مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَاطْلُبُوا ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ خَاصَّةً»^١.

و قال - في حديث آخر - : «إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ كَلَامَهُ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ: فَجَعَلَ قِسْمًا مِنْهُ يَعْرِفُهُ الْعَالَمُ وَالْجَاهِلُ، وَقِسْمًا لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا مَنْ صَفَا ذَهْنَهُ وَلَطَفَ حِسَّهُ وَصَحَّ تَمْيِيزُهُ، مِمَّنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ، وَقِسْمًا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ وَأُمَنَاؤُهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ»^٢.

قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا»^٣، وقال: «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ»^٤.

أوجه التفسير

أخرج الطبري بعدة أسانيد إلى ابن عباس، قال: التفسير أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يُعذر أحد جهالة، وتفسير يعلم العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى^٥.

قال الزركشي - في شرح هذا الكلام - : وهذا تقسيم صحيح:

فأما الذي تعرفه العرب، فهو الذي يرجع فيه إلى لسانهم؛ وذلك شأن اللغة والإعراب. فأما اللغة، فعلى المفسر معرفة معانيها، ومسميات أسمائها، ولا يلزم ذلك القارئ. ثم إن كان ما تتضمنه ألفاظها يوجب العمل دون العلم، كفى فيه خبر الواحد والأتنين، والاستشهاد بالبيت والبيتين. وإن كان ممّا يوجب العلم، لم يكف ذلك، بل لا بُدَّ أن

١. وسائل الشريعة، ج ٨، ص ٨٣٧، رقم ٢٦ (عن روضة الكافي، ج ٨، ص ٣٩٠-٣٩١، رقم ٥٨٦).

٢. وسائل الشريعة، ج ٨، ص ٨٤٣، رقم ٤٤ (عن كتاب الاحتجاج لصبرسي، ج ١، ص ٣٧٦).

٣. الأَنْزَال (٨): ٢٩، البقرة (٢): ٢٨٢.

٤. تفسير الطبري، ج ١، ص ٣٦.

يستفيض ذلك اللفظ، وتكثر شواهد من الشعر.

و أمّا الإعراب، فما كان اختلافه محيلاً للمعنى، وجب على المفسّر والقارئ تعلّمه، ليتوصّل المفسّر إلى معرفة الحكم وليسلم القارئ من اللحن. وإن لم يكن محيلاً للمعنى، وجب تعلّمه على القارئ ليسلم من اللحن، ولا يجب على المفسّر؛ لوصوله إلى المتصوّد دونه، على أن جهله نقص في حقّ الجميع.

إذا تقرّر ذلك، فما كان من التفسير راجعاً إلى هذا القسم، فسيبيل المفسّر التوقّف فيه على ما ورد في لسان العرب، وليس لغير العالم بحقائق اللغة ومفاهيمها تفسير شيء من الكتاب العزيز، ولا يكفي في حقّه تعلّم اليسير منها، فقد يكون اللفظ مشتركاً، وهو يعلم أحد المعنيين.

* * *

الثاني: ما لا يُعَدَّر أحد بجهله، وهو ما تتبادر الأفهام إلى معرفة معناه من المتصوص المتضمنة شرائع الأحكام ودلائل التوحيد. وكلّ لفظ أفاد معنى واحداً جلياً لا سواه، يعلم أنه مراد الله تعالى.

فهذا القسم لا يختلف حكمه، ولا يلتبس له دليل؛ إذ كلّ أحد يدرك معنى التوحيد، من قوله تعالى: «فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^١ وأنه لا شريك له في الهيئته، وإن لم يعلم أن «لا» موضوعه في اللغة للنفي و«إلا» للإثبات، وأن مقتضى هذه الكلمة الحصر. ويعلم كلّ أحد بالضرورة أن مقتضى قوله تعالى: «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ»^٢ ونحوها من الأوامر، طلب إدخال ماهية المأمور به في الوجود، وإن لم يعلم أن صيغة «افعل» مقتضاها الترجيح وجوباً أو ندباً. فما كان من هذا القسم لا يقدر أحد أن يدّعي الجهل بمعاني ألفاظه؛ لأنها معلومة لكلّ أحد بالضرورة.

الثالث: ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فهو يجري مجرى الغيوب، نحو الآي المتضمنة قيام

الساعة، ونزول الغيث، وما في الأرحام، وتفسير الروح، والحروف المقطعة.
وكل متشابه في القرآن عند أهل الحق، فلا مساع للاجتهاد في تفسيره، ولا طريق إلى
ذلك إلا بالتوقيف، من أحد ثلاثة أوجه:

إما نص من التنزيل، أو بيان من النبي ﷺ، أو إجماع الأمة على تأويله.
فإذا لم يرد فيه توقيف من هذه الجهات، علمنا أنه مما استأنر الله تعالى بعلمه.
قلت: وهذا إما يصدق بشأن الحروف المقطعة، فإنها رموز بين الله ورسوله، لا يعلم
تأويلها إلا الله والرسول، ومن علمه الرسول بالخصوص.

* * *

و الرابع: ما يرجع إلى اجتهاد العلماء، وهو الذي يغلب عليه إطلاق «التأويل»، وهو
صرف اللفظ إلى ما يؤول إليه. فالمفسر ناقل، والمؤول مستنبط؛ وذلك استنباط الأحكام،
و بيان المجمل، و تخصيص العموم.

و كل لفظ احتمل معنيين فصاعداً، فهو الذي لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه؛ وعلى
العلماء اعتماد الشواهد والدلائل، وليس لهم أن يعتمدوا مجرد رأيهم فيه.
ثم أخذ في بيان كيفية الاجتهاد واستنباط الأحكام من ظواهر القرآن، عند اختلاف
اللفظ أو تعارض ظاهرين، بحمل الظاهر على الأظهر، و ترجيح أحد معنيي المشترك، و ما
إلى ذلك مما يرجع إلى قواعد (علم الأصول).

ثم قال: فهذا أصل نافع معتبر في وجوه التفسير في اللفظ المحتمل، والله العالم.

* * *

و أخيراً قال: إذا تقرّر ذلك فيقول ﷺ: «من تكلم في القرآن بغير علم فليتبوأ
مقعده من النار» على قسمين من هذه الأربعة: أحدهما: تفسير اللفظ؛ لاحتياج المفسر له
إلى التبخر في معرفة لسان العرب، الثاني: حمل اللفظ المحتمل على أحد معنييه؛ لاحتياج
ذلك إلى معرفة أنواع من العلوم: علم العربية، واللغة، و التبخر فيهما.

و من علم الأصول ما يدرك به حدود الأشياء، و صيغ الأمر و النهي، و الخبر، و المجمل

والمبين، والعموم والخصوص، والظاهر والمضمّر، والمحكم والمتشابه، والمؤوّل،
والحقيقة والمجاز، والصريح والكنائية، والمطلق والمقيّد.
ومن عيّل الفروع ما يدرك به استنباطاً، والاستدلال على هذا أقلّ ما يحتاج إليه، ومع
ذلك فهو على خطر. فعليه أن يقول: يحتمل كذا، ولا يجزم إلا في حكم اضطرّ إلى الفتوى
به.^١

التفسير بالرأي

وأمّا الذي هابه أهل الظاهر، وزعموا من التكلّم في معاني القرآن تفسيراً بالرأي،
فيجب الاحتراز منه؛ فهو ممّا انتبه عليهم أمره، ولم يُمعنوا النظر في فحواه إمعاناً.
ولا بدّ أن نذكر نصّ الحديث أولاً، ثمّ النظر في محتواه:^٢

١- روى أبو جعفر الصدوق بإسناده عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول
الله ﷺ: قال الله - جلّ جلاله -: «ما آمن بي من فسر برأيه كلامي».^٣
٢- وأيضاً روى عنه عليه السلام قال - المدعي المتناقض في القرآن -: «إني أن تفسّر القرآن
برأيك، حتّى تفقهه عن العلماء. فإنّ ربك يقول يشبه بكلام البشر، وهو كلام الله، وتأويله
لا يشبه كلام البشر».^٤

٣- وأيضاً عن الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام قال لعليّ بن محمّد بن الجهم: «لا
تداول كتاب الله - عزّ وجلّ - برأيك، فإنّ الله - عزّ وجلّ - قد قال: «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ
وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ»».^٥

٤- وروى أبو النضر محمّد بن مسعود العيّاشي بإسناده عن الإمام أبي عبد الله

١. البرهان في علوم القرآن، ج ٢، ص ٨٦٤-٨٦٨.

٢. ممّا أورده العلامة المجلسي في بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٧، ١٨، ١٩، كتاب القرآن، باب ١٠ (ط بيروت).

٣. الأمالي للصدوق، ص ٢٤، المجلس الثاني (ط نجف).

٤. التوحيد للصدوق، ص ٣٦٤، باب ٣٦، الرد على الشيعة والزنادقة (ط بيروت).

٥. عيون أخبار الرضا عليه السلام للصدوق، ج ١، ص ١٥٣، باب ٤١، رقم ١ (ط نجف)، آل عمران (٣) ٧.

الصادق عليه السلام قال: «من فسّر القرآن برأيه فأصاب لم يُوجر، وإن أخطأ كان إثم عليه»، وفي رواية أخرى: «وإن أخطأ فهو أبعد من السماء»^١.

٥- وروى الشهيد السعيد زين الدين العاملي، مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار»، وقال: «من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»، وقال: «من قال في القرآن بغير ما علم، جاء يوم القيامة مُلجماً بلجّام من نار»، وقال: «أكثر ما أخاف على أمتي من بعدي، رجل يتأول القرآن، يضعه على غير مواضعه»^٢.

* * *

و أخرج أبو جعفر محمد بن جرير الطبري بإسناده عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار».

وفي رواية أخرى: «من قال في القرآن برأيه أو بما لا يعلم...».

و أيضاً عنه: «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار».

و أيضاً: «من تكلم في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار».

و بإسناده عن جندب عنه عليه السلام: «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»^٣.

* * *

و خصّ الطبري هذه الأحاديث بالآي التي لا سبيل إلى العلم بتأويلها إلا ببيان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، مثل تأويل ما فيه من وجوه أمره: واجبه ونذبه وإرشاده، وصنوف نهيه، وظائف حقوقه وحدوده، ومبالغ فرائضه، ومقادير اللازم بعض خلقه لبعض، وما أشبه ذلك من أحكام آية التي لم يدرك علمها إلا ببيان الرسول لأئمة، وهذا وجه لا يجوز لأحد القول فيه إلا ببيان الرسول له بتأويله، بنصّ منه عليه، أو بدلالة نصّها دالة أئمة على

١. مفدّة فسر العباسي، ج ١، ص ١٧، رقم ٢ و ٤.

٢. بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١١٢، رقم ٢٠ (عن آداب المتعلّمين للشهيد، ص ٢١٦-٢١٧).

٣. فسر الطبري، ج ١، ص ٣٧.

تأويله.

قال: وهذه الأخبار شاهدة لنا على صحة ما قلنا: من أن ما كان من تأويل آي القرآن الذي لا يدرك علمه إلا بنص بيان الرسول أو بنصبه الدلالة عليه، فغير جائز لأحد القيل فيه برأيه، بل القائل في ذلك برأيه وإن أصاب الحق فيه فمخطئ فيما كان من فعله، بقيله فيه برأيه؛ لأن إصابته ليست إصابة موقن أنه محق، وإنما هو إصابة خاوص وظان، والقائل في دين الله بالظن قائل على الله ما لم يعلم؛ لأن قيله فيه برأيه ليس بقيل عالم، أن الذي قال فيه من قول حق و صواب، فهو قائل على الله ما لا يعلم، آثم بفعله ما قد نهي عنه وحظر عليه.^١

قلت: وهذا يعني العمومات الواردة في القرآن، الوارد تخصيصاتها في السنة ببيان الرسول، مثل قوله: «أَقِيمُوا الصَّلَاةَ» و «آتُوا الزَّكَاةَ» و «لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ» ونحو ذلك مما ورد في القرآن عاماً، وكل بيان تفاصيلها و شرائطها و أحكامها إلى بيان رسول الله ﷺ فلا يجوز شرح تفاصيلها إلا عن أمر صحيح. وهذا حق، غير أن حديث المنع غير ناظر إلى خصوص ذلك.

وروى الترمذي بإسناده إلى ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «اتَّقُوا الْحَدِيثَ عَنِّي إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ، فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، وَمَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ».^٢

قال ابن الأثيري: فُسِّرَ حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ تَفْسِيرِينَ:

أحدهما: من قال في مشكل القرآن بما لا يعرف من مذهب الأوائل من الصحابة والتابعين، فهو متعرض لسخط الله.

١. المصدر نفسه: ص ٣٥-٣٦ و ٣٧.

٢. قال أبو عيسى الترمذي: هذا حديث حسن. جامع الترمذي: ج ٥، ص ١٩٩، كتاب: التفسير، باب: ١، رقم: ٣٩٥١.

والآخر: - وهو أثبت القولين وأصحهما معنى - من قال في القرآن قولاً يعلم أن الحق غيره، فليتبوأ مقعده من النار.

و قال: وأما حديث جندب عن رسول الله ﷺ: «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»^١، فحمل بعض أهل العلم هذا الحديث على أن الرأي معني به الهوى. من قال في القرآن قولاً يوافق هواه، لم يأخذه عن أئمة السلف، فأصاب فقد أخطأ، لحكمه على القرآن بما لا يعرف أصله، ولا يقف على مذاهب أهل الأثر والنقل فيه.

و قال ابن عثية: «و معنى هذا أن يسأل الرجل عن معنى في كتاب الله عز وجل، فيتسور عليه برأيه دون نظر فيما قال العلماء، واقتضته قوانين العلم كالنحو والأصول. وليس يدخل في هذا الحديث، أن يفسر اللغويون لغته، والنحويون نحوه، والفقهاء معانيه، ويقول كل واحد باجتهاده المبني على قوانين علم ونظر، فإن القائل على هذه الصفة ليس قائلاً بمجرّد رأيه».

قال القرطبي - تعقيباً على هذا الكلام - هذا صحيح، وهو الذي اختاره غير واحد من العلماء، فإن من قال في القرآن بما سرح في وهمه وخطر على باله من غير استدلال عليه بالأصول فهو مخطئ، وإن من استنبط معناه بحمله على الأصول المحكمة المتفق على معناها، فهو ممدوح.

و قال بعض العلماء: إن التفسير موقوف على السماع، للأمر برده إلى الله والرسول^٢. قال: وهذا فاسد؛ لأن النهي عن تفسير القرآن لا يخلو؛ إما أن يكون المراد به الاقتصر على النقل والسماع وترك الاستنباط، أو المراد به أمراً آخر. وباطل أن يكون المراد به أن لا يتكلم أحد في القرآن إلا بما سمعه، فإن الصحابة قد قرأوا القرآن واختلفوا في تفسيره على وجوه، وليس كل ما قالوه سمعوه من النبي ﷺ، وقد دعا لابن عباس: «اللهم فقهه

١. جامع الترمذي، ج ٥، ص ٣٠٠، رقم ٣٩٥٣.

٢. فسر الحافظ: هجم عليه هجوم اللعن وفسقه، ويعني به هذا التيجم والإقدام بغير بصيرة ولا وعي.

٣. النساء (٥٩).

في الدين وعلمه التأويل». فإن كان التأويل مسموعاً كالترزيل، فما فائدة تخصيصه بذلك، وهذا بين لا إشكال فيه.

وإنما النهي يحمل على أحد وجهين:

أحدهما: أن يكون له في الشيء رأي، وإليه ميل من طبعه وهواه، فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه، ليحتج على تصحيح غرضه. ولو لم يكن له ذلك الرأي والهوى؛ لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى.

وهذا النوع يكون تارة مع العلم، كالذي يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته، وهو يعلم أن ليس المراد بالآية ذلك، ولكن مقصوده أن يلبس على خصمه.

وتارة يكون مع الجهل؛ وذلك إذا كانت الآية محتملة، فيميل فهمه إلى الوجه الذي يوافق غرضه، ويرجح ذلك الجانب برأيه وهواه، فيكون قد فسر برأيه، أي رأيه حكمه على ذلك التفسير، ولو لا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه.

وتارة يكون له غرض صحيح، فيطلب له دليلاً من القرآن، ويستدل عليه بما يعلم أنه ما أريد به، كمن يدعو إلى مجاهدة القلب القاسي، فيقول: قال الله تعالى: «إِذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ»^١ ويشير إلى قلبه، ويومئ إلى أنه المراد بفرعون. وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ في المقاصد الصحيحة، تحسناً للكلام وترغيباً للمستمع، وهو ممنوع لأنه قياس في اللغة، وذلك غير جائز. وقد تستعمله الباطنية^٢ في المقاصد الفاسدة لتغدير الناس ودعوتهم إلى مذاهبهم الباطلة، فينزّلون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم، على أمور يعلمون قطعاً أنها غير مرادة.

فهذه المنون أحد وجهي المنع من التفسير بالرأي.

الوجه الثاني: أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية، من غير استظهار بالسماع والنقل، فيما يتعلق بغرائب القرآن، وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة، وما فيه من

الاختصار والحذف والإضمار والتأخير. فمن لم يحكم ظاهر التفسير، وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية كثر غلطه، ودخل في زمرة من فسر القرآن بالرأي. والنقل والسمع لا بد له منهما في ظاهر التفسير، ولأليتي بهما مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع النهم والاستنباط. والغرائب التي لا تفهم إلا بالسمع كثيرة، ولا مَطْمَع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر، ألا ترى أن قوله تعالى: «وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا»^١ معناه: آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها. فالناظر إلى الظاهر يظن أن الناقة كانت مبصرة، فهذا في الحذف والإضمار، وأمثاله في القرآن كثير^٢.

وهذا الذي ذكره القرطبي وشرحه شرحاً وافياً، ومن قبله الإمام الغزالي، هو الصحيح في معنى الحديث، وأكثر العلماء عليه، بل وفي لحن الروايات الواردة عن الرسول ﷺ ما يؤيد إرادة هذا المعنى، نظراً للإضافة في «رأيه»، أي رأيه الخاص، يحاول توجيهه بما يمكن من ظواهر القرآن حتى ولو استلزم تحريفاً في كلامه تعالى. فهذا لا يهتم القرآن، إنما يهتم تبرير موقفه الخاص باتخاذ هذا الرأي الذي يحاول إثباته بأية وسيلة ممكنة. فهذا في الأكثر مفتراً على الله، مجادل في آيات الله.

فقد روى أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه الصدوق بإسناده إلى سعيد بن المسيب عن عبد الرحمن بن سمرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لُعِنَ الْمُجَادِلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ عَلَى لِسَانِ سَبْعِينَ نَبِيًّا، وَمَنْ جَادَلَ فِي آيَاتِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ، وَمَنْ فَسَّرَ الْقُرْآنَ بِرَأْيِهِ فَقَدْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ، وَمَنْ أَفْتَى النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَلَعَنَتْهُ مَلَائِكَةُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ سَبِيلُهَا إِلَى النَّارِ»^٣.

١. الإسراء (١٧): ٥٩.

٢. راجع تفسير القرطبي، ج ١، ص ٣٢٠-٣٢١ أخذ اقتباساً من كلام الإمام أبي حامد الغزالي في كتابه إحياء العلوم، ج ١، ص ٣٩٨.

٣. كمال الدين للصدوق، ج ١، ص ٢٥٦-٢٥٧، باب ٤٤، رقم ١. وعبد الرحمن بن سمرة بن حبيب الجهمي صحابي جليل، أَسْمَ يوم الفتح وشهد غزوة تبوك مع النبي ﷺ ثم شهد فتح العراق، وهو الذي افتتح سجستان وغيرها في خلافة عثمان. ثم نزل البصرة وكان يحدث بها. روى عنه خلق كثير من التابعين. توفي سنة (٥٠هـ) (الإسافية، ج ٣، ص ٤٠١، رقم ٥١٣).

و روى ثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني بإسناده إلى الإمام أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام قال: «ما علمتم فتقولوا، وما لم تعلموا فتقولوا؛ الله أعلم، إن الرجل لينتزع بالآية فيخرب بها أبعاد ما بين السماء والأرض»^١.

وكذا إذا استبدّ برأيه ولم يهتم بأقوال السلف والمأثور من أحاديث كبار الأئمة والعلماء من أهل البيت عليهم السلام. وكذا سائر المراجع التفسيرية المعهودة، فإن من استبدّ برأيه هلك، ومن ثمّ فإنّه إن أصاب أحياناً فقد أخطأ الطريق، ولم يؤجر.

روى أبو النضر محمد بن مسعود بن عتيّاش بإسناده إلى الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: «من فسر القرآن برأيه، إن أصاب لم يؤجر، وإن أخطأ فهو أبعد من السماء»^٢، إلى غيرها من أحاديث يستشف منها أنّ السرف في منع التفسير بالرأي أمران:

أحدهما: التفسير لغرض المراء والغلبة والمجدال. وهذا إنّما يعمد إلى دعم نظريته وتحكيم رأيه الخاص، بما يجده من آيات متشابهة صالحة للتأويل إلى مطلوبه، إن صحیحاً أو فاسداً، غير أنّ الآية لا تهدف ذلك لولا الالتواء بها في ذلك الاتجاه؛ ولذلك فإنّه حتّى لو أصاب في المعنى لم يؤجر؛ لأنّه لم يقصد تفسير القرآن، وإنّما استهدف نصره مذهبه أيّاً كانت الوسيلة.

وهذا ناظر في الأكثر إلى الآيات المتشابهة لغرض تأويلها، فالنهي إنّما عنى التأويل غير المستند إلى دليل قاطع «فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ»^٣.

ثانيهما: التفسير من غير استناد إلى أصل ركين، اعتماداً على ظاهر التعبير محضاً، فإنّ هذا هو من القول بلا علم، وهو ممقوت لا محالة، ولا سيما في مثل كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ومن ثمّ فإنّه أيضاً غير مأجور على عمله حتّى لو أصاب المعنى؛ لأنّه أورد أمراً خطيراً من غير مورده، والأكثر الغالب في مثله الخطأ

١. تفسير العياشي، ج ١، ص ١٧، رقم ٤.

٢. الكافي (الأصول)، ج ١، ص ٤٢، رقم ٤.

٣. آل عمران (٣): ٧.

و الضلال، و افتراء على الله، وهو عظيم.

و قد أسلفنا كلام الراغب و شرحه بهذا الشأن^١، و كذا ما ذكره الزركشي في هذا الباب^٢،
و قد كان كلامهما وافياً بجوانب الموضوع، لم يختلف عما ذكرناه هنا، فراجع.

* * *

و لكن نقل جلال الدين السيوطي عن ابن النقيب محمد بن سليمان البلخي^٣، في
مقدمة تفسيره:

أَنَّ جُمْلَةَ مَا تَحْصُلُ فِي مَعْنَى الْحَدِيثِ خَمْسَةٌ أَقُولُ:

أحدها: التفسير من غير حصول العلوم، التي يجوز معها التفسير.

ثانيها: تفسير المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله.

ثالثها: التفسير المقرّر للمذهب الفاسد، بأن يجعل المذهب أصلاً و التفسير تابعاً، فيردّ
إليه بأيّ طريق أمكن، وإن كان ضعيفاً.

رابعها: التفسير بأن مراد الله كذا على القطع من غير دليل.

خامسها: التفسير بالاستحسان و الهوى.

قلت: و يمكن إرجاع هذه الوجوه الخمسة إلى نفس الوجهين اللذين ذكرناهما؛ إذ
الخامس يرجع إلى الثالث، والرابع و الثاني يرجعان إلى الأول، فتدبر.

خلاصة القول في التفسير بالرأي

يتلخّص القول في تفسير حديث «من فسر القرآن برأيه...»: أَنَّ الشَّيْءَ الْمَذْمُومَ وَ
الْمَنْعُوعَ شَرَعاً، الَّذِي اسْتَهْدَفَهُ هَذَا الْحَدِيثُ، أَمْرَانِ:

أحدهما: أَنْ يَعْمِدَ قَوْمٌ إِلَى آيَةٍ قُرْآنِيَّةٍ، فَيَحَاوِلُوا تَطْبِيقَهَا عَلَى مَا قَصَدُوهُ مِنْ رَأْيٍ أَوْ
عَقِيدَةٍ، أَوْ مَذْهَبٍ أَوْ مَسَلَكٍ، تَبَريراً لِمَا اخْتَارُوهُ فِي هَذَا السَّبِيلِ، أَوْ تَمْوِيناً عَلَى الْعَامَّةِ فِي

١. ص ٤٩. و راجع: مقدمته في التفسير، ص ٩٣-٩٧.

٢. ص ٥٤. و راجع: البرهان في علوم القرآن، ج ٣، ص ٦٤-٦٨.

٣. توفي سنة (٦٩٨ هـ). ٤. الإفتاح، ج ٤، ص ١٩١.

تحميل مذاهبهم أو عقائدهم، تعبيراً على البسطاء الضعفاء.

و هذا قد جعل القرآن وسيلة لإنجاح مقصوده بالذات، ولم يهدف تفسير القرآن في شيء. وهذا هو الذي عني بقوله ﷺ: فيختر بها أبعاد ما بين السماء والأرض، أو فليتبوأ مقعده من النار.

و ثانيهما: الاستبداد بالرأي في تفسير القرآن، محايداً طريقة العقلاء في فهم معاني الكلام، ولا سيما كلامه تعالى. فإن للوصول إلى مراده تعالى من كلامه وسائل وطرقاً، منها: مراجعة كلام السلف، والوقوف على الآثار الواردة حول الآيات، وملاحظة أسباب النزول، وغير ذلك من شرائط يجب توفرها في مفسر القرآن الكريم. فإغفال ذلك كله، والاعتماد على الفهم الخاص، مخالف لطريقة السلف والخلف في هذا الباب. ومن استبد برأيه هلك، ومن قال على الله بغير علم فقد ضلّ سواء السبيل، ومن تمّ فإنه قد أخطأ وإن أصاب الواقع - فرضاً أو صدفةً - لأنه أخطأ الطريق، وسلك غير مسلكه المستقيم.



قال سيّدنا الأستاذ الإمام الخوئي رحمه الله: إن الأخذ بظاهر اللفظ، مستند إلى قواعد وأصول يتناولها العرف في محاوراتهم، ليس من التفسير بالرأي، وإنما هو تفسير بحسب ما يفهمه العرف، وبحسب ما تدلّ عليه القرائن المتصلة والمنفصلة، وإلى ذلك أشار الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام بقوله: «إنما هلك الناس في التشابه؛ لأنهم لم يقفوا على معناه، ولم يعرفوا حقيقته، فوضعوا له تأويلاً من عند أنفسهم بآرائهم، واستغنوا بذلك عن مسألة الأوصياء فيعرفونهم».

قال: ويحتمل أن معنى التفسير بالرأي، الاستقلال في الفتوى من غير مراجعة الأئمة عليهم السلام مع أنهم قرأوا الكتاب في وجوب التمسك، ولزوم الانتهاء إليهم. فإذا عمل الإنسان بالعموم أو الإطلاق الوارد في الكتاب، ولم يأخذ بالتخصيص أو التقييد الوارد عن الأئمة عليهم السلام كان هذا من التفسير بالرأي.

و على الجملة، حمل اللفظ على ظاهره بعد الفحص عن القرائن المتصلة والمنفصلة، من الكتاب والسنة أو الدليل العقلي، لا يُعدّ من التفسير بالرأي، بل ولا من التفسير نفسه^١. قلت: وعبارته الأخيرة إشارة إلى أن الأخذ بظاهر اللفظ، مستندٌ إلى دليل الوضع أو العموم أو الإطلاق، أو قرائن حالية أو مقالية و نحو ذلك، لا يكون تفسيراً؛ إذ لا تعقيد في اللفظ حتّى يكون حلّه تفسيراً، وإنما هو جري على المتعارف المعهود، في متفاهم الأعراف.

إذ قد عرفت أن التفسير، هو: كشف القناع عن اللفظ المشكل، ولا إشكال حيث وجود أصالة الحقيقة أو أصالة الإطلاق أو العموم، أو غيرها من أصول لفظية معهودة. نعم، إذا وقع هناك إشكال في اللفظ؛ بحيث يُهم المعنى إيهاماً، وذلك لأسباب و عوامل قد تدعو إيهاماً أو إجمالاً في لفظ القرآن، فيخفى المراد خفاءً في ظاهر التعبير، فعند ذلك تقع الحاجة إلى التفسير ورفع هذا التعقيد.

و التفسير - في هكذا موارد - لا يمكن بمجرّد اللجوء إلى تلکم الأصول المقررة لكشف مرادات المتكلمين حسب المتعارف؛ إذ له طرق و وسائل خاصة غير ما يتعارفه العقل، في فهم معاني الكلام العادي، على ما يأتي في كلام السيّد الطباطبائي.

و التفسير بالرأي المذموم عقلاً و الممنوع شرعاً، إنما يعني هكذا موارد متشابهة أو متوَعِّلَة في الإيهام، فلا رابط - ظاهراً - لما ذكره سيّدنا الأستاذ، مع موضوع البحث، وعبارته الأخيرة ربّما تشي بذلك.

* * *

و قال سيّدنا العلامة الطباطبائي: «الإضافة - في قوله: برأيه - تفيد معنى الاختصاص والانفراد والاستقلال، بأن يستقل المفسّر في تفسير القرآن بما عنده من الأسباب في فهم الكلام العربي، فيقيس كلامه تعالى بكلام الناس، فإنّ قطعة من الكلام من أيّ متكلم إذا

١. البيان في تفسير القرآن الطبري، ص ٢٨٧-٢٨٨.

ورد علينا، لم نلبث دون أن نعمل فيه القواعد المعمولة في كشف المراد الكلامي، ونحكم بذلك أنه أراد كذا، كما تجري عليه في الأقارير والشهادات وغيرهما. كل ذلك لكون بياننا مبنياً على ما نعلمه من اللغة، ونعده من مصاديق الكلمات، حقيقة ومجازاً.

والبیان القرآني غير جار هذا المجري، بل هو كلام موصول بعضها ببعض، في حين أنه مفصول، ينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض، كما قاله عليّ عليه السلام.

فلا يكفي ما يتحصل من آية واحدة بإعمال القواعد المقررة، دون أن يتعاهد جميع الآيات المناسبة لها، ويجتهد في التدبر فيها.

فالتفسير بالرأي المنهي عنه أمر راجع إلى طريق الكشف دون المكشوف. فاللهي إنما هو عن تفهّم كلامه تعالى على نحو ما يتفهّم به كلام غيره، حتّى ولو صادف الواقع؛ إذ على فرض الإصابة يكون الخطأ في الطريق.

قال: ويؤيد هذا المعنى، ما كان عليه الأمر في زمن النبي ﷺ فإن القرآن لم يكن مؤلفاً بعد، ولم يكن منه إلا سور أو آيات متفرقة في أيدي الناس، فكان في تفسير كل قطعة قطعة منه خطر الوقوع في خلاف المراد.

قال: والمحصل أن المنهي عنه إنما هو الاستقلال في تفسير القرآن، واعتماد المفسر على نفسه من غير رجوع إلى غيره، ولازمه وجوب الاستمداد من الغير بالرجوع إليه.

قال: وهذا الغير - لا محالة - إما هو الكتاب أو السنة. وكونه هي السنة، يناه في كون القرآن هو المرجع في تبيان كل شيء، وكذا السنة الأمرة بالرجوع إلى القرآن عند التباس الأمور، وعرض الحديث عليه لتمييز صحيحه عن سقيم، فلم يبق للمراجعة والاستمداد في تفسير القرآن سوى نفس القرآن. فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض.^١

* * *

١. الميزان، ج ٣، ص ٢٧٧-٢٧٩، وراجع ج ١، ص ١٠ أيضاً.

٢. نهج البلاغة، النسخة رقم ٨٣٣.

و هذا الذي ذكره سيدنا العلامة - هنا - تحقيق عريق بشأن طريقة فهم معاني كلامه تعالى.

قال - في مقدمة التفسير -:

إنَّ الاتِّكافَ والاعتمادَ على الأنسِ والعادة في فهم معاني الآيات، يشوِّش على الفاهم سبيله إلى إدراك مقاصد القرآن؛ إذ كلامه تعالى ناشئ من ذاته المقدَّسة، التي لا منيل لها ولا نظير «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ»^١، «لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ»^٢، «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ»^٣.

و هذا هو الذي دعا بالنابهين أن لا يقتصروا على الفهم المتعارف لمعاني الآيات الكريمة، وأجازوا لأنفسهم الاعتماد - لإدراك حقائق القرآن - على البحث والنظر والاجتهاد.

و ذلك على وجهين: إمَّا بحثاً علمياً أو فلسفياً أو غيرهما، للوصول إلى مراده تعالى في آية من الآيات؛ وذلك بعرض الآية على ما توصل إليه العلم أو الفلسفة من نظريات أو فرضيات مقطوع بها، وربما المظنون منها ظناً راجحاً، وهذه طريقة يرفضها ملامح القرآن الكريم.

و إمَّا بمراجعة ذات القرآن، واستيضاح فحوى آية من نظيرتها، وبالتدبر في نفس القرآن الكريم؛ فإن القرآن ينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض، كما قال عليّ عليه السلام: قال تعالى: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ»^٤، وحاشا القرآن أن يكون تبياناً لكل شيء ولا يكون تبياناً لنفسه، وقد نزل القرآن ليكون هدى للناس ونوراً مبيناً وبيّنة وفرقاناً، فكيف لا يكون هادياً للناس إلى معالمه ومرشداً لهم على دلائله؟! وقد قال تعالى: «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا»^٥، وأي جهاد أعظم من بذل الجهد في سبيل

٢. الأنعام (٦): ١٠٣.

٤. النحل (٦٦): ٨٩.

١. الشورى (٤٢): ١١.

٣. الصافات (٣٧): ٨٥٩.

٥. العنكبوت (٢٩): ٦٩.

فهم كتاب الله، واستنباط معانيه واستخراج لآئحته. نعم، القرآن هو أهدى سبيل إلى نفسه، لا شيء أهدى منه إليه.

وهذه هي الطريقة التي سلكها النبي وعشرته الأطهار عليهم السلام في تفسير القرآن والكشف عن حقائقه - على ما وصل إلينا من دلائلهم في التفسير - ولا يوجد مورد واحد استعانوا لفهم آية، بحجة نظرية عقلية أو فرضية علمية، ونحو ذلك.

* * *

و توضيحاً لما أفاده سيّدنا العلامة في هذا المجال، نعرض ما يلي:

كان للبيان القرآني أسلوبه الخاص في التعبير والأداء، ممتازاً على سائر الأساليب، ومختلفاً عن سائر البيان، مما يبدو طبيعياً، شأن كل صاحب فن جديد كان قد أتى بشيء جديد.

و من ثمّ كان للقرآن لغته الخاصة به، وسماته الذي يتكلم به، ولهجته التي يلهج بها، ممتازة عن سائر اللهجات.

نعم، إنّ للقرآن مصطلحات في تعابيرها عن مقاصده ومراميها، كانت تخصّه، ولا تعرف مصطلحاته إلا من قبل نفسه، شأن كل صاحب اصطلاح.

و من المعلوم أنّ الوقوف على مصطلحات أيّ فنّ من الفنون، لا يمكن بالرجوع إلى اللغة وقواعدها، ولا إلى الأصول المقررة لفهم الكلام في الأعراف؛ لأنّها أعراف عامة، وهذا عرف خاص. فمن رام الوقوف على مصطلحات علم النحو - مثلاً - فلا بدّ من الرجوع إلى النحاة أنفسهم لا غيرهم، وهكذا سائر العلوم والفنون من ذوي المصطلحات.

و من ثمّ فإنّ القرآن هو الذي يفسّر بعضه بعضاً، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض.

* * *

نعم، يختص ذلك بالتعابير ذوات الاصطلاح، وليس في مطلق تعابيرها التي جاءت وفق العرف العام.

و بعبارة أخرى: ليس كل تعابير القرآن مما لا ينهم إلا من قبله، إنما تلك التعابير التي جاءت وفق مصطلحه الخاص، وكانت تحمل معاني غير معاني سائر الكلام. أمّا التي جاءت وفق اللغة أو العرف العام، فطريق فهمها هي اللغة والأصول المقررة عرفياً لفهم الكلام.

و بعبارة ثالثة: الحاجة إلى عرفان مصطلحات القرآن، إنما تكون في موارد التفسير؛ حيث الغموض والإيهام في ظاهر التعبير، دون ترجمة الألفاظ والكلمات، وإدراك مفاهيم الكلام وفق الأعراف العامة، مما يعود إلى البحث عن حجّة الظواهر، فإنها حجّة بلا كلام، سواء في القرآن أم في غيره، سواء بسواء.

و هذا غير المبحوث عنه هنا، حيث حقق المراد وراء ستار اللفظ، المعبر عنه بالباطن المختفي خلف الظاهر. فالظاهر لعامة الناس حيث متفاهمهم، ويكون حجّة لهم ومستنداً يستندون إليه في التكليف، أمّا الباطن فللخاصة ممن يتعمقون في خفايا الأسرار، ويستخرجون الخبايا من وراء الستار.

و من ثمّ كان المطلوب من الأئمة (العلماء والأئمة) الشنكر في الآيات والتدبر فيها، و تعقلها و معرفتها حق المعرفة.

قال تعالى: «وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ نُبَيِّنَ لِنَاسٍ مَّا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ»^١.

قال: «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا»^٢.

و قال: «كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَذَكَّرَ آيَاتِهِ وَيُنذِرَ أُولُوا الْأَنْبَابِ»^٣.

و قال رسول الله ﷺ: «لله ظهير و بطن، فظاهره حكم و باطنه علم، ظاهره أتيق و باطنه عميق، لا تحصي عجائبه ولا تبلى غرائب، فليجل جلال بصره، وليبلغ الصفة نظره، فإن

١. محمد (٤٧): ٢٤.

٢. النحل (١٦): ٤٤.

٣. ص (٣٨): ٢٩.

التفكر حياة قلب البصير»^١.

قال العلامة الفيلسوف ابن رشد الأندلسي أنه قد سلك الشرع في تعاليمه وبرامجه الناجحة مسلكاً ينتفع به الجمهور، ويخضع له العلماء. ومن ثم جاء بتعابير يفهمها كل من الصنفين: الجمهور يأخذون بظاهر المثال، فيتصورون عن الممثل له ما يشاكل الممثل به، ويقتنعون بذلك. والعلماء يعرفون الحقيقة التي جاءت في طي المثال^٢.
و سنبحث عن منهج القرآن وأساليب بيانه في فصل قادم، إن شاء الله.

و إليك بعض الأمثلة، شاهد لما ذكره سيّدنا العلامة:

قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ فِي مَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ»^٣.

هذا خطاب عام يشمل كافة الذين آمنوا، يدعوهم إلى الإيمان الصادق والاستجابة - عقيدة وعملاً - لدعوة الإسلام، والاستسلام العام للشرعية الخراء؛ إذ في ذلك حياة القلب، والطمأنينة في العيش، وإدراك لذاته نعمة الوجود.

أمّا الحائد عن طريقة الدين والمخالف لمنهج الشريعة، فإنه في قلق من الحياة، يعيش مضطرباً قد سلبت راحته كوارث الدهر، يخشى مناجتها في كل لحظة وأوان.

و أمّا المتكل على الله، فهو آمن في الحياة، يداوم مسيرته، فارغ البال في كنفه تعالى «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ»^٤، «الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ»^٥.

هذا تنسير الدعوة إلى ما فيه الحياة، ولعله ظاهر لا غبار عليه.

و أمّا قوله تعالى - بعد ذلك - «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ»^٦ فيعلوه غبار

١. الميزان، ج ١، ص ١٠٩ الكافي، ج ٣، ص ٥٩٩.
٢. راجع: رسالته الكشف عن مناهج الأدلة، ص ٩٧.
٣. الأنفال (٨): ٢٤.
٤. العلق (٦٥): ٣.
٥. الرعد (١٣): ٢٨.
٦. الأنفال (٨): ٢٤.

إيهاهم؛ إذ يبدو أنه تهديد بأولئك الحائدين عن جادة الحق، أن سوف يجازون بحيلولة بينهم وبين أنفسهم.

و السؤال: كيف هذه الحيلولة، وما وجه كونها عقوبة متقابلة مع نبد أحكام الشريعة؟
و للإجابة على هذا السؤال وقع اختلاف عفيف بين أهل الجبر وأصحاب القول بالاختيار، كما تناوشها كل من الأشاعرة وأهل الاعتزال، كل يجرّ النار إلى قُرصه، كما اختلف أرباب التفسير على وجوه أوردناها في الجزء الثالث من التمهيد، عند الكلام عن المتشابهات، ضمن آيات الهداية والضلال برقم (٨٠).

* * *

و الذي رجّحناه في تأويل الآية، هو معنى غير ما ذكره جلّ المفسرين، استفدناه من مواضع من القرآن نفسه: إن هذه الحيلولة كناية عن إماتة القلب، فلا يعي شيئاً بعد فقد الحياة.

لا تُعْجِبَنَّ الْجَهْلُ حُلَّتْهُ فَذَلِكَ مَيِّتٌ وَتَوْبُهُ الْكَفُّ

الإسلام دعوة إلى الحياة، وفي رفضها رفض للحياة، تلك الحياة المنبعثة عن إدراكات نبيلة، والملمة للإنسان شعوراً بفضائل يسعد به في الحياة، ويحظى بكرامته الإنسانية العليا.

أما إذا عاكس فطرته وأطاح بحظه، فإنه سوف يشقى في الحياة، ولم يزل يسعى في ظلمات غيّه وجهله «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ النَّاغُوتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ».

فالإنسان النائم في ظلمات غيّه قد فقد شعوره، واقتقد كرامته العليا في الحياة، فهذا قد نسي نفسه وذهل عن كونه إنساناً، يحسب من نفسه موجوداً ذا حياة بهيمية سفلى، إنما يسعى وراء نهمه وشبع بطنه، لا هدف له في الحياة سواه.

و هذا التسافل في الحياة كانت نتيجة تساهله بشأن نفسه وإهمال جانب كرامته،

وهذا هو معنى قوله تعالى: «وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ»، قال تعالى: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ».^٢

فإن نسيان النفس كناية عن الابتعاد عن معالم الإنسانية و الشرف السليد «وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ».^٣

* * *

و قال تعالى: «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا».^٤

اختلف الفقهاء في موضع القطع من يد السارق؛ حيث الإبهام في ذات اليد، أنها من الكف أم من المرفق أم الساعد أم الكر سوع (طرف الزند) أم الأشاجع (أصول الأصابع)؟ روى أبو النضر العياشي في تفسيره بالإسناد إلى زرقة صاحب ابن أبي داود، قاضي القضاة ببغداد، قال: أتني بسارق إلى المعتصم وقد أقر بالسرقة، فسأل الخليفة تطهيره بإقامة الحد، فجمع المفتهاء يستفتيهم في إقامة حد السارق عليه، وكان ممن أحضر محمد بن علي الجواد عليه السلام، فسألهم عن موضع القطع.

فقال ابن أبي داود: من الكر سوع، استناداً إلى آية التيمم؛ حيث المراد من اليد في ضربتيه هو الكف، ووافقه قوم. وقال آخرون: من المرفق، استناداً إلى آية الوضوء.

فالتفت الخليفة إلى الإمام الجواد يستعلم رأيه، فاستعفاه الإمام، فأبى وأقسم عليه أن يخبره برأيه.

فقال عليه السلام: أما إذا أقسمت عليّ بالله، إني أقول: إنهم أخطأوا فيه السنة، فإن القطع يجب أن يكون من مفصل أصول الأصابع، فيترك الكف.

قال المعتصم: وما الحجة في ذلك؟

قال الإمام: قول رسول الله ﷺ: السجود على سبعة أعضاء: الوجه واليدين والركبتين والرجلين، فإذا قطعت يده من الكر سوع أو المرفق، لم يبق له يد يسجد عليها،

٢. الحشر (٥٩): ٨٩.

٤. المائدة (٥): ٣٨.

١. الأنعام (٦): ١١٠.

٣. الأعراف (٧): ٨٧٦.

وقد قال الله تعالى: «وَأَنْ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ» يعني به هذه الأعضاء السبعة التي يسجد عليها «فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا»^١، وما كان لله لم يقطع.

فأعجب المعتصم هذا الاستنتاج البديع، وأمر بالقطع من الأشاجع^٢.

انظر إلى هذه الالتفاتة الرقيقة، يجعل من آية المساجد، بتأويل ظاهرها (هي المعابد) إلى باطنها (الشمول لما يسجد به، أي يتحقق به السجود)، منضمة إلى كلام الرسول في بيان مواضع السجدة، يجعل من ذلك كله دليلاً على تفسير آية القطع و تعيين موضعه، بهذا النمط البديع.

وقد استظهر عليه السلام من الآية أن راحة الكف، وهي من مواضع السجود، كانت لله، فلا تشملها عقوبة الحد التي هي جزاء سيئة، لا تحل فيما لا يعود إلى مرتكبها، فإن راحة الكف موضع السجود لله.



والأستاذ الذهبي - هنا - محاولة غريبة يجعل من التفسير بالرأي قسمين: قسمًا جائزًا وممدوحًا، وآخر مذمومًا غير جائز. وحاول تأويل حديث المنع إلى القسم المذموم. قال: والمراد بالرأي هنا الاجتهاد، وعليه فالفسر بالرأي عبارة عن تفسير القرآن بالاجتهاد، بعد معرفة المفسر لكلام العرب ومناحيهم في القول، ومعرفة للأنماط العربية ووجوه دلالتها، واستعانت به في ذلك بالشعر الجاهلي، ووقوفه على أسباب النزول، ومعرفة بالناسخ والمنسوخ من آيات القرآن، وغير ذلك من الأدوات التي يحتاج إليها المفسر.

قال: واختلف العلماء قديمًا في جواز تفسير القرآن بالرأي، فقوم تشددوا في ذلك ولم يجيزوه، وقوم كان موقفهم على العكس فلم يروا بأساً من أن يفسروا القرآن باجتهادهم، والمريقتان على طرفي نقيض فيما يبدو، وكل يعزز رأيه بالأدلة والبراهين.

ثم جعل يسرد أدلة لكل من الفريقين، ويجب عليها واحدة واحدة بإسهاب، وأخيراً قال: ولكن لو رجعنا إلى أدلة الفريقين وحللنا أدلتهم تحليلاً دقيقاً؛ لظهر لنا أن الخلاف لفظي، وأن الرأي قسمان:

قسم جارٍ على موافقة كلام العرب ومناحيهم في القول، مع موافقة الكتاب والسنة، ومراعاة سائر شروط التفسير، وهذا القسم جائز لا شك فيه.

وقسم غير جارٍ على قوانين العربية، ولا موافقة للأدلة الشرعية، ولا مستوف لشروط التفسير، وهذا هو مورد النهي ومحط الذم.

قلت: أمّا تورّع بعض السلف عن القول في القرآن، فلعدم ثقته بذات نفسه وحالة معرفته بمعاني كلام الله. أمّا العلماء العارفون بمرامي الشريعة، فكانوا يتصدّون التفسير عن جرأة علمية وإحاطة شاملة لجوانب معاني القرآن.

و أمّا التفسير بالرأي فأمر وقع المنع منه على إطلاقه، وليس على قسم منه، كما زعمه هذا الأستاذ.

والذي أوقعه في هذا الوهم، أنه حسب التفسير بالرأي هنا بمعنى الاجتهاد، في مقابلة التفسير بالمأثور، ولا شك من جواز الاجتهاد في استنباط معاني الآيات الكريمة إن وقع عن طريقه المألوف.

حجّة ظواهر الكتاب

قد يزعم البعض أن هناك من يرى عدم جواز الأخذ بظواهر كلام الله تعالى؛ حيث ظاهره أنيق وباطنه عميق، لا يُسر غوره ولا يُبلغ أقصاه، ولا سيما بعد كثرة الصوارف عن هذه الظواهر، من تخصيص وتقييد ونسخ وتأويل.

غير أن هذا يتنافى والأمر بالتدبر في آياته، والحث على التعمق فيها واستخراج لآلها؛

«أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا»؛^١ «فَإِنَّمَا يَسْمُرُ نَاهٍ لِّلسَّانِكِ نَعْلَمُهُمْ يَتَذَكَّرُونَ»؛^٢ «وَلَقَدْ يَسْرُرْنَا الْقُرْآنَ لِنَذَكِّرَ فَهْلَ مِنْ مَذَكِّرٍ»؛^٣ «إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا نَعَلِّكُمْ تَعْقِلُونَ»؛^٤ «قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ»؛^٥ «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَشِيرَوا آيَاتِهِ وَيَتَذَكَّرُوا أُولُوا الْأَلْبَابِ»^٦.

وقد رغب النبي ﷺ في الرجوع إلى القرآن عند مدلهفات الأمور و عرض مشتهات الأحاديث عليه، وهكذا ندب الأئمة من أهل البيت عليه السلام إلى فهم الأحكام من نصوص الكتاب، والوقوف على رموزه ودقائقه في التعبير والبيان.

قال رسول الله ﷺ: «فَإِذَا التَّبَسَّطَ عَلَيْكُمْ الْفَنَنُ كَقَطْعِ الدَّلِيلِ الْمُظْلَمِ فَعَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ شَافِعٌ مُشَفِّعٌ وَمَا حِلُّ مُصَدِّقٍ»^٧. ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار. وهو الدليل يدل على خير سبيل، وهو كتاب فيه تفصيل وبيان و تحصيل، وهو التفصيل ليس بالهزل^٨. وله ظهر وبطن، فظاهره حكم و باطنه علم^٩، فظاهره أنيق و باطنه عميق. له نجوم و على نجومه نجوم^{١٠}. لا تحصي عجائبه ولا تبلى غرائب^{١١}. فيه مصابيح الهدى و منار الحكمة، و دليل على المعرفة، لمن عرف الصفة^{١٢}. فليجل جلال بعصره، و ليبلغ الصفة نظره^{١٣}، ينج من عظمه، و يتخلص من شسب^{١٤}. فإن التفكير حياة قلب

١. محمد (٤٧): ٣٤.

٢. الدعاء (٤٤): ٥٨.

٣. النمر (٤٤): ٨٧.

٤. الزمر (٣٩): ٢٨.

٥. الزمر (٣٩): ٢٨.

٦. الزمر (٣٩): ٢٨.

٧. أي جاء لبيان الحق و فسه عن الياصل، و ليس مجرد تفنن في الكلام و الأدب الرفيع.

٨. فإن حواهر القرآن هي بيان الأحكام التكليفية و التشريعات العاهرة، أما باطنه فمسر، علم و حكمة و حقائق راعية.

٩. أي دلائل لا تفتد بعضها على بعض شاهدة.

١٠. أي دلائل لا تفتد بعضها على بعض شاهدة.

١١. أي دلائل لا تفتد بعضها على بعض شاهدة.

١٢. أي دلائل لا تفتد بعضها على بعض شاهدة.

١٣. أي دلائل لا تفتد بعضها على بعض شاهدة.

١٤. أي دلائل لا تفتد بعضها على بعض شاهدة.

البصير، كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور. فعليكم بحسن التخلص وقلّة التربّص»^١.
و بهذا المعنى قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ فِيهِ مَنَارٌ هَدَى
و مصابيحٌ دَجَى، فليجَلْ جَالٌ بصره، و يفتح للضياء نظره. فَإِنَّ التَّفَكُّرَ حَيَاةٌ قَلْبِ البصير،
كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور»^٢.

و التفكير المندوب إليه هنا هو التعمّق في دلائل القرآن ودقائق تعبيره، قال تعالى:
«وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَتَعْلَمَهُم بِمَعْنَى ذُرُورِهِمْ»^٣.
فالتفكير فيه - بعد التبیین والبيان - هو المندوب إليه، وهي الغاية القصوى من نزول
القرآن.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «لَقَدْ تَجَلَّى اللَّهُ لَخَلْقِهِ فِي كَلَامِهِ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَبْصُرُونَ»^٤.
و قال: «إِنَّمَا الْقُرْآنُ أَمَنٌ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ دُونَ غَيْرِهِمْ، وَلِقَوْمٍ يَتْلُونَهُ حَقًّا تِلَاوَتَهُ، وَهُمْ
الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَعْرِفُونَهُ»^٥.

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «لَا خَيْرَ فِي قِرَاءَةِ لَيْسَ فِيهَا تَدَبُّرٌ»^٦.
و قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ، بَعْدَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، أَفْضَلَ مِنَ الْعِلْمِ بِكِتَابِ
اللَّهِ وَ الْمَعْرِفَةِ بِتَأْوِيلِهِ»^٧.

و لما نزلت الآية «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي
الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُهُودِهِمْ وَ يُسْتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ»^٨ قال صلى الله عليه وآله: «وَيْلٌ لِّمَن لَّا كُفَى
بَيْنَ لَحْيَيْهِ تَمَّ لَمْ يَتَدَبَّرْهَا»^٩.

١. الكافي، ج ٢، ص ٥٩٨-٥٩٩ (كتاب: فضل القرآن رقم ٣)، والمراد بحسن التخلص: الصديق في الإخلاص، و قلّة
التربّص: كفاية عن سرعة الإقدام وأن لا يكف بنفسه عن السعي في الخير.

٢. النجاشي (١٦): ٤٤.

٣. الكافي، ج ٢، ص ٦١٠ رقم ٥.

٤. المحاسن الميراثية، ص ٦٩٣ و ٦٩٤.

٥. بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٠٧.

٦. بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ٨٨٣.

٧. معاني الأخبار المصدوق، ص ٣١٥.

٨. مجمع البيان، ج ٢، ص ٥٥٤.

٩. آل عمران (٣): ١٩٠ و ١٩١.

و بعد، فنقول: ويل لمن نظر في هذه الآيات الكريمة و الأحاديث المأثورة عن أهل بيت الوحي و الرسالة، و لآكها بين لحييه تمّ لم يتدبرها بإمعان، فأخذها بالهزل و لم يعتبرها الحكم المنصل.

* * *

و أيضاً، فإن أخبار العرض على كتاب الله، خير شاهد على إمكان فهم معانيه و الوقوف على مبانيه.

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ عَلَى كُلِّ حَقِّ حَقِيقَةً، و عَلَى كُلِّ صَوَابٍ نُورًا، فما وافق كتاب الله فخذوه، و ما خالف كتاب الله فدعوه».

و خطب بمنى، و كان من خطبته: «أَيُّهَا النَّاسُ مَا جَاءَكُمْ عَنِّي يُوَافِقُ كِتَابَ اللَّهِ فَأَنَا قُلْتُهُ، و ما جاءكم يخالف كتاب الله فلم أقله».

و قال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «كُلُّ شَيْءٍ مُرَدُّودٌ إِلَى الْكِتَابِ وَ السُّنَّةِ، وَ كُلُّ حَدِيثٍ لَا يُوَافِقُ كِتَابَ اللَّهِ فَهُوَ زُخْرَفٌ».

و قال: «إِذَا وَرَدَ عَلَيْكُمْ حَدِيثٌ فَوَجَدْتُمْ لَهُ شَاهِدًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، أَوْ مِنْ قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَ إِلَّا فَالَّذِي جَاءَكُمْ بِهِ يُؤْتِي بِهِ».

* * *

و في كثير من إرجاعات الأئمة عليهم السلام أصحابهم إلى القرآن، لفهم المسائل و استنباط الأحكام منه، لدليل ظاهر على حجّية ظواهر القرآن، و ضرورة الرجوع إليه.

قال زرارة بن أعين: قلت لأبي جعفر الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام: ألا تخبرني من أين علمت و قلت: إن المسح ببعض الرأس و بعض الرجلين؟

فضحك، و قال: يا زرارة، قاله رسول الله ﷺ و نزل به الكتاب من الله؛ لأن الله عزّ و جلّ قال: «فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ» فعرّفنا أن الوجه كلّهُ ينبغي أن يغسل، ثمّ قال:

١. الأحاديث مستخرجة من الكافي، ج ١، ص ٦٩، باب: الأخذ بالسنة و شواهد الكتاب، رقم ١ و ٥ و ٣ و ٢.

«وَأَيْدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ» فوصل اليدين إلى المرفقين بالوجه، فعرفنا أنه ينبغي لهما أن يغسلا إلى المرفقين، ثم فصل بين الكلام فقال: «وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ» فعرفنا حين قال: «برؤوسكم» أن المسح ببعض الرأس، لمكان «الباء»، ثم وصل الرجلين بالرأس، كما وصل اليدين بالوجه، فقال: «وَأَرْجُلُكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ»^١ فعرفنا حين وصلهما بالرأس، أن المسح على بعضهما^٢.

فقد نبه الإمام على أن زيادة «الباء» في مدخول فعل متعدّد بنفسه لا بدّ فيها من نكتة لافتة، وليست سوى إرادة الاكتفاء بمجرد مماثلة الماسح مع الممسوح؛ لأنّ الباء تدلّ على الربط والإصاق، والتكليف يتوجّه إلى التيد الملحوظ في الكلام. فإذا وضع الماسح يده على رأسه وأمرها عليه، فباوّل الأمر يحصل التكليف فيسقط، ولا دليل على الإدامة، فالاستيعاب ليس شرطاً في المسح.

هكذا نبه الإمام على إمكان استفادة مثل هذا الحكم التكليفي الشرعي من الآية، بإمعان النظر في قيود الكلام.



و عن عبد الأعلى مولى آل سام، قال: قال لأبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: عترت فانقطع ظفري، فجعلت على أصبعي مرارة، فكيف أصنع بالوضوء؟ قال: يُعرف هذا وأشباهه من كتاب الله عزّ وجلّ، قال الله تعالى: «مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ»^٣ امسح عليه^٤.

يعني: أنّ آية نفي الحرج تدلّ على رفع التكليف؛ حيث وجود ضرر أو حرج على المكلف، فيجب أن ينهم ذلك كلّ مسلم من القرآن ذاته.

١. هذا بناء على قراءة «وَأَرْجُلُكُمْ» بالخفض، كما هي أيضاً قراءة مشهورة، غير أنّ القراءة بالنصب من العطف على المحلّ كما رجحناه في مجاله المناسب، غير أنّ خصوصية البعضيّة مدفوعة فيها، حسبما نبهنا عليه.

٢. من لا يحضره الفقيه للصدوق، ج ١، ص ٥٦-٥٧، باب ٥٦، النجاشي، رقم ٣١٢/٩ الكافي، ج ٣، ص ٣٨ وساق الشيعه، ج ١، ص ٢٩١ (ط إسلامية).

٣. الحج (٣٣): ٧٨. ٤. وساق الشيعه، ج ١، ص ٣٢٧، رقم ٥.

* * *

و كذلك استدلالات الأئمة عليهم السلام في كثير من الموارد، بآيات قرآنية، لإثبات مطلوبهم لدى المخاطبين، ففي ذلك عرض مباشر لشمول فهم القرآن للعموم. وقد أتى سيدنا الأستاذ الإمام الخوئي رحمته الله بأمثلة على ذلك كثيرة، فليراجع.

نسبة خاطئة

نعم، نسب إلى جماعة الأخباريين - في عصر متأخر - ذهبهم إلى رفض حجّة الكتاب، فلا يصح الاستناد إليه ولا استنباط الأحكام منه، وهي نسبة غير صحيحة على إطلاقها؛ إذ لم يذهب إلى هذا المذهب الغريب أحد من الفقهاء، لا في القديم ولا في الحديث، ولا لمسنا في شيء من استناداتهم الفقهيّة ما يشي بذلك، بل الأمر بالعكس. ولعلّ فيما فرط من بعض المتطرّفين منهم بصدد المغالاة بشأن أهل البيت - وموضعهم القريب من القرآن المجيد - بعض تعابير أوجبت هذا الوهم، ومع ذلك فإنّ له تأويلاً، وليس على ظاهره المريب.

قال المولى محمد أمين الأسير آبادي (ت ١٠٣٣هـ):

«الغصوب عندي مذهب قدمائنا الأخباريين وطريقتهم. أمّا مذهبهم فهو أنّ كلّ ما يحتاج إليه الأئمة إلى يوم القيامة، عليه دلالة قطعيّة من قبله تعالى حتّى أرش الخدش. وأنّ كثيراً ممّا جاء به النبي صلى الله عليه وآله من الأحكام، وممّا يتعلّق بكتاب الله وسنة نبيه، من نسخ وتقييد وتخصيص وتأويل، مخزون عند العترة الطاهرة، وأنّ القرآن في الأكثر ورد على وجه التعمية بالنسبة إلى أذهان الرعيّة^١، وكذلك كثير من السنن النبويّة. وأنّه لا سبيل لنا في ما لا نعلمه من الأحكام النظرية^٢ الشرعيّة، أصليّة كانت أو فرعيّة، إلّا السماع من

١. البيان الخوئي، ص ٢٨٢-٢٨٤.

٢. أي على وجه الإجمال والإيهام من غير بيان التفصيل وذكر التبيد والمراعاة، فإنّها خافية على أذهان العامة غير المطلعين على الشرح والتبيين الذي جاء في كلام الرسول صلى الله عليه وآله.

٣. منصوصه من الأحكام النظرية: المسائل غير الضرورية التي هي بحاجة إلى اجتهاد وإعمال نظر.

الصادقين عليه السلام وأنه لا يجوز استنباط الأحكام النظرية من ظواهر الكتاب ولا ظواهر السنن النبوية، ما لم يعلم أحوالهما من جهة أهل الذكر عليه السلام، بل يجب التوقف والاحتياط فيهما^١.

وقال بصدد بيان انحصار مدرك ما ليس من ضروريات الدين من المسائل الشرعية، أصليّة كانت أو فرعية، في السماع عن الصادقين عليه السلام:

«الدليل الثاني: حديث الثقلين المتواتر بين الفريقين؛ إذ معناه: أنه يجب التمسك بكلامهم عليه السلام ليتحقق التمسك بالأمرين. والسرّ فيه أنه لا سبيل إلى فهم مراد الله تعالى إلا من جهتهم؛ لأنهم عارفون بناسخه ومنسوخه، والباقي على إطلاقه، والمؤول وغير ذلك، دون غيرهم، خصّهم الله والنبى بذلك»^٢.

قلت: ليس في كلامه - ولا في كلام من تبعه من الأخباريين المتأخرين - ما يشي بترك كتاب الله وإيعاده عن مجال الفقه والاستنباط نعم، سوى عدم إفراده في الاستناد، ولزوم مقارنته بالمأثور من صحاح الأحاديث الصادرة عن أئمة أهل البيت عليه السلام.

ولا شك أن في القرآن أصول التشريع وكنياته، وإكمال التفاصيل إلى بيان النبي صلى الله عليه وآله الذي أودع الكثير من بيانه بشأن التشريع إلى خلفائه المرضيين، فعندهم ودائع النبوة، وهم ورثة الكتاب وحملته إلى الخلاق.

فلا يجوز إفراد الكتاب عن العترة، ولا يفترقان حتى يردا على النبي صلى الله عليه وآله عند الحوض.

وهذا هو مراد الأستر آبادي «لا يجوز استنباط الأحكام من الكتاب والسنة النبوية ما لم يعلم أحوالهما من جهة أهل الذكر عليهم السلام»، أي بعد النقص عن الدلائل في

١. الفوائد المدنية للأستر آبادي، ص ٤٧.

٢. أي المراد الجليّ - الذي لا يعرف إلا بعد النقص والياس عن الصوارف من تخصيص أو تقييد أو قرينة مجاز، دون المراد الاستعمالي المفهوم من ظاهر النظم لمجرد العلم بالوضع. ومن الواضح أن التسرع في الأخذ بظاهر الاستعمال في نصوص الشريعة، غير جائز، إلا بعد التثبت والنقص التام.

٣. الفوائد المدنية، ص ٢٨.

كلامهم بشأنهما، إنما العتور على بيان منهم، أو اليأس من التخصيص أو التقييد، فعند ذلك يجوز.

* * *

و للمولى الكبير محمد بن الحسن الحرّ العاملي (١٠٣٣-١١٠٤ ق.) بيان مسهب بشأن مواضع آل البيت من القرآن الكريم، وأنّ لتفسيرهم بالذات مدخلية تامة في فهم معاني الآيات، ولا سيما آيات الأحكام.

وقد توسّع في الكلام حول ذلك في فوائده الطوسية (فائدة ٤٨)، كما عقد لذلك أبواباً في كتاب القضاء من كتابه وسائل الشيعة، ذكر فيها ما يقرب من مئتين و عشرين حديثاً، قال بشأنها:

«أوردنا منها ما تجاوز حدّ التواتر، وهي لا تقصر سنداً ولا دلالة عن النصوص على كلّ واحد من الأئمة، وقد تضمنت أنّه لا يعلم المحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، وغير ذلك إلا الأئمة، وأنّه يجب الرجوع إليهم في ذلك، وأنّه لا يعلم تفسيره ولا تأويله، ولا ظاهره ولا باطنه غيرهم، ولا يعلم القرآن كما نُزل غيرهم، وأنّ الناس غير مشتركين فيه كاشتركتهم في غيره، وأنّ الله إنّما أراد بتعميته (أي الإجمال والإبهام في لفظه) أن يرجع الناس في تفسيره إلى الإمام، وأنّه كتاب الله الصامت، والإمام كتاب الله الناطق. ولا يكون حجة إلا بقيم (أي من يقوم بتبيينه وتفسيره) وهو الإمام، وأنّه ما ورث علمه إلا الأئمة، ولا يعرف ألقاضه ومعانيه غيرهم، وأنّه لاحتماله للموجوه الكثيرة، يحتجّ به كلّ محقّ ومبطل، وأنّه إنّما يعرف القرآن من خطب به».

و ظاهر كلامه هو ظاهر عنوان الباب الذي عقده أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني، في كتاب الحجة من الكافي، لبيان: «أنّه لم يُجمع القرآن كلّّه ولم يحط به علماً، ظاهره وباطنه، سوى الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، وأنّ علم المحكم والمتشابه، والناسخ

١. الفوائد الطوسية لحرّ العاملي: ص ٨٩٦-٨٩٩. وراجع: منجيات: ١٩٦-١٩٧؛ وسائل الشيعة: ج ١٨، ص ٤١٩؛ من كتاب القضاء: أبواب: بذات القاضي ٤ و ٥ و ٦ و ٧ (ط الإسلامية).

والمسوخ، والعام والخاص علماً كاملاً، مودع عندهم، ورتوه من جدهم الرسول ﷺ^١.

وهذا شيء لا ينكر، ولا يجوز الأخذ بظاهر الكتاب، ما لم يرجع إلى ما ورد عن الرسول وخلفائه العلماء، فإن في كلامهم التبيين والتفصيل لما جاء في القرآن من الإجمال والإيهام، في التكليف والتشريع.

وهكذا فهم معاصره السيّد نعمّة الله الجزائريّ (١٠٥٠-١١١٢ ق.) من ظاهر الروايات، وبذلك جمع بين متعارضاتها.

قال: «ذهب المجتهدون - رضوان الله عليهم - إلى جواز أخذ الأحكام من القرآن، بالفعل قد أخذوا الأحكام منه، وطرحوا ما ظاهره المنافاة أو أولوه، ومن ثمّ دونوا كتباً بشأن «آيات الأحكام» واستنبطوا منها ما هداهم إليه أمارات الاستنباط.

وأما الأخباريون - قدّس الله ضرائحهم - فذهبوا إلى أن القرآن كلّ متشابه بالنسبة إلينا، وإنّه لا يجوز لنا أخذ حكم منه، إلّا من دلالة الأخبار على بيانه.

قال: حتّى أنّي كنت حاضراً في المسجد الجامع من شيراز، وكان أستاذي المجتهد الشيخ جعفر البحرانيّ، وشيخني المحدث صاحب جوامع الكلم - قدّس الله روحيهما - يتناظران في هذه المسألة. فأنجز الكلام بينهما حتّى قال له الفاضل المجتهد: ما تقول في معنى «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» فهل يحتاج في فهم معناها إلى الحديث؟ فقال: نعم، لأنّ عرف معنى «الأحديّة» ولا الفرق بين الأحد والواحد ونحو ذلك».

ثمّ عقّب بكلام الشيخ في التبيان - على ما سنذكر - وأردفه بتحقيق عن المولى كمال الدين ميثم البحرانيّ، بشأن حديث التفسير بالرأي، وأخيراً قال: وكلام الشيخ أقرب من هذا، بالنظر إلى تتبع الأخبار، والجمع بين متعارضات الأحاديث. وحاصل هذه المقالة:

١. الكافي (الأصول)، ج ٩، ص ٣٣٨.

أَنْ أَخَذَ الْأَحْكَامَ مِنْ نَصِّ الْقُرْآنِ أَوْ ظَاهِرِهِ أَوْ فَحْوَاهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، جَائِزٌ كَمَا فَعَلَهُ الْمُجْتَهِدُونَ.

قال: يرشد إلى ذلك ما رواه أمين الإسلام الطبرسي - في كتاب الاحتجاج - من جملة حديث طويل عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال فيه:

«إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ كَلَامَهُ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ: فَجَعَلَ قِسْماً مِنْهُ يَعْرِفُهُ الْعَالَمُ وَالْجَاهِلُ، وَقِسْماً لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا مَنْ صَفَا ذَهْنَهُ وَلَطَفَ حِسَّهُ وَصَحَّ تَمَيُّزُهُ وَشَرَحَ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ، وَقِسْماً لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا اللَّهُ وَأُمَّاؤُهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ».

* * *

وَأَصْرَحَ مِنَ الْجَمِيعِ كَلَامُ الْفَقِيهِ الْبَارِعِ الشَّيْخِ يَوْسُفَ الْبَحْرَانِيِّ (١١٠٧-١١٨٦ ق.) فِي مُوسُوْعَتِهِ الْفَتْهِيَّةِ الْكُبْرَى الْحَدَائِقُ النَّاصِرَةُ ذَكَرَ أَوَّلًا الْأَخْبَارَ مِنَ الطَّرْفَيْنِ، تَمَّ عَقِبُهَا بِمَا حَقَّقْتَهُ شَيْخُ الطَّائِفَةِ أَبُو جَعْفَرٍ الطُّوسِي (٣٨٥-٤٦٠ ق.) فِي الْمَقَامِ، وَجَعَلَهُ الْقَوْلَ الْفَصْلَ وَالْمَذْهَبَ الْجَزَلَ الَّذِي تَلَقَّاهُ الْعُلَمَاءُ بِالْقَبُولِ، قَالَ: قَالَ الشَّيْخُ أَبُو جَعْفَرٍ الطُّوسِي - بَعْدَ نَقْلِ الرِّوَايَاتِ الْمُتَعَارِضَةِ وَالِدَّلَائِلِ الْمُتَنَاقِضَةِ - مَا مَلَّخَصَهُ: «أَنْ مَعَانِي الْقُرْآنِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ: أَحَدُهَا: مَا اخْتَصَّ اللَّهُ تَعَالَى بِعِلْمِهِ فَلَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ التَّكَلُّفُ فِيهِ، وَلَعَلَّ مِنْهُ الْحُرُوفُ الْمُتَقَطَّعَةُ فِي أَوَائِلِ السُّورِ.

ثَانِيهَا: مَا يَكُونُ ظَاهِرُهُ مُتَطَابِقاً مَعَ مَعْنَاهُ، مَعْرُوفاً مِنَ اللُّغَةِ وَالْعَرَفِ، لَا غِبَارَ عَلَيْهِ، فَهَذَا حِجَّةٌ عَلَى الْجَمِيعِ، لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ الْجَهْلُ بِهِ، مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَلَا تَقْنُتُوا النُّفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ...».

ثَالِثُهَا: مَا أَجْمَلَ فِي تَعْبِيرِهِ وَأُوَكِّلَ التَّنْصِيلَ فِيهِ إِلَى بَيَانِ الرُّسُولِ ﷺ، كَالْأَمْرِ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَالصِّيَامِ، فَتَكَلَّفَ الْقَوْلَ فِيهِ - مِنْ دُونِ مَرَاجَعَةِ دَلَائِلِ الشَّرْعِ - مُحْظُورٌ مِنْهُ.

١. رسالة منيع الحياة للميتد فعمة الله الجزائري، ص ٤٧-٥٣ م ٥٠.

٢. الأنعام (٦): ١٥١.

رابعها: ما جاء مشتركاً محتملاً لوجوه فلا يجوز اليقينية في تبين مراده تعالى بالذات، إلا بدليل قاطع من نص معصوم أو حديث متواتر^١.

وبذلك قد جمع الشيخ بين روايات المنع ودلائل الترخيص، باختلاف الموارد. قال المحدث البحراني - تعقيباً على كلام الشيخ -: «و عليه تجتمع الأخبار على وجه واضح المنار»^٢.

قلت: فهذا الشيخ المحدثين ورائد الأخباريين في العصور المتأخرة نراه قد وافق القول مع شيخ الطائفة ورأس الأصوليين بشأن التفسير، والخوض في فهم معاني كلام الله العزيز الحميد.

فيا ترى، ما الذي يدعو إلى فرض الافتراق في هذا المجال العصيب!!
والحمد لله على ما أنعم علينا من لمس نعمة الوفاق وذوق حلوة الاتفاق.



دلائل مزعومة

لم نجد في كلام من يعتد به من المتأخرين إلى الأخبارية احتجاجاً يرفض حجّة الكتاب، سوى ما جاء في كلام غيرهم من حجج مفروضة، ولعله تطوع لهم في تدليل أو حدس وهموه بشأنهم، وإليك أهم ما ذكره:

- ١- اختصاص فهم معاني القرآن بمن خاطب به.
- ٢- احتوائه على مطالب غامضة، لا تصل إليها أفكار ذوي الأنظار.
- ٣- النهي عن الأخذ بالمتشابه، الشامل للظواهر أيضاً؛ لوجود احتمال الخلاف.
- ٤- النهي عن التفسير بالرأي، الشامل لحمل اللفظ على ظاهره.
- ٥- العلم إجمالاً بطرود التخصيص والتقييد والمجاز، في كثير من ظواهر القرآن.

١. الحدائق الناضرة ليوسف البحراني، ج ٨، ص ٣٣٢، راجع البيان، ج ١، ص ٥٠٥، رسالة منيع الحلي، ص ٤٨-٥١ (ط بيروت).
٢. الحدائق الناضرة، ج ١، ص ٣٢.

٦- احتمال التحريف ولو بتغيير حرف عن موضعه.

قالوا: إنها حجج احتج بها نافعو حجّة ظواهر القرآن^١.

لكن المراجع يجد كلمات من نونها عنهم خلوا عن مثل هذا التصرّيف الغريب، ولا سيما مسألة التحريف لا تجدّها في كلامهم البتّة، وإنما أوردّها صاحب الكفاية تبعاً للمشيخ في الرسائل، احتمالاً في المقام، من غير نسبه إلى الأخباريّة أو غيرهم^٢.
و العمدّة: أن نظر القوم في مسألة حجّة الكتاب، إنما يعود إلى جانب آيات الأحكام التي اكتشفها لثيف - في حجم ضخّم - من الأحاديث المأثورة بوفرة؛ حيث جاءت أصول الأحكام في الكتاب وفروعها في الأحاديث، فلا تخلو آية من تلكم الآيات إلا وحولها روايات عدّة.

و في ذلك - بالذات - يقول الأخباريون، كسائر النقهاء الأصوليين: لا يجوز إفراد الكتاب بالاستنباط، بعيداً عن ملاحظة الروايات الواردة بشأنها.
و هذا هو مقتضى التمسك بالتقليد، الكتاب والعمدة، لا يفترقان بعضهما عن بعض.
نعم، لا يتضايقون القول بجواز مراجعة سائر الآيات، بشأن فهم معارف الدين والحكم والآداب مراجعة ذاتيّة^٣، اللهم إلا إذا وجدت رواية صحيحة صريحة المفاد، فيجب ملاحظتها أيضاً، كما هي العادة المتعارفة عند المفسرين.

منهج القرآن في الإفادة والبيان

إنّ للقرآن في إفادة معانيه منهجاً يخصّه، لا هو في مرونة أساليب كلام العاقّة، ولا هو في صعوبة تعابير الخاصّة، جمع بين السهولة والامتناع، وسطاً بين المسلكين، سهلاً في التعبير والأداء؛ بحيث يفهمه كلّ قريب وبعيد، ويستسيغه كلّ وضيع ورفيع، وهو في

١. راجع: كفاية الأصول لمحقّق الحراساني، ص ٣٣٤ و ٣٣٥ البيان، ص ٢٩١.

٢. راجع: الرسائل للشيخ الأنصاري، ص ٤٠ (ط رحمة الله): كفاية الأصول، ص ٢٨٤-٢٨٥. وقد حقّقنا عن مسألة التحريف في الجزء الثامن.

٣. راجع: الفوائد الصوسية، ص ٩٤.

نفس الوقت ممتنع في الإفادة بمبانيه الشامخة، والإدلاء بمرامييه الشاسعة، ذلك أنه جمع بين دلالة الفاهر و خفاء الباطن، في ظاهر أُنِيق و باطن عميق.

قال رسول الله ﷺ: «وهو الدليل يدل على خير سبيل، وهو كتاب فيه تفصيل و بيان و تحصيل، وهو الفصل ليس بالهزل، وله ظهر و بطن، فظاهره حكم و باطنه علم، ظاهره أُنِيق و باطنه عميق. له نجوم و على نجومه نجوم، لا تحصي عجائبه و لا تبلى غرائب. فيه مصابيح الهدى و منار الحكمة، و دليل على المعرفة لمن عرف العسفة»^١.

«فما من آية إلا ولها ظهر و بطن»، كما في حديث آخر مستفيض^٢، فهناك عبارات لائحة يستجيد فهمها العامة فهما كانت لهم فيه قناعة نفسية كاملة، ولكنها إلى جنب إشارات غامضة كانت للخاصة، فيحلوا من عقدها، و يكشفوا من معضلها، حسبما أوتوا من مهارة علمية فائقة.

و بذلك قد وفق القرآن في استعماله للمجمع بين معان ظاهرة و أخرى باطنة، لتفيد كل لفظة معنيين أو معاني مترابطة، وربما مترامية حسب ترامي الأجيال و الأزمان، الأمر الذي كان قد امتنع حسب المتعارف العام، فيما قال الأصوليون: من امتنع استعمال لفظة واحدة و إرادة معان مستقلة. لكن القرآن رغم هذا الامتناع نراه قد استسهله، و أصبح منهجاً له في الاستعمال.

* * *

كان ممن سلف من الأصوليين من يرى امتناع استعمال اللفظ و إرادة معنيين امتناعاً عقلياً، نظراً إلى أن حقيقة الاستعمال ليس مجرد جعل اللفظ علامة لإرادة المعنى، بل جعله وجهاً و عنواناً له، بل بوجه نفسه كأنه الملقى؛ ولذا يسري إليه قبحة و حسنه. و عليه فلا يمكن جعل اللفظ كذلك إلا لمعنى واحد، ضرورة أن لحاظه كذلك لا يكاد يمكن إلا بتبع لحاظ المعنى، فانياً فيه فناء الوجود في ذي الوجود، و العنوان في المعنوي، و معه كيف

١. الكافي، ج ٢، ص ٥٩٩.

٢. رواه الترمذي، راجع تفسير العتاشي، ج ١، ص ١١١ بحار الأنوار، ج ٢٩، ص ٩٤٨٨ (ط بيروت).

يمكن إرادة معنى آخر كذلك في استعمال واحد، مع استلزامه للمحافظ آخر غير لحاظه الأول في نفس الوقت. هكذا جاء في تقرير كلام العلامة الأصولي الكبير المحقق الخراساني^١.

و جاء الخلف ليجعلوا من هذا الامتناع العقلي ممكناً في ذاته، وممتنعاً في العادة؛ حيث لم يتعارف ذلك ولم يعهد استعمال لفظة وإرادة معنيين مستقلين في المتعارف العام، فالاستعمال كذلك كان خلاف المتعارف حتى ولو كان ممكناً في ذاته، نظراً لأن الاستعمال (استعمال اللفظة وإرادة المعنى) إنما هو بمثابة جعل العلامة من قبيل الإشارات والعلامات الإخطارية، فلا مانع عقلاً من استعمال علامة لغرض الإخطار إلى معنيين أو أكثر؛ إذا كان اللفظ صالحاً له بالذات، فيما إذا كان قد وضع لكل المعنيين مشتركاً لنظيماً، أو أمكن انتزاع مفهوم عام. نعم، لم يعهد ذلك في الاستعمالات المتعارفة. الأمر الذي استسهله القرآن وخرج على المتعارف، وجعله جائزاً وواقعاً في استعمالاته^٢. فقد استعمل اللفظة وأراد معناها الظاهري، حسب دلالة الأولى، لكنه في نفس الوقت صاغ منه مفهوماً عاماً وشاملاً ثانياً، يشمل موارد أخر ليكون هذا المفهوم العام الثانوي هو الأصل المقصود بالبيان، والخاص البقاء المفاهيم القرآنية عامة وشاملة عبر الأيتام، وليست بالمقتصرة على موارد النزول الخاصة.

و كان المفهوم البدائي للآية، والذي كان حسب مورد نزولها الخاص، هو معناها الظاهر، ويسمى بـ«التزيل». أمّا المفهوم العام المنتزع من الآية الصالح للتطبيق على الموارد المشابهة، فهو معناها الباطن، المعبر عنه بـ«التأويل»، وهذا المفهوم الثانوي العام للآية هو الذي ضمن لها البقاء عبر الأيتام.

١. هو المولى محمد كاظم الخراساني صاحب كفاية الأصول (راجع: حقائق الأصول للميرزا الحكيم، ج ١، ص ١٠٨، ١٠٩).

٢. وذلك نظراً لإحاطته تعالى وشمول عنايته لجميع عباده. ولا يخفى أن المفهوم العام المنتزع من الآية، هو بنفسه معنى آخر يتصور مستقلاً وراء إرادة المعنى الظاهري الأولي؛ فكل من المعنيين الظاهر والباطن مقصود بذاته، وإن كان المعنى الظاهري مندرجاً تحت المفهوم العام المنتزع من الآية.

سئل الإمام أبو جعفر محمد بن عليّ الباقر عليه السلام عن الحديث المتواتر عن رسول الله ﷺ: «ما من آية إلّا ولها ظهر و بطن ...»، فقال: «ظهره تنزيله، و بطنه تأويله، منه ما قد مضى و منه ما لم يجرى، يجري كما تجري الشمس و القمر، كلّما جاء شيء منه وقع...»^١.

و قال: «ظهر القرآن: الذين نزل فيهم، و بطنه: الذين عملوا بمثل أعمالهم»^٢. و أضاف عليه السلام: «و لو أنّ الآية إذا نزلت في قوم، تمّ مات أولئك القوم، ماتت الآية، لما بقي من القرآن شيء، و لكنّ القرآن يجري أوّله على آخره ما دامت السماوات و الأرض، و لكلّ قوم آية يتلونّها، هم منها من خير أو شر»^٣.

نعم، كان العلم بباطن الآية، أي القدرة على انتزاع مفهوم عامّ صالح للانطباق على موارد مشابهة، خاصّاً بالراسخين في العلم، و ليس يفهمه كلّ أحد حسب دلالة الآية في ظاهرها البدائي.

و الخلاصة: أنّ لتعابير القرآن دالتين: دلالة بالتنزيل؛ وهو ما يستفاد من ظاهر التعبير، و دلالة أخرى بالتأويل؛ وهو المستفاد من باطن فحواها، و ذلك بانتزاع مفهوم عامّ صالح للانطباق على الموارد المشابهة عبر الإيحاء، إلّا أصبح القرآن ذا دالتين: ظاهرة و باطنة، الأمر الذي امتاز به على سائر الكلام.

مثلاً آية الإنفاق في سبيل الله، نزلت بشأن الدفاع عن حريم الإسلام، فكان واجباً على المسلمين القيام بهذا الواجب الديني؛ ليأخذوا بأهبة الأمر و يعدّوا له عدّته، و منها بذل الأموال فضلاً عن بذل النفوس. هذا شيء كان واجباً على عاتق المكلفين أنفسهم كلّ حسب إمكانيته، هذا ما يفهم من ظاهر الآية البدائي.

أمّا الفقيه النابه فيستفيد من الآية شيئاً أوسع، يشمل كلّ ضرورات الدولة القائمة على أساس العدل، و إحياء كلمة الله في الأرض؛ فيجب بذل المال في سبيل تثبيت دعائم

١. بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ٩٧، رقم ٦٤ (ط بيروت).

٢. تفسير العياشي، ج ١، ص ١٠، رقم ٨.

٣. المصدر نفسه، ص ٩٤، رقم ٤٦.

الحكم العادل و التشييد من مبادئه، فيجب دفع الضرائب المالية حسبما يقرره النظام، مستفاداً من الآية الكريمة في باطن فحواها، أخذاً بالتأويل حسب المصطلح. وهكذا المستفاد من آية خمس الغنائم، وجوب دفع الخمس في مطلق الفوائد وأرباح المكاسب، حسبما فهمه الإمام الصادق عليه السلام من الآية، أخذاً بعموم الموصول، وإطلاق الغنيمة على مطلق الفائدة.

و في القرآن من هذا القبيل الشيء الكثير، الأمر الذي ضمن للقرآن بقاءه مع الخلود.

* * *

و جهة أخرى: إن للقرآن لغته الخاصة به، شأن كل صاحب اصطلاح، فللقرآن اصطلاحه الخاص، يستعمل ألفاظاً و تعابير في معان أرادها بالذات، من غير أن يكون في اللغة أو في سائر الأعراف دليل يدل عليه؛ لأنه من اصطلاحه الخاص و لا يعرف إلا من قبله. و من ثم كان القرآن ينطق بعضه ببعض، و يشهد بعضه على بعض، كما جاء في كلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

إن في القرآن تعابير كثيرة لا تكاد تدرك معانيها إلا إذا سبرت القرآن سبراً و فحصته فحصاً، لتعرف مفاهيمها التي اصطلاح عليها القرآن من القرآن ذاته، وليس من غيره إطلاقاً.

هكذا ذهب سيدنا العلامة الطباطبائي رحمته الله إلى أن الدلالة على مفاهيم القرآن، إنما هي من ذات القرآن، وليس من خارجه أبداً، لأنه تبيان لكل شيء، و حاشاه أن لا يكون تبياناً لنفسه، فإن القرآن ينسّر بعضه بعضاً. و هذا هو أصل التفسير المعتمد، و قد بنى تفسيره في الميزان على هذا الأساس^١.

مثلاً: لفظة «الاذن» في الاستعمال القرآني، جاء بمعنى: إمكان التداوم في التأثير الحاصل وفق مشيئة الله و إرادته الخاصة، أي تداوم الإفاضة من قبله تعالى؛ حيث التأثير

١. راجع الميزان: ج ١، ص ٩.

٢. نهج البلاغة، النسخة رقم ٨٣٣.

في عالم التكوين، موقوف على إذنه تعالى، بأن يفيض على عامل التأثير خاصيته التأثيرية، حالة التأثير، أي يديمها ولا يقطع إفاضته عليه حينذاك، وإلا لما أمكن لعامل التأثير أن يؤثر شيئاً «وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ» تلك إرادته تعالى الحادثة، هي التي أمكنت للأشياء تأثيرها وتأثرها في عالم الطبيعة، ولولاها لما أمكن لعامل طبيعي أن يؤثر شيئاً في عالم الوجود، وهذا هو المراد من تداوم إفاضته تعالى في عالم التكوين.

قال تعالى: «وَمَا هُمْ بِضَازِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ»^٢ فلو لا إذنه تعالى، أي تداوم إفاضته - إمكان التأثير من قبله تعالى - لما أمكن لسحرهم أن يؤثر شيئاً.

و ذلك نظراً لأن عوامل التأثير في عالم الوجود، إنما هي متأثرة - في إمكان تأثيرها - بتأثيره تعالى؛ إذ لا مؤثر في الوجود إلا الله؛ حيث الممكنات بأسرها فقيرات في ذوات أنفسها، فكما أنها بذاتها محتاجة إلى إفاضته الوجود عليها، كذلك أثرها في عالم الطبيعة أمر ممكن، ومحتاج لإفاضته الوجود عليه. ففور إرادة التأثير يجب تداوم إفاضته إمكان التأثير عليه حتى يتمكن من التأثير «وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ»^٣ أي بإمكان التأثير الحاصل من قبله تعالى.

و هذا هو معنى «الإذن» في التكوين، حسب المصطلح القرآني، مستفاداً من قوله تعالى: «وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ»^٤.

* * *

وقد دأب القرآن على إسناد الأفعال الصادرة في عالم الوجود كلها إلى الله، سواء كان فاعلها فاعلاً إرادياً كالإنسان والحيوان، أم غير إرادى كالشمس والقمر، وليس ذلك إلا من جهة أنه المؤثر في تحقق الأفعال مهما كانت، اختيارية أم غير اختيارية. إنه تعالى هو الذي أقدر الأشياء على فعل الأفعال، وأمدّهم بالقوى، وأفاض عليهم الإقدار بصورة

٢. البقرة (٢): ٨٥٢.

٣. الإنسان (٧٦): ٣٠.

٤. التكوين (٨٨): ٢٩.

٥. الأعراف (٧): ٥٨.

مستديمة.

قال تعالى: «وَتَقَلَّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ»^١ أي انقلبت أحوالهم و أبصارهم، وهم الذين أوجبوا هذا القلب.

و هكذا قوله: «حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ»^٢ بدليل قوله تعالى: «وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُفِّ بِلَ نَعْمَهُمُ اللَّهُ بِكَفَرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ»^٣.

قال تعالى: «وَتَقَلَّبُ هُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ»^٤ أي تنقلب أجسادهم ذات اليمين وذات الشمال، غير أن هذا القلب كان بإذنه تعالى؛ فصح إسناد الفعل إليه.

* * *

و لفظة «القلب» في القرآن الكريم، يعني: شخصية الإنسان الباطنة، وراء شخصيته هذه الظاهرة، وهي التي كانت منبعث إدراكاته النبيلة، وأحاسيسه الكبرى الرفيعة، المتناسبة مع شخصيته الإنسانية الكريمة «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أُنْقِيَ السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ»^٥ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهُهُ مُخَفِّرُونَ»^٦.

المراد بـ«القلب» في هذه الآية، هي شخصية الإنسان الكريمة إذا ما تمرّد الإنسان على قوانين الشريعة، فإنه يصبح بهيمة لا يعرف من الإنسانية شيئاً «كَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ»^٧.

* * *

و لفظة «المشيئة» في القرآن، مصطلح خاص يراد بها الإرادة الحادثة المنبعثة عن مقام حكمته تعالى، وليست مطلق الإرادة.

١. الأنعام (٦): ١١٠. ٢. البقرة (٢): ٧. ٣. البقرة (٢): ٨٨. ٤. الكهف (١٨): ٨٨. ٥. ن (٥٠): ٢٧. ٦. الأنفال (٨): ٢٤. ٧. الحشر (٥٩): ١٩.

فقله تعالى: «قُلِ اِنَّهُمْ مِا نَكِ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُنْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُنْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ اِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»^١.

كان المقصود: المشيئة وفق الحكمة، فيؤتي الملك من اقتضت حكمته تعالى، و ينزع الملك ممن اقتضت حكمته.

و هكذا «تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن تَشَاءُ»^٢، أي من تقتضيه حكمته أن ترفعه، أي من كانت المقتضيات متوفرة في ذات نفسه، فالإقتضاء إنما هو في ذاته، فهو محل صالح لهذه العناية الربانية، وليس اعتباراً أو ترجيحاً من غير مرجح؛ حيث الحكمة هي وضع الأشياء في مواضعها.

و الدليل على ذلك، تذييل الآية بقوله: «إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» فالحكيم لا يشاء شيئاً إلا ما كان وفق حكمته، وليس مطلق المشيئة.



و التعابير من هذا القبيل كثيرة في القرآن، وإنما هي مصطلحات قرآنية، لا تعرف إلا من قبله؛ ليكون القرآن هو الذي يفسر بعضه بعضاً.

و من المصطلح المتعارف في القرآن، اعتماد المعهود من قرائن حالية، ليصدر أحكاماً في صورة قضايا خارجية - إشارة إلى المعهود الحاضر حال الخطاب - وليست بتقضايا حقيقية، حتى تكون الأحكام مترتبة على الموضوعات، متى وجدت وأين وجدت. هذه الظاهرة كثيرة الدور في القرآن الكريم، وربما زعم زاعم أنها قضايا حقيقية دائمة، وليست كذلك. مثلاً قوله تعالى: «لَنَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَنَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ»^٣.

ليس المراد مطلق اليهود، سواء من عاصر نبي الإسلام أم غيرهم، و لا مطلق من

١. الأنعام (٦): ٨٣.

٢. آل عمران (٣): ٢٦.

٣. المائدة (٥): ٨٣.

أشرك، ولا مطلق النصارى بل يهود يثرب ممن عاصر نبي الإسلام، ومشركو قريش، ونصارى نجران، وقيل: وفد النجاشي ذلك العهد؛ لأنها حكاية عن أمة ماضية أسلم من أسلم منهم، وعاند من عاند.

فقد جاء تعقيب الآية بقوله: «وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ عَلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَتَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ فَأَنَّا لَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا - يَعْنِي بِهِمُ الْيَهُودُ وَالْمَشْرِكِينَ - أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ»^١.

و هذا نظير قوله تعالى عن المخلفين من الأعراب: «سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا»^٢ إشارة إلى خصوص من قعد عن الحرب أيام الرسول ﷺ.

و كذا «الناس» في قوله: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ»^٣ حيث المراد بالناس الأول: هم المنافقون المرجفون من أهل المدينة، والناس الثاني: هم مشركو قريش رهط أبي سفيان، بعد هزيمتهم من أحد.

و هكذا قوله تعالى: «الْأَعْرَابُ أَكْثَرُ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»^٤ المراد من عاصروا النبي من أهل الجفاء والنفاق، كما في قوله: «وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ»^٥ وغير ذلك مما وقع هذا التعبير في مواضع من سورة براءة (الآيات: ٩٠، ٩٧، ٩٨، ٩٩ و ١٠١) حيث المتصود من الجميع: أعراب المدينة و من حولها.

و جهة ثالثة: إيفاءه بالوفرة الوفيرة من المطالب و مختلف المسائل، في أقصر تعابير

١. الفتح (٤٨): ١٧.

٢. التوبة (٩): ٩٧.

٣. المائدة (٥): ٨٣-٨٦.

٤. آل عمران (٣): ١٧٣.

٥. التوبة (٩): ١٠١.

وأيسر كلمات، ربّما يكون حجم المطالب أضعاف حجم الكلمات والتعابير. والقرآن ملؤه ذلك، وهو من اختصاصه، أن يدلي بأوفر المعاني في أوجز الألفاظ.

هذه سورة الحجرات على قصرها، وهي ثماني عشرة آية، تحتوي على أكثر من عشرين مسألة من أتمّهات المسائل الإسلامية العريقة، نزلت بالمدينة؛ لتنظيم الحياة الاجتماعية العادلة. وقد تعرّض لها المفسّرون ولا سيّما المتأخّرين بتفصيل، وتعرّضنا لأكثرها في تفسيرنا للسورة.

و مما جاء فيها التعرّض لقاعدة «المطف» التي هي أساس الشرائع، ومسألة «الحب في الله والبغض في الله» التي هي أساس الإيمان، في أقصر عبارة: «وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانُ وَزَيْنُهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَتْ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ». فمن لطفه تعالى وعنايته بعباده أن مهّد لهم أسباب الطاعة وقربها إليهم، ليتمكنوا من طاعة الله ويجتنبوا الفسوق والعصيان، وذلك بأن زين الإيمان والطاعة في قلوبهم، أي أبدى لهم زينة الإيمان، بأن رفع عن أعينهم غشاء المعاصي، كما أنّه تعالى كرّه إليهم العصيان بأن أظهر قبحه في أعينهم فكرهوه في ذات أنفسهم. فالؤمن إنما يطيع الله وهو محبّب له الطاعة، ومن ثمّ فإنّه يتقدم على الطاعة في وداعة وطمأنينة ويسر، كما أنّه يجتنب المعاصي في يسر؛ لأنّه عن نفرة لها في نفسه.

وهذه هي قاعدة المطف تمهيد ما يوجب قرب العباد إلى الطاعة وبُعدهم عن المعصية، مستفادة من الآية الكريمة.

وشيء آخر: مسألة «الحب في الله والبغض في الله» وهي أساس الإيمان و صلب العقيدة، والباعث على الجِدِّ في العمل، ومن ثمّ قال الإمام الصادق عليه السلام: «و هل الإيمان إلا الحب والبغض، ثم تلا الآية الكريمة»^١ وقد قال تعالى: «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ»^٢.

١. الكافي، ج ٣، ص ١٣٥ رقم ٥.

٢. الحجرات (٤٩): ٧.

٣. آل عمران (٣): ٣١.

و أمر ثالث مستفاد من الآية الكريمة: «أَنْ هَدَيْتَهُ لِلنَّاسِ كَانَتْ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرَحْمَةً، نَاشِئَةً عَنْ مَقَامٍ فِيضُهُ الْقُدُّوسِيُّ، وَلَيْسَ عَنْ حَقٍّ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ» «فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ»^١، «وَمَا كُنْتُ تَرْجُو أَنْ يُنْقِلَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ»^٢. فالإنسان بذاته لا يستحق شيئاً على ربه، وإنما الله هو الذي تفضل على الإنسان برحمته «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ»^٣، ومن ثم عَقَّب سبحانه الآية بقوله: «فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»^٤.

* * *

و في السورة إشارة إلى مسألة التعاون في الحياة الاجتماعية، جاءت في قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ»^٥.

و فيها الإشارة إلى مسألة «المساواة» وأن لا شعوبية في الإسلام، ولا عنصرية، ولا قومية، وأن لا فضل لأحد على غيره إطلاقاً، لا حسباً ولا نسباً، إلا بنضيلة التقوى، وهو التعهد في ذات الله.

كما فيها الإشارة أيضاً إلى مسألة «الأخوة الإسلامية» المتطلبة للإيثار والتضحية، فوق قانون العدل والإنصاف.

* * *

و في القرآن كثير من عبارات يسيرة انطوت على مفاهيم ذات أحجام كبيرة، كقوله تعالى في سورة الأنفال: «وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَنَكَى اللَّهُ رَمِيَّ»^٦ إشارة إلى مسألة «الأمر بين الأمرين» وأن لا جبر ولا تفويض، وهي من المسائل المذيّلة ذات تفصيل طويل.

٢. القصص (٦٨): ٨٦.

٤. الحجرات (٤٩): ٨.

٦. الأنفال (٨): ٨٧.

١. البقرة (٢): ٦٤.

٣. الأعراف (٧): ٤٣.

٥. الحجرات (٤٩): ١٣.

و كقولہ تعالى في سورة الواقعة: «أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ
الَّذِينَ نَزَّلْنَاهُ» إشارة إلى مسألة «الاستعانة» وأن لا استقلال للعباد فيما يتصرفون من
أفعالهم الاختيارية.

و الأمثلة على ذلك كثيرة ومنبثّة في القرآن الكريم، غير خفيّة على الناقد البصير.

* * *

و جهة رابعة: قد سلك القرآن في تعاليمه و برامجہ الناجحة مسلكاً، ينتفع به الجمهور،
و يخضع له العلماء، و من تمّ جاء بتعابير يفهمها كل من الصنفين: الجمهور يأخذون بظاهر
الكلام و يتصوّرون له من المعاني ما ألقت بها أذهانهم في الأمور المحسوسة، و يحسبون
فيما وراء محسوسهم ما يشاكل المحسوس، و يقتنعون بذلك، و يستريح بالهم.

و العلماء يعرفون حقيقة الحال التي جاءت في طيّ المقال، و يأخذون بطوائف
الإشارات و ظرائف الكنايات التي مثّلت لهم الحقيقة في واقع الأمر، بما يخضعهم له
و يطمئنون إليه.

خذ لذلك مثلاً قوله تعالى - بتعبير^١ عن ذاته المقدسة في عالم الكون -: «اللَّهُ نُورٌ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...»^٢ لما كان رفع الموجودات في الحس هو النور، ضرب الله به
المتال، و بهذا النحو من التصوّر أمكن للجمهور أن يفهموا من الذات المقدسة موجوداً
أجلى و أظهر فيما وراء الحس، يشبه أن يكون مثل النور في المحسوس شهاً ما،
و يقتنعون بذلك.

أمّا العلماء فيرون من هذا التشبيه أقرب ما يكون تصوّراً من ذاته المقدسة، فليس في
عالم المحسوس ما يكون على مثاله، و في أخصّ أوصافه تعالى كالنور الذي هو ظاهر في
نفسه، و مظهر لغيره، و ليس شيء في عالم المحسوس (المبصرات) إلّا و يكون ظهوره
بالنور، أمّا النور فهو ظاهر بنفسه و ليس بغيره.

وكذا لا يكون - في عالم المحسوس - شيء أكثر ظهوراً وفي نفس الوقت أشدّ خفاءً من النور، ظاهر بآثاره، خفيّ بكنهه وحقيقته.

وهذه هي نفس صفاته تعالى إذا ما لاحظنا حقيقة وجوده، القائم بذاته، المظهر لغيره، الذي خفيت حقيقته وظهرت آثاره، وهو الله جلّ جلاله، وعظمت كبريائه.

* * *

وهكذا نجد القرآن، في استدلالاته، قد جمع بين أسلوبين مختلفان في شرائطهما، هما: أسلوب الخطابة، وأسلوب البرهان، ذاك إقناع للجمهور بما يتسالمون به من مقبولات القضايا ومطلوباتها، وهذا إخضاع للعلماء بما يتصادقون عليه من أوليات وقيّمات. ومن الممتنع في العادة أن يقوم المتكلم بإجابة ملتبس كلا الفريقين، ليجمع بين المظنون والمثبّت، في خطاب واحد، الأمر الذي حقّقه القرآن بعجيب بيانه وغريب أسلوبه.

وقد بحثنا عن ذلك وأتينا بأمثلة عليه في مباحثنا عن الإعجاز البياني للقرآن.

* * *

وجهة خامسة: قد أكثر القرآن من أنواع الاستعارة وأجاد في فنونها، وكان لا بدّ منه وهو أخذ في توسّع المعاني توسّع الآفاق، في حين تضايقت الألفاظ عن الإيحاء بمقاصد القرآن، لو قيّدت بمعانيها الموضوعيّة لها المحدودة النطاق.

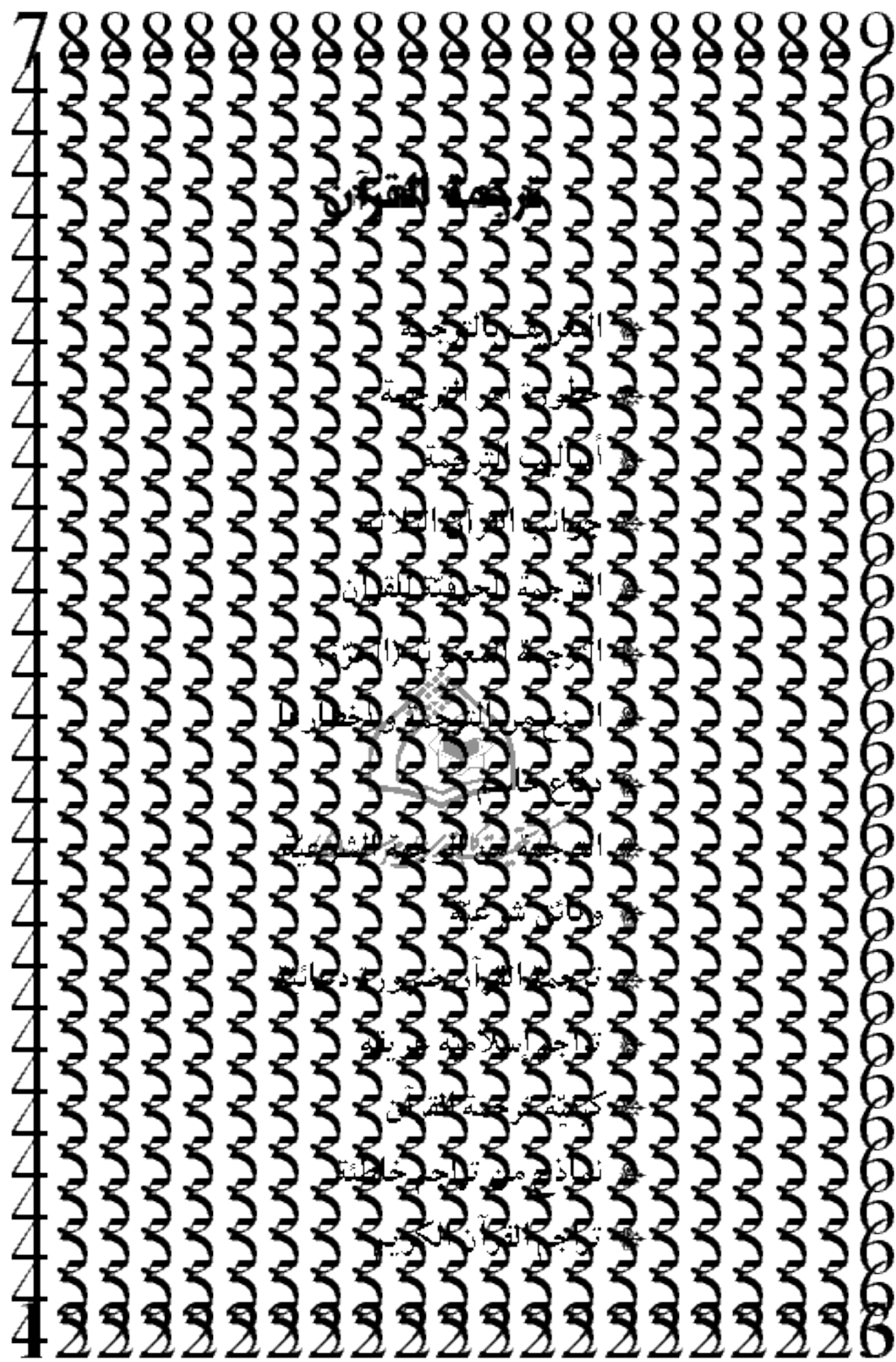
جاء القرآن بمعان جديدة على العرب لم تكن تعهدها، وما وضعت ألفاظها إلا لمعان قريبة، حسب حاجاتها في الحياة البسيطة البدائية القصيرة المدى. أمّا التعرّض لشؤون الحياة العليا المترامية الأبعاد، فكان غريباً على العرب الأوائل المتوغّلة في الجاهليّة الأولى.

ومن ثمّ لجأ القرآن في إفادة معانيه والإشادة بمبانيه إلى أحضان الاستعارة والكناية

والمجاز، ذوات النطاق الواسع، حسب إبداع المتكلم في تصرفه بها، والتدرة على الإحاطة في تصريف المباني والإفادة بما يرومه من المعاني. وقد أبدع القرآن في الاستفادة بها و تصرّيفها حيثما شاء من المقاصد والأهداف، ولم يعهد له نظير في مثل هذه القدرة ومثل هذه الإحاطة، على مثل هذا التصرف الواسع الأكناف، الأمر الذي أبهر وأعجب وأتى بالإعجاز.

ولعلّ هذا هو السبب أيضاً في عروض التشابه في لفيف من آيات الخلق والتكوين، نظراً لتصور الألفاظ عن الإيفاء بتلك المعارف الجليّة الواسعة الأكناف. وبذلك أصبحت لغة القرآن - من هذه الجهة - ذات طابع خاص؛ حيث وفرة الاستعارة من النمط الراقى، وعروض بعض التشابه بسبب هذا الشموع والتعالي.







مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

ترجمة القرآن

مسائل ثلاث

هناك مسائل ثلاث عن ترجمة القرآن إلى سائر اللغات:

أولاً: هل بالإمكان ترجمة كلام الله البليغ الوجيه، الذي نزل هدى للناس، ومعجزة خالدة، في نظمه وأسلوبه، وفي لفظه ومعناه جميعاً، بما تحدّي البشرية لو يأتوا بمثلته؟
ثانياً: لو أمكن ذلك - نسبياً وليس من جميع الوجوه - فهل يجوز عرضه قرآن وكتاباً للمسلمين، على غرار ما ينشره أهل الكتاب من تراجم العهدين، باسم التوراة والإنجيل؟
ثالثاً: ماذا تكون نظرة الشرع الحنيف؟ فهل يجري على الترجمة ما يجري على الأصل من أحكام وآثار شرعية، في تلاوته وفي قراءته في الصلاة، وغير ذلك من أحكام شرعية خاصة بالقرآن؟

و للعلماء - قديماً وحديثاً - آراء تختلف مع بعضها البعض، وقد تار حولها جدل عنيف في عهد قريب، وقد توسّع حتّى سرى إلى الصحف والمجلاّت، فضلاً عن كتب ورسائل خُصّصت بهذا الشأن.

وقبل أن نخوض البحث لا بدّ من: تعرفّة الترجمة منهوماً وأسلوباً، والنظر في شرائطها ومقوماتها الأساسية في إطارها المعقول، فنقول:

التعريف بالترجمة

الترجمة رباعية الوزن، وتكون بمعنى: التبيين والإيضاح. ويبدو من القاموس أنه لابد من اختلاف اللغة؛ لأنه قال: المترجمان: المفسر للسان. ومن ثم فالترجمة: نقل الكلام من لغة إلى أخرى، كما في المعجم الوسيط. أمّا التعبير عن معنى بلفظ، بعد التعبير عنه بلفظ آخر، فهذا من التبيين المحض، وليس ترجمة اصطلاحاً.

و يجب في الترجمة أن تكون وافية بتمام أبعاد المعنى المراد من الأصل، حتى في نكاته ودقائقه الكلامية ذات الصلة بأصل المراد، كناية أو تعريضاً أو تحريراً أو تحسراً أو تعجيزاً، ونحو ذلك من أنحاء الكلام المختلف في الإيفاء والبيان، والمختلف في الأسلوب والنظم، وغير ذلك مما هو معروف.

و من ثم يجب أن تتوفر في المترجم صلاحية هذا الشأن؛ بالإحاطة الكاملة على مزايا اللغتين الكلامية، وافتقاراً على أسرار البلاغة والبيان في كلتا اللغتين، عالماً بمواضع نظرات صاحب المقال الأصل، عارفاً بالمستوى العلمي الذي حواه الكلام الأصل، قادراً على إفراغ تمام المعنى وكماله - بمميزات ودقائقه - في قالب آخر يحاكيه ويمثله جهده الإمكان، الأمر الذي قل من ينتدب له من الكتاب وأصحاب الأقلام؛ إذ قد زلت فيه أقدام كثير ممن حام حول هذا المضمار الخطير.

* * *

خطورة أمر الترجمة

قلنا: إن شرائط الترجمة ثقيلة، وقل من توجد فيه هذه الصلاحية الخطيرة؛ إذ من الصعب جداً أن يحيط إنسان علماً باللغتين في جميع مزاياهما الكلامية: اللفظية والمعنوية، عارفاً بأنواع الاستعارات والكنايات الدارجة في كلتا اللغتين، قادراً على إفراغ جميع مناحي الكلام من قالب إلى قالب آخر، يماثله ويحاكيه تماماً.

هذا فضلاً عن لزوم ارتقاء مستواه العلمي والأدبي إلى حيث مستوى الكلام المترجم

أو ما يقاربه، وهذا أثقل الشروط وأخطرها عند مزلات الأقدام ومزالق الأقلام.
مثلاً: موضع التنوين من لغة العرب قد يغفل عنه من لا إمام له بمواضع اللغة، فيصرفها فيما لا مساغ له. وهكذا نجد بعض أصحاب النظرة الشمولية، ممن يرون الأديان والمذاهب متقاربة ومتوافقة أصولياً، ومن أن يكون الحق وقفاً على مذهب خاص، بل لكل مذهب حظاً من الحقيقة قل أو كثر، وعليه حمل قوله تعالى: «وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»^١، فترجمه إلى: أن نبي الإسلام إنما يهدي أو يدعو^٢ إلى إحدى طرق السلام وليس حاصراً^٣ له؛ نظراً لموضع التنوين من التنكير^٤ ذاهلاً أن موضع التنوين هنا موضع تفعيم، أي لتهدي إلى صراط هو من الفخامة بمكان!^٥

و دليلاً على ذلك أن نفس التعبير جاء في حقه تعالى أيضاً «إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»^٦، ومن ثم كان حصره فيه، وجاء الردع عن اتباع سائر السبل «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ»^٧.
وهكذا موضع المصدر الذي جاء تأكيداً للكلام (المفعول المطلق التأكيدي) قد يغفل عن مفاده موضعياً فيترجم إلى ما لا مفهوم له.

مثاله قوله تعالى: «وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا»^٨، حيث المصدر إنما جاء تأكيداً لبيان أن التكليم وقع عن حقيقته، أي قرع الصوت بصورة كلام عادي، وقع على مسامع موسى عليه السلام وليس مجازاً عن إلهام نفسي ونحوه من إلقاء المعاني بصورة غير عادية، أي تكلم الرب سبحانه مع موسى تكليماً على حقيقته، لتكون ميزة اختصها الله بشأن كليمه محضاً.
وهكذا تعبير (بصورة مصدر تأكيدي) لا معادل له في اللغة الفارسية، ومن ثم يجب

١. الشورى (٤٢): ٥٢.

٢. «وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» المائدة (٦٣): ٧٣.

٣. فجاءت الترجمة هكذا: «تدعو به يكي از راههای راست هدایت می کنی». راجع مثلاً في «جامعة قزوين» ص ٣٣٧.

٤. لتصبح الترجمة هكذا: «تدعو به راهی پس مستقیم هدایت می کنی».

٥. هود (١١): ٥٦.

٦. الأنعام (٦): ١٠٣.

٧. النساء (٤): ٨٦٤.

ترجمته بالمعنى^١ وليست ترجمة حرفية، وإلا لاضطرب المعنى^٢.
و سنذكر نماذج من تراجم قام بها رجال كبار، ولكن لم يُسعد لهم الحظ لمواصلة
المسيرة بسلام، فكم من زلات أعثوها ولا مجال لإعفائها، ولا سيما في مثل كلام الله
العزیز الحمید.

أساليب الترجمة

إذ كانت الترجمة نوعاً من التفسير والإيضاح بلغة أخرى في إيجاز وإفاء،
وبالأحرى هو إفراغ المعنى من قالب إلى قالب آخر أكشف للمراد، بالنسبة إلى اللغة
المترجم إليها، فلا بد أن يعتمد المترجم إلى تبديل قوالب لفظية إلى نظيراتها من غير لغتها،
بشرط الوفاء بتمام المراد، الأمر الذي يمكن الحصول عليه من وجوه:
الأول: أن يعتمد المترجم إلى تبديل كل لفظة إلى مرادفتها من لغة أخرى، فيضعها
بإرائها، ثم ينتقل إلى لفظة ثانية بعدها وثالثة، وهكذا على الترتيب حتى نهاية الكلام.
وهذه هي «الترجمة الحرفية» أو الترجمة تحت اللفظية. وهذه أردأ أنحاء الترجمة،
وفي الأغلب توجب تشويشاً في فهم المراد أو تشويشاً في وجه المعنى، وربما خيانة
بأمانة الكلام؛ حيث المعهود من هكذا تراجم لفظية هو تغيير المعنى تماماً؛ لأن المترجم
بهذا النمط إنما يحاول التحفظ على أسلوب الكلام الأصل في نظمه وميزاته البلاغية،
ليأتي بكلام يماثله تماماً في النظم والأسلوب، الأمر الذي لا يمكن بتاتاً، بعد اختلاف
اللغات في أساليب البلاغة والأداء، وكذا في النكات والدقائق الكلامية السائدة في كل
لغة حسب عرفها الخاص. فرب كناية أو تعريض أو مثل سائر في لغة، لا تعرفه لغة أخرى
ولا تأنس به، فلو عمد المترجم إلى ترجمة ذلك بعينه؛ لأصبح غير مفهوم المراد، وربما
استبشعوا مثل هذا التعبير الغريب عن متفاهمهم.

١. هكذا: «و خداوند با موسى به راستی سخن گفت» (الدكتور أبو القاسم إمامي).

٢. كما لو ترجمناها حرفية هكذا: «و خداوند با موسى سخن گفت سخن گفتی؟»، فإن العبارة الأخيرة لا مفهوم له
في مصطلح لغة الفرس.

مثلاً قوله تعالى: «وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا»^١ جاء «غَلَّ اليد إلى العنق و بسطها كل البسط»، كناية عن القبض و البسط الفاحش، أي التقتير و الإسراف في المعيشة و في الإنفاق، و هي كناية معروفة عند العرب و مأنوسة الاستعمال لديهم. فلو أريد الترجمة بنفس التعبير من لغة أخرى كان ذلك غريباً عليهم حيث لم يألوه، فربما استبشعوه و أنكروا مثل هذا التعبير غير المفهم؛ لأنهم يتصورون من مثل هذا التعبير: النهي عن أن يربط إنسان يديه إلى عنقه برباط من سلاسل و أغلال، أو يحاول بسط يديه يميناً و شمالاً بسطاً مبالغاً فيه. و لا شك أن مثل هذا الإنسان إنما يحاول عبثاً و يعمل سئهاً؛ لأنه يبذل في إجهاد نفسه و إتعاها من غير غرض معقول، الأمر الذي لا ينبغي التعرض له في مثل كتاب الله العزيز الحميد.

الثاني: أن يحاول إفراغ المعنى في قالب آخر، من غير تقيّد بنظم الأصل و أسلوبه البياني، و إنما الملحوظ هو إيفاء تمام المعنى و كماله؛ بحيث يؤدي إفادة مقصود المتكلم بغير لغته، بشرط أن لا يزيد في البسط بما يخرج عن إطار الترجمة، إلى التفسير المحض. نعم، إن هكذا «ترجمة معنوية» قد تنوّت بمزايا الكلام الأصل اللفظي، و هذا لا يضر مادام سلامة المعنى محفوظة. و هذا النمط من الترجمة هو النمط الأوفى و المنهج الصحيح الذي اعتمده أرباب الفن. لا يتقيّدون بنظم الأصل، فيقدّمون و يؤخّرون، و ينظّمون الترجمة حسب أساليب اللغة المترجم إليها، كما لا يزيدون بكثير على منال الألفاظ و التعابير التي جاءت في الأصل. فإن حصلت زيادة مطردة فهو من الشرح و التفسير، و ليس من الترجمة المصطلحة في شيء.

ذكر الشيخ محمد بهاء الدين العاملي (١٠٣١ هـ). - نقلاً عن الصفدي -: أن للترجمة طريقين، أحدهما: طريق يوحنا بن بطريق و ابن الناعمة الحمصيّ، و هو: أن يعتمد إلى كل لفظة من ألفاظ الأصل ليأتي بلفظة أخرى ترادفها في الدلالة فيجتها، و ينتقل إلى أخرى

وهكذا، حتى يأتي على جملة ما يريد ترجمتها، وهي طريقة رديئة لوجهين:
الأول: أنه قد لا توجد في اللغة المترجم إليها لنظرة تقابل الأصل تماماً، ومن ثم
فتقتضي الحاجة إلى استيراد نفس الكلمة الأجنبية واستعمالها في الترجمة بلا إمكان
تبديل، ومن ثم كثرت اللغات الدخيلة اليونانية في مصطلحات العلوم المترجمة إلى
العربية.

الآخر: أن خواص التركيب والنسب الكلامية في الإسناد الخبري وسائر الإنشاءات
والمجاز والاستعارة وما شابه، تختلف أساليبها في سائر اللغات، وليست تتحد في
التعبير والإيفاء، فالترجمة تحت اللفظية قد توجب خللاً في الإفادة بأصل المراد.

ثمّ الطريق الثاني - وهو طريق حنين بن إسحاق والجوهري - فهو: أن يأتي بتمام
الجملة ويتحصّل معناها في ذهنه، ثم يعبر عنها من اللغة الأخرى بجملة تطابقها في إفادة
المعنى المراد وإيفائه، سواء أساوت الألفاظ أم خالفته. وهذا الطريق أجود، ولهذا
لم يحتج كتب حنين بن إسحاق إلى تهذيب إلا في العلوم الرياضية؛ لأنه لم يكن قيماً بها،
بخلاف كتب الطب والمنطق والطبيعي والإلهي، فإن الذي عربّه منها لم يحتج إلى
الإصلاح.^١

الثالث: أن يستط في الترجمة و يشرح مقصود الكلام شرحاً وافياً، فهذا من التفسير
بلغة أخرى، وليست ترجمة محضة حسب المصطلح.

* * *

و قد تلخّص البحث في أنحاء الترجمة إلى ثلاثة أساليب:

١- الترجمة الحرفية، أو الترجمة اللفظية، أو تحت اللفظية، وهي طريقة مرفوضة
و غير موفقة إلى حد بعيد.

٢- الترجمة المعنوية، أو الترجمة التفسيرية غير المبسطة، ويطلق عليها: الترجمة

١. الكشكول للشيخ البيهقي: ص ٢٠٨ (ط حجرية). و: ج ١، ص ٣٨٨ (ط مصر ١٣٧٠ هـ).

المطلقة (المسترسلة) غير المتقيّدة بنظم الأصل، وهي طريقة معقولة.

٣- الترجمة التفسيرية المبسطة، وهي إلى الشرح والتفسير أقرب منه إلى الترجمة.

و لننظر الآن في مسألة ترجمة القرآن الكريم بالذات، من نواحيها المختلفة، وعلى كلا أسلوبَي الترجمة: الحرفيّة والمعنويّة، فنقول:

* * *

جوانب القرآن الثلاثة

للقرآن الكريم جوانب ثلاثة تجمّع فيهِ، وبذلك أصبح القرآن كتاباً سماوياً ذا قدسيّة فائقة، وممتازاً على سائر الكتب النازلة من السماء:

أولاً: كلام إلهي ذو قدسيّة ملكوتيّة، يُعبد بقراءته و يُسبّح بتلاوته.

ثانياً: هدى للناس، يهدي إلى الحقّ وإلى صراط مستقيم.

ثالثاً: معجزة خالدة، دليلاً على صدق الدعوة عبر العصور.

تلك جوانب ثلاثة خطيرة تجمّع في هذا الكتاب، رهن نظمها الخاصّ في لفظه و معناه، وأسلوبه الفذّ في الفصاحة والجمال، ومحتواه الرفيع في نظمه وتشريعاته.

و بعد، فهل بإمكان الترجمة - من أية لغة كانت - الوفاء بتلك الجوانب أم ببعضها على الأقلّ، أم تذهب بها جمع أدراج الرياح؟! الأمر الذي يحدّد أبعاد بحثنا في هذا المجال، فنقول:

أمّا الترجمة الحرفيّة فإنّها تفتقد دلائل الإعجاز أولاً، ولا سيّما البياني منها القائم على أعلى درجات البلاغة، كما تعوزها تلك القدسيّة المعهودة بشأن القرآن، فلا تجري عليها الأحكام الشرعيّة المترتبة على هذا العنوان الخاصّ (القرآن الكريم)، وأخيراً فإنّها تخون في الساديّة أحياناً، إن لم يكن في الأغلب.

لكن الترجمة المعنويّة - الحرّة غير المتقيّدة بنظم الأصل - فإنّها تواكب أختها غالباً في افتقار دلائل الإعجاز، وكذا في الذهاب بقدسيّة القرآن الخاصّة بهذا العنوان، نعم، سوى

الإيفاء بالمعنى إن قامت على شروطها اللازمة، وإليك التفصيل:

الترجمة الحرفية للقرآن

الترجمة الحرفية إن كانت بالمثل تماماً، فمعناها: إفراغ المعنى في قالب لنظري يشاكل قالبه الأول في جميع خصوصياته ومميزاته الكلامية تماماً، سوى كونه من لغة أخرى، الأمر الذي لا يمكن الإتيان به بشأن القرآن بتاتاً؛ لأن الإتيان بما يماثل القرآن نظاماً وأسلوباً، هو الأمر الذي تحدى به القرآن الكريم كافة الناس لو يأتوا بمثله، وقد دلت التجربة على استحالة.

و إن كانت بغير المثل، بأن يقوم المترجم بإنشاء كلام يشاكل نظم القرآن حسب المستطاع، فهذا أمر ممكن في نفسه، إلا أنه حينئذ ينتقد الكثير من المميزات اللفظية والمعنوية التي كان القرآن مشتملاً عليها، وكانت من دلائل الإعجاز لا محالة.

* * *

كما أنه إذا غُيِّرَ الكلام إلى غير لفظه وبسوى نظمه ولا سيّما بغير لغته، فهذا لا يُعَدُّ من كلام المتكلم الأول؛ لأن من مقومات كلام كل متكلم هو البقاء على نفس الكلمات والتعابير والنظم والأسلوب الذي جاء في كلامه، فإن غُيِّرَ في أحد المذكورات، فإنه يصبح أجنبياً عنه ولا يُعَدُّ من كلامه البتة، الأمر الذي لا يحتاج إلى مزيد بيان.

و عليه فلو كان كلام خاص، يحمل قدسيّة خاصّة، وله أحكام خاصّة به، وباعتبار انتسابه إلى متكلم خاص، فإن هذه الميزة سوف تذهب بأدنى تغيير شكلي في كلامه. فكيف إذا كان تغييراً في الكلمات والألفاظ من غير اللغة، ومغيّراً للنظم والأسلوب أيضاً ولو يسيراً، الأمر الذي يتحقّق في الترجمة الحرفية لا محالة.

* * *

من أجل ذلك نرى الفقهاء^١ - ولا سيّما فقهاء الإماميّة - متفقين على عدم أجزاء القراءة

١. من عدائي حنيفة ومن رأي أبيه: حسيماً يائي.

بغير العربية في الصلاة، حتى على العاجز عن النطق بالعربية، وإنما يعوّض بآيات أخرى، أو دعاء وتهليل وتسييح إن أمكن. أمّا الفارسيّة أو غيرها فلا تجوز إطلاقاً، اللهمّ إلّا بعنوان المذكر المطلق، إذا جوّزناه بغير العربية، وفيه إشكال أيضاً.

قال المحقق الهمداني: يعتبر في كون المقروء قرآناً حقيقة، كونه بعينه هي الماهيّة المنزلة من الله تعالى على النبي ﷺ مادّة و صورة، وقد نُزِلَ الله بلسان عربيّ، فالإخلال بعصورته التي هي عبارة عن الهيئات المعتمدة في العربية بحسب وضع الواضع كالإخلال بمادّته، مانع عن صدق كونه هي تلك الماهيّة.

و قال: ولا يجزئ المصليّ عن الفاتحة ترجمتها، ولو بالعربيّة فضلاً عن الفارسيّة، اختياراً بلا شبهة، فإنّ ترجمتها ليست عين فاتحة الكتاب المأمور بقراءتها، كي تكون مُجزئة^٢.

قال - بشأن العاجز عن العربيّة -: الأقوى عدم الاعتبار بالترجمة - في حالة العجز عن الفاتحة وبدلها (من قرآن غيرها أو تحميد أو تسييح) - من حيث هي أصلاً، ضرورة عدم كونها قرآناً ولا ميسوره، بعد وضوح أنّ لألفاظ القرآن دخلاً في قوام قرآنيّتها. نعم، بناء على الاجتزاء بمطلق الذكر لدى العجز عن قراءة شيء من القرآن مطلقاً، أو لدى العجز عن التسييح والتحميد والتهليل أيضاً، اتّجه الاجتزاء بترجمة الفاتحة ونظائرها، لا من حيث كونها ترجمة للقرآن، بل من حيث كونها من مصاديق الذكر، وأمّا ترجمة الآيات التي هي من قبيل القصص فلا يجتزئ بها أصلاً، بل لا يجوز التلفّظ بها لكونها من الكلام المبطل^٣.

و هذا إجماع من الإماميّة: أنّ ترجمة القرآن ليست بقرآن. وفي ذلك أحاديث متضافرة عن النبيّ و الأئمة الصادقين (عليهم السلام):

قال رسول الله ﷺ: «تعلّموا القرآن بحريّته».

١. راجع: مصباح الفقهاء للهمداني: ص ٣٧٣، كتاب الصلاة.

٢. المصدر نفسه: ص ٣٨٣.

٣. المصدر نفسه: ص ٣٧٧.

و عن الإمام الصادق عليه السلام: «تعلّموا العربية، فإنّها كلام الله الذي كلّم به خلقه ونطق به للمأخضين»^١.

و لا يزال الفقهاء يفتنون بالمسائل التالية:

- ١- من لا يعرف قراءة الحمد، يجب عليه التعلّم.
 - ٢- و من تحذّر عليه تعلّمها استبدل من قراءتها ما تيسّر من سائر آيات القرآن.
 - ٣- و من لم يتيسّر له ذلك أيضاً يعوّض عنه بما يعرفه من أذكار و أدعية على قدر سورة الفاتحة^٢، بشرط أدائها بالعربية.
 - ٤- وإذا كانت الترجمة لا تصدق عليها عنوان الذكر أو الدعاء، فغير جائزة البتّة.
 - ٥- وإذا كانت من قبيل الدعاء و الذكر فتجوز في الدرجة الثالثة، بناء على جواز الدعاء بغير العربية في الصلاة، وهو محلّ خلاف بين الفقهاء.
- و الخلاصة: أنّ فقهاء الإماميّة متفتنون على عدم إجراء أحكام القرآن - بصورة عامّة - على ترجمته، بأيّة لغة كانت. و يوافقهم على هذا الرأي أصحاب سائر المذاهب من عدا أبي حنيفة و أصحابه، فقد أجازوا في الصلاة قراءة ترجمة الفاتحة بالفارسيّة استناداً إلى ما روي: أنّ الفرس كتبوا إلى سلمان الفارسي عليه السلام أن يكتب لهم الفاتحة بالفارسيّة، فكانوا يقرأون ذلك في صلاتهم، حتّى لانت ألسنتهم للعربيّة.
- أمّا أبو حنيفة فقد أجاز ذلك مطلقاً، و أمّا أصحابه (أبو يوسف و محمد) فقد أجازا لمن لا يحسن العربية^٣. و كان الحبيب العجمي - صاحب الحسن البصري - يقرأ القرآن في الصلاة بالفارسيّة، لعدم انطلاق لسانه باللغة العربيّة^٤.
- و قد أفتى بالجواز - عند العجز - الشيخ محمد بخيت، مفتي الديار المصريّة - سابقاً -

١. راجع: وسائل الشريعة، ج ٤، ص ٨٦٥-٨٦٦ كتاب الصلاة، باب ٣٠، رقم ١ و ٢.

٢. المصدر نفسه، ص ٨٣٥. ٣. راجع: الميمون لشرح - ج ١، ص ٣٧.

٤. شرح مسلم البيهقي، نقل المراجع شيخ الأزهر في رسالته بحث في ترجمة القرآن، ص ١٧.

فتوى لأهل الترانسفال، استناداً إلى فعلة الحبيب العجمي^١، وسيأتي تفصيل ذلك مشروحاً.

* * *

هذا ومن ناحية أخرى فإن الترجمة الحرفية (تحت اللنظية) تخون في التأدية ولا تفي بإفادة المعنى المراد في كثير من الأحيان، إن لم تشوّه المعنى وتشوّه على أذهان القراء والمستمعين، على ما سبق بعض الأمثلة على ذلك، وسيأتي مزيد بيان.

و عليه فقد صحّ القول: بأن الترجمة الحرفية تُذهب برواء الكلام، فضلاً عن بلاغته الأولى التي كانت من أهل دلائل الإعجاز في القرآن، كما لم يصحّ إسناد الترجمة إلى صاحب الكلام الأول، بعد تبديله إلى غيره لفظاً وأسلوباً. وأخيراً فإنّها تخون في تأدية المراد في كثير من الأحيان، الأمر الذي يحثم ضرورة اجتنابها، ولا سيما في مثل القرآن العظيم.



الترجمة المعنوية (الحرّة) مركز تحقيقات كميتر علوم إسلامي

أمّا الترجمة المعنوية - الترجمة الحرّة غير المتقيّدة بنظام الأصل، إن دعت ضرورة الإيفاء بالمعنى إلى مخالفة النظم - فهو أمر معقول، وتختلف عن الترجمة الحرفية بوفائها بتمام المراد، وإن كانت توافقها في الأمرين الأولين (انتفاء دلائل الإعجاز والمميّزات اللنظية التي كانت في الأصل، وعدم إجراء أحكام القرآن عليه) أمّا الوفاء بالمعنى تماماً فهو الأمر الذي يختصّ به هذا النوع من الترجمة الحرّة، على شريطة الدقّة والإحاطة، بتمام جهات المعنى المقصودة من الكلام.

و صاحب هذا النوع من الترجمة إنّما يقوم بعملية إيفاء المعنى وبيان مقصود الكلام، وهو نوع من الشرح والتفسير، ولكن في قالب لفظي متناسب مع الأصل مهما أمكن، فهو

١. الأدلة العميّة على جواز ترجمة معاني القرآن: لفرید وجدی: ص ٥٨.

في الغالب (بل الأكثرية الساحقة) متوافق مع الأصل في النظم و الترتيب حتى في الأسلوب البياني، إن أمكن ذلك، وكانت اللغة المترجمة إليها متقاربة مع اللغة المترجم عنها في تلك المصطلحات وفنون المحاور غالباً. والمعهود أن لغات الأمم المتجاورة، قريبات بعضهن مع البعض في آفاق التعبير والبيان.

و الترجمة المعنوية، هي الراجحة والمتداولة في الأوساط العلمية والأدبية، منذ عهد سحيق، وهي الوسيلة الناجحة لبث الدعوة بين الملأ على مختلف لغاتهم وألسنتهم، وقد جرت عليها سيرة المسلمين ولا تزال قائمة على ساق. ولا شك أن عرض مفاهيم القرآن وحقائقه الناصعة، على ذوي الأحلام الراجحة من سائر الأمم، من أنجح الوسائل في أداء رسالة الله إلى الخلق، التي تحملتها عوائق هذه الأمة، الأمر الذي لا يمكن إلا بتبيين و ترجمة النصوص الإسلامية - كتاباً و سنة - و عرضها بألسن الأمم ولغاتهم المألوفة. ومن ثم كانت ترجمة القرآن ترجمة صحيحة، ضرورة دعائية يستدعيها صميم الإسلام و واقع القرآن، حسبما يأتي.



المنع من الترجمة وأخطارها الحقيقية كما يترجمها راسدي

لم تسبق من علماء الإسلام نظرية منع من ترجمة القرآن، بعد أن كانت ضرورة دعائية، لمسها دعاة الإسلام من أول يومه. وإنما حدث القول بعدم الجواز في عصر متأخر (في القرن الماضي، في تركيا العثمانية، وفي مقاطعاتها العربية، مثل سوريا ومصر) ولعلها فكرة استعمارية تبشيرية، محاولة لشد حصار قلعة الإسلام، دون نشره وبث تعاليم الإسلام، في المناطق غير العربية.

قال الدكتور علي شواخ: فلو تدبرنا وتعمقنا لوجدنا أن القول بالمنع عاصر فتوى النصارى الغربيين واستعمارهم لبلاد الإسلام، فقد حاولوا تنصير المسلمين بكل وسيلة، ولم يكتفوا بإرسال المبشرين في شتى الملابس، بل منعوا أيضاً تدريس اللغة العربية

حتى في المستعمرات العربية مثل شمال إفريقيا والظاهر أنهم أرادوا إتمام حصار قلعة الإسلام بمنع تراجم القرآن بلغات أجنبية، فالمسلمون غير العرب لا يعرفون العربية، ولن يجدوا تراجم القرآن بلغات يعرفونها، فتبقى الساحة فارغة للديانات الأخرى. قال أحد المبشرين (و بتعبير أصح: أحد المنصرين) لبعض علماء الإسلام الساذجين: «القرآن معجزة حقاً، لا تتحمل بلاغته الترجمة!». فونب هذا العالم الساذج - لشدة السرور - وقال: «الفضل ما شهدت به الأعداء!» وخطب وكتب: «القرآن تعصب أو تستحيل ترجمته»، و تبعه آخرون، وفي الخطوة الثانية قالوا: «القرآن لا تجوز ترجمته».

و لكن الإنسان يدبر، والله يقدر. فالتصاري الذين دسوا هذه الفكرة، ظنوا أن العرب سوف لا يقومون بترجمة القرآن، ولقد صدق ظنهم بشأن العرب. أما سائر المسلمين من غير العرب، فإن التاريخ يشهد بأنهم اهتموا بهذا الأمر، فقاموا بالترجمة إلى لغاتهم على يد علماء كانوا عارفين بالعربية، فترجموه إلى لغاتهم لتدريس أبنائهم وعامة أهل بلادهم الذين لم يدرسوا العربية.

قال الدكتور شواخ: وهكذا يتضح لنا، أن الحركة ضد ترجمة القرآن إلى سائر اللغات، انحصرت في بلاد العرب، وبالدولة العثمانية خاصة.

و على هذا القرار ساق الأستاذ الشاطر - رأس المعارضين - أدلة في المنع عن الترجمة، وذكر أخطاراً سوف تشجع نحو حامية الإسلام الحصينة (القرآن الكريم) إن أصبح عرضة للترجمة إلى لغات أجنبية، نذكر أهمها:

١- يقول: إن الترجمة تضع القرآن، كما ضاعت التوراة والإنجيل من جرأ، ترجمتهما إلى غير لغتهما الأصل، فقد ضاع الأصل بضياع لغته وضياع الناطقين بها. فيخشى أن يحل بالقرآن - لا سمح الله - لو تُرجم إلى غير لغته، ما حل بأخويه من ذي

١. و سبوايك - في نهاية المذال - جدول عن رافة ولساني عشرة لغة حية ترجم القرآن إليها، على يد أبنائها الغيارى على الإسلام، ولا تزال تزايد مع اتساع رقعة الزمان.

٢. معجم مصطلحات القرآن الكريم للدكتور علي شواخ إسحاق، ج ٢، ص ١٣.

قبل:

قلت: هذا قياس مع الفارق؛ إذ السبب في ضياع التوراة وكذا الإنجيل، إنما يعود إلى إخفاء الأصل عن العامة وإيداء تراجمهما المحرفة للناس، لغرض التمييز عليهم. كان الأحبار والقساوسة يدأبون في تحريف تعاليم العهدين تحريفاً في معاني الكلم دون نص اللفظ؛ إذ لم يكن ذلك بمقدورهم، فعمدوا إلى تفسيرهما على غير وجهه، وإيداء ذلك إلى الملأ باسم التعاليم الإلهية الأصيلة.

قال تعالى - بشأن التوراة -: «الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ لِيَجْزِيَ قَٰرِطِينَ تُبْذِرُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً...»^١، أي تبذرون منه مواضع وتخفون أكثره. وقد ذكرنا - في مسألة صيانة القرآن من التحريف - أن التحريف في العهدين إنما يعني التحريف في معناه؛ أي التفسير على غير وجهه، الأمر الذي حصل في تراجم العهدين دون نصتهما.

قال تعالى: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُ عَلَىٰ شَيْءٍ بِخَيْرٍ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ»^٢ وقال: «قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ»^٣. فالكارثة كل الكارثة إنما هي تحريف نص العهدين الأصليين عن أعين الناس، وهذا هو السبب الوحيد لضياعهما، دون مجرد ترجمتهما.

أمّا القرآن فهو الكتاب الذي يتعاهده المسلمون جيلاً بعد جيل، بل العالم كله من مسلم معتقد وآخر محقق مضطلع، يحرسون على نص القرآن العزيز، وقد قال تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نَرَبُّنَا وَإِنَّا نَذْكُرُ وَإِنَّا نَحْفَظُونَهُ»^٤، أي في صدور الرجال وعلى أيدي الناس، الأولياء والأعداء جميعاً، معجزة قرآنية خالدة.

* * *

١. القول السديد في حكم ترجمة القرآن المجيد لمحمد مصطفی الناصر، ص ١٥-١٦.

٢. المائدة (٥): ٦٨.

٣. الأنعام (٦): ٩١.

٤. الحجر (١٥): ٩.

٥. آل عمران (٣): ٩٣.

٢- يقع -بطبيعة الحال- اختلاف بين التراجم؛ لاختلاف السلائق بل العقائد التي يذهب إليها كل مذهب من المذاهب، وكذا اختلاف المواعظ والاستعدادات في فهم معاني القرآن وترجمتها وفق الأفهام والآراء المتضاربة؛ ولهذا الاختلاف في تراجم القرآن آثار سيئة؛ إذ يستتبعها اختلاف الاستفادة واستنباط الأحكام والآداب الشرعية، وكل قوم من الأقوام إنما يرتأي حسب ما فهم من الترجمة التي أتت بها له، وربما لا يدري مدى اختلافها مع سائر التراجم.

لكن هذا خروج عن مفروض الكلام، فإن للترجمة ضوابط يجب مراعاتها، ولا سيما ترجمة القرآن الكريم، يجب أن تكون تحت إشراف لجنة رسمية، ومن هياة علماء وأدباء اختصاصيين برعاية حكومة إسلامية قاهرة، لا تدع مجالاً لتناوش أيدي الأجانب فيجعلوا القرآن عvisين، كما هو الشأن في رسم خط المصحف الشريف، وطباعته على أصول مقررة، تحفظه عن الاختلاف والاضطراب.

نعم، يجب أن يعلم كل الأمم الإسلامية، أن الترجمة لا تضمن واقع القرآن، وأن المصدر للاستنباط واستخراج الأحكام والسنن للمجتهدين هو نص القرآن الأصل، ليس ما سواه. هذا أمر يجب الإعلان به، فلا يذهب وهم الواهمين إلى حيث لا ينبغي.

نعم، على كل محقق إسلامي أن يتعلم القرآن بلغته العربية النصحية، وليست الترجمة بذاتها لتفي بمقصوده أو تُسبغ نهمه.

* * *

٣- أن للقرآن في كثير من آياته حقائق غامضة، قد تخفى على كثير من العلماء، وقد يعلمها غيرهم ممن جاء بعدهم؛ ولذلك أمثلة كثيرة. فلو ترجمنا القرآن وفق معلوماتنا اليوم، ثم جاء الغد ليرتفع مستوى العلوم وينكشف من حقائق القرآن ما كان خافياً علينا، فهل نخطئ أنفسنا بالعلانية ونغير الترجمة ونعلن للملأ، أن الذي ترجمناه أمس أصبح

خطأ، وأنَّ الصحيح غيره.

فماذا يقول لنا الناس؟ وما الذي يضمن بقاء ثقتهم اليوم كنتفهم بالأمس؟ ثمَّ ضرب لذلك أمثلة:

١- منها: قوله تعالى: «وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوْحَيْنِ اثْنَيْنِ»^١ فسر القدامى «الرَّوْحَيْنِ» بالصنفين. ثمَّ جاء العلم الحديث ليكشف النقاب عن المعنى الصحيح، وهو أنَّ كلَّ ثمرة فيها ذكر وأُنثى.^٢

قال: فلو حصلت الترجمة وفق التفسير الأول لأضاعت على قارئها تلك الحقيقة التي أظهرها العلم الحديث!

* * *

٢- ومنها: قوله تعالى: «وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ»^٣. فقد فسر «تثير» بمعنى «تسوق»، وبذلك قد ضاع المعنى البديع الذي أصبح معجزة للقرآن. وهو أنَّ لفظ «تثير» من الإثارة وهو التهيج، نظير تهيج الغبار والدخان، وهذا مبدأ «عملية التبخير» وتكوين الأمطار. فإنَّ التبخير يحصل من الحرارة المركزة والحرارة الجويّة والرياح، أي لا بدَّ من هذه العوامل الثلاثة لتكوين «عملية التبخير»، ثمَّ بعد ذلك تحمل الرياح هذا البخار إلى حيث شاء الله، وهذا المعنى لم يظهر إلا حديثاً.

* * *

٣- ومنها: قوله تعالى: «وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ»^٤. فسروا «الأوتاد» بكثرة الجنود، أو أنها كانت مسامير أربعة كان يعذب الناس بها. وقد تبين الآن أنَّ المراد هي هذه الأهرام وهي تُشبه الجبال، وقد عبّر القرآن عن الجبال بالأوتاد في قوله تعالى: «أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ

١. الرعد (١٣): ٣.

٢. والآيات التي يذكرها مداني أخر أوفى سوف نتعرض لها، ولقد اشتبه على الأستاذ الدامر مواضع كثيرة من هذه الآيات، فتنبه.

٣. الفجر (٨٩): ١٠.

٤. فاطر (٣٥): ٩.

مهاداً والجبال أوتاداً»^١.

٤- ومنها: قوله تعالى: «وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا»^٢. فسر «الدحو» بعض المفسرين بالسط. فلو تُرجم إلى هذا المعنى ضاع المعنى الذي يؤخذ من «الدحو»، وهو التكوين غير التام، كتكوين البهيضة مع الدوران. ولا يزال أهل الصعيد - وأصل أكثرهم عرب - يعتبرون عن «البيض» بالدحو أو الدحي أو الدح.

٥- وكذلك إذا تُرجم قوله تعالى: «يُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى النَّهَارِ وَهُوَ كَرَوِيَّةُ الْأَرْضِ؛ لِأَنَّ تَكْوِيرَ الضَّوءِ أَوْ تَقْوِيسَهُ يَسْتَلْزِمُ تَكْوِيرَ الْمَضَاءِ وَتَقْوِيسَهُ؛ لِأَنَّ النُّورَ وَالظُّلْمَةَ إِنَّمَا يَتَشَكَّلَانِ بِأَشْكَالِ الْجِسْمِ الْوَاقِعِينَ عَلَيْهِ. فَلَوْ تُرْجِمَتِ الْآيَةُ بِذَلِكَ الْمَعْنَى (التغشية) تَمَّ دَلِيلُنَا الْأَدْلَةُ عَلَى صِحَّةِ الْمَعْنَى الثَّانِي، لَكِنَّا قَدْ خَسَرْنَا مَعْجَزَةً مِنْ مَعْجَزَاتِ الْقُرْآنِ.

قال الأستاذ الشاطر: إني لأخشى أن ينطبق علينا الحديث الشريف: «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شَبْرًا شَبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جَحْرَ ضَبٍّ خَرِبٍ لَا تَبْعَثُوهُمْ. قيل: يا رسول الله ﷺ اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟»^٣.

دفاع حاسم

ولقد أحسن الأستاذ محمد فريد وجدي الدفاع عن «مشروع ترجمة القرآن إلى اللغات الأجنبية» وأجاب عن اعتراض الأستاذ (الشاطر) قائلاً: نحن نعتقد أن القرآن كتاب لا تنقضي عجائبه ولا يدرك غوره، كما يعتقد الأستاذ (الشاطر) ولكننا لا نذهب بالغلو في هذا المعنى إلى درجة التعطيل، واعتباره طليساً تضل العقول في فهمه، ولا تصل منه إلى حقيقة ثابتة. فإن هذا الفهم يصطدم بالقرآن نفسه، فقد وصفه في غير آية

١. التارعات (٧٩): ٣٠.

٢. النبا (٧٨): ١٧.

٣. فسروا «التكوين» بمعنى التغشية.

٣. الزمر (٣٩): ٥.

٥. الصحيح للمسلم: ج ٤، ص ٥٧؛ راجع القول الجديد: ص ٢٦١-٢٦٢.

بأنه آيات بيّنات، وبأنه مُنزل ليتدبرّ الناس هذه الآيات، حتّى قال: «وَلَقَدْ يَمُرُّ بِالْقُرْآنِ نَذِيرٌ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ»، أي سهّلناه للاّ تعاط. وكُرّرت هذه الآية أربع مرّات في سورة واحدة! فلا يجوز أن ندّعي أن ما يشره الله للتذكّر والالتعاط، معني لا يمكن فكّه، وطّلم لا يستطيع حلّه.

نعم، إنّ المفسّرين بعد القرنين الأوّلين تذرّعوا بالفنون الآلية التي وضعوها لضبط قواعد اللغة، من: نحو وبيان و بديع ومعاني، إلى زيادة التعمّق في تمحيص الآيات لهذا السبب - وأكّثر هذا التعدّد آلي محض - ولكنّ المعاني لم تخرج قطّ عن دائرة الفهم، فلم يدّع أحد أن القرآن لم يفهم في عصر من العصور، ولا سيّما الآيات المحكمات. وكيف يمكن أن يقال: إنّ محكمات القرآن لم تفهم على حقيقتها، وقد انبنى عليها الدين كلّ عقائده و عباداته و معاملاته؟!

فاللجنة التي ستدّعي لترجمة القرآن ستظنّ في المعاني التي قرّرها أئمّة التفسير، فإنّ أنسوا في بعضها - خلافاً بينهم - عمدوا إلى اختيار ما رضىه جمهورهم، مشيرين في الهامش إلى بقيّة الاحتمالات؛ فتكون الترجمة قد استوعبت جميع الآراء.

هذا في آيات العقائد والعبادات والمعاملات. وأمّا الآيات الكونيّة والتاريخيّة والمتشابهات، فإنّ اللجنة ستترجم معانيها على ما يحتمله اللفظ العربي، ولا تعرّض لشرحها، فمثل قوله تعالى: «وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً...» مثل هذه الآية تتولّاها لجنة التفسير فتعطي معناها الصحيح للجنة الترجمة لترجمه، دون أن تعرّض - هذه الأخيرة - لما تشير إليه الألفاظ من الدلالات العلميّة. ولكنّها تجتهد في ترجمة كلمة «تثير» مثلاً لتكون واحدة لجميع خصائصها اللغويّة، تاركة دلالاتها العلميّة إلى عقول القارئ، تفادياً من الوقوع في مثل هذا الخطأ الكبير الذي وقع فيه الأستاذ

١. النمر (٥٤): ١٧٢، ٢٣، ٣٢ و ٤١.

٢. وقد جاءت ترجمة كلمة «تثير» في التراجم الناصيّة بـ «يرى انكيز» لأنّ معنى «الإدارة» بالناصريّة «برانكيزت» وهي تنطبق مع الكلمة في العربية تماماً.

(الشاطر) في هذا الموطن نفسه^١، وحفظاً للقرآن الكريم مقام عسى أن يرجع عنه العلم من مقرراته الحالية، وهو دائم التغير بطبيعته.

قال: وهنا يسوغ لنا أن نقول: إذا جرينا على مذهب الأستاذ الشاطر في تفسير الآيات و ترجمتها، ثم رجع العلم عن رأيه الأول، أنعيد إذ ذاك ترجمة القرآن، أم نترك الترجمة على خطائها. ولكن الترجمة على الأسلوب الذي ذكرناه فلا تجعل محلاً لمثل هذا التذم؛ لأن الكلمة قد تبدلت إلى ما يرادفها في الإفادة، من دون التعرض للشرح و البيان، قارئين ذلك إلى فهم القراء، كما هو الحال بالنسبة إلى الكلمة في موضعها من القرآن.

* * *

و أمّا الآيات التي استشهد بها، فأظنه مشتبهاً فيها، فضلاً عن أن الاختلاف في الترجمة لا يزيد خطراً عن الاختلاف في التفسير الذي لا محيص عنه البتة. وقد تعرض الأستاذ وجدي لبيان الآيات على وجه يخالف رأي الأستاذ الشاطر، نذكرها على الترتيب:

أمّا الآية الأولى التي، قال فيها: لكن العلم الحديث كشف لنا أن كل ثمرة فيها ذكر وأنثى. فقال الأستاذ وجدي: هذا خطأ؛ إذ التمار ليس فيها ذكر ولا أنثى على الإطلاق، نعم، إن الذكورة والأنوثة من أعضاء الأزهار لا الأمعاء فقد يكون هناك عضوان ذكر وأنثى في زهرة واحدة، وقد يكونان في زهرتين من نفس الشجرة، أو في زهور شجرتين مستقلتين. وهذا اللقاح النباتي كان معروفاً منذ أقدم العصور، حتى أن عرب الجاهلية كانوا يعرفونه، فكانوا يلقحون إناث النخيل بالطلع المستخرج من ذكورها.

إذن فلم يكن هذا المعنى خافياً على المفسرين القدماء، ومن ثم أخذوا الآية حسب مفهومها الظاهر اللغوي، وهو الصحيح، بعد ملاحظة آية أخرى جاء فيها وصف الجنتين اللتين وعد الله بهما المتقين، قال تعالى: «فيهما من كل فاكهة زوجان»^٢ ولا يمكن صرف

١. سنذكر مواضع اشتباهه.

٢. راجع: الأدلة العينية، ص ٢٨، ٣ (ملحق العدد الثاني من مجلة الأزهر، ج ١٣٥٥).

٣. الرحمن (٥٥): ٥٣.

هذه الآية بحال من الأحوال إلى المعنى الذي أراده الأستاذ (الشاطر).

و الآية الثانية، التي جعل لفظة «تنير» فيها إشارة إلى «عملية التبخير» بفعل الحرارة والرياح، فالمعروف في علم الطبيعة أن عملية التبخير - في المياه والرطوبات - إنما تقوم على فعل الحرارة المركزية للأرض، و الحرارة الجوية للشمس، أما الرياح فلا دور لها في ذلك، ولم يقل به أحد من العلماء.

و قد كان العلماء منذ خمسمائة عام قبل ميلاد المسيح ﷺ يعرفون تكون الأبخرة الأرضية، التي هي المؤلفة للمحيط. وهذه كتب الطبيعيات القديمة شاهدة بذلك، وليس أمراً اكتشفه العلم حديثاً.

و الآية الثالثة - التي زعم «الأوتاد» فيها هي الأهرام - فلا يمكن المصادقة عليه، بعد أن كان السبب في إطلاق «الوتد» على الجبل باعتبار تأثيره في ضبط الأرض عن الميدان وعن التفتت والانحدار، الأمر الذي يرجع إلى ضخامته وصلابته، مما لا تناسب بينه وبين أكبر هرم من أهرام مصر، الذي يبلغ ارتفاعه مائة وخمسين متراً، وطول قاعدته عن ثلاثمائة وثلاثة وثلاثين متراً، فأين ذلك من جبل «هماليا» الذي يزيد ارتفاعه عن ثمانية آلاف متر وثمانمائة متر، ويسهل شمالي الهند كله، أو جبال أنده في أمريكا الجنوبية التي يبلغ طول قاعدتها نحو سبعة آلاف كيلومتراً، وارتفاعها بضعة آلاف متر. لا جرم كان أطول الأهرام لا يساوي أصغر تلال الأرض، فلا يتناسب وإطلاق وتد الأرض عليه؛ إذ لا مناسبة حينذاك. على أن «الأهرام» هي قبور فراعنة مصر ممن سبقوا فرعون موسى نحو ثلاثة آلاف عام، ولم يكن هذا الأخير ممن شيدوها، فكيف يصح نسبتها إليه؟

و الآية الرابعة، وكذا الخامسة، فإن الذي ذكره احتمال، لا نستبعد إمكان الدلالة عليه إجمالاً، لكن ليس من الحتم، فهو احتمال كسائر الاحتمالات التي تحتملها جل آيات الذكر الحكيم، كما قال عليّ ﷺ: «القرآن حمال ذو وجوه»، لكن لا يرتبط الأمر وقضية إمكان الترجمة بشكل يبقى احتمالات اللفظ على حالها في الترجمة، كما هي في الأصل.

و على أية حال فليست الترجمة بذاتها ممّا يتنافى واحتمالات لفظ القرآن، إن كانت

الترجمة - كما ذكره الأستاذ وجدي^١ - قائمة على أصولها حسبما عرفت.

الترجمة من الوجهة الشرعية

سبق أن الغاية من الترجمة هي الإيفاء بمفاهيم القرآن وإيضاح ما يحويه هذا الكتاب السماوي الخالد، إيضاحاً بسائر اللغات لسائر الأمم، تقريباً لهم إلى تعاليم القرآن وآداب الإسلام وأحكامه وسننه، الأمر الذي لا بأس به - فضلاً عن كونه من ضرورة الدعاة إلى الإسلام - مادام لا تعتبر الترجمة قرآناً، بل ترجمة له محضاً. فلا تشملها أحكام القرآن الخاصة به، وإنما شأنها شأن التفسير الذي وضع على أساس الإيجاز والإيفاء حسب المستطاع.

و أمّا الحديث المأثور عن رسول الله ﷺ: «تعلّموا القرآن بعربيته»، فإنما هو حث على تعلّم العربية؛ حيث عبادات الإسلام عربيّة، وعلى كلّ مسلم أن يتقنها مهما أمكن. قال الإمام الصادق عليه السلام: «تعلّموا العربية فإنّها كلام الله الذي كلّم به خلقه ونطق به للماضين»، وروى ابن فهد الحلّي في «عُدّة الداعي» ص ١٨: «عن الإمام الجواد عليه السلام، قال: ما استوى رجلان في حسب و دين قط إلا كان أفضلهما عند الله - عزّ وجلّ - أدبهما. قال الراوي: قلت: قد علمت فضله عند الناس في النادي والمجلس، فما فضله عند الله؟ قال عليه السلام: بقراءة القرآن كما أنزل، ودعائه من حيث لا يلحن؛ وذلك أن الدعاء الملحون لا يصعد إلى الله.

هذا إن أُريد قراءة القرآن ذاته، وليس نهياً عن تفسيره أو ترجمته بغير لغة العرب إذا دعت الضرورة إلى ذلك، كما نبّهنا. ومع ذلك فقد أُجيز القراءة بلحن غير عربيّ لمن يتعذّر عليه التلهّج بلهجة العرب. قال النبي ﷺ: «إنّ الرجل الأعجميّ من أمّتي ليقرأ القرآن بعجميّته، فترفعه الملائكة على عربيّته»^٢.

١. راجع: الأدلة العميمة، ص ٣١، ٣٥.

٢. الأحاديث مستخرجة من كتاب: وسائل الشيعة، ج ٤، ص ٨٦٦.

وثائق شرعية

لم يبحث علماؤنا السلف رحمهم الله عن مسألة «ترجمة القرآن إلى سائر اللغات» بحثاً مستوفى يشمل جوانب المسألة وفي تمام أبعادها بتفصيل، وإنما جاء كلامهم عن الترجمة عرضاً عند التكلم في شروط القراءة في الصلاة. ويبدو من كلامهم هناك: أن الترجمة في حد ذاتها لا ضير فيها، ومن ثم وقع البحث منهم في جواز قراءتها في الصلاة بدلاً عن الفاتحة بحثاً ثانوياً، مفروغاً عن جواز أصل الترجمة ذاتها.

كما أنه في طول حياة المسلمين، قام رجال من أهل الفضيحة والأدب بترجمة القرآن، تماماً أو بعض آيه و سور، عرضاً على أناس كانوا لا يحسنون العربية، وكان ذلك بمراى و تسمع من فتناء الإسلام من غير تكبير منهم، مما ينبؤك عن تسالمهم على الجواز، ولا سيما للهدف المذكور.

نعم، صدرت - أخيراً - فتاوى بشأن جواز الترجمة، وكتب كثيرون حول المسألة، تنصاً وإبراماً. أما المنتهاء فتد توافقتوا على الجواز، بشروط ذكروها، وقد نوهنا عن طرف منها، ونورد هنا بعضاً من تلك النظرات والآراء:

مركز تحقيق وتطوير علوم إسلامي

فتوى الحجة كاشف الخطاء

جاء فيما كتبه سماحة الحجة الشيخ محمد حسين آل كاشف الخطاء - تغمده الله برحمته - جواباً على استفتاء الأستاذ عبد الرحيم محمد علي، بشأن جواز ترجمة القرآن إلى اللغات الأجنبية - ما نصه -:

إذا أمعنا النظر في هذه القضية نجد أن إعجاز القرآن الذي أدهش العلماء، بل وأدهش العالم، يرجع إلى أمرين: فصاحة المعاني إلى فصاحة الألفاظ، وبلاغة الأساليب والتراكيب. والثاني: قوة المعاني. وما في القرآن من التشويق المديح والوضع الرفيع، والأحكام الجامعة في صلاح المشروعة من العبادات والاجتماعيات، يعني من أول كتاب الطهارة إلى الحدود والديات، بعد العقائد المرهنة في التوحيد والنمو والمعاد.

١. سوف نوفي لك عن تراجم عديدة قام بها رجالات الإسلام منذ عهد قديم.

وبالجملة، فقد تكفل القرآن بصلاح عامة البشر معاشهم ومعادهم بما لم يأت بمثله أي كتاب سماوي، وأي شريعة من الشرائع السابقة. ولا شك أن الترجمة مهما كانت من القوة والبالغة في اللغة الأجنبية فإنها لا تقدر على الإتيان بها بلسان آخر، مهما كان المترجم قوياً ماهراً في كلتا اللغتين العربية والأجنبية. وإذا حسنت الترجمة ولم يكن فيها أي تغيير وتحريف، فهي جائزة، بل ثلثها واجب على المقتدر فرداً كان أو جماعة؛ لأنَّ فيها أبلغ دعوة للإسلام ودعابة للدين، ويشمله قوله تعالى: «وَلَنَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ»^١ وأي خير أهم وأعظم من الدعوة إلى الإسلام! ولم نزل ترجمة القرآن باللغة الفارسية شائعة من زمن قديم، ولم يذكر أحد من علمائنا الأفاضل عليه السلام المنع عنها، وإذا جاز بالفارسية جاز غيرها قطعاً. وبهذا البيان لا حاجة إلى التمسك بأصالة الإياحة ونحوها، فإن الأمر أوضح وأصح وأجلى من أن يحتاج إلى دليل أو أصل أصيل، وحسنا الله ونعم الوكيل!

نظرة الإمام الخوئي

لسيدنا الأستاذ الإمام الخوئي عليه السلام نظرة وافية بشأن ترجمة القرآن إلى سائر اللغات، ذكرها في ملحق كتابه البيان مع إشارة إجمالية إلى شروطها الأولية، وإليك نصها:

لقد بعث الله نبيه لهداية الناس عز وجل بالقرآن، وفيه كل ما يسعدهم ويرقي بهم إلى مراتب الكمال، وهذا لطف من الله لا يختص بقوم دون آخر، بل بعمم البشر عامة. وقد شاءت حكمته البالغة أن ينزل قرآنه العظيم على لسان قوم، مع أن تعاليمه عامة وهدايته شاملة؛ ولذلك فمن الواجب أن يفهم القرآن كل أحد ليتهدي به. ولا شك أن ترجمته مما يعين على ذلك، ولكنه لا بد أن تتوفر في الترجمة براعة وإحاطة كاملة باللغة التي ينقل منها القرآن إلى غيرها؛ لأن الترجمة مهما كانت متقنة لا تفي بمزايا البلاغة التي امتاز بها القرآن، بل ويجري ذلك في كل كلام؛ إذ لا يؤمن أن تنتهي الترجمة إلى عكس ما يريد الأصل. ولا بد إذن في ترجمة القرآن من فهمه، ويحصر فهمه في أمور ثلاثة:

- ١- الظهور اللفظي الذي تفهمه العرب الفصحاء.
- ٢- حكم العقل الفطري السليم.
- ٣- ما جاء من المعصوم في تفسيره.

١- آل عمران (٣): ١٠٤.

٢- نقلاً عن رسالة «القرآن والترجمة» لمحمد علي عبد الرحيم، ص ٣، ٤: ١٣٧٥ هـ. (ط نجف).

وعلى هذا تتطلب إحاطة المترجم بكل ذلك لينقل منها معنى القرآن إلى لغة أخرى. وأما الآراء الشخصية التي يطلقها بعض المفسرين في تفاسيرهم، ولم تكن على ضوء تلك الموازين، فهي من التفسير بالرأي وساقطة عن الاعتبار، وليس للمترجم أن يتكلم عليها في ترجمته، وإذا روعي في الترجمة كل ذلك، فمن المراجع أن تُنقل حقائق القرآن ومفاهيمه إلى كل قوم بلغتهم؛ لأنها نزلت للناس كافة، ولا ينبغي أن تحجب ذلك عنهم لغة القرآن، ما دامت تعاليمه وحقائقه لهم جميعاً.

كتاب شيخ الأزهر

جاء في كتاب رسمي قدّمه شيخ الجامع الأزهر الأسبق الشيخ محمد مصطفى المراغي إلى رئيس مجلس الوزراء المصري عام (١٣٥٥ هـ.ق.) ما نصّه:

اشتغل الناس قديماً وحديثاً بترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغات المختلفة، ونولى ترجمته أفراد يجيدون لغاتهم ولكنهم لا يجيدون اللغة العربية، ولا يفهمون الاصطلاحات الإسلامية، الفهم الذي يمكنهم من أداء معاني القرآن على وجه صحيح؛ لذلك حدث في التراجم أخطاء كثيرة، وانتشرت تلك التراجم ولم يجد الناس غيرها، فاعتمدوا عليها في فهم أغراض القرآن الكريم وفهم قواعد الشريعة الإسلامية، فأصبح لازماً على أمة إسلامية كالأمة المصرية التي لها المكان الرفيع في العالم الإسلامي أن تُادر إلى ترجمة هذه الأخطاء، وإلى إظهار معاني القرآن الكريم بنية في اللغات الحديثة لدى العالم.

ولهذا العمل أثر بعيد في نشر هداية الإسلام بين الأمم التي لا تدّين بالإسلام، ذلك أن أساس الدعوة إلى الدين الإسلامي إنما هو الأدلاء بالحجة الناصعة والبرهان المستقيم، وفي القرآن من الصحيح الباهرة والأدلة الدامغة ما يدعو الرجل المنصف إلى التسليم بالدين والإدعان له.

ووالدة أخرى للأمم الإسلامية التي لا تعرف العربية وتشرب أعناقها إلى اقتطاف تمرات الدين من مصدرها الرفيع، فلا نجد أمامها إلا تراجم قد منبت بالأخطاء، وإذا ما قدّمت لها ترجمة صحيحة تصدرها حياة لها مكانتها الدينية في العالم، اطمأنت إليها وركنت إلى أنها تعمّر عن الوحي الإلهي تعبيراً دقيقاً.

ونرى أن عهد حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الذي تمت فيه أعمال جليلة لخير

الإسلام والمسلمين، خالق بأن يتم هذا المشروع الجليل، أطال الله بقاء جلالته نصيراً
للعلم والدين.

لذلك أقترح: أن يقرّر مجلس الوزراء ترجمة معاني القرآن الكريم ترجمة رسمية، على
أن تقوم بذلك مئبئة الأزهر بمساعدة وزارة المعارف، وأن يقرّر مجلس الوزراء
الاعتماد اللازم لذلك المشروع الجليل، فأرجو النظر في هذا.

و هناك كتاب رسمي آخر من وزير المعارف المصرية إلى رئيس مجلس الوزراء،
بشأن تأييد كتاب شيخ الأزهر والتأكيد من إنجاز الطلب.

فتوى علماء الأزهر

قدّم إلى هيئة علماء الأزهر استفتاء بشأن ترجمة القرآن إلى سائر اللغات، ضمّنه
الشروط المقررة لهذا المشروع، فكان الجواب هي الموافقة الصريحة.
و إليك نصّ الاستفتاء مشفوعاً بجوابه:

ما قول السادة أصحاب الفضيلة العلماء في السؤال الآتي بعد ملاحظة المقدمات
الآتية؟

١- لا شبهة في أن القرآن الكريم اسم للنظم العربي الذي نزل على سيّدنا محمد بن عبد
الله ﷺ ولا شبهة أيضاً في أنه إذا عرّب عن معاني القرآن الكريم بعد فهمها من النصّ
العربي بأبنة لغة من اللغات، لا تسمى هذه المعاني ولا العبارات التي تؤدي هذه
المعاني قرآناً.

٢- ومما لا خلاف فيه أيضاً أن الترجمة اللفظية، بمعنى نقل المعاني مع خصائص النظم
العربي المعجز مستحيلّة.

٣- ووضّح الناس تراجم للقرآن الكريم بلغات مختلفة اشتملت على أخطاء كثيرة،
واعتمد على هذه التراجم بعض المسلمين الذين لا يعرفون اللغة العربية، وبعض
العلماء من غير المسلمين ممن يريد الوقوف على معاني القرآن الكريم.

٤- وقد دعا هذا التفكير في نقل معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأخرى على الوجه
الآتي: يراد - أولاً - فهم معاني القرآن الكريم بواسطة رجال من خيرة علماء الأزهر
الشريف، بعد الرجوع لأراء أئمة المفسرين، وصوغ هذه المعاني بعبارات دقيقة

محدودة. تم نقل المعاني التي فهمها العلماء، إلى اللغات الأخرى، بواسطة رجال موثوق بأماناتهم واقتدارهم في تلك اللغات؛ بحيث يكون ما يفهم في تلك اللغات من المعاني هو ما تؤدبه العبارات العربية التي يضعها العلماء. فهل الإقدام على هذا العمل جائز شرعاً أو هو غير جائز؟ هذا مع العلم بأنه سيوضع تعريف شامل يتضمن أن الترجمة ليست قرآناً، وليس لها خصائص القرآن، وليست هي ترجمة كل المعاني التي فهمها العلماء، وأنه ستوضع الترجمة وحدها بجوار النص العربي للقرآن الكريم.

و جاء الجواب ما نصّه:

الحمد لله والصلوة والسلام على رسول الله ﷺ وبعد، فقد اطلعنا على جميع ما ذكر بالاستفتاء المدون بإذن هذا، ونقيد بأن الإقدام على الترجمة على الوجه المذكور تفصيلاً في السؤال، جائز شرعاً، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقد وقّع كبار علماء الأزهر وأسمائهم كما يلي:

محمود الدنياوي	عضو جماعة كبار العلماء و شيخ معهد طنطا.
عبد المجيد اللبان	شيخ كلية أصول الدين و عضو جماعة كبار العلماء.
إبراهيم حمروش	شيخ كلية اللغة العربية و عضو جماعة كبار العلماء.
محمد مأمون الشناوي	شيخ كلية الشريعة و عضو جماعة كبار العلماء.
عبد المجيد سليم	مفتي الديار المصرية و عضو جماعة كبار العلماء.
محمد عبد اللطيف الفحام	وكيل الجامع الأزهر و عضو جماعة كبار العلماء.
دسوقي عبد الله البدري	عضو جماعة كبار العلماء.
أحمد الدباشي	عضو جماعة كبار العلماء.
يوسف المدجوي	عضو جماعة كبار العلماء.
محمد سبيع الذهبي	شيخ الحنابلة و عضو جماعة كبار العلماء.
عبد الرحمن قراة	عضو جماعة كبار العلماء.
أحمد نصر	عضو جماعة كبار العلماء.
محمد الشافعي الظواهري	عضو جماعة كبار العلماء.

عبد الرحمن عليش الحنفي عضو جماعة كبار العلماء.

و عقب شيخ الجامع الأزهر محمد مصطفى المراغي على الفتوى المذكورة بالنص التالي، وأبدى موافقته لهم في الجواب. وهذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم وجهت هذا السؤال إلى حضرات أصحاب الفضيلة جماعة كبار العلماء. رأيي أوافقهم على ما رأوه.

رئيس جماعة كبار العلماء

محمد مصطفى المراغي

* * *

قرار مجلس الوزراء المصري

أقر مجلس الوزراء المصري المشروع ووافق عليه، وأدخل عليه عشرة آلاف جنيه في ميزانية السنة الجديدة، لتنفيذ بعضها في ميزانية وزارة المعارف، وبعضها في ميزانية الجامع الأزهر، وبعضها في ميزانية المطبعة الأميرية. وأصبح المشروع نافذ المفعول من الوجهة القانونية، واستوفى الإجراءات من الناحيتين العلمية والرسمية، وهذا قرار

مجلس الوزراء المصري كما يلي:

بعد الاطلاع على كتاب فضيلة شيخ الجامع الأزهر، وكتاب سعادة وزير المعارف العمومية، بشأن ترجمة معاني القرآن الكريم، ومع تقدير مجلس الوزراء لمشقة هذا العمل وصعوبته، ومنعاً لإضرار التراجم المنتشرة إلى الآن، رأى بجلسته المنعقدة في (١٢) أبريل / ١٩٣٦ م. الموافقة على ترجمة معاني القرآن الكريم، ترجمة رسمية تقوم بها مئذنة الجامع الأزهر، بمساعدة وزارة المعارف العمومية، وذلك وفقاً لفتوى جماعة كبار العلماء، وأساقفة كلية الشريعة.

محاولة دون تنفيذ القرار

تكدلت الجماعة المعارضة بزعامه الشيخ محمد سليمان نائب المحكمة الشرعية العليا، وقاومت المشروع مقاومة عنيفة، وانحاز إليهم شخصيات كبيرة، أمثال الشيخ

محمد الأحمدى الظواهري، شيخ الجامع الأزهر السابق والعضو في هيئة كبار العلماء، فلم يشهد الاجتماع الذي عقدته هيئة كبار العلماء لإقرار المشروع، ولم يوافق عليه، أضف إلى ذلك أنه أرسل كتاباً إلى علي ماهر باشا رئيس الوزارة السابقة، يحمله على رفض المشروع.

و عقد مقاومة المشروع اجتماعات، وأنشوا جمعية لمقاومته، وورّعوا بعض نشرات، و طافوا بمضابط في الأسواق، يسألون الناس توقيعها، فوقّعها كثيرون يعدّون بالألوف، ورفعوها إلى البرلمان. وأصدر فريق كبير من العلماء فتوى ضد المشروع، وفي مقدّمتهم الشيخ موسى الغراوي رئيس المحكمة الشرعية العليا السابق، وغيره من قضاة المحاكم الشرعية ورؤسائها، ورفعوها إلى البرلمان.

و تألّف حزب في البرلمان، برعامة الشيخ عباس الجمل المحامي الشرعي، يضمّ عدداً كبيراً من النواب والشيوخ لمقاومة المشروع، والإلحاح بحذف المخصّصات المرفّعة له في الميزانية.

و أرسل فريق من أهل الشام وفلسطين والعراق كتباً إلى رئيس الوزراء (النحاس باشا)، يطلبون إليه بكلّ إلحاح ويستخلصونه باسم الإيمان الذي يملأ صدره وباسم القرآن والدين، أن يحول دون ترجمة القرآن.

فكانت مغبة هذه النعرات المعارضة أن حالت دون تحقيق المشروع وأوقفته وشيك تنفيذه.

وقام النحاس باشا بحلّ المشكلة شكلياً، فقرّر ترجمة تفسير جديد للقرآن دون ترجمة نفسه؛ وبذلك حاول إرضاء كلا الفريقين ظاهرياً، وتخلّص بنفسه عن خوض المعركة، فانتهت بهذا الشكل الاسمي الباهت (١).

١. راجع: مجلة الرابطة العربية المصرية، صدر في ربيع الأول سنة ١٣٥٥ هـ، في يوليو سنة ١٩٣٦ م.

مناقشات فقهية

سبق أن فقهاء الإمامية متفقون على أن الترجمة ليست قرآنًا، ذلك الكتاب العليّ الحكيم، الذي لا يمسه إلا المطهرون، فبالتالي لا تجري عليها الأحكام الخاصة بالقرآن، التي منها جواز القراءة بها في الصلاة. وقد عرفت كلام المحقق الهمداني: عدم إجزاء الترجمة عن القراءة في الصلاة، حتى للعاجز عن النطق بالعربية. وهذا إجماع من علمائنا قديماً وحديثاً. أن الترجمة ليست قرآنًا إطلاقاً.

أمّا سائر المذاهب، فقد ذهب أبو حنيفة إلى جواز قراءة الترجمة بدلاً عن القرآن نفسه، مطلقاً سواء أقدر على العربية أم عجز عنها، واستدل على ذلك بأن القرآن الواجب قراءته في الصلاة، هي حقيقة القرآن ومعناه الذي نزل على قلب رسول الله ﷺ لقوله تعالى: «وَأَنَّهُ لَنَفِي زُبُرِ الْأَوْنَيْنِ»^١، «إِنَّ هَذَا نَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى»^٢، والضمير في «أنه»، والإشارة في «إن هذا» إنما هو للقرآن، ومعلوم أنه لم يكن في تلك الصحف إلا معانيه.

و أيضاً قوله تعالى: «وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ»^٣، وإنما يندرك كل قوم بلسانهم^٤، وزاد السرخسي استدلال أبي حنيفة بما روى أن الفرس كتبوا إلى سلمان الفارسي، أن يكتب لهم الفتحة بالفارسية، فكانوا يقرأون ذلك في صلاتهم حتى لانت ألسنتهم للعربية^٥.

أمّا أصحابه (أبو يوسف ومحمد) فقد أجازوا قراءة الترجمة للعاجز عن العربية دون التقادر عليها، وبذلك أفتى الشيخ محمد بخيت مفتي الديار المصرية في فتوى له لأهل

١. الأعراس (٨٧): ١٨-١٩.

٢. الشعراء (٢٦): ١٩٦.

٣. الأنعام (٦): ١٩.

٤. راجع: المغني لأبي قدامة، ج ١، ص ٥٢٦؛ مدارك الأحكام في شرح شوايع الإسلام لحامد، ج ٣، ص ٣٤١؛ رسالة بحث في ترجمة القرآن لسراغ، ص ٩.

٥. المبسوط للسرخسي، ج ١، ص ٣٧. وفي رواية تاج الشريعة الحنفية زيادة: «فكتب (بسم الله الرحمن الرحيم) بام يزدان بحدوثه...» وبعد ما كتب ذلك، عرض على النبي ﷺ (حاشية الهداية لتاج الشريعة، ج ١، ص ٨٦، صغ دليبي: ١٩١٥ م)، معجم مصطلحات القرآن، ج ٣، ص ٨٢.

الترانسفال، قال فيها: «و تجوز القراءة و الكتابة (أي للقرآن) بغير العربية للعاجز عنها، بشرط أن لا يختل اللفظ و لا المعنى. فقد كان تاج المحدثين الحسن البصري يقرأ القرآن في الصلاة بالفارسية لعدم انطلاق لسانه باللغة العربية» وقد أرسل بها إلى مسلمي الترانسفال سنة (١٩٠٣م) و نشرتها مجلة المنار في ذلك الحين.^١

و بقيت المذاهب وافقوا الإمامية في المنع إطلاقاً، فلا يجوز عندهم قراءة الفاتحة بغير العربية على كل حال.^٢

و هكذا أفتى الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر (١٩٣٢م) بالجواز للعاجز عن العربية.

قال - في رسالته التي كتبها بهذا الشأن - : «و أنتهي من البحث في هذه المسألة إلى ترجيح رأي قاضيخان و من تابعه من الفقهاء، وهو وجوب القراءة في الصلاة بترجمة القرآن للعاجز عن قراءة النظم العربي».

وقال - ردّاً على المانعين و منهم صاحب الفتح - : «إن حجة المانع هو أن ترجمة القرآن ليست قرآناً، و ما كان كذلك كان من كلام الناس، فهو مبطل للصلاة. قال: و هذا الاستدلال غير صحيح؛ لأن الترجمة وإن كانت غير قرآن، لكنها تحمل معاني كلام الله، لا محالة. و معاني كلام الله ليست كلام الناس. قال: و عجيب أن توصف معاني القرآن بأنها من جنس كلام الناس، بمجرد أن تلبس توباً آخر غير التوب العربي، كأن هذا التوب هو كل شيء».^٣

* * *

قال السيد محمد العاملي - في شرح كلام المحقق الحلي: «ولا يجزئ المصلي ترجمتها» - :

«هذا الحكم ثابت بإجماعنا، و وافقنا عليه أكثر علماء سائر المذاهب، لقوله تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا»^٤؛ و لأن الترجمة مغايرة للمترجم، و إلا لكانت ترجمة الشعر

١. راجع الفقه على المذاهب الأربعة للجزيري: ج ١، ص ٥٣٠.

٢. يوسف (١٣) : ٢.

٣. الأدلة العينية، ص ٦١.

٤. بحث في ترجمة القرآن، ص ٣٣.

شعراً»^١.

و أمّا استدلال أبي حنيفة بأنه جاء ذكر القرآن في «زُيْرَ الْأَوَّلِينَ» وفي «الصُّحُفِ الْأُولَى»، فهذا يعني وصفه ونعته، وليس نفسه. قال الطبرسي: أي وأن ذكر القرآن وخبره جاء في كتب الأولين على وجه البشارة به وبمحمد ﷺ لا بمعنى أنه تعالى أنزله على غير محمد^٢.

و قال - في آية الصحف الأولى -: يعني أن هذا الذي ذكر من فلاح المتركي إلى تمام ما في الآيات الأربع، لفي الكتب الأولى. فقد جاء فيها ذكر فلاح المصلي والمتركي وإيتار الناس الحياة الدنيا على الآخرة، وأن الآخرة خير وأبقى^٣. وهذا لا يعني نفس الكتاب وأنه مذكور بذاته في تلك الصحف، ليستلزم ذلك أن يكون ذكر المعاني ذكرًا للقرآن نفسه. و قال السيّد العاملي - في آية البلاغ -: الإنذار بالقرآن لا يستلزم نقل اللفظ بعينه؛ إذ مع إيضاح المعنى يصدق أنه أنذرهم به، بخلاف صورة النزاع^٤. يعني أن هناك فرقاً بين قولنا: أنذر بهذا القرآن، وقولنا: اقرأ بهذا القرآن. فإن الأول لا يستدعي حكاية نفس القرآن ونقله بالذات إلى المنذرين، بل يكفي تحويرهم بما يستفاد من القرآن من الوعد والوعيد. وهذا بخلاف الثاني المستلزم تلاوة نفسه كما في قراءة الصلاة.

قال ابن حزم: «و من قرأ أم القرآن أو شيئاً منها أو شيئاً من القرآن، في صلاته مترجماً بغير العربية، أو بالفاظ عربية غير الألفاظ التي أنزل الله تعالى، عامداً لذلك، أو قدّم كلمة أو أخرها عامداً لذلك، بطلت صلاته، وهو فاسق؛ لأن الله تعالى قال: «قرآناً عربياً» وغير العربي ليس عربياً، فليس قرآنًا. وإحالة رتبة القرآن^٥ تحريف كلام الله تعالى، وقد ذم الله تعالى قوماً فعلوا ذلك، فقال: «يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ»^٦.

١. مدارك الأحكام، ج ٣، ص ٣٤١.

٢. مجمع البيان، ج ١٩، ص ٢٠٤.

٣. المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٤٧٦.

٤. مدارك الأحكام، ج ٣، ص ٣٤١.

٥. أي تحوير نظم القرآن وتغيير ترتيبه اللفظي.

٦. المائدة (٥): ٨٣.

و قال أبو حنيفة: تُجزئ صلواته. واحتج له من قلده بقول الله تعالى: «وَإِنَّهُ لَنَبِيٍّ رُبِّهِ الْأَوَّلِينَ».

قال علي: لا حجة لهم في هذا؛ لأن القرآن المنزّل علينا على لسان نبيّنا ﷺ لم ينزل على الأولين، وإنما في زهر الأولين ذكره والإقرار به فقط، ولو نُزل على غيره ﷺ لما كان آية له ولا فضيلة له، وهذا لا يقوله مسلم.

ومن كان لا يحسن العربية فليذكر الله تعالى بلغته؛ لقوله تعالى: «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا»^١. ولا يحلّ له أن يقرأ أم القرآن ولا شيئاً من القرآن مترجماً على أنه الذي افترض عليه أن يقرأ؛ لأنه غير الذي افترض عليه كما ذكرنا، فيكون مفترياً على الله تعالى^٢.

و أمّا فتوى الشيخ محمد بخيت لأهل الترانسفال، فقد تشابه عليه الحسن بصاحبه؛ لأنّ الذي كان يقرأ في الصلاة بالفارسية هو حبيب العجمي صاحب الحسن البصري. قال - في شرح مسلم الثبوت -: «يجوز القرآن بالفارسية للعذر - وهو عدم العلم بالعربية وعدم انطلاق اللسان بها - وقد سمعت من بعض النقات أن تاج العرفاء والأولياء الحبيب العجمي صاحب تاج المحدثين وإمام المجتهدين الحسن البصري كان يقرأ في الصلاة بالفارسية لعدم انطلاق لسانه باللغة العربية»^٣.

و أمّا حديث ترجمة سلمان للفاتحة، وقراءة الفرس لها في صلاتهم، فلم نعر على مستند له وثيق، وإنما أرسله السرخسي عن أبي حنيفة إرسالاً، لا يعلم مصدره. ولعلّ الترجمة - على فرض الثبوت - كانت لمجرد العلم بمعناها لا للقراءة بها في الصلاة!

١. يريد نفسه: علي بن أحمد بن سعيد بن حزم. توفي ٤٥٦ هـ.

٢. البقرة (٢): ٢٨٦.

٣. المحلى لأبي حزم، ج ٣، ص ٢٥٤، كتاب الصلاة، المسألة رقم ٣٦٧.

٤. بحث في ترجمة القرآن، ص ١٧.

ترجمة القرآن ضرورة دعائية

و بعد، فإذا قد جازت ترجمة القرآن في حد ذاتها، ترجمة معنوية وافية بإفادة معاني القرآن كُملًا، فعندئذ نقول:

إنَّ ترجمة القرآن إلى سائر اللغات أصبحت ضرورة دينية و واجباً إسلامياً عاماً (وجوباً بالكفاية) وكان من وظيفة كل مسلم يحمل رسالة الله في طيات وجوده، أن يهتم بهذا الأمر الذي يمثل حميم الإسلام، لغرض انتشار الدعوة و بثّ تعاليم الإسلام عبر الخافقين.

الإسلام دين البشرية عامة «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا»^١، «تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً»^٢ فلا يخص أمة دون أخرى ولا جيلًا دون جيل، وكان في ذمة كل مسلم متعهد بدينه الاهتمام ببث الدعوة ونشرها بين الملأ، وظيفته دينية في الحميم «وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»^٣، «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا»^٤.

ولا شك أن القرآن هو السند الوثيق الوحيد لبناء الدعوة ونشر تعاليم الإسلام، وقد نزل بياناً للناس «هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ»^٥ فكان حقيقاً أن يبين للناس «وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ لِيُبَيِّنَ لِّلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ»^٦.

فالمنع عن ترجمته و بثها بين الناس كتمان لما أنزله الله من البينات والهدى «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِّلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ النَّارُ لَعْنًا»^٧.

١. الفرقان (٣٥) : ١.

٢. البقرة (٢) : ١٨٣.

٣. النحل (٦٦) : ٤٤.

٤. سبأ (٣٤) : ٢٨.

٥. آل عمران (٣) : ١٠٤.

٦. آل عمران (٣) : ١٣٨.

٧. البقرة (٢) : ١٥٩.

قال تعالى - عن لسان نبيه -: «وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ»^١.

إنَّ في القرآن مقاصد عالية ومطالب سامية، هي ذوات أهداف عالمية كبرى عبر الأفاق ومَرَّ الأَيَّام، يجب بثها والإعلام بها لكافة الأنام، ممَّا لا يتمُّ إلا بتعميم نشر القرآن وعرضه على العالمين جميعاً، الأمر الذي لا يمكن إلا بترجمة معانيه إلى كل اللغات الحيَّة في العالم كلِّه.

أمَّا ولو أهملت هذه الأُمَّة بالقيام بهذه المهمَّة، وتفاعست عن الإتيان بواجبها الديني الفرض، وقصَّرت دون أداء رسالة الله في الأرض، فإنَّ الله تعالى سوف يستبدل بهم قوماً غيرهم ثمَّ لا يكونوا أمثالهم «وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ»^٢.

* * *

وقد عرفت أنَّ الأوائل كانوا يجهزون ترجمة معاني القرآن لأقوام كانوا جديدي عهد بالإسلام، ممَّن لم تكن لهم سابقَّة إلمام باللغة العربيَّة، فكانت تُعَرِّض عليهم الآية معصوبةً بترجمتها؛ لغرض إفهام معاني الذكر الحكيم وبيان مقاصده وتعاليمه الرشيدة لملاَّ الناس. لا شكَّ أنَّ في الهجرة الأولى (إلى الحبشة) حيث عُرِضت آي من القرآن الكريم على حاضري مجلس النجاشي من الورداء والعميان الدولة، قد ترجمت ما تليت من آي الذكر الحكيم، باللغة الحبشيَّة (الأمهرية)؛ إذ لم يكن الحضور يحسنون العربيَّة بطبيعة الحال، وفي ذلك يقول صدر الأفاضل: وإني أعتقد أنَّ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه كان يجيد اللغة الحبشيَّة، وهو الذي قام بترجمة الآيات التي تلاها حينذاك من سورة مريم^٣، فكان ذلك التأثير العجيب في نفوس القوم ولا سيَّما النجاشي نفسه؛ حيث قال: «والله إنَّ كلام محمَّد، لا يختلف شيئاً عن تعاليم سيِّدنا المسيح...»، وبكى بكاء شديداً.

وهكذا لما طلب الراجا (رائك مهروق) -الذي كان أميراً على منطقة الرور- من عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، مندوب الحكومة الإسلاميَّة هناك سنة (٢٣٠ هـ.ق.) أن يفسِّر

١. الأنعام (٦): ١٩. ٢. محمد (٤٧): ٢٨.

٣. عن مقال له في مجلة التوحيد الإسلامي: الشَّعْبة الثانية: العدد ٩، ص ٢١٦.

القرآن له، أي يترجمه بالهندية. وعند إنجاز الطلب على يد كاتب قدير، يقول المترجم: فأنتهيت من التفسير إلى سورة «يس» حتى وصلت إلى الآية «قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ»^١. قال: فلما فسرت له هذا - أي ترجمته له باللغة السنسكريتية (الهندية القديمة) خرّ من سريره على الأرض واضعاً خده عليها وهي مبتلة، فتأثر وجهه من بلة الأرض، وقال - باكياً: «هذا هو الربّ المعبود، والذي لا يُشبهه شيء». وكان قد أسلم سرّاً، فكان بعد ذلك يخلو بنفسه في بيت عزلة يعبد الله ويناجي ربّه سرّاً^٢.

* * *

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن كثيراً من الناس قاموا - في زعمهم - بنقل القرآن إلى لغات كثيرة وترجمات متعددة، قد بلغت المئات في خمس و ثلاثين لغة حيّة في العالم المتمدّن اليوم. وقد طبعت بعض هذه التراجم عدّة طبعات بل عشرات الطبعات، فقد طبعت الترجمة الإنجليزيتي التي قام بها «سبيل»^٣ أكثر من أربعين مرّة. وهكذا بالنسبة إلى تراجم فرنسيّة وألمانيّة وإيطاليّة وفارسيّة وتركّيّة وأوردية وصينيّة وجاويّة، إلى غيرها من لغات العالم الحيّة.

و من هؤلاء المترجمين من يحمل عداوة للإسلام والمسلمين عداوة ظاهرة، ومنهم من تعوزه كفاءة المقدرة على ترجمة تامة، وافية بمعاني القرآن، وهذا الأخير لا يقلّ ضرورة عن الأوّل الذي يتعمّد الدسّ والتزوير. فمن هذا وذاك قد حصل تحريف في معاني القرآن كثير، الأمر الذي يعود ضرره في نهاية المطاف إلى كيان الإسلام والمسلمين، فضلاً عن الأخطاء الناحشة التي وقعت في هكذا تراجم، قام بها غير الأهل.

إذن ينبغي أن لا نقف - نحن أبناء الإسلام ودعاته - مكتوفي الأيدي ملجمين بلجام

١. يس (٣٦) ١-٨٨.

٢. مجلة التوحيد (راجع: عجائب الهند، جعة لندن (١٨٨٣م) لمؤلفه (بزرگ شهریان). وكان عادداً حتى سنة (١٣٣٩هـ)).

العار والشغار، مصممي الأفواه تجاه هذه الحوادث الفادحة والحقائق المرة الماتلة بين أيدينا، نحن المسلمين.

و قد تصدّى لترجمة القرآن - لغرض خبيث - قبل ثمانية قرون، مطران مسيحي يدعى «يعقوب بن الصليبي» ترجمه إلى السريانية، ونُشرت خلاصتها سنة (١٩٢٥ م). وتابع هذا المطران أبحار ورهبان كانوا أسبق من غيرهم في هذا الميدان، والله أعلم بما يبيتون^١. قال العلامة أبو عبد الله الزنجاني: وربما كانت أول ترجمة إلى اللغة اللاتينية - لغة العلم في أوروبا - وذلك سنة (١١٤٣ م) بقلم «كنت» الذي استعان في عمله بطرس طليطلي وعالم نان عربي، وكان الغرض من الترجمة عرضه على «دي كلوني» وبقصد الرد على القرآن الكريم، وفي عام (١٥٩٤ م) أُصدر «هنكلمان» ترجمته، وجاءت على الأثر (١٥٩٨ م). طبعة مراتشي مصحوبة بالردود^٢.

وبعد، فأني عذري بيه زعماء الأمة تجاه هذا التلاعب بأساس الدين؟! وما هو المبرر للسكوت أمام هذا التناوش المقيت بمقتضيات الإسلام من قريب وبعيد، لولا قيام المضطلعين بأعباء رسالة الإسلام - حفظاً على ناموس الدين - فيستعيدوا نشاطهم بأمر الشريعة الغراء، ويؤلفوا لجنة مركزية من علماء مبرزين، فيقدموا إلى العالم تراجم صحيحة من القرآن الكريم، معترفاً بها رسمياً من مراجع دينية صالحة؛ فيكون ذلك مكافحة صريحة مع تلك المناوشات الخبيثة، ومقابلة عملية تجاه أعداء الإسلام. سنوفي لك نماذج خاطئة في نهاية المقال دليلاً على ضرورة القيام بهذه المقابلة الإيجابية.

تراجم إسلامية عريقة

قد عرفت حديث ترجمة (سلمان الفارسي) لسورة الحمد، بطلب من فرس اليمن المسلمين^٣. وهكذا قام دعاة الإسلام وعلماء المسلمين بتراجم لسور وآيات قرآنية،

١. المصدر نفسه.

٢. تاريخ القرآن للزنجاني، ص ٦٩.

٣. الميسوط للمرخي، ج ١، ص ٣٧. وقدّم - في الهامش - عن قاض الشريعة الحنفي: أنه ترجم البسملة بـ «بسم يزدان بخداوند... الخ»، ثم عرضها على النبي ﷺ (معجم مصطلحات القرآن، ج ٢، ص ١٢).

لغرض إيفهام معانيها لسائر الأمم ممن دخلوا في الإسلام، وكانوا لا يحسنون فهم العربية آنذاك.

و أضخم هيئة علمية قامت بترجمة القرآن، مصحوبة بترجمة أكبر موسوعة تفسيرية، في أواسط القرن الرابع للهجرة، هم علماء ماوراء النهر (شرقي بلاد إيران) بطلب من السلطان منصور بن نوح الساماني (٣٥٠-٣٦٥ هـ).

و ذلك لما أن أُرسل إليه التفسير الكبير جامع البيان لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (توفي سنة ٣٢٠ هـ) في أربعين مجلداً ضخماً، فاستعظمه وأكبر من شأنه، لكنه تأسف على عدم إمكان استفادة شعبه من هذا التفسير العظيم، فاستفتى - أولاً - جميع علماء و فقهاء ماوراء النهر (بلخ و بخارا و باب الهند و سمرقند و سييجاب و فرغانة...) في جواز الترجمة، فأجازوه جميعاً. فطلب منهم أن ينتدب منهم من يصلح لهذا الشأن. فاجتمع لحيف من العلماء المعروفين من تلك الديار، فترجموا القرآن بدءاً، ثم التفسير بكامله. و يوجد من نسخ هذه الترجمة في مكتبات العالم ما فوق العشرة، و طبع منها سنة (١٣٣٩ هـ.ش) في إيران - طهران - نسخة صحيحة في طباعة جيدة.

و قد وُضع - في النسخ المخطوطة - نص القرآن الكريم - في عدد من آياته - أولاً، ثم ترجمته، و أخيراً ترجمة التفسير. لكن النسخة المطبوعة أهملت ذكر النص، واكتفت بترجمة الآيات مسبقاً ثم ترجمة التفسير، الأمر الذي يؤخذ على مسؤول الطبع، و لا يقبل منه اعتذاره غير العادري.

و إليك نص ما جاء في مقدمة الأصل (الترجمة السامانية):

«این کتاب تفسیر بزرگ است، از روایت محمد بن جریر الطبری، ترجمه کرده بزبان پارسی و دری راه راست. و این کتاب بیاوردند از بغداد چهل معصف بود. این کتاب نبشته بزبان تازی و به اسنادهای دراز بود. و بیاوردند سوی امیر سید مظفر ابو صالح

منصور بن نوح بن نصر بن احمد بن اسماعیل... پس دشخوار آمد بر وی خواندن این کتاب و عبارت کردن آن بزبان تازی، و چنان خواست که مر این را ترجمه کند بزبان پارسی.

پس علماء ماوراء النهر را گرد کرد و این از ایشان فتوی کرد که روا باشد که ما این کتاب را به زبان پارسی گردانیم؟ گفتند: روا باشد خواندن و نبستن تفسیر قرآن پارسی، مر آن کس را که او تازی نداند؟ از قول خدای عزوجل که گفت: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ» گفت: من هیچ پیغامبری را نفرستادم مگر بزبان قوم او و آن زبانی کایشان دانستند... و اینجا بدین ناحیت زبان پارسی است، و ملوک آن این جانب ملوک عجم اند. پس بفرمود ملک مظفر ابو صالح تا علمای ماوراء النهر را گرد کردند از شهر «بخارا» چون فقیه ابو بکر بن احمد بن حامد، و چون خلیل بن احمد سجستانی. و از شهر «بلخ» ابو جعفر بن محمد بن علی. و از «باب الهند» فقیه الحسن بن علی مندوس را، و ابو الجهم خالد بن هانی المتنفقه را. و هم از این گونه از شهر «سمرقند» و از شهر «سیجانب» و «فرغانه» و از هر شهری که بود در ماوراء النهر. و همه خطها بدادند بر ترجمه این کتاب، که این راه راست است. پس بفرمود امیر سید ملک مظفر ابو صالح این جماعت علما را تا ایشان از میان خویش هر کدام فاضل تر و عالم تر اختیار کنند تا این کتاب را ترجمه کنند، پس ترجمه کردند.^۲

* * *

و هل أنجز المشروع؟

الأمر بالنسبة إلى ترجمة القرآن لعله أنجز وتم، غير أن القضية بالنسبة إلى التفسير تمت إلى حدّ الاقتصار على متون الروايات، بحذف الأسانيد والمكررات، وربما إلى حدّ التلخيص والاختزال، وانتخاب الأفضل وترك غيره. كما قد أُضيف إليه - بشأن قصص

۲. ترجمة الصبري: ص ۵-۶.

۱. ابراهيم (۱۴): ۴.

الأنبياء - روايات من تاريخ الطبري تكميلاً للفائدة.

و الحاصل أن هناك تصرفات واسعة بشأن هذه الترجمة قد تبلغ بها إلى حد تأليف مستقل، على حساب وأساس تفسير الطبري، في حجم لا يتجاوز نصف الأصل.

و قد طبع منها في سبعة مجلدات بتصحيح وتحقيق الأستاذ حبيب يغماني عدة طبعات، منذ عام ١٣٤٢ هـ. ش، فعام ١٣٥٦، و عام ١٣٦٧.

و أكثر المجلدات هي ترجمة القرآن سورة سورة حسب الترتيب، و مجلد خاص بتاريخ الأنبياء واحداً بعد واحد، هو أشبه بكتاب تاريخ. و تراجم السور موجزة إلى حد بعيد.

و لعل أقدم ترجمة رسمية للقرآن، قام بها رجال الحكم، هي التي وقعت بطلب من الراجا (رائك مهروق) في مقاطعة (الروور) من بلاد السند. طلب من عبد الله بن عمر بن عبد العزيز - وكان والياً هناك سنة (٢٣٠ هـ) - أن يترجم له معاني القرآن، فأمر عبد الله بن عمر أحد العلماء العرب ممن كانوا يجيدون لغة الهند القديمة (السنسكريتية) هناك، فترجم له حسبما مرّت عليك.



و ترجمة فارسية أخرى قام بها النقيبه الحنفي أبو حفص نجم الدين عمر بن محمد النسفي^٢ (٤٦٢-٥٣٨ هـ) من علماء ماوراء النهر. له تفسير لطيف باللغة الفارسية، يبدأ فيه بترجمة الآية ثم تفسيرها على أسلوب بديع.

* * *

و للخواجه عبد الله الأنصاري تفسير فارسي للقرآن الكريم وضعه على أسلوب المذوق العرفاني، وكان موجزاً ومختصراً فشرحه وأضاف إليه أبو الفضل رشيد الدين الميبدي

١. عجائب الهند.

٢. (نسفي) ويقال له (نحشب) بدة عامرة واقعة على حريق يخ إلى بخارا. وهذا غير تفسير النسفي لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي.

عام (٥٢٠ هـ) يبدأ بالترجمة ثم بالتفسير في تنوع لطيف وسماء كشف الأسرار وعدة الأبرار طبع أخيراً في عشر مجلدات كبار. وسيأتي شرحه عند الكلام عن تفاسير أهل العرفان.

و للخواجه - عند تفسير قوله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ نَبِيٍّ هُمْ» - استظهار لطيف بجواز تبليغ القرآن إلى سائر الأمم بلغاتهم، نظراً لأنه ﷺ مبعوث إلى كافة الناس، ويستشهد على ذلك بعدة من الأدلة لإثبات مطلوبه.

* * *

و الأحسن الأكمل من الجميع تفسير مبسط باللغة الفارسية، قام بها العلم العلامة جمال الدين أبو الفتح الحسين بن علي بن محمد بن أحمد الرازي، من أحفاد نافع بن بديل بن ورقاء الخزاعي، من صحابة الرسول الأكرم ﷺ. قام بهذا التفسير وأكمله - في عشر مجلدات ضخام - في المنتصف من القرن السادس للهجرة.

يبدأ فيه بالنص العربي، ثم ترجمته تحت المفرد، ثم التفسير. ويعد من أفصح النثر الفارسي القديم في أسلوب رائع وجيد للغاية، مع البسط والشرح لمناحي معاني الآيات، بصورة مستوعبة ومستوفاة. وهو من كبر المعاني الإسلامية العريقة. طبع هذا التفسير القيم في إيران عدة طبعات أتيقة، وقد اعتنى به العلماء الأفاضل.

* * *

و لنظام الدين الحسن بن محمد القمي النيسابوري (٧٢٨ هـ) تفسير يدعى باسم غرائب القرآن و رغائب الفرقان يترجم الآية أولاً باللغة الفارسية، ثم التفسير بالعربي، ويتعرض للتفسير الظاهري، ويعقبه بالتفسير الباطني على أسلوبه العرفاني المعروف. وقد طبع هذا التفسير مع حذف الترجمة في مصر على هامش الطبري، لكن النسخ المخطوطة والمطبوعة في الهند وإيران مشتملة عليها.^٢

كيفية ترجمة القرآن

تبيين - ضمن المباحث السابقة - أسلوب الترجمة الذي نتوخاه، وهو:
أن يعمد المترجم إلى آية آية من القرآن، وفق الترتيب الموجود، فيستجيد - أولاً - فهم مضامينها عن دقة وإمعان، بما فيها من دلالات أصلية ودلالات تبعية لفظية، دون الدلالات التبعية العقلية؛ إذ التصدي لهذه الأخيرة شأن التفسير دون الترجمة.

فيشرغ المستفاد من كل آية، في قالب لفظي من اللغة المترجم إليها. ويتحرى الكلمات التي تنفي بتأدية المعاني التي كانت ألفاظ الأصل تؤديها، وفاءً كاملاً حتى في الدلالات التبعية اللفظية مهما أمكن، وإلا فيحاول تأديتها أيضاً ولو بمعونة قرائن؛ لينعكس المعنى في الترجمة كما هو في الأصل. كما يحاول - مبلغ جهده - أن لا يصطدم القالب اللفظي المشابه للأصل بشيء من التحوير أو التحريف.

وهذه الكيفية من الترجمة - التي تحافظ على سلامة المعنى بالدرجة الأولى - قد تستدعي تبديلاً في مواضع بعض الألفاظ والتعابير - من تقديم أو تأخير - أو تغييراً في روابط كلامية معمولة في الأصل، وفي الترجمة على سواء.

كما قد تستدعي زيادة لفظة في التعبير، لمحوّل الوفاء بأصل المراد تماماً، الأمر الذي لا بأس به، ما دامت الغاية هي المحافظة على سلامة المعنى.

غير أن الأولى أن يضع اللفظ المزيد بين قوسين، فلا يلتبس على القارئ هذه الزيادة مع ألفاظ الأصل.

وبالجملة فالواجب على المترجم - ترجمة معنوية صحيحة - أن يتابع الخطوات التالية:

- ١- فهم المعنى الجملي فهماً جيداً دقيقاً، والتأكد من ذلك.
- ٢- تحليل جملة ألفاظ الأصل إلى كلماتها وروابطها الموجودة، وفصل بعضها عن بعض، ليُعرف ما لكل من معنى ومفاد استدلالي أو رابطي في لغة الأصل، والتدقيق فيما إذا كان للموضع التركيبي الخاص معنى زائد على ما للألفاظ من معاني، ويتأكد ذلك عن إمعان.

- ٣- التحرّي لكلمات وروابط من اللغة المترجم إليها، تشاكل الكلمات والروابط الأصل، تشاكلاً في الإفادة والمعاني، إن حقيقة أو مجازاً.
- ٤- تركيب هذه الكلمات والألفاظ تركيباً صحيحاً يتوافق مع أدب اللغة المترجم إليها، أدباً عالياً، ومراعياً ترتيب الأصل مهماً أمكن.
- ٥- إفراز الألفاظ والكلمات الزائدة، التي لا تقابلها كلمات وألفاظ في الأصل، وإثبات زبدت في الترجمة لغرض الإيفاء بتمام المعنى، فيضعها -مثلاً- بين قوسين، لكن يمسك عن تكرار ذلك كثيراً في كلام واحد؛ لأنه يُملّ، وقد يسبب تشويش فهم المعاني.
- ٦- وأخيراً مقابلة الترجمة مع الأصل في حضور هيئة ناظرة، تحكم بالمطابقة في الأداء والإيفاء.

* * *

أما الشروط التي يجب توفّرها في المترجم أو المترجمين؛ لتتفع الترجمة مأمونة عن الخطأ والخلل، فهي كما يلي:

- ١- أن يكون المترجم مضطرباً بكلتا اللغتين؛ لغة الأصل و اللغة المترجم إليها؛ عارفاً بأدبيتهما والمزايا الكلامية التي تبيها كلتا اللغتين، معرفة كاملة.
- ٢- أن يتناول المعنى المستفاد من كل آية، بمعونة التفاسير المعتمدة الموثوق بها، ولا يقتنع بما استظهره من الآية حسب فهمه العادي، وحسب معرفة أوضاع اللغة فحسب؛ إذ قد يكون دلائل وشواهد على إرادة غير الظاهر قد خفيت عليه، لو لا مراجعته للمصادر التفسيرية المعتمدة.
- ٣- أن لا يحمل ميلاً إلى عقيدة بذاتها، أو انحيازاً إلى مذهب بخصوصه؛ لأنه حينذاك قد تجرّفه روايته الذهنية التقليدية إلى منعطفات السبل الضالة، فتكون تلك ترجمة لعقيدة، وليست ترجمة لمعاني القرآن.
- ٤- أن يترك الألفاظ المتشابهة كما هي، و يكتفي بتبديلها إلى مرادفات من تلك اللغة، فلا يتعرض لشرحها وبسط معانيها، فإنّ هذا الأخير من مهمّة التفسير فقط.

٥- أن يترك فواتح السور على حالها؛ لأنها رموز يجب أن تبقى بالمأظها من غير تبديل ولا تفسير.

٦- أن يترك استعمال المصطلحات العلمية أو الفنية في الترجمة؛ لأن مهمة المترجم إفراغ المعاني المستفادة إفراغة لغوية بحتة.

٧- أن لا يتعرض للأراء والنظريات العلمية، فلا يترجم الكلمات الواردة في القرآن بمعان اكتشفها العلم، بل يترجمها حسب الاستفادة اللغوية؛ لتكون التأدية لغوية بحتة.

* * *

تلك شروط خاصة يجب توفرها في كل مترجم يقوم بترجمة القرآن الكريم. وهناك شروط عامة يجب مراعاتها في ترجمة القرآن ترجمة رسمية، معترفاً بها لدى جامعة المسلمين العامة، هي:

٨- أن تقوم هيئة أو لجنة متشكلة من علماء صالحين لذلك، ومعروفين بسلامة الفكر والنظر والاجتهاد، لأن الترجمة الفردية كالتفسير الفردية غير مأمونة عن الخطأ والاشتباه كثيراً، وعلى الأقل يكون العمل الجماعي بعد من الزلل مما يكون عملاً فردياً؛ ولذلك يكون آمن وأحوط بالنسبة إلى كتاب الله العزيز الحميد.

وهذه الهيئة يجب أن تحمل تأييداً من قبل مراكز رسمية إسلامية، إما حكومات عادلة أو مراجع دينية عالية؛ ذلك لكي يتنفذ القرار تنفيذاً رسمياً قاطعاً.

٩- أن يشترك مع اللجنة شخصيات أو شخصيات معروفة من اللغة المترجم إليها، لغرض التأكد من صحة الترجمة أولاً، وليطمئن إليها أصحاب تلك اللغة.

١٠- والشرط الأخير - المتمم للعشر - أن توضع الترجمة مع الأصل، مصحوباً معها، فلا يقدم إلى مختلف الأقوام والملل، تراجم مجردة عن النص العربي الأصل.

وذلك لغرض خطير، هو أن لا يلتبس على سائر الملل، فيحسبوا من الترجمة قرآناً هو كتاب المسلمين، لا، بل هي ترجمة محضنة وليست قرآناً، وإلما القرآن هو الأصل، وكانت الترجمة إلى جنبه توضيحاً وتبييناً لمعانيه فحسب.

و بذلك نكون قد أمتنا على القرآن ضياعه، فلا يضيع كما ضاعت التوراة والإنجيل من قبل؛ بتجريد تراجمهما عن النص الأصل، الأمر الذي يجب أن لا يتكرر بشأن هذا الكتاب السماوي الخالد «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»^١.

نماذج من تراجم خاطئة

لا ريب أن كل عمل فردي قد يتحمل أخطاء لا يتحملها عمل جماعي، ومن تم وقع الكثير من الأفاضل في مآزق الانفراد فزلوا أو أخطأوا المقصود، هذا الإمام بدر الدين الزركشي، المصطلع باللغة والأدب، وكذا تلميذه جلال الدين السيوطي الخبير بمواضع الكلام، نراهما قد اشتبها في اشتقاق «هَدَنَّا»^٢، فزعماه من: هدى يهدي^٣، مع العلم أنه من: هاد يهود!

لكن الزمخشري في تفسيره يقول: هَدَنَّا - بالضم -: فعلنا، من: هاده يهده^٤.
وقال الراغب: الهُود: الرجوع برفق، وهذه الشهيد وهو مشي كالديب، وصار «الهود» في التعارف التوبة، قال تعالى: «إِنَّا هَدَنَّا إِيَّاكَ» أي تبناه^٥.
و الأعجب اشتباه مثل الراغب، ذكر في مادة (عنى) قوله تعالى: «وَعَمَّتِ النُّجُومُ لِنَحْنِ النُّفُورِ»^٦ أي ذلت وخضعت، في حين أنه من (عني) بمعنى العناء وهو ذل الاستسلام؛ ولذلك يقال للأسير: العاني. وقد غفل الراغب فذكره في (عنى) أيضاً. قال الطبرسي: أي خضعت وذلت خضوع الأسير في يد من قهره...^٧

١. الحجر (١٥): ٩.

٢. من قوله تعالى: «وَإِذَا كُنَّا فِي فَوْقِ النَّبَا فَحَسَّوْا فِي الْأَخْفَىٰ إِنَّا هَدَنَّا إِيَّاكَ الْأَعْرَافَ» (٧): ٨٥٦.

٣. قال الزركشي: فمته الهدي سبعة عشر حرفاً إلى قوله: و بمعنى التوبة: «إِنَّا هَدَنَّا إِيَّاكَ» أي تبناه (البرهان في علوم القرآن، ج ١، ص ١٠٣، ١٠٤).

٤. وقال السيوطي: من ذلك الهدي يأتي على سبعة عشر وجهاً إلى قوله: والتوبة: «إِنَّا هَدَنَّا إِيَّاكَ» (الإتقان،

ج ٢، ص ١٣٢-١٣٣).

٥. الكشاف، ج ٢، ص ١٦٥. ٦. المفردات في ألفاظ القرآن للراغب الإصفهاني، ص ٥٤٦.

٧. المفردات، ص ٣٤٩. ٨. مجمع البيان، ج ٧، ص ٣١.

فإذا كان مثل هؤلاء الأئمة الأعلام يزولون مغتة انفرادهم في المسيرة، فكيف بمن دونهم من ذوي الأقلام؟!

هذا العلامة المعاصر «إلهي قمشداي» مع اضطراره بالأدب والعلوم الإسلامية، تراه لم يسلم - في ترجمته الفارسية للقرآن الكريم - من زلة الانفراد، فقد ترجم قوله تعالى: «فَأَنْتَ بِهِ قَوْمُهَا تَحْمِلُهُ» قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريداً^١ بما يلي: «آنگاه قوم مريم (كه از اين قضيه آگاه شدند) به جانب او آمدند كه از اين مكانش همراه ببرند گفتند...»

فحسب من القوم فاعلاً، و أنهم أتوا مريم! كما حسب أن الضمير المنصوب في «تحمله» يعود إلى مريم، و أنهم أتوها ليحملوها معهم!

في حين أن الآية تعني: «أن مريم عليها السلام هي التي أتت إلى القوم، في حال كونها تحمل الوليد المسيح عليه السلام على عكس ما زعمه المترجم.

و هكذا ترجم قوله تعالى: «وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ»^٢ إلى قوله: «تو خود بر آن مردم گواه و ناظر اعمال بودی مادامی كه من در میان آنها بودم»! ولم يلتفت إلى أن الضمير في «كنت» للمتكلم لا للمخاطب، فضلاً عن تهافت المعنى على حسابه.

و ترجم قوله تعالى: «فَيَوْمَئِذٍ لَا يَعْذُبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدٌ»^٣، إلى قوله: «و آنروز بمانند عذاب انسان كافر هيچ كس عذاب نكشد، و آنگونه جز انسان كافر، كسی به بند (هلاک) گرفتار نشود»!

فحسب من «لا يعذب» و «لا يوثق» مضارعاً مبنياً للمفعول، كما حسب من الضمير عوده إلى الإنسان المعذب والموثق.

و هذه غفلة عجيبة في قراءة الآية القرآنية، لا يمكن إغفائها أبداً.

و قد جمع الدكتور السيد عبد الوهاب الطالقاني^٤ من ذلك لممة من تراجم قام بها أساتذة ذوو اكفاءة راقية، فكيف بغير الأكفاء!

٢. المائدة (٥): ١١٧.

١. مريم (١٩): ٢٧.

٤. نشر بعضها في مجلة كيهان الجديد، ج ٢٨، ص ٢٣٣.

٣. النجر (٨٩): ٢٥ و ٢٦.

و من التراجم الأجنبية، جاءت ترجمة «كارانوف» لكلمة «الأمي» - وصفاً للنبي ﷺ بمعنى «الشعبي» مأخوذاً من «الأمّة» حسبما زعم. في حين أنّه من «أم القرى» - اسماً لمكة المكرمة - ليكون بمعنى «المكي»، أو نسبة إلى «الأم» كناية عن الذي لا يكتب ولا يقرأ. و ترجم «كاريميرسكي» «اسجدوا» في قوله تعالى: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ»^١ بمعنى «اعبدوا آدم»! في حين أنّه بمعنى الخضوع التام لآدم ﷺ أو جعله قبله للوجود لله تعالى - كما عن بعض التفاسير -.

و ترجم «هواء» قوله تعالى: «وَ أَفْتَدَتْهُمْ هَوَاءٌ»^٢ بمعنى الهوى والميل النسائي، في حين أنّه بمعنى «الفارغة الجوفاء»!^٣

تراجم القرآن الكريم

و إليك جدولاً يبيّن تراجم القرآن الكريم باللغات الحاضرة:

اسم اللغة	المحلّ	المخطّ
آذريّ	آسيا	كريليّ
آساميّ	آسيا	خاصّ
إرلنديّ	أوروبا	لاتينيّ
إيسلنديّ	أوروبا	لاتينيّ
إيسكوتلنديّ	راجع تحت غايلاك ولوليندي	—
إفريقانسي	إفريقيا	لاتينيّ
إفريقانيّة	إفريقيا	عربيّ
إكليسيّ	أوروبا	لاتينيّ عربيّ
إسبيروانتو	أوروبا	لاتينيّ

١. البقرة (٢): ٣٤. ٢. إبراهيم (١٤): ٤٣.

٣. من رسالة القرآن والترجمة: لأستاذ عبد الرحيم محمد علي النجدي، ص ١١.

اسم اللغة	المحل	الخط
إيستوني	أوروبا	لاتيني
إيوهية	إفريقيا	لاتيني
تيوبي	إفريقيا	خاص
راغوني	أوروبا	لاتيني
أربا	آسيا	خاص
أردو	آسيا	عربي
أرميني	آسيا	خاص
أطالوي	أوروبا	لاتيني
ألباني	أوروبا	عربي لاتيني
ألمبيادو	أوروبا	عربي
ألماني	أوروبا	لاتيني عربي
أمهري	إفريقيا	خاص
أندونيسسي	آسيا	عربي لاتيني
أوكراني	أوروبا	لاتيني
باسك	أوروبا	لاتيني
بالي	آسيا	خاص
بريتوني	أوروبا	لاتيني
بربر	إفريقيا	عربي
برتغالي	أوروبا	لاتيني
برمي	آسيا	خاص
برنو	إفريقيا	عربي

اسم اللغة	المحل	الخط
بروہوی	آسیا	عربی
بشتو	آسیا	عربی
بشناق	أوروبا	لاتینی
بشناق	أوروبا	کریلی
بشناق	أوروبا	عربی
بلات دائتش	أوروبا	لاتینی
بلغاری	أوروبا	کریلی
بلوتشی	آسیا	عربی
بمبرا	إفريقيا	عربی لاتینی
بنجابی	آسیا	عربی
بنگالی	آسیا	عربی و خاص
بولنی	أوروبا	عربی
بولنی	أوروبا	لاتینی
بوهیمی	أوروبا	لاتینی
تامل	آسیا	خاص و عربی
تایلندی	آسیا	خاص
ترکستانی	آسیا	عربی
ترکی	أوروبا و آسیا	اویغوری
ترکی	أوروبا و آسیا	عربی و لاتینی
تلغو	آسیا	خاص

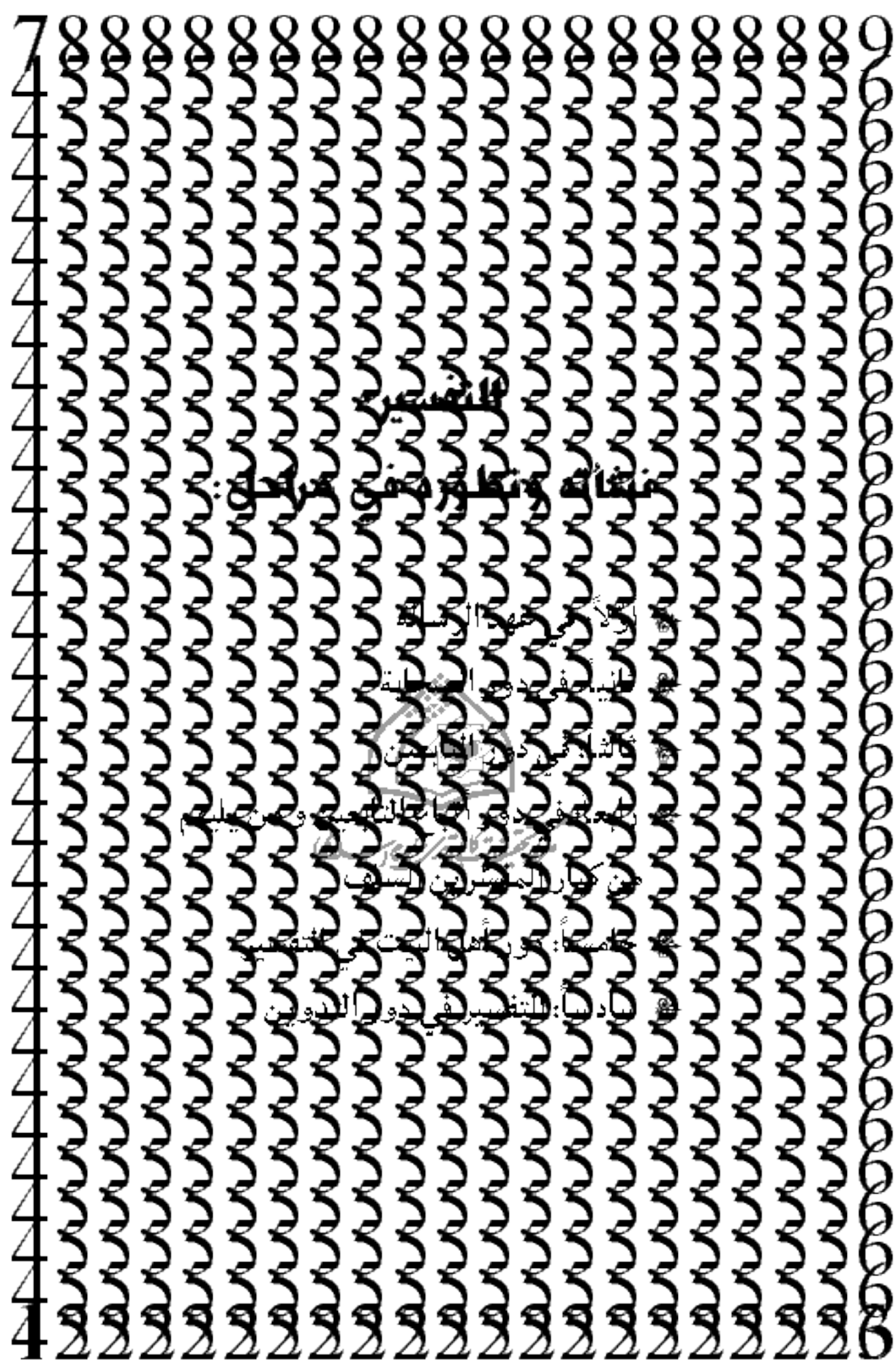
اسم اللغة	المحل	الخط
جاويي	آسيا	عربي
جرجاني	آسيا	لاتيني
حوسه	إفريقيا	عربي و لاتيني
دانماركي	أوروبا	لاتيني
دكهنبي	آسيا	عربي
ديولا	إفريقيا	لاتيني
روسي	آسيا و أوروبا	كريلي
رومانش	أوروبا	لاتيني
رومانوي	أوروبا	لاتيني
زولو	إفريقيا	عربي
ساراكولا	إفريقيا	لاتيني
سربي	راجع بشناق خط كريللي	—
سرياني	آسيا	خاص
سنداني	أوقيانوسيا	عربي
سندهي	آسيا	خاص
سنسكريتي	آسيا	خاص
سنهالي	آسيا	خاص
سواحلي	إفريقيا	عربي لاتيني
سويسية	إفريقيا	لاتيني عربي
سونرائي	إفريقيا	عربي
سويدي	أوروبا	لاتيني

اسم اللغة	المحل	الخط
صيني	آسيا	خاص
عبراني	آسيا	خاص
غالة	إفريقيا	عربي
غايلا	أوروبا	لاتيني
عجراتي	آسيا	خاص و عربي
غروز	أوروبا	لاتيني
غورمكهي	آسيا	خاص
فارسي	آسيا	عربي
فرنسي	أوروبا	لاتيني و عربي
فروفسالي	أوروبا	لاتيني
فريزوني	أوروبا	لاتيني
فلاتا	إفريقيا	عربي
فلامان	أوروبا	لاتيني
فلاندي	أوروبا	لاتيني
قتلاني	أوروبا	لاتيني
قتالي	أوروبا	لاتيني عربي
كراجا	أميركا	لاتيني
كردي	آسيا	عربي لاتيني
كرواني	راجع بشاق	—
كريول	إفريقيا	لاتينغ
كشميري	آسيا	عربي

اسم اللغة	المحل	الخط
كمبوجي	آسيا	خاص
كنري	آسيا	خاص
كوتوكولي	إفريقيا	لاتيني
كوريايني	آسيا	خاص
كوكني	آسيا	عربي
كوهستاني	آسيا	عربي
كيوا	أميركا	لاتيني
لابلاندي	أوروبا	لاتيني
لاتوي	أوروبا	لاتيني
لاتيني	أوروبا	لاتيني
لوغاندي	إفريقيا	لاتيني
لوليندي	أوروبا	لاتيني
مجنديناو	آسيا	عربي لاتيني
مراتهي	آسيا	خاص
مكاسري	أوقيانوسيا	خاص
ملاياضتم	آسيا	عربي و خاص
ملايو	آسيا	عربي لاتيني
ملتان	آسيا	عربي
ملغاش	إفريقيا	عربي لاتيني
ميميني	آسيا	عربي
نرويجي	أوروبا	لاتيني

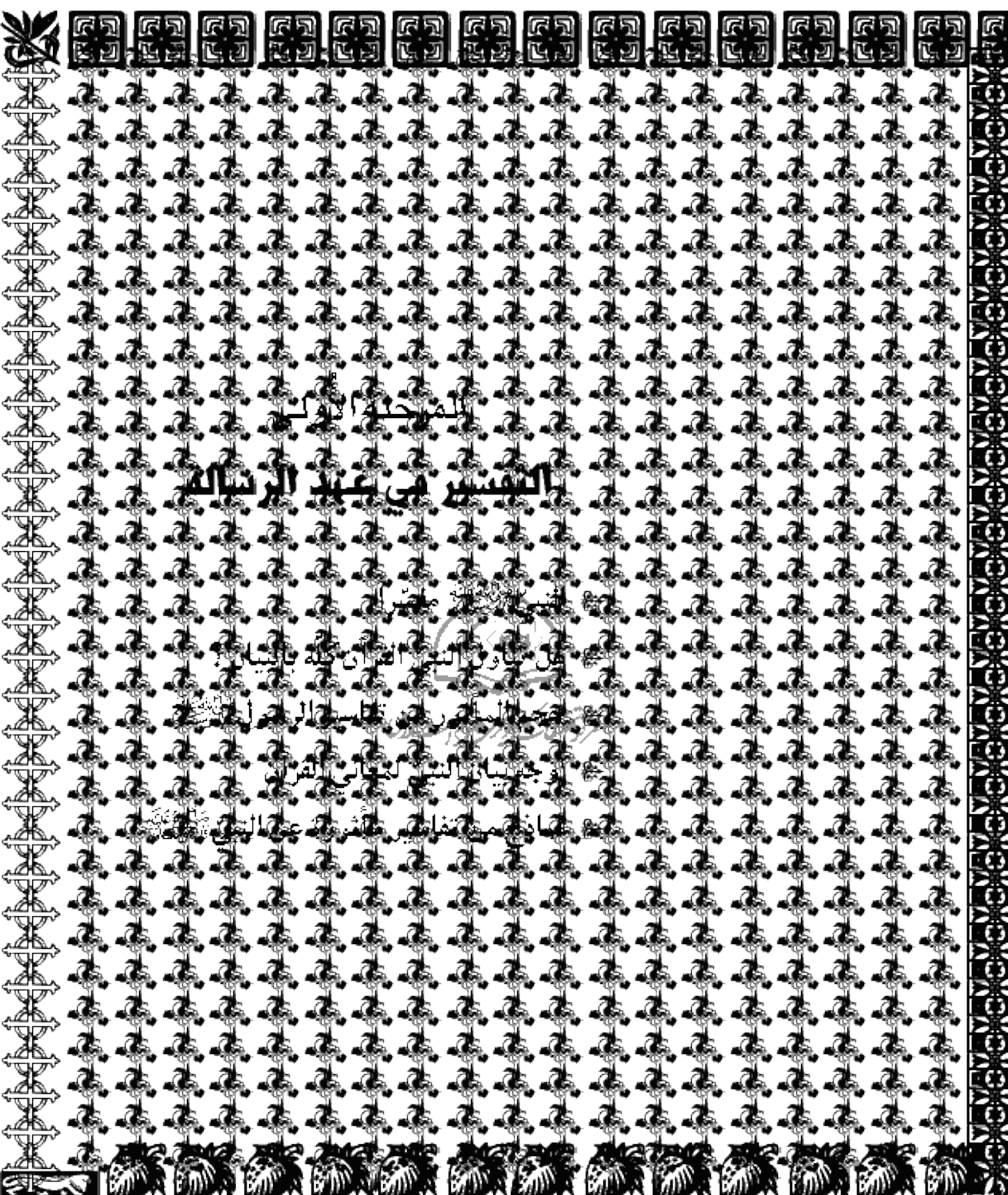
اسم اللغة	المحلّ	الخطّ
ولابوکیّ	أوروبا	لاتینیّ
ولندیزیّ	أوروبا	لاتینیّ
ولوف	إفريقيا	عربیّ لاتینیّ
هسپانیّ	راجع قسّمائی	—
هنديّ	آسیا	خاصّ
هنکاريّ	أوروبا	لاتینیّ
يابانيّ	آسیا	خاصّ
یدش	آسیا	عبرانيّ
یروبا	إفريقيا	لاتینیّ
یوروبا	إفريقيا	لاتینیّ
یونانيّ	أوروبا	خاصّ

(معجم مصطلحات القرآن الكريم) - عليّ شوانخ، ج ٢، ص ١٧-٢١





مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی





مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

التفسير في عهد الرسالة

النبي ﷺ مفسراً

قال تعالى: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِّلْمُسْلِمِينَ»^١.

إنَّ في القرآن الكريم من أصول معارف الإسلام وشرائع أحكامه، الأسس الأولى التي لا غنى لأيِّ مسلم يعيش على هدى القرآن ويستظل بظل الإسلام، أن يراجع دلائله الواضحة ويتلمس حججه اللاحقة، وإن أبهم عليه شيء فليستطرق أبواب أهل الذكر ممن نزل القرآن في يوتهم، فيهدوه سواء السبيل.

نعم، كان رسول الله ﷺ هو المرجع الأول لفهم غوامض الآيات وحل مشاكلها، مدَّة حياته الكريمة؛ إذ كان عليه البيان كما كان عليه البلاغ. قال تعالى: «وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ نَتَّبِئُ لِنَاسٍ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ»^٢، فكان دوره ﷺ دور مُرشد ومعين، وكان الناس هم المكلَّتون بالتفكر في آيات الله والتماس حججه.

وقد تصدَّى النبي ﷺ لتفصيل ما أُجمل في القرآن إجمالاً، وبيان ما أبهم منه إمَّا بياناً في أحاديثه الشريفة وسيرته الكريمة، أو تفصيلاً جاء في جُلِّ تشريعاته من فرائض

وسنن وأحكام وآداب، كانت سنته ﷺ قولاً وعملاً وتقريراً، كان كلها بياناً وتفسيراً لمجملات الكتاب العزيز وحلّ مبهمات في التشريع والتسنين. فقد كان قوله ﷺ: «صلُّوا كما رأيتموني أصلي...» شرحاً وبياناً لما جاء في القرآن، من قوله تعالى: «أَقِيمُوا الصَّلَاةَ...»^١ ولقوله: «إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً»^٢ وكذا قوله ﷺ: «خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ» بيان وتفسير لقوله تعالى: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ...»^٣ وهكذا فكل ما جاء في الشريعة من فروع أحكام العبادات والسنن والفرائض، وأحكام المعاملات، والأنظمة والسياسات، كل ذلك تفصيل لما أُجمل في القرآن من تشريع وتكليف.

وهكذا كان الصحابة يستفهمونه كلما تلا عليهم القرآن أو قرأهم آية أو آيات، كانوا لا يجوزونه حتى يستعلموا ما فيه من مرام ومقاصد وأحكام؛ ليعملوا بها يأخذوا بمعالمها. أخرج ابن جرير بإسناده عن ابن مسعود، قال: كان الرجل مثلاً إذا تعلّم عشر آيات لم يجاوزهنّ حتى يعرف معانيهنّ والعمل بهنّ. وقال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرؤننا، أنّهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ فكانوا إذا تعلّموا عشر آيات لم يخلّفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، قال: فتعلّمنا القرآن والعمل جميعاً.

نعم، ربّما كانوا يحتشمون هيبته الرسول ﷺ فتحجبهم دون مسألته، فكانوا يترصدون مجيء الأعراب المغتربين عن البلاد، ليسألوه عن مسائل، فيغتنمونها فرصة كانوا يترقبونها.

قال عليّ عليه السلام: وليس كلّ أصحاب رسول الله ﷺ كان يسأله ويستفهمه، حتى كانوا يحبّون أن يجيء الأعرابي أو الطاري فيسأله عليه السلام حتى يسمعوا... قال: وكان لا يمرّ من ذلك شيء إلا سألت عنه وحفظته.^٤

١. البقرة (٢): ٤٣.

٢. النساء (٤): ١٠٣.

٣. آل عمران (٣): ٩٧.

٤. تفسير الصيرفي: ج ١، ص ٢٧-٢٨ و ٣٠.

٥. المعيار والموازنة للإسكافي: ص ٣٠٤.

وهكذا حدث أبو أمامة ابن سهل بن حنيف^١ قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إن الله ينفعنا بالأعراب ومائلهم، قال: أقبل أعرابي يوماً فقال: يا رسول الله، لقد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية، وما كنت أرى أن في الجنة شجرة تؤذي صاحبها! فقال رسول الله: وما هي؟ قال: السدر، فإن لها شوكةً. فقال رسول الله: «في سدر مخضود»^٢ يخضد الله شوكه فيجعل مكان كل شوكه ثمرةً، فإنها تنبت نمرأً، تفتق الثمرة معها عن اثنين وسبعين لوناً، ما منها لون يشبه الآخر^٣.

ومن ثم كان ابن مسعود يقول: والله الذي لا إله غيره ما نزلت آية في كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت وأين نزلت. وهكذا تواتر عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وتلميذه ابن عباس، وغيرهم من علماء الصحابة، حسبما يأتي في تراجمهم^٤.

هل تناول النبي القرآن كله بالبيان؟

عقد الأستاذ الذهبي باباً ذكر فيه الجدل بين فريقين، يرى أحدهما: أن النبي ﷺ قد بين لأصحابه معاني القرآن كله أفراداً وتركيباً ويرأس هذا الفريق أحمد بن تيمية، كان يرى أن النبي ﷺ بين جميع معاني القرآن كما بين الخازن؛ لقوله تعالى: «لَنُبَيِّنَ لِنَاسٍ مَّا نَزَّلَ إِلَيْهِمْ»^٥ فإنه يشمل الألفاظ والمعاني جميعاً^٦.

و الفريق الثاني - ويرأسهم الخوئي والسيوطي - يرون أنه لم يبين سوى البعض القليل، وسكت عن البعض الآخر، ثم فرض لهم دلائل، أهمها ما أخرجه البرار عن عائشة، قالت: ما كان رسول الله ﷺ ينشر شيئاً من القرآن إلا آياً بعده، علّمه إياهن جبريل^٧.

١. اسمه أسعد، سماه بذلك رسول الله ﷺ ودعاه له وبرك عليه في سنة (١٠٠ هـ) وهو ابن ثيف و تسعين (أسد الغابة لابن الأثير، ج ٥، ص ١٣٩).

٢. الواقعة (٥٦): ٢٨.

٣. أخرجه الحاكم وصححه المستدرک علی الصحيحین، ج ٢، ص ٤٧٦.

٤. عند الكلام عن دور الصحابة في التفسير.

٥. النحل (١٦): ٤٤.

٦. راجع مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، ص ٥٠٥.

٧. تفسير ابن كثير، ج ١، ص ٢٩؛ تفسير الصبري، ج ١، ص ٢٩.

و أسهب في النقض والإبرام، وأخيراً نسب كلاً من الفريقين إلى المغالاة، واختار هو وسطاً بين الرأيين - فيما حسب - وأن النبي ﷺ بين الكثير دون الجميع، وترك ما استأثر الله بعلمه، وما يعلمه العلماء، وتعرف العرب بلغاتها، ممّا لا يُعذر أحد في جهالة. قال: وبديهي أن النبي ﷺ لم يفسّر ما يرجع فهمه إلى معرفة كلام العرب، كما لم يفسّر ما استأثر الله بعلمه، كقيام الساعة وحقيقة الروح، ممّا يجري مجرى علم الغيوب التي لم يطلع الله عليها نبيّه.

* * *

قلت: لم أجد، كما لا أظنّ أحدٌ ذهب إلى أن النبي ﷺ لم يبيّن من معاني القرآن سوى البعض القليل وسكت عن الباقي (الكثير طبعاً)، بعد الذي قدّمنا، وبعد ذلك الخضم من تفاصيل الأحكام والتكاليف التي جاءت في الشريعة، وكانت تفسيراً وبياناً لما أُبهم في القرآن من تشريعات جاءت مجملة وبصورة كلية، فضلاً عما بيّنه الرسول وفضلاء صحابته والعلماء من أهل بيته، شرحاً لمعضلات القرآن وحلاً لمشكلاته.

أمّا الذي نسبته إلى شمس الدين الخوافي وجلال الدين السيوطي، من ذهابهما إلى ذلك، فإنّ كلامهما ناظر إلى جانب المأثور من تفاسير الرسول، المنقول بالنقل فإنّه قليل^١، لو أغفلنا ما روينا به بالإسناد إليه ﷺ عن طرق أهل البيت الأئمة من عترته الطاهرة - صلوات الله عليهم - كما أغفله القوم، وإلا فالواقع كثير وشامل، ولا سيّما إذا ضمّنا تفاصيل الشريعة (السنة الشريفة) إلى ذلك المنقول من التفسير الصريح.

وقد جعل السيوطي جُلّ تفاصيل الشريعة الواردة في السنة تفسيراً حافلاً بمعاني

١. التفسير والمنشور: ج ١، ص ٥٣ - ٥٤.

٢. هو أمير العباس أحمد بن خليل المهبلي الطوسي (٥٨٣ - ٦٣٧ هـ) صاحب الإمام الرازي والمتنم لتفسيره. ولد في خوي من أعمال أذربيجان، وتعلّم بها وبخراسان، ثم ولي قضاء دمشق وتوفي بها.

٣. قال الخوافي: وأما القرآن فتفسيره على وجه النقص لا يحتمل إلا أن يسمع من الرسول ﷺ وذلك متعذر إلا في آيات قليلة (الإتقان، ج ٤، ص ١٧٨).

و قال السيوطي - عند بيان ما أخذ التفسير - الذي سحّ من ذلك (المنقول عن النبي) قيل جداً (المصدر نفسه، ص ١٨١).

القرآن ومقاصده الكريمة. ونقل عن الإمام الشافعي: «أن كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمد من القرآن وبيّنه، وقال ﷺ: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»، يعني السنة. وأخيراً نقل كلام ابن تيمية الآنف، وعقبه بالتأييد، بما أخرجه أحمد وابن ماجة عن عمر، أنه قال: من آخر ما نزل آية الربا، وأن رسول الله ﷺ قبض قبل أن يفسرها. قال السيوطي: دلّ فحوى الكلام على أنه ﷺ كان يفسر لهم كل ما نزل، وأنه إنما لم يفسر هذه الآية؛ لسرعة موته بعد نزولها، وإلا لم يكن للتخصيص بها وجه.^١

وأمّا حديث عائشة - لو صحّ السند، ولم يصحّ كما قالوا - فهو ناظر إلى جانب رعاية الترتيب في تفسير الآي، أعداداً فأعداداً، أو حسب عدد الآي التي كان ينزل بها جبرائيل. وهذا يشير إلى نفس المعنى الذي رويناه عن ابن مسعود وتلميذه السلمي، وقد نقله ابن تيمية نقلاً بالمعنى. قال السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئونا القرآن، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات، لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً.^٢ قال الخطيب: هذا أقدم نصّ تاريخي عرفنا به الطريقة التي كان يتعلم بها المسلمون الأوّلون، كانوا لا يعنون بالإكثار من العلم إلا بعد إتيان ما يتعلمونه منه، وبعد العمل به.^٣

* * *

وأمّا الوسط الذي اختاره، وأنّ الذي لم يبيّنه النبي ﷺ من القرآن: هو ما استأثر الله بعلمه، كقيام الساعة، وحقيقة الروح، وما يجري مجرى ذلك من الغيوب التي لم يطلع الله عليها نبيّه... فشيء غريب! إذ لم نجد في معاني القرآن ما استأثر الله بعلمه، ولو كان لكان الأجدر عدم إنزاله، والكفّ عن جعله في متناول الناس عامة. وقد تعرّض المفسّرون

١. المصدر نفسه، ص ١٧٤ و ١٧٥ و ٣٥٨.

٢. ذكروا أنه حديث منكر غريب، والاستدلال به باطل (التفسير والمفسرون، ج ١، ص ٥٣).

٣. راجع: رسالة الإكبريل: المطبوعة ضمن المجموعة الثانية من رسائل ابن تيمية، ص ٣٣.

٤. هامش مقدّمة في أصول التفسير، ص ٦. ٥. التفسير والمفسرون، ج ١، ص ٥٣ و ٥٤.

لتفسير أي القرآن جميعاً حتى الحروف المقطعة، فكيف يا ترى خفي عليهم أن لا يتعرضوا لما لا يريد الله بيانه للناس؟!

إذن فالصحيح من الرأي هو: **أنه ﷺ قد بين لأئمة - ولأصحابه بالخصوص - جميع معاني القرآن الكريم، وشرح لهم جلّ مراميّه ومقاصده الكريمة، إقنا بياناً بالنص، أو بيان تفصيل أصول الشريعة وفروعها، ولا سيما إذا ضمنا إليه ما ورد عن الأئمة من عثرته، في بيان تفصيل الشريعة ومعاني القرآن، والحمد لله.**

حجم المأثور من تفاسير الرسول ﷺ

قد يستغرب البعض إذ يجد قلّة في التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ بالنص! لكن، لا موضع للاستغراب بعد الذي قدّمنا:

أولاً: وفرة الوسائل لنهم معاني القرآن حينذاك،

ثانياً: جلّ بيانات الشريعة كانت تفسيراً لمبهمات القرآن وتفصيلاً لمجملاته.

نعم، كانت موارد السؤال والإجابة عليه فيما يخص تفسير القرآن بالنص قليل، نظراً لعدم الحاجة إلى أكثر من ذلك حينئذ عرفنا، غير أن هذا القليل من تفاسير الرسول ﷺ كثيراً في واقعنا، قليلاً في نقله وحكايته. فالمأثور منه قليل، لا أصله ومنبعه الأصيل.

قال جلال الدين السيوطي: الذي صحّ من ذلك قليل جداً، بل أصل المرفوع منه في غاية القلّة. وقد أنهاه في خاتمة كتاب الإتيان إلى ما يقرب من مئتين وخمسين حديثاً في التفسير، مأثوراً عن النبي ﷺ بالنص.^١

وهذا عدد ضئيل جداً، لا نسبة له مع عدد آي القرآن الكريم، وموضع إبهامه الكثير، الأمر الذي دعا بآبن حنبل أن يذكره رأساً، إلحاقاً له بالعدم. قال: ثلاثة ليس لها أصول، أو لا أصل لها: المغازي، والملاحم، والتفسير. قال بدر الدين الزركشي: قال المحققون من أصحابه: يعني أن الغالب أنها ليس لها أسانيد صحاح متصلة الإسناد، وإلا فقد صحّ من

١. راجع الإتيان، ج ٥، ص ١٨٠ و ٢٥٧-٢٦٤.

ذلك كثير^١. هذا مع أن ابن حنبل قد جعل السنة برمتها تفسيراً للقرآن، وسنذكره. فلو ضممنا سيرته الكريمة وسنته في الشريعة، وأحاديثه الشريفة في أصول الدين وفروعه ومعارف الإسلام ودلائل الأحكام، لو ضممنا ذلك كله إلى ذلك العدد القليل - في الظاهر - لأصبح التفسير المأثور عن عهد الرسالة - على مشرفها آلاف التحية والثناء - في حجم كبير وفي كمية ضخمة، كان الرصيد الأوفى للتفاسير الواردة في سائر العصور. أضف إلى ذلك ما ورد عن طريق أهل البيت عليهم السلام من التفسير المأثور^٢ المستند إلى جدّهم الرسول ﷺ وهو عدد وفير، يضاف إلى ذلك الكثير الوارد عن غير طرقهم. و بعد، فإنها تكون مجموعة كبيرة من التفسير المستند إلى صاحب الرسالة، لها شأن في عالم التفسير عبر القرون.

أوجه بيان النبي لمعاني القرآن

قد عرفت كلام السيوطي: إن السنة بحسب القرآن شارحة له و موضحّة له. قال ﷺ: «ألا إني أوتيت القرآن و مثله معه» يعني السنة الشريفة^٣. قال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «إن الله أنزل على رسوله الصلاة و لم يسمّ لهم ثلاثاً و لا أربعاً، حتّى كان رسول الله ﷺ هو الذي فسّر ذلك لهم. و أنزل الحجّ فلم يُنزل طوفوا أسبوعاً، حتّى فسّر ذلك لهم رسول الله - وفي رواية أخرى زيادة قوله - فنزلت عليه الزكاة فلم يسمّ الله: من كلّ أربعين درهماً، درهماً، حتّى كان رسول الله هو الذي فسّر ذلك لهم...»^٤.

١. البرهان في علوم القرآن، ج ٣، ص ٨٤٦.

٢. قام زمين المذاخر السيد محمد برهاني - نجل العلامة المحدث السيد هاشم البحراني صاحب البرهان في تفسير القرآن - بجمع ما أسند إلى النبي ﷺ من التفسير المروي عن أهل البيت عليهم السلام فبلغ لحد الآن حوالي أربعة آلاف حديث، و لا يزال يزيد، ما دام العمل مستمرًا، و قدّمه له.

٣. الإقذان، ج ٤، ص ١٧٤.

٤. الكافي، ج ١، ص ٣٨٦ تفسير العياشي، ج ١، ص ٢٤٩-٢٥١، رقم ١٧٦٩ و ١٧٧٠، شواهد التنزيل لحاكم الحسكاني، ج ١، ص ١٤٩.

و معنى ذلك أن الفرائض و السنن و الأحكام إنما جاءت في القرآن بصورة إجمال في أصل تشريعاتها، أما التفصيل و البيان فقد جاء في السنة في تفاصيل الشريعة، التي بيّنها رسول الله ﷺ طيلة حياته الكريمة. فكانت السنة إلى جنب القرآن تفسيراً لمواضع إجماله، و شارحة لمواضع إبهامه. قال رسول الله ﷺ: «... فاستنطقوا القرآن بسنّتي...»^١

روى القرطبي بالإسناد إلى عمران بن حصين، أنه قال لرجل - كان يزعم كفاية الكتاب عن السنة -: إنك رجل أحمق، أتجد الظاهر في كتاب الله أربعاً لا يُجهر فيها بالقراءة؟ ثم عدّد عليه الصلاة و الزكاة و نحو هذا. ثم قال: أتجد هذا في كتاب الله منسراً؟ إن كتاب الله تعالى أبهم هذا، و إن السنة تفسّر هذا.

و عن حسان بن عطية قال: كان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ و يحضره جبرئيل بالسنة التي تفسّر ذلك. و عن مكحول قال: «القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن»، و قال يحيى بن أبي كثير: «السنة قاضية على الكتاب و ليس الكتاب بقاض على السنة»، قال الفضل بن زياد: سمعت أحمد بن حنبل - و سئل عن هذا الحديث الذي روي أن «السنة قاضية على الكتاب» - فقال: ما أجسر على هذا أن أقوله، و لكني أقول: إن السنة تفسّر الكتاب و تبينه.^٢

* * *

و بعد، فإنّ تبين مجملات القرآن، من تفاصيل واردة في السنة، يمكن على وجوه:
الأول: ما ورد في القرآن بصورة تشريعات كئيّة، لا تفصيل فيها و لا تبين عن شرائطها و أحكامها، فهذا يجب طلب تفاصيلها من السنة، في أقوال الرسول و أفعاله و تقاريره، كما في قوله تعالى: «أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ»^٣، و قوله: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ»^٤ و ما شابه، من تكاليف عباديّة جاء تشريعها في القرآن بهذا الوجه الكلّي. فلا بدّ لمعرفة أعداد الصلاة و ركعاتها و أفعالها و أذكارها و سائر شروطها

١. مقدّمة تفسير القرطبي، ج ١، ص ٣٩.

٢. آل عمران (٣): ٩٧.

٣. مكاتب الرسول، ج ١، ص ٥١.

٤. البقرة (٢): ٤٣.

وأحكامها، من مراجعة السنة، وفيها البيان الوافي بجميع هذه التفاصيل، وهكذا مسألة الزكاة المفروضة والحج الواجب.

وهكذا ما جاء في مختلف أبواب المعاملات، من قوله تعالى: «وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الزُّبْنَ»^٤ فإن للبيوع الجائز أنواعاً، وللمربا أحكاماً، ينبغي طلبها من السنة، فهي التي تحدّد موضوع كلّ معاملة وتبين الشرائط التي فرضتها الشريعة في تفاصيل هذه المعاملات.

الوجه الثاني: عموميات ذوات تخصيص، جاء العام في القرآن وكانت موارد تخصيصه في السنة. وهكذا مطلقات ذوات تقييد، جاء الإطلاق في القرآن وكان التقييد في السنة. ولا شك أن التخصيص وكذا التقييد بيان للمراد الجدّي من العام وكذا من المطلق، وهذا الذي دلّ عليه العام في ظاهر عمومته والمطلق في ظاهر إطلاقه، إنما هو المعنى الاستعمالي المستند إلى الوضع أو دليل الحكمة والذي يكشف عن الجدة في المراد هو الخاصّ الوارد بعد ذلك، وكذا التقييد المتأخّر. وهذا معروف في علم الأصول.

ومثال الأوّل قوله تعالى: «وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ»^٥ وهذا عام لمطلق المطلقات. وفي السنة تخصيص هذا الحكم بالمدخول بهنّ، أمّا غير المدخول بهنّ فلا اعتداد لهنّ. وكذلك قوله - بعد ذلك - «وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ»^٦ مخصوص بالمرجعيّات.

مثال الثاني: (تقييد المطلق) قوله تعالى: «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَانِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً»^٧ وقد تقيّد هذا الإطلاق بما إذا لم يتب، وكان قد قتله لإيمانه، كما رواه العياشي عن الإمام الصادق عليه السلام.

١. قوله تعالى: «إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً» (النساء: ٤٣) - ما هذا الوقت المحدّد للصلاة؟ فقد أُحيل بيان ذلك إلى السنة. وهكذا بيان الأوقات الخمسة التي جاءت الإشارة إليها إجمالاً في قوله: «أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِكَ الشَّمْسِ إِذَا غَمَضَ اللَّيْلُ وَفَرَأَنَ الْفَجْرَ...» (الإسراء: ٧٧) (٧٨).

٢. البقرة (٢): ٢٧٥. ٣. البقرة (٢): ٢٢٨.

٤. النساء (٤): ٩٣.

٥. راجع: مجمع البيان، ج ٣، ص ٩٦-٩٣؛ تفسير العياشي، ج ١، ص ٢٦٧.

و قوله تعالى: «الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ»؛^١ إذ ليس المراد مطلق الظلم، بل هو «الشرك» خاصة. روي ذلك عن رسول الله ﷺ،^٢ وهكذا فسر اليد (في القَطْع بالسَّرْقَة)^٣ باليمين من مَقْعِيل الأصابع. ومثله جلد الزاني المتقيّد بغير المحصن.

و أيضاً قوله تعالى: «مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ»^٤، فقد كان الميراث بعد إخراج ما أوصى به الميت وكذا دينه. فالدين مطلق، أمّا الوصية فتقيّد بما إذا لم تتجاوز ثلث التركة بعد وضع الدين. فهذا التقيّد تعرّضت له السنة، وكان قد أُبهم في القرآن إبهاماً.
الوجه الثالث: ما إذا ورد عنوان خاص في القرآن، وكان متعلقاً لتكليف، أو قيداً في عبادة مثلاً، ولكنه كان مصطلحاً شرعياً من غير أن يكون مفهومه العام مراداً، فهذا أيضاً ممّا يجب تبيينه من السنة. وهذا في جميع المصطلحات الشرعية - أي الحقائق الشرعية على حدّ تعبيرهم - ممّا لم تكن لها سابقة في العرف العام.

و هذا كما في الصلاة والزكاة والحجّ والجهاد وما شاكل، إنّها مصطلحات شرعية خاصة^٥، لا بُدّ لمعرفة حقائقها وماهياتها من مراجعة الشريعة، كما كان يجب الرجوع إليها لمعرفة أحكامها وسرائطها؛ إذ ليست الصلاة مطلق الدعاء والمتابعة - كما هي في اللغة والعرف العام غير الإسلامي - بل عبادة خاصة ذات كَيْفِيَّة وأفعال و أذكار خاصة، أعلن بها الشرع الحنيف، و تصدّى لبيانها الرسول الكريم، قال: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي». و هكذا ليست الزكاة مطلق النمو، بل إنفاق خاص في كَيْفِيَّة خاصة، توجب تنمية المال بفضل الله تعالى إن وقعت عن صدق وإخلاص، الأمر الذي جاء تبيينه في السنة الشريفة. و مثلها الحجّ ليس مطلق القصد، وكذا الجهاد ليس مطلق الاجتهاد والسعي،

١. الأنعام (٦): ٨٣.

٢. النساء (٤): ٨٢.

٣. المائدة (٥): ٣٨.

٤. الممتدود بالشرع: مطلق الشرائع الإلحائية وليس شرع الإسلام فحسب. نعم؛ لم تكن هذه المظاهر سماً وضعه العرف العام ولا اللغة؛ وإنّما هو أمر جاء به الشرع في مصطلحه الخاص.

وهكذا..

وكذلك موضوع الخطأ والعمد في القتل، تعرّضت السّنة لبيانتهما، وليس مطلقاً ما يفهم من هذين اللّفظين لغة أو في المتفاهم العام، فقد جاء في السّنة أنّ الخطأ محضاً هو ما لم يكن المقتول مقصوداً أصلاً. أمّا إذا كان مقصوداً ولكن لم يقصد قتله - بأن لم يكن العمل الذي وقع عليه ممّا يقتل به غالباً - فوقع قتله اتفاقاً، فهو شبهه العمد. أمّا إذا كان مقصوداً بالقتل فهو العمد محضاً. فهذا التفصيل والبيان إنّما تعرّضت له السّنة تفسيراً لما أُبهم في القرآن من بيان هذه المفاهيم.

الوجه الرابع: موضوعات تكليفيّة تعرّض لها القرآن من غير استيعاب ولا شمول؛ إذ لم يكن الاستقصاء مقصوداً بالكلام، وإنّما هو بيان أصل التشريع وذكر جانب منه، ممّا كان موضع الابتلاء ذلك الحين ومن ثمّ يبدو ناقصاً غير مستقصى، ومجماً في الشمول والبيان.

أمّا الاستقصاء والشمول فالسّنة الشريفة موزّعة، ففيها البيان والكمال، كما لم تأت في القرآن شريعة «رجم المحصن» وإنّما فصلته السّنة عن مطلق حكم الزاني الوارد في القرآن. ومثل أحكام الخطأ والعمد في القتل لم يتعرّض لها القرآن باستيعاب؛ إذ هناك خطأ محض، وشبه العمد، والعمد المحض. ليترتب على الأوّل أنّ المديّة على العاقلة، وعلى الثاني كانت المديّة على القاتل، وفي الثالث كان تشريع التقصاص هو الأصل إلا إذا رضي الأولياء بالمديّة أو العفو.

فهذا الاستيعاب والاستقصاء إنّما تعرّضت له السّنة، فأكملت بيان القرآن ورفعت من إبهامه، في هذا الجانب الذي كان يبدو مجماً لو كان بصدد البيان ولم يكن أصل التشريع مقصوداً فقط.

الوجه الخامس: بيان الناسخ من المنسوخ في أحكام القرآن؛ إذ في القرآن أحكام أوّليّة منسوخة، وأحكام أخرى ناسخة نزلت متأخراً؛ فلتمييز الناسخ من المنسوخ لا بدّ من مراجعة السّنة. أمّا القرآن ذاته فلا تمييز فيه بين ناسخه ومنسوخه، ولا سيّما

و الترتيب الراهن بين الآيات و السور قد تغير عما كان عليه النزول في البعض على الأقل. إذن لم يبق لمعرفة وجه التمايز بين الحكم المنسوخ و الحكم الناسخ إلا مراجعة نصوص الشريعة. و من ثم قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام لقاض مر عليه بالكوفة: أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ فهاب الإمام و أجاب بالنفي! فقال له الإمام: إذن هلكت و أهلكت!

فمن ذلك قوله تعالى - بشأن المتوفى عنها زوجها -: «وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِمْ مَّتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ»^١ كانت الشريعة في البدء أن المرأة المتوفى عنها زوجها لا ميراث لها سوى الإمتاع في الشركة حولاً كاملاً، و كان ذلك عِدَّتِها أيضاً. لكنها نسخت بآية المواريث^٢ و بآية التربص أربعة أشهر و عشر^٣ (و آية التربص النسخة مثبتة في سورة البقرة قبل آية الحول المنسوخة).

هكذا ورد في الحديث عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، و عن الإمامين الباقر و الصادق عليهما السلام.

و من ذلك أيضاً آية جزاء الفحشاء، فما في سورة النساء (١٥-١٦) منسوخة بشريعة الجلد (سورة النور (٢٤): ٢) و الرجم، هكذا ورد عن الإمام الصادق عليه السلام. و نظير ذلك كثير، و لا سيما إذا عُمم النسخ ليشمل التخصيص والاستثناء و سائر القيود أيضاً، و قد كان معهوداً ذلك الحين.

* * *

نماذج من تفاسير مأثورة عن النبي صلى الله عليه وآله

قلنا: إن الصحابة كانوا في غنى - في الأغلب - عن مسائل الرسول صلى الله عليه وآله بشأن معاني

١. تفسير العياشي، ج ١، ص ٨٢، رقم الإمام، ج ٣، ص ٥٩.

٢. البقرة (٢): ٢٤٠.

٣. البقرة (٢): ٢٣٤.

٤. راجع: بحار الأنوار، ج ٩٣، ص ٤٦، تفسير المصافي، ج ٨، ص ٢٠٤.

٥. تفسير العياشي، ج ١، ص ٣٦٧-٣٦٨.

بالاستطاعة إلى الحجّ الواجب، فبيّن ﷺ أنّه القدرة على الزاد والراحلة، إن كان ذلك يوسع من غير تكلف، وهذا كناية عن الاستطاعة المالية، كما فهمه الفقهاء رضوان الله عليهم.

٣. وهكذا لما سأله عائشة عن الكسوة الواجبة في كفارة الأيمان، في قوله تعالى: «فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ» أجاب ﷺ: «عبادة لكل مسكين»^٢.

٤. وسأله رجل من هذيل عن قوله تعالى: «وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ شَهِيدٌ عَلَى الْعَالَمِينَ»^٣ قال: يا رسول الله، من تركه فقد كفر؟! نظراً لأنّ هذا العنوان «مَنْ كَفَرَ» أطلق على من ترك الحجّ! فقال ﷺ: «من تركه لا يخاف عقوبته ولا يرجو متوبته»^٤ كناية عن تركه جحوداً لا يؤمن بعاقبته، فهذا كافر بالمعاد ويوم الجزاء والحساب، الأمر الذي يعود إلى إنكار ضروريّ للدين وإنكار الشريعة رأساً، أمّا الذي تركه لا عن نكران فهو فاسق عاص ولايس بكافر جاحد.

وهكذا روي عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام حينما سأله أخوه عليّ بن جعفر: من لم يحجّ مثلاً فقد كفر؟! قال: لا، ولكن من قال: ليس هذا هكذا فقد كفر^٥.

٥. وسئل عن قوله تعالى: «كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ»^٦، ما معنى «عِضِينَ»؟ فقال ﷺ: «آمنوا ببعض وكفروا ببعض»^٧.

فالآية الكريمة إنكار على الذين فرّقوا بين أجزاء القرآن. الأمر يثير السؤال عن المراد من هذه التجرئة المستتكرة؟ ومن ثمّ كان الجواب: إنها التفرقة في الإيمان ببعض والكفر ببعض.

١. المائدة (٥): ٨٩.

٢. آل عمران (٣): ٩٧.

٣. الإسراء (١٧): ٣٤.

٤. الحج (٢٢): ٢٨٢.

٥. الإسراء (١٧): ٣٤.

٦. الحج (٢٢): ٢٨٢.

٧. الإسراء (١٧): ٣٤.

٨. الإسراء (١٧): ٣٤.

٩. الإسراء (١٧): ٣٤.

١٠. الإسراء (١٧): ٣٤.

١١. الإسراء (١٧): ٣٤.

١٢. الإسراء (١٧): ٣٤.

١٣. الإسراء (١٧): ٣٤.

٦. وسئل عن قوله تعالى: «فَن يُرِدُّ اللَّهُ أَنَّ يَهْدِيَهُ يُفَصِّلُ لَهُ نِجَاتَهُ لِئَلَّا يَمُوتَ»^١، كيف يشرح صدره؟ قال عليه السلام: «نور يُقَدِّفُ بِهِ فَيُنْشِرُ لَهُ وَيُنْشِئُ لَهُ» قالوا: فهل لذلك من أُمارة يُعرف بها؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت»^٢.

٧. وسأله عبادة بن الصامت^٣ عن قوله تعالى: «لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ»^٤، ماذا تكون تلك البشارة؟ قال عليه السلام: «هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل، أو تُرى له»^٥.

و روى الكليني في الكافي والصدوق في الفقيه بإسنادهما عن النبي عليه السلام قال: «البُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا هِيَ الرُّؤْيَا الْحَسَنَةُ يَرَاهَا الْمُؤْمِنُ فَيُبَشِّرُ بِهَا فِي دُنْيَاهُ». وزاد في الفقيه: «وَأَمَّا قَوْلُهُ: «فِي الْآخِرَةِ»، فَإِنَّهَا بَشَارَةُ الْمُؤْمِنِ عِنْدَ الْمَوْتِ، يُبَشِّرُ بِهَا عِنْدَ مَوْتِهِ: أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ غَفَرَ لَكَ وَلِمَنْ يَحْمِلُكَ إِلَى قَبْرِكَ...». وقال علي بن إبراهيم التميمي: و «فِي الْآخِرَةِ» عِنْدَ الْمَوْتِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»^٦.

٨. وسئل عن قوله تعالى: «الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرُّ مَكَانًا وَأَصْلُ سَبِيلًا»^٧ كيف يحشر أهل النار على وجوههم؟ فقال عليه السلام: «إِنَّ الَّذِي أُمْسَاهُمْ عَلَى أقدامهم قادر أن يُمشيهم على وجوههم»^٨.

و بهذا المعنى آية أخرى أوضحت الحشر على الوجوه بالسحب على وجوههم، قال تعالى: «يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ»^٩، وقوله: «وَنُحْشَرُهُمْ يَوْمَ

١. الأنعام (٦): ١٦٥. ٢. الإفتان: ج ٤، ص ٢٣٢.

٣. كان سقن جمع القرآن على عهد عليه السلام وكان يحلم أهل الصفقة القرآن وشهد المشاهد كلها مع رسول الله واستعمله النبي على بعض الصدقات، وكان قتيلاً في الأنصار كان حبيباً جليلاً، توفي سنة (٧٣ هـ).

٤. يونس (١٠): ٦٤. ٥. المستدرک للحاكم: ج ٣، ص ٣٤٠.

٦. النحل (١٦): ٣٣ تفسير الصافي: ج ١، ص ٧٥٨.

٧. الفرقان (٢٥): ٣٤. ٨. المستدرک للحاكم: ج ٣، ص ٤٠٢.

٩. النمر (٥٤): ٤٨.

الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمياً وَصُماً وَبُكْماً»^١.

٩. وأخرج الحاكم بإسناده إلى الأصمغ بن نباتة - وقال: إنه أحسن الروايات في هذا الباب - عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، قال: لما نزلت الآية «فَصَلِّ لِرَبِّكِ وَانْحَرِ»^٢ قال رسول الله ﷺ: يا جبرئيل، ما هذه التحيرة التي أمرني بها ربي؟ قال: إنها ليست بنحيرة، ولكنه يأمرك إذا تحرمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كثرت وإذا ركعت وإذا رفعت رأسك من الركوع؛ فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين في السماوات السبع^٣. وفي رواية أخرى زيادة قوله: إن لكل شيء زينة، وزينة الصلاة رفع الأيدي. قال ﷺ: رفع الأيدي من الاستكانة التي قال الله - عز وجل -: «فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ»^٤.

١٠. وسأله أم هانئ (بنت أبي طالب) عن المنكر الذي كان قوم لوط يأتمونه في ناديم؛ حيث قوله تعالى: «وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ»^٥ فقال ﷺ: «كانوا يخذفون أهل الطريق ويسخرون»^٦.

ولعل هذا كان بعض أعمالهم المنكرة، ففي المجمع: كانت مجالسهم تشتمل على أنواع من المناكير والتبائح، مثل الشتم والسخف والصفع والقمار، وضرب المخارق وخذف الأحجار على المارين وضرب المعارف والمواخير، وكشف العورات واللواط، وقيل: كانوا يتضارطون من غير حشمة ولا حياء^٧.

١١. وربما سأله عن عموم حكم وشموله لبعض ما اشتبه عليهم أمره، فقد سأله جرير ابن عبد الله الجبلي^٨ عن نظرة الفجأة، وقد قال تعالى: «قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ

١. الإسراء (١٧): ٨٧.

٢. الكوثر (١٠٨): ٢.

٣. المستدرک للحاکم: ج ٢، ص ٥٣٨.

٤. المؤمنون (٢٣): ٦٦. المستدرک للحاکم: ج ٢، ص ٥٣٨.

٥. الحکوت (٦٩): ٢٩.

٦. المستدرک للحاکم: ج ٢، ص ٤٠٩.

٧. مجمع البیان: ج ٤، ص ٢٨٠.

٨. أسلم قبل وفاة النبي بأربعين يوماً. كان سيد قومه وجيهاً حسن الصورة وكان يحب يوسف هذه الأمة. ولما دخل على النبي رحب به وأكرمه، وقال: إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه. وبعثه في مائة وخمسين فارساً إلى ذي الخلصة ليهدم بيت مسلم كان هناك لاعتصمه، ودعاه، وقال: اللهم اجعه دارياً مبدئاً. توفي سنة (٥١ هـ).

أَبْصَارِهِمْ...»^١، فهل يشمل عموم الأمر بالغض لما إذا كانت النظرة فجأةً، وهي غير إرادية؟ قال جرير: فأمرني ﷺ أن أصرف بصري^٢، أي لا يداوم في النظرة، ويصرف بصره من فورهِ.

١٢. و عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ وسأله عن أمر اليتامى؛ حيث قوله تعالى: «وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا» إلى قوله: «وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ...»^٣. فقال: يا رسول الله، إن أخي هلك وترك أيتاماً ولهم ماشية، فما يحل لي منها؟ فقال رسول الله ﷺ: إن كنت تليط حوضها، وترد ناديتها، وتقوم على رعيها، فاشرب من ألبانها، غير مجتهد ولا ضار بالولد، والله يعلم المنسذ من المصلح^٤. إشارة إلى قوله تعالى: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَافُطُهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمَصْلِحِ...»^٥.



و أحياناً كانت الأسئلة لغوية، على ما أمبقنا أن القرآن أخذ من لغات القبائل كلها، وربما كانت اللفظة المتداولة في قبيلة، غير معروفة عند الآخرين.

١٣. من ذلك ما سأله قطبة بن مالك الديلمي^٦ عن معنى «البُسُوق» من قوله تعالى: «وَالَّذِخْلُ بِاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعُ نَضِيدٍ»^٧ قال: ما بُسُوقُهَا؟ فقال ﷺ: طولها^٨. قال الراغب: باسقات، أي طوليات. والباسق هو الذاهب طولاً من جهة الارتفاع، ومنه بسق فلان على أصحابه: علاهم.

٢. المستدرک للحاکم: ج ٢، ص ٣٩٦.

١. الثور (٣٤): ٣٠.

٣. النساء (٤): ٦، وفي الحوب: الإثم.

٤. تفسير العياشي، ج ١، ص ١٠٧ رقم ٣٣١. لاحظ الحوض: مدبره كلاً يشرب الماء، والداية: النوق المعترفة.

٥. البقرة (٢): ٢٢٠.

٦. كان من الصحابة الذين سكنوا الكوفة. روى عن النبي ﷺ، وعن زيد بن أرقم وغيره.

٨. المستدرک للحاکم: ج ٢، ص ٤٦٩.

٧. (٥٠): ١٠.

١٤. وسأله عبد الله بن عمرو بن العاص عن الصور في قوله تعالى: «وَتُفْعَفُ فِي الصُّورِ»^١، قال عليه السلام: هو قرن يُفْعَف فيه^٢.

١٥. وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: «فَتَقَعَّدَ مَلُومًا مَحْسُورًا»^٣، الإحسار: الإقتار^٤.

الحسر: كشف الملبس عما عليه. والحاسر: من لا درع له ولا يغفر. وناقصة حسير: انحسر عنها اللحم والقوة. والحاسر: المعيا، لانكشاف قواه. إذن فالمحسور: من افتقد أسباب المعيشة التي أهمها المال، وليس من الحسرة كما توهم، فصحّ تفسير المحسور بالمفتير؛ لأن الفتير فقد النفقة أو تقليلها، والمفتير: الفقير.

* * *

و ربّما كانت الآية شديدة الوطأة، قد تجعل المسلمين في قلق، لولا مراجعته ﷺ ليفسرها لهم بما يرفع عنهم ألم اليأس وقلق الاضطراب.

١٦. من ذلك ما رواه محمد بن مسلم عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: لما نزلت الآية: «مَنْ يَعْمَلْ سِوَهُ يُجْزَ بِهِ»^٥، قال بعض أصحاب رسول الله ﷺ: ما أشدها من آية! فقال لهم رسول الله: أما تُبْشَلُونَ في أموالكم أو أنفسكم وكراريكم؟ قالوا: بلى، قال: هذا ممّا يكتب الله لكم به الحسنات ويمحو به السيئات^٦.

١٧. وسئل فيما النجاة غداً؟ فقال عليه السلام: «النجاة أن لا تخادعوا الله فيخدعكم، فإنّه من يخادع الله يخدعه ويخلع منه الإيمان، ونفسه يخدع لو يشعر». فقيل: كيف يخادع الله؟ قال: «يعمل بما أمره الله ثم يريد به غيره، فاثقوا الله فاجتنبوا الرياء فإنّه شرك بالله»^٧، وذلك قوله تعالى: «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا

٢. المستدرک للحاکم، ج ٢، ص ٤٣٦.

٤. تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢٨٩.

٥. تفسير العياشي، ج ١، ص ٢٧٧، رقم ٣٧٨.

١. الزمر (٣٩): ٦٨.

٣. الإسراء (١٧): ٢٩.

٥. النساء (٤): ٨٣.

٧. المصدر نفسه: ص ٢٨٣، رقم ٣٩٥.

كَسَالَى يَرَاوُونَ النَّاسَ»^١.

١٨. وَلَمَّا نَزَلَتِ الْآيَةُ: «وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ»^٢ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ إِذَا تَوَلَّيْنَا اسْتَبَدَّلُوا بِنَا؟ - وَسَلَمَانُ إِلَى جَنْبِهِ - فَقَالَ ﷺ: هُمُ الْفُرسُ، هَذَا وَقَوْمُهُ. وَفِي رِوَايَةِ الطَّبْرِيِّ: فَضْرِبَ عَلَى مَكِيبِ سَلَمَانَ وَقَالَ: مِنْ هَذَا وَقَوْمِهِ. وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ الدِّينَ تَعَلَّقَ بِالثَّرِيَّا لَنَالَتْهُ رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ فَارَسَ. وَفِي رِوَايَةِ الْبَيْهَقِيِّ: لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ مَنُوطًا بِالثَّرِيَّا لَنَآوَلَهُ رِجَالٌ مِنْ فَارَسَ^٣.

* * *

١٩. وَرَبُّمَا سَأَلُوهُ ﷺ عَنْ غَيْرِ الْأَحْكَامِ مِمَّا جَاءَ ذِكْرُهُ فِي الْقُرْآنِ إِجْمَالًا، لِيَبْعَثَهُمْ حَبَّ السُّتْلَاعِ عَلَى السُّؤَالِ عَنْهُ. مِنْ ذَلِكَ سُؤَالُ فُرُوقَ بْنِ مَسِيكٍ الْمُرَادِيِّ^٤ عَنْ «سَبَأَ»: رَجُلٌ أَوْ امْرَأَةٌ أَمْ أَرْضٌ؟ فَقَالَ ﷺ: هُوَ رَجُلٌ وَلَدَتْهُ عَشْرَةٌ مِنَ الْوُلْدِ، سِتَّةٌ مِنْ وَلَدِهِ بِالْيَمَنِ، وَأَرْبَعَةٌ بِالشَّامِ. فَأَمَّا الْيَمَانِيُّونَ فَمَذْحِجٌ وَكِنْدَةٌ وَالْأَزْدُ وَالْأَشْعَرِيُّونَ وَالْأُمَارُ وَحَمِيرٌ، خَيْرُ كُلِّهَا، وَأَمَّا الشَّامِيُّونَ فَلَحْمٌ وَجَذَامٌ وَعَامِلَةٌ وَغَسَّانٌ^٥.

قَالَ الطَّبْرِيُّ: سَبَأٌ، هُوَ أَبُو عَرَبِ الْيَمَنِ كُلِّهَا، وَقَدْ تَسَمَّى بِهِ الْقَبِيلَةُ^٦، وَهُوَ الظَّاهِرُ مِنْ عَوْدِ ضَمِيرِ الْعُقْلَاءِ إِلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جِئَتَانِ عَنْ يُسَيْنٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَهُ طَيِّبَةً وَرَبُّ غَفُورٌ»^٧.

٢٠. وَسَأَلَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ»^٨، قَالَ: أَنْبِئْنِي عَنْ «كُلِّ شَيْءٍ»؟ قَالَ ﷺ: «كُلُّ شَيْءٍ خُلِقَ مِنَ الْمَاءِ»^٩، بِمَعْنَى أَنَّ الْمَاءَ أَصْلُ الْحَيَاةِ، حَيَوَانًا

١. النساء (٤٤): ٨٤٦.

٢. محمد (٤٧): ٣٨.

٣. راجع: المستدرک للحاکم، ج ٤، ص ٤٥٨؛ تفسير الطبري، ج ٣٦، ص ٤٤؛ الدر المختار، ج ٢، ص ٦٧.

٤. قدم على رسول الله ﷺ سنة عشر فأسبغ فبخته على مراد وزيد ومذحج، قال ابن إسحاق: فمما انتهى إلى رسول الله ﷺ أنه - فيما يغفل - يا فروق هل ساءك ما أصاب قومك يوم الردم؟ قال: يا رسول الله، ومن ذا الذي يصيب قومه ما أصاب قومي يوم الردم ولا يسوزة؟ فقال ﷺ: أما إن ذلك لم يزد قومك في الإسلام إلا

غيراً (أسد الغابة، ج ٤، ص ١٨٠).

٥. المستدرک للحاکم، ج ٢، ص ٤٣٣-٤٣٤.

٦. سبأ (٣٤): ١٥.

٧. مجمع البيان، ج ١٨، ص ٣٨٦.

٨. الفرقان، ج ٤، ص ٢٣٨.

٩. الأنبياء (٢١): ٣٠.

كان أم نباتاً. وورد في الحديث أنه أول ما خلق الله الماء.

٢١. وأحياناً كان ﷺ يتصدى لتفسير آية أو آيات لغرض العظة أو الاعتبار، كالذي رواه أبو سعيد الخدري^١ عن رسول الله ﷺ في قوله تعالى: «تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ»^٢ قال ﷺ: تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرته. أخرج الحاكم، وقال: صحيح الإسناد.

٢٢. وعن أبي هريرة، قال: قرأ النبي ﷺ: «يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا» ثم قال: أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم! قال: أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، تقول: عمل كذا وكذا في يوم كذا وكذا.

٢٣. وعن أبي الدرداء^٣ قال: سمعت رسول الله ﷺ قرأ: «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُاذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا...»^٤، ثم قال: «السابق والمقتصد يدخلان الجنة بغير حساب، والظالم لنفسه يحاسب حساباً يسيراً ثم يدخل الجنة»^٥.

٢٤. وهكذا روى عمران بن حصين^٦ قال: كان النبي ﷺ يحدثنا عامة ليلة عن بني

١. التوحيد: ص ٦٧، رقم ٨٦.

٢. هو سعد بن مالك بن سنان الأنصاري. كان من الحفاظ لحديث المكربين، ومن العلماء الفضلاء النبلاء. غزا مع رسول الله ﷺ وهو ابن خمس عشرة سنة، مات سنة ٧٤ (أسد الغابة: ج ٢، ص ٢٨٩، ج ٥، ص ٢١١).

٣. المؤمنون (٢٣): ١٠٤.

٤. المصدر نفسه: ج ٢، ص ٥٣٣.

٥. هو عمر بن مالك بن زيد، كان من أفاضل الصحابة وفقهائهم وحكامهم، وكان شاهداً الخندق، مات سنة ٣٢ (هـ).

٦. فاجر (٣٥): ٣٢ و ٣٣.

٨. المستدرک للحاکم: ج ٢، ص ٤٣٦.

٩. أسلم عام غدير، وغزا مع رسول الله ﷺ غزوات. بعثه عمر على البصرة لينتفخ أهلها وينتفخ نضاهما. فاستعفى بعد ثلثين عن ولاية النضاه، وكان من فضلاء الصحابة، ولم يكن بالبصرة من يفضل عليه. ابتلي بمرض الاستسقاء، ودام به المرض ثلاثين يوماً، وهو مسجى على سرير، توفي سنة (٥٣ هـ) (أسد الغابة: ج ٤، ص ١٣٧).

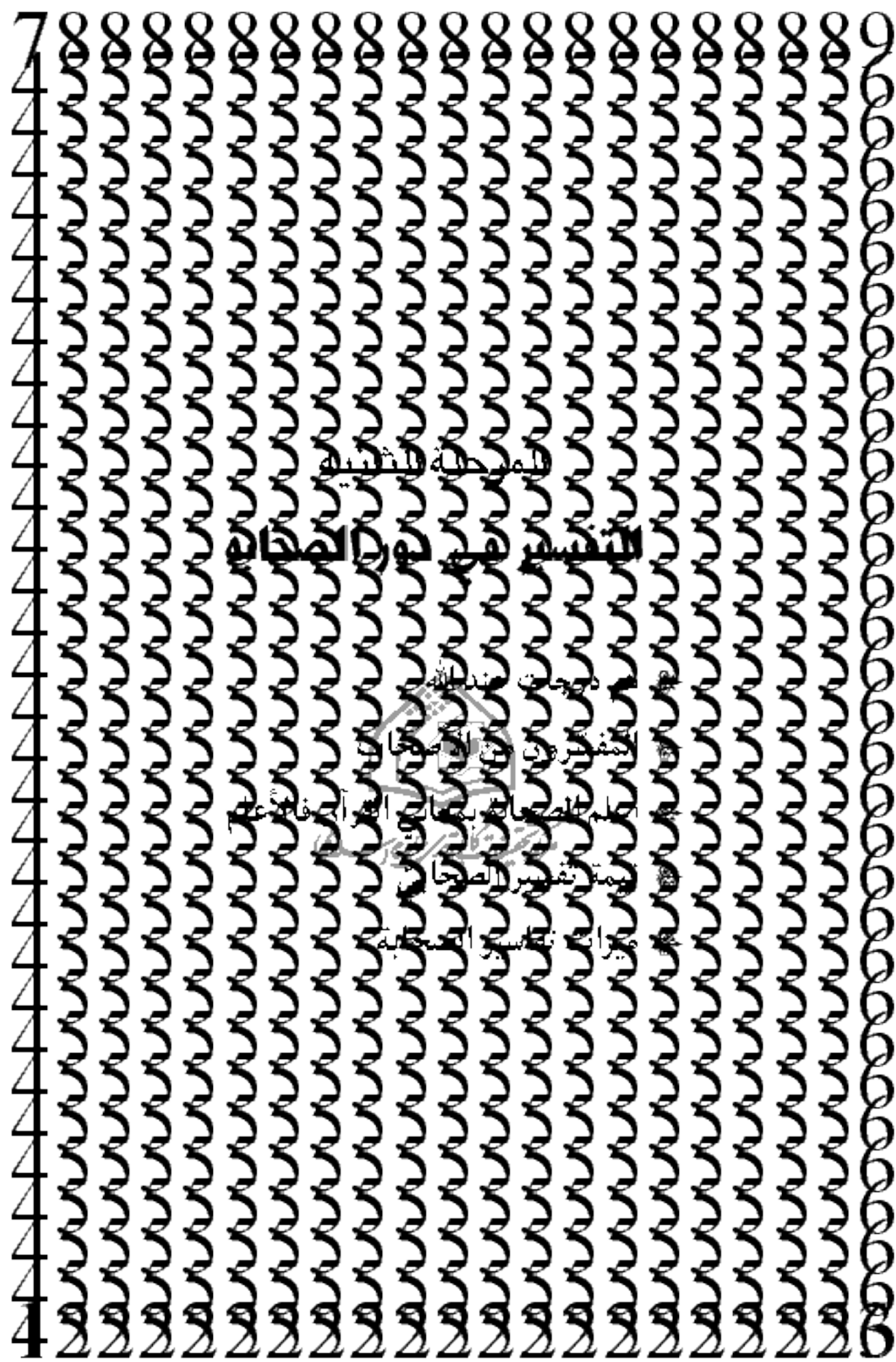
إسرائيل، لا يقوم إلا لعظيم صلاة.^١
و لعلّ ذات ليلة أو ليالي معدودة كانت معهودة.
هذا غيظ من فيض ورشف من رشح، فاضت به ينبوع الحكمة ومهبط الوحي
الكريم، ولا زالت بركاته متواصلة عبر الخلود.



١. المستدرک الحاکم: ج ٤، ص ٣٧٩.



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی





مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

التفسير في دور الصحابة

هم درجات عند الله

قال تعالى: «تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ»^١.
لا شك أن الصحابة، ممن «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ»^٢ كانوا هم مراجع الأمة بعد الرسول ﷺ إذ كانوا حاملِي لوائه ومصادر شريعته إلى الملائكة، ليس يعدل عنهم إلى الأبد. نعم، كانوا على درجات من العلم والفضيلة حسب ما أوتوا من فهم وذكاء وسائر المواهب والاستعداد «أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا»^٣، «يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا»^٤.

قال مسروق بن الأجدع الهمداني^٥: جالست أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالإخاذا - يعني الغدير من الماء - فالإخاذا يُروى الرجل، والإخاذا يُروى الرجلين، والإخاذا يُروى العشرة، والإخاذا يُروى المائة، والإخاذا لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم^٦.

١. يوسف (١٢): ٧٦.

٢. التوبة (٩): ١٠٠.

٣. الرعد (١٣): ١٧.

٤. البقرة (٢): ٢٦٥.

٥. كان من التابعين، فقيه عابد. قال الشيخ: ما رأيت أحب منه لعلم. كان معماً ومقرفاً وفقيهاً. صاحب علياً باباً ولم يتخلف عن حروبه. توفى سنة (٦٤ هـ)، وله من العمر ٦٣ سنة.

٦. التفسير والمفسرون: ج ١، ص ٣٦. تفسير القرطبي: ج ١، ص ٣٥. مقدمات في علوم القرآن: ص ٢٦٣.

و في لفظ ابن الأثير: تكفي الإخاذاة المراكب، و تكفي الإخاذاة الراكبين، و تكفي الإخاذاة الفئام من الناس، قال: و الإخاذاة ككتاب: مصنع للماء يجتمع فيه، و الفئام: الجماعة الكثيرة^١.

و يعني بالأخير (الأصدرهم) الإمام أمير المؤمنين، عليه صلوات المصلين؛ حيث كان -سلام الله عليه- ينحدر عنه السيل و لا يرقى إليه الطير^٢. قال مسروق: «انتهى العلم إلى ثلاثة: عالم بالمدينة علي بن أبي طالب، و عالم بالعراق عبد الله بن مسعود، و عالم بالشام أبي الدرداء، فإذا التفتوا سأل عالم الشام و عالم العراق عالم المدينة و هو لم يسألهم»^٣.

قال الأستاذ محمد حسين الذهبي: الحق أن الصحابة كانوا يتفاوتون في القدرة على فهم القرآن و بيان معانيه المرادة منه؛ و ذلك راجع إلى اختلافهم في أدوات الفهم. فقد كانوا يتفاوتون في العلم بلغتهم، فمنهم الواسع الاطلاع الملم بغريبها (كعبد الله بن عباس)، و منهم دون ذلك، و منهم من لازم النبي ﷺ فعرف من أسباب النزول ما لم يعرفه غيره (كعلي بن أبي طالب رضي الله عنه). أضاف إلى ذلك أن الصحابة لم يكونوا في درجتهم العلمية و مواهبهم العقلية سواء، بل كانوا مختلفين في ذلك اختلافاً عظيماً^٤.

هذا عدي بن حاتم، العربي الغميم، حبيب من قومه تعالى: «وَكُنُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ...»^٥ أنه تمايز أحد خيطين: أبيض

١. النهاية في غريب الحديث و الأثر لابن الأثير، ج ١، ص ٢٨.

٢. راجع: نهج البلاغة، النسخة المقتضية، رقم ٣.

٣. راجع: تاريخ دمشق لابن عساکر، ترجمة الإمام علي بن أبي طالب، ج ٣، ص ٥١، رقم ١٠٨٦.

٤. التفسير و المفسرون، ج ١، ص ٣٥-٣٦.

٥. هو ابن حاتم الموصوف بالجود الذي يضرب به المثل، وقد عي النبي ﷺ سنة خمس، كان جواداً شرفاً في قومه، و كان ذات الإيمان راسخ العقيدة، روي عنه أنه قال: ما دخل علي وقت صلاة إلا وأنا مدلق إليها، و كان رسول الله ﷺ يكرمه إذا دخل عليه. قال الشعبي: أرسل إليه الأشعث يستجير منه فذبحه فملاها و حملها الرجال إليه. فقال: إنما أردناها فارغة، فقال عدي: إذا لا نجرها فارغة. كان متحرفاً عن عثمان، فابتدأ مع أمير المؤمنين علي عليه السلام فبكت عنه يوم الجمل و قتل ابنه في ركاب علي عليه السلام و شهد صفين بنفسه. توفي سنة (٦٧ هـ) بالكوفة أيام المعتز، وله مائة و عشرون سنة (أسد الغابة، ج ٣، ص ٣٩٢-٣٩٤).

٦. البقرة (٢) ١٨٧.

و آخر أسود، أحدهما عن الآخر في ضوء الفجر، فأخذ عتالين أبيض وأسود وجعلهما تحت وسادة، فجعل ينظر إليهما فلا يتبين له أحدهما عن الآخر، فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ يُخبره بما صنع، فضحك رسول الله من ضيعة ذلك، حتى بدت نواجذه، وفي رواية، قال له: إنَّ وسادتك إذن لعريض - كناية عن عدم تنبُّه حقيقة الأمر - ثم قال له: إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل، إنه البياض المعترض على الأفق تحت سواد الليل المنصرم. وفي الدر المنثور: لا يمنعكم من سحوركم أذان بلال ولا الفجر المستطيل - وهو الساطع المصعد - ولكن الفجر المستظهر في الأفق، هو المعترض الأحمر، يلوح إلى الحمرة. وفي حديث: لا يمنعكم أذان بلال من سحوركم فإنه ينادي بليل، فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم، فإنه لا يؤذن حتى يطلع الفجر.

قال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: «الفجر هو الخيط الأبيض المعترض، وليس هو الأبيض صعداً».



و زعمت عائشة من قوله تعالى: «يُؤْتُونَ مَا آتَوْا» إرادة ارتكاب المآثم، الأمر الذي يتنافى مع سياق الآية الواردة بشأن الإساءة بموضع المؤمنين حقاً، قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ - إِلَى قَوْلِهِ - وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى

١. فتح الباري بشرح البخاري لابن حجر، ج ٤، ص ١١٣-١١٤: تفسير الصوري، ج ٢، ص ١٠٠.

٢. الدر المنثور، ج ١، ص ٢٠٠.

هكذا رواه القوم بشأن بلال وابن أم مكتوم، ولعله اشتباه من الراوي أو الناسخ، لأنَّ بلال كان هو المؤذن المعتمد عند رسول الله ﷺ والأسحابة، وكان ابن أم مكتوم مكثوفاً يؤذن قبل طلوع الفجر، وكان ذلك سبب تشرع أذانه، وقد تداوله فيه أهل المدينة حتى اليوم.

قال أبو جعفر الصدوق: كان لرسول الله ﷺ مؤذنان: بلال والآخر ابن أم مكتوم وكان أعمى، وكان يؤذن قبل الصبح، وكان بلال يؤذن بعد الصبح، فقال النبي ﷺ: إن ابن أم مكتوم يؤذن بالليل، فإذا سمعتم أذانه فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان بلال. فغيرت العامة هذا الحديث عن جهته، وقالوا: إنه عليه السلام قال: إن بلالاً يؤذن بيل، فإذا سمعتم أذانه فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم (من لأبي جعفر، الفقيه، ج ١، ص ١٩٣-١٩٤).

٣. وسائل الشيعة، ج ٣، ص ١٥٣، باب ٢٧: الموافات، رقم ٤.

رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ»^١.

فسألت عن ذلك رسول الله ﷺ، وقالت: هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله؟! فقال ﷺ: لا، ولكنه الذي يصوم ويعمل ويصدق ويخاف الله^٢. كناية عن إتيانه الطاعات، وجلالاً أن لا يكون مؤدياً لها تامة حسبما أراد الله. ولعلها كانت تتصور من الكلمة أنها مقصورة (يأتون ما أتوا) بمعنى: (يعملون ما عملوا)، وقد أسلفنا الكلام عن تزييفه^٣. وأن الصحيح هو قراءة المذ (يؤتون ما آتوا) بمعنى: يؤدون ما أدوا، أي من أفعال البر والخيرات، من غير إعجاب ولا رياء، وإلى ذلك ينظر تفسيره ﷺ.

* * *

و روى زرارة عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: أتى عمار بن ياسر رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أجنبت الليلة ولم يكن معي ماء. قال: كيف صنعت؟ قال: طرحت ثيابي ثم قمت إلى الصعيد فتمسكت^٤! فعلمه رسول الله ﷺ، سواء أكان بدل وضوء أم بدل غسل.

مرزوقية كبرى علوم ديني

و قرأ عمر بن الخطاب من سورة «عبس» حتى وصل إلى قوله تعالى: «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعَبْأًا وَقَضَبًّا وَرَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدائقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَتَاعًا نَكْمًا وَلَأَنعَامِكُمْ»^٥. فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا هو التكلف يا عمر! وفي رواية: ثم رفض - أو تنقص - عصاً كانت في يده، وقال: هذا العمر الله هو التكلف،

١. المؤمنون (٢٣): ٥٧-٦١.

٢. عند البحث عن مسألة التحريف عند جدوية العامة في الجزء الثامن، رقم ٣١، ص ٩٥٦. راجع: المستدرک

الحاكم، ج ٣، ص ٣٣٥ و ٣٤٦.

٣. تفسير العنبري، ج ١، ص ٣٤٤، رقم ١٤٤ و ١٤٥، ص ٣٠٣، رقم ٦٣.

٤. عبس (٨٩): ٣٣-٣٤.

فما عليك أن لا تدري ما الأبي، اتبعوا ما بين لكم هدا من الكتاب فاعملوا به، وما لم تعرفوه فكلوه إلى ربهم. ولعله سئل عن تفسير الآية فجار في الجواب.

وقد ورد أن أبا بكر - أيضاً - سئل قبل ذلك عن تفسير الآية، فقال: أي سماء تُظلي، وأي أرض تُظلي، إذا قلت في كتاب الله ما لم أعلم.

قال الذهبي: ولو أننا رجعنا إلى عهد الصحابة لوجدنا أنهم لم يكونوا في درجة واحدة بالنسبة لنهم معاني القرآن، بل تشاوت مراتبهم، وأشكل على بعضهم ما ظهر لبعض آخر منهم. وهذا يرجع إلى تفاوتهم في القوة العقلية، وتفاوتهم في معرفة ما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات. وأكثر من هذا أنهم كانوا لا يتساوون في معرفة المعاني التي وضعت لها المفردات، فمن مفردات القرآن ما خفي معناه على بعض الصحابة، ولا ضير في هذا، فإن اللغة لا يحيط بها إلا معصوم، ولم يدع أحد أن كل فرد من أمة يعرف جميع ألفاظ لغتها.

قال: ومما يشهد لهذا الذي ذهبنا إليه، ما أخرجه أبو عبيدة في المضائل عن أنس: أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر «وفاكهة وأبا» فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأبي؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا هو المكلف في عمر.

وما روي من أن عمر كان على المنبر فقرا: «أو يأخذهم على تخوف»^٢ ثم سأل عن معنى التخوف، فقال له رجل من هذيل: التخوف عندنا التنقص، ثم أنشد:

تخوف الرجل منها تامكاً قريداً
كما تخوف عود السبعة السفين^٣

قال الطبرسي: التخوف: التنقص، وهو أن يأخذ الأول فالأول حتى لا يبقى منهم أحد، وتلك حالة يخاف معها الهلاك والفتنة وهو الغناء تدريجاً، ثم أنشد البيت بتبديل الرجل

١. راجع: الدر المنثور، ج ٦، ص ٣١٧ المستدرج لحاكم، ج ٤، ص ٥١٤.

والأبي: العذب المتهين للرعي والخمر، من قولهم: أب لكذا: إذا تبت له، كما أن الفاكهة هي الثمرة الناضجة للذكر والتفتت. جاء في المعجم الوسيط: الأبي: العذب ربه وباسمه يقال: فلان راع له الحب، وراع له الأبي، إذا ركا زرعته وأفسح مراعاه.

٢. التفسير والمفسرون، ج ١، ص ٣٤ (الموافقات، ج ٣، ص ٨٧-٨٨).

٣. النحل (٥٦): ٤٧.

إلى السير^١.

قال الفراء: جاء التفسير بأنه التنقص، والعرب تقول: تحوَّفته - بالحاء المهملة -: تنقصته من حافاته^٢.

و معنى الآية - على ذلك -: «لأنَّ تعالى يُهلكهم على تدرُّج شيئاً فشيئاً، بما يجعلهم على خوف الفناء؛ حيث يرون أنَّهم في تنقيص، والأخذ من جوانبهم تدريجاً، وهذا نظير ما ورد في آية أخرى: «أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا»^٣ وقوله: «وَنَبْلُوكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ»^٤.

* * *

و أيضاً أخرج أبو عبيدة من طريق مجاهد عن عبد الله بن عباس، قال: كنت لا أدري ما «فاطر السماوات» حتَّى أتاني أعرابيان يتخاصمان في بئر. فقال أحدهما: أنا فطرتهما، والآخر يقول: أنا ابتدأتها...^٥.

قال الذهبي: فإذا كان عمر بن الخطاب يخفي عليه معنى «الأب» و معنى «التخوف»، و يسأل عنهما غيره، وابن عباس - وهو ترجمان القرآن - لا يظهر له معنى «فاطر» إلا بعد سماعه من غيره، فكيف شأن غيرهما؟! لا شك أن كثير منهم كانوا يكتفون بالمعنى الإجمالي للآية: فيكفيهم - مثلاً - أن يعلموا من قوله تعالى: «وفاكهة وأب» أنه تعداد للمنع التي أنعم الله بها عليهم، و لا يلزمون أنفسهم بتنهم معنى الآية تفصيلاً، ما دام المراد واضحاً

١. مجمع البيان: ج ٢، ص ٣٦٣.

و الرجل: الثوب وهو ما يجعل على ظهر البعير كالسرج للفرس، و التارك: المسام؛ لا وقاعه؛ يقال: تمك المسام ثمركاً إذا حال و ارتفع، و القرد: الذي فجعه شجرة فصار كأنه وقاية للمسام، و الشبع: شجرة للقيي و المسام، و المنق: ما انحوت به كالشجرة و الحود: و معنى البيت: أن الرجل قد أخذ من جوانب المسام فجعل يأكه و ينقص من أطرافه، رغم سموكه و فجعه بالشعر المتبدد. كما يأخذ الجيرد من أطراف عبء الشيعة ليريه سهماً أو نوساً.

٢. معاني القرآن للفراء: ج ٢، ص ١٠١.

٣. الأنبياء (٢١): ٤٤، و نظيرتها آية أخرى في سورة الرعد (١٣): ٤١: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ ن...».

٤. البقرة (٢): ١٥٥. ٥. الإقناع: ج ٣، ص ٤ (ط ٣) و ج ١، ص ١١٣ (ط ١).

جليلاً.

المفسرون من الأصحاب

اشتهر بالتفسير من الصحابة أربعة، لا خامس لهم في مثل مقامهم في العلم بمعاني القرآن، وهم: علي بن أبي طالب عليه السلام وكان رأساً وأعلم الأربعة، وعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، وعبد الله بن عباس، كان أصغرهم وأوسع باعاً في نشر التفسير. أما غير هؤلاء الأربعة فلم يُعهد عنهم في التفسير سوى النزر اليسير.

قال جلال الدين السيوطي: اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير. أما الخلفاء فأكثر من روي عنه منهم علي بن أبي طالب، والرواية عن الثلاثة (أبي بكر وعمر وعثمان) نزره جداً^١.

قال الأستاذ الذهبي: وهناك من تكلم في التفسير من الصحابة غير هؤلاء، كأنس بن مالك، وأبي هريرة، وعبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعائشة، غير أن ما نقل عنهم في التفسير قليل جداً، كما أن العشرة الذين اشتهروا بالتفسير، تفاوتوا قلّة وكثرة، والمختصون بكثرة الرواية في التفسير منهم أربعة: علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وابن عباس. أما باقي العشرة، وهم: زيد، وأبو موسى وابن الزبير، فقد قلّت عنهم الرواية، ولم يبلغوا ما بلغه الأربعة.

قال: لهذا نرى الإمساك عن الكلام في شأن الستة، ونتكلم عن علي بن أبي طالب وابن مسعود وأبي بن كعب وابن عباس نظراً لكثرة الرواية عنهم في التفسير، كثرة غدت مدارس الأمصار على اختلافها وكثرتها^٢.

* * *

٢. الإقناع، ج ٤، ص ١٠٤.

١. التفسير والمفسرون، ج ١، ص ٣٥.

٣. التفسير والمفسرون، ج ١، ص ٦٣-٦٤.

أَعْلَمُ الصَّحَابَةِ بِمَعَانِي الْقُرْآنِ فَالْأَعْلَمُ

١. عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ (ع)

قال الإمام بدر الدين الزركشي: وصدر المنشرين من الصحابة هو علي بن أبي طالب، ثم ابن عباس. وهو تجرّد لهذا الشأن، والمحموظ عنه أكثر من المحفوظ عن علي (ع)، إلا أن ابن عباس كان قد أخذ عن علي (ع).

قال الأستاذ الذهبي: كان علي (ع) بحرّاً من العلم، وكان قويّ الحجّة سليم الاستنباط، وتبيّ الحظّ الأوفر من الفصاحة والخطابة والشعر، وكان ذا عقل ناضج وبصيرة نافذة إلى بواطن الأمور. وكثيراً ما كان يرجع إليه الصحابة في فهم ما خفي، واستجلاء ما أشكل. وقد دعاه رسول الله (ص) حين ولّاه قضاء اليمن، بقوله: «اللّهُمَّ تَبِّتْ لِسَانَهُ وَاهْدِ قَلْبَهُ». فكان موفقاً مسدداً، فيصلاً في المعضلات، حتّى ضرب به المثل، ف قيل: «قضية ولا أبا حسن لها».

قال: ولا عجب، فقد تربّى في بيت النبوة، وتغلّى بلبان معارفها، وعمّته مشكاة أنوارها. وقيل لعطاء: أكان في أصحاب محمد علم من علي؟ قال: لا، والله لا أعلمه. وعن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، قال: إذا تبّت لك الشّيء، عن علي، لم تعدل عنه إلى غيره.^١ قال ابن عباس: جلّ ما تعلّمت من التفسير، من علي بن أبي طالب. وقال: عليّ علّم علماً علّمه رسول الله، ورسول الله علّمه الله؛ فعلم النبي من علم الله، وعلم علي من علم النبي، وعلمي من علم علي (ع). وما علمي وعلم أصحاب محمد (ص) في علم علي (ع) إلا كقطرة في سبعة أبحر. وفي حديث آخر: فإذا علمي بالقرآن في علم علي (ع) كالقرارة في المنعرج، قال: القرارة: الغدير، والمنعرج: البحر.^٢ وقال: لقد أعطي علي بن أبي طالب (ع)

١. البرهان في علوم القرآن، ج ٢، ص ٨٥٧، بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٠٥ (ط بيروت).

٢. واهيك تولى ابن الخطيب: «لا أبقاني الله لمعضة ليس لها أبو حسن» (أشباب الأشراف لبيلاذري، ص ٨٠٠، رقم ٣٩).

٣. التفسير والمفسرون، ج ١، ص ٨٩.

٤. بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٠٥، ١٠٦ (ط بيروت) (سعد السعود لميند ابن طاقوس، ص ٣٨٥-٣٨٦).

تسعة أعشار العلم، وأئيم الله لقد شاركهم في العشر العاشر، الأمر الذي أخرج الكل إليه واستغنى عن الكل، كما قال الخليل.

و قال سعيد بن جبير: كان ابن عباس يقول: إذا جاءنا الثبت عن علي بن أبي طالب لم نعدل به. وفي لفظ ابن الأثير: إذا ثبت لنا الشيء عن علي لم نعدل عنه إلى غيره. وقد عرفت أن ما أخذه ابن عباس من التفسير فائما أخذه عن علي عليه السلام.

و قال سعيد بن المسيب: ما كان أحد من الناس يقول سلوني غير علي بن أبي طالب. قال: كان عمر يتعوذ من مَعْضِلَة ليس لها أبو حسن. وقد روى البلاذري في الأنساب قوله عمر: «لا أبغاني الله لمَعْضِلَة ليس لها أبو حسن».

و قال أبو الطفيل: كان علي بن أبي طالب يقول: سلوني، سلوني، سلوني عن كتاب الله تعالى، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أنزلت بليل أو نهار...

و قال عبد الله بن مسعود: إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، ما منها حرف إلا وله ظهر وبطن، وأن علي بن أبي طالب عنده منه الظاهر والباطن.

و روى أبو عمرو الزاهد (٢٦١-٣٤٥ هـ) بإسناده إلى علقمة، قال: قال لنا عبد الله بن مسعود ذات يوم في حلقة: لو علمت أحدا هو أعلم مني بكتاب الله عز وجل، لضربت إليه آباط الإبل. قال علقمة: فقال رجل من الحلقة: ألقيت علياً عليه السلام؟ فقال: نعم، قد لقيت، وأخذت عنه، واستندت منه، وقرأت عليه، وكان خير الناس وأعلمهم بعد رسول الله ﷺ ولقد رأيته كان بحر يسيل سيلاً...^١

قال ابن أبي الحديد - بصدد كونه عليه السلام مرجع العلوم الإسلامية كلها: ومن العلوم علم تفسير القرآن وعنه أخذ، ومنه فرع. وإذا راجعت إلى كتب التفسير علمت صحة ذلك؛ لأن أكثره عنه وعن عبد الله بن عباس. وقد علم الناس حال ابن عباس في ملازمته له

١. راجع: أسد الغابة، ج ٤، ص ٣٣٠-٣٣١؛ الإصابة لأبن حجر، ج ٢، ص ٥٠٩؛ حبة الأولياء، لأبي نعيم، ج ١، ص ٢٤٥؛ أقداب الأشراف، ج ٢، ص ١٠٠، رقم ٣٩.

٢. سعد السعود، ص ٣٨٥؛ بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١٠٥؛ راجع: تفسير القرطبي، ج ١، ص ٣٥.

و انقطاعه إليه، وأنه تلميذه و خريجه. و قيل له: أين علمك من علم ابن عمك؟ فقال: كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط^١.

و أخرج الحاكم بإسناده عن رسول الله ﷺ قال: «عليّ مع القرآن و القرآن مع عليّ، لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض» و قال: «أنا مدينة العلم و عليّ بابها، فمن أراد المدينة فليأتها من بابها»^٢.

و الآن فلنستمع إلى ما يعصف به نفسه و موضعه من رسول الله ﷺ قال: «سلوني عن كتاب الله، فإنه ليست آية إلا و قد عرفت بليل نزلت أم بنهار، في سهل أو جبل»، «و الله ما نزلت آية إلا و قد علمت فيما نزلت و أين نزلت. و إن ربي و هب لي قلباً عقولاً و لساناً سوؤلاً».

قيل له: «ما بالك أكثر أصحاب النبي ﷺ حديثاً؟ فقال: لأنني كنت إذا سألته أنبأني، و إذا سكّئت ابتدأني»^٣.

قال بايع: «كنت أول داخل على النبي ﷺ و آخر خارج من عنده، و كنت إذا سألت أعطيت، و إذا سكّئت ابتدأت. و كنت أدخل على رسول الله في كل يوم دخلةً، و في كل ليلة دخلةً و ربّما كان ذلك في بيتي، يا نبي رسول الله أكثر من ذلك في منزلي. فإذا دخلت عليه في بعض منازلهم أخلى بي و أقام نساءه، فلم يبق عنده غيري. و إذا أتاني لم يُقم فاطمة و لا أحدٌ من ولدي. فإذا سألته أجابني، و إذا سكّئت عنه و نفدت مسألتي ابتدأني. فما نزلت على رسول الله آية من القرآن إلا أقرئتها و أملاها عليّ و كتبها بخطي، فدعا الله أن يفهمني و يعطيني، فما نزلت آية من كتاب الله إلا حفظتها و علّمني تأويلها...»^٤.

و في الكافي: «فما نزلت على رسول الله آية من القرآن إلا أقرئتها و أملاها عليّ، فكتبها بخطي، و علّمني تأويلها و تفسيرها، و ناسخها و منسوخها، و محكمها

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١، ص ١٩.

٢. المستدرک للحاكم، ج ٣، ص ١٣٤ و ١٣٦ و ١٣٧. ٣. أنساب الأشراف، ص ١٩٩-٢٠٠، رقم ٢٦٧ و ٢٦٨.

٤. المعيار و الموازنة، ص ٣٠٠.

ومتشابهها، وخاصتها وعامتها. ودعا الله أن يعطيني فهمها وحفظها. فما نسيت آية من كتاب الله ولا علماً أملاًه عليّ وكتبته، منذ دعا الله لي بما دعا، وما ترك شيئاً علمه الله من حلال ولا حرام، ولا أمر ولا نهى كان أو يكون، ولا كتاب مُنزل عليّ أحد قبله من طاعة أو معصية، إلا علمنيه وحفظته، فلم أنس حرفاً واحداً. ثم وضع يده على صدري ودعا الله لي أن يملأ قلبي علماً وفهماً وحكماً ونوراً. فقلت: يا نبي الله - يا أبي أنت وأمي - منذ دعوت الله لي بما دعوت، لم أنس شيئاً ولم يكتنني شيء لم أكتبه، أفتخوف عليّ النسيان فيما بعد؟ فقال: لا، لست أتحوف عليك النسيان والجهل! ^١

وقد قال رسول الله ﷺ لعليّ عليه السلام: «إِنَّ الله أمرني أن أدنيك ولا أقصيك، وأن أعلمك ولا أجفوك. فحقيق عليّ أن أعلمك، وحقيق عليك أن تعي» ^٢.

* * *

وفي الخطبة الخامسة - من نهج البلاغة -

وقد علمتم موضعي من رسول الله ﷺ بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة. وضعني في جبهه وأنا ولد، يضمني إلى صدره، ويكنفني إلى فراشه، ويُسمني جسده، ويُسمني عرقه ^٣. وكان موضع الشيء ثم يلقمنيه. وما وجد لي كذبة في قول، ولا خطلة في عمل.

ولقد قرن الله به ﷺ، من لدن أن كان فطيماً أعظم منك من ملائكته، بسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم، ليده ونهاره. ولقد كنت أتبعه أتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالاعتداء به. ولقد كان يجاور في كل سنة بجراء، فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يوماً في الإسلام غير رسول الله ﷺ وخديجة وأنا تالهما. أرى نور الوحي والرسالة، وأشم ربح النبوة. ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه ﷺ فقلت: يا رسول الله، ما هذه الرنة؟ فقال: هذا الشيطان أينس من عبادته، إنك تسمع ما أسمع، وتري ما أرى، إلا أنك لست بنبي ولكنك لوزير، وأنت لعلّ خير... ^٤

١. الكافي، ج ١، ص ٢٢٢، كتاب فضل العلم، باب اختلاف الحديث، رقم ١.

٢. المعيار والموازنة، ص ٣٠١. ٣. بفتح العين: راحته الذاكرة.

٤. النحل: الخطبة يثاب من عدم الرواية. ٥. نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٩٢.

* * *

٢. عبد الله بن مسعود

وَأَمَّا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ، فَهُوَ مِنَ السَّابِقِينَ فِي الْإِيمَانِ، وَأَوَّلُ مَنْ جَهَرَ بِالْقُرْآنِ بِمَكَّةَ، وَاسْمُهُ قَرِيشًا بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأُوذِيَ فِي اللَّهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ. وَكَانَ قَدْ أَخَذَهُ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْهِ، فَكَانَ يَخْدُمُهُ فِي أَكْثَرِ شُؤُونِهِ، وَهُوَ صَاحِبُ طَهْوَرِهِ وَسَوَاكِهِ وَنَعْلِهِ، وَيُلْبِسُهُ إِتَاهَ إِذَا قَامَ، وَيُخْلَعُهُ وَيَحْمِلُهُ فِي ذِرَاعِهِ إِذَا جَلَسَ، وَيَمْشِي أَمَامَهُ إِذَا سَارَ، وَيَسْتَرُهُ إِذَا اغْتَسَلَ، وَيُوقِظُهُ إِذَا نَامَ، وَيَلْجُ دَارَهُ بِلا حِجَابٍ، حَتَّى لَقِيَ ظَنُّهُ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. هَاجَرَ الْهَجْرَتَيْنِ، وَصَلَّى إِلَى الْقِبْلَتَيْنِ، وَشَهِدَ الْمَشَاهِدَ كُلَّهَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ.

كَانَ مِنَ أَحْفَظِ النَّاسِ لِكِتَابِ اللَّهِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ يُحِبُّ أَنْ يَسْمَعَ الْقُرْآنَ مِنْهُ، وَكَانَ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا طَرِيًّا كَمَا نُزِّلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدِ اللَّهِ». وَكَانَ حَرِيصًا عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ وَلَا يَسْتَحِبُّ مَعَانِي آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ مَتًّا إِذَا تَعَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ، لَمْ يَجَاوِزْهُنَّ حَتَّى يَعْرِفَ مَعَانِيَهُنَّ وَالْعَمَلَ بِهِنَّ، وَمَنْ تَمَّ كَانَ يَقُولُ: وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، مَا تَرَمْتُ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ فِيهِمْ نَزَلَتْ وَأَيُّنَ نَزَلَتْ، كَمَا كَانَ شَدِيدَ الْحَرَصِ أَيْضًا عَلَى بَثِّ الْعِلْمِ وَنَشْرِهِ بَيْنَ الْعِبَادِ.

قَالَ مَسْرُوقُ بْنُ الْأَجْدَعِ: كَانَ عَبْدُ اللَّهِ يَقْرَأُ عَلَيْنَا السُّورَةَ ثُمَّ يَحْدُثُنَا فِيهَا وَيُفَسِّرُهَا، عَامَّةَ النَّهَارِ، وَقَدْ أَدْعَنَ لَهُ عَامَّةُ صَحَابَةِ الرَّسُولِ ﷺ بِالْفَضِيلَةِ وَالْعِلْمِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. وَ مِنْ ثَمَّ كَانَتْ لَهُ مَكَانَةٌ سَامِيَةٌ فِي التَّفْسِيرِ، وَبِذَلِكَ طَارَ حَيْثُ، وَ عَنْهُ فِي التَّفْسِيرِ الشَّيْءُ الْكَثِيرُ، وَالطَّرَقُ إِلَيْهِ مَتَقَنَةٌ.

قَالَ الْخَلِيلِيُّ فِي الْإِرْشَادِ: وَلِإِسْمَاعِيلِ السُّدِّيِّ تَفْسِيرٌ يُوْرَدُ بِأَسَانِيدٍ إِلَى ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ. وَرَوَى عَنِ السُّدِّيِّ الْأَثَمَةُ، مِثْلَ الثَّوْرِيِّ وَشُعْبَةَ، وَأُضَافَ: أَنَّ أَمْتَلِ التَّفَاسِيرِ

١. حجة الأولياء: ج ١، ص ١٣٩، ١٣٤؛ أسد الغابة: ج ٣، ص ٢٥٦، ٢٥٧؛ الاستيعاب ببياسر الإسماعيلية: ج ٢، ص ٣١٦، ٣١٧؛ الإسماعيلية: ج ٢، ص ٣٦٨، ٣٦٩.

تفسير السدي.

قال جلال الدين السيوطي - تعقيباً على كلام صاحب الإرشاد -: و تفسير السدي الذي أشار إليه، يورد منه ابن جرير (الطبري) كثيراً من طريق السدي عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، وناس من الصحابة هكذا قال: والحاكم يخرج منه في المستدرک أشياء ويصححه، لكن من طريق مرة عن ابن مسعود، وناس فقط دون الطريق الأول، أي طريق أبي صالح عن ابن عباس.

وكان بعد رسول الله ﷺ قد أخذ العلم من علي بن أبي طالب وليس من غيره بشائناً. وقد تقدم حديث علقمة، قال: قال ابن مسعود ذات يوم، وكنا في حلقتنا: لو علمت أن أحدًا هو أعلم مني بكتاب الله عز وجل لضربت إليه أباط الإبل. قال علقمة: فقال رجل من الحلقة: أتيت علياً بن أبي طالب؟ فقال: نعم، قد لقيت، وأخذت عنه، واستندت منه، وقرأت عليه. وكان خير الناس وأعلمهم بعد رسول الله ﷺ لقد رأيته كأن بحر يسيل سيلاً^١.

وعدّه الخوارزمي وشمس الدين الجزري في أسنى المطالب من رواة حديث الغدير من الصحابة^٢.

وأخرج جلال الدين السيوطي عنه قول أبيه التبييع (سورة المائدة (٥): ٦٧) بشأن علي بن أبي طالب يوم الغدير، قال: وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود، قال: كنا نقرأ على عهد رسول الله ﷺ: «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك - أن علياً مولى المؤمنين - وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس»^٣.

نعم، كان ابن مسعود ممن شد وثاقه بولاء آل بيت الرسول، لم يشذ عن طريقته المنلى منذ أول يومه فالى آخر أيام حياته.

روى الصدوق أبو جعفر ابن بابويه بإسناده إلى زيد بن وهب الجهني أبي سليمان

١. الإفتان، ج ٤، ص ٢٠٨. ٢. سعد المسعود، ص ٣٨٥ بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٠٥.

٣. راجع: الغدير لعلامة الأئمة، ج ١، ص ٥٣، رقم ٨٩.

٤. الدر المنثور، ج ٣، ص ٣٩٨، روح المعاني للألموسي، ج ٢، ص ١٧٣.

الكوفي^١ : أَنَّ اثني عشر رجلاً من صحابة رسول الله ﷺ أنكروا عليّ أبي بكر تقدّمه عليّ عليّ ﷺ و عدّ منهم: عبد الله بن مسعود.^٢

و كان هو الذي أشاد بذكر أهل البيت، و بثّ حديث «ال خلفاء اثنا عشر...» في الكوفة و ما والاها^٣.

قال المرتضى علم الهدى - بشأنه -: لا خلاف بين الأئمة في طهارة ابن مسعود و فضله و إيمانه، و مدح النبي ﷺ له و ثنائه عليه، و أنّه مات عليّ الحالة المحمودّة^٤.
و سيأتي من تقي الدين أبي الصلاح الحلبيّ، عدّه و أئباً من المخصوصين بولاية آل البيت^٥.

و روى رضيّ الدين أبو القاسم عليّ بن موسى بن طاووس (٦٦٤ هـ) عن كتاب أبي عبد الله محمد بن عليّ السراج في تأويل قوله تعالى: «و اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً»^٦ بالإسناد إلى عبد الله بن مسعود، أنّه قال: قال النبي ﷺ: «يا ابن مسعود، أنّه قد نُزِلت عليّ آية «و اتَّقُوا فِتْنَةً...» و أنا كنتودعكها، فكن لما أقول لك و اعيأ و عني له مؤدياً، من ظلم عليّاً مجلسي هذا كمن جحد نبوتي و نبوة من كان قبلي. فقال له الراوي: يا أبا عبد الرحمن، أسمعك هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: فكيف وُليت للظالمين؟ قال: لا جرم حلّت عقوبة عملي^٧، و ذلك أنّي لم أستاذن إمامي كما استأذن جندب و عمار و سلمان، و أنا أستغفر الله و أتوب إليه»^٨.

١. وفقه أصحاب التراجع. قال الأعمش: إذا حدّثك زيد بن وهب عن أحد فكانك سمعته من الذي حدّثك عنه. أسلم في حياة النبي ﷺ و هاجر إليه: فبلغته وفاته في العراق. فهو معدود من كبار التابعين: سكن الكوفة و كان في الجيش الذي مع عليّ ﷺ في حربه الخوارج. و هو أول من جمع خطب عليّ ﷺ في الجمع و الأعياد و غيرهما. توفي سنة (٩٦ هـ) و قد عمّر حوالي.

٢. الاتصال: ج ٢، ص ٦١، أبواب الأئني عشر.

٣. راجع: بحار الأنوار، ج ٣٦، ص ٢٩، ٣٠، ٣٣ و ٣٤ (ط بيروت).

٤. قاموس الرجال للمستري، ج ٢، ص ١٣٦، (قدّلاً عن الشافعي).

٥. تقريب المعارف لأبي صلاح الحسين، ص ١٦٨.

٦. الأنفال (٨): ٢٥. ٧. وفي نسخة: جلبت.

٨. الصراف في معرفة مذاهب الصواف: ص ٣٦، رقم ٢٥؛ قاموس الرجال، ج ٢، ص ١٤٢، ١٤٣.

* * *

و مما يجدر التنبيه له أنَّ عاتمة الكوفيّين من منسّرين و فقهاء و محدّثين، كان طابعهم الولاء لأهل البيت (عليه السلام) و قد خُصّ أصحاب ابن مسعود بالميل لعليّ (عليه السلام) الأمر الذي كانت البيئة الكوفيّة تستدعيه بالذات، على أثر وفرة العلماء من صحابة الرسول (صلى الله عليه وآله) هناك. ولا غرو فإنّهم أعرّف بموضع أهل البيت و لا سيّما سيّدهم و كبيرهم عليّ بن أبي طالب، من رسول الله، وكثرة وصاياه بشأنهم، و التمسّك بأذيالهم و السير على هديهم، فلا يضلّوا أبداً.

و من ثمّ فقد امتازت الكوفة في أمور جعلتها في قمة العظمة و الإكبار، على مدى الدهور:

أولاً: كانت مهجر علماء الصحابة الأخيار و أعلام الأئمة الكبار، و بلغ أوجها عند مهاجرة الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام). أخرج ابن سعد عن إبراهيم، قال: هبط الكوفة ثلاثمائة من أصحاب الشجرة، و سبعون من أهل بصرى. و بذلك قال ابن عمرو: ما من يوم إلّا ينزل في فراتكم هذا مائتا ألف من بركة الجنة. كناية عن مهاجرة أصحاب الرسول إليها فوجاً فوجاً. و ثانياً: أصبحت معهد العلم في الإسلام في حوزة نصارتها و ازدهار معارفه، فمن الكوفة صدرت العلوم و المعارف الإسلاميّة، بشتّى أنحائها إلى البلاد، و سارت به الركبان إلى الأمصار في عهد طويل. أخرج ابن سعد - أيضاً - عن عبيد الله بن موسى، قال: أخبرنا عبد الجبار بن عباس عن أبيه، قال: جالستُ عطاء، فجعلتُ أسأله. فقال لي: ممّن أنت؟ فقلت: من أهل الكوفة. فقال عطاء: ما يأتينا العلم إلّا من عندكم.

و ثالثاً: كانت أرضاً خصبة لتربية ولاء آل الرسول (صلى الله عليه وآله) في نفوس مؤمنة صادقة في إيمانها، مؤدّية أجر رسالة نبيّها، حافظة لكرامة رسول الله في ذريّته الأنجاء، عارفة بأنّهم سُنن النجاة، و أحد الثقلين، و الحررة الوثقى التي لا انفصام لها، و من ثمّ روى ابن سعد: «إنّ

١. العيقات لابن سعد: ج ١، ص ١٥ و ٢٠ (ط ليدن).

٢. المصدر نفسه: ص ١٥ و ٢٠.

أسعد الناس بالمهديّ أهل الكوفة»^١.

أمّا أصحاب ابن مسعود (الصحابيّ الجليل الموالى لآل بيت الرسول) فكانوا أصدق عند الناس على عليّ عليه السلام ما أخرجه ابن سعد بإسناده عن أبي بكر بن عيّاش عن مغيرة^٢، كانوا لا يغالون ولا ينتقصون. ومن ثمّ روي عن عليّ عليه السلام ما يدلّ على رضائه عن موقفهم هذا المشرف، قال: «أصحاب عبد الله سُرّج هذه القرية»^٣.

ملحوظة

إنّما يُعرف صلاح الرجل واستقامته في الدّين، بتقواه عن محارم الله واستسلامه لأوامره ونواهيه، وفي إطاعة الرسول واتباع سنته والعمل بوصاياه، من غير أن يكون له الخيرة من أمره بعد ما قضى الله ورسوله؛ إذ مقتضى الإيمان الصادق أن يُسلم أمره إلى الله ورسوله تسليمًا.

و من أهمّ وصاياه عليه السلام والذي جعله أجراً رسالته، هو الانضواء تحت لواء أهل البيت والاستمسك بحرى وتائتهم مدى الحباقة وقد كان عليّ عليه السلام شاخص هذا البيت الرفيع، فمن كان معه كان مع الحقّ، ومن دار معه دار مع الحقّ، ومن حاد عنه حاد عن الإسلام ونبد وصيّة الرسول وراء ظهره، وأعرض عن الحقّ الصريح. فكيف الثقة به وهو حائد عن الجادة، ضالّ عن الطريق، فلا يصلح أن يكون هاديًا، وهو لم يهتد السبيل.

الأمر الذي يحفز بنا أن نجعل من الإمام أمير المؤمنين عليه السلام محوراً أساسياً في هذا الحقل، وميزاناً يفصل بين الصالح والطالح من الصحابة والتابعين - الفتناء والمفسرين والمحدثين - وليس ذلك منّا بدعاً، بعد ما جعله الرسول ﷺ باباً الذي منه يؤتى، وسفينة النجاة، وثاني الثقلين اللّذين ما إن تمسكت الأئمة بهما معاً (ولن يشرقا حتّى يردا

٢. المصدر نفسه: ص ٥٥ من ٤٨.

١. المصدر نفسه: ص ٤٩ من ٥٩.

٣. المصدر نفسه: ص ٤٩ من ٥٨.

عليه الحوض) لن يضلوا أبداً.

و لسنا نأخذ العلم إلا ممن عرفنا صلاحه و وثقنا بإيمانه الصادق. تلك وصية إمامنا أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام قال في قوله تعالى: «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ»؛ «إلى العلم الذي يأخذه عن يأخذه»^١.

* * *

٣. أبي بن كعب

و هكذا أبي بن كعب الأنصاري الخزرجي، هو أول من كتب لرسول الله ﷺ عند مقبلة المدينة، وكان قد لُقّب بسيد المسلمين؛ لشرفه وفضله وعلو منزلته في العلم والفضيلة، كما لُقّب بسيد القراء؛ لقوله ﷺ: «و أقرؤهم أبي بن كعب». وكان هو الذي تولى رئاسة لجنة توحيد المصاحف على عهد عثمان، عند ما عجز القوم الذين انتدبهم الخليفة لذلك، ولم يكونوا أكفاء، حسبما أسلفنا.

و عنه في التفسير الشيء الكثير، والطرق إليه ممتلئة أيضاً.

قال جلال الدين: و أما أبي بن كعب فعنه نسخة كبيرة يرويها أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عنه، وهذا إسناد صحيح. وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم منها كثيراً، وكذا الحاكم في المستدرک، وأحمد في المسند^٢.

و ذكر أبو الصلاح تقي الدين الحلبي (٣٧٤-٤٤٧ هـ) أياً وابن مسعود من الثابتين على ولاء آل بيت الرسول، المتخصصين بهم في العهد الأول بعد وفاة الرسول ﷺ، وأضاف: أن أياً حاول الإجهار بما يكنه ضميره في أخريات حياته لولا خوول الموت^٣. وقد كان من الثغر الاثني عشر الذين تقموا على أبي بكر تصديبه ولاية الأمر دون الإمام

١. عيس (١٨٠): ٣٤. ٢. وساق النسخة ج ٢٧، ص ٢٥، رقم ١٠.

٣. الإقذان، ج ٤، ص ٢٠٩، ٢١٠.

٤. قريب المعارف، ص ٦٨؛ راجع سيرة البحار للشيخ عباس القمي، ج ١، ص ٨.

٥. قاموس الرجال، ج ١، ص ٣٣٧.

أمير المؤمنين^١، وكابد الأمرين على ذاك الحادث الجلل، رافعاً شكواه إلى الله (قال: وإلى الله المشتكى)^٢ وقد سمع من سعد بن عبادَةَ ما نطق بما يوجب فرض ولاية الإمام^{عليه السلام}^٣.

* * *

٤. عبد الله بن عباس

و أمّا عبد الله بن عباس، فهو جبر الأئمة وترجمان القرآن، وأعلم الناس بالتفسير - تزييله وتأويله - تلميذ الإمام أمير المؤمنين^{عليه السلام}، الموفق وتربيته الخاصة، وقد بلغ من العلم مبلغاً قال في حقه الإمام أمير المؤمنين: «كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق»^٤، ولا غرو فإنّه دعاه الرسول^ﷺ بشأته: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»، أو قوله: «اللهم علمه الكتاب والحكمة»، أو: «اللهم بارك فيه وأنشر منه»^٥. قال^{عليه السلام}: «و لكل شيء فارس، وفارس القرآن ابن عباس»^٦.

ولد في الشعب قبل الهجرة بثلاث سنين، فحنكه النبي^ﷺ وبارك له. فتربّى في حجره، وبعد وفاته^{عليه السلام} كان قد لازم بيت النبوة. ورباه الإمام أمير المؤمنين^{عليه السلام} فأحسن تربيته، ومن ثمّ كان من المتفاني في ولاية الإمام^{عليه السلام} وقد صحّ قوله: «ما أخذت من تفسير القرآن فعن عليّ بن أبي طالب». هذا في أصول التفسير وأُسسه^٧.

و كان يراجع سائر الأصحاب ممّن يحتمل عنده شيء من أحاديث الرسول وسننه، مُجدّداً في طلب العلم مهما كلف الأمر. فكان يأتي أبواب الأنصار ممّن عنده علم من الرسول، فإذا وجد أحدهم نائماً كان ينتظره حتّى يستيقظ، وربّما تُسفي على وجهه الريح، ولا يكلف من يوقظه حتّى يستيقظ هو على دأبه، فيسأله عمّا يريد وينصرف،

٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٤، ص ٥٢.

٤. مقدّمات في علوم القرآن، ص ٣٦٣.

٥. الإصابة، ج ٢، ص ٣٣٤-٣٣٥، أسد الغابة، ج ٣، ص ١٩٥-١٩٦.

٦. بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٣٤٣ قدّم عن روضة الواعظين، ص ٢٤٦.

٧. تفسير القرطبي، ج ١، ص ٣٥.

١. الاتصال، ج ٢، ص ٤٦١.

٣. المصدر نفسه، ج ٦، ص ٤٤.

و بذلك كان يستعيض عما فاتته من العلم أيام حياة النبي ﷺ لصغره، باستطراق أبواب العلماء من صحابته الكبار.

قيل لطاووس: لزممت هذا الغلام - يعني ابن عباس لكونه أصغر الصحابة يومذاك - وتركتم الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ؟ قال: إني رأيت سبعين رجلاً من أصحاب رسول الله، إذا تدارؤوا في أمر، صاروا إلى قول ابن عباس.

و عن عبيد الله بن علي بن أبي رافع، قال: كان ابن عباس يأتي جدِّي أبا رافع، فيسأله عما صنع النبي ﷺ يوم كذا، ومعه من يكتب له ما يقول.

قال مسروق بن الأجدع: كنت إذا رأيت ابن عباس قلت: أجمل الناس، فإذا نطق قلت: أفصح الناس، فإذا تحدّث قلت: أعلم الناس.

و قال أبو بكر: قدم علينا ابن عباس البصرة، وما في العرب مثله حشماً، وعلماً، و تيباً، وجمالاً، وكمالاً.

و قد لقّب جبر الأُمّة، والبحر؛ لكثرة علمه، و ترجمان القرآن، و ربّاني هذه الأُمّة؛ لاضطلاع به بمعاني القرآن ووجوه السنّة والأحكام.

و له مواقف مشهودة مع أمير المؤمنين عليه السلام في جميع حروبه: صفّين، والجمل، والنهر و... مات بالطائف سنة (٦٨ هـ) وقد ناهز السبعين، وصلى عليه محمّد بن الحنفية.

روى أبو عمرو ومحمّد بن عمر بن عبد العزيز الكشيّ بإسناده إلى عبد الله بن عبد ياليل - رجل من أهل الطائف - قال: أتينا ابن عباس عليه السلام نعوّده في مرضه الذي مات فيه، فأغمي عليه فأخرج إلى صحن الدار، فأفاق، وقال كلمته الأخيرة: إن رسول الله ﷺ أنبأني أنّي سأهجر هجرتين: فهجرة مع رسول الله ﷺ، وهجرة مع عليّ عليه السلام. وأمرني أن أبرأ من خمسة: من الناكثين؛ وهم أصحاب الجمل، ومن القاسطين؛ وهم أصحاب الشام، ومن

الخوارج؛ وهم أهل النهروان، ومن القدرية، ومن المرجئة. ثم قال: «اللهم إني أحيا على ما حيي عليه علي بن أبي طالب، وأموت على ما مات عليه علي بن أبي طالب، ثم مات ﷺ».

و هذا الذي رواه الكشي عن رجل من أهل الطائف (عبد الله بن عبد ياليل)، رواه أبو القاسم علي بن محمد الخزاز الرازي - من وجوه العلماء في القرن الرابع - في كتابه كفاية الأثر - بصورة أوسع -، بإسناده إلى عطاء، قال: دخلنا على عبد الله ابن عباس وهو عليل بالطائف، في العلة التي تُوفي فيها - ونحن زهاء ثلاثين رجلاً من شيوخ الطائف - وقد ضعف، فسلمنا عليه وجلسنا، فقال لي: يا عطاء، من القوم؟ قلت: يا سيدي، هم شيوخ هذا البلد؛ منهم عبد الله بن سلمة بن حصرم الطائفي، و عمارة بن أبي الأجلح، و ثابت بن مالك. فما زلتُ أعدله واحداً بعد واحدٍ. ثم تقدموا إليه، فقالوا: يا ابن عم رسول الله، إنك رأيت رسول الله و سمعت منه ما سمعت، فأخبرنا عن اختلاف هذه الأمة؛ فقوم قدموا علينا على غيره، و قوم جعلوه بعد الثلاثة؟ قال عطاء: فتشس ابن عباس الصعداء، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «علي مع الحق و الحق معه، و هو الإمام و الخليفة من بعدي، فمن تمسك به فاز و نجا، و من تخلف عنه ضل و غوى...»، و أخيراً قال: و تمسكوا بالعمرة الوتقى من عمرة نبيكم، فإنني سمعته يقول: «من تمسك بعترتي من بعدي كان من الفائزين».

قال عطاء: ثم بعد ما تفرق القوم، قال لي: يا عطاء، خذ بيدي و احملني إلى صحن الدار، فأخذنا بيده، أنا و سعيد، و حملناه إلى صحن الدار، ثم رفع يديه إلى السماء، و قال: «اللهم إني أتقرب إليك بمحمد و آل محمد، اللهم إني أتقرب إليك بولاية الشيخ، علي بن أبي طالب (عليه السلام)». فما زال يكررها حتى وقع إلى الأرض. فقصبرنا عليه ساعة ثم أقمناه فإذا هو ميت، رحمة الله عليه.

١. اختيار معرفة الرجال للكشي: ج ١، ص ٣٧٦ و ٣٧٧؛ رقم ١٠٦.

٢. كفاية الأثر للرازي: ص ٣٩٠-٣٩١؛ بحار الأنوار: ج ٣٦، ص ٣٨٧-٣٨٨؛ رقم ١٠٩.

* * *

وله في فضائل أهل البيت ولا سيما الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أقوال وآثار باقية، إلى جنب مواقفه الحاسمة. ويكفيك أنه من رواية حديث الغدير الناص على ولاية علي بالأمير، ومفسراً له بالخلافة والوصاية بعد الرسول ﷺ، مصراً على ذلك. أخرج الحافظ السجستاني بإسناده إلى ابن عباس، قال: «وجبت والله في أعناق القوم...»^١.

و أمّا مواقفه بشأن الدفاع عن حريم أهل البيت فكثير. وأخيراً فإنه هو القائل: «إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب الذي كان فيه فصل الخطاب. وأيضاً قوله: «يوم الخميس، وما يوم الخميس»^٢. ثم بكى حتى بلّ دمعته الحصى، إلى غير ذلك ممّا لا يحصى^٣. الأمر الذي ينبؤك عن مدى صلته بهذا البيت الرفيع، ومبلغ ولائه وعرفائه بشأن آل الرسول صلوات الله عليهم أجمعين^٤.

و من ثمّ كان الأئمة من ذرية الرسول ﷺ يحبّونه حبّاً جماً ويعظّمون من قدره ويشيدون بذكره. روى المنيد في كتاب الاختصاص بإسناده إلى الإمام أبي عبد الله

١. راجع: الغدير، ج ١، ص ٤٩-٥٢، رقم ٨٦.

٢. من ذلك ما قصه الشاعر الجعفي أبو محمد سفيان بن مصعب العبدي الكوفي، في القصيدة رداً على الإلزام أبا عبد الله الحسين سيد الشهداء عليه السلام، استشهد إياها الإلزام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، قال فيها:

و قد روى عكرمة في خبر	ما شك فيه أحد ولا استرا
من ابن عباس على قوم وقد	سبوا علياً فاستراح وبكا
و قال مغتماً لهم: أنكم	سب آل الحق حين وعدنا
قالوا: سعاد الله، قال: أنكم	سب رسول الله حملاً واجترأنا
قالوا: سعاد الله، قال: أنكم	سب علياً غير من وجن الحصا
قالوا: نعم، قد كان ذا، فقال: قد	سمعت والله النبي المجتبى
يقول: من سب علياً سبني	و سبني سب الإله، واكتفى

(الغدير، ج ٢، ص ٣٩٤-٣٩٥)

٣. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٢، ص ٥٤-٥٥.

٤. راجع: بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٤٣ و ٢٨٥، ج ١، ص ١٤، ص ١٨-١٦.

الصادق عليه السلام، قال: كان أبي (الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام) يحبّه (أي ابن عباس) حباً شديداً. وكان أبي، وهو غلام، تلبسه أمّه ثياباً، فينطلق في غلمان بني عبد المطلب، فأتاه (أي ابن عباس) بعد ما أُصيب بصره، فقال: من أنت؟ قال: أنا محمد بن علي بن الحسين بن علي، فقال: حسبك، من لم يَعْرِفْكَ فلا عَرَفُكَ، أي يكفي نبي أعرفك من أنت.

كانت ولادة الإمام أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام، سنة (٦٠ هـ). على قول راجح^١، قبل واقعة الطف (٦١ هـ). سنة. وقد كُفّ بصر ابن عباس بعد واقعة الطف؛ لكثرة بكائه على مصائب أهل البيت عليه السلام^٢. وفي رواية: أنه كُفّ بصره قبل وفاته سنة^٣، وكانت وفاته عام (٦٨ هـ). وعليه - إن صحّت الرواية - فقد كانت سنّ الإمام أبي جعفر حينذاك بين السادسة والسابعة.

قال العلامة - في الخلاصة -: عبد الله بن العباس من أصحاب رسول الله ﷺ، كان محباً لعلي عليه السلام وتلميذه - حاله في الجلالة والإخلاص لأمر المؤمنين أشهر من أن يخفى. وقد ذكر الكشي أحاديث تتضمن قدحاً فيه، وهو أجل من ذلك.

وقد حمل السيّد ابن طاووس - في التحرير الطاووسي - ما ورد في جرحه بعد تضعيف الإسناد - على الحسد، قد حذر من الحسد بين الحاقدين عليه، قال: ومثل جبر الأئمة - رضوان الله عليهم - موضع أن يحسده الناس وينافسوه، ويقولوا فيه ويباهتوه.

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا فضله فالناس أعداء له وخصوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسداً وبغياً؛ إنه لذميم^٤

وقد بحث الأئمة النقاد عن روايات القدح، ولا سيما ما قيل بشأنه من الهروب ببيت مال البصرة، وما ورد من التعنيف لفعله ذلك، فاستخرجوا في نهاية المطاف من ذلك دلائل الوضع والاختلاق بشأن هذا العبد الصالح الموالي لأهل بيت الرسول. نعم، كان

١. المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٨١، رقم ٣٥.

٢. تهذيب التهذيب لأبن حجر، ج ٩، ص ٣٥١.

٣. بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٠٥ (سعد السعود، ص ٣٨٥).

٤. سفينة البحار، ج ٢، ص ١٥١.

٥. التحرير الطاووسي، ص ٣١٣.

الرجل ممقوتاً عند رجال السلطة الحاكمة، لا سيما وكان يجابهم بما يخشون صراحته وصرامته، ومن ثم كان طاعية العرب معاوية الهاوية، يلغنه ضمن النثر الخمسة الذين كان يلغهم في قوته، وكان ذلك من شدة قنوطه من رحمة الله التي وسعت كل شيء، أنه من قوم غضب الله عليهم قد يسوا من الآخرة كما يس الكفار من أصحاب القبور^١.

و للمولى محمد تقي التستري^(رحمته الله) تحقيق لطيف بشأن براءة الرجل من إصاق هكذا تهم مفضوحة، وأنه لم يزل في خدمة المولى أمير المؤمنين^(عليه السلام) لم يرح البصرة حتى قُتل الإمام^(عليه السلام). وكان من المعترضين لبيعة الإمام الحسن المجتبي^(عليه السلام). وبعد أن تم الصلح اضطر إلى المغادرة إلى بيت الله الحرام حتى توفاه الله، عليه رضوان الله^٢.

و لسيدنا الأستاذ العلامة الفاني -رحمة الله عليه- رسالة وجيزة في براءة الرجل، استوفى فيها الكلام بشأنه، جزاه الله خيراً عن الحق وأهله^٣.

توَّعه في التفسير

و لم تمض العشرة الأولى من وفاة الرسول^(صلى الله عليه وآله وسلم) إلا ونرى ابن عباس قد تفرغ للتفسير واستنباط معاني القرآن^٤ بمساعدة سائر الصحابة كانت قد أشغلتهم شؤون شتى، مما يرجع إلى جمع القرآن أو إقرائه، أو تعليم السنن والتضاء بين الناس، أو التصدي لسياسة البلاد، وما شاكل. وإذا باين عباس نراه صارفاً همته في فهم القرآن وتعليمه واستنباط معانيه وبيانه، مستعاضاً بذلك عما فاتته أيام حياة الرسول^(صلى الله عليه وآله وسلم) لمكان صغره وعدم كفاءته ذلك الحين. فكان يستطرق أبواب العلماء من الصحابة الكبار، كاذاً وجاداً في طلب العلم من أهله أينما وجدته، ولا سيما من الإمام أمير المؤمنين باب علم النبي^(صلى الله عليه وآله وسلم)، كما لم يفته عقد حلقات في مسجد النبي^(صلى الله عليه وآله وسلم) لمدرسة علوم القرآن ومعارفه ونشر

١. وهم: علي بن الحسين بن عباس والأشتر. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٥، ص ٢٠٨. راجع: بحار الأنوار، ج ٤، ص ١٧٦ (ط بيروت).
٢. من الآية رقم ١٣ من سورة الممتحنة.
٣. قاموس الرجال، ج ٦، ص ٦٥٠ (ط الأولى).
٤. طُبعت في قم المقدسة سنة (١٣٩٨ هـ ق).
٥. كما قال الزركشي: (وهو تجرد لهذا الشأن) (البرهان في علوم القرآن، ج ٢، ص ١٥٧).

تعاليم الإسلام من أفخم بؤرته، القرآن. ويقال: إن ذلك كان بأمر من الإمام أمير المؤمنين عليه السلام؛ وبذلك فقد تحقق بشأنه دعاء الرسول: «اللهم بارك فيه ونشر منه».

* * *

لكن بموازاة انتشار العلم منه في الآفاق، راج الوضع على لسانه، لمكان شهرته ومعرفته في التفسير. ومن ثم فإن التشكيك في أكثر المأثور عنه أمر محتمل. قال الأستاذ الذهبي: روي عن ابن عباس في التفسير ما لا يحصى كثرة، وتعددت الروايات عنه، واختلفت طرقها. فلا تكاد تجد آية من كتاب الله إلا ولابن عباس فيها قول مأثور أو أقوال، الأمر الذي جعل نقاد الأثر ورواة الحديث ينفقون إزاء هذه الروايات - التي جاوزت الحد - وقفة المراتب ^١.

قال جلال الدين السيوطي: ورأيت في كتاب فضائل الإمام الشافعي، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن شاكر التتطان، أنه أخرج بسنده من طريق ابن عبد الحكم، قال: سمعت الشافعي يقول: لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيه مائة حديث ^٢.

وذكر ابن حجر العسقلاني: أن البخاري لم يخرج من أحاديث ابن عباس، في التفسير وغيره، سوى مائتين وسبعة عشر حديثاً، بينما ذكر أن ما أخرجه من أحاديث أبي هريرة الدوسي، يبلغ أربع مائة وستة وأربعين حديثاً ^٣.

غير أن معرفته الفائقة في التفسير، وأن الخريجين من مدرسته جعلته في قمة علوم التفسير. وهذا المأثور الضخم من التفسير الوارد عنه أو عن أحد تلامذته المعروفين - وهم كثرة عدد نجوم السماء - لمّا يفرض من مقامه الرفيع في إعلاء ذروة التفسير. منه يصدر وعنه كل مأثور في هذا الباب.

ولقد كان موضع عناية الأمة، ولا سيما الكبار والأئمة، من الصحابة ومن عاصره

١. حدثني بذلك السيد محمد باقر الأنصاري عن المرحوم زعيم الأمة في وقته السيد آغا حسين البروجردی رحمته الله.

٢. التفسير والمفسرون، ج ١، ص ٧٧. ٣. الإفتان، ج ٤، ص ٢٠٩.

٤. مقدمة فتح الباري، ص ٤٧٦-٤٧٧.

وَمَنْ لِحَقِّهِ عَلَى مَدَى الْأَحْقَابِ. فَمَا أَكْثَرَ مَا يَدُورُ اسْمُهُ فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ عَلَى اخْتِلَافِ مَبَانِيهَا وَمَنَاجِجِهَا، وَتَنَوُّعِ مَسَالِكِهَا وَمَنَازِعِهَا فِي السِّيَاسَةِ وَالْمَذْهَبِ.
قَالَ الْمَدْكُتُورُ الصَّادِقِيُّ: وَلَعَلَّ فِي كَثْرَةِ مَا وُضِعَ وَنُسِبَ إِلَيْهِ آيَةً عَلَى تَقْدِيرِ لَهُ وَإِكْبَارٍ
مِنَ الْوَضَّاعِ، وَرَغْبَةٍ فِي تَثْنِ بَضَاعَتِهِمْ، مَوْسُومَةً بِمَنْ فِي اسْمِهِ الرُّوَّاحُ الْعِلْمِيُّ ١.

منهجه في التفسير

كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ تَلْمِيزَ الْإِمَامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (ع)، وَمِنْهُ أَخَذَ الْعِلْمَ وَتَلَقَّى التَّفْسِيرَ، سِوَاهُ
فِي أُصُولِ مَبَانِيهِ أَمْ فِي فُرُوعِ مَعَانِيهِ، فَقَدْ سَارَ عَلَى مَنَهِجِ مُسْتَقِيمٍ فِي اسْتِنْبَاطِ مَعَانِي الْقُرْآنِ
الْحَكِيمِ.

إِنَّهُ لَمْ يَحْدُثْ عَنْ مَنَهِجِ السَّلَفِ الصَّالِحِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ وَفَهْمِ مَعَانِي كِتَابِ اللَّهِ الْعَزِيزِ
الْحَمِيدِ، ذَلِكَ الْمَنَهِجُ الَّذِي رَسَتْ قَوَاعِدُهُ عَلَى أُسُسٍ قَوِيْمَةٍ وَمَبَانٍ حَكِيمَةٍ.
وَقَدْ حَدَّثَ ابْنُ عَبَّاسٍ مَعَالِمَ مَنَهِجِهِ فِي التَّفْسِيرِ بِقَوْلِهِ: «التَّفْسِيرُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَوَاجِدَ: وَجْهٌ
تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ كَلَامِهَا، وَتَفْسِيرٌ لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهَالَتِهِ، وَتَفْسِيرٌ يَعْلَمُهُ الْعُلَمَاءُ، وَتَفْسِيرٌ
لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ» ٢.

وَقَدْ فَسَّرَتْهُ رِوَايَةٌ أُخْرَى عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أُنْزِلَ الْقُرْآنُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَحْرَفٍ:
حَلَالٌ وَحَرَامٌ لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِالْجَهَالَةِ بِهِ، وَتَفْسِيرٌ تَفْسَّرُهُ الْعَرَبُ، وَتَفْسِيرٌ تَفْسَّرُهُ الْعُلَمَاءُ،
وَمُتَشَابِهٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ...» ٣.

فَالْقُرْآنُ، فِيهِ مَوَاعِظٌ وَآدَابٌ وَتَكَالِيفٌ وَأَحْكَامٌ، يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ عَامَّةٍ الْمَعْرِفَةُ
بِهَا وَالْعَمَلُ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّهَا دَسْتُورُ الشَّرِيعَةِ الْعَامَّةِ. فَهَذَا يَجِبُ تَعْلِيمُهُ وَتَعَلُّمُهُ، وَلَا يُعْذَرُ أَحَدٌ
بِجَهَالَتِهِ.

وَفِيهِ أَيْضاً غَرِيبُ اللُّغَةِ وَمَشْكَلُهَا، مِمَّا يُمْكِنُ فَهْمُهَا وَحُلُّ مُعْضِلِهَا، بِمَرَاجَعَةِ الْفَصِيحِ

١. تفسير الصيرفي: ج ١، ص ٢٦.

٢. مناهج في التفسير للصاوي: ص ٤١.

٣. المصدر نفسه.

من كلام العرب الأوائل؛ لأن القرآن نزل بلغتهم، وعلى أساليب كلامهم المعروف.
 وفيه أيضاً نكات ودقائق عن مسائل المبدأ والمعاد، وعن فلسفة الوجود وأسرار
 الحياة، لا يبلغ كثرتها ولا يعرفها على حقيقتها غير أولي العلم، ممن وقفوا على أصول
 المعارف، وتمكنوا من دلائل العقل والنقل الصحيح.
 وبقي من المتشابه ما لا يعلمه إلا الله، إن أُريد به الحروف المقطعة في أوائل السور؛
 حيث هي رموز بين الله ورسوله، لم يُطلع الله عليها أحدٌ من العباد سوى النبي والصفوة
 من آله؛ علمهم إياها رسول الله ﷺ.
 وإن أُريد به ما سوى ذلك ممّا وقع متشابهاً من الآيات، فإنه لا يعلم تأويلها إلا الله
 والراسخون في العلم، وهم رسول الله والعلماء الذين استقوا من منهل عذبة الثرات، لا سبيل
 إلى معرفتها عن غير طريق الوحي. فالعلم به خاص بالله ومن ارتضاه من صنوة خلقه.



وعلى ضوء هذا التقسيم الرباعي يمكننا الوقوف على مباني التفسير التي استند بها ابن
 عباس في تفسيره العريض:

مرآة حقائق علوم أسدي

أولاً: مراجعة ذات القرآن في فهم مراداته

إذ خير دليل على مراد نبيّ متكلم، هي القرائن اللفظية التي تحفّ كلامه، والتي جعلها
 مسانيد نطقه وبيانه، وقد قيل: للمتكلّم أن يلحق بكلامه ما شاء ما دام متكلماً، هذا في
 القرائن المتصلة. وكثيراً ما يعتمد المتكلمون على قرائن منفصلة من دلائل العقل أو
 الأعراف الخاصة، أو ينصب في كلام آخر له ما يفسّر مراده من كلام سبق، كما في العموم
 والخصوص، والإطلاق والتقييد، وهكذا...

فلو عرفنا من عادة متكلم اعتماداً على قرائن منفصلة، ليس لنا حمل كلامه على
 ظاهره البدائي، قبل الفحص واليأس عن صوارفه.

والقرآن من هذا القبيل، فيه من العموم ما كان تخصيصه في بيان آخر، وهكذا تقييد

مطلقاته و سائر الصوارف الكلامية المعروفة. وليس لأي مفسر أن يأخذ بظاهر آية ما لم يفحص عن صوارفها و سائر بيانات القرآن التي جاءت في غير آية، و لا سيما و القرآن قد يكثر من بيان حكم أو حادثة و يختلف بيانه حسب الموارد، و من ثم يصلح كل واحد دليلاً و كاشفاً لما أبهم في مكان آخر.

و هكذا نرى مفسرنا العظيم، عبد الله بن عباس، يجري على هذا المنوال، و هو أمتن المجاري لفهم معاني القرآن، و مقدم على سائر الدلائل اللغوية و المعنوية. فلم يغفل النظر إلى القرآن الكريم نفسه، في توضيح كثير من الآيات التي خفي المراد منها في موضع، ثم وردت بشيء من التوضيح في موضع آخر. شأنه في ذلك شأن سائر المفسرين الأوائل، الذين ساروا على هدى الرسول ﷺ.

فمن هذا القبيل ما رواه السيوطي بأسانيده إلى ابن عباس، في قوله تعالى: «قَالُوا رَبُّنَا أَمُنَّا اثْنَيْنِ وَ أَحْيَيْنَا اثْنَيْنِ...» قال: كنتم أمواتاً قبل أن يخلقكم؛ فهذه ميتة، ثم أحياكم؛ فهذه حياة، ثم يميتكم فترجعون إلى القبور؛ فهذه ميتة أخرى، ثم يعثكم يوم القيامة؛ فهذه حياة. فهما ميتتان و حياتان، فهو كقوله تعالى: «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ كُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِنَّكُمْ لَعُودُونَ»، و هكذا أخرج عن ابن مسعود و أبي مالك و قتادة أيضاً^٢.

* * *

ثانياً: رعايته لأسباب النزول

و لأسباب النزول دورها الخطير في فهم معاني القرآن؛ حيث الآيات و السور نزلت نجوماً، و في فترات و شؤون يختلف بعضها عن بعض. فإذا كانت الآية تنزل لمناسبة خاصة و لعلاج حادثة وقعت لوقتها، فإنها حينذاك ترتبط معها ارتباطاً وثيقاً. و لولا

٢. البقرة (٢) : ٢٨.

١. غافر (٤٠) : ١١.

٣. الدر المنثور، ج ٥، ص ٣٤٧، راجع: تفسير العبري، ج ٢٤، ص ٣١.

الوقوف على تلك المناسبة، لما أمكن فهم مرامي الآية بالذات، فلا بدّ لدارس معاني القرآن أن يراعي قبل كلّ شيء شأن نزول كلّ آية آية، ويهتمّ بأسباب نزولها، هذا إذا كان لنزولها شأن خاصّ، فلا بدّ من النظر والنحص.

و هكذا اهتمّ جبر الأمة بهذا الجانب، واعتمد كثيراً لفهم معاني القرآن على معرفة أسباب نزولها، وكان يسأل ويستقصي عن الأسباب والأشخاص الذين نزل فيهم قرآن وسائر ما يمسّ شأن النزول، وهذا من امتياز الخصاص الموجب لبراعته في التفسير. وقد مرّ حديث إتيانه أبواب الصحابة يسألهم الحديث عن رسول الله ﷺ: «كان حريصاً على طلب العلم ومنهوماً لا يشيع».

من ذلك ما رواه جماعة كبيرة من أصحاب الحديث، بإسنادهم إلى ابن عباس، قال: لم نزل حريصاً أن أسأل عمر عن المرأة من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى بشأنهما «إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا»^٢ حتّى حجّ عمر وحججت معه، فلمّا كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالأداة، فتبرّزتم أتمّ، فصبيت على يديه فتوحناً، فقلت: يا أمير المؤمنين، من المرأة من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله: «إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا»؟ فقال: وا عجباً لك يا ابن عباس! هما: عائشة وحفصة^٣.

و في تفسير القرطبي، قال ابن عباس: مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر عن المرأة من اللتين تظاهرتا على النبي ﷺ ما يمنعني إلا مهابته، فسألته، فقال: هما حفصة وعائشة^٤. ولقد بلغ في ذلك الغاية، حتّى لنجد اسمه يدور كثيراً في أقدم مرجع بين أيدينا عن سبب النزول، وهو سيرة ابن إسحاق التي جاء تلخيصها في سيرة ابن هشام.

قال: وكان ابن عباس يقول: فيما بلغني نزل في النضر بن حارث تمانى آيات من القرآن: قول الله عزّ وجلّ: «إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالُوا سَاطِرُ الْأَوَّلِينَ»^٥، وكلّ ما ذكر فيه من

٢. التحريم (٦٦): ٤.

١. الإصابة، ج ٢، ص ٣٣٦-٣٣٧.

٣. تفسير القرطبي، ج ١، ص ٢٦٦.

٤. الدر المنثور، ج ٦، ص ٢٤٣.

٥. القصص (٦٨): ١٥.

الأساطير من القرآن ١

قال: وحدثت عن ابن عباس أنه قال - وسرد قصة سؤال أخبار اليهود النبي ﷺ عند مقدمه المدينة - : أنزل الله عليه فيما سأله عنه من ذلك: «وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ...» ١.

قال: وأنزل الله تعالى عليه فيما سأله قومه من تفسير الجبال: «وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ...» ٢.

قال: وأنزل عليه في قولهم: خذ لنفسك: «وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ...» ٣، وأنزل عليه في ذلك من قولهم: «وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَبَاءُكُلُونَ الطَّعَامِ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ...» ٤، وكذا في قوله تعالى: «وَلَا تُجْهَرُ بِضَلَّاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا...» ٥: إنما أنزلت من أجل أولئك النفر... ٦ وهكذا يتابع ذكر أسباب نزول آيات، وفي الأكثر يسندها إلى ابن عباس.

وقد برع ابن عباس في هذه الناحية من نواحي أدوات التفسير، حتى كان يخلص أي القرآن المدني من المكّي. فقد سأل أبو عمرو ابن العلاء مجاهدًا عن تلخيص أي القرآن المدني من المكّي، فقال: سألت ابن عباس عن ذلك، فجعل ابن عباس يفصلها له. وهكذا نجد ابن عباس بدوره قد سأل أبي بن كعب عن ذلك ٧.

كما تقصّى أسباب النزول فأحسن التقصّي، فكان يعرف الحضري من السفري، والنهاري من الليلي، وفيهم أنزل، وفيهم أنزل، ومتى أنزل، وأين أنزل، وأول ما نزل، وآخر ما نزل، وهلم جرا ٨، مما يدل على براعته ونبوغه في تفسير القرآن.

١. السيرة النبوية لابن هشام: ج ١، ص ٣٢١. فكرر لفظ «الأساطير» في سبع سور مكّيّة: الأنعام (٦)، الأعراف (٨)،

٣٨ النحل (١٦)، ٢٤ المؤمنون (٣٣)، ٨٣ الفرقان (٢٥)، ٥٠ الشمس (٢٧)، ٦٨ الأحقاف (٤٦)، ٨٧ القصص (١٨)،

١٥ والمطففين (٨٣)، ٨٣.

٢. الرعد (١٣): ٣١.

٣. الفرقان (٢٥): ٨.

٤. الإسراء (١٧): ٨٠.

٥. راجع: السيرة النبوية، ج ١، ص ٣٣٠ و ٣٣٥.

٦. راجع: الإيمان، ج ١، ص ٣٤ و ٣٦.

٧. المصدر نفسه: ص ٥٦٠، ٥٦١ و ٧٠ و ٧١ و ٧٤ و ٧٧ وغير ذلك.

* * *

ثالثاً: اعتماده المأثور من التفسير المروي

اعتمد ابن عباس في تفسيره على المأثور عن النبي ﷺ والطيبين من آلِه والمنتجبين من أصحابه. وقد أسلفنا تتبعه عن آثار الرسول وأحاديثه. كان يستطرق أبواب الصحابة العلماء، ليأخذ منهم ما حفظوه من سنة النبي وسيرته الكريمة. وقد جدَّ في ذلك واجتهد مبلغ سعيه وراء طلب العلم والفضيلة، حتى بلغ أقصاها. وقد سئل: أنى أدركت هذا العلم؟ فقال: بلسانِ سؤول وقلب عقول^١.

هو حينما يقول: «جُلَّ ما تعلَّمت من التفسير من علي بن أبي طالب عليه السلام»، أو «ما أخذت من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب»،^٢ إنما يعني اعتماده المأثور من التفسير، إذا كان الأثر صحيحاً صادراً من منبع وثيق.

وهكذا عند ما كان يأتي أبواب الصحابة بغيَّة العثور على أقوال الرسول في مختلف شؤون الدين ومنها المأثور عنه في التفسير، إنَّ ذلك كدِّه لدليل على مبلغ اعتماده على المنقول صحيحاً من التفسير.

مرکز تحقیق و ترویج علوم و معارف

فهو عند كلامه الآنف إنما يلقي الضوء على تفاسيره بالذات، ونها من النمط النقلي في أكثره، وإن كان لا يصرِّح به في الموارد، بعد إعطاء تلك الكليَّة العامَّة.

* * *

رابعاً: اضطلَّاعه بالأدب الرفيع

لا شك أن القرآن نزل بالفصحى من لغة العرب، سواء في موادِّ كلماته أم في هينات الكلم وحركاتها الينائية والإعرابية، اختار الأ فصيح الأ فشى في اللغة دون الشاذ النادر. وحتى من لغات القبائل اختار المعروف المألوف بينهم دون الغريب المنفور. فما أشكل

١. التصحيف والتحريف لأبي أحمد حسن بن عبد الله العسكري: ص ٣.

٢. سعد السعود: ص ٣٨٥. ٣. التفسير والمفسرون: ج ١، ص ٨٩ و ٩٠.

من فهم معاني كلماته، لا بدّ لحملها من مراجعة النصيح من كلام العرب المعاصر لنزول القرآن؛ حيث نزل بلغتهم وعلى أساليب كلامهم المألوف.

و هكذا نجد ابن عباس يرجع، عند مبهمات القرآن وما أُشكل من لفظه، إلى فصيح الشعر الجاهلي، والبديع من كلامهم الرفيع. وكان استشاده بالشعر إنما جاءه من قبل ثقافته الأدبية واضطلاعه باللغة وفصيح الكلام. وفي تاريخ الأدب العربي آنذاك شواهد رائعة تُشيد بنوعه ومكانته السامية في العلم والأدب. وساعده على ذلك ذكاء مُفَرِّط وحافظة قويّة لا تقطع، كان لا يسمع شيئاً إلا وكان يحفظه بكامله لوقته.

يروى أبو الفرج الأصبهاني بإسناده إلى عمر الرّكّاء، قال: بينا ابن عباس في المسجد الحرام وعنده نافع بن الأزرق (رأس الأزارقة من الخوارج) وناس من الخوارج يسألونه؛ إذ أقبل عمر بن أبي ربيعة في توبين مصبوغين مورّدين أو ممصّرين^١ حتى دخل وجلس. فأقبل عليه ابن عباس فقال: أنشدنا، فأنشده:

أَمِنْ آلِ نَعْمَ أَنْتَ غَادٍ فَمُبَكَّرٌ غَدَاةً غَدٍ أَمْ رَائِحٌ فَمُهْجَرٌ؟
حتى أتى على آخرها فأقبل عليه نافع بن الأزرق، فقال: الله يا ابن عباس! إنا نضرب إليك أكباد الإبل من أقاصي البلاد نسألك عن الحلال والحرام فتتناقل عدّاً، ويأتيك غلام مُتَرَفٌ من مترفي قريش فينشدك:

رَأَتْ رَجُلًا أَمَّا إِذَا الشَّمْسُ عَارَضَتْ فَيَخْزِي وَأَمَّا بِالْعَشِيِّ فَيَخْسِرُ
فقال: ليس هكذا قال. قال: فكيف قال؟ فقال: قال:
رَأَتْ رَجُلًا أَمَّا إِذَا الشَّمْسُ عَارَضَتْ فَيُضْحِي وَأَمَّا بِالْعَشِيِّ فَيَحْصِرُ
فقال: ما أراك إلا وقد حفظت البيت! قال: أجل! وإن شئت أن أنشدك القصيدة أنشدتك إياها. قال: فأني أشاء. فأنشده القصيدة حتى أتى على آخرها. وما سمعها قط إلا تلك المرأة صفحاً، وهذا غاية الذكاء.

١. قوب ممصّر: مصبوغ بالون الأحمر؛ وفيه شيء من سفرة.

٢. أي مزيّناً وقرصاً.

فقال له بعضهم: ما رأيت أذكى منك قط! فقال: ولكني ما رأيت قط أذكى من علي بن أبي طالب (عليه السلام).

وكان ابن عباس يقول: ما سمعت شيئاً قط إلا روئته. ثم أقبل على ابن أبي ربيعة، فقال: أنشد، فأنشده:

تشطُّ غداً دارُ جيراننا... وسكت.

فقال ابن عباس: والمدارُ بعد غداً أبعد.

فقال له عمر: كذلك قلت - أصلحك الله - أسمعته؟ قال: لا، ولكن كذلك ينبغي!! وهذا غاية في الفطنة والمذكاء، مضافاً إليه الذوق الأدبي الرفيع. وهو الذي كان يحفظ خطب الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) الرثانة فور استماعها، فكان راوية الإمام في خطبه و سائر مقالاته.



وكان ذوقه الأدبي الرفيع و ثقافته اللغوية العالية، هو الذي حدا به إلى استخدام هذه الأداة ببراعة، حينما ينسّر القرآن ويشرح من غريب لفظه. كان يقول: الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن، الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها، فالتمسنا معرفة ذلك منه.

وأخرج ابن الأثيري من طريق عكرمة عن ابن عباس، قال: إذا سألتموني عن غريب القرآن، فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب.^١

وأخرج الطبري من طريق سعيد بن جبير - في تفسير قوله تعالى: «وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ»^٢ - عن ابن عباس، وقد سئل عن الحرج، قال: إذا تعاجم شيء من القرآن فانظروا في الشعر، فإن الشعر عربي. ثم دعا أعرابياً فقال: ما الحرج؟ قال: الضيق. قال ابن

١. الأغلاني لأبي الفرج الأسيدي: ج ١، ص ٨١-٨٣.

٢. الحج (٣٢) ٨٨.

٣. الإفتاح: ج ٣، ص ٥٥.

عبّاس: صدقت^١.

وكان إذا سئل عن القرآن، في غريب ألفاظه، أنشد فيه شعراً. قال أبو عبيد: يعني كان يستشهد به على التفسير.

قال ابن الأثيري: وقد جاء عن الصحابة والتابعين كثيراً، الاحتجاج على غريب القرآن ومشكله بالشعر، قال: ونكر جماعة - لا علم لهم - على النحويين ذلك، وقالوا: إذا فعلتم ذلك جعلتم الشعر أصلاً للقرآن. وليس الأمر كما زعموا، بل المراد تبين الحرف الغريب من القرآن بالشعر؛ لأنه تعالى يقول: «إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا»^٢، وقال: «وَهَذَا نِسَانُ عَرَبِيٍّ مُبِينٌ»^٣.

مسائل ابن الأزرق

ولعل أوسع ما أثر عن ابن عباس في هذا الباب هي مسائل نافع بن الأزرق الخارجي^٤، جاء ليسأل جبر الأمة تعيناً لا تفهماً. وكان متيناً للعريضة وأمير قومه وفتيهم، فحاول إفحام مثل ابن عباس استفهاماً لمذهبه. والقصة كما رواها السيوطي في الانتقاظ، فيها شيء من الغرابة، ولعل فيها زيادةً وتحريفاً، غير أنها على كل حال تحدد من اتجاه ابن عباس اللغوي في التفسير، واضطلاعه بالأدب الرفيع.

قال جلال الدين السيوطي: قد روي عن ابن عباس كثيراً من استشهاده بالشعر لحل غريب القرآن، وأوعب ما رويناه عنه مسائل ابن الأزرق - وساقها تماماً حسب استخراجها من كتاب الوقف لابن الأثيري، والمعجم الكبير للطبراني^٥ - ولنذكر منها طرفاً: قال بينا عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة، قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير

٢. الزعفران (٤٣): ٣.

١. تفسير العبري، ج ١٧، ص ٨٤٣.

٣. النحل (١٦): ١٠٣، الإقذان، ج ٢، ص ٥٥.

٤. نافع بن الأزرق الحنفي الحروري، رأس الأزارقة من الخوارج وإليه ذهبهم. هك سنة (٦٥ هـ).

٥. راجع: الإقذان، ج ٢، ص ٥٦-٨٨.

القرآن، وإذا بنافع بن الأزرق قال لنجدة بن عويمر^١: قم بنا إلى هذا الذي يجترئ على تفسير القرآن بما لا علم له به، فأثياه وقالوا: نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله، فتفسرها لنا، وتأتينا بمصادقة من كلام العرب، فإن الله إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين. قال ابن عباس: سلاني عما بدا لكما.

فسأله نافع عن قوله تعالى: «عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ»^٢، قال: العزون: الحلق الرقاق. قال نافع: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول:

فجأؤوا يهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزيما

قال الراغب: عزون، واحده عزة، وأصله من: عزوته فاعتزى، أي نسبته فانتسب. وقال الطبرسي: عزون، جماعات في تفرقة، واحدهم عزة. وإنما جُمع بالواو والنون؛ لأنه عوض، مثل سنة وسنون. وأصل عزة عزوة من: عزاه يعزوه، إذا أضافه إلى غيره. فكل جماعة من هذه الجماعات مضافة إلى الأخرى^٣.

و سأله عن قوله: «إِذَا أُمِرَ وَيَنْعَم»^٤، قال: كُضجده وبلاغه. واستشهد بقول الشاعر:

إذا مشيت وسط النساء تأوَّدت كما اهتزَّ عُصن ناعم الثبت يانع^٥

و سأله عن «الْعُنْكَ الْمَشْحُونِ»^٦، قال: السفينة الموقرة الممتلئة. واستشهد بقول ابن الأبرص:

شحنًا أرضهم بالخيال حتى تركناهم أذل من الصراط^٧

و سأله عن «زُئِم»^٨، قال: ولد زنى. واستشهد بقول الخطيم التميمي:

زُئيم تداعته الرجال زيادةً كما زيد في عرض الأديم الأكارع^٩

١. نجدة بن عامر الحنفي الحروري؛ رأس الغزوة النجدية، كان من أصحاب: السورات ذلك العهد. هناك سنة

٢. المعارف (٧٠): ٣٧.

٣. مجمع البيان، ج ١، ص ٣٥٧.

٤. أولاد في قلوبهم: أعرج في الفصحى.

٥. شحن المدينة بالخيال: ملأها.

٦. القلم (٦٨): ١٣.

٧. تداعوا الشيء: ادفعوه. تداعى القوم: دعا بعضهم بعضاً. والأديم: وجه الأرض. وأكارع الأرض: أمراقها الداخلية.

قال الراغب: الزنيم: الزائد في القوم وليس منهم. وهو المنتسب إلى قوم هو معلق بهم لا منهم.

و سألته عن «جَدُّ رَبِّنَا»^١، قال: عظمة ربنا. واستشهد بقول أمية بن أبي الصلت:
لك الحمد والنعمة والملك ربنا فلا شيء أعلا منك جَدًّا وأمجدا
و كان يبحث عن لغات القبائل و يترصد أخبارهم، استطلاعا للغريب من ألفاظهم
الواقعة في القرآن، وكان إذا أشكل عليه فهم كلمة أرجأها حتى يتسمع قول الأعراب ليعتر
على معناها، طريقة متبعة لدى أهل التحقيق.

أخرج الطبري بإسناده إلى ابن أبي يزيد قال: سمعت ابن عباس، وهو يسأل عن قوله
تعالى: «ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ»^٢، قال: ما هاهنا من هذيل^٣ أحد؟ فقال رجل:
نعم، قال: ما تعدون الحرجة فيكم؟ قال: الشيء الضيق. قال ابن عباس: فهو كذلك^٤.

و أخرج من طريق قتادة عن ابن عباس، قال: لم أكن أدري ما «افتح بيننا وبين قومنا
بالحق»^٥ حتى سمعت ابنة ذي يزن تقول لزوجها: تعال أفاتحك، تعني أقاضيك^٦.

و أخرج أبو عبيد في الفضائل من طريق مجاهد عن ابن عباس، قال: كنت لا أدري ما

١. الجني (٧٣) ٣. ٢. الحج (٣٢) ٨٨.

٣. ثروي الأخبار أن هذيل كانت أحسن القبائل نقاةً وأوسعها في اللغة، ومن ثم فمضى عثمان -عند ما رفع إليه المصحف- ورأى فيه شيئا من الحسن. قال: لو كان المصنف من هذيل، والكاتب من نقيذ، لم يقع فيه هذا (مصحف السجستاني، ص ٣٣٣).

و يروي أن عمر قرأ على المنبر: «أَوْ بِالْحَدِّمْ عَلَى عُرُوفٍ» (النحل (١٦) ٤٧)، ولم يدرك ما معنى التعريف هذا فسأل القوم عن ذلك، فقام إليه شيخ من هذيل وقال: هذه لغتنا التعريف: التعص. فقال له عمر: أو هن تعرف العرب ذلك؟ قال الشيخ: نعم، يقول الشاعر:

تعروف الرحى منها فامكاً فرداً كما تعرف حمزة النجعة المنير

و المنير: الحديد الذي يترد بها خشب القوس، والقرد: الكبر القردان، والتارك: العقيم السدام، يقول: إن الرحى تُنقى سدام الناقة كما تاكل الحديد خشب القوس (فجر الإسلام، ص ١٩٦ عن الموافقات، ج ٢، ص ٥٧ و ٥٨ التفسير والمفسرون، ج ١، ص ٨٤، عنه ج ١، ص ٨٨).

٤. تفسير الصوري، ج ١٧، ص ٨٤٣. ٥. الأعراف (٧) ٨٩.

٦. تفسير الصوري، ج ٩، ص ٣، وفي رواية: تعص أفاتحك، تعني أحاسمك؛ راجع: الإقنان، ج ٢، ص ٥٥ قانون منسك القرآن لابن قتيبة، ص ٤٩٣ محرفة؛ راجع أيضاً: مناهج التفسير، ص ٣٤.

«فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»^١ حَتَّى أَتَانِي أُعْرَابِيَّانِ يَخْتَصِمَانِ فِي بَرٍّ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فَطَرْتَهَا، وَالْآخَرُ يَقُولُ: أَنَا ابْتَدَأْتُهَا^٢.

و في تفسير الزمخشري - عند قوله تعالى: «إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ»^٣ - : وعن ابن عباس: ما كنت أدري ما معنى «يَحُور» حَتَّى سَمِعْتُ أُعْرَابِيَّةً تَقُولُ لِبَنِيَّةٍ لَهَا: حُورِي، أَيِ ارْجِعِي. و استشهد الزمخشري بقول لبید:

و ما المرء إلا كالشَّهاب و ضوئه يحور رماداً بعد إذ هو ساطع^٤
و قد جاء نفس الاستشهاد في مسائل ابن الأزرَق أيضاً^٥.

و هكذا استطاع بنقافته اللغوية أن يحيط بلغات القبائل، و يميز عن بعضها البعض. رَوَى عَنْهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا»^٦ أَنَّهُ قَالَ: البور، في لغة أزد عمان: الناسد، فأما عند العرب فإنه لا شيء، يقال: أصبحت أعمالهم بوراً أي مبطلة. و أصبحت ديارهم بوراً أي معطلة خراباً^٧.

و قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ»^٨ السمود: الغناء، و هي يمانية؛ و في قوله تعالى: «أَتَدْعُونَ بَعْلًا»^٩ قَالَ: رباً، بلغة أهل اليمن؛ و في قوله: «كَأَلَا لَا وَزَرَ»^{١٠} قَالَ: الوزر: ولد الولد، بلغة هذيل؛ و في قوله: «فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا»^{١١} قَالَ: مكتوباً، و هي لغة حميرية، يسمون الكتاب مسطوراً^{١٢}.

بل نراه لم يقتصر على الإحاطة بلغات القبائل، حَتَّى ضَمَّ إِلَيْهَا التَّعَرُّفَ إِلَى الْكَلِمَاتِ الْوَافِدَةِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ مِنْ لُغَاتِ الْأُمَمِ الْمَجَاوِرَةِ. قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «إِنِّي نَاشِئَةٌ نَائِلَةٌ مِنَ الثَّنَاءِ»^{١٣}

١. فاطر (٣٥): ٨.

٢. الإفتان، ج ٣، ص ٤.

٣. الإنداق (٨٤): ١٤.

٤. الكشاف للزمخشري، ج ٤، ص ٨٢٧.

٥. الفتح (٤٨): ١٣.

٦. الإفتان، ج ٣، ص ٦٤.

٧. رَوَى ابْنُ قَتِيْبَةَ مُسْتَدْرَأً إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ (تفسير غريب القرآن، ص ٤١٦). وَأُورِدَ الْعَبْرِيُّ فِي التَّضْيِيرِ (ج ٣٦، ص ٤٩).

٨. من غير أن ينسب إلى ابن عباس، وإنما «أزد عمان» بأفروعات، ولعله تصحيف.

٩. النجم (٥٣): ٦١.

١٠. الصافات (٣٧): ١٣٥.

١١. الإسراء (١٧): ٥٨.

١٢. القيامة (٧٥): ١١.

١٣. الإفتان، ج ٣، ص ٨٩، ٩١.

وَطَنًا وَأَقْوَمُ قِيلًا»^١ بلسان الحبشة، إذا قام الرجل من الليل قالوا: نشأ^٢.

وقال في قوله تعالى: «فَكَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ»^٣ هو بالعربية الأسد، وبالفارسية شار (شير)، وبالقبطية أرياء، وبالحبشية قسورة^٤.

هذا، مضافاً إلى معرفته بآداب سائر الأمم ورسومهم، كان يقول في قوله تعالى: «يَوْمَ أَحَدُهُمْ نُوَ يَعْمُرُ أَلْفَ سَنَةٍ»^٥ هو قول الأعاجم: «سال زه، نوروز، مهرجان حر»^٦.

و عن تلميذه سعيد بن جبير: هو قول بعضهم لبعض إذا عطس: زه هزار سال، وفي رواية عن ابن عباس: هو قول أحدهم: زه هزار سال، يقول: عش ألف سنة^٧. «زه» و «زى» بالفارسية بمعنى الدعاء بطول العمر، من «زيستن» بمعنى الحياة.

أضف إلى ذلك معرفته بالتاريخ والجغرافية، وما جرت على جزيرة العرب من حوادث وأيام، وقد أتاح له حظاً وافراً من هذه الثقافة، تنقله في البلاد، بين مكة والمدينة، ثم ولايته على البصرة و اشتراكه في غزوة أفريقيا، بل و تنقله بين أنحاء الجزيرة في طلب العلم؛ إذ كان يهتم بالاهتمام كله بعرف قصة كل اسم أو موطن أو موضع جرى له ذكر في القرآن، إن مبهماً أو صريحاً. يقول: «الأحقاف، المذكور في الكتاب العزيز: واد بين عمان وأرض مَهْرَة»^٨ و أرض مَهْرَة هي حضرموت كما جاء في كلام ابن إسحاق. وقال قتادة: الأحقاف: رمال مشرفة على البحر بالشحر من أرض اليمن. قال ياقوت: هذه ثلاثة أقوال غير مختلفة في المعنى^٩.

وقال - في الرقيم - : واد دون فلسطين قريب من أيلة^{١٠}. وهو أصح الأقوال في تحديد مدينة أصحاب الكهف. و قال - في البحرين - : روي عن ابن عباس: البحرين من أعمال العراق، وحده من عمان ناحية جرّ فار، واليمامة على جبالها^{١١}.

١. المرفأ (٧٣): ٦٠.
٢. تفسير الصيرفي، ج ١، ص ٦٠.
٣. المذكر (٧٤): ٥٨.
٤. البقرة (٢): ٢٦.
٥. المصدر نفسه: الدر المنثور، ج ١، ص ٨٩.
٦. الدر المنثور، ج ٥، ص ٣٦٣.
٧. تفسير الصيرفي، ج ١، ص ٦٠.
٨. معجم البلدان، ج ١، ص ١١٥.
٩. المصدر نفسه: ج ١، ص ٣٤٧.

و قال - في عرفة - : و قال ابن عباس : حدّ عرفة من الجبل المشرف على بطن عُرنة إلى جبالها إلى قصر آل مالك و وادي عرفة^١.

و قال - في تحديد جزيرة العرب - : و أحسن ما قيل في تحديدها ما ذكره أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي مسنداً إلى ابن عباس، قال : اقتسمت العرب جزيرتها على خمسة أقسام، قال : و إنما سميت بلاد العرب جزيرة؛ لإحاطة الأنهار و البحار بها من جميع أقطارها و أطرافها، فعساروا منها في مثل الجزيرة من جزائر البحر^٢، إلى غيرها من موارد تدلّك على سعة معرفة ابن عباس بالأوضاع و الأحوال التي تكتنفه، شأن أيّ عالم و محقق خبير.

و بعد فإنّ إحاطته باللغة و بالشعر القديم، لتدلّك على قوّة ثقافته البالغة حدّاً لم يصل إليه غيره، ممّن كان في طرازه ذلك العهد، الأمر الذي جعله بحقّ زعيم هذا الجانب من تفسير القرآن، حتّى لقد قيل في شأنه : هو الذي أبدع الطريقة اللغويّة في التفسير^٣ فضلاً عن كونه بألّ التفسير في جميع جوانبه و مجالاته.

و بذلك كان قد كشف النقاب عن وجه كثير من آيات أحاطت بها هالة من الإيهام، لولا معرفة سبب النزول، مثلاً ننسأل : ما هي العلاقة بين «ذكر الله و ذكر الآباء» في قوله تعالى : «فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكُكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدُّ ذِكْراً»^٤ و السياق و ارد بشأن أحكام الحجّ و مناسكه؟

و هنا يأتي ابن عباس ليوضح من موضع هذه العلاقة، قال : «إنّ العرب كانوا عند الفراغ من حجّتهم بعد أيام التشريق، يقفون بين مسجد منى و بين الجبل، و يذكر كلّ واحد منهم فضائل آبائه في السماحة و الحماسة و صلة الرحم، و يتناشدون فيها الأشعار، و يتكلمون

١. المصدر نفسه، ج ٤، ص ٨٣٧.

٢. المصدر نفسه، ج ٤، ص ٨٤.

٣. التفسير و المفسرون، ج ٤، ص ٧٥ (مذاهب التفسير الإسلامي لجولك تسيهر، ص ٦٩). وراجع : مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار، ص ٩٠.

٤. البقرة (٢) : ٢٠٠.

بالمشهور من الكلام، ويريد كل واحد منهم من ذلك الفعل، حصول الشهرة والترفع بما تر سلفه. فلما نعم الله عليهم بالإسلام أمرهم أن يكون ذكرهم لربهم كذكرهم لآبائهم أو أشد ذكرًا»^١.

وهكذا تساؤل بعضهم: ما وجه قوله تعالى: «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا»^٢ أي لا حرج عليه ولا مأثم في السعي بين الصفا والمروة، وظاهره نفي البأس، أي عدم المنع، وهو لا يقتضي الوجوب، مع أن قوله تعالى - في صدر الآية -: «إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ...» يستدعي الوجوب؛ لأنه خبر في معنى الأمر؟!

وقد كان ذلك موضع تساؤل منذ أول يومه. أخرج الطبري بإسناده إلى عمرو بن حبيش قال: قلت لعبد الله بن عمر: «إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ النَّبْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا»، قال: انطلق إلى ابن عباس فأسأله فإنه أعلم من بقي بما أنزل على محمد ﷺ. قال: فأتيت ابن عباس فسألته، فقال: إنه كان عندهما أصنام، فلما أسلموا أمسكوا عن الطواف بينهما حتى أنزلت «إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ»^٣.

كان المشركون قد وضعوا على الصفا صنما يقال له: «أساف»، وعلى المروة «فائلة». فلما اعتمر رسول الله ﷺ عمره القضاء، أخرج المسلمون عن السعي بينهما، زعمًا منهم أن السعي بينهما شيء، كان صنعه المشركون تزيّنًا إلى الصنمين، فأنزل الله أن لا حرج ولا موضع لما وهمه أناس^٤.

مراجعة أهل الكتاب

وهل كان ابن عباس يراجع أهل الكتاب في فهم معاني القرآن؟ سؤال أجيب عليه بصورتين: إحداهما مبالغ فيها، والأخرى معتدلة إلى حد ما؛ كانت مراجعته لأهل الكتاب - كمراجعة سائر الأصحاب - في دائرة ضيقة النطاق، في أمور

١. البقرة (٢): ١٩٨.

٢. التفسير الكبير، ج ٥، ص ٨٨٣.

٣. تفسير الصوري، ج ٤، ص ٢٨؛ الدر المنثور، ج ١، ص ١٥٩.

٤. مجمع البيان، ج ١، ص ٢٤٠.

لم يتعرض لها القرآن، ولا جاءت في بيان النبي ﷺ؛ حيث لم تعد حاجة ملحة إلى معرفتها، ولا فائدة كبيرة في العلم بها كعدد أصحاب الكهف، والبعض الذي ضرب به موسى من البقرة، ومقدار سفينة نوح، وما كان خشبها، واسم الغلام الذي قتله الخضر، وأسماء الطيور التي أحيها الله لإبراهيم، ونحو ذلك مما لا طريق إلى معرفة الصحيح منه. فهذا يجوز أخذه من أهل الكتاب، والتحدث عنهم ولا حرج، كما ورد «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»، المحمول على مثل هذه الأمور.

قال ابن تيمية: وفي بعض الأحيان يُثقل عنهم (عن بعض الصحابة مثل ابن مسعود وابن عباس وكثير من التابعين) ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب التي أباها رسول الله ﷺ؛ حيث قال: «بلغوا عني ولو آية»، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج». رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص، ولهذا كان عبد الله بن عمرو قد أصاب يوم اليرموك زاملتين^١ من كتب أهل الكتاب، فكان يحدث منهما، بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك. ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية إنما تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد، فإنها من الأمور المسكوت عنها، ولم نعلم صدقها ولا كذبها مما بأيدينا، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجوز حكايته، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني، وقد أبهمه الله في القرآن، لا فائدة في تعيينه تعود على المكلّنين في دنياهم ولا دينهم.^٢

* * *

و وافقه على هذا الرأي الأستاذ الذهبي، قال: كان ابن عباس يرجع إلى أهل الكتاب يأخذ عنهم، بحكم اتفاق القرآن مع التوراة والإنجيل، في كثير من المواضع التي أجملت في القرآن وفُصلت في كتب العهدين. ولكن في دائرة محدودة ضيقة، تتفق مع القرآن

١. مسند أحمد، ج ٤، ص ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٤ عن عبد الله بن عمرو بن العاص، ص ٤٧٤ و ٥٠٦ عن أبي هريرة، ج ٣، ص ٩٣ و ٤٦ و ٤٦ عن أبي سعيد الخدري.

٢. أي سكتين: من رُفِلَ الشيء بوجه أو في نوبته: لُفِيَ.

٣. راجع مقدمة في أصول التفسير، ص ٤٥-٤٧.

و تشهد له. أمّا ما عدا ذلك ممّا يتنافى مع القرآن و لا يتفق مع الشريعة، فكان لا يقبله و لا يأخذ به.

قال: فابن عباس و غيره من الصحابة، كانوا يسألون علماء اليهود الذين اعتنقوا الإسلام فيما لا يمسّ العقيدة أو يتصل بأصول الدين و فروعه، كبعض القصص و الأخبار الماضية.

قال: و بهذا المسلك يكون الصحابة قد جمعوا بين قوله ﷺ: «حدثوا عن بني إسرائيل و لا حرج»، و قوله: «لا تصدقوا أهل الكتاب و لا تكذبوهم». فإنّ الأول محمول على ما وقع فيهم من الحوادث و الأخبار؛ لما فيها من العظة و الاعتبار، بدليل قوله بعد ذلك: «فإنّ فيهم أعاजيب». و الثاني محمول على ما إذا كان المخبر به من قبلهم محتملاً، و لم يقد دليل على صدقه و لا على كذبه. قال: كما أفاده ابن حجر، و نبّه عليه الشافعي.



و أمّا المستشرقون فقد ذهبوا في ذلك مذاهب بعيدة، بالغوا فيها إلى حدّ ترفضه شريعة النقد و التحييص. يقول العلامة المستشرق إجنس جول: تسهر:

«و ترى الرواية الإسلامية أنّ ابن عباس نقل عن نفسه - في اتصاله الوثيق بالرسول - وجوه التفسير التي يوتق بها وحدها.^١ و قد أغفلت هذه الرواية بسهولة - كما في أحوال أخرى مشابهة - أنّ ابن عباس عند وفاة الرسول كان أقصى ما بلغ من السنّ (١٠-١٣) سنة. و أجدد من ذلك بالتقصّد، الأخبار التي تفيد أنّ ابن عباس كان لا يرى غضاضة أن يرجع، في الأحوال التي يخامر فيها الشك، إلى من يرجو عنده علمها. و كثيراً ما ذكر أنّه كان يرجع - كتابةً - في تفسير معاني الألفاظ إلى من يدعى «أبا الجلد» و الظاهر أنّه

١. التفسير و المفسرون، ج ١، ص ٧١-٧٣ و ٧٣ و ٧٣-٧٤ (راجع: فتح الباري، ج ٤، ص ١٣٩ و ج ٣، ص ٢٨٢).

٢. هنا يخلق المترجم الدكتور عبد الحليم النجار، يقول: و ابن الرواية التي يزعمها، و ما قيمتها في نظر رجال النقد (مذاهب التفسير الإسلامي، ص ٨٤).

و الصحيح - كما أسلفنا - أنّ ابن عباس أخذ تفسيره من الصحابة و لا سيما من أمير المؤمنين عي عليه السلام، فهو أمّا أخذ التفسير من الرسول بواسطة صحابه الأخبار.

«غيلان بن فروة الأزدي» الذي كان يُكنى عليه بأنه قرأ الكتاب^١.

و كثيرٌ ما نجد بين مصادر العلم المفضلة لدى ابن عباس، اليهوديين المذنبين اعتنقوا الإسلام: كعَب الأخبار، وعبد الله بن سلام، كما نجد أهل الكتاب على وجه العموم، أي رجالاً من طوائف ورد التحذير من أخبارها - عدا ذلك - في أقوال تُسبب إلى ابن عباس نفسه. ومن الحق أن اعتناقهم للإسلام قد سما بهم على مظنة الكذب، ورفعهم إلى مرتبة مصادر العلم التي لا تتبر ارتياباً^٢.

و لم يعد ابن عباس أولئك الكتابيين الذين دخلوا في الإسلام، حجباً فقط في الإسرائيليات وأخبار الكتب السابقة، التي ذكر كثيرٌ عنها الفوائد^٣، بل كان يسأل أيضاً كعَب الأخبار مثلاً عن التفسير الصحيح للتعبيرين القرآنيين: «أُمُّ الْكِتَابِ»^٤ و «المرجان»^٥.

«كان يُفترض عند هؤلاء الأخبار اليهود، فهم أدق للمدارك الدينية العامة الواردة في القرآن وفي أقوال الرسول، وكان يُرجع إلى أخبارهم في مثل هذه المسائل، على الرغم من ضروب التحذير الصادرة من جوانب كثيرة فيهم»^٦.
هذه هي عبارة (جولد تسيهر) البادي عليها غلوه المفرط بشأن مسلمة اليهود، ودورهم في التلاعب بمقدّرات المسلمين، الأمر الذي لا يكاد يصدق في أجواء كانت السيطرة مع الصحابة النبهاء، إنما كان ذلك في عهد طغى سطو أمية على البلاد وقد أكتروا

١. في كتاب التصحيح والتحريف: ص ٤٠٩، هو صاحب كتب وجماعة لأخبار الملاحمة مذاهب التفسير: ص ٥٥ الماشي رقم ٣.

٢. سترى أن الأمر كان بالعكس: كان هؤلاء موضع ارتياب المسلمين عامة: سوى أهل المطامع كانوا قد استغلوا من مواضع هؤلاء غير التزيين: أمثال معاوية وابن العاص ومن على شاكلتهما.

٣. مثل ما أخرجه ابن سعد بإسناده إلى ابن عباس أنه سأل كعَب الأخبار عن صفة الرسول ﷺ في الشورى والإنجيل (العقبات، ج ١، ق ٤، ص ٨٧).

و كذلك ما أسند إلى مولى عمر بن الخطاب أن كعباً أخبر بسوته قبل ثلاثة أيام: إذ وجد ذلك مكتوباً عندهم في الشورى (العقبات، ج ٣، ق ٢، ص ٣٤٠).
٤. الرعد (١٣): ٣٩. راجع: تفسير العبري، ج ٤٣، ص ٨١٥.

٥. الرحمن (٥٥): ٢٢. راجع: تفسير العبري، ج ٣٧، ص ٨٧٨.

٦. مذاهب التفسير الإسلامي: ص ٨٤-٨٨.

فيها الفساد، على ما سننبّه.

وقد تابعه على هذا الرأي الأستاذ أحمد أمين، قال: ولم يتحرّج حتى كبار الصحابة مثل ابن عباس من أخذ قولهم. روي أن النبي ﷺ قال: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدّقوهم ولا تكذبوهم». ولكن العمل كان على غير ذلك، وأنهم كانوا يصدّقونهم وينقلون عنهم! وإن شئت من أجل ذلك فاقراً ما حكاه الطبري وغيره عند تفسير قوله تعالى: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ»^١. وعقبه بقوله: وقد رأيت ابن عباس كان يجالس كعب الأحبار ويأخذ عنه^٢، إشارة إلى ما سبق من قوله: وأما كعب الأحبار أو كعب بن ماتع فيهودي من اليمن، وأكبر من تسربت منهم أخبار اليهود إلى المسلمين، أسلم في خلافة أبي بكر أو عمر - على خلاف في ذلك - وانتقل بعد إسلامه إلى المدينة ثم إلى الشام. وقد أخذ عنه اثنان، هما أكبر من نشر علمه: ابن عباس - وهذا يعلل ما في تفسيره من إسرائيليات - وأبو هريرة^٣.



مركز تحقيق وتطوير علوم إسلامي

نقد و تمحيص

وإننا للأسف كثير أن يغتر كتابنا النقاد - أمثال الأستاذ أحمد أمين والأستاذ المذهبي - بتخرصات لفقها أوهام مستوردة، فلتترك المستشرقين في ربيهم يترددون، ولكن ما لنا - نحن معاشر المسلمين - أن نحذو حذوهم ونواكبهم في مسيرة الوهم والخيال؟! لا شك أن نهاء الصحابة أمثال ابن عباس كانوا يتحاشون مراجعة أهل الكتاب ويستقذرون ما لديهم من أساطير وقصص وأوهام، وإنما تسربت الإسرائيليات إلى حوزة الإسلام، بعد انقضاء عهد الصحابة، وعند ما تسيطر الحكم الأموي على البلاد لغرض العيث في الأرض وشمول الفساد، الأمر الذي أحوجهم إلى مراجعة الأندال من

٢. فجر الإسلام: ص ٢٠١.

١. البقرة (٢): ٢١٠.

٣. المصدر نفسه: ص ١٦٠.

مسلمة اليهود و من تبعهم من سفلة الأوغاد.

و سنذكر أن مبدأ نشر الإسرائيليات بين المسلمين كان في هذا العهد المظلم بالخصوص، حاشا الصحابة و حاشا ابن عباس بالذات أن يراجع ذوي الأحقاد من اليهود، و يترك الخُص من علماء الإسلام أمثال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، و كان سخط العلم و لديه علم الأولين و الآخرين، علماً ورنه من رسول الله ﷺ في شمول و عموم.

و قد مرّ عليك أنه كان يستطرق أبواب العلماء من الصحابة بغيّة العتور على أطراف العلم الموروث من الرسول الأكرم ﷺ، و قد سئل: أنى أدركت هذا العلم؟ فقال: بلسان سؤؤل و قلب عقول.

و إليك من تصريحات ابن عباس نفسه، يحذّر مراجعة أهل الكتاب بالذات، فكيف يا ترى، ينهى عن شيء ثم يرتكبه؟!



التحذير عن مراجعة أهل الكتاب

أخرج البخاري بإسناده إلى عتبة بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس، قال: «يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب، و كتابكم الذي أنزل على نبيّه ﷺ أحدث الأخبار بالله تقرّونه لم يُسبّ،^١ و قد حدّثكم الله أن أهل الكتاب بدّلوا ما كتب الله و غيّرُوا بأيديهم الكتاب، فقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم، و لا والله ما رأينا منهم رجلاً قطّ يسألكم عن الذي أنزل عليكم»^٢.

و أخرج عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب^٣ يقرّون التوراة بالعبرانية و يفسّرونها

١. الصحيح و الصحيح: ص ٣.

٢. جاء في موضع آخر: و كتابكم الذي أنزل على رسول الله ﷺ أحدث، تقرّونه محضاً لم يُسبّ، قوله: لم يُسبّ، أي لم يخلط شيء من غير القرآن، فعرضاً بكتب اليهود التي دس فيها ما ينو عن كونه وحياً.

٣. جامع البخاري، ج ١، ص ١٣٦، باب قول النبي: لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، و ج ٣، ص ٣٣٧، باب لا يسأل أهل الذم عن الشهادة و غيرها، و اللفظ على الأخير.

٤. و يعني بهم اليهود بالذات، سرح بذلك ابن حجر في فتح الباري، ج ١٢، ص ٢٨٢.

بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقلوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم»^١.

وأخرج عبد الرزاق من طريق حريث بن ظهير، قال: قال عبد الله بن عباس: «لا تسألوا أهل الكتاب، فإنهم لن يهدوكم وقد أضلوا أنفسهم، فتكذبوا بحق أو تصدقوا باطل»^٢.

وهذا الحديث وضح من كلام النبي ﷺ في عدم تصديقهم ولا تكذيبهم؛ لأنهم كانوا يخلطون الحق بالباطل، فلا يمكن تصديقهم؛ لأنه ربما كان تصديقاً باطلاً، ولا تكذيبهم؛ لأنه ربما كان تكذيباً لحق، فالمعنى: أن لا يعتبر من كلامهم شيء، ولا يترتب على ما يقولونه شيء، فلا حجّة لكلامهم ولا اعتبار لأقوالهم على الإطلاق، إذن فلا ينبغي مراجعتهم ولا الأخذ عنهم في وجه من الوجوه.

وأخرج أحمد وابن أبي شيبة والبيهقي عن حديث جابر، أن عمر أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فغضب النبي ﷺ، وقال: «لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء، فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو باطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يشعني». وفي رواية أخرى: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء...»^٣.

* * *

تلك مناهي الرسول ﷺ العسيرة في المنع عن مراجعة أهل الكتاب إطلاقاً، لا في كبير ولا صغير، فهل يا ترى أحداً من صحابته الأخيار خالف أو امره وراجعهم في شيء من مسائل الدين والقرآن؟! كما حسيبه الأستاذ أحمد أمين، زعم أن العمل كان على ذلك، وأنهم كانوا يصدقون أهل الكتاب وينقلون عنهم^٤، وأما الذي استشهدوا به على مراجعة مثل ابن عباس لليهود، فكله باطل وزور،

١. جامع البيهقي، ج ٩، ص ١٣٦.

٢. فتح الباري، ج ١٣، ص ٢٨١.

٣. المصدر نفسه.

٤. فتاوى ابن تيمية، ج ١، ص ٢٠١.

لم يثبت منه شيء.

أما الذي جاء به الأستاذ مثلاً من قوله تعالى: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ» قال: فاقراً ما حكاه الطبري وغيره عند تفسير الآية.

فقد راجعنا تفسير الطبري والدر المنثور وابن كثير وغيرها من أمهات كتب التفسير بالنقل المأثور^٢، فلم نجد فيها ذكراً لكعب ولا مسألتته من قبل أحد من الأصحاب، أو غيرهم من التابعين أيضاً. ولم ندر من أين أخذ الأستاذ هذا المثال، ومن الذي عرفه ذلك، فأوقعه في هذا الوهم الفاضح.

وأما قوله: كان ابن عباس يجالس كعب الأحبار، وكان أكثر من نشر علمه...^٣، فكلام أشدّ وهماً وأكثر جفاءً على مثل ابن عباس الصحابي الجليل، إذ لم نجد ولا رواية واحدة تتضمن نقلاً لابن عباس عن أحد من اليهود، فضلاً عن مثل كعب الأحبار الساقط الشخصية^٤.

نعم، أشار المستشرق جولد تسيهر إلى موارد، زعم فيها مراجعة ابن عباس لأهل الكتاب، ولعلها كانت مستند الأستاذ أحمد أمين تقليداً من غير تحقيق. ولكننا راجعنا تلك الموارد، فلم نجدها شيئاً، كسراب يضيعة يحسبها الظمان ماءً.

منها: أن ابن عباس سأل كعب الأحبار عن تفسير تعبيرين قرآنيين: أم الكتاب، والمرجان^٥.

روى الطبري بإسناده إلى عبد الله بن ميسرة الحراني: أن شيخاً بمكة من أهل الشام سمع كعب الأحبار يسأل عن المرجان (الرحمان ٥٥: ٢٢) فقال: هو البسند.

لكن من أين علم جولد تسيهر أن الذي سأل كعباً هو شيخ مكة وزعيمها ابن عباس؟!

١. البقرة (٣): ٢٨٠.

٢. تفسير الطبري: ج ٤، ص ١٩٠-١٩٩؛ الدر المنثور: ج ١، ص ٣٤٦-٣٤٩؛ تفسير ابن كثير: ج ١، ص ٢٤٤-٢٤٩.

٣. فجر الإسلام، ص ١٦٠.

٤. سوف نرى أن كعب الأحبار كان من صنائع معاوية، سبغته لخدمة الغرض الخط من كرامة الإسلام.

٥. مذاهب التفسير الإسلامي: ص ٨٨. تفسير الطبري: ج ٤٧، ص ٧٦.

* * *

و كذا روي عن معتمر بن سليمان عن أبيه عن شيبان، أن ابن عباس سأل كعباً عن أم الكتاب (الرعد ١٣: ٣٩) فقال: عَلِمَ اللهُ ما هو خالق وما خلقه عاملون، فقال لعلمه: كن كتاباً، فكان كتاباً.

غير أن شيبان هذا - هو ابن عبد الرحمن التميمي مولاهم، النحوي أبو معاوية البصري المؤدب، سكن الكوفة ثم انتقل إلى بغداد - مات في خلافة المهدي سنة (١٦٤ هـ) وكان من الطبقة السابعة^١، وعليه فلم يدرك ابن عباس المتوفي سنة (٦٨ هـ) ولا كعب الأحمار الذي هلك في خلافة عثمان سنة (٣٢ هـ). فالرواية مرسلة لم يعرف الواسطة، فكانت ساقطة عن الاعتبار.

* * *

و أيضاً روي عن إسحاق بن عبد الله بن الحرث عن أبيه، أن ابن عباس سأل كعباً عن قوله تعالى: «يَسْبِخُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْقَرُونَ»^٢، و «يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ»^٣ فقال: هل يؤودك طرفك؟ هل يؤودك نفسك؟ قال: لا، قال: فإنهم ألهموا التسييح، كما ألهمتم الطرف والنفس.

و عبد الله هذا هو ابن الحرث بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب، ولد على عهد رسول الله ﷺ بالمدينة وأصبح من فقهاءها، وتحوّل إلى البصرة ورضيته العامة، واسطلحوا عليه حين هلك يزيد بن معاوية. توفي سنة (٨٤ هـ) بالأبواء ودُفن بها، وكان خرج إليها هارباً من الحجاج^٤.

غير أن الطبري روى بإسناده إلى حسان بن مخارق عن عبد الله بن الحرث، أنه هو

١. المصدر نفسه، ج ١٣، ص ١١٥.

٢. تهذيب التهذيب، ج ٤، ص ٣٧٣، ٣٧٤. تقريب التهذيب لابن حجر، ج ١، ص ٣٥٦، رقم ٨١٥.

٣. الأنبياء (٢١: ٢٠). فضت (٤١: ٣٨).

٤. تفسير الطبري، ج ١٧، ص ١٠. تهذيب التهذيب، ج ٥، ص ١٨٩-١٨٨.

الذي سأل كعباً عن ذلك، قال: قلت لكعب الأخبار: «يَسْبَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتَرُونَ...» أما يُشغلهم رسالة أو عمل؟ قال: يا ابن أخي، إنهم جعل لهم التسييح كما جعل لكم النفس، أنست تأكل و تشرب و تقوم و تتعد و تجيء و تذهب و أنت تتنفس؟ قلت: بلى! قال: فكذلك جعل لهم التسييح.

قلت: يا ترى، هل كان هو الذي سأل كعباً أو أنه سمع ابن عباس يسأل كعباً؟ في حين أنه لا يقول: سمعت ابن عباس يسأله، بل مجرد أن ابن عباس سأله، الأمر الذي لا يوفق بكون الرواية منتهية إلى سماع، والظاهر أنه إرسال.

على أنه من المحتمل القريب أن السائل هو بالذات، لكن ابنه إسحاق كره نسبة السؤال من مثل كعب إلى أبيه، فذكر الحديث عن أبيه مع إقحام واسطة إرسالاً من غير إسناد. ويؤيد ذلك أنه لم تأت رواية غير هذه تُنسب إلى ابن عباس أنه سأل مثل كعب، فالأرجح في النظر أنه مفتعل عليه لا محالة.



و استند جولد تسيهر - في مراجعة ابن عباس لأهل الكتاب - أيضاً إلى ما رواه الطبري بإسناده إلى أبي جهضم موسى بن سالم موسى ابن عباس، قال: كتب ابن عباس إلى أبي جلد (جيلان بن فروة الأزدي، كان قرأ الكتب، وكان يختم القرآن كل سبعة أيام ويختم التوراة كل ثمانية أيام) ^١ يسأله عن «البرق» في قوله تعالى: «هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ انبِرَاقَ حَافَاً وَطَمَعاً» ^٢ فقال: البرق: الماء ^٣.

لكن في طبقات ابن سعد ^٤ أن أبا المجلد الجعوني - حي من الأزدي - اسمه جيلان بن فروة، كان يقرأ الكتب. وزعمت ابنته ميمونة: أن أباهما كان يقرأ القرآن في كل سبعة أيام، ويختم التوراة في ستة، يقرأها نظراً، فإذا كان يوم يختمها حشد لذلك ناس.

١. مذهب التفسير الإسلامي، ص ٨٥.

٢. تفسير الصوري، ج ٨٧، ص ١٠.

٣. الترمذ (١٣٣)، ١٢.

٤. تفسير الصوري، ج ١٣، ص ٨٣.

٥. الطبقات، ج ١٧، ص ١٦١، ص ٨٥.

لا شك أنها مغالاة من ابنته. يقول جولد تسيهر: ولا يتضح حقاً من هذا الخبر الغامض، الذي زادته مغالاة ابنته غموضاً، أي نسخة من التوراة كان يستخدمها في دراسته؟ لأن التوراة المعهودة اليوم وهي تشتمل على (٣٩) كتاباً تكون في حجم كبير، ثم هي قصة حياة إسرائيل طول عشرة قرون، وفيها تاريخ حياة أنبياء بني إسرائيل وملوكهم ورحلاتهم وحرابهم طول التاريخ، وهي بكتب التاريخ أشبه منها بكتب الوحي. فهل كان يقرأ ذلك كله في ستة أيام؟ وما هي الفائدة في ذلك التكرار؟!

على أن راوي الخبر - وهو موسى بن سالم أبو جهضم - لم يلق ابن عباس ولا أدركه؛ لأنه مولى آل العباس، وليس مولى لابن عباس. ففي نسخة الطبري المطبوعة خطأ قطعاً. قال ابن حجر: موسى بن سالم أبو جهضم مولى آل العباس، أرسل عن ابن عباس. وهو من رواة الإمام أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام. وفي الخلاصة: موسى بن سالم مولى العباسيين أبو جهضم عن أبي جعفر الباقر، وعنه الحمادان^٢. والإمام الباقر توفي سنة (١١٤ هـ).

وأخيراً، فإن الموارد التي ذكرها مراجع ابن عباس فيها لأهل الكتاب لا تعدو معاني لغوية بحثية، لا تمتّ قضايا سائلة عن أهم حكاياتهم، ولا سيما السؤال عن «البرق»، وهو لفظ عربي خالص، لا موجب للرجوع فيه إلى رجال أجنبية عن اللغة. كيف يا ترى يرجع مثل ابن عباس - وهو عربي صميم وعارف بمواضع لغته أكثر من غيره - إلى اليهود الأجانب؟! وهل يخفى على مثله ما للفظ البرق من مفهوم؟ ثم كيف اقتنع بتفسيره بالهاء؟ اللهم إن هذا إلا اختلاق!

الأمر الذي يقضي بالعجب، كيف يحكم هذا العلامة المستشرق حكمه البات، بأن كثيراً ما ذكر أنه كان يرجع - كتابته - في تفسير معاني الألفاظ إلى من يدعى أبا الجلد؟!

٢. تهذيب التهذيب، ج ١٠، ص ٣٤٤.

١. مذاهب التفسير الإسلامي، ص ٨٦.

٣. خلاصة تهذيب الكمال للخرزنجي، ص ٣٩٠.

٤. مذاهب التفسير الإسلامي، ص ٨٥.

و يجعل مستنده هذه المراجعة المنتعلة قطعاً، إذ كيف يُعقل أن يراجع، مثله في مثل هذه المعاني؟!

* * *

و أسخف من الجميع تبرير ما نسب إلى ابن عباس من أقاصيص أسطورية جاءت عنه، بأنه من جرّاء رجوعه إلى أهل الكتاب في هكذا أمور بعيدة عن صميم الدين. قال الأستاذ أمين: وهذا يعلل ما في تفسيره من إسرائيليات. قال ذلك بعد قوله: وكان ابن عباس وأبو هريرة أكبر من نشر علم كعب الأخبار.

و قال الدكتور مصطفى الصاوي: وكثيراً ما ترد عن ابن عباس روايات في بدء الخليقة و قصص القرآن، مما لا يمكن أن يكون قد رجع فيها إلا إلى أهل الكتاب، حيث يرد هذا القصص مفصلاً، مثال هذا تفسيره للآية: «قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ»^٢ قال: لكنت حين يرجع إليهم مستفسراً، فإنما يرجع رجوع العالم الذي يُعير سمعه لما يقال، ثم يعمل فكره و عقله فيما يسمع، ثم ينخله مُبعداً عنه الزيف.

قلت: إن كانت فيما روي عنه في ذلك وأمثاله غرابة أو غضاظة، فإن العتب إنما يرجع إلى الذي نسبته إلى ابن عباس، وترويضاً لا كذباً، ولا يوم على ابن عباس في كثرة الوضع عليه. نعم، ولعل هذه الكثرة في الوضع عليه آية على تقدير له وإكبار من الوضّاع، لكنت في نفس الوقت، رغبة منهم في أن تنفق بضاعتهم، موسومة بمن في اسمه الرواج العلمي. وقد اعترف بذلك الدكتور الصاوي، فلماذا حكم عليه ذلك الحكم القاسي؟!

* * *

و يقرب من ذلك بل أقبح ما أسندوه إلى رسول الله ﷺ أنه سأل غلاماً يهودياً يافعاً (ناهز البلوغ) عن تربة الجنة فأجابته على الفور: دَرَمَكُمُ بِيضَاءُ مِسْكُ خَالِصٍ.. فصدّقه رسول الله.. و الدَرَمَكُ هو الدقيق الحواري الخالص البياض..

٢. البقرة (٢): ٢٥٨. راجع: تفسير الصبري، ج ١، ص ٥٨.

٤. المصدر نفسه، ص ٤١.

١. فجر الإسلام، ص ٦٧.

٣. مزاهج في التفسير، ص ٣٨.

و هذا الغلام هو ابن صائد (المزعوم كونه الدجال) .. كان لاهياً بين أتباعه الصبيان؛ إذ فاجأه الرسول بهذا السؤال الغريب، فيما زعموا.. أخرجه أحمد و مسلم وغيرهما، ضمن أحاديث النفس في آخر الزمان^١.. الأمر الذي تنزهت عنه كتب أحاديث أصحابنا..

فالصحيح: أن ابن عباس كان في غنى عن مراجعة أهل الكتاب، وعنده الرصيد الأوفى بالعلوم والمعارف والتاريخ واللغة، ولا سيما في مثل تلك الأساطير السخيفة التي كانت كل ما يملكه اليهود من بضاعة مزجاة كاسدة، بل إن موقف ابن عباس من أهل الكتاب عموماً، ومن كعب الأحبار خصوصاً، ما يصوره معتزاً بدينه كريماً على نفسه و ثقافته.

يُروى أن رجلاً أتى ابن عباس يبلّغه زعم كعب الأحبار: أنه يجاء بالشمس و القمر يوم القيامة كأنهما ثوران عقيران فيقذفان في النار! فغضب ابن عباس وقال: كذب كعب الأحبار، كذب كعب الأحبار، كذب كعب الأحبار، بل هذه يهودية يريد إدخالها في الإسلام^٢. يقال: لما بلغ ذلك كعباً، اعتذر له بعد و تعلل^٣.

و ربّما كان كعب يجالس ابن عباس يحاول مرادته العلم فيما زعم، فكان ابن عباس يجابهه بما يحطّ من قيمته. روي أنه ذكر القلم في مجلس ابن عباس، فقال كعب: إني لا أجد في كتاب الله المنزل (يريد التوراة)^٤ أن الظلم يخرّب الديار، فقال ابن عباس: أنا أوجدك في القرآن، قال الله عزّ وجلّ: «فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا»^٥.

هذه حقيقة موقف ابن عباس من اليهود كما ترى، وهو إذ كان يدعو إلى تجنب الرجوع إلى أهل الكتاب، لما يدخل بسبب ذلك من فساد على العقول وتشويه على

١. مسند أحمد: ج ٣، ص ٤٣؛ صحيح مسلم: ج ٤، ص ١٩١.

٢. مذايح في التفسير: ص ٣٨ و ٣٩ (الحرائر الشعلية، ص ١٨).

٣. المصدر نفسه، ص ٣٤.

٤. حسب التصريح به في الرواية: كتاب الله المنزل يعني التوراة (راجع: عيون الأخبار لابن قتيبة، ج ١، ص ٤٤٦، ص ١٣).

٥. مذايح في التفسير: ص ٣٩ (نفس المصدر: ج ١، ص ١٧٦؛ النمل: ٣٧) ٥٢.

العامة، فكيف يا ترى أنه كان يرجع إليهم رغم نهيه و تحذيره! وهل لا طرُق سمعه، وهو الحافظ لكلام الله «يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون»^١، فحاشا ابن عباس أن يراجع أهل الكتاب، وحاشاه حاشاه!!

استعمال الرأي والاجتهاد

و هل استعمل ابن عباس رأيه في تفسير القرآن؟

إذا كان المراد من الرأي، ما أنتجه الفكر والاجتهاد بعد تمام مقدماته المعروفة، فأمر طبيعي لا بد منه، ولا يستطيع أحد محايدته، إنما هو شيء كان عليه الأصحاب والعلماء من التابعين لهم بإحسان.

كان ابن عباس كغيره من الصحابة الذين اشتهروا بالتفسير، يرجعون في فهم معاني القرآن إلى القرآن ذاته أولاً، وإلى ما وعوه من أحاديث الرسول ﷺ وأقواله في بيان معاني القرآن، ثم إلى ما يفتح الله به عليهم من طريق النظر والاجتهاد، مع الاستعانة في ذلك بمعرفة أسباب النزول، والظروف والملابسات التي نزل فيها القرآن، بالإضافة إلى توسعهم في المعارف، ولا سيما ما كان متوسعا في علومه فيما يتعلق بمواقع النزول وأنحاء، ومعرفته بالأحكام والتاريخ والجغرافية، حسبما مر عليك.

فالرأي المستند إلى مثل هذه المقدمات المعروفة المتناسبة بعضها مع البعض، رأي ممدوح وأمر طبيعي، ليس ينكر لبيته.

* * *

هذا هو المنهج الذي سار عليه ابن عباس في التفسير، لم يحد عن مناهج سائر الصحابة النبهاء. وقد ساهمت ثقافته العميقة في كثير من جوانب المعرفة، على أن يتألق في منهجه، كما ساعده على ذلك - إضافة على ما ذكرنا - تبحره في معرفة مواقع النزول، واستيعابه للمحكم والمتشابه، والقراءة والأحكام والتاريخ والجغرافية، فضلاً عن اللغة

والأدب الرفيع.

وهكذا كان ابن عباس بمعارفه الوسيعة يهتم بتعرف كل شيء في القرآن، حتى يقول: **إني لأتي على آية من كتاب الله تعالى، فوددت أن المسلمين كلهم يعلمون منها مثل ما أعلم.** ويقول مصوراً مدى اقتداره على استنباط معاني القرآن: **لو ضاع لي عقل بعير لوجدته في كتاب الله تعالى.** قال الجويني: **وما كان له أن يقول ذلك لولا أخذُه من كل ثقافة بطرف، و تسخيرها جميعاً لخدمة تفسير القرآن.**

ولهذا ظل ابن عباس دوماً موضع الاعتبار والتقدير من الصحابة الأولين ومن معاصريه من التابعين، ومن بعده، منذ عهد التدوين ولا يزال. فما أكثر ما يدور اسمه في كتب التفسير على اختلاف مناهجها و منازعها السياسية والمذهبية حتى الآن، فرحمه الله من مفسر لكلامه البليغ الوجيز.



الطرق إليه في التفسير

ذكر السيوطي تسعة طرق إلى ابن عباس في التفسير^١، وصف بعضها بالجودة وبعضها بالوهن حسبما يلي:

مركز تحقيق كتب التراث

أولها: - وهو من جيدها - طريق معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة الهاشمي عن ابن عباس. قال أحمد بن حنبل: **بمصر صحيفة في التفسير، رواها علي بن أبي طلحة.** ولو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً، ما كان كثيراً. قال ابن حجر: **وهذه السخنة كانت عند أبي صالح كاتب الليث، رواها معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.** وهي عند البخاري عن أبي صالح، وقد اعتمد عليها في صحيحه كثيراً فيما يعلقه عن ابن عباس. وأخرج منها ابن جرير الطبري، وابن أبي حاتم، وابن المنذر كثيراً، بوسائط بينهم وبين أبي صالح.

١. الإفتاء، ج ٣، ص ٢٦ عن تفسير ابن أبي الفضل المرسني.

٢. الإفتاء، ج ٣، ص ٢٣٤.

٣. راجع: الإفتاء، ج ٤، ص ٧، ٨، ٩، ١٠.

٤. مذايح في التفسير، ص ٤٠.

* * *

و قد غمز بعضهم في هذا الطريق؛ حيث إنَّ ابن أبي طلحة لم يسمع التفسير من ابن عباس.

قال ابن حبان: روى عن ابن عباس ولم يره، ومع ذلك عدّه في الثقات^١ قالوا: إنما أخذ التفسير عن مجاهد أو سعيد بن جبير، وأسنده إلى ابن عباس رأساً، وذلك أنّه توفّي سنة (١٤٣ هـ). وقد توفّي ابن عباس سنة (٦٨ هـ)، وما بين الوفايتين ٧٥ سنة، الأمر الذي يمتنع معه الرواية عن ابن عباس مباشرة. قال الخليلي: وأجمع الحفاظ على أن ابن أبي طلحة لم يسمع التفسير من ابن عباس^٢.

وحاول بعضهم رميه بالضعف وسوء الرأي والخروج بالسيف أيضاً. قال يعقوب بن سفيان: ليس محمود المذهب.

قال ابن حجر - بعد ردّ الاعتراض -: أمّا إسقاط الواسطة فلا ضير فيه بعد أن عرفنا الواسطة وهو ثقة^٣، لا سيما وقد روى عنه الثقات. قال صالح بن محمد: روى عنه الكوفيون والشاميون - لأنّه انتقل إلى حمص -، قال ابن حجر: ونقل البخاري من تنسيده رواية معاوية بن صالح عنه عن ابن عباس شيئاً كثيراً.

قال: وقد وقعت على السبب الذي رمى به الرأي بالسيف؛ وذلك فيما ذكره أبو زرعة الدمشقي عن عليّ بن عباس الحمصي، قال: لقي العلاء بن عتبة الحمصي عليّ بن أبي طلحة تحت القبة، فقال (عليّ لعلاء): يا أبا محمد، تؤخذ قبيلة من قبائل المسلمين فيقتل الرجل والمرأة والصبي، لا يقول أحد: الله، الله، والله لئن كانت بنو أمية أذبت، لقد أذبت بذنبها أهل المشرق والمغرب! (يشير بذلك إلى استباحة دماء بني أمية من قبل بني العباس يومذاك وأنهم يستحقّون ذلك، فطائفة منهم بارتكاب جرائم، وطائفة أخرى بالسكوت عمّا يشعلهُ إخوانهم). ثم قال عليّ بن أبي طلحة: يا عاجز - خطاباً مع العلاء -، لأنّه

٢. الإقناع، ج ٤، ص ٢٠٧.

١. تهذيب التهذيب، ج ٧، ص ٣٤٠.

٣. المصدر نفسه.

كان من أشياع بني أمية - أو ذئب على أهل بيت النبي ﷺ (يريد بهم بني العباس) أن أخذوا قوماً بجرائهم وعنوا عن آخرين؟ فقال له العلاء: وإني لرأيك؟ قال: نعم. فقال له العلاء: لا كلمتك من فمي بكلمة أبد. إنما أحببنا آل محمد بحبه، فإذا خالفوا سيرته وعملوا بخلاف سنته، فهم أبغض الناس إلينا.

إذن فلا مغمز فيما يرويه ابن أبي طلحة من تفسير يسنده إلى ابن عباس، كما لا ضعف في الإسناد.

قال الخليلي - في الإرشاد -: تفسير معاوية بن صالح قاضي الأندلس عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، رواه الكبار عن أبي صالح كاتب الليث، عن معاوية.

قلت: سبب الغمز فيه أنه كان متأثراً بمدرسة ابن عباس - وهو في حمص من بلاد الشام في تلك الأوساط المتأثرة بنشأت آل أمية المعادية للإسلام - فكان يحمل ولاء آل بيت الرسول ﷺ ويعادي أعداءهم، في أوساط ما كانت تتحمل ذلك العهد، ومن ثم ألصقت به تهماً هو منها براء.



الثاني: - أيضاً من جيد الطرق - طريق قيس بن الربيع أبي محمد الأسدي الكوفي. توفي سنة (١٦٨ هـ) عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

قال جلال الدين: هذه طريق صحيحة على شرط الشيخين. وكثيراً ما يخرج منها الفريابي والحاكم في مستدركه. وذكر ابن حجر عن أحمد بن حنبل أن قيساً هذا كان يتشيع. ولكن قال ابن أبي شيبة: هو عند جميع أصحابنا صدوق وكتابه صالح.

١. قال الذهبي: كان فيه لين، أخذ عن خالد بن معدان وعمر بن هانئ (بزان الاعتدال للذهبي: ج ٣، ص ١٠٣)، وقد تركه ابن حجر، أما عمر بن هانئ فكان من ولاد الحجاج قضاء الكوفة، وكان يرى البيعة ليزيد بن الوليد هجرة ثانية بعد الهجرة إلى الله ورسوله (المصدر نفسه: ج ٣، ص ٢٩٧). وأما خالد بن معدان فكان من فتيان الشام وكان يروي عن معاوية بن أبي سفيان (تهذيب التهذيب: ج ٣، ص ١١٨)، وقد حجت حوله غراقات وأوهام، وأنه كان أصبح يتحرك بالشيعة حين فُضِعَ عن المغضول (خلاصة تهذيب التهذيب: ص ١٠٣).

٢. الإقتان: ج ٤، ص ٢٠٧.

٣. تهذيب التهذيب: ج ٧، ص ٣٤٠.

٤. تهذيب التهذيب: ج ٨، ص ٣٩٤.

٥. المصدر نفسه: ص ٣٠٨.

وَأَمَّا عطاء بن السائب فكان ممن أخلص الولاء لكل بيت الرسول ﷺ وفقاً لتعاليم
أُشياخه سعيد وابن عباس وغيرهما، وله حديث مع الإمام عليّ بن الحسين زين
العابدين ﷺ يُبَوِّك عن مدى قربهِ لحضرته السنيّة^١.

* * *

الثالث: - كذلك جيّد الطريق - طريق محمد بن إسحاق صاحب السير والمغازي عن
محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد - هكذا بالترديد - عن ابن عباس،
و ابن إسحاق معروف بتشيّعهِ، كما ذكره ابن حجر في التتريب، و شيخنا الشهيد الثاني
في تعليقته على خلاصة الرجال^٢. قال صاحب الكشف: هو أوّل من صَنَّف في علم السير،
و هو رئيس أهل المغازي^٣.

قال السيوطي: وهذه طريق جيّدة وإسنادها حسن. وقد أخرج منها ابن جرير و ابن
أبي حاتم كثير^٤. وفي معجم الطبراني منها أشياء^٥.

* * *

الرابع: - وهو طريق حسن لا بأس به - طريق إسماعيل بن عبد الرحمان أبو محمد
القرشي الكوفي السُديّ الكبير، عن أبي هاشم وأبي صالح، عن ابن عباس. وكذلك عن
مرّة بن شراحيل الهمداني عن ابن مسعود، وناس من الصحابة.

قال جلال الدين: وهذا التفسير يورد منه ابن جرير كثير^٦، وكذا الحاكم في مستدركه
يُخْرِج منه أشياء، ويقصّحه، لكن من طريق مرّة عن ابن مسعود، دون الطريق الأوّل.
و يرى صاحب التراث: أنّه من الممكن جمع نصوص هذا التفسير، وإعادة تكوينه من
جديد^٧. وقال الخليلي - في الإرشاد -: و تفسير السُديّ يورده بأسانيد إلى ابن مسعود

١. معجم رجال الحديث للإمام الحوفي، ج ١١، ص ١٤٥، رقم ٧٦٨٨.

٢. تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام لمسيد الصدر، ص ٢٣٣؛ راجع: تقريب التهذيب لابن حجر، ج ٢، ص ١٤٤،
رقم ٤٠.

٣. كشف الغون لحاجي خليفة، ج ٢، ص ١٠٣.

٤. الإقتان، ج ٤، ص ٢٠٩.

٥. تاريخ التراث العربي لفرّاد سرّكين، المجلد الأوّل، ص ٧٨؛ معجم مصنفات القرآن الكريم، ج ٢، ص ٦٥.

و ابن عباس، و روى عن السدي الأئمة مثل الثوري و شعبة. لكن التفسير الذي جمعه و رواه أسباط بن نصر، و أسباط لم يفتقروا عليه. قال: غير أن مثل التفسير تفسير السدي^١. كان إسماعيل بن عبد الرحمان السدي^٢ من الأئمة الكوفيين، و كان شديد الشيع هو و الكلبي. و مع ذلك فقد وثقه القوم، و أخرج مسلم عنه أحاديث؛ لأنه كان يرجح تعديله على تجريحه^٣. فقد ذكره ابن حبان في الثقات، و قال ابن عدي: له أحاديث يرويها عن عدة شيوخ، و هو عندي مستقيم الحديث صدوق لا بأس به^٤.

و عدّه الشيخ أبو جعفر الطوسي من أصحاب الأئمة: علي بن الحسين زين العابدين، و محمد بن علي الباقر، و جعفر بن محمد الصادق عليه السلام. قال: إسماعيل بن عبد الرحمان السدي أبو محمد المفسر الكوفي^٥. قال المولى الوحيد - في التعليقة -: و صفه بالمفسر مدح. قال المامقاني: و المتحصل من مجموع ما ذكر بشأنه كون الرجل من الحسان^٦، و قد اعتمده الشيخ في تفسيره الشبان كثيراً. و هكذا عدّه ابن شهر آشوب من أصحاب الإمام زين العابدين عليه السلام^٧.

و هو الذي روى قصة الأخنس بن زيد، الذي كان قد وطأ جسم الحسين عليه السلام و فعل ما فعل، فابشلي في تلك الليلة بحريق أصحابه من قبيلة السراج، فلم تزل به النار، حتى صار فحماً على وجه الماء^٨.

* * *

الخامس: - و هو أيضاً حسن - طريق عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، أبو خالد

١. الإفتاح، ج ٤، ص ٢٠٨.

٢. كان يقعد في شدة الجوع في الكوفة فسمي بذلك، توفي سنة (١٣٧ هـ).

٣. قيل كان يتناول الشبان، فلهذا التهذيب، ج ١، ص ٣١٤.

٤. تهذيب التهذيب، ج ١، ص ٣١٤.

٥. رجال العوسج، ص ٨٣، رقم ٥، و ص ١٠٥، رقم ١٩، و ص ١٤٨، رقم ١٠٥.

٦. تنقيح المقال لمامقاني، ج ١، ص ١٣٧، رقم ٨٦١.

٧. مناقب أبي طالب لابن شهر آشوب، ج ٤، ص ١٧٧.

٨. بحار الأنوار، ج ٥، ص ٣٢١-٣٢٢.

المكِّي من أصل رومي، أحد الأعلام الثقات، فقيه أهل مكة في زمانه. قال ابن خلكان: كان عبد الملك أحد العلماء المشهورين، ويقال: إنه أول من صنّف الكتب في الإسلام. كانت ولادته سنة (٨٠ هـ) وتوفي سنة (١٥٠ هـ). قال: وجريج، بضم الجيم وفتح الراء وسكون الياء وبعدها جيم ثانية.

قال الخطيب: وسمع الكثير من عطاء بن أبي رباح وغيره. وعن أحمد بن حنبل، قال: قدم ابن جريج بغداد على أبي جعفر المنصور، وكان صار عليه دين. فقال: جمعت حديث ابن عباس ما لم يجمعه أحد فلم يعظه شيئاً.

و عن علي بن المديني: نظرت فإذا الإسناد يدور على ستة - فذكرهم - قال: ثم صار علم هؤلاء الستة إلى أصحاب الأصناف، ممن يصنّف العلم، منهم من أهل مكة عبد الملك ابن عبد العزيز (ابن جريج). وكان قد تعلّم على يد عطاء بن أبي رباح، ولزمه سبع عشرة سنة. وسئل عطاء: من نسأل بعدك؟ فقال: هذا الفتى، يعني ابن جريج، وكان يعصفه بآله سيّد أهل الحجاز.

و عن أحمد بن حنبل: كان ابن جريج من أوعية العلم. وقال ابن معين: أصحاب الحديث خمسة، وعدّ منهم ابن جريج. وقال يحيى بن سعيد القطان: كتب ابن جريج كتب الأمانة، وإذا لم يحدثك عن كتابه لم ينتفع به. قال أحمد: إذا قال ابن جريج: أخبرني وسمعت، فحسبك به. قال: الذي يحدث من كتاب أصح، وكان في بعض حفظه - إذا حدّث حفظاً - سيء. قال ابن معين: ابن جريج ثقة في كلّ ما روي عنه من الكتاب.

كان ابن جريج ومالك بن أنس (إمام المالكية) قد أخذوا الفقه من نافع. ولكن ابن جريج كان مفضلاً على مالك. فعن أحمد بن زهير، قال: رأيت في كتاب ابن المديني: سألت يحيى بن سعيد، من أثبت أصحاب نافع؟ قال: أيّوب، وعبيد الله، ومالك بن أنس. وابن جريج أثبت من مالك في نافع. قلت: ومن تمّ كان مالك ينافسه في هذه الفضيلة، وربما

كان يرميه بالخلط. قال البخاري: سمعت مالك بن أنس يقول: كان ابن جريج حاطب ليل. وإذا كان مقدماً في الثقة عن نافع، فهو مقدّم في التفسير عن عطاء بن أبي رباح. فقد حدث صالح بن أحمد بن حنبل عن أبيه، قال: عمرو بن دينار وابن جريج أثبت الناس في عطاء.

و ذكره ابن حبان في الثقات، وقال: كان من فقهاء أهل الحجاز وقرائهم ومتقيهم. وأضاف: وكان يدلس، لكن لم كان تدليسه؟

روى البخاري في تفسير سورة نوح، حديثين أخرجهما عن طريق ابن جريج، قال: قال عطاء عن ابن عباس، فزعم أبو مسعود - في الأطراف - أن هذا هو عطاء الخراساني البلخي نزيل الشام، وعطاء هذا لم يسمع من ابن عباس، وابن جريج لم يسمع التفسير من عطاء هذا. قال ابن حجر: فيكون الحديثان منقطعين في موضعين^٢. ومن ثم رموه بأنه كان يدلس! وقد رد ابن حجر على هذا الوهم بما يبرئ ساحة ابن جريج من هذه التهمة، فراجع.

وأما حديثه عن ابن عباس فلا ضير فيه بعد أن كان الواسطة - وهو ثقة - معلوماً، ألا وهو عطاء بن أبي رباح تلميذ ابن عباس، وقد لازم ابن جريج سبعة عشر عاماً يتلقى منه العلم.

* * *

إذن فقد صح ما ذكره ابن حبان بشأن ابن جريج أولاً من كونه ثقةً ثبتاً متقياً، وأن لا منشأً للمعز فيه، وبذلك نرى أنه كان موضع اعتماد الأئمة من أهل البيت أيضاً. على ما رواه ثقة الإسلام الكليني بإسناده الصحيح عن إسماعيل بن الفضل الهاشمي، قال: سألت أبا عبد الله الصادق (عليه السلام) عن المتعة، فقال: ألحق عبد الملك بن جريج فسله عنها، فإن عنده منها علماً. فأتيته فأملئ علي منها شيئاً كثيراً في استحلالها فكتبته، وأتيت بالكتاب أبا

١. تاريخ بغداد للخطيب البغدادي: ج ١٠، ص ٤١٠-٤١٧.

٢. تهذيب التهذيب: ج ٦، ص ٤٦. ٣. المصدر نفسه: ج ٧، ص ٢١٣-٢١٤.

عبد الله ﷺ فعرضت عليه. فقال: صدق، وأقر به^١.

وقد استظهر المولى الوحيد البهبهاني من ذلك كون جرّيج موضع ثقة الإمام ﷺ، وممن يرى رأي الشيعة في فقه الشريعة، ولا سيما ما ذكره ابن أذينة - الراوي عن الهاشمي - في ذيل الحديث: وكان زرارة بن أعين يقول هذا، وحلف أنه الحق. فهذا من المقارنة الظاهرة بين موضع الرجلين (ابن جرّيج وزرارة) في المسألة^٢.

وهكذا استظهر تشييعه منها كل من المولى محمد تقي المجلسي الأول، والشيخ يوسف البحراني، على ما جاء في كلام الحائري^٣.

وأيضاً روى الشيخ أبو جعفر الطوسي بإسناده إلى الحسن بن زيد، قال: كنت عند الإمام أبي عبد الله ﷺ إذ دخل عليه عبد الملك بن جرّيج المكي، فقال له أبو عبد الله: ما عندك في المتعة؟ قال: حدثني أبوك محمد بن علي عن جابر بن عبد الله الأنصاري، أن رسول الله ﷺ خطب الناس، فقال: أيها الناس، إن الله أحلّ لكم الفروج على ثلاثة معان: فرج مورث وهو البتات، وفرج غير مورث وهو المتعة، وملك أيمانكم^٤. وفي سؤال الإمام منه عما لديه في المتعة، دلالة على عنايته به ولطف سابق. كما في الإجابة بأنه حديث أبيك ظرافة وطرافة. أمّا الرواية عن جابر فلعلة تعظيماً لما عسى القوم يذكرون كيف الرواية عن رسول الله ﷺ ولم يدركه! كما فعله الإمام الباقر ﷺ عند ما واجه إنكار القوم. ومسألة استحلال المتعة كانت حينذاك من اختصاص خلّص الصحابة والتابعين ممن يميلون إلى مذهب أهل البيت ﷺ أمثال ابن مسعود وأبي بن كعب وابن عباس وجابر بن عبد الله وأضرابهم، فلا غرو أن ينحصر مثل ابن جرّيج في تلك الزمرة الفائزة، الأمر الذي دعا بابن جرّيج أن يكافح القوم رأياً وعملاً أيضاً. فقد ذكر ابن حجر عن الشافعي، قال:

١. الكافي، ج ٥، ص ٤٥١، رقم ٦٠٠٠، راجع: وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ١٩، رقم ٨.

٢. راجع: التبيين لبهباني (هامش رجال الأسترباذني)، ص ٢٩٥.

٣. راجع: تنقيح المقال، ج ٢، ص ٢٢٩.

٤. تهذيب الأحكام للشيخ الطوسي، ج ٤، ص ٢٤١، باب ٣٣، رقم ٣٧٨، ٥١٠، راجع: الوافي للفيض الكاشاني، ج ٢، ص ٣١، ص ٣٣٠، به ٢٥، من النكاح.

استمتع ابن جرير بسبعين امرأة، مع أنه كان من العباد، وكان يصوم الدهر إلا ثلاثة أيام من الشهر^١.

هذا وقد وقع في إسناد الصدوق من كتابه من لا يحضره الفقيه: ابن جرير عن الضحاک عن ابن عباس، في قضية الناقة التي اشتراها النبي ﷺ من الأعرابي ربعمائة درهم، فقبضها الأعرابي ولم يسلم الناقة إلى النبي، ونكر البيع رأساً، حتى جاء علي بن أبي طالب فقضى قضاه المبرم^٢. وظاهر الصدوق اعتماده. وقد عدّه الشيخ من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام^٣. نعم ذكر أبو عمرو الكشي: أن محمد بن إسحاق، ومحمد بن المنكدر، وعمرو بن خالد الواسطي، وعبد الملك بن جرير، والحسين بن علوان الكلبي، هؤلاء من رجال العامة، إلا أن لهم ميلاً ومحبة شديدة بالنسبة لآل البيت عليهم السلام. قال المامقاني: لا يعد أن يكون بناء الكشي - على كونه عامياً - ناشئاً من شدة تقيته، فإن مثل ذلك كثير في رجال الشيعة^٤.

وكان عند السيّد ابن طاووس من تفسير ابن جرير نسخة جيّدة عتيقة، نقل عنها في كتابه «سعد السعود» المؤلّف سنة ٦٥١ هـ^٥.
السادس: - حسن أيضاً - طريق الضحاک بن مزاحم الهلالي الخراساني. قال ابن شهر آشوب: أصله من الكوفة، وكان من أصحاب السجاد^٦. وقال ابن قتيبة: هو من بني عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة، وكان معلماً، أتى خراسان فأقام بها، مات سنة (١٠٢ هـ)^٧. وذكره ابن حبان في الثقات، وقال: لقي جماعة من التابعين، ولم يشافه أحداً من الصحابة، وكان معلّم كتاب. وقال عبد الله بن أحمد عن أبيه: ثقة مأمون. وقال ابن معين وأبو زرعة: ثقة.

١. تهذيب التهذيب: ج ٦، ص ٤٠٦.
٢. رجال العوسج: ص ٣٣٣، رقم ١٦٣.
٣. فتح المقال: ج ٣، ص ٢٢٩، رقم ٧٤٩٣ (ط ١).
٤. سعد السعود (ط نجف): ص ٢٢٩، وراجع كتابخانه ابن طاووس لأمان گبرگ: ص ٥٣٦، رقم ٥٦٤.
٥. المناقب: ج ٤، ص ١٧٧.
٦. من لا يحضره الفقيه: ج ٣، ص ٦١، رقم ٢.
٧. رجال الكشي: ص ٣٣٣، رقم ٢٥٢-٢٥٨ (ط نجف).
٨. المعارف لأبن قتيبة: ص ٢٠١-٢٠٢.

قال أبو داود سلمة بن قتيبة عن شعبة: حدثني عبد الملك بن ميسرة، قال: لم يلق الضحّاك ابن عباس، إنما لقي سعيد بن جبير بالرّي فأخذ عنه التفسير^١.
قال الذهبي: الضحّاك بن مزاحم البلخي المنستر، أبو القاسم، وكان يؤدّب، فيقال: كان في مكتبه ثلاثة آلاف صبي، وكان يطوف عليهم^٢. ونقل المامقاني عن ملحقات الصراح: أنّه كان يقيم ببلخ وبمرو، وأيضاً بخارا وسمرقند مدّة، ويعلم الصبيان احتساباً، وله التفسير الكبير والتفسير الصغير^٣. وعنه الشيخ من أصحاب الإمام زين العابدين عليه السلام، قال: الضحّاك بن مزاحم الخراساني، أصله الكوفة، تابعي^٤.
و استظهر المامقاني من عبارة الشيخ هذه كونه إمامياً، ولعله من جهة كونه من الكوفة مهد التشيع آنذاك.

نعم، روى عنه التميمي (علي بن إبراهيم بن هاشم) في تفسيره، وقد تعهّد في مقدّمة التفسير أن لا يروي إلا عن مشايخه الثقات^٥، فقد روى - عند تفسير سورة الناس - بإسناده عن مقاتل بن سليمان عن الضحّاك بن مزاحم عن ابن عباس^٦ وقد جعل سيّدنا الأستاذ الإمام الخوئي رحمه الله تبعاً للمجرح العاملي، ذلك دليلاً على وثاقة كلّ من وقع في إسناده هذا الكتاب^٧. وإنّما غمزوا فيه جانب إرساله في الحديث، ولا سيّما عن ابن عباس. قال ابن حجر في التزيين: صدوق كثير الإرسال^٨.

قلت: لا ضير في الإرسال بعد معلوميّة الواسطة، وكون الرجل صدوقاً. كما ذكره ابن حجر بشأن علي بن أبي طلحة الهاشمي. إذن لا وجه لما ذكره السيوطي: أنّ طريق الضحّاك إلى ابن عباس منقطعة، فإنّ الضحّاك لم يلقه.

وأضاف: فإن انضم إلى ذلك رواية بشر بن عمارة عن أبي روق عنه، فضعيفة لضعف

١. تهذيب التهذيب، ج ٤، ص ٤٥٣. ٢. ميزان الاعتدال، ج ٤، ص ٣٦٥.

٣. تنقيح المقال، ج ٢، ص ١٠٥، رقم ٥٨٣٣. ٤. رجال القوسي، ص ١٤.

٥. تفسير التميمي، ج ٤، ص ٤. ٦. المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٥٠.

٧. معجم رجال الحديث، ج ١، ص ٤٩ و ٤٩٠، ص ١٤٦-١٤٥.

٨. تزيين التهذيب، ج ١، ص ٣٧٣، رقم ١٧.

بشر. قال: وقد أخرج من هذه النسخة ابن جرير وابن أبي حاتم كثيراً. قال: وإن كان من رواية جوير عن الضحاك فأشدّ ضعفاً؛ لأنّ جويراً شديد الضعف متروك. ولم يُخرج ابن جرير ولا ابن أبي حاتم من هذا الطريق شيئاً، وإنّما أخرجها ابن مردويه وأبو الشيخ ابن حبان^١.

السابع: طريق صالح، هو طريق أبي الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الخراساني، المروزي. أصله من بلخ وانتقل إلى البصرة ودخل بغداد وحدث بها. وكان مشهوراً بتفسير كتاب الله العزيز، وله التفسير المشهور. قال ابن خلكان: أخذ الحديث عن مجاهد ابن جبر وعطاء بن أبي رباح والضحاك وغيرهم، وكان من العلماء الأجلاء. قال الإمام الشافعي: الناس كلّهم عيال على مقاتل بن سليمان في التفسير^٢. توفّي سنة (١٥٠ هـ). قال أحمد بن سيّار: كان من أهل بلخ، وتحوّل إلى مرو، وخرج إلى العراق، توفّي بالبصرة سنة (١٥٠ هـ).

كان تفسيره موضع إعجاب العلماء من أوّل يومه، غير أنّهم كانوا يتهمونه بأشياء هو منها براء. قال القاسم بن أحمد الصّفّار: قلت لإبراهيم الحربي: ما بال الناس يطعنون على مقاتل؟ قال: حسدٌ منهم له. فعن ابن المبارك: لقد نظر إلى شيء من تفسيره: يا له من علم، لو كان له إسناد! وعن سفيان بن عبد الملك، عنه قال: أرم به، وما أحسن تفسيره، لو كان ثقة! قال عبد الرزاق: سمعت ابن عيينة يقول: قلت لمقاتل: تحدث عن الضحاك، وزعموا أنّك لم تسمع منه! قال: سبحان الله، لقد كنت آتية مع أبي، ولقد كان يُخلّق عليّ وعليه الباب! كناية عن أنّه كان يباده الحديث ساعات طوال^٣.

١. الإفتاح: ج ٤، ص ٣٠٩.

٢. وفيات الأعيان: ج ٥، ص ٢٥٥، رقم ٨٣٣. قال سواح: وتوجد قائمة بالتفسير الناجية التي أخذت من هذه التفسير عند صينيون. وكان هذا التفسير أحد مراجع التحلي في كتابه الكشف والبيان. وقد حصل الخطيب البغدادي في دمشق على إجازته وروايته، كما في مخطوطة. وقد استخدمه الصبري في تفسيره وفي تاريخه. وقد حققه الدكتور شحافة، وهو في رواية أبي صالح الهذلي بن حبيب الدنداني الذي كان يعيش في سنة (١٩٠ هـ) وقد أضاف هذا في بعض المواضع في نفس مذاق من أسانيد بعض الآخرين. راجع: معجم مصنفات النيران الكريم.

٣. تهذيب التهذيب: ج ١٠، ص ٢٨٠.

ج ٢، ص ١٧٠، رقم ٨٠٠٧.

و رماه أبو حنيفة بالتشبيه. ولكن لما سألهم عن ذلك، فقال: بلغني أنك تشبهه؟ قال: إنما أقول: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ» فمن قال غير ذلك فقد كذب^١.

و أخرج الخطيب عن القاسم بن أحمد الصفار، قال: كان إبراهيم الحربي يأخذ مني كتب مقاتل، فينظر فيها. فقلت له ذات يوم: أخبرني يا أبا إسحاق، ما للناس يطعنون على مقاتل؟ قال: حسداً منهم لمقاتل، قال: وقال مقاتل: أغلق عليّ و على الضحّاك باب أربع سنين.

قال الخطيب: وكان له معرفة بتفسير القرآن، ولم يكن في الحديث بذلك. و أخرج عن أحمد بن حنبل، قال: كانت له كتب ينظر فيها، إلا أنني أرى أنه كان له علم بالقرآن. و عن يحيى بن شبل، قال: قال لي عباد بن كثير: ما يمنعك من مقاتل؟ قال: قلت: إن أهل بلادنا كرهوه! قال: فلا تكرهه، فما بقي أحد أعلم بكتاب الله منه. وكان عند سفيان بن عيينة كتاب مقاتل، كان يستدل به و يستعين به. و قال مقاتل بن حيان - لما سئل أنت أعلم أم مقاتل بن سليمان -: ما وجدتُ علم مقاتل في علم الناس إلا كالبحر الأخضر (المحيط) في سائر البحور. و عن بقة بن الوليد، قال: كنت كثير السمع لشعبة وهو يسأل عن مقاتل، فما سمعته قطّ ذكره إلا بخير.

و من طريف ما يُذكر عنه - وهو حال ببغداد -: أن أبا جعفر المنصور كان جالساً ذات يوم، وكان ذهاب قد ألح عليه يقع على وجهه و ألح في الوقوع مراراً حتى أضجره. فأرسل من يحضر مقاتل بن سليمان، فلما دخل عليه قال له: هل تعلم لماذا خلق الله المذّباب؟ قال: نعم، ليبدل الله به المجرّارين، فسكت المنصور^٢.

نعم، كان الرجل صريحاً في لهجته، واسع العلم، بعيد النظر، شديد في دينه، صلباً في عقيدته. و فوق ذلك كان يميل مع مذهب أهل البيت، ذلك المنهج الذي انتهجه أشياخه من

١. المصدر نفسه: ص ٢٨٦-٢٨٧.

٢. تاريخ بغداد ج ١٣ ص ١٦٠-١٦٩ وفيات الأعيان: ج ٥ ص ٢٥٥ رقم ٧٣٣.

قبل، من المتأثرين بمدرسة ابن عباس رضوان الله عليه، الأمر الذي جعل من نفسه مرمى سهام الضعفاء القاصرين، وكم له من نظير.

يدلّك على ثبات الرجل في المذهب، كما يدلّ على وثاقته واعتماد الأصحاب عليه أيضاً، ما رواه أبو جعفر الصدوق بإسناده الصحيح إلى الحسن بن محبوب - وهو من أصحاب الإجماع - عن مقاتل بن سليمان عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال: قال: أنا سيّد النبيّين ووصيّ سيّد الوصيّين وأوصياؤه سادة الأوصياء - ثم جعل يذكر الأنبياء وأوصياءهم حتّى انتهى إلى بردة، من أوصياء عيسى بن مريم عليه السلام - قال: ودفعها (أي الوصاية) إليّ وأنا أدفعها إليك يا عليّ - إلى قوله - ولتكرن بك الأمّة، ولتختلفن عليك اختلافاً شديداً، التابت عليك كالمقيم معي، والشاذ عنك كالشاذ مني، والشاذ مني في النار، والنار منوى الكافرين^١.

هذه الرواية إن دلّت فإنما تدلّ على كون الرجل من أخصّ الخواصّ لدى الإمام عليه السلام. وقد عدّه الشيخ أبو جعفر الطوسي، من أصحاب الباقر والصادق عليه السلام. وله رواية أخرى، رواها الكليني بإسناده الصحيح إلى ابن محبوب عنه عن الصادق عليه السلام. وعدّه أبو عمرو الكشي من البريّة (الزيدية)^٢. لكن يعبّده أن عقيدته كانت امتداداً لعقيدة ابن عباس.

و بعد، فلعلّك تعرف السبب فيما ذكره السيوطي بشأنه: الكلبيّ ينضّل عليه، لما في مقاتل من المذاهب الرديئة^٣. أمّا الخليليّ فقد أنصف حيث قال: فمقاتل في نفسه ضعفه، وقد أدرك الكبار من التابعين. والشافعي أشار إلى أن تفسيره صالح^٤.

الثامن: - أيضاً صالح - طريق أبي الحسن عطية بن سعد بن جنادة، العوفي الكوفي المتوفى سنة (١١١ هـ). قال الذهبي: تابعي شهير^٥، روى عن ابن عباس وعكرمة وزيد

١. من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٣٩، ١٣٠، باب ٧٢، رقم ١.

٢. رجال الطوسي، ص ٣٨، رقم ٤٩، ص ٣١٣، رقم ٥٣٦.

٣. الكافي (الروضة)، ج ٤، ص ٣٣٣، رقم ٣٠٨. ٤. رجال الكليني، ص ٣٣٤، رقم ٣٥٢.

٥. الإفتان، ج ٤، ص ٢٠٩. ٦. المصدر نفسه، ص ٢٠٨.

٧. ميزان الاعتدال، ج ٣، ص ٨٠، ٨٩، رقم ٥٦٦٧.

ابن أرقم وأبي سعيد. قال عطية: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث مرّات على وجه التفسير، وأما على وجه القراءة فقرأت عليه سبعين مرّة. وعن ملحقات الصراح: أن له تفسيراً في خمسة أجزاء. قال ابن عدي: قد روى عن جماعة من الثقات، وهو مع ضعفه يكتب حديثه، وكان يعدّ مع شيعة أهل الكوفة. كتب الحجاج إلى عامله محمد بن القاسم أن يعرضه على سبّ عليّ عليه السلام فإن لم يفعل فاضربه أربعمائة سوط واحلق لحيته، فاستدعاه فأبى أن يسبّ، فأمضى فيه حكم الحجاج. ثم خرج إلى خراسان، فلم يزل بها حتّى ولى عمر بن هبيرة العراق، فتقدمها فلم يزل بها إلى أن توفّي سنة (١١١ هـ). وقال ابن حجر: وكان ثقة إن شاء الله، وله أحاديث صالحة، قال: ومن الناس من لا يحتجّ به. وقال ابن معين: صالح الحديث. قال أبو بكر البرزاري: كان يعدّ في التشيع، وروى عنه جماعة الناس. وقال الساجي: ليس بحجّة، وكان يقدم عليّاً على الكل^١. قال السيوطي: وطريق العوفي عن ابن عباس، أخرج منها ابن جرير وابن أبي حاتم كثيراً. والعوفي ضعيف ليس بواحد، وربما حسن له الترمذي^٢.

قلت: لا قدح فيه بعد أن كان منشأ الغمز هو تشييعه لأل بيت الرسول ﷺ والدفاع عن حريمهم الطاهر. ومن ثمّ فقد اعتمدته القوم ورووا أحاديثه صالحة وكان عندهم مرضياً. فقد ذكر أبو عبد الله الذهبي - في ترجمة أبان بن تغلب، بعد أن يصفه بأنه شيعي جلد، لكنّه صدوق، فلنا صدقه وعليه بدعته، وقد وثقه ابن حنبل وابن معين وأبو حاتم - فلتأمل أن يقول: كيف ساع توثيق مبتدع، وخذ الثقة العدالة والإتقان؟ فكيف يكون عدلاً من هو صاحب بدعة؟!.

قال: وجوابه، إن البدعة على ضربين، فبدعة صغرى كغلو التشيع أو كالتشيع بلا غلو ولا تحرف، فهذا كثير في التابعين وتابعيهم، مع الدين والورع والصدق. فلو ردّ حديث هؤلاء، لذهب جملة من الآثار النبويّة، وهذه مفسدة بيّنة^٣.

١. تهذيب التهذيب: ج ٧، ص ٣٣٤-٣٣٦.

٢. فتح المقال: ج ٢، ص ٢٥٣، رقم ٧٩٤١.

٣. ميزان الاعتدال: ج ١، ص ٥.

٣. الإتقان: ج ٤، ص ٢٠٩.

قال ابن حجر - بعد أن ذكر توثيق ابن عدي لأبان بن تغلب قائلاً: له نُسَخُ عاصمتها مستقيمة، إذا رُوي عنه ثقة. وهو من أهل الصدق في الروايات، وإن كان مذهبه مذهب الشيعة، وهو في الرواية صالح لا بأس به - قال ابن حجر: هذا قول منصف، وأما الجوزجاني فلا عبرة بحطه على الكوفيين^١. وذكر النجاشي أن عطية العوفي، روى عنه أبان بن تغلب، وخالد بن طهمان السلولي، وزباد بن المنذر (أبو الجارود)^٢.

قال المحدث القمي: عطية العوفي أحد رجال العلم والحديث يروي عنه الأعمش وغيره، وروى عنه أخبار كثيرة في فضائل أمير المؤمنين عليه السلام، وهو الذي تشرف بزيارة الحسين عليه السلام مع جابر الأنصاري يوم الأربعاء، الذي يُعد من فضائله أنه كان أول من زاره بعد شهادته. قال: ويظهر من كتاب بلاغات النساء أنه سمع عبد الله بن الحسن يذكر خطبة فاطمة الزهراء عليها السلام في أمر فدك^٣.

و من مواقفه الحاسمة دون بني هاشم، أنه كان رأس الفريق الذين انتدبهم أبو عبد الله الجذلي مبعوث المختار بن أبي عبيدة النفسي في أربعة آلاف لإنقاذ بني هاشم - وفيهم محمد بن الحنفية وعبد الله بن عباس - من دور قد جمع عبد الله بن الزبير لهم حطباً ليحرقهم بالنار، إن لم يبايعوا، فدخل عطية بن سعد بن جندادة العوفي مكة، فكبروا تكبيرة سمعها ابن الزبير، فانطلق هارباً حتى دخل دار الندوة، ويقال: تعلق بأستار الكعبة، وقال: أنا عائد الله. فأقبل عطية فأحرق الحطب عن الأبواب، وأنقذهم. في تفصيل ذكره محمد بن سعد كاتب الواقدي في الطبقات^٤.

قال الدكتور شواح: كان عطية شيعياً وعدّه الكلبي حجة في تفسير القرآن. وهذا التفسير مروي، فقد نقل الطبري من هذا التفسير نقولاً استخدمها في ١٥٦٠ موضعاً من

١. تهذيب التهذيب، ج ١، ص ٥٣. ٢. رجال النجاشي، ص ٧ و ١١٠ و ١٢١ (ط حجريّة).

٣. سفينة البحار، ج ٣، ص ٢٠٥. وأما الزيارة فقد نقلها السيد أمين في البواعث، ص ٣٣٧-٣٣٨ عن كتاب بشارة المصطفى لعبد الدين الصيرفي.

٤. الطبقات، ج ٥، ص ٧٤-٧٥ في ترجمة محمد ابن الحنفية (ط ليدن ١٣٢٢ هـ).

تفسيره بالسند التالي: «حدثني محمد بن سعد، قال: حدثني أبي، قال: حدثني عمي الحسين بن الحسن عن أبيه عن جده (عطية بن سعد الكوفي) عن ابن عباس». كما استخدم الطبري في تاريخه أيضاً نقولاً وشواهد من هذا التفسير. وقد استخدم التعليق السند السابق في كتابه الكشف والبيان. وهذا التفسير يدخل ضمن الكتب التي حصل الخطيب البغدادي على حق روايتها من أساتذته في دمشق، كما في مشيخته، وتاريخ التراث العربي (ج ١، ص ١٨٧-١٨٨).

وذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبري - في منتخب ذيل المذيل - فيمن توفي سنة (١١١ هـ)، قال: ومنهم عطية بن سعد بن جنادة الكوفي من جديدة قيس ويكنى أبا الحسن. قال ابن سعد: أخبرنا سعيد بن محمد بن الحسن بن عطية، قال: جاء سعد بن جنادة إلى علي بن أبي طالب عليه السلام وهو بالكوفة فقال: يا أمير المؤمنين، أنه ولد لي غلام فسمته فقال: هذا عطية الله، فسمي عطية، وكانت أمه رومية. وخرج عطية مع ابن الأشعث. هرب عطية إلى فارس، وكتب الحجاج إلى محمد بن القاسم الثقفي أن ادع عطية فإن لعن علي بن أبي طالب عليه السلام إلا فاضربه أربعاً سوطاً وحلق رأسه ولحيته. فدعاه وأقرأه كتاب الحجاج، وأبى عطية أن يفعل، فضربه أربعاً سوطاً وحلق رأسه ولحيته. فلما ولي قتيبة بن مسلم خراسان، خرج إليه عطية، فلم يزل بخراسان حتى ولي عمر بن هبيرة العراق، فكتب إليه عطية يسأله الإذن له في القدوم فأذن له، فقدم الكوفة فلم يزل بها إلى أن توفي سنة (١١١ هـ). وكان كثير الحديث ثقة إن شاء الله.

* * *

التاسع: - وهو أيضاً طريق صالح على الأرجح - طريق أبي النضر محمد بن السائب ابن بشر الكلبي الكوفي، السابغة المفسر الشهير، عن أبي صالح مولى أم هانئ، عن ابن عباس. وقد وصفه السيوطي بأنه أوهى الطرق، وأضاف: فإن انضم إلى ذلك رواية محمد بن

١. معجم مصنفات القرآن الكريم: ج ٥، ص ١٦٣، رقم ٩٩٧.

٢. منتخب ذيل المذيل للطبري: ص ١٣٨ المسحق بالجزء الثامن من تاريخ الطبري (ط القاهرة ١٣٥٨ هـ).

مروان السدي الصغير، فهي سلسلة الكذب. قال: وكثيراً ما يُخرج منها الشعلبي^١ والواحدي^٢. ثم استدرك ذلك بقوله: لكن قال ابن عدي في الكامل: للكلبي أحاديث صالحة، وخاصة عن أبي صالح، وأخيراً قال: وهو - الكلبي - معروف بالتفسير، وليس لأحد تفسير أطول ولا أشبع منه^٣.

قال ابن خلكان: صاحب التفسير و علم النسب، كان إماماً في هذين العلمين.^٤ قال ابن سعد: كان محمد بن السائب عالماً بالتفسير وأنساب العرب وأحاديثهم، وتوفي بالكوفة سنة (١٤٦ هـ) في خلافة أبي جعفر المنصور^٥. وكان يتشيع عن إرث تليد، وليس طارفاً. قال ابن سعد: وكان جده بشر بن عمرو وبنوه: السائب وعبيد وعبد الرحمان، شهدوا الجمل مع علي بن أبي طالب عليه السلام.

و للكلبي شهادة راقية بشأن الكلبي، يذكر قصة استبصاره، ثم يعقبها بقوله: «فلم يزل الكلبي يدين الله بحب آل هذا البيت حتى مات»^٦. ومن ثم رموه بالضعف قارة وبالابتداع أخرى، ومع ذلك فلم يجدوا بداً من الانصياع لمقام علمه الرفيع، وأن يلمسوا أعتابه بكل خضوع وبخوع. فقد اعتمده الأئمة وجهابذة التفسير والحديث^٧.

أمّا ما ألقوه به من الغلو في التشيع فلا أساس له، وإنما وضعوه عليه قصد التشويه سمعته، بعد أن لم يكن رميّه بمجرد التشيع قدحاً فيه. فعن المحاربي قال: قيل لزائدة بن قدامة: ثلاثة لا تروي عنهم، ابن أبي ليلى، وجابر الجعفي، والكلبي؟ قال: أمّا ابن أبي ليلى

١. هو أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري. وقد اعتمد كبار المفسرين أمثال الزمخشري والبرسني وغيرهما. قال القمي: كان يتشيع، أو لم يكن يتعصب كما يتعصب أقرانه. توفي سنة (٤٣٧ هـ) (الكنى والألقاب، الشيخ عباس القمي، ج ٢، ص ١٣١).

٢. هو أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري أساطع عصره، واحد دهره، وكان النمام بكره ويعظمه، توفي سنة (٤٦٨ هـ) (المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٧٧).

٣. الإفتان، ج ٤، ص ٣٠٩، الكامل لابن عدي، ج ٥، ص ٣٨٢.

٤. وفیات الأعيان، ج ٤، ص ٣٠٩، رقم ٦٣٤. ٥. العبدات، ج ٦، ص ٢٥٠ (ط ليدن).

٦. المصدر نفسه، ص ٣٤٩، تهذيب التهذيب، ج ٩، ص ٨٠.

٧. الكافي، ج ١، ص ٣٥١، رقم ٦. ٨. تهذيب التهذيب، ج ٩، ص ١٧٨، رقم ٣٦٦.

فلمست أذكره، وأما جابر فكان يؤمن بالرجعة^١، وأما الكلبي - وكنت أختلف إليه - فسمعتنه يقول: مرضت مرضةً فسيت ما كنت أحفظ، فأتيت آل محمد، فتفلوا في في فحفظت ما كنت نسيت! قال: فتركته^٢. وعن أبي عوانة: سمعت الكلبي بشي^٣، من تكلم به كفر. قال الأصمعي: فراجعت الكلبي وسألته عن ذلك، فجحد. قال الساجي: كان ضعيفاً جداً، لفرطه في الشيع^٤.

هذا، ولكن ابن عدي^٥ قال بشأنه: له غير ذلك (الذي رموه بالخلو) أحاديث صالحة، وخاصة عن أبي صالح، وهو معروف بالتفسير، وليس لأحد أطول من تفسيره. قال: وحدث عنه ثقات من الناس ورضوه في التفسير^٦.

يدللك على اضطلاعه في التفسير ما ذكره ابن النديم، قال: إن سليمان بن علي (عم السفاح والمنصور) أقدم محمد بن السائب من الكوفة إلى البصرة وأجلسه في دار، فجعل يملئ على الناس القرآن [أو يفتره] حتى بلغ إلى آية في سورة براءة، ففسرها على خلاف ما يعرف. فقالوا: لا نكتب هذا التفسير! فقال محمد: والله، لا أملت حرفاً حتى يكتب

١. بماذا يذكر منكروا الرجعة، قوله تعالى: ﴿وَأَنذَرْتُ الْقُرْآنَ فَوَلَّيْتُمْ أَعْمُونَ﴾ لهم دائرة من الأرض فكلهم أن الناس كانوا بأبائنا لا يوقنون ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ممن يكذب بأبائنا فهم يورعون. النمل (٣٧): ٨٣-٨٢.
 ٢. ما ذاك اليوم الذي تخرج الدابة لتكفيهم ولتزعجهم الحجة وقد وقع القول عليهم! (مجمع البيان: ج ٥ ص ٦٣٤-٦٣٥).

٣. وما ذاك اليوم الذي يحشر من كل أمة فوج، ٤. وقد صرح المفسرون بأن من هذا السجيع (التفسير الكبير: ج ٢٤ ص ٦٩٨).

في حين أن يوم الحشر الأكبر هو اليوم الذي يحشر فيه الناس جميعاً «وَنَحْشُرَنَّهُمْ فَلَمَّ نَعَادِرُ مِنْهُمْ أَهْدَأُ» الكهف (١٨): ٤٧. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتُزْعَجُ مِنَ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَفْوَةٍ دَاخِرِينَ﴾ النمل (٣٧): ٨٧.

٥. هذا الكلام من أعمدة العمدة الجهاد: كيف يستكر ذلك بشأن آل محمد العيين الذين أذهب الله عنهم الرجس وجهرهم تطهيراً! ليس الله قد شافني عياناً ^١ من الرمد يوم غيبر، يرى النبي الكريم ^٢ حسبما رواه الثريان واقتدت عليه كلمة الأئمة النذات. قال أبو نعيم: فبصق رسول الله ^٣ في عينيه ودعا له فبرأ حتى كان لم يكن به وجع (حياة الأولياء، ج ١ ص ٦٦، رقم ١٤).

٦. وهذا من فضل الله على عباده المخلصين، يحجب دعاءهم ويجعل الشفاء على يديهم رحمة منه على العباد.

٣. فيزياد التهذيب: ج ٩ ص ١٧٩-١٨٠. ٤. المصدر نفسه: ج ٩ ص ١٨٨.

تفسير هذه الآية على ما أنزل الله! فرفع ذلك إلى سليمان بن علي، فقال: اكتبوا ما يقول ودعوا ما سوى ذلك^١.

قلت: ولعل الآية هي قوله تعالى: «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُودٍ لَمْ تَرَوْهَا»^٢. فقد حاول غوغاء العوام إرجاع ضمير «عليه» إلى صاحب، ليكون فضيلة له، بحجة أن النبي ﷺ لم ينزعج حتى يسكن بل لم يزل معه سكينته^٣.

و أورد جلال الدين السيوطي روايات بهذا الشأن^٤، وتركها الطبري، وفسر الآية بنزول السكينة على رسوله، مكتفياً بقوله: وقد قيل: على أبي بكر^٥. أما ابن كثير فجعل إرجاع الضمير إلى الرسول أشهر القولين، ورد على مستمسك القول الثاني بأن تداوم السكينة مع النبي، لا ينافي تجددتها، خاصة بتلك الحال. ولهذا قال: «وَأَيَّدَهُ بِجُودٍ لَمْ تَرَوْهَا»^٦. وفصل الطبرسي الكلام في ذلك بعض الشيء، فراجع^٧.

و لأبي حاتم - هذا - كلام غريب، ننقله بلفظه:

قال: يروي الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس التفسير، وأبو صالح لم ير ابن عباس ولا سمع منه شيئاً، ولا سمع الكلبي من أبي صالح إلا الحرف بعد الحرف، فجعل لما احتجج له، تخرج له الأرض أفلاذ كبدها!  مركز بحوث وتدر علوم إسلامي

قال: لا يحال ذكره في الكتب، فكيف الاحتجاج به! والله جل وعلا ولي رسوله ﷺ تفسير كلامه^٨. ومحال أن يأمر الله نبيه أن يبين لخلق مراده ويفسر لهم، ثم لا يفعل، بل أن عن مراد الله وفسر لأئمة ما يهم الحاجة إليه، وهو سنده ﷺ فمن تتبع السنن، حفظها وأحكمها، فقد عرف تفسير كلام الله، وأغناه عن الكلبي وذويه.

قال: وما لم يبينه من معاني الآي، وجاز له ذلك، كان لمن بعده من أئمة أجور وترك

١. الفهرست لابن النديم، ص ١٤٥.

٢. التوبة (٩): ٤٠.

٣. راجع: روح المعاني للآلوسي، ج ١٠، ص ١٨٧ بالغ الرازي - في ظاهر كلامه - في الدفاع عنه، في تفسيره، ج ١٦، ص ٦٣.

٤. الدر المختور، ج ٥، ص ١٩٨ و ٢٠٢.

٥. تفسير ابن كثير، ج ٢، ص ٣٥٨.

٦. تفسير الطبري، ج ١٠، ص ٩٦.

٧. النحل (٦٦): ٤٤.

٨. مجمع البيان، ج ٥، ص ٣٦.

التفسير لما تركه رسول الله ﷺ أخرى. ومن أعظم الدليل على أن الله لم يرد تفسير القرآن كله، أن النبي ﷺ ترك من الكتاب متشابهاً من الآي، وآيات ليس فيها أحكام، فلم يبين كيفيتها لأئمة؛ فدل ذلك على أن المراد من قوله: «لَتَبَيِّنَنَّ لِنَاسٍ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» كان بعض القرآن لا كله.

قلت: هذا كلام ناشئ عن عصبية عمياء. كيف يجزأ مسلم متعهد أن ينسب إلى رسول الله ﷺ أنه لم يفسر لأئمة جميع ما أُنهم في القرآن إلهاماً، وقد أمره تعالى بذلك؛ وقد أثبتنا فيما قبل أن النبي ﷺ بين الجميع إما في إيجاز أو تفصيل، ولم يترك شيئاً تحتاج إليه أئمة - ومنها فهم معاني القرآن كله - لم يبينه لهم، إنما عليه البيان كما كان عليه البلاغ. أما توسع الكلبي في التفسير، فأمر معقول، بعد كونه ناجماً عن توسعه في العلم، وتربيته في مهد العلم كوفة العلماء الأعلام من صحابة الرسول الأخيار. وهذا لا يعد عيباً في الرجل.

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم يهتفون من قراع الكتابات و تفسير الكلبي هذا لا يزال موجوداً منعماً بالحياة، وقد استقصى الدكتور شواخ نسخته المخطوطة في المكتبات اليوم، منذ نسخته التي كتبت سنة (١٤٤ هـ) حتى القرن (١٢).

* * *

وأما أبو صالح - ويقال له: بإدام أو بإذان، مولى أم هانئ بنت أبي طالب - فقد روى عن علي بن عيسى وابن عباس ومولاه أم هانئ، وروى عنه الأجلاء كالأعمش والسدي الكبير والكلبي والتوري وغيرهم. قال علي بن المديني عن يحيى القطان: لم أر أحداً من أصحابنا تركه، وما سمعت أحداً من الناس يقول فيه شيئاً.

١. المجروحين لابن حبان، ج ٥، ص ٣٥٥.

٢. معجم مصنفات القرآن الكريم، ج ٥، ص ١٦٦-١٦٩، رقم ١٠٠٥.

قال ابن حجر: وثقه العجلي وحده. قال: ولما قال عبد الحق - في الأحكام -: إنَّ أبا صالح ضعيف جدًّا، أنكر عليه أبو الحسن ابن القطان في كتابه^١. وقال ابن معين: ليس به بأس. وقال ابن عدي: عامَّة ما يرويه تفسير^٢.

قلت: ما وجه تضعيفه إلا ما ضَعَف به نظراؤه من حَم حول هذا البيت الرفيع؛ إذ من الطبيعي أن مولى أم هانئ أخت الإمام أمير المؤمنين، وقد كانت كأخيها الإمام موضع عناية النبي ﷺ من أول يومها^٣، وكانت ذات علاقة بأخيها أمير المؤمنين ﷺ تخلص له الولاء، فلا يكون مولاهما - وهو تحت تربيتها - بالذي يختار غير سبيلها المستقيم، فلا غرو إذن ممن لا يعرف ولاد لهذا البيت أن يتهم الموالين لهم، وأقله الرمي بالضعف!

هذا الجوزجاني يقول: كان يقال له: ذو رأي غير محمود^٤. نعم، غير محمود عندهم، ولا كان مرضياً لديهم، مادام لم ينخرط في زمرة من ذوي الرأي العام.

وبعد، فقد تفرد ابن حبان بأنَّ أبا صالح باذان لم يسمع عن ابن عباس. كيف لم يسمع منه وهو معه في زمرة علي مع سائر أوليائه الكرام. قال ابن سعد: أبو صالح، واسمه باذان، مولى أم هانئ بنت أبي طالب، وهو صاحب التفسير الذي رواه عن ابن عباس، ورواه عنه الكلبي محمد بن السائب، وأيضاً سَمَّاك بن حرب وإسماعيل بن أبي خالد^٥.

* * *

وأمَّا محمد بن مروان بن عبد الله الكوفي، السدي الصغير، فقد روى عن جماعة من أهل العلم كالأعمش ويحيى بن سعيد الأنصاري ومحمد بن السائب الكلبي وأضرابهم. وروى عنه الكثير من الأعلام كالأصمعي وهشام بن عبيد الله الرازي ويوسف بن عدي وأمثالهم. ممَّا يُبَيِّن عن موضع الرجل، وأَنَّهُ موضع الثقة من أئمة الحديث.

٢. ميزان الاعتدال، ج ١، ص ٢٩٦.

٤. تهذيب التهذيب، ج ١، ص ٤١٧.

١. تهذيب التهذيب، ج ١، ص ٤١٧.

٣. راجع: الإسماعيلية، ج ٤، ص ٥٠٣.

٥. العبدات، ج ٦، ص ٢٠٧ (ط ليدن).

و قد ضعفه كثير من أصحاب التراجم^١ على ديدنهم في التعامل على الكوفيين، على ما أسلفنا، سوى أن محمد بن إسماعيل البخاري لم يضعفه صريحاً؛ إذ لم يجد إلى ذلك سبيلاً، واكتفى بأن لا يكتب حديثه. قال: محمد بن مروان الكوفي، صاحب الكلبي، سكتوا عنه، لا يكتب حديثه ألبتة^٢. وقال النسائي: مثرون الحديث^٣.

و قد عدّه ابن شهر آشوب من أصحاب الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام، قال: و محمد ابن مروان الكوفي، من ولد أبي الأسود، ولعله من جهة البنت. وكذا عدّه الشيخ من رجال الباقر عليه السلام، لكن وصفه بالكلبي نسبة إلى شيخه محمد بن السائب. وفي الكلبي^٤ - في ترجمة معروف بن خربوذ - رواية عن محمد بن مروان - ولعله السدي - تدل على ملازمته للإمام الصادق عليه السلام عند ما كان يقدم عليه المدينة، أو عند ما كان الإمام مبعداً إلى الحيرة في العراق.

و أمّا التفسير الذي يحمل عنوان تفسير ابن عباس باسم تنوير المقباس^٥، فقد ذكروا أنه من جمع الفيروز آبادي صاحب القاموس، لكنه بنفس الإسناد الذي وصفه السيوطي بأنه سلسلة الكذب حسب تعبيره، وإليك بعض الكلام عنه:

مركز تحقيق كتب تنوير علوم السدي

تفسير ابن عباس

هناك تفاسير منسوبة إلى ابن عباس،

منها: ما رواه مجاهد بن جبر. ذكره ابن التميم في الفهرست بروايتين: أحدهما عن طريق حميد بن قيس، والأخرى عن طريق أبي نجيع يسار الثقف الكوفي، توفي سنة (١٣١ هـ). يرويه عنه ابنه أبو يسار عبد الله بن أبي نجيع، وعنه ورقاء بن عمر اليشكري^٦.

١. تهذيب التهذيب: ج ٩، ص ٥٣٦، رقم ٧١٩.

٢. الضعفاء للبخاري: ص ١٠٥، رقم ٣٤٠.

٣. الضعفاء والمتروكين للنسائي: ص ١٤، رقم ٥٣٨.

٤. المناقب: ج ٤، ص ٢٩١.

٥. رجال الخواري: ص ٣٥، رقم ٤. وفيه نقاش، حيث وفاة الإمام وقعت سنة (١١٤ هـ) ويبعد أن يعمر السدي (ت ١٨٦ هـ) تلك المدة الطويلة.

٦. رجال الكلبي: ص ١٨٥، رقم ٨٨.

٧. ص ١٨٦ هـ. فلك المدة الطويلة.

٨. الفهرست لابن التميم: ص ٥٦.

٩. ص ١٨٦ هـ. فلك المدة الطويلة أيضاً.

وهذا الطريق صححته الأئمة واعتمدته أرباب الحديث. وقد طبع أخيراً باهتمام مجمع البحوث الإسلامية بباكستان سنة (١٣٦٧ هـ.ق.)^١، وقد مرّ شرحه في ترجمة مجاهد.

الثاني: تفسير ابن عباس عن الصحابة، لأبي أحمد عبد العزيز بن يحيى الجلوديّ المتوفى سنة (٢٣٢ هـ). وهذا ذكره أبو العباس النجاشي، قال: الجلوديّ الأزديّ البصريّ أبو أحمد شيخ البصرة وأخباريّها، وكان من أصحاب أبي جعفر الباقر عليه السلام. وجلود: قرية في البحر، وقيل: بطن من الأزديّ. قال: وله كتب ذكرها الناس - وعدّها أكثر من سبعين كتاباً - وذكر منها الكتب المتعلقة بابن عباس مسندة عنه، منها: كتاب التنزيل عنه، وكتاب التفسير عنه، وكتاب تفسيره عن الصحابة^٢.

الثالث: تفسير ابن عباس الموسوم بـ «تفسير المقباس» من تفسير عبد الله بن عباس، في أربعة أجزاء، من تأليف محمد بن يعقوب النيرورز آباديّ صاحب القاموس (٧٢٩-٨١٧ هـ)^٣. وقد طبع مكرّراً، وفي هامش الدر المنثور أيضاً.

و السند في أوله هكذا: أخبرنا عبد الله بن المأمون الهروي، قال: أخبرنا أبي، قال: أخبرنا أبو عبد الله، قال: أخبرنا أبو عبيد الله محمود بن محمد الرازي، قال: أخبرنا عمار بن عبد المجيد الهروي، قال: أخبرنا علي بن إسحاق السمرقندي، عن محمد بن مروان، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس^٤.

غير أنّ علي بن إسحاق بن إبراهيم الحنظليّ السمرقندي، قال ابن حجر: مات في سؤال سنة (٢٣٧ هـ)^٥.

وأما محمد بن مروان السديّ الصغير، فقد توفى سنة (١٨٦ هـ). وعليه فيكون تحمّله عنه في حال الصغر جدّاً^٦. وسائر رجال السند مجهولون، كما لم يأت تصريح باسم

١. راجع: مجمع مصنفات القرآن الكريم، ج ٤، ص ١٦١، برقم ٩٩٤.

٢. فهرست مصنفي الشيعة للنجاشي، ص ١٦٨ (ط حجة) وج ٢، ص ٥٤، رقم ٦٣٨ (ط بيروت).

٣. الذريعة إلى تصانيف الشيعة لأقايزرگ المصنوعي، ج ٤، ص ٢٤٤.

٤. الدر المنثور: الياسي، ج ١، ص ٢. تهذيب التهذيب، ج ٧، ص ٢٨٣.

٥. فو فرض أنّ السمرقنديّ عاش سبعين عاماً، فيكون حين وفاة السديّ الصغير تحت العشرة.

الجامع الذي يقول: «أخبرنا عبد الله التقي»، هل هو الفيروز آبادي صاحب القاموس أم غيره؟ وإنما ذكره الجلبلي في كشف الظنون^١، وسار خلفه (سائر أصحاب التراجم).
و على أي تقدير فإن هذا التفسير الموجود يُعتبر مجهول السند و مجهول النسبة إلى مؤلف خاص، فضلاً عن مثل ابن عباس.

هذا ولا سيما بعد ملاحظة متن التفسير؛ حيث لا يعدو ترجمة ألفاظ القرآن ترجمة غير مستندة ومختصرة إلى حد بعيد، مما يبعد كونه من تفسير جبر الأئمة وترجمان القرآن.

على أن للكلبي، وكذا للسدي الصغير، تفسير جامع وموضع اعتبار لدى الأئمة على ما أسلفنا، فلو كانا هما الراويين لهذا التفسير لكان فيه شيء من آثارهما، وعلى تلك المرتبة من الجلالة والشأن. كما أن المأثور من ابن عباس، على ما جمعه الطبري وغيره، لا يشبه شيئاً من محتوى هذا التفسير المتأرجح جداً، مثلاً يقول: عن ابن عباس في قوله تعالى: «يا أيها الناس» عام وقد يكون خاصاً «اتَّقُوا رَبَّكُمْ» أطيعوا ربكم «الَّذِي خَلَقَكُمْ» بالتنازل...^٢ وهلم جرّاً.

و الذي يبدو لنا من مراجعة هذا التفسير أن جامع عمده إلى تفسير القرآن تفسيراً ساذجاً في حد ترجمة بسيطة، تسهياً على عموم المراجعين، وهذا أمر مطلوب ومرغوب فيه شرعاً.

ولكنه صدر كل سورة برواية عن ابن عباس، تيمناً وتبركاً باسم ترجمان القرآن. ولم يقصد أن كل ما ورد في تفسير السورة من تفسيره بالذات، الأمر الذي اشتبه على الأكثر، فزعموه تفسيراً مستنداً إلى ابن عباس في الجميع. وهذا وهم وأهمه ظاهر التعبير، فليتنبه.

١. كشف الظنون: ج ١، ص ٥٠٢؛ راجع: الذريعة، ج ٤، ص ٢٤٤.

٢. أول سورة النساء (الذكر المنكور الهامش: ج ١، ص ٣٣٣).

قيمة تفسير الصحابي

مما يجدر التنبيه له أن الدور الأول على عهد الرسالة، كان دور تربية وتعليم، ولا سيما بعد الهجرة إلى المدينة، كان النبي ﷺ قد ركّز جلّ حياته على تربية أصحابه الأجلّاء، وتعليمهم الآداب والمعارف، والسنن والأحكام وليجعل منهم «أُمَّةً وَسَطًا لِيَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ»^١، فقد جاء ﷺ لـ «يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ»^٢.

ولا شك أنه ﷺ فعل ما كان من شأنه أن يفعل وربّى من أصحابه ثلّة من علماء ورثوا علمه وحملوا حكمته إلى الملأ من الناس.

وإذا كان القرآن «تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ»^٣، وقد بلغه النبي ﷺ إلى الناس، فقد بيّن معالمه وأرشدهم إلى معاني حكمه ومعاني آياته؛ إذ كان عليه البيان كما كان عليه البلاغ «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فِيهِ تِبْيَانٌ لِنَاسٍ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ»^٤.

و هل كان دور النبي ﷺ في أمته، وفي أصحابه الخُلص بالخصوص، سوى دور معلّم ومرشد حكيم؟ فلقد كان ﷺ حريصاً على تربيّتهم وتعليمهم في جميع أبعاد الشريعة، و بيان مفاهيم الإسلام.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن من صحابته الأخيار - ممّن رضي الله عنهم ورضوا عنه - من كان على وفرة من الذكاء، طالباً مُجدّ في طلب العلم والحكمة والرشاد، مولعاً بالسؤال والازدياد من معارف الإسلام، وكانوا أكثر من ذوي النباهة والفضيلة والاستعداد «رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ»^٥، واستقاموا على الطريقة، فسقاهاهم ربهم «مَاءً عَذْقًا»^٦.

١. الجمعة (٦٣): ٢.

٢. النحل (١٦): ٤٤.

٣. الحج (٧٢): ١٦٠.

٤. البقرة (٢): ١٤٣.

٥. النحل (١٦): ٨٩.

٦. الأحزاب (٣٣): ٣٣.

و قد عرفت كلام ابن مسعود: «كان الرجل منا إذا تعلّم عشر آيات، لم يجاوزهنّ حتّى يعلم معانيهنّ والعمل بهنّ»^١. وهو أقدم نصّ تاريخيّ يدلّنا على مبلغ اهتمام الصحابة بمعرفة معاني القرآن واجتهادهم في العمل بأحكامه.

و هذا الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول - بشأن ما كان يصدر منه من عجائب أحكام و غرائب أخبار -: «و إنّما هو تعلّم من ذي علم... علم علّمه الله نبيّه فعلمنيّه، ودعالي بأن يعيه صدري، و تضطّم عليه جوانحي»^٢.

و هذا ابن عباس - تلميذه الموفّق - كان من أحرص الناس على تعلّم العلم و معرفة الأحكام و الحلال و الحرام من شريعة الإسلام. و كان قد تدارك - لشدة حرصه في طلب العلم - ما فاتته أيام حياة النبي (صلى الله عليه وآله) بصغره^٣ بمراجعة العلماء من صحابته الكبار بعد وفاته (صلى الله عليه وآله)، و قد كان النبي قد دعاه له: «اللهم علّمه التأويل و فقهه في الدين، و اجعله من أهل الإيمان»^٤.

روى الحاكم في المستدرک بشأن حرصه على طلب العلم: أنّه بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله) قال لرجل من الأنصار: هلّم، فلنطلب العلم، فإن أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) أحياء. فقال: عجبا لك يا ابن عباس، ترى الناس يحتاجون إليك، و في الناس من أصحاب رسول الله من فيهم. فأقبل ابن عباس يطلب العلم، قال: إن كان الحديث ليبلغني عن الرجل من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) قد سمعته منه، فأتيه فأجلس ببابه، فتسفي الريح علي وجهي، فيخرج إليّ فيقول: يا ابن عمّ رسول الله، ما جاء بك، ما حاجتك؟ فأقول: حديث بلغني عنك ترويه عن رسول الله، فيقول: ألا أرسلت إليّ؟ فأقول: أنا أحقّ أن آتيك^٥.

و من ثمّ كان يسمّى «البحر» لكثرة علمه. و عن مجاهد: هو جبر الأئمة. و عن ابن الحنفية: ربّاني هذه الأئمة، إلى غيرها من تعابير تنمّ عن مدى رفعة في درجات العلم.

١. تفسير الصري: ج ١، ص ٣٧ و ٣٨.

٢. نهج البلاغة (صحيح صالح): ج ٢٨، ص ٨٨٦.

٣. ولد قبل الهجرة بثلاث سنين.

٤. أخرجه الحاكم و مستدرک: ج ٣، ص ٥٣٦.

٥. المصدر نفسه: ص ٥٣٨.

٦. المصدر نفسه: ص ٥٣٥.

و قد كان يجلس للفسر فيقع موضع إعجاب. قال أبو وائل: حججت أنا وصاحب لي، وابن عباس على الحج، فجعل يقرأ سورة النور ويفسرها. فقال صاحبي: يا سبحان الله، ماذا يخرج من رأس هذا الرجل، لو سمعت هذا الترك لأسلمت. وفي رواية عن شقيق: ما رأيت ولا سمعت كلام رجل مثله، لو سمعته فارس والروم لأسلمت. وقال عبد الله بن مسعود: نعم ترجمان القرآن ابن عباس^١.

و ألقنا حديث مسروق بن الأجدع: وجدت أصحاب محمد ﷺ كالإخاذ، فالإخاذة تكفي الراكب، والإخاذة تكفي الراكبين، والإخاذة تكفي الفئام من الناس. وفي لفظ آخر: لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم^٢. كناية عن أنهم كانوا على درجات من العلم، كانوا يصدرون الناس عن روي كان مستقاه ومادته الأولى، هو النبي الأكرم ﷺ هو رباهم وأديهم فأحسن تأديهم، وإن كانوا هم على تفاوت في استعداد الأخذ والتلقي «أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها»^٣.



و بعد، فإذا كانت تلك حالة العلماء من أصحاب رسول الله ﷺ لا يصدرون الناس إلا عن مصدر الوحي الأمين، ولا ينطقون إلا عن لسانه الخلق بالحق المبين، فكيف يا ترى مبلغ اعتبار ما يصدر عن تلك، هم حملة علم الرسول، والحفظة على شريعته الأمانة؟! نعم، كان الشرط في الحجية والاعتبار أولاً: صحة الإسناد إليهم، وثانياً: كونهم من الطراز الأعلى. وإذا قد ثبت الشرطان، فلا محيص عن جواز الأخذ وصحة الاعتماد، وهذا لا شك فيه بعد الذي نوّهنا.

إنما الكلام في اعتبار ذلك حديثاً مسنداً ومرفوعاً إلى النبي ﷺ، بالنظر إلى كونه الأصل في تربيتهم وتعليمهم، أو أنه استنباط منهم، لمكان علمهم وسعة اطلاعهم فربما أخطأوا في الاجتهاد، وإن كانت إصابتهم في الرأي أرجح في النظر الصحيح. الأمر الذي

٢. التفسير والمفسرون، ج ٨، ص ٣٦.

١. المصدر نفسه، ص ٥٣٧.

٣. الرعد (١٣): ١٧.

فصل القوم فيه، بين ما إذا كان للرأي والنظر مدخل فيه، فهذا موقوف على الصحابي، لا يصح إسناده إلى النبي ﷺ. وما إذا لم يكن كذلك، مما لا سبيل إلى العلم به إلا عن طريق الوحي، فهو حديث مرفوع إلى النبي ﷺ لا محالة؛ وذلك لموضع عدالة الصحابي ووثاقته في الدين. فلا يخبر عما لا طريق للحس إليه، إلا إذا كان قد أخبره ذو علم عليم صادق أمين.

وإليك بعض ما ذكره القوم بهذا الشأن:

قال العلامة الطباطبائي - عند تفسير قوله تعالى: «وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ فِيهِمْ...» -:

و في الآية دلالة على حجبة قول النبي ﷺ في بيان الآيات القرآنية، ويلحق به بيان أهل بيته؛ لحديث النقلين المتواتر وغيره. وأما سائر الأئمة من الصحابة أو التابعين أو العلماء، فلا حجبة لبيانهم، لعدم شمول الآية وعدم نص معتمد عليه، يعطي حجبة بيانهم على الإطلاق.

قال: هذا كله في نفس بيانهم المتلقى بالمشافهة، وأما الخبر الحاكي له، فما كان منه بياناً متواتراً أو محفوظاً بقرينة قطعية وما يلحق به، فهو حجة لكونه بيانهم. وأما ما لم يكن متواتراً ولا محفوظاً بالقرينة، فلا حجبة فيه؛ لعدم إقرار كونه بياناً لهم.

قال: وأما قوله تعالى: «فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ...» فإنه إرشاد إلى حكم العقل، برجوع الجاهل إلى العالم، من غير اختصاص بطائفة دون أخرى^١.

هل المأثور من الصحابي حديث مسند؟

قال الحاكم النيسابوري: ليعلم طالب هذا العلم أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل، عند الشيخين، حديث مسند، أي إذا انتهت سلسلة الرواية إلى صحابي جليل،

١. النحل (١٦) ٤٤.

٢. النحل (١٦) ٤٤.

٣. الميزان، ج ١٤، ص ٣٧٨ (ط اسلامية).

فإن ذلك يكفي في إسناد الحديث إلى رسول الله ﷺ وإن كان الصحابي لم يسنده إليه. ذكر ذلك في موضعين من مستدركه^١، وهو عام سواء أكان ذلك ممّا لا طريق إلى معرفته سوى الوحي أم لم يكن كذلك، وكان ممّا يمكن أن يراه الصحابي أو شاهده بنفسه. ومن ثمّ كان هذا الكلام على عمومه وإطلاقه محل إشكال؛ لذلك رجع عنه في كتابه الذي وضعه لمعرفة علوم الحديث.

قال هناك: إن من الحديث ما يكون موقوفاً على الصحابي، غير مرفوع إلى النبي ﷺ، كما إذا قال الصحابي: رأيت رسول الله ﷺ يفعل كذا أو يأمر بكذا، أو إن أصحابه كانوا يصنعون كذا، مثل ما روي عن المغيرة بن شعبة، قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقرعون بابهم بالأظافر. قال الحاكم: هذا حديث يرويه من ليس من أهل الصنعة مسنداً؛ لذكر رسول الله ﷺ، وليس بمسند فإنه موقوف على صحابي، حكى عن أقرانه من الصحابة فعلاً. وهكذا إذا قال الصحابي: إنّه ﷺ كان يقول كذا، وكان يفعل كذا، وكان يأمر بكذا وكذا.

قال: ومن الموقوف ما روياه عن أبي هريرة، في قول الله - عز وجل - «لَوَاحِةٌ يُنْبِشِرُ»^٢ قال: تلقاهم جهنم يوم القيامة فتنبشهم النحلة، فلا تترك لحماً على عظم إلا وضعت على العراقيب. قال: وأشباه هذا من الموقوفات، تُعدّ في تفسير الصحابة^٣.

قال: فأما ما نقول في تفسير الصحابي، مسند، فأما نقوله في غير هذا النوع، كما في حديث جابر، قال: كانت اليهود تقول: من أتى امرأته من دبرها في قبلها جاء الولد أحوّل، فأنزل الله عز وجل: «نَسَاؤُكُمْ خِرَافٌ نَكْمٌ...»^٤ قال: هذا الحديث وأشباهه مسندة عن آخرها، وليست بموقوفة، فإن الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل، فأخبر عن آية من

١. المستدرک للحاکم، ج ٢، ص ٦٥٨ و ٦٦٣. ٢. المدفّر (٧٤): ٢٩.

٣. بناءً على أنّ هذا التفسير من أبي هريرة كان من عنده، ولعله استظهاراً من لفظ الآية؛ ولكن سيأتي عن السيوطي أنّه ممّا لا سبيل إلى معرفته سوى الوحي؛ فهو من المسند المرفوع إلى النبي ﷺ.

٤. البقرة (٢): ٢٣٣.

القرآن أنها نزلت في كذا وكذا، فإنه حديث مسند.

وهكذا قيّد ابن الصلاح والنووي وغيرهما ذلك الإطلاق بما لا يرجع إلى معرفة أسباب النزول المشاهدة، ونحو ذلك ممّا يمكن معرفته للصحابة بالمشاهدة والعيان. نعم، إذا كان ممّا لا مجال للرأي فيه، ممّا يعود إلى ما وراء الحس من قبيل أمر الآخرة ونحو ذلك، فإنّ مثل ذلك حديث مسند، مرفوع إلى النبي ﷺ نظرًا لموضع عدالة الصحابة، وتزيهه عن القول على الله بغير علم، ولا مستند إلى ركن وثيق.

قال النووي - في التفریب -: «وأما قول من قال: تفسير الصحابي مرفوع، فذلك في تفسير يتعلق بسبب نزول آية أو نحوه، وغير موقوف.

قال السيوطي - في شرحه -: كقول جابر: كانت اليهود تقول: من أتى امرأته من دبرها في قبلها، جاء الولد أحوّل، فأنزل الله تعالى: «(نَسَاءُكُمْ حَرْتُ لَكُمْ...)» رواه مسلم، أو نحوه ممّا لا يمكن أن يؤخذ إلا عن النبي ﷺ، ولا مدخل للرأي فيه. قال: وكذا يقال في التابعي، إلا أن المرفوع من جهته مرسل. قال: ما خصّص به المصنّف كإبن الصلاح ومن تبعهما قول الحاكم، قد صرح به الحاكم في علوم الحديث، ثم ذكر حديث أبي هريرة في قوله تعالى: «(لَوْ أَحَدٌ لِنَبِّئُكَ)» فالحاكم أطلق في المستدرک وخفّص في علوم الحديث، فاعتمد الناس تخصيصه وأظنّ أن ما حمّله في المستدرک على التعميم الحرص على جمع الصحيح، حتّى أورد ما ليس من شروط المرفوع، وإلا ففيه من الضرب الأوّل الجمّ الغفير. على أنّي أقول: ليس ما ذكره عن أبي هريرة من الموقوف؛ لما تقدّم من أن ما يتعلق بذكر الآخرة وما لا مدخل للرأي فيه، من قبيل المرفوع.

* * *

و على أية حال، فإنّ التفسير المأثور عن صحابي جليل - إذا صحّ الطريق إليه - فإنّ له اعتباره الخاص. فإنّما أن يكون قد أخذه من رسول الله ﷺ، وهو الأكثر فيما لا يرجع إلى

١. معرفة علوم الحديث لـحاكم: ص ١٩٠.

٢. تدريب الراوي للسيوطي: ج ١، ص ١٩٣ (ط ٢: ١٣٩٩ هـ).

مشاهدات حاضرة أو فهم الأوضاع اللغوية الأولى أو ما يرجع إلى آداب ورسوم جاهلية بائدة، كان الصحابة يعرفونها، وأشبه ذلك. فإن كان لا يرجع إلى شيء من ذلك، فإن من المعلوم بالضرورة أنه مستند إلى علم تعلمه من ذي علم. هذا ما يقتضيه مقام إيمانه الذي يحجزه عن القول الجراف. وإلا فهو موقوف عليه ومستند إلى فهمه الخاص، ولا ريب أنه أقرب فهماً إلى معاني القرآن، من الذي ابتعد عن لمس أعتاب الوحي والرسالة، وحتى عن إمكان معرفة لغة الأوائل، وعادات كانت جارية حينذاك.

وهكذا صرح العلامة الناقد السيد رضي الدين بن طاووس المتوفى سنة (٦٦٤ هـ) بشأن العلماء من صحابة الرسول ﷺ قال: «إنهم أقرب علماً بنزول القرآن». قال الإمام بدر الدين الزركشي: لطالب التفسير مأخذ كثيرة، أهمها أربعة: الأول: النقل عن رسول الله ﷺ، وهذا هو الطراز الأول، لكن يجب الحذر من الضعيف فيه والموضوع، فإنه كثير.

الثاني: الأخذ بقول الصحابي، فإن تفسيره عندهم بمنزلة المرفوع إلى النبي ﷺ كما قاله الحاكم في تفسيره. وقال أبو الخطاب: «من الخطأ أن لا يرجع إليه إذا قلنا: إن قوله ليس بحجة» والمصواب الأول، لأنه من باب الرواية لا الرأي. وقد أخرج ابن جرير عن مسروق بن الأجدع قال: قال عبد الله بن مسعود: والذي لا إله إلا هو، ما نزلت آية في كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته. وقال أيضاً: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يتجاوزهن حتى يعلم معانيهن، والعمل بهن. قال: وصدر المفسرين من الصحابة، علي بن عباس - وهو تجرد لهذا الشأن - والمحموظ عنه أكثر من المحفوظ عن علي، إلا أن ابن عباس كان أخذ عن علي عليه السلام، ويتلوه عبد الله بن عمرو بن العاص. وكل ما ورد عن غيرهم من الصحابة فحسن مقدم.

١. في كتابه التزم سعد السعود الذي عالج فيه عدد أكثر من سبعين كتاباً في تفسير القرآن كانت في متناوله ذلك العيد. ص ١٧٤ (ط نجف).
٢. البرهان في علوم القرآن، ج ٣، ص ٥٦-٥٧.

وأخيراً قال: واعلم أن القرآن قسمان: أحدهما ورد تفسيره بالنقل عمن يعتبر تفسيره، وقسم لم يرد. والأول ثلاثة أنواع: إما أن يرد التفسير عن النبي ﷺ أو عن الصحابة، أو عن رؤوس التابعين. فالأول: يبحث فيه عن صحة السند. والثاني: يُنظر في تفسير الصحابي، فإن فسره من حيث اللغة، فهم أهل اللسان، فلا شك في اعتمادهم، وإن فسره بما شاهده من الأسباب والقرائن فلا شك فيه. وحينئذ إن تعارضت أقوال جماعة من الصحابة، فإن أمكن الجمع فذاك، وإن تعذر قدم ابن عباس. وسيأتي نقل كلامه في الرجوع إلى التابعي.

* * *

هذا ما يقتضيه ظاهر البحث في هذا المجال. وأما الذي جرى عليه مذهب علمائنا الأعلام، فهو: إن التفسير المأثور من الصحابي - مهما كان على جلالة من القدر والمنزلة - فإنه موقوف عليه، لا يصح إسناده إلى النبي ﷺ ما لم يسنده هو بالذات. وهذا منهم مطلق، سواء أكان للرأي فيه مدخل أم لا؛ لأنه إنما نطق عن علمه، حتى ولو كان مصدره التعليم من النبي، ما لم يصرح به؛ إذ من الجائز أنه من استنباطه الخاص، استخرجه من مبان وأصول تلقاها من حضرة الرسول ﷺ، أما التخصيص على هذا الفرع المستنبط بالذات فلم يكن من النبي، وإنما هو من اجتهاد الصحابي الجليل، ومرتبط مع مبلغ فطنته وسعة دائرة علمه، والمجتهد قد يخطأ، وليس الصواب حليفه دائماً، ما لم يكن معصوماً. ومن ثم فإن الذي يصدر من أئمتنا المعصومين ﷺ نسنده إليهم، وإن كنا على علم ويقين أنه تعلم من ذي علم عليم، ذلك أنه حجة لدينا؛ لأنه صادر من منبع معصوم.

مميزات تفسير الصحابي

يمتاز تفسير الصحابي بأمور خمسة لم تتوفر جميعاً في سائر التفاسير المتأخرة: أولاً: بساطته، بما لم يتجاوز بضع كلمات في حلّ مُعضل أو رفع إبهام، في بيان وافي

شافٍ ومع كمال الإيجاز والإيفاء. فإذا قد سئل أحدهم عن معنى «غَيْرَ مُتَّجَانِفٍ لِإِثْمٍ»،^١ أجاب على الفور: «غير متعرض لمعصية»، من غير أن يتعرض لاشتقاق الكلمة، أو يحتاج إلى بيان شاهد ودليل، وما شاكل ذلك، ممّا اعتاده المفترون. وإذا سئل عن سبب نزول آية، أو عن فحواها العام، أجاب بشكل قاطع من غير تردد، وعلى بساطة من غير تعقيد، كان قد أُلْفَهُ المتأخرون.

ثانياً: سلامته عن جدل الاختلاف، بعد وحدة المبنى والاتّجاه والاستناد، ذلك العهد؛ إذ لم يكن بين الصحابة في العهد الأوّل اختلاف في مباني الاختيار، ولا تباين في الاتّجاه، ولا تضارب في الاستناد، وإنما هي وحدة في النظر والاتّجاه والهدف، جمعت طوائف الصحابة على خطّ مستقيم مستقيم. فلم تكن ثمة داعية لشوّه الاختلاف والتضارب في الآراء، ولا سيّما والرسول ﷺ أذنبهم على التزام سبيل الرشاد.

على أن التفسير ذلك العهد لم يكن لينحرف في شكله وهندامه - حدود الحديث وشكله، بل كان جزءاً منه و فرعاً من فروعها، كما دأب عليه جامعوا الأحاديث.

ثالثاً: حيالته عن التفسير بالرأي، بمعنى الاستبداد بالرأي غير المستند إلى ركن وثيق، ذلك تعصّب أعمى أو تلبّيس في الأمر، كان يتحاشاه الأجلّاء من الصحابة الأخيار. وقد سبقنا الكلام عن معنى التفسير بالرأي الممنوع شرعاً، والمذموم عقلاً، بما يرفع الإيهام عن المراد به.

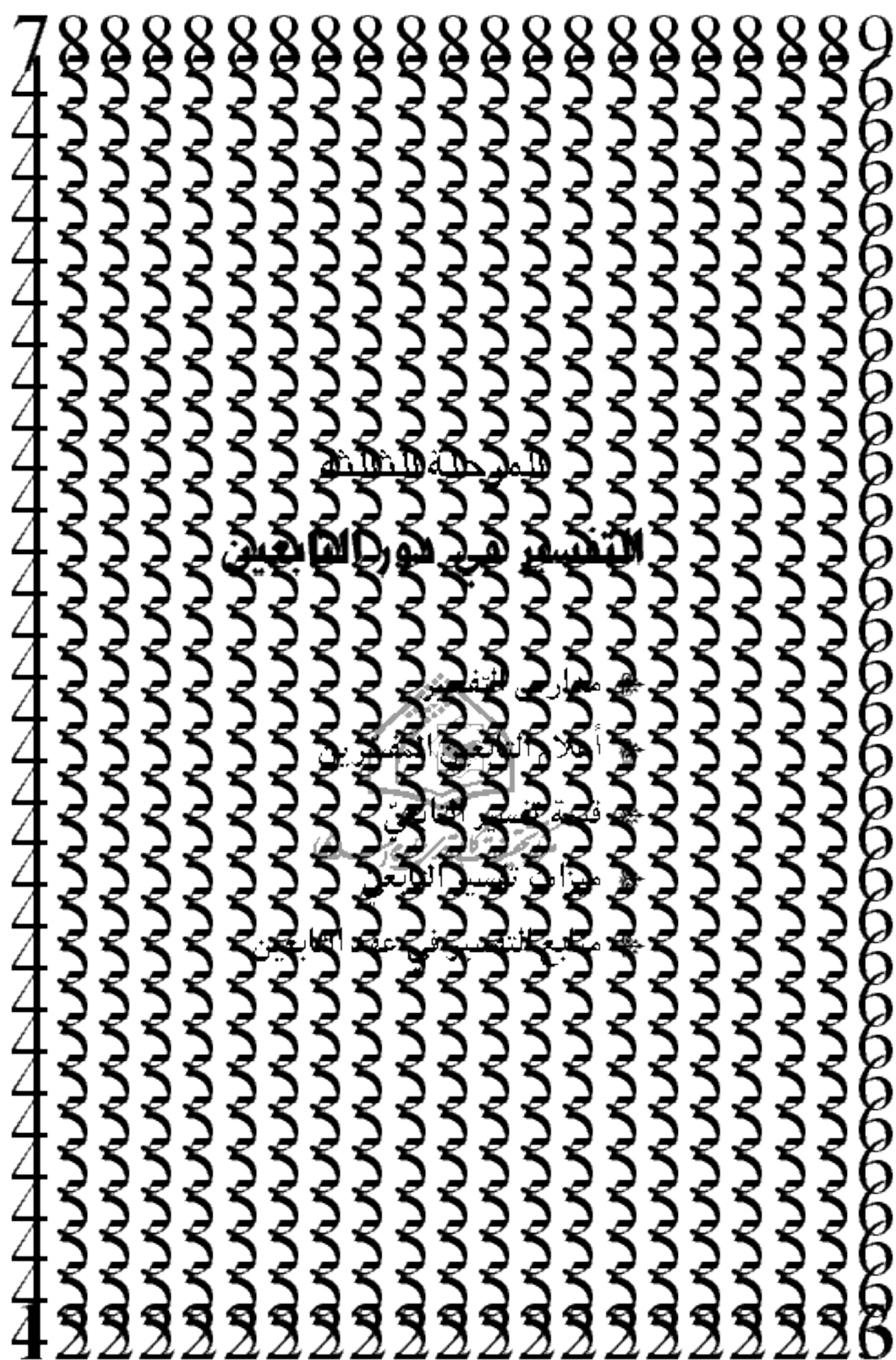
رابعاً: خلوصه عن أساطير بائدة، ومنها الأقاصيص الإسرائيلية، لم تكن لتجد مجالاً للتسرّب في الأوساط الإسلامية العريقة، ذلك العهد المناوئ لدسائس إسرائيل، الأمر الذي انقلب ظهراً لبطن بعد حين، وجعلت الدسائس السياسيّة تلعب دورها في ترويج أساطير بني إسرائيل.

خامساً: قاطعيته عن احتمال الشكّ وتحمل الظنون، بعد وضوح المستند و صراحتة،

ووفرة وسائل الإيضاح ودلائل التفسير المعروضة ذلك العهد؛ لسداجتها وسلامتها عن التعقيد الذي طرأ عليها في عهد متأخر. لا سيما والدلائل العلمية والفلسفية التي استند إليها المتأخرون في تفسير معاني القرآن، لم تكن معهودة حينذاك، أو لم تكن مشروعة، ولا صالحة للاستناد في العهد الأول. وإنما كان استنادهم إلى الحرف واللغة، والعلم بأسباب النزول، إلى جنب النصوص الشرعية الصادرة في مختلف شؤون الدين والقرآن، هذا لا غير.



مركز تحقيقات كتابية وعلوم إسلامية





مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

التفسير في دور التابعين

مدارس التفسير

لم يكد ينصرم عهد الصحابة إلا وقد نبغ رجال أكفاء، ليخلننهم في حمل أمانة الله وأداء رسالته في الأرض، وهم التابعون الذين اتبعوهم بإحسان، رضي الله عنهم ورضوا عنه، ذلك النور العظيم.

إنهم رجال لم تمكنهم الاستضاءة من أنوار ذلك العهد (عهد الرسالة) الفائض بالخير والبركات، فاستعاضوا عنها بالحوال بين يدي كبار الصحابة الأعلام، والعكوف على أعتابهم المقدسة؛ يستفيدون من علومهم ويهتدون بهداهم.

وقد كان أعيان الصحابة كثرة منتشرين في البلاد كنجوم السماء، مصابيح الدجى وأعلام الهدى، أينما حلوا أو ارتحلوا من بقاع الأرض؛ وبذلك انتشرت تعاليم الإسلام، وشاع وذاع مفاهيم الكتاب والسنة النبوية بين العباد، في مختلف البلاد.

وحيثما ارتحل صحابي جليل وحل به من بلد إسلامي كبير، كان قد شيد فيه مدرسة واسعة الرحب، بعيدة الأرجاء، يبت بها معالم الكتاب والسنة، ويقصدها الرواد من كل صوب، وكان أشهر هذه المدارس - حسب شهرة مؤسسيها - خمسة:

١. مدرسة مكة: أقامها عبد الله بن عباس، يوم ارتحل إليها عام الأربعين من الهجرة؛

حيث غادر البصرة وقدم الحجاز، بعد استشهاد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وكان والياً من قبل الإمام، فلم يتصد ولایت بعده، عاكفاً على أعتاب حرم الله، يؤدّي رسالته هناك في بث العلوم ونشر المعارف التي تعلمها وأخذها عن الإمام عليه السلام. وقد دامت المدرسة مدة حياته حتى عام ثمانية وستين؛ حيث وفاته بالطائف، رضوان الله عليه.

وقد تخرج من هذه المدرسة أكبر رجالات العلم في العالم الإسلامي حينذاك، وكان لهذه المدرسة ولحن تخرج منها صدّي محمود في أرجاء البلاد، وبقيت آثارها الحسنة سنة متبعة بين العباد، ولا تزال. ولعل أعلم التابعين بمعاني القرآن هم المتخرجون من مدرسة ابن عباس والمتعلمون على يديه.

قال ابن تيمية: وأما التفسير فإن أعلم الناس به أهل مكة؛ لأنهم أصحاب ابن عباس، كمجاهد وعطاء وعكرمة. وغيرهم من أصحاب ابن عباس كطاووس وأبي الشعثاء وسعيد بن جبير وأمثالهم. وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود. ومن ذلك تميزوا به على غيرهم.



٢. مدرسة المدينة: قيامها على الصحابة الموجودين بها، ولا سيما أبي كعب الأنصاري، سيد القراء. كان من أصحاب العقبة الثانية، وشهد بدرًا والمشاهد كلها. قال له النبي ﷺ: ليكنك العلم، أبا المنذر.

وكان أول من كتب لرسول الله مقدمه المدينة، فإذا لم يحضر أبي كعب زيد بن ثابت. كان أقرأ أصحاب رسول الله ﷺ، وكان ممن جمع القرآن حفظاً على عهد رسول الله، وتليماً بعد وفاته. وكان قد تفرغ للإقراء بالمدينة ما لم ينتزع له سائر الصحابة الباقيين فيها. ومن ثم تصدّى الإملاء على لجنة توحيد المصاحف على عهد عثمان، وكانوا يرجعون إليه عند الاختلاف. توفي سنة (٣٠ هـ) في خلافة عثمان، حسبما قدمنا.

* * *

٣. مدرسة الكوفة: أقام دعائمها الصحابي الكبير عبد الله بن مسعود، كان خصيصاً برسول الله ﷺ يخدمه و يتربى على يديه. قال حذيفة: أقرب الناس برسول الله ﷺ هدياً ودلاً وسمتاً، ابن مسعود. ولقد علم المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ أن ابن أم عبد من أقربهم إلى الله رزقي. كان أول من جهر بالقرآن على ملأ من قريش، فأوذى في الله واضطرب على البلاء. كان قد هاجر الهجرتين و شهد المشاهد كلها. قدم الكوفة - على عهد ابن الخطاب - معلماً ومؤدباً، حتى أحضره عثمان سنة (٣١ هـ) وكانت فيها وفاته. ولمّا بلغ أبا الدرداء نعيه، قال: ما ترك بعده مثله.

تربى على يديه خلق كثير، فمن التابعين: علقمة بن قيس النخعي، وأبو وائل شقيق بن سلمة الأسدي الكوفي، والأسود بن يزيد النخعي، ومسروق بن الأجدع، وعبيدة بن عمرو السلماني، وقيس بن أبي حازم، وغيرهم. وقد عرفت أن مدرسة الكوفة كانت أهم المدارس بعد مدرسة مكة، توسعاً وشمولاً لمعاني القرآن والفقه والحديث.



٤. مدرسة البصرة: أقامها أبو موسى الأشعري: عبد الله بن قيس توفي سنة (٤٤ هـ). قدم البصرة سنة (١٧ هـ) والياً عليها من قبل عمر، بعد أن عزل المغيرة، ثم أقره عثمان، وبعد فترة عزله، فسار إلى الكوفة. ولمّا أن عزل سعيداً استعمله عليها، وعزله الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فكان يرأود معاوية في سرّ، ولأخوة قديمة كانت بينهما، كما يبدو من وصيّة معاوية لابنه يزيد بشأن أبي بردة ابن أبي موسى الأشعري^١. كان منحرفاً عن علي عليه السلام و افتضح أمره يوم الحكمين. وهو الذي فقه أهل البصرة وأقرأهم. قال ابن حجر: و تخرج على يديه جماعة من التابعين و من بعدهم^٢. وأخرج الحاكم عن أبي رجاء، قال:

١. تهذيب التهذيب، ج ٥، ص ٣٦٦.

٢. العبد المذنب، ج ٤، ص ٨٣، ق ١.

تعلّمنا القرآن عن أبي موسى الأشعريّ في هذا المسجد - يعني مسجد البصرة - وكنا حلقاً حلقاً، وكأنا نُنظر إليه بين توبين أبيضين .

و كانت مدرسته ذات انحراف شديد، ومن ثمّ كانت البصرة من بعده أرضاً خصبة لنشوء كثير من البدع والانحرافات الفكرية والعقائدية، ولا سيما في مسائل الأصول والإمامة والعدل.

قال عبد الكريم الشهرستاني: وسمعت من عجيب الاتفاقات أنّ أبا موسى الأشعريّ (المتوفى سنة ٤٤ هـ) كان يقرّر عين ما يقرّر حفيده أبو الحسن الأشعريّ (المتوفى سنة ٣٢٤ هـ) في مذهبه، وذلك قد جرت مناخلة بين عمرو بن العاص وبينه، فقال عمرو: أين أجد أحداً أحاكم إليه ربّي؟ فقال أبو موسى: أنا ذلك المتحاكم إليه. فقال عمرو: أو يقدر عليّ شيئاً تمّ يعذبني عليه؟ قال أبو موسى: نعم، قال عمرو: ولم؟ قال: لأنّه لا يظلمك! فسكت عمرو ولم يحجر جواباً .

و ذكر ابن أبي الحديد أبا بردة ابن أبي موسى الأشعريّ فيمن أبغض عليّاً، وكان من الثقلين له، ثمّ قال: ورث البغضة له، لا عن كلالته، أي كان هذا الحقد للإمام أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - قد أتاه مباشرة من قبل والده، فكانت البغضة منه تليداً، ولم تأت من عرض عارض، لا تلد الحيّة إلا الحيّة.

* * *

٥. مدرسة الشام: قام بها أبو الدرداء عويمر بن عامر الخزرجيّ الأنصاريّ. كان من أفاضل الصحابة وفقهائهم وحكمائهم. أسلم يوم بدر، وشهد أحداً وأبلى فيها بلاءً حسناً. روي أنّ رسول الله ﷺ قال بشأنه حينذاك: نعم الفارس عويمر، وقال: هو حكيم أمّتي. تولى قضاء دمشق أيام خلافة عمر، وتوفي في خلافة عثمان سنة (٣٢ هـ). ولم ينزل

١. المستدرک للحاكم، ج ٢، ص ٢٢٠.

٢. الملل والنحل للشهرستاني، ج ١، ص ٩٤ (ط الزاهرة: ١٣٨٧ هـ).

٣. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٤، ص ٩٩.

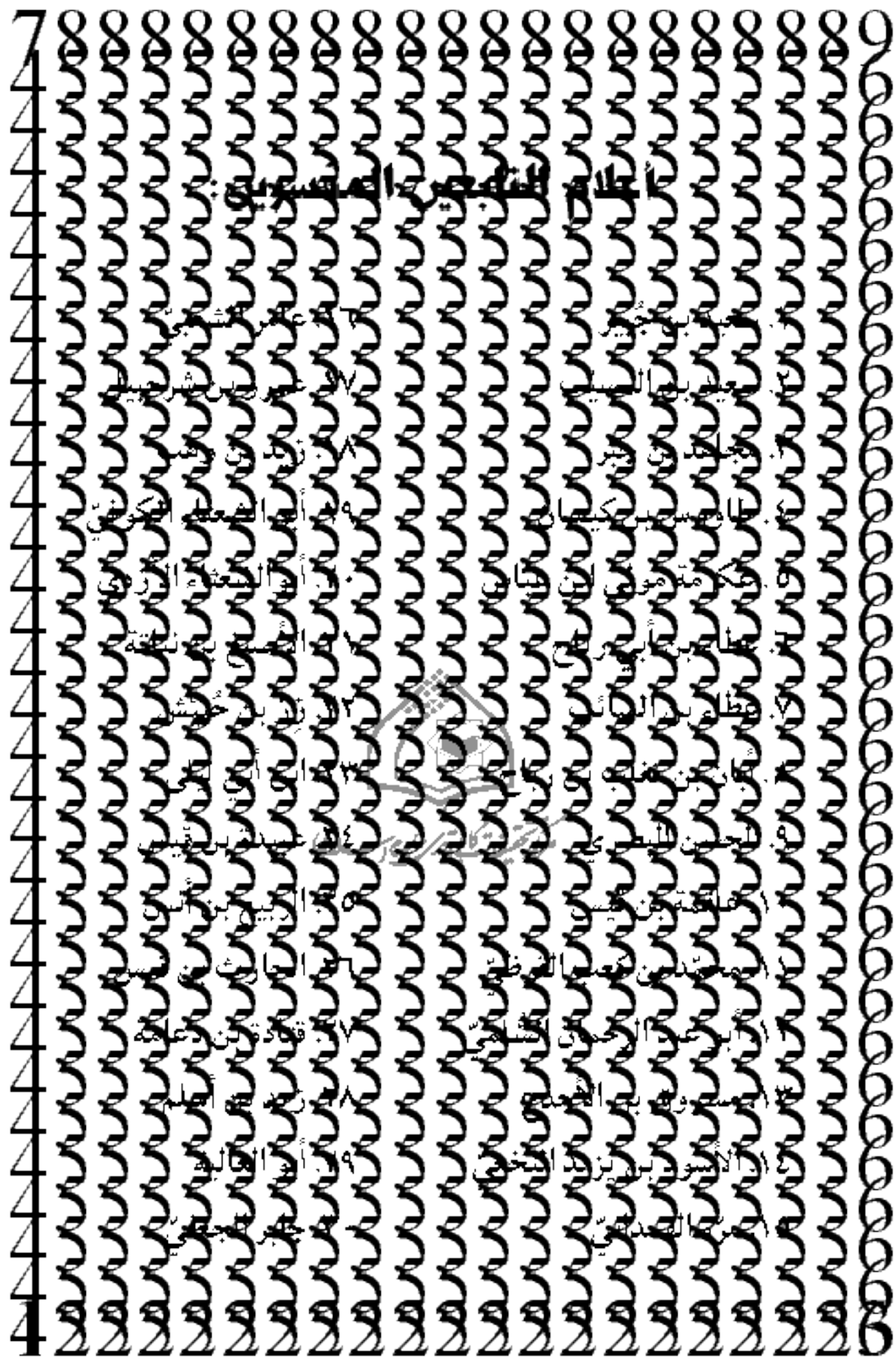
دمشق من أكابر الصحابة سوى أبي الدرداء، وبلال بن رباح المؤذن الذي مات في طاعون
عمواس سنة (٢٠ هـ) ودفن بحلب. وكذا واثلة بن الأسقع، وكان آخر من مات بدمشق
من أصحاب رسول الله ﷺ، مات سنة (٨٥ هـ) في خلافة عبد الملك بن مروان.
تخرج على يدي أبي الدرداء جماعة من أكابر التابعين، منهم: سعيد بن المسيب،
وعلقمة بن قيس، وسويد بن غفلة، وجبير بن نفير، وزيد بن وهب، وأبو إدريس
الخلوي، وآخرون.

كان أبو الدرداء من الثابتين على ولادة آل الرسول ﷺ لم ترعزعه العواصف. روى
الصدوق - في أماليه - بإسناده إلى هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه عروة، قال: كنا جلوساً
في حلقة في مسجد رسول الله ﷺ نتذكر أهل بدر وبيعة الرضوان، فقال أبو الدرداء: يا
قوم، ألا أخبركم بأقل القوم مالاً وأكثرهم ورعاً وأشدّهم اجتهاداً في العبادة؟ قالوا: من؟
قال: ذاك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

قال عروة: فوالله، ما نطق أبو الدرداء بذلك إلا وأعرض عنه بوجهه من في المجلس. ثم
انقلب له رجل من الأنصار، فقال له: يا عويمر، لقد تكلمت بكلمة ما وافقت عليها أحد
منذ أتيت بها. فقال أبو الدرداء: يا قوم، إني أقول ما رأيته، وليقل كل قوم منكم ما رأوا... ثم
أخذ في بيان مواضع علي عليه السلام من العبادة والبكاء، عند ما كان يختلي بربه في ظلمة الليل
والناس نياماً.



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی





مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

أعلام التابعين المفسرين

قلنا: إنَّ كثيراً من رواد العلم، كانوا قد نهضوا نهضتهم الكبرى، في سبيل كسب المعرفة والحصول على معالم الدين الحنيف. وحيث كان قد أُعوزتهم الاستضاءة المباشرة من أنوار عهد الرسالة، استعاضوا عنها باللجوء إلى أعتاب الصحابة الأعلام، فأخذوا منهم العلوم ونشروها بين العباد. فكانوا هم الواسطة والحلقة الواصلة بين منابع العلم الأولى وبين الأئمة على الإطلاق، ليس لذلك الدور فحسب، بل لجميع الأدوار والأعصار. فأصبحوا هم حاملو لواء هداية الإسلام إلى كافة الأمم. وهم جماعات، لا يحصون عدداً، كنجوم السماء المتألقة في دياجى الظلام، ومبتوتون في الأرض منتشرون في الأقطار والأكناف.

غير أنَّنا نقتصر على الأعلام، والمعروفين بتعليم القرآن، ونشر علومه وبيان معارفه بين الناس. وهم المتخرجون من المدارس التفسيرية المعهودة، ولا سيما مدرسة ابن عباس بمكة المكرمة، حسبما عرفت، وإليك منهم:

١. سعيد بن جبير

أبو عبد الله، أو أبو محمد الأسديّ بالولاء، الكوفي، من أصل حبشي، أسود اللون، أبيض الخصال. كان من كبار التابعين ومتقدميهم في الفقه والحديث والتفسير. أخذ

القراءة من ابن عباس، وسمع منه التفسير، وأكثر روايته عنه. كان قد تفرغ للمعلم والقرآن حتى صار علماً وإماماً للناس. قال أبو القاسم الطبري: هو ثقة، حجة، إمام على المسلمين، وكان مجتمعاً عليه بين أرباب الحديث والتفسير.

له مناظرة مع الطاغية الحجاج بن يوسف الثقفي، حينما أراد قتله، تدل على قوة إيمانه وصلابته في الولاء لآل البيت عليهم السلام، قتله صبراً سنة (٩٥ هـ) وهو ابن (٤٩).

روى أبو عمرو ومحمد بن عمر بن عبد العزيز الكشي بإسناده إلى الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: إن سعيد بن جبير كان يأتني بعلي بن الحسين عليهما السلام، وكان علي عليه السلام يسي عليه. وما كان سبب قتل الحجاج له إلا على هذا الأمر، وكان مستقيماً.

و في مصنفات أصحابنا الإمامية عنه وصف جميل^١، وكذا في سائر المصنفات الرجالية وغيرها^٢.

روى أبو نعيم الأصبهاني بإسناده إلى خلف بن خليفة عن أبيه قال: شهدت مقتل سعيد ابن جبير، فلما بان رأسه، قال: لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، ثم قالها الثالثة فلم يتمها^٣. وذكر ابن قتيبة: أنه أمر الحجاج فضربت عنقه، فسقط رأسه إلى الأرض يستدحرج، وهو يقول: لا إله إلا الله، فلم يزل كذلك، حتى أمر الحجاج من يضع رجله على فيه، فسكت.

و لم يدم الحجاج بعده غير سنة، ولم يستطع إراقة دم بعد دمه الظاهر، وكان الحجاج

١. ذكر الكشي في رجاله، ج ١، ص ٣٣٥ رقم ١٩٠ (مؤسسة آل البيت) - لما دخل سعيد على الحجاج، قال له أنت شقي بن كمين، قال: كانت أمي أعرف باسمي. قال: ما تقول في ذنوب وفلان، هما في الجنة أو في النار؟ قال: لم أدخل الجنة فتصرت إلى أهلها، علمت من فيها، وإن دخلت النار ورايت أهلها، علمت من فيها، قال: فيما قربك في الخلاء؟ قال: لست عيهم بركيل، قال: أيهم أحب إليك؟ قال: أرغاهم لحالي، قال: وأيهم أرغى لظلي؟ قال: علم ذلك عند الذي يحكم سؤهم ونجواهم. قال: أيت أن تصدقني؟ قال: بلى، لم أحب أن أكذبك!

٢. راجع: أعيان الشيعة للأمين العامي، ج ٧، ص ٣٣٤-٣٣٦؛ سفينة البحار، ج ١، ص ٦٦٦-٦٦٣؛ المناقب، ج ٤، ص ١٧٦.

٣. راجع: حية الأولياء، ج ٤، ص ٢٧٢-٣١٠؛ وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٣٧١-٣٧٤؛ رقم ٣٦١؛ المعارف، ص ٩٩٧؛ تهذيب التهذيب، ج ٤، ص ٤١١-٤١٤.

٤. حية الأولياء، ج ٤، ص ٢٩١.

عند ما حضره الموت يقول: مالي ولسعيد بن جبير، كان يقول ذلك وهو يخاص ثم يثيق. وكان يراه في المنام، وقد أخذ بمجامع ثوبه يقول له: يا عدو الله، فيم قتلتنني؟ فيستيقظ مذعوراً، ويقول: مالي ولسعيد. ذكر ذلك ابن خلدان في الوفيات.

* * *

مكانته العلمية: أخذ العلم عن عبد الله بن عباس، وكان قد لازمه في طلب العلم، فأجازه ابن عباس في الحديث. قال له: حدث، فقال - متحاشياً -: أُحدثُ وأنت ههنا؟! - وفي رواية - وأنت موجود! فقال ابن عباس: أليس من نعم الله عليك أن تُحدث وأنا شاهد؟! فإن أصبت فذاك، وإن أخطأت علمتك.

قال أحمد بن حنبل: قتل الحجاج سعيد بن جبير، وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه! ورواه أبو نعيم عن عمرو بن ميمون عن أبيه.

وكان ابن عباس إذا أتاه أهل الكوفة يستشيرونه يقول: أليس فيكم ابن أم الدهمان، يعني سعيد بن جبير.

قال يحيى بن سعيد: مرسلات ابن جبير أحب إلي من مرسلات عطاء ومجاهد. وكان سفيان يقدّم سعيداً على إبراهيم النخعي في العلم، وكان أعلم من مجاهد وطاووس^١. وكان سعيد يعظم من شيخه تعظيماً بالغاً، قال: كنت أسمع الحديث من ابن عباس، فلو أذن لي لقبلت رأسه^٢.

وقد جمع أبو نعيم من التفسير المأثور عن سعيد بن جبير نخباً، وعقد له فعلاً، وعنوانه بآثاره في التفسير^٣. فقد روى عنه في قوله تعالى - حكاية عن نبي الله موسى عليه السلام -: «رَبِّ إِنِّي مَّا أَتَوْتُ إِلَيْكَ مِنْ خَيْرٍ فَقَدِيرٌ»^٤. قال: إِنَّهُ يَوْمُنَا لَنُفْقِرَ إِلَى شَقِّ تَمْرَةٍ. وفي قوله تعالى:

١. وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٣٧٦-٣٧٤، رقم ٣٦٦؛ راجع: حلية الأولياء، ج ٤، ص ٢٧٣.

٢. تهذيب التهذيب، ج ٤، ص ١٤٠١. ٣. حلية الأولياء، ج ٤، ص ٢٨٣.

٤. المصدر نفسه، من الصفحة ٢٨٣ فما بعد.

٥. النسخ (٣٨) : ٣٤.

«أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً» قال: أوفاهم عقلاً^١.

٢. سعيد بن المسيّب

قال أبو نعيم الأصبهاني: فأما أبو محمد سعيد بن المسيّب بن حزن المخزومي، فكان من الممتحنين، أمتحن فلم تأخذه في الله لومة لائم، صاحب عبادة وجماعة وعفة وقناعة. وكان كاسمه بالطاعات سعيداً، ومن المعاصي والجهالات بعيداً^٢.

قال ابن المديني: لا أعلم في التابعين أوسع علماً من سعيد بن المسيّب. قال: وإذا قال سعيد: مضت السنة، فحسبك به. قال: هو عندي أجلّ التابعين.

و قال أبو حاتم: ليس في التابعين أنبل منه.

و قال سليمان بن موسى: كان أفقه التابعين.

و قال أبو زرعة: مدني قرشي ثقة إمام.

و قال قتادة: ما رأيت أحداً قط أعلم بالحلل والحرام منه.

و قال ابن شهاب: قال لي عبد الله بن عجلية: إن كنت تريد هذا - يعني الفقه - فعليك بهذا

الشيخ، سعيد بن المسيّب.

و عن عمرو بن ميمون بن مهران عن أبيه، قال: قدمت المدينة فسألت عن أعلم أهلها،

فدُفعت إلى سعيد بن المسيّب.

قال مكحول: طفت الأرض كلها في طلب العلم فما لقيت أعلم منه.

قال أحمد بن حنبل: مرسلات سعيد صحاح، لا نرى أصح من مرسلاته.

و قال الشافعي: إرساؤا ابن المسيّب عندنا حسن^٣.

قال ابن خلكان: كان سعيد بن المسيّب سيّد التابعين من الطراز الأوّل، جمع بين

الحديث والفقه والزهد والعبادة والورع، وهو أحد الفقهاء السبعة بالمدينة^٤. ولد سنة

١. ح ١٠٤ (٢٠).

٢. حية الأولياء، ج ٤، ص ٢٨٨.

٣. المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٦١، رقم ١٧٠.

٤. تهذيب التهذيب، ج ٤، ص ٨٤-٨٨.

٥. وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٣٧٥، رقم ٣٦٣.

(١٥٠ هـ) وتوفي سنة (٩٥ هـ).

وأسند ابن سعد - كاتب الواقدي - إلى الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: سمعت أبي، علي بن الحسين عليه السلام يقول: «سعيد بن المسيب أعلم الناس بما تقدمه من الآثار، وأفقههم في رأيه».

وله ترجمة مسهبة في الطبقات، وفيها من أحواله وقضاياها العجيبة الشيء الكثير.

أضف إلى ذلك ما ورد بشأنه من الثناء عليه عند أصحابنا الإمامية:

و أول شيء، أنه تربية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، رباه في حجره بوصية من جده «حزن». فقد نشأ وترعرع في أهل بيت العلم والورع والظاهرة، كما أصبح من خلص أصحاب الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، وأحد الأوتاد الخمسة الذين تبتوا على الاستقامة في الدين على ما وصفهم النضر بن شاذان. قال: ولم يكن في زمان علي بن الحسين في أول أمره إلا خمسة نفس: سعيد بن جبير، سعيد بن المسيب، محمد بن جبير بن مطعم، يحيى بن أم الطويل، أبو خالد الكابلي.

وكان يرى من الإمام السجاد عليه السلام النفس الزكية، لم يعرف له نظيراً ولا رأى مثله. كما كان يرى في مثاله الندوسي مثال داود القديس عليه السلام تسبح معه الجبال بالعشي والإشراق والطير محشورة كل له أبواب.

روى الكشي بإسناده إلى الزهري عن ابن المسيب، قال: كان القوم لا يخرجون من مكة حتى يخرج علي بن الحسين سيد العابدين. فخرج وخرجت معه، فنزل في بعض المنازل، فصلّى ركعتين فسبح في سجوده، فلم يبق شجر ولا مדר إلا سبّحوا معه، ففرغنا! فرفع رأسه فقال: يا سعيد! أفرغت؟ فقلت: نعم، يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: هذا التسبيح الأعظم، حدثني أبي عن جدّي رسول الله؛ إنه لا يُبقي الذنوب مع هذا التسبيح. فقلت:

عَلَّمْنَا.....

و روى عن محمد بن قولويه بإسناده إلى أسباط بن سالم عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في حديث حوارتي النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام، و عدد من حوارتي الإمام زين العابدين: جبير بن مطعم، ويحيى بن أم الطويل، وأبا خالد، وسعيد بن المسيب. كما روى عنه بإسناده إلى أبي مروان عن أبي جعفر قال: سمعت علي بن الحسين يقول: «سعيد بن المسيب أعلم الناس بما تقدمه من الآثار وأفهمهم - أو أفقههم - في زمانه»^١. وقد تقدم الحديث، برواية ابن خلكان عن أبي مروان أيضاً، مع اختلاف في العبارة الأخيرة: «أفهمهم في رأيه».

و روى الشيخ المفيد بإسناده إلى أبي يونس محمد بن أحمد قال: حدثني أبي وغير واحد من أصحابنا، أن فتى من قریش جلس إلى سعيد بن المسيب، فطلع علي بن الحسين، فقال الترشعي لابن المسيب: من هذا يا أبا محمد؟ قال: هذا سيد العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام^٢.
و روى الحميري بإسناده إلى البرنطلي قال: وذكر عند الرضا عليه السلام، القاسم بن محمد بن أبي بكر خال أبيه، وسعيد بن المسيب، فقال: «كان علي هذا الأمر»^٣.

و روى ثقة الإسلام الكليني - في باب مولد الصادق عليه السلام - بإسناده إلى إسحاق بن جرير، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «كان سعيد بن المسيب، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وأبو خالد الكابلي، من ثقات علي بن الحسين عليه السلام»^٤.

و في مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب بشأن كرامات الإمام زين العابدين عليه السلام، روايات عن سعيد بن المسيب، تدل على مبلغ ولائه لآل البيت ومدى صلته بسيد

١. الحوارتي: من الحوار، أي صاحب السر. ٢. اختيار معرفة الرجال للكليني، ج ١، ص ٤٣ و ٣٣٢ و ٣٣٥.

٣. الإرشاد للمفيد، ج ٢، ص ١٤٥.

٤. قرب الإسناد للحميري، ص ١٥٧ الجزء الثالث (ط حجة).

٥. الكافي، ج ١، ص ٤٧٣، كتاب الحجّة.

الساجدين، فراجع ١.

و للمحقق البحراني - في حاشية البلغة - استظهار تشييعه من كلام الشيخ في أوائل التبيان ٢.

و هو الذي روى قضية بجدل الجمال وقطعه لإصبع السبط الشهيد، وتعلقه بأستار الكعبة، آيماً من رحمة الله ٣.

وقد عدّه الشيخ من أصحاب الإمام زين العابدين ومن السابقين الأولين. قال: سعيد ابن المسيّب بن حرّان أبو محمد المخزومي سمع من الإمام عليّ بن الحسين، وروى عنه ٤. وهو من الصدر الأول ٥.

وقد استوفى السيّد الأمين الكلام بشأنه وشأن ولائه لآل البيت، وذكر أنّه صاحب عليّاً أمير المؤمنين ٦. ولم ينفارق حتّى في حروبه. ونقل عن ابن أبي الحديد وغيره بعض الظعن عليه، وفنّده على أسلوب حكيم ٧.



نموذج من تفسيره

أخرج أبو نعيم - في الحلية - بإسناده إلى يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيّب، في قوله تعالى: «رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً» ٨، قال: «الذي يذنب الذنب ثمّ يتوب ثمّ يذنب ثمّ يتوب، ولا يعود في شيء، قصد» ٩.

وهذا أدقّ تفسير للآية الكريمة. فإنّ الآية قد فسّرت على وجوه:

١. فقليل: هم المسبّحون. عن ابن عباس وعمر بن شرحبيل.

٢. وقيل: المطيعون المحسنون. عن ابن عباس أيضاً.

١. المنائب، ج ٤، ص ١٣٣، ١٣٤، ١٤٣.
 ٢. تنقيح المقال، ج ٤، ص ٣١، رقم ٤٨٧٠.
 ٣. بحار الأنوار، ج ٥، ص ٣٦٦ (ط بيروت).
 ٤. رجال القوسي، ص ٩٠.
 ٥. راجع: أعيان الشيعة، ج ٧، ص ٣٤٩-٣٥٥ (ط دار المعارف).
 ٦. الإسراء (١٧): ٥٥.
 ٧. حلية الأولياء، ج ٤، ص ٦٥؛ راجع: مجمع البيان، ج ٤، ص ١٠؛ تفسير الصبّري، ج ٥، ص ٥١-٥٢.

٣. هم المطيعون وأهل الصلاة. عن قتادة.

٤. الذين يصلّون بين المغرب والعشاء. عن ابن المنكدر يرفعه، وكذلك عن الإمام الصادق عليه السلام.

٥. يصلّون صلاة الضحى. عن عون العقيلي.

٦. الراجع من ذنبه التائب إلى الله. وهذا المعنى الأخير هو الراجع، واختلفوا في شرائطه وكيفيته:

فعن سعيد بن جبيرة: الراجعون إلى الخير.

و عن مجاهد: الذي يذكر ذنوبه في الخلا، فيستغفر الله منها.

و عن عطاء بن يسار: يذنب العبد ثم يتوب، فيتوب الله عليه، ثم يذنب فيتوب الله عليه، ثم يذنب الثالثة فإن تاب تاب الله عليه توبة لا تمحى.

و عن عبيد بن عمير: الأواب: الحفيظ أن يقول: اللهم اغفر لي ما أصبت في مجلسي هذا.

لكن سعيد بن المسيّب فسرها بالذي يذنب ويتوب ثم يذنب ويتوب، ولكن ليس يعود في شيء من ذنوبه قعسداً، وإنما هو شيء يفرط منه. وهذه النكتة الظريفة هي بيت التصيد، نظراً لأن «الأواب» مبالغة في الأوب والرجوع. والمراد: الكثرة والتكرار فيه، لكنه هل هو مطلق، أم الذي يصدر منه الذنب لا تمرّداً وعصياناً، وإنما هو شيء قد يفرط منه أو تغلبه نفسه ثم يتذكر عن قريب؟

قال تعالى: «إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ»؛ وقال: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ»^١.

وهذا هو معنى اللّمْ المغفور في الآية الكريمة: «وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنْ

الأرض»^١.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «اللهم: الرجل يلم بالذنب فيستغفر الله منه. قال: ما من ذنب إلا وقد طبع عليه عبد مؤمن بهجره الزمان ثم يلم به. قال: اللهم: العبد الذي يلم بالذنب ليس من سلفيته» أي من طبيعته. وفي رواية قال: «الهيئة بعد الهيئة» أي الذنب بعد الذنب يلم به العبد. وفي أخرى: «هو الذنب يلم به الرجل، فيمكث ما شاء الله ثم يلم به بعد»^٢. فالعبد قد تغلبه نفسه فيرتكب إثماً ليس من دأبه، ومن ثم يتذكر فيتوب إلى الله مما اقترف، وهكذا فلو عاد ليس من عادته، وقاب قاب الله عليه، إن الله هو التواب الرحيم. وهذه هي النكتة الدقيقة التي جاءت الإشارة إليها في تفسير ابن المسيب «ولا يعود في شيء قصد»، وهذا المعنى هو الذي يفيد صدر الآية «رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ... فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفْرًا...»^٣.

وإلى هذا المعنى يشير التفسير الوارد عن الإمام أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، قال: «و الأواب: النواح المتجدد الراجع عن ذنبه». وهكذا روي عن مجاهد ابن جبر أيضاً^٤.

النواح: مبالغة في التوح، وهو الذي يتوح على نفسه وندبها ندماً على ما فرط منه، منيباً مستغفراً أواباً. وتدل أداة الإعراض «عن» على ندم بالغ، وعزم صارم على التردد أبداً.

وأما ما روي من التفسير بـ«الصلاة» بين المغرب والعشاء، فهذا من الوسيلة التي يجب ابتغاؤها إلى الله عز شأنه «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ»^٥، ومن ثم سميت صلاة الأوابين. روى هشام بن سالم عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: صلاة أربع ركعات، يُقرأ في كل ركعة خمسين مرة «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ...»، هي صلاة

١. النجم (٥٣): ٣٢.
٢. تفسير الصافي، ج ٢، ص ٦٦٦.
٣. الإسراء (١٧): ٥٤.
٤. راجع: مجمع البيان، ج ٦، ص ٤١٠.
٥. المائدة (٥): ٣٥.

الأوابين^١. وقد ورد الترغيب في التمثل بأربع ركعات بعد المغرب، لا يدعهن العبد في حضر ولا سفر^٢.

من نوادر حكمته

و لما أن جرد ليضرب على امتناعه من البيعة للوليد وسليمان ابني عبد الملك، قالت امرأة: إن هذا المحتام الخزي، فقال سعيد: «من مقام الخزي فررنا»^٣.

و قال: «يد الله فوق عباده، فمن رفع نفسه وضعه الله، ومن وضعها رفعه الله. الناس تحت كنفه يعملون أعمالهم، فإذا أراد الله فضيحة عبد، أخرجه من تحت كنفه، فهدت للناس عورته»^٤.

و قال: «لا خير فيمن لا يحب هذا المال، يصل به رحمه، ويؤذي به أمانته، ويستغني به عن خلق ربه»^٥.

و روى عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه سأل فاطمة رضي الله عنها: ما خير للنساء؟ قالت: أن لا يرين الرجال ولا يروهن. فذكره للنبي صلى الله عليه وآله فقال: «إنما فاطمة بضعة مني». و أيضاً عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «من اتقى الله عاش قوياً وسار في بلاده آمناً»^٦. و قال: «لا تملأوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا يانكار من قلوبكم، لكي لا تحبط أعمالكم الصالحة»^٧.

و كان معبراً للرؤيا، معروفاً بذلك. فوجه إليه عبد الملك بن مروان من يسأله عن منامه، كان قد رأى كأنه قد هال في المحراب أربع مرّات؛ فقال سعيد بن المسيّب: يملك من ولده لصلبه أربعة. فكان كما قال، فإنه ولّي الوليد وسليمان ويزيد وهشام، وهم أولاد عبد

١. مجمع البيان، ج ٢، ص ٤١٠.

٢. راجع: وسائل النجاة، ج ٣، ص ٦٣، باب ٣٤: أعداد الغرائض والنوافل، ج ٥، ص ٣٤٧ و ٣٤٩.

٣. حلية الأولياء، ج ٢، ص ١٧٣.

٤. المصدر نفسه، ص ١٧٣.

٥. المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٧٠ وفیات الأعيان، ج ٣، ص ٣٧٨.

٦. المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٧٠.

٧. المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٧٠.

الملك لصلبه^١.

٣. مجاهد بن جبر

هو أبو الحجاج المخزومي المكي، المقرئ المفسر. ولد سنة (٢١١ هـ)، وتوفي بمكة ساجداً سنة (١٠٤ هـ). كان أوثق أصحاب ابن عباس، ومن ثم اعتمده الأئمة وأصحاب الحديث والتفسير.

و روي عنه أنه قال: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث مرّات، أقف عند كل آية، أسأله فيم نزلت، وكيف نزلت.

قال ابن أبي مليكة^٢: رأيت مجاهداً يسأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواح، فيقول له ابن عباس: اكتب، حتى سأله عن التفسير كله. ومن ثم قيل: أعلمهم بالتفسير مجاهد.

و قال سفيان الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به. قال الذهبي: أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به. كان ثقة مأموناً، وفقها ورعاً، وعالمًا كثير الحديث، جيد الحفظ متقناً. قال الأعمش: إذا رأيت مجاهداً كان له جمال أو حربندج^٣، فإذا نطق خرج من فيه اللؤلؤ^٤.

* * *

مكانته في التفسير

استفاضت شهادة العلماء بعلو مكانته في التفسير وثقته وأمانته وسعة علمه. وقد

١. وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٣٧٨.

٢. هو عبد الله بن عبد الله التميمي المدني أورد فلاطين من أصحاب النبي ﷺ ثقة فقيه، مات سنة (١٨٧ هـ) ولأه ابن الزبير قضاء الطائف (تهذيب التهذيب، ج ٥، ص ٣٠٧).

٣. ضل حماره فهو بهتم.

٤. راجع: ترجمته في العبدات، ج ٥، ص ٣٤٣-٣٤٤؛ تهذيب التهذيب، ج ١٠، ص ٤٣-٤٤؛ ميزان الاعتدال، ج ٣، ص ٤٣٩؛ مقدمة في أصول التفسير، ص ٤٨؛ الجرح والتعديل، ج ٨، ص ٣١٩.

احتجّ بتفسيره الأئمة النقاد والعلماء وأصحاب الحديث.

أنّهم بالأخذ من أهل الكتاب، ولكن شدة نكير شيخه ابن عباس على الآخذين من أهل الكتاب، يتنافى وهذه التهمة. والأرجح أن رجوعه إليهم كان في أمور لا تدخل في دائرة النهي الوارد عن رسول الله ﷺ، وربما كان لغرض التحقيق لا التقليد.

وكذلك أنّهم بأنّه يفسّر القرآن برأيه - كان قد أعطى نفسه حريّة واسعة في التفسير العقلي - فقد روى ابنه عبد الوهاب أن رجلاً قال لأبيه: أنت الذي تفسّر القرآن برأيك؟ فبكى أبي تمّ قال: إني إذن لجري، لقد حملت التفسير عن بضعة عشر رجلاً من أصحاب النبي ﷺ.

قلت: وهذه التهمة يرجع سببها إلى الجوّ الحاكم آنذاك من التحاشي عن الخوض في معاني القرآن، ولا سيّما المتشابهات، غير أن شريعة العقل ترفض كلّ مناشئ الجمود. وقد أسبقنا البحث عن مسألة التفسير بالرأي الممنوع.



حريّته في التفسير العقليّ

مركز تحقيق كتب علوم إسلامي

كان مجاهد حرّ الرأي، يفسّر القرآن حسبما يبدو له من ظاهر اللفظ، ويرشده إليه عقله الرشيد وفطرته السليمة، بعد إحاطته بمفاهيم الكلمات والأوضاع اللغويّة والعرفيّة (حسب متفاهم العرف العامّ آنذاك) وما كان قد عهدده من مباني الشريعة وأسس الدين التوجيه. وبعد مراجعة كلمات أعلام الأئمة وخيار الصحابة الأولين، الأمر الذي يسبب توفّره في كلّ منسّر حرّ الرأي ومضطلع خبير.

قال - في تفسير قوله تعالى: «فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ»^١ - : لم يُمْسَخُوا قِرَدَةً، وإنّما هو مثل ضربه الله، كما قال: «كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً»^٢. قال: إنّه مُسَخَتْ قلوبهم فجعلت

٢. البقرة (٢): ٦٥.

١. التفسير والمفسرون: ج ١، ص ١٧٠.

٣. الجمعة (٦٦): ٥.

كقلوب القردة لا تقبل وعظاً ولا تنقي زجراً. قال الطبرسي: وهذا يخالف الظاهر الذي عليه أكثر المفسرين من غير ضرورة تدعو إليه^١.

و للزمخشري هنا كلام يشبه تفسير مجاهد، في دقة أدبيته لطيفة. قال: قوله تعالى: «كونوا قردة خاسئين» خبران، أي كونوا جامعين بين القردية والخسوة، وهو الصغار والطرء^٢.

و من ثم قال المولى جمال الدين أبو الفتوح الرازي - من أعلام القرن السادس - مجاهد گفت: معنی آن است «أذلاء صاغرين» ذليل ومهين. ودر این عطفی و عبرتی است آنان را^٣.

قال الإمام الرازي (٥٤٤ - ٦٠٦ هـ): إن ما ذكره مجاهد - رحمه الله - غير مستبعد جداً، لأن الإنسان إذا أصر على جهالته بعد ظهور الآيات وجلاء البينات، فقد يقال - في العرف الظاهر - إنه حمار و قرد. وإذا كان هذا المجاز من المجازات الظاهرة المشهورة، لم يكن في المصير إليه محذور البتة^٤.

قلت: ويشهد لهذا التأويل قوله تعالى - في سورة المائدة - : «مَنْ نَعَمَّ اللَّهُ وَ غَضِبَ عَلَيْهِ وَ جَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَ عَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرُّ مَكَاناً وَ أَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ»^٥. بدليل عطف «و عبدة الطاغوت»، وكذا عطف «الخنازير». وهذان لم يأت ذكرهما في سائر القرآن؛ فيكون المعنى: أن من شديد العقوبة أن يتحول الإنسان من شموخ كرامته واعتلاء سرفه، إلى سافل مبتذل يحمل سمات القردة والخنازير، مُهاناً لئيماً، يرضخ للطواغيت رضوخ الذليل الحقير.

١. مجمع البيان، ج ١، ص ٤٩٢؛ راجع: تفسير الصبري، ج ١، ص ٣٦٣؛ تفسير مجاهد، ص ١٧٥-١٧٦.

٢. الكشاف، ج ١، ص ٤٧. ٣. روض الجنان، ج ١، ص ١٧.

٤. التفسير الكبير، ج ٣، ص ١١١. ٥. المائدة (٥): ٦٤.

و عند تفسير قوله تعالى: «وَجُودُهُ يُؤْتِيهِمُ الْغَاثَ وَالْفَاسِقَ»^١، روى وكيع عن سفيان عن منصور عن مجاهد، قال: تنتظر الثواب من ربها، وعن الأعمش عنه: «تنتظر رزقه وفصله». وفي حديث: «تنتظر من ربها ما أمر لها». قال منصور: قلت لمجاهد: إنَّ ناساً يقولون: إنَّه تعالى يُرى، فيرون ربهم؟! فقال مجاهد: لا يراه من خلقه شيء. وفي حديث آخر: يرى ولا يراه شيء.^٢

و أنت ترى أنَّ القول بامتناع الرؤية يخالف عقيدة السلفيين من أصحاب الظواهر، ومن تمَّ رموه بالحياد عن طريقة السلف، وأنَّه يفسَّر برأيه، أو أنَّه يرى مذهب الاعتزال، كما رموا تلاميذه حسبما يأتي في ابن أبي نجيح راوي تفسيره. ومن ثمَّ قال الطبري -تقريباً على ذلك-: «وَأُولَى الْقَوْلِينَ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا بِالصَّوَابِ، الْقَوْلُ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ عَنِ الْحَسَنِ وَعُكْرَمَةَ، مِنْ أَنَّ مَعْنَى ذَلِكَ: تَنْظُرُ إِلَى خَالِقِهَا».

قال الأستاذ الذهبي: وهذا التفسير عن مجاهد كان فيما بعد متكافئاً قوياً للمعتزلة فيما ذهبوا إليه في مسألة الرؤية.^٣

قلت: والعجيب أنَّ الآراء المستقيمة المتوافقة مع الفطرة والعقل الرشيد؛ حيث صدرت قديماً وحديثاً، فإنَّها تُعزى إلى فريق المعتزلة، وهي منشأ لمذاهبهم في العقيدة الإسلامية، الأمر الذي يجعل من العقل والفطرة -في نظر أهل الجمود- في قبضة أهل الاعتزال، وفي منحصر آرائهم ومذاهبهم.

قال الرمخشري: ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر، فإنَّ المؤمنين نُظَّارة ذلك اليوم؛ لأنَّهم الآمنون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. فاختصاصه بنظرهم إليه لو كان منظوراً إليه، محال؛ فوجب حملُه على معنى يصحَّ معه الاختصاص، والذي يصحَّ منه أن يكون من قول الناس: أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي، تريد معنى التوقع والرجاء، ومنه قول القائل:

٢. تفسير الصيرفي: ج ٥٩، ص ١٢٠.

١. البزامة (٧٥): ٢٣٣.

٣. التفسير والمفسرون: ج ١، ص ١٠٦.

و إذا نظرتُ إليك من ملك و البحرُ دونك رَدَّتني نِعماً
و سمعتُ سرَّوِيَّةً مستجديَّةً بِمَكَّةَ وقت الظهر، حين يخلق الناسُ أبوابهم و يأوون إلى
مقائلهم، تقول: عَيَّيْتُني نُويظرة إلى الله و إليكم، و المعنى: أَنهم لا يتوقعون النعمة و الكرامة
إِلَّا من رَبِّهم، كما كانوا في الدنيا لا يخشون و لا يرجعون إِلَّا إِيَّاهُ.

و علَّق عليه ابن المنير - في الهامش - بأنَّ عدم كونه تعالى منظوراً إليه، مبني على
مذهب المعتزلة، و هو عدم جواز رؤيته تعالى، و مذهب أهل السنة جوازها!!

و قال الفخر: اعلم أنَّ جمهور أهل السنة يسمِّكون بهذه الآية في إتيات أنَّ المؤمنين
يرون الله تعالى يوم القيامة، أمَّا المعتزلة فأنكروا دلالة الآية على ذلك أولاً، و إمكان
تأويلها على الفرض ثانياً، حيث الرؤية تمتنع عليه تعالى عقلاً و نقلاً قطعياً، الأمر الذي
لا يختلف في هذه الحياة أم في الآخرة.

أمَّا المفسرون من علمائنا الإمامية فإنهم مضيقون على امتناع الرؤية مطلقاً، و ليس في
الآية دلالة صريحة على ذلك، مع شيوخ استعمال النظر في التوقع و الانتظار.

قال الشيخ أبو جعفر الطوسي رحمته الله: معناه، منتظرة نعمة ربها و توابه أن يصل إليهم،
و يكون النظر بمعنى الانتظار، كما قال تعالى: «وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ
الْمُرْسِلُونَ»^١، أي منتظرة. و قال الشاعر:

وجوه يوم بدر ناظرات إلى الرحمان يأتي بالفلاح

و قوله تعالى: «وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^٢، معناه، لا يُسَلِّمهم رحمته، قال رحمته الله: و ليس
النظر بمعنى الرؤية أصلاً، بدلالة أَنهم يقولون: نظرت إلى الهلال فلم أراه. فلو كان بمعنى
الرؤية لتناقض؛ و لأنهم يجعلون الرؤية غاية للنظر، يقولون: ما زلت أنظر إليه حتى رأيته،
و لا يجعل الشيء غاية لنفسه، فلا يقال: ما زلت أراه حتى رأيته. قال: و النظر - في الأصل -
تقليب حدقة العين نحو المرئي طلباً للرؤية، فاستعمل في مطلق التأمل و التوقع

١. التفسير الكبير، ج ٣، ص ٢٦٦.

٢. الكشاف، ج ٤، ص ٦٦٤.

٣. آل عمران (٣): ٧٧.

٤. النمل (٢٧): ٣٥.

والانتظار. قال: وليس لأحد أن يقول: إنَّ ذا يخالف إجماع المنسِّرين القدماء؛ لأنَّنا لا نسلم ذلك، بل قد قال مجاهد وأبو صالح (و الحسن^١) وسعيد بن جبير والضحاك: إنَّ المراد نظر التَّوَاب. و روى مثله عن عليٍّ عليه السلام تمَّ أخذ في التعمُّق والاستدلال^٢، جزاء الله عن الإسلام خيراً.

تفسير مجاهد برواية ابن أبي نجيع

هناك تفسير متقطع ومرتب على السور، يبتدئ من سورة البقرة حتَّى نهاية القرآن، منسوب إلى مجاهد، يرويه عنه أبو يسار عبد الله بن أبي نجيع يسار، الثَّقَنِي الكوفي (توفي سنة ١٣١ هـ)، بطريق عبد الرحمان بن الحسن بن أحمد الهمداني، عن إبراهيم بن الحسين الهمداني، عن آدم بن أبياس، عن ورقاء بن عمر اليشكري عن ابن أبي نجيع. وقد صحَّحه الأئمة واعتمده أرباب الحديث.

قال وكيع بن الجراح^٣: كان سفيان يصحِّح تفسير ابن أبي نجيع. قال أحمد بن حنبل: ابن أبي نجيع ثقة، وكان أبوه من خيار عباد الله^٤. قال المذهبي: هو من الأئمة الثقات^٥. وقد اعتمده البخاري فيما يرويه في التفسير عن مجاهد^٦. قال ابن تيمية: تفسير ابن أبي نجيع عن مجاهد من أصحِّ التفاسير، بل ليس بأيدي أهل التفسير كتاب في التفسير أصحَّ من تفسير ابن أبي نجيع عن مجاهد^٧. وقد طبع هذا التفسير باهتمام مجمع البحوث الإسلامية في باكستان سنة (١٣٦٧ هـ.ق.).

١. ضمَّ الحسن إلى هؤلاء الأعلام يخالف ما نقله عن الصوري، روى بإسناده عن الحسن: قال: تنظر إلى خلفه، وحقَّ لها أن تنظر وهي تنظر إلى الحلق (تفسير الصوري، ج ٢٩، ص ١١٩، ١٢٠).

٢. أورد هذا البحث في موضعين من تفسيره القيم البيان، ج ١، ص ٣٢٧-٣٢٩، ج ١، ص ١٩٧-١٩٩.

٣. من أكاير الحفاظ ومن الأئمة الأعلام (٢٧-٩٦ هـ) من أصحاب سفيان الثوري، قال القاضي كذا عند حماد بن زيد فجاء وكيع، فقالوا: هذا رواية سفيان. فقال حماد: لم شئت قلت هذا أرجح من سفيان. وقال أحمد: وكيع شيخ، مصبوع الحديث (تهذيب التهذيب، ج ١١، ص ١٢٥).

٤. المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٤-٥٥. ٥. ميزان الاعتدال، ج ٢، ص ١٤٥، رقم ٤٦٥١.

٦. راجع: فتح الباري، ج ١، ص ١٣٢ و ١٣٥، كتاب التفسير.

٧. تفسير سورة الإخلاص لابن تيمية، ص ٩٤، راجع: المقدمة بقلم عبد الرحمان الطاهر مندوب المجمع، ص ٦١.

و هذا التفسير ينتص كثيراً عما جاء في الطبري من تفسير مجاهد، لكنه عن غير طريق ابن أبي نجیح.

قال سواح: وقد نقل الطبري من هذا التفسير حوالي (٧٠٠) مرة في مواضع مختلفة. وقد دخلت بعض أجزاء هذا التفسير في تفسير الطبري عن طريق تفاسير أخرى، مثل تفسير ابن جريج والنوري وغيرهما.

٤. طاووس بن كيسان

أبو عبد الرحمن طاووس بن كيسان الخولاني الهمداني اليمني، من أبناء الفرس، أحد الأعلام التابعين. كان فقيهاً جليلاً القدر، نبیه الذكر. قال ابن عيينة: قلت لعبيد الله بن أبي يزيد: مع من تدخل على ابن عباس؟ قال: مع عطاء وأصحابه. قلت: و طاووس؟ قال: أيها، كان ذلك يدخل مع الخواص. وقال عمرو بن دينار: ما رأيت أحداً قط مثل طاووس.

وقد شهد بشأته الكثير من العلماء، فعن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس، قال: إني لأظن طاووساً من أهل الجنة. وقال ابن جابر: كان من عبادة أهل اليمن، ومن سادات التابعين، وكان قد حج أربع حجّة، وكان مستجاب الدعوة. وقال ابن عيينة: متجنبو السلطان ثلاثة: أبوذر في زمانه، و طاووس في زمانه، والنوري في زمانه. وكان ابن معين يعدله بسعيد بن جبیر.

قال أبو نعیم: هو أول الطبقة من أهل اليمن، الذين قال فيهم النبي ﷺ: الإيمان يمان. وقد أدرك خمسين رجلاً من الصحابة و علمائهم و أعلامهم، وأكثر روايته عن ابن عباس. و روى عنه الصفوة من الأئمة التابعين.

١. معجم مصنفات القرآن الكريم، ج ٤، ص ٦٠، رقم ٩٩٤.

٢. وفیات الأعيان، ج ٢، ص ٥٩، رقم ٣٠٦، حبة الأولياء، ج ٤، ص ٩.

٣. تهذيب التهذيب، ج ٥، ص ١٠٨، ١. حبة الأولياء، ج ٤، ص ٢٣٣.

و عدّه ابن شهر آشوب من أصحاب الإمام زين العابدين عليه السلام و وصفه بالفقيه ^١ و له مع الإمام مواقف مشهودة، منها:

عند ما خرّ الإمام ساجداً عند بيت الله الحرام، فدنا منه و سأل برأسه و وضعه على ركبته، و بكى حتّى جرت دموعه على خدّ الإمام، و عند ذلك استوى الإمام جالساً، و قال: من الذي أشغلتني عن ذكر ربّي؟! فقال: أنا طاووس يا ابن رسول الله، ما هذا الجزع و الفزع؟! ^٢ و أيضاً موقفه الآخر مع الإمام في الحجر ^٣، ممّا يدلّ على اختصاصه به و شدّة قربه منه عليه السلام و اليمانيّون - و لا سيّما همدان - معروفون بالولاء، و إن كانت النسبة بالولاء. و هكذا كان يوم موته سنة (١٠٦ هـ) أيضاً يوماً مشهوداً، و قد وضع عبد الله بن الحسن المثنى سريره على كاهله، و قد سقطت قلنسوته و مرّق رداؤه، من كثرة الزحام ^٤.

* * *

كما أنّ له مع طوائف زمّانه مواقف حاشمة، إنّما تدلّ على صلابته في جنب الله: قال ابن خلّكان: قدم هشام بن عبد الملك حاجاً إلى بيت الله الحرام، فلمّا دخل الحرم قال: آتوني برجل من الصحابة، فقبل له: قد تفتّناوا. قال: فمن التابعين، فأوتي بطاووس اليمانيّ. فلمّا دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه، و لم يسلم بإمرة المؤمنين، و لم يركب، و جلس إلى جانبه بغير إذنه، و قال: كيف أنت يا هشام؟ فغضب هشام من ذلك غضباً شديداً و همّ بقتله، فقبل له: أنت في الحرم، لا يمكن ذلك. فقال: يا طاووس، ما حملك على ما صنعت؟ قال: و ما صنعت؟ فاستدّ غضبه و غيظه، و قال: خلعت نعليك بحاشية بساطي، و لم تسلم بإمرة المؤمنين، و لم تُكسني، و جلست بإزائي بغير إذني، و قلت: يا هشام، كيف أنت؟

١. المناقب، ج ٤، ص ١٧٧. و كذا الشيخ في رجاله: معجم رجال الحديث، ج ٩، ص ١٥٥، رقم ٥٩٨٤.

٢. المناقب، ج ٤، ص ١٥١: بحار الأنوار، ج ٤، ص ٨٢.

٣. الإرشاد، ج ٢، ص ١٤٣: بحار الأنوار، ج ٤، ص ٧٦.

٤. وفيات الأعيان، ج ٢، ص ١٩، رقم ٣٠٦.

قال: أمّا خلع نعليّ بحاشية بساطك، فإنّي أخلعهما بين يدي ربّ العزّة كلّ يوم خمس مرّات، فلا يعاتبني ولا يغضب عليّ. وأمّا ما قلت: لم تسلّم عليّ بأمره المؤمنين، فليس كلّ المؤمنين راضين بأمرتك، فحُفّت أن أكون كاذباً. وأمّا ما قلت: لم تُكثني، فإنّ الله عزّ وجلّ سمّى أنبياءه، قال: يا داود، يا يحيى، يا عيسى. وكثّ أعداءه فقال: «تُكثّ يدا أبي هب». وأمّا قولك: جلست بإزائي، فإنّي سمعت أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام يقول: «إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار، فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام». فقال له هشام: عظمي! قال: إني سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «إنّ في جهنّم حيّات كالقلاّل، وعقارب كالبغال، تلدغ كلّ أمير لا يعدل في رعيّته»، ثمّ قام وخرج.

انظر كيف يكرّر لفظ «أمير المؤمنين» يعني به عليّ بن أبي طالب عليه السلام في حين امتناعه من التسليم عليه بذلك، بحجّة أن في المؤمنين -و يعني أمثال نفسه- من لا يرضى بأمرته! إن هذا إلا تربية أهل الولاء لآل بيت الرسول ﷺ دون غيرهم إطلاقاً.



و روى ابن خلدان بشأن ابنه عبد الله ما يشبه صلابة أبيه في الدين، قال: وروى أن أمير المؤمنين أبا جعفر المنصور، استند على عبد الله بن طاووس ومالك بن أنس، فأحضرهما. فلمّا دخلا عليه أطرق المنصور ساعة، ثمّ التفت إلى ابن طاووس، وقال له: حدّثني عن أبيك. فقال: حدّثني أبي أن أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله تعالى في سلطانه، فأدخل عليه الجور في حكمه. فأمسك أبو جعفر ساعة، قال مالك: فضممت ثيابي خوفاً أن يصيبني دمه. ثمّ قال له المنصور: ناولني تلك الدواة - ثلاث مرّات - فلم يفعل، فقال له: لم لا تناولني؟ فقال: أخاف أن تكتب بها معصية، فأكون قد شاركك فيها! فلمّا سمع ذلك، قال: قوما عني. قال عبد الله: ذلك ما كنّا نبغي. قال مالك: فما زلت أعرف لابن طاووس فضله من ذلك اليوم.

قلت: وهذا يتنافى مع تاريخ وفاته سنة (١٣٢ هـ) حسبما ذكره ابن حجر؛ لأنَّ أبا جعفر إنما تصدَّى للخلافة بعد موت السفاح سنة (١٣٦ هـ).^٢ وقد ذكر ابن خلِّكان تلك الحكاية عن المنصور بعنوان أنَّه أمير المؤمنين.

كما يتنافى هذا الموقف من ابن طاووس مع ما ذكروا عنه أنَّه كان على خاتم سليمان ابن عبد الملك، وكان كثير الحمل على أهل البيت.^٣

ولعلَّ عبد الله هذا هو ابن عطاء، الذي صحب الإمامين الباقر والعصادق عليه السلام، وكان من خلَّص شيعتهما كأبيه عطاء بن أبي رباح.^٤ قال الكشي: «ولد عطاء بن أبي رباح تلميذ ابن عباس: عبد الملك، وعبد الله، وعريف، نجباء، من أصحاب أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام». ثم روى حديثاً يدلُّ على اختصاص عبد الله بالصديق، وقربه منه حسبما يأتي.^٥

* * *

وطاووس مواقف وآراء تخصُّه لا تخلو من طرافة وخرافة، منها: أنَّه كان يكره أن يقول: حجَّة الوداع، ويقول: حجَّة الإسلام. أخرج ذلك ابن سعد عن إبراهيم بن ميسرة عنه.^٦

وكان ابنه يقول: إنَّ العالم لا يحرك، يريد أباه. فقد أخرج أبو نعيم بإسناده إلى وكيع، قال: حدثنا أبو عبد الله الشامي، قال: أتيت طاووساً فخرج إليَّ ابنه شيخ كبير، فقلت: أنت طاووس؟ فقال: أنا ابنه. قلت: فإن كنت ابنه فإنَّ الشيخ قد خرف، يعني أباه طاووساً. فقال: إنَّ العالم لا يخرف.^٧ وأخرج أبو نعيم بإسناده عن ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن طاووس عن بريدة عن النبي ﷺ قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه». قال أبو نعيم:

١. تهذيب التهذيب: ج ٥، ص ٢٦٧.

٢. تمهيد المنتهى لقمي: ص ٢٦٧.

٣. تهذيب الأحكام للشيخ الفوسقي: ج ٥، ص ٣٦٣. تهذيب التهذيب: ج ٥، ص ٢٦٨.

٤. راجع الإرشاد: ج ٢، ص ١٦٠. بصائر الدرجات: ص ٣٥٣-٣٥٤ و ٢٥٧-٢٥٨. الكافي (الروضة): ج ٨، ص ٣٧٦، رقم ١٧١. المناقب: ج ٤، ص ١٨٨ و ٢٠٤.

٥. رجال الكشي: ص ١٨٨ (ط نجف).

٦. العيقات: ج ٢، ص ١٣٥، ص ١٨ (ط ليدن).

٧. حلية الأولياء: ج ٤، ص ٨١.

غريب من حديث طاووس، لم نكتبه إلا من هذا الوجه.^١
وله ذيل قوله تعالى: «الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ»^٢، حديث طريف
جاء بين رسول الله و علي عليه السلام. وقد تنرد بنقله عنه وهب بن منبه الذي وصفه أبو نعيم
بالحكيم الحليم.^٣

و جاء ابن سليمان بن عبد الملك فجلس إلى جنب طاووس، فلم يلتفت إليه، فقبل له:
جلس إليك ابن أمير المؤمنين، فلم تلتفت إليه؟! قال: أردت أن أعلم أن الله عباداً يزهدون
فيما في يديه، يعني يدي ابن الخليفة! كما أن له مع سليمان بن عبد الملك موقفاً حكيماً
يدل على صلابته في الدين و صدقه في جنب الله.^٤

* * *

و فسر قوله تعالى: «و خُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً»^٥، قال: في أمور النساء، ليس يكون
الإنسان في شيء أضعف منه في أمور النساء.^٦ و فسر قوله تعالى: «أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ
مَكَانٍ بَعِيدٍ»^٧، قال: بعيد من قلوبهم.^٨ وكان يقول: لم يجهد البلاد من لم يتولّ اليتامى أو
يكون قاضياً بين الناس في أموالهم، أو أميراً على رعايتهم.^٩

مركز تحقيق وتطوير علوم إسلامية

٥. عكرمة مولى ابن عباس

أبو عبد الله عكرمة بن عبد الله. أصله من البربر من أهل المغرب، كان لحصين بن الحرّ
العنبري، فوهبه لابن عباس، حين ولى البصرة لعلي بن أبي طالب عليه السلام، واجتهد ابن عباس
في تعليمه القرآن و السنن، و سَمَّاهُ بِأَسْمَاءِ الْعَرَبِ.^{١٠}

١. الزخرف (٤٣): ٦٧.

٢. المصدر نفسه، ص ٨٦.

٣. النساء (٤): ٥٨.

٤. فضت (٤١): ٤٤.

٥. المصدر نفسه، ص ٨٣.

٦. المصدر نفسه، ص ٣٣.

٧. حلية الأولياء، ج ٥، ص ٣٣-٣٢.

٨. المصدر نفسه، ص ٨٥.

٩. حلية الأولياء، ج ٥، ص ٨٣.

١٠. حلية الأولياء، ج ٥، ص ٨١.

١١. وقيل الأعران، ج ٣، ص ٣٦٥، رقم ٤٢١ قال ابن سعد: كان ابن عباس يسمي عبيد أسماء العرب: عكرمة
و سميع و كريب. وكان يأمرهم بالتزويج و ترك العزوبة (العقبات، ج ٥، ص ٣١٣).

قال ابن سعد: كان يقيده فيعلمه القرآن ويعلمه السنن^١. فرباه فأحسن تربيته، وعلمه فأحسن تعليمه، وأصبح فقيهاً وأعلم الناس بالتفسير ومعاني القرآن. قال ابن خلكان: أصبح عكرمة أحد فتناء مكة وتابعيها، وكان ينتقل من بلد إلى بلد. قال: وروى أن ابن عباس قال له: انطلق فأفت للناس. وقيل لسعيد بن جبيرة: هل تعلم أحد أعلم منك؟ قال: عكرمة. وأخرج الذهبي عن عكرمة قال: طلبت العلم أربعين سنة، وكنت أفتي بالباب وابن عباس في المدار^٢.

وأخرج ابن سعد عن سلام بن مسكين، قال: كان عكرمة من أعلم الناس بالتفسير. وعن عمرو بن دينار، قال: دفع إلي جابر بن زيد مسائل أسأل عنها عكرمة، وجعل يقول: هذا عكرمة مولى ابن عباس، هذا البحر فسلوه. وأخرج عنه أبو نعيم، قال: هذا عكرمة مولى ابن عباس، هذا أعلم الناس.

وكان ابن عباس لا يدع فرصة لتعليمه، قال عكرمة: قال لي ابن عباس ونحن ذاهبون من منى إلى عرفات: هذا يوم من أيامك (أي هذه فرصة لك فاستمها) فجعلت أرجئ به وفتح عليّ ابن عباس^٣.

وأخرج ابن سعد أيضاً عن خالد بن القاسم البياضي قال: مات عكرمة وكثير عزة الشاعر في يوم واحد سنة (١٠٥ هـ). فرأيتهما جميعاً صلي عليهما في موضع واحد بعد الظهر في موضع الجنائز، فقال الناس: مات اليوم أفقه الناس وأشعر الناس^٤.

وأخرج أبو نعيم عن إسماعيل بن أبي خالد، قال: سمعت الشعبي يقول: ما بقي أحد أعلم بكتاب الله تعالى من عكرمة. وعن سلام بن مسكين، قال: سمعت قتادة يقول: أعلمهم بالتفسير عكرمة.

١. العبدات، ج ٢، ق ٢، ص ١٣٣ وج ٥، ص ٢١٢ (ط ليدن). قال كان يضع في رجه الكبل لذلك؛ راجع: حبة الأولياء، ج ٣، ص ٣٢٦ رقم ٣٤٥؛ في ميزان الاعتدال، ج ٣، ص ٥٩ رقم ٥٧٦؛ كان يضع في رجله الكين على تعليم القرآن والفقه.

٢. ميزان الاعتدال، ج ٣، ص ٥٩ رقم ٥٧٦. ٣. أنرجش، يعني أوقفه فأسأله (العبدات، ج ٥، ص ٢١٢).

٤. المصدر نفسه، ص ٢١٦.

و أخرج عن يزيد النحوي عن عكرمة، قال ابن عباس لي: انطلق فأفت الناس، فمن سألك عما يعنيه فأفته، ومن سألك عما لا يعنيه فلا تفتيه، فإنك تطرح عني ثلثي مؤونة الناس. وعن عمرو بن دينار، قال: كنت إذا سمعت من عكرمة يحدث عن المغازي، كأنه مشرف عليهم ينظر كيف كانوا يصنعون و يقتتلون. وكان سفيان الثوري يقول بالكوفة: خذوا التفسير عن أربعة: سعيد بن جبير، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة. وفي رواية: تبديل عطاء بالضحاك.

و أخرج ابن حجر عن يزيد النحوي عن عكرمة، قال: قال لي ابن عباس: انطلق فأفت بالناس وأنا لك عون. قال: فقلت له: لو أن هذا الناس مثلهم مرتين لأفتيتهم. قال: فانطلق فأفتهم، فمن جاءك يسألك عما يعنيه فأفته، ومن سألك عما لا يعنيه فلا تفتيه، فإنك تطرح عنك ثلثي مؤونة الناس. وقال ابن جواس: كنا مع شهر بن حوشب بجرجان، فقدم علينا عكرمة، فقلنا لشهر: ألا نأتيه؟ فقال: اتوه، فإنه لم يكن أمة إلا كان لها جبر، وأن مولى ابن عباس جبر هذه الأمة. فقد حمل هذا الملقب الرفيع من مؤدبه ابن عباس و ورثه منه. و قال المروزي: كان عكرمة أعلم شاذلي ابن عباس بالتفسير، وكان يدور البلدان يتعرض^٢.

و قال قتادة: كان أعلم التابعين عطاء وسعيد بن جبير وعكرمة، قال: وأعلمهم بالتفسير عكرمة. وقال ابن عيينة: سمعت أيوب يقول: لو قلت لك: إن الحسن ترك كثيرًا من التفسير، حين دخل علينا عكرمة البصرة حتى خرج منها، لصدقت. و قال ابن المديني: كان عكرمة من أهل العلم، ولم يكن في موالي ابن عباس أغزر علمًا منه. وقال ابن مندة: قال أبو حاتم: أصحاب ابن عباس عيال على عكرمة. وقال ابن

١. حلية الأولياء، ج ٣، ص ٣٢٦، ٣٢٩.

٢. تهذيب التهذيب، ج ٧، ص ٢٦٥؛ ميزان الاعتدال، ج ٣، ص ٩٣، رقم ٥٧١٦.

٣. المصدر نفسه. وشاذلي بالكاف الفارسيقة: التمدد. وقد ذكره ابن حجر في مقدمة فتح الباري، ص ٤٢٨ بلفظ: «كان عكرمة أعلم موالي ابن عباس وأتباعه بالتفسير».

٤. المصدر نفسه، ص ٣٦٦.

خيتمة: كان عكرمة من أثبت الناس فيما يروي^١.

* * *

تلك شهادات ضافية ومستفيضة بشأن الرجل، تجعله في قمة الفضيلة والعلم، والثقة والاعتماد عليه لدى الأئمة، مما يوهن ما حياك حول الرجل من أوهام وكاذيب مفضوحة، ليست تتناسب مع شخصية كانت تربية مثل ابن عباس، وموضع عنايته الخاصة.

قال أبو جعفر الطبري: ولم يكن أحد يدفع عكرمة عن التقدم في العلم بالثقة والقرآن وتأويله، وكثرة الرواية للآثار، وأنه كان عالماً بمولاه. وفي تقريره جلة أصحاب ابن عباس إياه ووصفهم له بالتقدم في العلم وأمرهم الناس بالأخذ عنه، ما بشهادة بعضهم تثبت عدالة الإنسان، ويستحق جواز الشهادة. ومن تثبت عدالته لم يقبل فيه الجرح، وما تسقط العدالة بالظن، ويقول فلان لمولاه لا تكذب عليّ، وما أشبهه من القول الذي له وجوه وتصاريف ومعان غير الذي وجهه إليه أهل الغباوة، ومن لا علم له بتصاريف كلام العرب^٢.

وقال أبو نعيم: ومنهم مفسر الآيات المحكمة، ومور الروايات المبهمة، أبو عبد الله مولى ابن عباس عكرمة. كان في البلاد جوالاً، ومن علمه للعباد بذلك^٣.

* * *

وأما الذين طعنوا فيه، فقد قصرت أنظارهم ولم يعرفوا وجه المخرج من ذلك، مع وضوح براءة الرجل مما قيل فيه. ويتلخص في رميته بالكذب، وميله إلى رأي الخوارج. أما الأول فلرواية رويها عن ابن عمر أنه قال لمولاه نافع: لا تكذب عليّ كما كذب عكرمة على ابن عباس. وأما الثاني فلوهم توهموه من سفرته إلى المغرب عند تجواله البلاد، وأن الخوارج هناك أخذوا عنه أحاديث.

٢. المصدر نفسه: ص ٤٢٨ - ٤٢٩.

١. مقدمة فتح الباري: ص ٤٢٨.

٣. حلية الأولياء: ج ٣، ص ٣٦٦، رقم ٢٤٥.

و من الواضح أنَّ هكذا تشبّهات غريبة إنما تنم عن حسد كان يحمله مناوئوه تجاه منزلة الرجل و شموخه في الفقه و العلم، بمعاني القرآن الكريم.

قال ابن حجر - بشأن الرواية عن ابن عمر -: إنها ضعيفة الإسناد، فضلاً عن اختلاف المتن و تباين النقل فيها. قال: إنها لم تثبت؛ لأنها من رواية أبي خلف الجزار عن يحيى البكاء، و البكاء متروك الحديث. و من ثم قال ابن حبان: و من المحال أن يجرح العدل بكلام المجروح. يقصد به البكاء. وأضاف ابن حجر: أنَّ إسحاق بن عيسى سأل مالكاً: أَبْلَغَكَ أَنَّ ابن عمر قال لنافع كذا؟ قال: لا، ولكن بلغني أنَّ سعيد بن المسيّب قال ذلك لمولاه برداً!

قلت: ولقد كان رميّه بالكذب شائعاً على عهده، وربما على عهد سيّده ابن عباس أيضاً؛ حيث ورد الذّبّ عن نفسه صريحاً، وإنكار ابن عباس ذلك.

قال ابن حكيم: كنت جالساً مع أبي أمية بن سهل بن حنيف، إذ جاء عكرمة، فقال: يا أبا أمية، أذكرنك الله، هل سمعت ابن عباس يقول: «ما حدثكم عكرمة عني فصدقوه، فإنه لم يكذب عليّ»؟ فقال أبو أمية: نعم. وقال أيوب: قال عكرمة: رأيت هؤلاء الذين يكذبوني من خلفي، أفلا يكذبوني في وجهي؟ قال ابن حجر: يعني أنهم إذا واجهوه بذلك أمكنه الجواب عنه و المتخرج منه. و ذلك أنَّ عكرمة كان يسمع الحديث من شيخ و مثله من شيخ آخر، فربما حدث و أسنده إلى الأول، ثم يحدث و يسنده إلى الآخر، فمن ذلك رموه بالكذب، كما قال أبو الأسود: كان عكرمة ربما سمع الحديث من رجلين، فكان إذا سئل، حدث به عن رجل، ثم يُسأل عنه بعد حين فيحدث به عن الآخر، فيقولون: ما أكذبه! وهو صادق^٢.

قال ابن حجر: احتجّ بحديث عكرمة البخاريّ و أصحاب السنن، و تركه مسلم - إلا

١. مقدمة فتح الباري، ص ٤٣٥.

٢. المصدر نفسه، ص ٤٣٧ تهذيب التهذيب، ج ١٧، ص ٣٦٥.

٣. مقدمة فتح الباري، ص ٤٣٧.

حديثاً واحداً - وإنما تركه لكلام مالك فيه (كان مالك لا يراه ثقة ويأمر أن لا يؤخذ عنه) .
قال: وقد تعقب جماعة من الأئمة ذلك، وصنفوا في الذب عن عكرمة، منهم: أبو جعفر ابن
جرير الطبري، ومحمد بن نصر الحروري، وأبو عبد الله ابن مندة، وأبو حاتم ابن حبان،
وأبو عمرو ابن عبد البر، وغيرهم.

وقد لخص ابن حجر ما قيل فيه، ثم عقبه بالإجابة عليه، قائلاً: فأما أقوال من أوهاه،
فمدارها على ثلاثة أشياء: على رميه بالكذب، وعلى الطعن فيه بأنه كان يرى رأي
الخوارج، وعلى القدر فيه بأنه كان يقبل جوائز الأمراء.

قال: أما قبول الجوائز فجمهور أهل العلم على الجواز، وقد صنف في ذلك ابن عبد
البر^١ قال: على أن ذلك ليس بمانع من قبول روايته، وهذا الزهري قد كان في ذلك أشهر
من عكرمة، ومع ذلك فلم يترك أحد الرواية عنه بسبب ذلك^٢.

وأما تهمة البدعة فإنها لم تثبت، وقد نقاها عنه جماعة من الأئمة النقاد. قال ابن
أبي حاتم: سألت أبي عن عكرمة، فقال: ثقة قلت: يحتج بحديثه؟ قال: نعم، إذا روى عنه
الثقات. والذي أنكر عليه مالك، إنما هو بسبب رأي، على أنه لم يثبت عنه من وجه قاطع
أنه كان يرى ذلك، وإنما كان يوافق في بعض المسائل فسيبوه إليهم. وقد برأه أحمد
والعجلي من ذلك، فقال - في كتاب الثقات له -: عكرمة مولى ابن عباس، مكّي تابعي ثقة،
بريء مما يرميه الناس به من الحرورية. وقال ابن جرير: لو كان كل من ادّعى عليه مذهب
من المذاهب الردية، ثبت عليه ما ادّعى به، وسقطت عدالته، وبطلت شهادته بذلك؛ للزم

١. تهذيب التهذيب: ج ٧، ص ٣٦٨؛ في ميزان الاعتدال: ج ٣، ص ٩٥. قال مصنف: سمعت مالكا يكره أن يذكر
عكرمة، ولا رأي أن يروي عنه.

٢. لم نجد فقهاء ذلك العهد كان قد سلم من ذلك، لا سيما إذا كان الأمير صالحاً، وكان الفقيه بحاجة
كما هو الشأن في سن عكرمة. فقد قيل له: ما جاء بك إلى هذه البلاد؟ قال: الحاجة (الحجرات، ج ٥، ص ٢١٤).
وفي رواية: أسعى على عيالي (مقدمة فتح الباري، ص ٤٦٦).

٣. مقدمة فتح الباري، ص ٤٦٤-٤٦٧.

٤. من مذاهب ومريئة إلا ويتوافق بعض مسائل مع مذهب الآخرين، وهذا لا يعني التوافق في الأصول
وفي كل الاتجاهات. نعم، الذين في قلوبهم زيغ، يتبعون ما تشابه ابتغاء الفتنة وفساداً وراء الفساد في الأرض.

ترد أكثر محدثي الأمصار؛ لأنه ما منهم إلا وقد نسبوه قوم إلى ما يرغب به عنه. قال الذهبي: عكرمة مولى ابن عباس، أحد أوعية العلم. تكلم فيه، لرأيه لا لحفظه، فأنهم برأي الخوارج. وقد وثقه جماعة، واعتمده البخاري^١.

وأما الكذب فلا منشأ لرميه به سوى حديث ابن عمر الأنفي، وفي طريقه ضعف، الأمر الذي لا يصطدم مع وفرة توثيقه؛ أخرج ابن حجر عن البخاري قال: ليس أحد من أصحابنا إلا احتج بعكرمة. وقال ابن معين: إذا رأيت إنساناً يقع في عكرمة فأنهم على الإسلام. وقال المروزي: قلت لأحمد بن حنبل: يحتج بحديث عكرمة؟ قال: نعم. قال المروزي: أجمع عامة أهل العلم على الاحتجاج بحديث عكرمة، واتفق على ذلك رؤساء أهل العلم بالحديث من أهل عصرنا، منهم: أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وأبو تور، ويحيى ابن معين. قال: ولقد سألت إسحاق عن الاحتجاج بحديثه، فقال: عكرمة عندنا إمام أهل الدنيا، وتعجب من سؤالي إياه. قال: وحديثنا غير واحد أنهم شهدوا يحيى بن معين، وسأله بعض الناس عن الاحتجاج بعكرمة، فأظهر التعجب. وقال البرار: روى عن عكرمة مائة و ثلاثون رجلاً من وجوه البلدان، كلهم رضوا به، إلى غيرها من توثيقات قيمة^٢.



وأما ما نسب إليه أنه كان ينادي في السوق: إن آية التطهير، نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة، فمكذوب عليه البتة. ذلك أنه تربية ابن عباس الخالصة، ولا يُظن بشأنه الحياد عن طريقة شيخه: (الولاء الخالص لآل بيت الرسول) و تحوير فضيلة خاصة بهم. ولا سيما بهذا النحو من الإصرار: «من شاء باهله أنها نزلت في أزواج النبي ﷺ»^٥ الأمر الذي لا يقوم به سوى معاند حاقده على آل البيت ﷺ. وليس إلا من صنع ذوي

١. المصدر نفسه، ص ٤٣٧. ٢. ميزان الاعتدال، ج ٣، ص ٩٣، رقم ٥٨١.

٣. راجع: مقدمة فتح الباري، ص ٤٢٨.

٤. إنا لله ياربنا الله لا نجيب عنكم الرجز أهل البيت و يطهروكم تطهيراً، احزاب (٣٣) ٣٣.

٥. الدر المنثور، ج ٦، ص ٦٠٣.

الضعائن والأحقاد. ودليلاً على ذلك أن أبا جعفر الطبري مع اهتمامه بجمع الأقوال والروايات مع أسانيدها، يأتي بأحاديث مستفيضة بأسانيد ذوات اعتبار، إلى أزواج النبي: أنها نزلت في الخمسة الطيبة محضاً، يذكرها بتفصيل. وفي النهاية يذكر هذه المتعلقة حديثاً واحداً شاذاً ذا إسناد مقطوع، ويتركه في غياهب الغموض. يروي عن يحيى بن واضح - وفيه كلام - عن الأصمغ بن نباتة عن علقمة بن قيس عن عكرمة...^١ وابن واضح، من الطبقة التاسعة، فلا يمكنه الرواية عن ابن نباتة من الطبقة الثالثة^٢. ولم يذكر المزيّ ابن نباتة فيمن يروي عنه ابن واضح هذا، مع شدة عنايته بذلك^٣. وعليه فالإسناد مقطوع لا محالة.

هذا، وابن واضح لم يكن ذلك النابه الخبير، وقد وصفه ابن معين: بثقة العلم وضعف الدراية، قال: ما كان يحسن شيئاً^٤. ولعل المشتغل أخذ من ضعف مقدرة الرجل ذريعة للتوصل إلى تسجيل فريته، فأسند منه إلى هؤلاء الأعلام (الأصمغ بن نباتة وعلقمة بن قيس وعكرمة مولى ابن عباس) ما هم منه ومن روايته براء، وأجلاً، من أن يخوضوا فيما هو من شأن الأدناس!

وأما إسناد ابن أبي حاتم فيروي عن علي بن حرب الموصلي عن زيد الحباب الكوفي - كان كثير الخطأ وكان يتقلب الحديث^٥ - عن الحسين بن واقد المروزي - وكان ربّما خطأ في الروايات. وقد أنكر أحمد حديثه، قال: في أحاديثه زيادة ما أدري أي شيء هي ونقص يده^٦ - عن يزيد بن أبي سعيد النحوي عن عكرمة^٧. وعلق عليه ابن كثير: إن كان المراد أنهم كن سبب النزول، فصحيح، وإن أريد أنهم المراد وحدهم فقط، ففي هذا نظر.. ثم جعل يذكر أحاديث صحاحاً أن النبي ﷺ كان يمرّ بباب فاطمة رضي الله عنها إذا خرج إلى

١. ذكره ابن الجوزي في الضعفاء، راجع: ميزان الاعتدال، ج ٤، ص ٤١٣.

٢. تفسير العنبري، ج ٣٦، ص ٧. ٣. راجع: تهذيب التهذيب، ج ١، ص ٨١ و ج ٢، ص ٣٥٩.

٤. راجع: تهذيب الكمال لأبي الحجاج المزي، ج ٢٠، ص ٣٤٨.

٥. ميزان الاعتدال، ج ٤، ص ٤١٣. ٦. راجع: تهذيب التهذيب، ج ٣، ص ٤١٤.

٧. المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٧٤. ٨. راجع: تفسير ابن كثير، ج ٣، ص ٤٨٣.

صلاة الفجر، ويقول: الصلاة يا أهل البيت «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً...» إلى ما يقرب من ستَّة عشر حديثاً؛ أنَّها بشأن أهل البيت (الخمسة الأطيار) عليهم السلام.

و هناك مواقف لعكرمة تدلُّنا على مدى اهتمامه بشأن آل البيت عليهم السلام، وحنانه البالغ على موضعهم المهضوم بعد وفاة الرسول: روى الواقدي بإسناده عن عكرمة قال: سألت ابن عباس متى دفنتم فاطمة؟ قال: دفناها بليل بعد هدأة. قال: قلت: فمن صلى عليها؟ قال: علي عليه السلام.

* * *

و يبدو من روايات أصحابنا الإمامية كونه من المنقطعين إلى أبواب آل بيت العصمة، وفقاً لتعاليم تلقاها من مولاه ابن عباس عليه السلام. فقد روى محمد بن يعقوب الكليني بإسناده إلى أبي بصير، قال: كنَّا عند الإمام أبي جعفر عليه السلام و عنده حمزان؛ إذ دخل عليه مولى له، فقال: جعلتُ فداك، هذا عكرمة في الموت، وكان يرى رأي الخوارج، وكان منقطعاً إلى أبي جعفر عليه السلام. فقال لنا أبو جعفر: انظروني حتَّى أرجع إليكم، فقلنا: نعم. فما لبث أن رجع، فقال: أما إنِّي لو أدركت عكرمة، قبل أن تقع النُّفس موقعها لعلمته كلمات ينتفع بها، ولكنِّي أدركته وقد وقعت النُّفس موقعها. قلت: جعلت فداك، وما ذاك الكلام؟ قال: هو - والله - ما أنتم عليه، فلقنوا موتاكم عند الموت شهادة أن لا إله إلا الله والإقرار بالولاية^٢. في هذه الرواية مواضع للنظر والإمعان: أولاً، دخول مولى أبي جعفر بذلك الخبر المناجئ، لدليل على أن لعكرمة كانت منزلة عند الإمام عليه السلام، وكان الإمام يهتم بشأنه. ثانياً، قوله: وكان منقطعاً إلى أبي جعفر، يؤيد كون الرجل من خاصَّة أصحابه، ولم يكن يدخل على غيره دخوله على الإمام عليه السلام.

و أمَّا قوله: وكان يرى رأي الخوارج، فهو من كلام الراوي، حدساً بشأنه، حسبما أملت

١. المصدر نفسه: ص ٤٨٣-٤٨٦.

٢. الشافعي في الإمامة للمرغني: ج ٤: ص ١١٣.

٣. الكافي: ج ٣: ص ٣٣، باب: تدفين الميت من كتاب: الجنائز، رقم ٥: مسألة العنقول للمجسبي: ج ١٣: ص ٣٧٨-٣٧٩.

عليه الحياكات الشائعة عنه^١، وإلا فهو متناقض مع انقطاعه إلى الإمام. كيف يختص بالحضور لدى إمام معصوم من أهل بيت النبوة، من كان يرى رأي خارجي مبغض لآل أبي طالب بالخصوص؟! إن هذا إلا تناقض، يرفضه العقل السليم، فهذا قول ساقط لا وزن له مع سائر تعابير الحديث المتننة.

و أخيراً فإن قوله **بِإِيَّائِي: لَقَدْ مَاتَ مَوْتَاكُمْ** الخ، مع اهتمامه البالغ بشأن إدراكه قبل الموت ليلتئنه؛ لدليل واضح على كونه ممن يرى رأيهم لا رأي غيرهم، وإلا فلا يتناسب قوله أخيراً مع فعله أولاً، فتدبر!

و هذه الرواية رويت مع اختلاف في بعض ألفاظها، رواها البرقي في كتاب الصفوة بإسناده إلى أبي بكر الحضرمي^٢، والكشي عن طريق محمد بن مسعود العياشي بإسناده إلى زرارة بن أعين عن الإمام أبي جعفر الباقر **عليه السلام**^٣. غير أن الكشي استنتج من قول الإمام: «لو أدركته لثفنته» أنه مثل ما يروى «لو أني أخذت خليلاً لا تأخذت فلاناً خليلاً» لا يوجب لعنمة مدحاً بل أوجب ضده^٤.

لكنه استنتاج غريب ناشئ عن ذهنيته الخاصة بشأن الرجل. قال المحقق التستري ردّاً عليه: إن الرواية المقيس عليها شيئا بغيره، وعلى فرض الثبوت فهو مدح لا قدح^٥. قلت: معنى «لو أدركته لثفنته»^٦: إنه لم يدركه فلم ينتفع بما كان من شأنه أن ينتفع به. وكذا معنى «إن أدركته علمته كلاماً لم تطعمه النار»^٧: إن كنت لتثنته لم تذقه النار أصلاً. فلازم

١. فقد كان حبيب الوالي على المدينة، فتغيب عند داود بن الحصين، حتى مات عنده، غير أن الإمام أبا جعفر وصحابته النوازل كانوا يعرفون موضعه، وفي ذلك أيضاً دلالة على كونه من الخاصة (المبشرات، ج ٥، ص ٣١٦، ط ليدن).

٢. المحاسن، ص ١١٢-١١٣، باب ٩، المعرفة، رقم ٦٣ (ط نجف)؛ بحار الأنوار، ج ٦٥، ص ١١٩-١٢٠، رقم ٤٨.

٣. رجال الكشي، ص ١٨٨، رقم ٩٤ (ط نجف).

٤. اختيار معرفة الرجال، ص ٣١٦، رقم ٣٨٧ (ط مشهد)؛ ج ٢، ص ٤٧٧-٤٧٨ (ط مؤسسة آل البيت).

٥. قاموس الرجال، ج ٦، ص ٣٢٧.

٦. كما في رواية الكشي: «لو أدركت عنك عن الموت لثفنته»، ص ١٨٨، رقم ٩٤ (ط نجف).

٧. كما في رواية البرقي في المحاسن، كتاب: الصفوة والنور والرحمة، باب ١٩ (المعرفة)، رقم ٦٣.

ذلك أنه بسبب عدم هذا الانتفاع يكون بمعرض لإذاعة النار - على بعض ذنوبه أحياناً - أو فوته بعض المنافع لذلك. و على جميع هذه الفروض، لا تدل الرواية على أنه كان من المخالفين أو الفاسقين، حاشاه من عبد صالح كان تربية مثل ابن عباس من خاصّة الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام)، وهذا كما يقال: لو عمل كذا النفعه أو لم يكن ليتضرر شيئاً، ولازمه أنه لم ينتفع بذلك، أو تضرر شيئاً.

و للمولى المجلسي العظيم كلام بشأن عكرمة، عند ما نقل عنه في تفسير قوله تعالى: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ»^١ إنها نزلت بشأن أبي ذرّ و صهيب، على خلاف سائر المفسرين قالوا: نزلت بشأن عليّ (عليه السلام) ليلة المبيت. قال - بصدد القبح في الرواية -: إن راويها عكرمة، وهو من الخوارج^٢.

ولعل هذا منه كان جديلاً، وإلا فالرواية في نفسها ضعيفة لضعف الراوي لا المروي عنه. فقد أخرجها الطبري عن طريق الحجاج بن محمد المصيصي عن ابن جريج عن عكرمة. والمصيصي ضعيف واه، قد خلط في كبره، ومن ثم تركه يحيى بن سعيد وأوصى ابنه بتركه^٣. وقد سمعت أبا حاتم قوله بشأن عكرمة ثقة ينجح بقوله إذا روى عنه الثقات^٤. و بعد، فلم نجد مغمراً في عكرمة مولى ابن عباس الثقة الأمين، الأمر الذي استنتجه ابن حجر في التقریب. قال: عكرمة، ثقة ثبت، عالم بالتفسير، لم يثبت تكذيبه عن ابن عمر، ولا يثبت عنه بدعة^٥.

منهجه في التفسير

كان ينتهج منهج مولاه و شيخه ومؤدبه ابن عباس، في حرّية الرأي و نبات العقيدة من غير أن يهاب أحداً، أو يُشيه عن اختياره شيء. ومن ثمّ عرض نفسه للقذف والرمي،

١. تفسير الصري: ج ٢، ص ٤٨٦ مجمع البيان: ج ٢، ص ٣٠١.

٢. تهذيب التهذيب: ج ٢، ص ٣٠٦.

٣. تهذيب التهذيب: ج ٢، ص ٣٠٦ رقم ٣٧٧.

٤. البقرة (٢): ٢٠٧.

٥. بحار الأنوار: ج ٣٦، ص ٤٥ (ط بيروت).

٥. المصدر نفسه: ج ٧، ص ٢٧٠.

وربما التحمل لما كان المناوئون يهابون موضع سيده ابن عباس، فوجدوا من تلميذه مندوحة ليقدحوا فيه و يجرحوه.

نموذج من تفسيره

كان يرى من آية الوضوء^١ نزولها بمسح الأرجل دون غسلها، ولم يزل عمله على ذلك، وإن استُدعي مخالفة عامة الفقهاء في عصره. قال يونس: حدثني من صاحب عكرمة إلى واسط، قال: فما رأيته غسل رجله، إنما كان يمسح عليهما^٢. وأخرج الطبري بإسناده إلى عبد الله العتكي عن عكرمة، قال: «ليس على الرجلين غسل، إنما نزل فيهما المسح». وهكذا أخرج بإسناده إلى عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس، قال: «الوضوء غسلتان ومسحتان». وكذا عن جمع كثير من التابعين، ولا سيما المتأثرين بمدرسة ابن عباس، أمثال قتادة والضحاك والشعبي والأعمش وغيرهم. وجماعة من الصحابة أمثال أنس بن مالك وجابر بن عبد الله وغيرهما، ذهبوا إلى أن القرآن نزل بمسح الأرجل لا غسلها^٣.

قال أمين الإسلام الطبرسي: اختلف في ذلك، فقال جمهور الفقهاء: إن فرضهما الغسل. وقالت الإمامية: فرضهما المسح لا غير، وبه قال عكرمة. وقد روي القول بالمسح عن جماعة من الصحابة والتابعين كابن عباس وأنس وأبي العالية والشعبي. وقال الحسن البصري: بالتخير بين الغسل والمسح. قال: وأما ما روي عن سادة أهل البيت^٤ في ذلك، فأكثر من أن تُحصى^٥. وللطبرسي هنا بشأن المسألة تحقيق لطيف، ينبغي لرواد الحقيقة مراجعته.

١. المائدة (٥): ٦.

٢. مجمع البيان، ج ٣، ص ١٦٥ تفسير الصبري، ج ٦، ص ٨٣.

٣. تفسير الصبري، ج ٦، ص ٨٦-٨٣ السنن الكبرى للبيهقي، ج ١، ص ٧٣ عن ابن عباس قال: ما أجد في الكتاب إلا غسطين ومسحتين. كما أخرج في ص ٤٤ عن رفاع بن رافع المسح على الرجلين.

٤. مجمع البيان، ج ٣، ص ١٦٥.

وأخرج البيهقي بإسناده عن رفاعه بن رافع: أن رسول الله ﷺ قال: «إنها لا تتم صلاة أحدكم حتى يُسبغ الوضوء كما أمره الله به: يغسل وجهه ويديه إلى المرفقين، ويمسح رأسه ورجليه إلى الكعبين»^١.

وهكذا في المسح على الخُفَّين - الذي يقول به جمهور الفقهاء - كان عكرمة يسكره أشدَّ الإنكار، ويقول: «سبق الكتاب المسح على الخُفَّين»^٢، يعني: أن القرآن نزل بالمسح على الأرجل، أمَّا المسح على الخُفَّين - على ما وردت به بعض الروايات - فأمر متأخر عن نزول الآية، ولا دليل على نسخ الآية، رواية لم تثبت^٣.

وهذا الذي ذكره عكرمة هو الذي نقلته الأئمة عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام. فقد روى أبو جعفر الطوسي بإسناده إلى أبي الورد، قال: قلت لأبي جعفر الباقر عليه السلام: إن أبا ظبيان حدثني أنه رأى علياً عليه السلام أراق الماء ثم مسح على الخُفَّين! فقال: كذب أبو ظبيان! أما بلغك قول علي عليه السلام فيكم: «سبق الكتاب الخُفَّين»؟ فقلت: فهل فيهما رخصة؟ فقال: لا، إلا من عدوّ تتقيّه، أو تلج تخاف على رجلَيْك^٤، ولا شك أن ابن عباس كان يرى رأي الإمام الذي هو شاخص أهل البيت عليه السلام فلا وقع للكذب عكرمة بأنه خالف شيخه، فقد افترى عليه كما افترى على الإمام عليه السلام.

وعقد أبو نعيم الأصبهاني فصلاً من حليته^٥، أورد فيه من تناسير مأثورة عن عكرمة، درراً وغرراً هي من جلائل الآثار وكرائم الأفكار، ويتبين منها مدى سعة علم الرجل وشموع فكره العائب، ينبغي مراجعتها فإنها محتعة جداً.

١. السنن الكبرى: ج ١، ص ٤٤؛ باب التسمية على الوضوء: ج ٢، ص ٢٤٥؛ باب من سها فترك ركناً، وهذا كدام الحديث المذكور: ج ٢، ص ٣٦٣.

٢. تهذيب التهذيب: ج ٧، ص ٢٦٨.

٣. ذكر أبو يوسف أن سنة المسح على الخُفَّين فسخت بآية المسح على الأرجل (أحكام القرآن لـجصاص: ج ٢، ص ٣٤٨).

٤. هو حصين بن جندب الكوفي، مات سنة (٩٠ هـ) وقد أنكروا إسماعه من علي عليه السلام فيما يرويه عنه (تهذيب التهذيب: ج ٢، ص ٣٨٠). ولم يذكره الشيخ في أصحاب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

٥. وسائل الشيعة: ج ١، ص ٤٥٨؛ رقم ٥. حجة الأولياء: ج ٣، ص ٣٩٧-٣٩٨.

٦. عطاء بن أبي رباح

أبو محمد عطاء بن أبي رباح أسلم - وقيل: سالم - بن صفوان، من أصل نوبي (١٧-١١٥ هـ). كان من أجلة فقهاء مكة وزهادها، ومن خواص ابن عباس والمثريين في مدرسته^١. وهو الذي حضر وصيته بالطائف في جماعة من الشيوخ، وروى عنه حديث الإمامة والولاية - على ما سبق في ترجمة ابن عباس^٢ - مما يدل على مبلغ ولائه لأهل البيت وتمسكه بأذيالهم الطاهرة، شأن سائر المثريين بتربية ابن عباس الصحابي الملهم الجليل.

وذكره أبو نعيم في التابعين ممن روى عن الإمام أبي جعفر الباقر^٣، كما ذكر ثناء الإمام عليه، فيما أخرجه بإسناده عن أسلم المنقري، قال: كنت جالساً مع أبي جعفر فمرّ عليه عطاء، فقال: ما بقي على ظهر الأرض أحد أعلم بمناسك الحج من عطاء بن أبي رباح. وعن أحمد بن محمد الشافعي، قال: كانت الحلقة في الثنبا بمكة في المسجد الحرام لابن عباس، وبعد ابن عباس لعطاء بن أبي رباح^٤. قال ابن سعد: وقد انتهت فتوى أهل مكة إليه وإلى مجاهد، في زمانهما، وأكثر ذلك إلى عطاء. قال: كان يعلم الكتاب، وكان ثقة فقيهاً كثير الحديث. وعن قتادة: كان عطاء من أعلم الناس بالمناسك^٥. قال ابن حجر: قال ابن معين: كان عطاء معلماً كتاباً^٦. وأخرج عن أبي نوف عن عطاء، قال: أدركت متين من الصحابة. وعن ابن عباس أنه كان يقول: تجتمعون إلي يا أهل مكة وعندكم عطاء!

١. صريح الكشي (ص ١٨٨، رقم ٩٢ و ٩٣) بأن عطاء بن أبي رباح قلميذ ابن عباس. وكان ولده: عبد الملك و عبد الله و عريف: نجاء من أصحاب الإمامين الباقر و الصادق عليه السلام. وقد تقدم في ترجمة طاووس.

٢. نقلاً عن كفاية الأثر للبخاري الرازي، ص ٢٩٠ بحار الأنوار، ج ٣٦، ص ٢٨٧، رقم ٨٠٩.

٣. وهم أربعة: عمرو بن دينار، و عطاء بن أبي رباح، و جابر الجعفي، و بيان بن قسيب، و من الأئمة و الأعلام: البيت و ابن جزيب و ابن أروبة في آخرين، راجع: حلية الأولياء، ج ٣، ص ١٨٨، في ترجمة الإمام، برقم ٣٣٥ و عنه كتبت الغمّة للترين، ج ٢، ص ١٣٤ و الوحيد في التعليقة على هامش الأسطرلابي، ص ٣٢١.

٤. حلية الأولياء، ج ٣، ص ٣١١، رقم ٢٤٤، العبدات، ج ٥، ص ٣٤٤.

٥. العبدات، ج ٥، ص ٣٤٤-٣٤٦، تهذيب التهذيب، ج ١٢، ص ٢٠٠ و ٢٠١.

٦. بضم الكاف، جمعه كتابات: موضع التربة و التعليم.

و عن ربيعة قال: فاق عطاء أهل مكة في الفتوى. و قال قتادة: قال لي سليمان بن هشام: هل بمكة أحد؟ قلت: نعم، أقدم رجل في جزيرة العرب علماً قال: من؟ قلت: عطاء بن أبي رباح، إلى غيرها من شهادات ضافية بشأنه. وأنه من سادات التابعين فقهاً وعلماً وورعاً وفضلاً.

و لابن خلكان بشأنه حكاية طريفة، قال: حكى عن وكيع، قال: قال لي أبو حنيفة النعمان بن ثابت: أخطأت في خمسة أبواب من المناسك بمكة، فعلمنيها حجاًم! و ذلك لي أردت أن أحلق رأسي، فقال لي: أعربي أنت؟ قلت: نعم، و كنت قد قلت له: بكم تحلق رأسي؟ فقال: لا يشارط فيه، اجلس، فجلست منحرفاً عن القبلة، فأومأ إلي باستقبال القبلة. و أردت أن أحلق رأسي من الجانب الأيسر، فقال: أدر شئت الأيمن من رأسك، فأدرته. و جعل يحلق رأسي و أنا ساكت، فقال لي: كبر، فجعلت أكبر، حتى قمت لأذهب، فقال: أين تريد؟ قلت: رحلي. فقال: صل ركعتين ثم امضي. فقلت: ما ينبغي أن يكون هذا من مثل هذا الحجام إلا و معه علم. فقلت: من أين لك ما رأيتك أمرتني به؟ فقال: رأيت عطاء ابن أبي رباح يفعل هذا. قال: و كان أسود، أعور، أفلس، أشل، أعرج، ثم عمي بعد ذلك. و كان مُتَلَفِّل الشعر. قال سليمان بن وهب: دخلت المسجد الحرام و الناس مجتمعون على رجل، فأطلعت، فإذا عطاء بن أبي رباح جالس كأنه غراب أسود.

قال محمد بن عبد الله: ما رأيت مفتياً خيراً من عطاء بن أبي رباح، إنما كان في مجلسه ذكر الله لا يفتر و هم يخوضون. فإن تكلم أو سئل عن شيء أحسن الجواب و كان يطيل الصمت، فإذا تكلم يخيل إلى الناس أنه يتأيد. و عن ابن جريج: كان عطاء إذا حدث بشيء، قلت: علم أو رأي؟ فإن كان أثراً قال: علم، وإن كان رأياً قال: رأي، و عن سلمة بن كهيل: ما رأيت أحداً يريد بهذا العلم وجه الله إلا ثلاثة: عطاء، و مجاهد، و طاووس. قال

١. تهذيب التهذيب، ج ٧، ص ٣١٩، ٣٢٠. ٢. وقفيات الأعيان، ج ٣، ص ٣٦١، رقم ٤١٩.

٣. المصدر نفسه، ص ٣٦٢. راجع: العبدات، ج ٥، ص ٣٤٦. تهذيب التهذيب، ج ١٤، ص ٢٠٠.

٤. الملقب بالديباج و أمه فاضلة بنت الحسين (ت. ١٤٥ هـ). فقه المنصور سنة (١٤٥ هـ).

الأوزاعي: مات عطاء يوم مات، وهو أرضى أهل الأرض عند الناس.^١
وقد وقع في إسناده القمّي في تفسير قوله تعالى: «فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا»^٢.

* * *

و للمولى المامقاني بشأنه تخطيط، قال: عدّه الشيخ من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام،
وقال: مختلط. ونقل المولى الوحيد عن أبي نعيم أنّه ممن روى عن الإمام الباقر عليه السلام، قال:
الظاهر أنّه اشتباه منه أو من أبي نعيم، فإن الراوي عن الباقر هو عطاء بن السائب، وهو
من رؤساء العامة. أمّا ابن أبي رباح فهو مولى عبدالله بن عباس، ولقاؤه للباقر غير معلوم.
نعم، لقاؤه لعليّ ممّا لا ريب فيه. وهو مختلط ويروي عن الشيخين كثيراً، ويروي لهما
أكثر.^٣

قلت: كانت ولادة عطاء بن أبي رباح في السنة الرابعة أو الخامسة من خلافة ابن
الخطّاب، فكيف يروي عن الشيخين؟ ثم إنّه عند وفاة أمير المؤمنين كان لم يتجاوز
الثلاثة عشر. وقد توفّي بعد وفاة الإمام الباقر (٥٧-١١٤ هـ) بسنة (١١٥ هـ) ولم يذكر
أحد أنّه مولى لابن عباس، بل مولى بني فهر، حسبما ذكرناه^٤ كما ذكروا أنّ الذي اختلط
في أخريات حياته هو ابن السائب^٥. وسنذكر أنّه أيضاً من الخواص.

قال الدكتور شواخ: وتفسير عطاء بن أبي رباح كان من التفسير التي رويت شفاهاً،
و استخدمها الطبري بالرواية التالية: «القسام بن الحسن الهمداني (ت ٢٧٢ هـ) الحسين
المصيصي (ت ٢٢٦ هـ) حجاج بن محمد المصيصي (ت ٢٠٦ هـ) ابن جرير (ت ١٥٠ هـ)
عن عطاء بن أبي رباح» واستخدمه العلبي أيضاً في كتابه الكشف والبيان^٦.

١. العبدات، ج ٥، ص ٣٤٥ تهذيب التهذيب، ج ٧، ص ٢٠١.

٢. محمد (٤٧): ١٨.

٣. تنقيح المقال، ج ٤، ص ٣٥٣-٣٥٢، رقم ٨٩١٩.

٤. راجع: قاموس الرجال، ج ٢، ص ٣٠٦.

٥. راجع: تهذيب التهذيب، ج ٧، ص ٢٠٧.

٦. معجم مصطلحات القرآن الكريم، ج ٤، ص ٦٢٣، رقم ٩٩٨.

٧. عطاء بن السائب

أبو محمد النخعي الكوفي أحد الأئمة^١، روى عن سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة وأبي عبد الرحمن السلمي وجماعة، وروى عنه الأعمش وابن جريج.

كان أبو إسحاق يقول: عطاء بن السائب من البقايا. قال أحمد بن حنبل: ثقة ثقة رجل صالح. ولكن جماعة رموه بالتخليط في أخريات حياته، ومن ثم وثقوه في حديثه القديم. قال يحيى بن سعيد: ما سمعت أحداً من الناس يقول في حديثه القديم شيئاً. أما ولماذا هذا التحول بشأنه؟ قال أبو قطن عن شعبة: ثلاثة في القلب منهم هاجس: عطاء بن السائب، ويزيد بن أبي زياد، ورجل آخر^٢. ما سبب هذا الهاجس؟

قال سيدنا الأستاذ الإمام الخوئي رحمه الله - بعد أن ذكر روايته عن علي بن الحسين عليه السلام بشأن مسألة القضاء -: هذه الرواية تدل على تشييعه، فما يذكر عنه من التوثيق في حديثه القديم ثم اختلط وتغير، فلعله كان منحرفاً في العامة ثم استبصر^٣.

قلت: بل الظاهر كونه من الشيعة من أوائل أمره؛ لأنه كوفي وتلمذ على أمثال ابن جبير ومجاهد وعكرمة والسلمي وأضرابهم. أما سبب اختلاطه في نظر القوم فلعله بدى منه شيء من الارتفاع لم يكن يتحمله القوم، وكلمة من نظير. أما الرواية المشار إليها فهي ما رواه أبو جعفر الصدوق بإسناده إلى عطاء بن السائب عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام، قال: «إذا كنتم في أئمة جور فاقضوا في أحكامهم، ولا تشهروا أنفسكم فتقتلوا. وإن تعاملتم بأحكامنا كان خيراً لكم»^٤. وقد عدّه الصدوق في المشيخة^٥.

وقد كانت وفاة الإمام السجاد عام (٩٥ هـ) سنة الفقهاء. وقد عاش ابن السائب بعد ذلك ما يقرب (٤٠) سنة؛ حيث عام وفاته (١٣٦ هـ). والرواية إن دلت على تشييعه - كما

١. خلاصة تهذيب التهذيب، ص ٢٦٦. ٢. تهذيب التهذيب، ج ١٧، ص ٢٠٤.

٣. معجم رجال الحديث، ج ١، ص ٤٥، رقم ٧٦٨٨ (ط بيروت).

٤. من لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ٣، رقم ٣؛ تهذيب الأحكام، ج ٦، ص ٢٤، رقم ٣٨٥٣٦، و ص ٢٤٥، رقم ٣٢٥٤٠.

٥. شرح مشيخة الصدوق، ص ٢٥، الملحق بالفقيه، ج ٤.

هو كذلك - فقد كان ذلك في أوليات حياته.

وله رواية أخرى عن زاذان أبي عمرة الفارسي الكوفي الضرير، مات سنة (٨٢ هـ) في قضية قضائها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أيام عمر بن الخطاب، بشأن الوديعة التي استودعها رجلان عند امرأة... رواها حرير بن عبد الله السجستاني عن عطاء بن السائب عن زاذان.

٨. أبان بن تغلب بن رباح

أبو سعيد البكري الكوفي. قال الشيخ: ثقة جليل القدر، عظيم المنزلة، لقي أبا محمد السجاد، وأبا جعفر الباقر، وأبا عبد الله الصادق عليه السلام وروى عنهم. وكانت له عندهم حظوة وقدم^٢.

وكان إذا قدم المدينة تقوضت له الحلق وأُخليت له سارية النبي صلى الله عليه وآله. وكان ذلك بأمر من الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال له: «اجلس في مسجد المدينة وأفت للناس، فأبى أصحاب أن يروى في شيعتي مثلك»^٣. وهكذا روى الكشي عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام كان يقول له: «جالس أهل المدينة، فأبى حب أن يروا في شيعتنا مثلك». وقد استجاز الإمام أن يفتيهم حسبما يرون، قال: «لئن أقعد في المسجد، فيجئني الناس فيسألوني، فإن لم أجبه لم يقبلوا مني، وأكره أن أجيبهم بقولكم وما جاء منكم. فأجازه الإمام أن يفتي للناس حسبما علم أنه من قولهم. قال: «انظر ما علمت أنه من قولهم فأخبرهم بذلك»^٤.

قال الشيخ: وكان أبان بن تغلب قارئاً فقيهاً لغوياً نبيلاً، وسمع العرب وحكى عنهم وصنف كتاب الغريب في القرآن، وذكر شواهد من الشعر. قال: فجاء فيما بعد عبد الرحمان بن محمد الأزدي الكوفي، فجمع من كتاب أبان، ومحمد بن السائب الكلبي، وأبي روق ابن عطية بن الحرث، فجعله كتاباً واحداً، فيما اختلفوا فيه وما اتفقوا عليه. فتارة يجيء كتاب أبان مفرداً، وتارة يجيء مشتركاً، على ما عمله عبد الرحمان.

١. الكافي، ج ٤، ص ٣٨، رقم ١٢؛ تهذيب الأحكام، ج ٦، ص ٢٩٠، رقم ٨١/٨٠٤.

٢. الفهرست للشيخ الطوسي، ص ٦٠-٦١. ٣. رجال النجاشي، ص ٨-٩ (ط حجب).

٤. رجال النجاشي، ص ٧. ٥. رجال الكشي، ص ٢٨٠ (ط نجف).

قال: ولأبان رضي الله عنه قراءة مفردة. ورفع إسناده إلى محمد بن موسى بن أبي مريم صاحب اللؤلؤ، قال: سمعت أبان بن تغلب، وما أحدٌ أقرأ منه، يقرأ القرآن من أوله إلى آخره، وذكر القراءة... قال: ولأبان كتاب الفضائل - تم ذكر طريقته إليه - كما أن له أصلاً. قال: ومات أبان سنة (١٤١ هـ) في حياة الإمام الصادق عليه السلام. ولما بلغه نعيه، قال: «أما والله، لقد أوجع قلبي موت أبان»^١.

وأخرج النجاشي بإسناده إلى الحسين بن سعيد بن أبي الجهم، قال: حدثني أبي عن أبان بن تغلب، في قوله تعالى: «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ»^٢. وذكر التفسير إلى آخره. قال: ولأبان قراءة مفردة مشهورة عند القراء. وعن محمد بن موسى بن أبي مريم، قال: سمعت أبان بن تغلب، وما رأيت أحدٌ أقرأ منه قط، يقول: «إنما الهمز رياضة»^٣ وذكر قراءته إلى آخرها. قال: وله كتاب الفضائل، وكتاب صفين، وكتاب تفسير غريب القرآن.

قال إبراهيم النخعي: كان أبان رضي الله عنه مشتهراً في كل فن من العلم، في القرآن، والفقه، الحديث، والأدب، واللغة، والنحو.
وعن أبان بن محمد بن أبان بن تغلب، قال: سمعت أبي يقول: دخلت مع أبي إلى أبي عبد الله عليه السلام فلما بعُسر به أمر بوسادة فأمسكها، ووضأ فحده واعتنقه وسأله ورخص به. قال: وكان أبان إذا قدم المدينة تقوَّضت إليه الحلق وأُخليت له سارية النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وعن عبد الرحمان بن الحجاج، قال: كنا في مجلس أبان بن تغلب، فجاءه شاب فقال: يا أبا سعيد، أخبرني كم شهد مع علي بن أبي طالب عليه السلام من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟ فقال له أبان: كأنت تريد أن تعرف فضل علي بن أبي طالب من أصحاب رسول الله؟ فقال الرجل: هو ذاك. فقال: والله ما عرفنا فضلهم إلا بالتابعين إياه.

١. الفهرست للشيخ الطوسي، ص ٨٦.

٢. النافذة (١): ٤.

٣. أي في إظهار الهمز مشقة وصعوبة وتكلف بلا نمر، فلا بد من ترك الإظهار، الذي هو لغة قريش، كانوا لا يبرزون بالهمز، وقد نهى النبي صلى الله عليه وآله وسلم عنه أيضاً.

٤. أي كانت الجلس والمناسبات المترتبة من الناس تقوَّض وتوزق لتجتمع إلى حصة أبان، والدارية هو الأسطوانة التي كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يجلس عليها.

و قال أبان لأبي البلاد: تدري من الشيعة؟ الشيعة الذين إذا اختلف الناس عن رسول الله، أخذوا بقول عليّ، وإذا اختلف الناس عن عليّ، أخذوا بقول جعفر بن محمد.

قال النجاشي: و جمع محمد بن عبد الرحمان بين كتاب التفسير لأبان وبين كتاب أبي روق عطية بن الحرث و محمد بن السائب، وجعلها كتاباً واحداً.

و عن عبد الله بن خفصة، قال: قال لي أبان بن تغلب: مررت بقوم يعيرون عليّ روايتي عن جعفر! فقلت: كيف تلوّموني في روايتي عن رجل ما سأله عن شيء إلا قال: قال رسول الله!

و عن سليم بن أبي حيّة، قال: كنت عند أبي عبد الله، فلما أردت أن أفارقه ودّعته، و قلت: أحب أن تُروّديني. فقال: انت أبان بن تغلب، فإنه قد سمع مني حديثاً كثيراً، فما روى لك فاروه عني^١.



و قال ابن حجر: قال أحمد، ويحيى، وأبو حاتم، والنسائي: ثقة. و قال ابن عدي: له نسخ عاينتها مستقيمة، إذا روي عنه ثقة، وهو من أهل الصدق في الروايات. وإن كان مذهبه مذهب الشيعة، وهو في الرواية صالح لا بأس به. قال ابن حجر: هذا قول منصف، و قد تقدّم ذكره.

و قال ابن عجلان: حدثنا أبان بن تغلب، رجل من أهل العراق، من النسائك، ثقة، و مدحه ابن عيينة بالفصاحة و البيان. قال أبو نعيم: وكان غاية من الغايات. و قال العقيلي: سمعت أبا عبد الله يذكر عنه عقلاً و أدباً و صحّة حديث. و قال ابن سعد: كان ثقة. و ذكره ابن حبان في الثقات^٢.

و قال الحافظ شمس الدين الداودي: صنّف كتاب معاني القرآن، لطيف، و القراءات.

١. و لحلّ عيبتهم كان لأجل كبر سنه بالنسبة إلى الإمام، و تقدّمه بحسب الزمان.

٢. رجال النجاشي: ص ٨٧.

٣. تهذيب التهذيب: ج ٨، ص ٩٣-٩٤؛ ميزان الاعتدال: ج ٨، ص ٥.

روى له مسلم والأربعة^١.

٩. الحسن البصري

أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري. كان أبوه مولى لزيد بن ثابت الأنصاري، من سبي ميسان (بليدة بأسفل البصرة)، وأُمّه خيرة مولاة أم سلمة زوج النبي ﷺ و تربى في بيتها. ويقال: ربّما كانت تُغذّيه بلبنها - بإذن الله - عند ما تغيب أمّه. ويقال: إنّه ولد على الرق، ولد بالمدينة سنة (٢٢ هـ) لستين بقية من خلافة عمر، ونشأ بوادي القرى (واد من أعمال المدينة على طريق الشام، واقع بين تيماء وخيبر)، توفّي بالبصرة مستهلّ رجب سنة (١١٠ هـ)^٢.

كان الحسن جسيماً وسيماً^٣ نابهاً فصيحاً، وكان يشبهه في الفصاحة والبيان برؤبة بن العجاج^٤. وكان عالماً جامعاً، وفقهاً مأموناً^٥ وعابداً ناسكاً، حسب تعبير ابن سعد وغيره^٦.

كان أكثر ما يقوله عن عليّ (عليه السلام) من غير أن يصرّح باسمه الشريف تقيّةً، أو يُكنّي عنه بأبي زينب^٧. وقد اعتمد الأئمة من بعدهم^٨ لأنّه لا يرسل إلّا عن ثقة. قال عليّ بن المديني:

١. حذفت المفسرين لداودني: ج ١، ص ١.

٢. قصّة المصطفى لفتحي: ص ٨٧ العبدات: ج ١، ص ١١٤، ق ١ (ط لندن): تهذيب التهذيب: ج ٣، ص ٢٦٣ و ٢٦٤.

٣. عن عاصم الأحول: قلت للشعبي: لك حاجة؟ قال: نعم، إذا أتيت البصرة فاقرأ الحسن بنّي السلام. قلت: ما أعرفه؟ قال: إذا دخلت البصرة فانظر إلى أجمل رجل تراه في عينك، وأهيبه في صدرك فأتوا بني السلام! (تهذيب التهذيب: ج ٤، ص ٢٦٥).
٤. العبدات: ج ١، ص ٢١، ق ١.

٥. قال قتادة: ما جالست فيها قط إلّا رأيت فضل الحسن عليه. وقال أبو زيد: ما رأيت عبداً رجلاً قط كان أفقه من الحسن! وقال الأعمش: ما زال الحسن يعي الحكمة حتى نفق بها. وكان إذا ذكر عند أبي جعفر الباقر (عليه السلام) ذلك الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء، (تهذيب التهذيب: ج ٣، ص ٢٦٤ و ٢٦٥).

٦. قال بلال بن أبي بردة: ما رأيت رجلاً قط لم يصحب النبي ﷺ أشبه بأصحاب رسول الله ﷺ من هذا الشيخ يحيى الحسن! وقال الشعبي: أدركت سبعين من أصحاب النبي ﷺ فلم أر أحداً قط أشبه بهم منها (العبدات: ج ١، ص ١١٨، ق ١).

٧. قال مصر الجوزاني: كان جابر بن زيد (توفي سنة ١٠٣ هـ) رجلاً من البصرة، فمّا ظهر الحسن، جاء رجل كأنما كان في الآخرة، فهو بطير عماراً رأى و عابراً (تهذيب التهذيب: ج ٤، ص ٢٦٤).

٨. أمالي المرقضى: ج ١، ص ١٦٣.

مرسلات الحسن إذا روى عنه الثقات، صحاح. وقال أبو زرعة: كل شيء يقول الحسن: قال رسول الله ﷺ، وجدت له أصلاً ثابتاً.

قال يونس بن عبيد: سألت الحسن، قلت: يا أبا سعيد، إنك تقول: قال رسول الله ﷺ وإنك لم تدركه؟! قال: يا ابن أخي، لقد سألتني عن شيء ما سألتني عنه أحد قبلك، ولولا منزلتك مني ما أخبرتك. إني في زمان كما ترى! - وكان في عمل الحجاج - كل شيء سمعتني أقول: قال رسول الله ﷺ فهو عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في زمان لا أستطيع أن أذكر علياً رضي الله عنه.

قال الشريف المرتضى: «وكان الحسن بارع الفصاحة، بليغ المواعظ، كثير العلم، وجميع كلامه في المواعظ ودم الدنيا، أو جلّه مأخوذ - لنظاً ومعنى، أو معنى دون لنظ - من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فهو القدوة والغاية». فنقل عنه حكماً ومواعظ جليلة.

ثم قال: وكان الحسن إذا أراد أن يحدث في زمن بني أمية عن أمير المؤمنين، قال: قال أبو زبيب.

وقال الشيخ فريد الدين العطار النيسابوري: «كان الحسن إنما يوالي علياً أمير المؤمنين، ومنه أخذ العلم، وكان مرجعه في طريقة العرفان».

ولأبان بن أبي عيَّاش كلام بشأن الحسن، يدل على مغالاته في ولاءه للإمام أمير المؤمنين رضي الله عنه. قال - لما أودعه سليم بن قيس الهلالي كتابه وأوصاه أن لا يريه غير الخواص من الشيعة - فكان أول من لقيت بعد قدومي البصرة الحسن بن أبي الحسن البصري، وهو يومئذ متوارٍ من الحجاج. والحسن يومئذ من شيعة علي بن أبي طالب

١. كان ذلك أيام ولاية الحجاج على البصرة. ٢. تهذيب التهذيب، ج ٢، ص ٣٦٦ بالمعنى واليهامس. ٣. قال ابن عيون: كان الحسن يحدث بالحديث والمعاني. وقال جرير بن حازم: كان الحسن يحدثنا بالحديث يختلف فبزيد في الحديث وينقص منه، ولكن المعنى واحد (الطبقات، ج ٤، ص ١١٥، ق ١، ط ليدن). ٤. أمالي المرتضى، ج ١، ص ١٥٣ و ١٦٢. وله كلام يأتي فيه وصف علي رضي الله عنه المرتضى. ٥. فذكره الأولياء، ص ٣٤.

ـ صلوات الله عليه ـ ومن مفرطهم، نادى متلهف على ما فاتته من نصرة عليّ والقتال معه. فخلوت به في شرقي دار أبي خليفة الحجاج بن أبي عتاب الديلمي، فعرضته عليه، فبكى ثم قال: ما في حديثه شيء إلا حق، قد سمعته من الثقات من شيعة عليّ ـ صلوات الله عليه ـ وغيرهم.

قلت: كان أخذه عن عليّ رضي الله عنه بواسطة الثقات من أصحابه، وليس مباشرة وبغير واسطة؛ لأنه لم يدرن علياً في المدينة بما يمكنه الأخذ عنه؛ لحداثة سنه حينذاك، ولم يلق علياً بعد أن خرج الإمام إلى العراق، كما سنوضح.

* * *

و الذي انتقصوا به الحسن أمران: أنه كان يدلس، وكان منحرفاً عن عليّ رضي الله عنه في بدء أمره وإن كان قد تنذّم بعد ذلك. وشيء ثالث: أنه كان قدرياً، ويقول: «من كذب بالقدر فقد كفر». ولننظر في كل هذه التهم ومبلغ انتشار كل واحدة منها: أمّا التدليس، فقال ابن حجر: وكان يرسل كثيراً ويدلس. قال البزار: كان يروي عن جماعة لم يسمع منهم، فيتجوّز ويقول: حدثنا وخطبنا، يعني قومه الذين حدثوا وخطبوا بالبصرة.

و سأل أبو زرعة: هل سمع الحسن أحداً من البصريين؟ قال: رأيهم رؤية، رأي عثمان وعليّ. قيل: هل سمع منهما حديثاً؟ قال: لا، رأي عليّ بالمدينة، وخرج عليّ إلى الكوفة والبصرة، ولم يلقه الحسن بعد ذلك. وقال عليّ بن المديني: لم ير عليّاً إلا أن كان بالمدينة وهو غلام، ولم يسمع من جابر بن عبد الله، ولا من أبي سعيد الخدري، ولم يسمع من ابن عباس، وما رآه قط، كان الحسن بالمدينة أيام كان ابن عباس بالبصرة. وأمّا قوله: «خطبنا ابن عباس بالبصرة»، فإنما أراد: خطب أهل البصرة. كقول ثابت: «قدم علينا فلان» أي قدم بلدنا وأهلنا. وقال ابن المديني: ولم يسمع من أبي موسى، وقال أبو حاتم وأبو زرعة: لم يره. قال ابن المديني: روي عن الحسن أن سراقته حدثهم! قال: وهذا إسناد ينبو عنه

القلب أن يكون الحسن سمع من سراقته، إلا أن يكون معنى حديثهم: حدث الناس، قال: فهذا أشبه. وهكذا قال الترمذي: لم يثبت له سماع من عليّ عليه السلام.

وقد تقدّم الجواب عن ذلك، وأنه كان لا يرسل إلا عن ثقة، ولذلك قال ابن المديني وأبو زرعة وغيرهما: مراسلات الحسن صحاح، وأن لها أصلاً ثابتاً وجذعاً الأعلام.^١ وكان الرجل في محذور عن تسمية الرجال، ولا سيما إذا كان عن الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام أو أحد أصحابه المعروفين.

قال الطبري: كان الحسن فقيهاً فاضلاً، لا يُشكّ في حديثه فيما روى، وكان كثير المراسيل وكثير الرواية عن قوم مجاهيل، وعن صحف قد وقعت إليه تقوم أخذها منهم. وروي عن مساور، قال: قلت للحسن: عمن تُحدث هذه الأحاديث؟ قال: عن كتاب عندنا سمعته من رجل.

قال المحقق التستري - تعليماً على هذا الكلام -: ولعله إشارة إلى كتاب سليم بن قيس الهلالي الذي وقع بيده وسمعه من أبي عبيد الله، على ما أسلفنا. وقال - أخيراً -: والرجل - كما رأيت - مختلف فيه، إلا أن الأحسن حسنه وتقواه و ثقته.^٢

* * *

و أمّا تهمة الانحراف فمستندها حكايات هي أشبه بالأوهام: من ذلك ما أرسله صاحب كتاب الاحتجاج: أن علياً عليه السلام مرّ - بعد واقعة الجمل - بالحسن البصريّ وهو يتوضأ فقال: يا حسن أسبغ الوضوء، فقال: يا أمير المؤمنين، لقد قتلت بالأمس ناساً يشهدون الشهادتين ويصلّون الخمس ويُسبغون الوضوء! فقال له أمير المؤمنين: فما منعك أن تُعين علينا عدونا؟ فقال: لقد خرجت، وأنا لا أشكّ أن التخلّف عن أم المؤمنين عائشة هو الكفر، فلما انتهيت إلى موضع من الخريبة (موضع وقع قتال

١. تهذيب التهذيب: ج ٤، ص ٢٦٨-٢٦٦. ٢. المصدر نفسه: ص ٢٦٦.

٣. قاموس الرجال: ج ٣، ص ١٣٦-١٣٧. منتخب ذيل المذيق: (ج ٨ تاريخ الطبري)، ص ٢٥.

الجميل فيه) ناداني مناد: ارجع يا حسن، فإن القتلى والمقتول في النار. فقال علي: صدقت، ذاك أخوك إبليس، إن القتلى والمقتول منهم في النار.

وهكذا أرسل النطب الراوندي: أن علياً عليه السلام قال له: أسبح طهورك يا فتني، فقال: لقد قتلت بالأمس رجالاً كانوا يسبحون الوضوء! قال علي: وإني لحزين عليهم؟ قال: نعم. فقال: فأطال الله حرّك. قالوا: فما رأينا الحسن قط إلا حزيناً، كأنه يرجع عن دفن حميم، أو حربندج ضلّ حماره. فتيل له في ذلك، فقال: عمل في دعوة الرجل الصالح!.

وذكر ابن أبي الحديد فيمن كان يبغض علياً عليه السلام الحسن البصري، قال: روى عنه حماد أنه قال: لو كان علي ياكل الحشف بالمدينة لكان خيراً له ممّا دخل فيه. ورووا عنه أنه كان من المخدّلين عن نصرته. وروى عنه أن علياً عليه السلام رآه وهو يتوضأ - وكان ذا وسوسة - فصبّ على أعضائه ماءً كثيراً، فقال له: أرقت ماءً كثيراً يا حسن، فقال: ما أراق أمير المؤمنين من دماء المسلمين أكثر! قال: أو ساء لك ذلك؟ قال: نعم. قال: فلا زلت مسوءلاً. قالوا: فما زال الحسن عابساً قاطباً مهموماً إلى أن مات.

هذا كل ما قيل بشأنه دليلاً على انحرافه عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، لكنها روايات لا أسناد لها، فضلاً عما بينها من تهافت وتضارب، وقد أكرها ابن أبي الحديد بشدة على ما سنذكر.

قلت: ولحسن الحظ أن واضح هذه الروايات قد ذهب عنه أن الحسن - وهو غلام يافع - لم يكن له شأن ذلك اليوم، ولم يكن حاضر البصرة يوم الجميل، ولم يخرج إلى العراق بعد، إلا في أيام طعن في السن وكبر، أيام عبد الملك بن مروان وما بعده. كما يظهر من رواية الوراق: كان جابر بن زيد رجل أهل البصرة، فلما ظهر الحسن جاء رجل كأنما

١. كتاب الاحتجاج المنسوب إلى الصيرفي (٤)، ج ١، ص ٢٥٠ (ط نجف).

٢. عن وزان «قبض» في: معناه الشيطان بالنبوة.

٣. الخرائج والجرائع للراوندي، ج ٢، ص ٥٤٦، رقم ١٠٠، بحار الأنوار، ج ١، ص ٣٠٢، رقم ٣٣٣، ج ٢، ص ٤٤٣، رقم ٥.

٤. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٤، ص ٩٦، ٩٥.

كان في الآخرة^١. وجابر بن زيد توفي سنة (٩٣ أو ١٠٣ هـ).

كان الحسن عند مقتل عثمان لم يبلغ الحلم. قال ابن سعد: كان للحسن يومذاك أربع عشرة سنة. قال أبو رجاء: قلت للحسن: متى عهدك بالمدينة؟ قال: ليالي صفيين. قلت: متى احتلمت؟ قال: بعد صفيين عاماً^٢. وقال ابن حبان: احتلم سنة (٣٧ هـ)، و أدرك بعد صفيين^٣.

و عليه فكان يوم الجمل غلاماً حوالي البلوغ ما بين (١٤-١٥) سنة، فضلاً عن كونه بالمدينة حينذاك ولم يخرج إلى العراق^٤ وقد عرفت تصريح العلماء بذلك. و إليك من كلام ابن أبي الحديد في ذلك:

قال: فأما أصحابنا فإنهم يدفعون ذلك عنه و ينكرونه، ويقولون: إنه كان من محبي علي ابن أبي طالب عليه السلام والمعظمين له. و روى أبو عمرو ابن عبد البر في كتابه الاستيعاب أن إنساناً سأل الحسن عن علي عليه السلام، فقال: كان والله سهماً ضائباً من مرامي الله على عدوه، و رباني هذه الأمة و ذا فضلها، و ذا سابقتها، و ذا قرابتها من رسول الله ﷺ لم يكن بالئومة عن أمر الله، و لا بالملومة في دين الله، و لا بالسروقة لحال الله. أعطى القرآن عزائمه ففاز منه برياض موقنة، ذلك علي بن أبي طالب، يا كعب^٥.

و روى الواقدي، قال: سئل الحسن عن علي عليه السلام، و كان يُظن به الانحراف عنه، و لم يكن كما يُظن، فقال: ما أقول فيمن جمع الخصال الأربع: ائتمانه على براءة، و ما قال له الرسول في غزاة تبوك: فلو كان غير النبوة شيء يفوته لاستنائه، و قول النبي ﷺ: «التقلا ن كتاب الله و عترتي»، و أنه لم يؤمر عليه أمير قط، و قد أمرت الأمراء على غيره. و روى أبان بن أبي عيَّاش، قال: سألت الحسن البصري عن علي عليه السلام، فقال: ما أقول فيه! كانت له السابقة، و الفضل، و العلم، و الحكمة، و الفقه، و الرأي، و الصحية، و النجدة،

١. تهذيب التهذيب: ج ٢، ص ٢٦٤.

٢. العبدات: ج ٧، ص ١٤٤، ق ١.

٣. تهذيب التهذيب: ج ٢، ص ٢٧٠.

٤. المصدر نفسه: ص ٢٦٦، ٢٧٠.

٥. الكعب: الأحقق و النعم.

والبلاء، والزهد، والقضاء، والقراءة. إن علياً كان في أمره علياً. رحم الله علياً، وصلى عليه. فقلت: يا أبا سعيد، أتقول: «صلى عليه» لغير النبي؟ فقال: ترحم على المسلمين إذا ذكروا، وصلى على النبي وآله، وعلي خير آله. فقلت: أهو خير من حمزة وجعفر؟ قال: نعم. قلت: وخير من فاطمة وابيها؟ قال: نعم. والله إنه خير آل محمد كلهم. ومن يشك أنه خير منهم، وقد قال رسول الله ﷺ: «وأيهما خير منهما»! ولم يجر عليه اسم شرك، ولا شرب خمر. وقد قال رسول الله ﷺ لفاطمة رضي الله عنها: «زوجتك خير أمتي»! فلو كان في أمته خير منه لاستشاه. ولقد آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه، فأخى بين علي ونفسه. فرسول الله ﷺ خير الناس نفساً، وخيرهم أخاً. فقلت: يا أبا سعيد، فما هذا الذي يقال عنك، أنك قلت في علي؟ فقال: يا ابن أخي، أحقن دمي من هؤلاء الجبابرة، ولولا ذلك لسالت بي الخشب.



وذكر أبو الفتح محمد بن علي الكراچكي (ت ٤٤٩ هـ) أن الحاج بن يوسف كتب إلى الحسن البصري وإلى واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وعامر الشعبي، أن يخبروه بقولهم في القضاء والقدر.

فكتب إليه الحسن: «ما أعرف فيه إلا ما قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: يا ابن آدم أرعمت أن الذي نهاك دهائك، وإنما دهائك أسفلك وأعلاك. وربك بريء من ذلك». وكتب إليه واصل: «ما أعرف فيه إلا ما قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: ما تحمد الله عليه فهو منه. وما تستغفر الله عنه فهو منك».

وكتب إليه عمرو: «ما أعرف فيه إلا ما قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: إن كان الوزر في الأصل محتوماً، لكان الموزور في القصاص مظلوماً».

وكتب إليه الشعبي: «ما أعرف فيه إلا ما قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: من وسع عليك

الطريق، لم يأخذ عليك المضيق».

فلما قرأ الحجاج أجوبتهم، قال: قاتلهم الله، لقد أخذوها من عين صافية^١.

* * *

و قال الشريف المرتضى: وأحد من تظاهر من المتقدمين بالقول بالعدل، الحسن بن أبي الحسن البصري، كان يقول: من زعم أن المعاصي من الله - عز وجل - جاء يوم القيامة مسوداً وجهه، ثم قرأ: «وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ»^٢ - وذكر عنه كثيراً من أقواله في ذلك - ثم قال: وروى أبو بكر الهذلي^٣ أن رجلاً قال للحسن: إن الشيعة تزعم أنك تبغض علياً^٤ فأكتب بيكي طويلاً، ثم رفع رأسه فقال: لقد فارقكم بالأمس رجل كان سهماً من مرامي ربنا - عز وجل - على عدوه، رباني هذه الأمة، ذو شرفها وفضلها، وذو قرابة من النبي ﷺ قريبة، لم يكن بالثؤمة عن أمر الله، ولا بالغافل عن حق الله، ولا بالسروقة من مال الله، أعطى القرآن عزائمه فيما له وعليه، فأشرف منها على رياض موقنة، وأعلام بيّنة. ذلك ابن أبي طالب، يا لكح!

قال: وأتى علي بن الحسين^٥ يوماً الحسن البصري، وهو يقصّ عند الحجر، فقال: أترضي يا حسن نفسك للموت؟ قال: لا، قال: فعملك للحساب؟ قال: لا، قال: فتم دار للمعمل غير هذه الدار؟ قال: لا، قال: فله في أرضه معاذ غير هذا البيت؟ قال: لا، قال: فلم تشغل الناس عن التطواف؟^٦

و رواه ابن خلكان بتبديل لنظ «يا حسن» بـ «يا شيخ»، و عقبه: فما قصّ الحسن بعدها^٧.

١. كنز الخرائد لكراجكي: ص ١٧٠ (ط حجريّة) نقه الجزائري في زهر الربيع: ج ٤: ص ٩٦-٩٧: باختلاف في الترتيب مع نقص.

٢. الزمر (٣٩): ٦٠.

٣. اسمه شمس، وقيل: روح، ابن عبد الله بن سلمي البصري. قال ابن حجر: هو ابن بنت حميد بن عبد الرحمن الحميري. مات سنة (١٦٨ هـ). كان من علماء الناس بآبائهم. روى عن الحسن وابن سيرين والشمس وعكرمة وقادة. و روى عنه ابن حجر و ذكيع وابن عبيدة والخرون (تهذيب التهذيب: ج ١٢: ص ٤٥).

٤. أمالي المرقض: ج ١: ص ١٥٣ و ١٦٣. ٥. وفيات الأعيان: ج ٤: ص ٧٠.

* * *

و ذكر أبو محمد الحسن بن علي بن شعبة الحراني (من أعلام القرن الرابع) كتاباً للحسن البصري، بحث به إلى الإمام السبط الأكبر الحسن بن علي عليه السلام يسأله عن رأيه في القدر والاستطاعة، وفي منتح الكتاب ما يُنبئ عن ولاء صميم وعقيدة ثابتة كان يحملها لآل بيت الرسول ﷺ جاء فيه:

«أما بعد فاتكم - معشر بني هاشم - الملك الجارية في اللُجج الغامرة، والأعلام النيرة الشاهرة، أو كسفينة نوح التي نزلها المؤمنون ونجا فيها المسلمون. كتبت إليك يا ابن رسول الله عند اختلافنا في القدر، وحيرتنا في الاستطاعة. فأخبرنا بالذي عليه رأيك ورأي آبائك عليهم السلام فإن من علم الله علمكم، وأنتم شهداء على الناس، والله الشاهد عليكم، ذرية بعضها من بعض، والله سميع عليم»^١.

* * *

و روى الصدوق بإسناده في أماليه عن أبي مسلم، قال: خرجت مع الحسن البصري وأنس بن مالك حتى أتينا باب أم سلمة. ففتح أنس على الباب ودخلت مع الحسن، فسمعت الحسن وهو يقول:

السلام عليك يا أمّاه ورحمة الله وبركاته!

فقلت: وعليك السلام، من أنت يا بني؟

فقال الحسن: أنا الحسن البصري.

فقلت: فيما جئت يا حسن!

فقال لها: جئت لتحدثيني بحديث سمعته من رسول الله ﷺ في علي بن أبي طالب عليه السلام.

فقلت أم سلمة: والله لأحدثك بحديث سمعته أُنْذاني من رسول الله ﷺ وإلا فصمتا،

١. تحف العقول: ص ٢٣١ (تصحیح غفاري): كذا الفوائد: ص ١٧٠ مع اختلاف يسير.

ورأته عيناى وإلا فعُميتا، ووعاه قلبي وإلا فطبع الله عليه، وأخرس لساني إن لم يكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلي بن أبي طالب (عليه السلام):
 «يا علي، ما من عبد لقي الله يوم يلقاه جاحداً أو لايتك إلا لقي الله بعبادة حسنة أو وتن».

قال أبو مسلم: فسمعت الحسن البصري وهو يقول: الله أكبر، أشهد أن علياً مولاي ومولى المؤمنين.

فلما خرج قال له أنس بن مالك: مالي أراك تكبر؟ قال: سألت أمنا أم سلمة أن تحدثني بحديث سمعته من رسول الله ﷺ في علي، فقالت لي: كذا وكذا... فقلت: الله أكبر أشهد أن علياً مولاي ومولى كل مؤمن.

قال أبو مسلم: فسمعت عند ذاك أنس بن مالك وهو يقول: أشهد على رسول الله ﷺ أنه قال هذه المقالة ثلاث مرّات أو أربع مرّات.



و أمّا القول بالقدر، - حسبما يفسره أهل العدل - فقد عرفت من السيّد نسبه إليه، قال: «و أحد من تظاهر من المتقدمين بالقول بالعدل الحسن البصري؛ قال: كل شيء بقضاء الله وقدره إلا المعاصي»^٢.

١. بحار الأنوار، ج ٣، ص ٤٣-٤٤، رقم ٤ (عن أمالي الصدوق، مجلس ٥، الحديث الأخير، ص ٢٨٩-٢٨٨).
 ٢. وهم المعتزلة والإمامية من الشيعة، قالوا: كل شيء بقضاء الله وقدره، وحتى أفعال العباد الاختيارية، إنما تقع بإقداره تعالى؛ وإن كانت المعاصي إنما تقع منهياً عنها غير مرغية لديه تعالى؛ وإن الممكنين إنما يرتكبونها عن اختيارهم وعن إقداره تعالى؛ اختاراً لهم وتصحيحاً للتكليف. وهذا معنى قول الحسن: «كل شيء بقضاء الله وقدره إلا المعاصي»؛ لأن الله لا يرغى لعباده الكفر؛ فكيف يجبرهم عليه؟! (وقد عرفت فيما تقدم عن الكراچكي في كتابه إلى الاحتجاج).
 فالمعصية إنما تقع لا عن رضى الله وكانت منهياً عنها البتة، غير أن الله تعالى أقدر العباد على فعلها اختاراً؛ ولولا لم يصح التكليف ولا الذم والعقاب.
 أمّا الأشاعرة فرائهم القول بأنّ الخير والشر، كليهما من الله، بقوان وفق إرادته تعالى، المابقة على إرادة الجاد؛ وأنّ كل ذلك من فعل الله وليس من فعل العبد في شيء! (المجلد والنحل، ج ١، ص ٩٦ - الأشعرية).
 ٣. أمالي المرقضى، ج ١، ص ١٥٣.

و لكن الأشاعرة - وهم جمهور أهل السنة - لم يرقّهم ذلك بشأن مثل الحسن البصري الإمام المعترف به لدى الجميع، فجعلوا يتأولون كلامه في ذلك أو يحملونه على رأيه التذميم، وقد تاب منه ورجع إلى رأي الجماعة، كما زعموا.
قال أبو عبد الله الذهبي: وأما مسألة «القدر» فصَحَّ عنه الرجوع عنها، وإنَّها كانت زُلَّةً لساناً.

و روى ابن سعد عن حماد بن زيد عن أيوب، قال: نازلت الحسن في القدر غير مرّة، حتّى خوّفته السلطان، فقال: لا أعود فيه بعد اليوم. وعن أبي هلال، قال: سمعت حميداً و أيوب يتكلمان، فسمعت حميداً يقول لأيوب: لوددتُ أنّه قُسم علينا غُرم، وأنَّ الحسن لم يتكلّم بالذي تكلم به، قال أيوب: يعني في القدر؟^١

قال عبد الكريم الشهرستاني: ورأيت رسالة نُسبت إلى الحسن البصري كتبها إلى عبد الملك بن مروان^٢ وقد سأله عن القول بالقدر والجبر، فأجابته فيها بما يوافق مذهب القدرية. واستدل فيها بآيات من الكتاب ودلائل من العقل. قال: ولعلها مواصل بن عطاء، فما كان الحسن ممّن يخالف السلف في أنّ القدر خير وشرّ من الله تعالى، فإنَّ هذه الكلمات كالمجمع عليها عندهم. قال: والعجب أنّه حمل هذا اللفظ (الخير والشرّ كلّ من الله) الوارد في الخبر، على البلاء والعافية، والشدة والرخاء، والمرض والشفاء، والموت والحياة، إلى غير ذلك من أفعال الله تعالى، دون الخير والشرّ، والحسن والتبجح، الفاسدين من اكتساب العباد، وكذلك أورده جماعة من المعتزلة في المقالات عن أصحابهم^٣.

١. ميزان الاعتدال، ج ١، ص ٨٣؛ عند ترجمة سمعته الحسن بن الحسن البغدادي برقم ٨٨٦٨.

٢. العبدات، ج ٤، ص ١٦٢، ق ٨.

٣. ينسب له القاضي عبد الجبار رسالة في العدل والتوحيد، أرسلها إلى عبد الملك بن مروان (هامش شرح الأصول الخمسة لعبد الجبار، ص ١٣٧). قال المحقق التستري: والرسالة رأيتها في مكتبة الصيراني بـ «بلا» وهي كما قال الشهرستاني رسالة حسنة مدوّنة على أدلة معتزلة (قاموس الرجال، ج ٣، ص ١٣٧).

٤. الملل والنحل، ج ١، ص ٤٧.

* * *

و للحسن البصري آراء معروفة في التفسير، وكانت روايته المشهورة عن طريق عمرو ابن عبيد المعتزلي (توفي سنة ١٤٤ هـ)، واستخدمه التعلي في كتابه الكشف والبيان. و توجد منه بقايا في تاريخ الطبري بهذه الرواية: «حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق عن عمرو بن عبيد عن الحسن...». قال شواخ: ويبدو أن الطبري كان يستخدم نقول ابن إسحاق، كما قال فؤاد سزكين. و توجد بقايا كثيرة من هذا الكتاب في كتب التفسير^١.

وله أيضاً نزول القرآن وكتاب العدد في القرآن، على ما ذكره الأستاذ عادل نويهض^٢.

١٠. علقمة بن قيس

أبو شبل أو أبو شبل النخعي الكوفي، كناه بذلك عبد الله بن مسعود؛ إذ كان علقمة عقيماً لا يولد له. ولد في حياة النبي ﷺ، روى عن علي بن أبي طالب وابن مسعود - وكان خصيصاً به - وحذيفة و أبي الدرداء وسلمان (رضي الله عنهم). و روى عنه ابن أخيه الأسود بن يزيد بن قيس، وابن إبراهيم بن يزيد النخعي، وإبراهيم بن سويد النخعي، و عامر الشعبي، وأبو وائل شقيق بن سلمة.

و شهد صفين مع علي بن أبي طالب، وقاتل حتى خضب سيفه دماً، و عرجت رجله، وأصيب أخوه أبي بن قيس. وكان يقال له: أبي الصلاة، قيل له ذلك لكثرته صلاته.

قال نصر بن مزاحم: وقطعت رجل علقمة بن قيس النقي، فكان يقول: ما أحب أن رجلي أصح ما كانت، لما أرجو بها من حسن الثواب من ربي. ولقد كنت أحب أن أبصر في نومي أخي وبعض إخواني، فرأيت أخي في النوم، فقلت له: يا أخي، ماذا قدمت عليكم؟ فقال: الثقلين نحن والقوم فاحتججنا عند الله عز وجل فحججناهم. فما سررت بشيء مذ

١. معجم مصنفات القرآن الكريم: ج ٥، ص ١٦١، رقم ٩٩٦.

٢. معجم المفسرين النويهي: ج ١، ص ١٤٨.

عَنْهُ، كَسْرُ وري بتلك الرؤيا^١.

قال الخطيب: وكان علقمة مقدماً في الثقة والحديث، وورد المدائن في صحبة عليّ عليه السلام، وشهد معه حرب الخوارج بالتهروان. وعن الأعمش عن مسلم البطين، قال: روي علقمة خاضباً سيفه يوم التهروان مع عليّ عليه السلام، كما شهد صفين أيضاً مع عليّ عليه السلام. وغزا خراسان وأقام بخوارزم سنتين، ودخل مرو فأقام بها مدة. قال ابن سعد: كانت سنتين أيضاً.

* * *

كان علقمة أعلم الناس بعبد الله بن مسعود، وكان أحد الستّة من أصحاب عبد الله الذين يقرءون الناس ويعلمونهم السنّة، ويصدر الناس عن رأيهم^٢. وكان أشبه الناس بابن مسعود، هدياً وسمتاً ودكلاً. قال أبو المنّى رباح: إذا رأيت علقمة فلا يضرك أن لا ترى عبد الله، أشبه الناس به سمياً وهدياً. وإذا رأيت إبراهيم فلا يضرك أن لا ترى علقمة. وكان من الربّانيّين، على حدّ تعبيرهم.

وكان ابن مسعود تعجبه قراءة علقمة، كان حسن الصوت، فكان يقول له: زدنا فداك أبي وأُمّي، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: حسن الصوت زينة للقرآن، وكان يقول: رتل فداك أبي وأُمّي! وكان عبد الله يقول: ما أقرأ شيئاً ولا أعلمه إلا علقمة يقرؤه ويعلمه. قال الشعبي: إن كان أهل بيت خلّقوا للجنة فهم أهل هذا البيت علقمة والأسود.

كان علقمة قويّ الحافظة، قال: ما حفظت وأنا شابّ فكأنما أقرأه في ورقة. وكان يتحاشا فضول الأمراء والسلاطين. كان يقول: لا أصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من ديني أفضل منه.

أخرج ابن سعد بإسناده إلى إبراهيم النخعي: أن أبا بردة (ابن أبي موسى الأشعري) كتب

١. ورقة صفين لنصر بن مزاحم، ص ٣٨٧. ٢. تاريخ بغداد، ج ١، ص ٢٩٧.

٣. هم: علقمة بن قيس، والأسود بن يزيد، وسروق بن الأجدع، وعبيدة بن قيس بن عمرو السملاني، وعمرو ابن شرحبيل، والحارث بن قيس الجعفي، قُتل مع عليّ عليه السلام (المصدر نفسه، ص ٣٩٩).

علقمة في الوفد إلى معاوية. فكتب إليه علقمة: امحني، امحني. ولما جمعت لابن زياد البصرة والكوفة، سأل أبا وائل أن يصحبه، قال فأتيت علقمة، فقال لي: اعلم أنك لا تصيب منهم شيئاً إلا أصابوا منك أفضل منه.

كان يقول: تذاكروا العلم، فإن حياته ذكره. وكان ثقة كثير الحديث، مجتمعاً على وفاقته.

و من حسن معاشرته مع أهله أنه كان يقول لامرأته: اطعمينا من ذلك الهنيء المريء، إشارة إلى قوله تعالى: «فَإِنْ طِبْنَ نَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا»^١.
توفي بالكوفة سنة (٦٢ هـ) في ولاية عبيد الله بن زياد في خلافة يزيد^٢.

* * *

و عدّه الشيخ في رجاله من أصحاب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام^٣ قال الكشي: وكان علقمة فقيهاً في دينه، قارئاً لكتاب الله، عالماً بالفرائض، شهد صفين وأصيب إحدى رجله فخرج منها. وكان الحارث أخوه أيضاً فقيهاً جليلاً، وكان أعور. وأما أخوه الآخر أبي بن قيس فقتل يوم صفين^٤.

كان علقمة بن قيس من الثقات العشرة الذين خطبوا بالإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فقد روى ثقة الإسلام الكليني في كتاب الرسائل عن علي بن إبراهيم التميمي بإسناده، قال: كتب أمير المؤمنين عليه السلام كتاباً بعد منصرفه من النهروان، أعرب فيه عن موضعه في إمرة المؤمنين. وأشهد عليه ثقافته من أصحابه المقربين، وأمر كاتبه عبيد الله بن أبي رافع أن يقرأه على ملا من الناس.

١. النساء (٤): ٤.

٢. العيقات، ج ٦، ص ٥٧-٦٢؛ تهذيب التهذيب، ج ٧، ص ٢٧٧-٢٧٨؛ تاريخ بغداد، ج ٢، ص ٢٩٦-٣٠٠.

٣. رجال الطوسي، ص ٥٠، رقم ٧٢ و ص ٥٣، رقم ١١٥ وفيه: قتل بصفين وأخوه أبي بن قيس. وهكذا نقل عنه ابن داود (رجال ابن داود، ص ٨٣٤، رقم ١٠١٧) وزاد: هو وأخوه هكذا العلامة في خلاصة الرجال (ص ١٢٩، رقم ٥).
نست: والظاهر زيادة الواو في نسخة النسخ زيادة من نساخ الكتاب. لأن علقمة أصيب برجله في صفين ولم ينقل. وتوفي سنة (٦٣ أو ٧٢ هـ). والمتنول أخوه أبي بن قيس. فالصحح في العبارة: قتل بصفين أخوه أبي بن قيس وأباه العاصم.
٤. رجال الكشي، ص ٩٣، رقم ٣٦٦ و ٣٧ و ٣٨.

قال: فدعا كاتبه عبيد الله بن أبي رافع - وكان أبو رافع كاتب رسول الله ﷺ - فقال له: أدخل عليّ عشرة من تقاتي، فقال: سمّهم لي يا أمير المؤمنين، فقال: أدخل: أصبغ بن نباتة، وأبا الطفيل عامر بن واثلة الكنانيّ، وزرّ بن حبّيش الأسديّ، وجويريّة بن مسهر العبديّ، وخندف بن زهير الأسديّ، وحارثة بن مضرب الهمدانيّ، والحارث بن عبد الله الأعور الهمدانيّ، (و مصباح النخعيّ) وعلقمة بن قيس، وكميل بن زياد، وعمير بن زرارة، فدخلوا عليه الخ^١.

و عدّه الفضل بن شاذان من التابعين الكبار ومن رؤسائهم وزهادهم. روى الكشيّ عنه قال: ومن التابعين الكبار ورؤسائهم وزهادهم: جندب بن زهير، وعبد الله بن بديلة، وججر بن عديّ، وسليمان بن صرد، والمسيّب بن نجبة، وعلقمة، والأشتر، وسعيد بن قيس، وأشباههم كثير. أفناهم الحرب، ثمّ كنوا بعد ذلك حتّى قتلوا مع الحسين رضي الله عنه، وبعده^٢.



١١. محمد بن كعب القرظي^٣

أبو حمزة، وقيل: أبو عبد الله المدني، سكن الكوفة ثمّ المدينة. وقال في الخلاصة: المدنيّ ثمّ الكوفيّ أحد العلماء. قال ابن عون: ما رأيت أحداً أعلم بتأويل القرآن من القرظي^٤.

وقال ابن سعد - في ترجمة أبي بردة -: روى عن النبي ﷺ قال: سيخرج من

١. زيادة في جعبة النجف ليست في نسخة صاحب وسائل الشيعة، وهي الصحيحة؛ لأنّه زيادة على العشرة. ولم يعهد من أصحابه رضي الله عنهم من يحمل هذا الاسم؛ لكن في عبارة المارقاتي ما يدل على أنّه وصف لعقبة هكذا: ومصباح النسخ علقمة بن قيس، وهو من أجمل الأوصاف وصفه به الإمام أمير المؤمنين رضي الله عنه على ذلك الفرض. راجع: تنقيح المقال، ج ٣، ص ٢٥٩، رقم ١٧٧٨.

٢. كانت المحجة لسيد رضي الدين أبي القاسم ابن طاووس، ص ١٧٣ (ط نجف) ووسائل الشيعة، ج ٣، ص ٣٣٥، في الفائدة السابعة من الخاتمة. رجال الكشي، ص ٥٥، رقم ١٩ (ط نجف).

٣. كان أبوه من بني قريظة ممن لم يحتم ولم يبت فحلوا سيده. تهذيب التهذيب، ج ٩، ص ٣٢، نقلاً عن البخاري. خلاصة تهذيب التهذيب، ص ٣٥٧.

الكاهنين رجل يدرس القرآن دراسة لا يدرسها أحد بعده. قال ربيعة: فكنا نقول: هو محمد بن كعب القرظي، والكاهنان قريظة والنضير^١.

قال ابن حجر: روى عن علي بن أبي طالب عليه السلام، وعبد الله بن مسعود، وأبي ذر، وأبي الدرداء، وزيد بن أرقم، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب، والبراء بن عازب، وجابر بن عبد الله، وأنس وغيرهم. وعن ابن سعد: كان ثقة عالماً كثير الحديث ورعاً. وقال العجلي: مدني تابعي ثقة، رجل صالح، عالم بالقرآن. وقال ابن حبان: كان من أفاضل أهل المدينة، عالماً وفقهاً. توفي سنة (١٠٨ هـ) وهو ابن (٧٨). قيل: مات في حادث سقوط سقف المسجد، فمات هو وجماعة معه تحت الهدم^٢.

ملحوظة: قال الترمذي: سمعت قتيبة يقول: بلغني أن محمد بن كعب ولد في حياة النبي ﷺ. قال ابن حجر: وهذا لا حقيقة له، إنما الذي ولد في عهده هو أبوه. أمّا هو فقد ولد في آخر خلافة علي عليه السلام سنة (٤٠ هـ)^٣.

قلت: روايته عن علي وابن مسعود وأبي ذر وأمثالهم تدلّ على سبق ولادته سنة (٤٠ هـ) بكثير، ولا سيما مع التصريح بأنه مات سنة (١٠٨ هـ) وهو ابن (٧٨). فيبدو أن ولادته كانت في خلافة عمر سنة (٢٠ هـ)^٤.

وأيضاً روى ابن شهر آشوب بإسناده إلى محمد بن منصور السرخسي عن محمد بن كعب القرظي، أنه رأى رسول الله ﷺ في المنام، وأعطاه (١٨) تمرّة، فتأوّل أنه يعيش (١٨) سنة. فنسي ذلك، حتّى رأى يوماً ازدحام الناس على الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام وهو في طريقه إلى خراسان، وبين يديه طبق تمر، فناوله الإمام (١٨) تمرّة. فسأله الزيادة، فقال: لو زادك جدّي رسول الله ﷺ لزدناك. انتهى ملخصاً^٥.

قلت: ولعلّ هذه القصة منسوبة إلى ابنه حمزة أو عبد الله أو أحد أحفاده؛ لأنّ سفره

١. العيقات، ج ٤، ص ١٩٣، ق ٣. ٢. تهذيب التهذيب، ج ٩، ص ٤٣٠-٤٣٢، رقم ٥٨٩.

٣. المصدر نفسه، ص ٤٣١-٤٣٢.

٤. المناقب، ج ٤، ص ٣٤٣: بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١١٨-١١٩، رقم ٥ (ط بيروت).

الإمام إلى خراسان كانت في سنة (٢٠٠ هـ).^١

نعم، روى الصدوق رحمه الله هذه الرواية ناسباً لها إلى أبي حبيب النجاشي.^٢

١٢. أبو عبد الرحمان السلمي

هو عبد الله بن حبيب الكوفي. كان من أصحاب ابن مسعود، وشهد مع علي عليه السلام صفين. كان ثقة كثير الحديث. قال ابن عبد البر: هو عند جميعهم ثقة، وكان قارئاً ومعلماً للقرآن.^٣ وكان عاصم قد أخذ عنه القراءة عن علي عليه السلام.

وأخرج ابن عساكر بإسناده إلى أبي بكر بن عيَّاش عن عاصم بن أبي النجود عن أبي عبد الرحمان السلمي قال: «ما رأيت أحداً أقرأ لكتاب الله من علي بن أبي طالب عليه السلام». وقد ذكرنا حديثه عن تعلم الصحابة لتفسير القرآن عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم. توفي سنة (٧٢ هـ).

١٣. مسروق بن الأجدع

أبو عائشة الهمداني الوادعي الكوفي، الفقيه العابد. أخذ العلم عن علي بن أبي طالب عليه السلام ولم يتخلف عن جروبه. وهكذا روى عن ابن مسعود، وكان خصيصاً بالتمذة لديه. وروى عن معاذ بن جبل، والحباب بن الأرت، وأبي بن كعب. كان أبوه الأجدع بن مالك أفرس فارس باليمن، وكان عمرو بن معديكرب خاله.

قال الشعبي: ما رأيت أطلب للعلم منه. وكان أعلم بالفتوى من شريح، ومن ثم كان شريح يستشيرُه إذا عوزه الرأي.

قال علي بن المديني: ما أقدم على مسروق من أصحاب عبد الله بن مسعود أحد. وكان من أصحابه الذين يعلمون الناس السنة. كان مقرئاً ومفتياً معاً. قال ابن حجر: مناقبه

١. فتحة المنتهى، ص ٢٩٤.

٢. بحار الأنوار، ج ٥٩، ص ٣٥، رقم ١١٥٠٠؛ عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص ٢١٠، ٢١١ (ط نجف).

٣. تهذيب التهذيب، ج ٥، ص ١٨٣، رقم ٣١٧.

٤. جامع الأخبار والآثار للأصبهاني، ج ١، ص ٢٧٦؛ تاريخ ابن عساكر - ترجمة الإمام - ج ٣، ص ٢٧.

٥. راجع: تفسير الطبري، ج ١، ص ٣٧، ٣٨، ٣٩.

كثيرة،^١ مات سنة (٦٣ هـ).

وكان على غزارة من العلم، حريصاً على الأخذ من كبار العلماء من صحابة الرسول ﷺ. وقد تقدم حديث اجتماعه مع أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالإخاد، يروي الواحد الرجل، ويروي الرجلين، والعشرة، والمائة. والإخاد لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم^٢، يعني علياً عليه السلام.

وأنهم بالانحراف عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، ولابن أبي الحديد بشأن الأسود بن يزيد الآتي، وكذا مرة الهمداني والشعبي كلام ننقله بتفصيله: قال: ذكر شيخنا أبو جعفر الإسكافي عليه السلام ووجدته أيضاً في كتاب الغارات لإبراهيم بن هلال الثقفي: وقد كان بالكوفة من فقهاء من يعادي علياً عليه السلام ويغضه، مع غلبة التشيع على الكوفة.

فمنهم مرة الهمداني. روى أبو نعيم الفضل بن دكين عن فطر بن خليفة، قال: سمعت مرة يقول: لأن يكون عليّ جمللاً يستقي عليه أهله خير له مما كان عليه! وعن عمرو بن مرة، قال: قيل لمرة: كيف تحلفت عن عليّ؟ قال: سبقنا بحسناته، وابتلينا بسيئاته.

وروى ابن دكين عن الحسن بن صالح، قال: لم يصل أبو صادق^٣ على مرة الهمداني. وقال - في أيام حياته -: والله لا يظنني وإياه سقف بيت أبداً. قال: ولما مات لم يحضره عمرو بن شرحبيل^٤، قال: لا أحضره لشيء كان في قلبه على عليّ بن أبي طالب. قال

١. تهذيب التهذيب: ج ١٠، ص ١١٦-١١٨.

٢. من ذلك في صدر الكلام عن تفاوت الصحابة في العلم.

٣. ذكر الشيخ فيمن عرف بكنيته من أصحاب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أبو صادق. وهو ابن عاصم بن كعب الجرمي، عراقي كوفي (رجال الصوسي، ص ٦٣، رقم ١١٦): قال ابن حجر: أزدني كوفي، اسمه مسم أو عبد الله. ذكره ابن حبان في الثقات وكان ورعاً مستقيم الحديث (تهذيب التهذيب، ج ١٢، ص ١٣٠).

٤. أبو ميسرة الهمداني الكوفي صاحب ابن مسعود العابد الزاهد الثقة الجليل: مات سنة (٦٣ هـ) (المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٤٧).

إبراهيم بن هلال: فحدثنا المسعودي عن عبد الله بن نعيم بهذا الحديث. قال: ثم كان عبد الله بن نعيم يقول: وكذلك أنا، والله لو مات رجل في نفسه شيء على علي بن أبي طالب لم أحضره، ولم أصل عليه.

قال: ومنهم الأسود بن يزيد، ومسروق بن الأجدع. روى سلمة بن كهيل: أنهما كانا يمشيان إلى بعض أزواج النبي ﷺ فيتبعان في علي بن أبي طالب. فأما الأسود فمات على ذلك. وأما مسروق فلم يمض حتى كان لا يصلي الله تعالى صلاة إلا صلى بعدها على علي بن أبي طالب عليه السلام، لحديث سمعه من عائشة في فضله.

عن ليث بن أبي سليم، قال: كان مسروق يقول: كان علي كحاطب ليل. قال: فلم يمض مسروق حتى رجع عن رأيه هذا.

و روى سلمة بن كهيل، قال: دخلت أنا وزبيد اليمامي على امرأة مسروق بعد موته، فحدثتنا، قالت: كان مسروق والأسود بن يزيد يفرطان في سب علي بن أبي طالب، ثم ما مات مسروق حتى سمعته يصلي عليه. وأما الأسود فمضى لشأنه. قال: فسألناها: لم ذلك؟ قالت: شيء سمعته من عائشة، ترويه عن النبي ﷺ فيمن أصحاب الخوارج.

و عن أبي إسحاق، قال: ثلاثة لا يؤمنون على علي بن أبي طالب عليه السلام: مسروق، و مرة، و شريح، و روى أن الشعبي رابعهم.

١. أبو هاشم الهمداني الكوفي. قال ابن سعد: كان ثقة، كبير الحديث صدوق. مات سنة (١٩٩ هـ). (المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٧-٥٨).

٢. في مسند أحمد بن حنبل بإسناده عن مسروق قال: قالت لي عائشة: إنك من ولدي و من أحبهم إلي: قيل عندك هم من المذبح؟ (هو ذو النونية ذو النونية رأس الخوارج) فقلت: نعم، قتله علي بن أبي طالب، عن غير يقال لأعلام: فارس و لأسفندة النهروان: بين الحائقي و حرقاء. قالت: أبغني علي ذلك بك، فأقامت رجلاً شهدوا عندها بذلك. قال: فقدت لهذا سألني صاحب القبر ما الذي سمعت من رسول الله ﷺ فيهم؟ فقلت: نعم سمعته يقول: إنهم شر الخلق و الحبيبة، يقتلهم غير الحق و الخليفة، و أقربهم عند الله وسيلة. (شرح نهج البلاغة لأبي الحديد، ج ٢، ص ٣٦٧). و في كتاب صفين للهمداني، عن مسروق، أن عائشة قالت له: لما عرف أن علياً عليه السلام قتل ذا النونية: لعن الله عمرو بن العاص، فإنه كتب إلي يحبرني أنه قتله بالإسكندرية، ألا أنه ليس بمنعني ما في نفسي أن أقول ما سمعته من رسول الله ﷺ يقول: يقتله خير أمتي من بعدي. (المصدر نفسه، ص ٣٦٨). التمام، لأبي المغازلي، ص ٥٥ و ٥٦.

و عن الشعبي: أن مسروقاً ندم على إبطائه عن علي بن أبي طالب عليه السلام.

و روى الكشي عن أبي الحسن علي بن محمد بن قتيبة صاحب الفضل بن شاذان، و تلميذه و رواية كتبه، قال: سئل أبو محمد الفضل بن شاذان عن الزهاد الثمانية، فعدهم أربعة كانوا مع علي عليه السلام زهاداً أختيائاً، وهم: الربيع بن خثيم، وهرم بن حبان، وأويس القرني، وعمار بن عبد قيس. والأربعة الباقون لم يكونوا على تلك الصفة، أحدهم مسروق بن الأجدع، قال: وكان عشاراً لمعاوية. ومات في عمله ذلك، بموضع أسنل من واسط على دجلة، يقال له: الرصافة، وقبره هناك.

و روى الطبري الإمامي - في المسترشد -: أن مسروقاً و مرة الهمداني رغباً عن الخروج مع علي عليه السلام وأخذاً أعطياتهما منه، وخرجا إلى قزوين. وكان مسروق يلي الخيل لعبيد الله ابن زياد. ومات عاشراً، وأوصى أن يُدفن مع مقابر اليهود. وكان يعلل ذلك بأنه سوف يخرج من قبره وليس من يؤمن بالله ورسوله سواه. قال: وكان من المحرطين لنصرة عثمان، ويقول لأهل الكوفة: انهضوا إلى خليفكم وعصمة أمركم.

و روى الثعلبي - في تفسيره - أنه وقف - في صفين - بين الصفين، وتلا قوله تعالى: «وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ وَحِيماً».

هذا كل ما ذكر بشأن الرجل و الفدح فيه، ولننظر مدى صحته:

* * *

أما مسألة إبطائه عن علي - على ما روي عن الشعبي - أو تخلفه عن صفين - على ما

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٤، ص ٩٨-٩٩.

٢. رجال الكشي: ص ١٥٩، رقم ٣٤، في ترجمة عوف العبدي (ط نجف).

٣. المسترشد الطبري: ص ١٥٧، رقم ٢٥. ٤. قاموس الرجال، ج ١٨، ص ٤٧٥-٤٧٦.

٥. النساء (٤): ٣٩، المصدر نفسه، ص ٤٧٦.

٦. أخرج عنه ابن سعد في القائل: ولم يكن شهد معه شيئاً من مشاهدنا (الطبقات، ج ٦، ص ٥١).

٧. جاء في الكامل في التاريخ لابن الأثير، ج ٣، ص ٢٧٨-٢٧٩ (ط دار صادر بيروت): أن عبيداً عليه السلام لما عسكر بالثغرة، فحلت عنه نذر من أهل الكوفة منهم: مرة الهمداني و مسروق، وأخذوا أعطياتهما وقصدا قزوين. فأتى مسروق فإله كان يستغفر الله من فعله عن علي بن صفين.

ذكره الطبري الإمامي - فتتأفي مع نعل أصحاب التراجم وغيرهم، على أنه شهد مشاهدته كلها؛ قال ابن حجر العسقلاني: قال وكيع^١ وغيره: «لم يتخلف مسروق عن حروب علي^{عليه السلام}»^٢.

و أخرج ابن سعد بإسناده عن محمد بن المنتشر عن مسروق بن الأجدع، قال: كان فسطاطي أيام الحكمين إلى جنب فسطاط أبي موسى الأشعري، فأصبح الناس ذات يوم قد لحقوا بمعاوية من الليل، فلما أصبح أبو موسى رفع رفر فسطاطه، فقال: يا مسروق، إن الإمرة ما أوثمر فيها، وأن المدة ما غلب عليه بالسيف^٣.

قال الخطيب: وكان مسروق ممن حضر مع علي^{عليه السلام} حرب الخوارج بالنهر وان. و أخرج بإسناده عن ابن أبي ليلى، قال: شهد مسروق النهر مع علي، فلما قتلهم قام علي وفي يده قدوم فضرب باباً، وقال: صدق الله ورسوله^٤.

قلت: هذا الذي روى عن الشعبي، لعنه كسائر ما روي عنه أنه لم يشهد الجمل من الصحابة سوى علي و عمار و طلحة و الزبير. قالوا: إن صحّت الرواية: فهذا من أفحش كذبه^٥، والظاهر أنه مكذوب عليه؛ لأنه هو القاتل عن تناقل أهل المدينة للخروج مع علي^{عليه السلام} في واقعة الجمل: ما نهض في تلك الليلة إلا ستة بدريون، منهم: أبو الهيثم ابن النيهان، و خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين وغيرهما^٦.

* * *

١. هو وكيع بن الجراح بن مريح الرؤاسي الكوفي. كان حافظاً ذكياً مأموناً و عادياً ناسكاً صدوقاً، وكان جليلاً من العلماء الأعلام، راوياً أجمع منه ولا يرغب منه عن الدنيا. وقد أجمع على صدقه وأمانته وناقته الأئمة من أصحاب الحديث، وكان معروفاً بالشفيع لآل بيت الرسول^{عليهم السلام}. قال ابن معين: رأيت عند مروان بن معاوية لوحة مكتوبة فيه أسماء المشركين وسموتهم، وكان فيه: «و وكيع رافضي». و قال محمد بن مروان: ما وصفت لي أحد إلا رأيت دون الصفة إلا وكيع، فإني رأيت فوق ما وصفت لي. ولد سنة (١٢٨ هـ)، و توفي سنة (١٩٦ هـ). رات يوم عاشوراء في حريقه راجعاً من حج بيت الله الحرام (تهذيب التهذيب: ج ١١، ص ٣٥، ١٣٠).

٢. المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١١١.

٣. الطبقات، ج ٤، ص ٨٤، ق ١، عند ترجمة أبي موسى (ط ليدن).

٤. تاريخ بغداد، ج ١٣، ص ٣٣٢، القُدوم: آلة المنجى والنجر.

٥. قاموس الرجال، ج ٥، ص ١٩٠. ٦. الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٣١.

و أمّا ما ذكره من أنّه وقف بين الصّفيّين في صفّين، وجعل يبتط الناس عن أمير المؤمنين عليه السلام و تلا قوله تعالى: «يا أيّها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون بحارّة عن تراخ منكم ولا تقتلوا أنفسكم إنّ الله كان بكم رحيماً»، ففيه مواضع من الخلط والاشتباه:

أولاً: إنّ هذا متناف مع قولهم: إنّهُ تخلف عن حرب صفّين، في نفر من أهل الكوفة، و خرج إلى قزوین یرافقه مرّة الهمداني^١، والأرجح - إن صحّ الخبر - أنّه مسروق العکبي، كانت له رؤية، وكان مع معاوية يحرضه على عدم الطاعة لعلي عليه السلام^٢.

و ثانياً: هذا من كلام أبي موسى الأشعري لأهل الكوفة، كان يبتطهم عن النهوض مع الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عند ما أتاهم رُسُل الإمام لينهضوا بهم إلى حرب الجمل. وقد ذكره الطبري في حوادث سنة (٢٦ هـ). فكان فيما قال: أيّها الناس، إنّها فتنة صماء، النائم فيها خير من اليقظان، والقاعد فيها خير من القائم. فأغمدوا السيوف، وانصلوا الأستة. وقد جعلنا الله إخواناً، وحرّم علينا دماءنا وأموالنا، وقال تعالى: «يا أيّها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل... ولا تقتلوا أنفسكم إنّ الله كان بكم رحيماً». وقال: «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاءُ جَهَنَّمَ»^٣.

و ثالثاً: إنّ هذا الموضوع عن لسانه، قد حصل فيه خلط غريب، بموجب أنّ الكذوب تخونه ذاكرته!

فقد أخرج ابن سعد عن الشعبي - وكان يزعم أنّه لم يخرج في شيء من حروب علي عليه السلام - قال: كان مسروق إذا قيل له: أبطأت عن علي وعن مشاهدته؟ ولم يكن شهد معه شيئاً من مشاهدته، فأراد أن يناصهم الحديث، قال: أذكركم بالله، رأيتم لو أنّه حين

١. النساء (٤٤): ٣٩.

٢. قاموس الرجال، ج ٨، ص ٤٧٥-٤٧٦ الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٣٧٨-٣٧٩.

٣. الإصابة، ج ٣، ص ١٠٨، رقم ٧٩٣.

٤. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٤٨٦-٤٨٧ (ط دار المعارف بمصر). والآيات من سورة النساء (رقم ٢٩ و ٩٣).

صفّ بعضكم لبعض، وأخذ بعضكم على بعض السلاح، يقتل بعضكم بعضاً، فُتح باب من السماء، وأنتم تنظرون، ثم نزل منه ملاك حتى إذا كان بين الصّفيين، قال: «يا أيّها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراضٍ منكم ولا تقتلوا أنفسكم إنّ الله كان بكم رحيماً»^١ كان ذلك حاجزاً بعضكم عن بعض؟ قالوا: نعم، قال: فوالله لقد فتح لها باباً من السماء، ولقد نزل بها ملك كريم على لسان نبيكم ﷺ وفتحها لمحكمته في المصاحف، ما نسخها شيء. هكذا روى ابن سعد روايتين بهذا اللفظ، أسندهما إلى الشعبي.

ثم أخرج عن عاصم رواية مرسلّة، قال: وذكر أنّ مسروقاً بنفسه أتى صفّين فوقف بين الصّفيين ثمّ قال: يا أيّها الناس، رأيتم لو أنّ الخ تمّ انساب بين الناس فذهب! ولعلّ ذاكر الخبر - وهو مجهول الهوية - اشتبه عليه لفظة «حتى إذا كان بين الصّفيين...» في الخبر المزعوم، فزعم أنّ الضمير يعود إلى مسروق، في حين أنّه عائد إلى الملك، حسب المزعومة!

و يحتمل أنّ مسروقاً هذا هو العكبي صاحب معاوية. كان من وجوه أهل الشام وكانت له صحبة. كان يحرض معاوية على الخروج من الطاعة والقيام بطلب دم عثمان، فكان شديداً على الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في تلك المواقف. ذكره ابن حجر في الإصابة^٢.

* * *

و أمّا القول بأنّه كان عشاراً لمعاوية^٣، وأنّ زياداً استعمله على السلسلة، ومات بها سنة (٦٢ أو ٦٣ هـ)، وكان مسروق متدنّراً من عمله ذلك، وكان يقول: لم يدعني ثلاثة: زياد، وشريح، والشيطان، اكتنوني ولم يزالوا يزيّنونه لي حتى أوقعوني فيه. وكان يقول: ما عملت عملاً قطّ أخوف عليّ من أن يدخلني النار من عملي هذا. وكان بها حتى مات.

١. راجع: الصّفات، ج ٦، ص ٥١٥ (ط لندن). ٢. الإصابة، ج ٣، ص ١٨٨، رقم ٨٩٣٤.

٣. رجال الكشي، ص ١٢٩، رقم ٣٤ قاموس الرجال، ج ٨، ص ٤٧٦.

٤. تهذيب التهذيب، ج ١٠، ص ١١١.

قال ابن سعد: ومات بالسلسلة بواسط، وقبره هناك يُزار^١. وأخرج عن أم قيس، قالت: مررت على مسروق بالسلسلة، ومعى ستون توراً تحمل الجبين والجوز، فسألها مسروق، قال: ما أنت؟ قالت: مكاتبة. قال: خلوا سبيلها فليس في مال المكاتب زكاة^٢.

وروى الكشي عن الفضل بن شاذان: أن مسروقاً كان عشاراً لمعاوية، ومات في عمله ذلك بموضع أسفل من واسط على دجلة يقال له: الرصافة، وقبره هناك^٣.

فهذا كله مما لا نستطيع الموافقة عليه، حيث مخالفته مع واقع التاريخ: أولاً، إذا كانت السنتان اللتان استعمله زياد فيهما على السلسلة، هما الأخيرتان من حياة مسروق، إذ قد توفي في عمله ذلك، فهذا يعني بعد عام السنين، الأمر الذي لا ينسجم مع كون هلاك زياد في سنة (٥٣ هـ) المتفق عليه عند أرباب التاريخ^٤. ففعل مسروقاً هذا غير ابن الأجدع المتوفى سنة (٦٣ هـ). إمام ابن وائل الحضرمي^٥، أو الحكمي^٦، أو غيرهما.

ثانياً، إن سليل، طسوج^٧ من تمانية طساسيج كورة شاذقباد، وتسمى كورة دجلة. قال ياقوت: كورة شرقي بغداد، وتشتمل على تمانية طساسيج: رستقباد، ومهرود، وبيليل، وجلولاء، والبنديجين، وبراز الووز، والديسكرة، والرستاقين. قال: ويضاف إلى كل واحدة من هذه لفظ «طسوج» أي ناحية كذا^٨.

و عليه فمن البعيد جداً أن يستعمل مثل مسروق بن الأجدع - العالم الكبير والراوي

١. العيقات، ج ٦، ص ٥٥-٥٦ (ط لندن).

٢. المصدر نفسه، ج ٩، ص ٣٦٤.

٣. رجال الكشي، ص ٩١.

٤. الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٤٩٣ حوادث سنة (٥٣ هـ) (ط دار صادر).

٥. وقد كان في أواخر الحين لعبد الله بن زياد في واقعة العترة وسنذكره.

٦. ذكره ابن حجر في الإصابة (ج ٣، ص ١٠٨، رقمه ٧٩٣٤)، وكان من وجوه أهل الشام عند معاوية، وقد أقر ربه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بالطاعة، فكان مسروق الحكمي من هذه معاوية لو أنجابه، وجعل يحرفه على التمرد والعصيان!

٧. فتح الباعث وتزيد الدين المضمومة، بمعنى الناحية. قال الفيروز آبادي: بلدة بداهن دجلة.

٨. معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٠٤، ٣٠٥، وقال في ص ٣٣٦: سليل غير في سواد العراق، يضاف إلى طسوج من محافظة شاذقباد من الجانب الشرقي.

التقدير - لمثل تلك المنطقة الصغيرة البعيدة عن مراكز العلم والثقافة، ولا سيما إذا كان العمل مثل عمل العشارين! الأمر الذي لا نكاد نصدق به بشأن مثل ابن الأجدع الإمام القدوة الذي هو أحد الأعلام. ومن ثمَّ رجَّحنا أن يكون العامل غير هذا.

و ثالثاً: ذكر الخطيب البغدادي: أن مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني تم الوادعي، ويكنى أبا عائشة، توفي سنة (٦٣ هـ) بالكوفة، وكان له (٦٣) سنة^١.

غير أن ابن الأثير قال: وتوفي بمصر مسروق بن الأجدع سنة (٦٢ أو ٦٣ هـ)^٢. كما ذكر ابن حجر أنه توفي بسلسل^٣. فهناك ثلاثة أقوال في موضع قبره، والصحيح هو القول الأول، بدليل الاعتبار. أمَّا الذي توفي بمصر فلعله العكبي صاحب معاوية. أمَّا العامل بسلسلة العشار فيحتمل كونه ابن وائل، والله العالم.

* * *

و أمَّا أنه كان على الخيل لعبيد الله بن زياد - على ما جاء في المسترشد^٤ - فلعله من الوهن بمكان؛ لأنَّ ذاك هو مسروق بن وائل الحضرمي من أجناد الكوفة، الذين خرجوا لقتال الحسين بن علي رضي الله عنهما في واقعة الطف بكرة بلا^٥. قال أبو مخنف عن عطاء بن السائب عن عبد الجبار بن وائل الحضرمي عن أخيه مسروق بن وائل، قال: كنت في أوائل الخيل ممن سار إلى الحسين، فقلت: أكون في أوائلها لعلي أصيب رأس الحسين، فأصيب به منزلة عند عبید الله بن زياد...^٦ وكان قد أدرك حياة النبي ﷺ، وقدم عليه في وفد حضر موت^٧.

* * *

أمَّا دفاعه عن عثمان فلعله كان لمحض الحفاظ على الوحدة دون تفرقة الكلمة،

١. تاريخ بغداد، ج ١٣، ص ٣٣٥.
٢. تهذيب التهذيب، ج ١٠، ص ١١١.
٣. تاريخ الصيرفي، ج ٥، ص ٤٣١ (ط دار المعارف).
٤. الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ١١٠.
٥. قاموس الرجال، ج ٨، ص ٤٧٥.
٦. تاريخ الصيرفي، ج ٥، ص ٤٣١ (ط دار المعارف).
٧. الإصابة، ج ٣، ص ١٠٨، رقم ٥٩٣٣ الاستيعاب، بهار سنة، ج ٣، ص ٥٣١-٥٣٢، أسد الغابة، ج ٤، ص ٣٥٤.

وليس عن عقيدة بشأنه في نفسه، ومن ثم ذكر والله روى عن أبي بكر وعمر وعليّ وابن مسعود وأبي بن كعب، ولم يرو عن عثمان شيئاً^١.

وكذا احترامه لعائشة كان لموضع حرمتها من النبي ﷺ محضاً، وقد كان من المعترضين عليها في اضطراب موقفها بشأن عثمان. أخرج ابن سعد عن الأعمش عن حَيْثَمَةَ عن مسروق عن عائشة، قالت حين قُتل عثمان: تركتموه كالثوب النقي من الدنس، ثم قُرِبَتموه تذبحونه كما يذبح الكبش، هَلَّا كان هذا قبل هذا؟ فقال لها مسروق: هذا عَمَلُكَ، أَنْتِ كَتَبْتِ إِلَى النَّاسِ تَأْمُرِينَهم بالخروج إليه، فَأَنْكَرْتَ!!^٢

* * *

و من غريب الأمر أن المامقاني ذكر مسروق بن الأجدع تارة بعنوان أنه أحد الزهاد النمانية، وعده من المذمومين. وأخرى وصفه بالهمداني الكوفي، وعده من الأعلام والفقهاء، ورجّح حسن حاله^٣. واعترض عليه التستري بأنهما واحد، ولا وجه للافتراق في الشخصية والوصف^٤.



١٤. الأسود بن يزيد النخعي

أبو عبد الرحمان النخعي الكوفي، من كبار التابعين المخضرمين، من أصحاب عبد الله ابن مسعود. وروى عن حذيفة وبلال وعليّ رضي الله عنهم، كان على جانب عظيم من الثهم لكتاب الله، ثقة صالح، ورع ناسك. ذكره ابن حبان في الثقات، وقال: كان فقيهاً زاهداً. روى عنه ابنه عبد الرحمان، وأخوه عبد الرحمان، وابن أخته إبراهيم بن يزيد النخعي وغيرهم. وذكره جماعة ممن صنف في الصحابة، لإدراكه. توفّي سنة (٧٥ هـ).

قال ابن سعد: روى عن عمر وعليّ وابن مسعود وسلمان، ولم يرو عن عثمان شيئاً^٥.

١. الصيقات، ج ٦، ص ٥١ (ط ليدن). ٢. الصيقات، ج ٣، ص ٥٧، ص ٢٥٠، ٢٥١.

٣. تنقيح المقال، ج ٣، ص ٢١١، برقم ١١٧٠٢ و ١١٧٠٣.

٤. قاموس الرجال، ج ١٨، ص ٤٧٥-٤٧٦.

٥. تهذيب التهذيب، ج ١، ص ٤٦٣-٤٦٤، الصيقات، ج ٦، ص ٤٦، ٤٧.

و لم يسلم الأسود ممّا رمى به زميله ابن الأجدع، والكلام فيه قدحاً ومدحاً ما مرّ في مسروق. وسنذكر أنّ عادة الكوفيّين، ولا سيّما أصحاب عبد الله بن مسعود، كان الغالب عليهم الميل مع عليّ عليه السلام، حسب تربيّة شيخهم وكبيرهم الصحابيّ الجليل^١.

١٥. مِرَّةُ الْهَمْدَانِي

أبو إسماعيل ابن شراحيل الهمدانيّ السكسكيّ الكوفيّ، المعروف بمِرَّة الطيّب ومِرَّة الخير، لُقّب بذلك لعبادته. روى عن أبي ذرّ وحذيفة وابن مسعود وعليّ عليه السلام. وعنه إسماعيل السديّ والشعبيّ وعطاء بن السائب وعمرو بن مِرَّة وطائفة. قال العجليّ: تابعي ثقة، كان عابداً ناسكاً كثير السجود والركوع. قيل: أدرك النبيّ ﷺ ولم يره. مات سنة (٧٦ هـ).^٢

وقد استوفينا الكلام في مسروق ما يتّضح به حال مِرَّة أيضاً، كشأن سائر الكوفيّين من أصحاب ابن مسعود، كانوا مع عليّ عليه السلام، ومن ثمّ أصبحوا عرضة السهام.

١٦. عامر الشعبيّ

أبو عمرو عامر بن شراحيل الحميريّ الكوفيّ، من شعب همدان. روى عن مسروق بن الأجدع وابن عباس وعليّ عليه السلام، وكثير من الصحابة والتابعين. كان فقيهاً بارعاً، قويّ الحافظة. قال: ما كتبت سوداء على بيضاء، ولا حدّثني رجل بحديث إلا حفظته، ولا حدّثني رجل بحديث فأحببت أن يعيده عليّ. قال العجليّ: سمع من (٤٨) صحابياً، ولا يكاد يرسل إلا صحيحاً.

قال ابن أبي حاتم عن أبيه: وسئل عن الفرائض التي رواها الشعبيّ عن عليّ عليه السلام، فقال: هذا عندي ما قاسه على قول عليّ، وما أرى عليّاً كان يتفرّع لهذا. قال ابن حبان في

١. راجع العبدات، ج ٢، ص ٥٥، ٥٦، كان يصدق الناس عند الناس عن عليّ عليه السلام أصحاب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وعنهم.

٢. المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٨٨-٨٩ خلاصة تذهيب التهذيب، ص ٣٧٢.

ثقات التابعين: كان فقيهاً شاعراً، مولده سنة (٢٠ هـ) ومات سنة (١٠٩ هـ)، وكان فيه دعابة. وقال أبو جعفر الطبري: كان ذا أدب وفقه وعلم. وقال أبو إسحاق: كان واحداً زمانه في فنون العلم.^١

هذا، ولم يكن حظّ الشعبيّ من الثُّم بأحسن من سابقه، كسائر الكوفيّين كانوا معرض الثُّم.

١٧. عمرو بن شرحبيل

أبو ميسرة الهمدانيّ الوادعيّ الكوفيّ، روى عن عليّ بن أبي حمزة وعبد الله بن مسعود، وكان من أصحابه، ومن الثفر السّنة الذين كانوا يقرءون الناس ويعلمونهم السّنة، ويقصد الناس عن رأيهم.^٢ وهكذا روى عن حذيفة وسلمان وقيس بن سعد بن عباد وأشباههم من خلص الأصحاب.

قال عاصم بن بهدلة عن أبي وائل: ما اشتملت همدانيّة على مثل أبي ميسرة. كان صواماً قواماً، ناسكاً زاهداً، من أفاضل أصحاب ابن مسعود. وكان إمام مسجد بني وادعة بالكوفة. كان موضع ثقة ابن مسعود، سأل يوماً قال: ما تقول يا أبا ميسرة في «الحُشّ الجوّاريّ الكُشّ»؟ قال عمرو: قلت: لا أعلمها إلّا بقر الوحش. قال: وأنا لا أعلم فيها إلّا ما قلت. توفّي سنة (٦٣ هـ) في ولاية عبيد الله بن زياد.^٣

قال الشهيد الثاني - في درايته -: تابعي فاضل من أصحاب ابن مسعود.^٤ وكانت له صحبة أو رؤية، كان ممّن روى حديث الغدير، حسبما ذكره الخوارزمي.^٥ وذكر ابن حجر في الإصابة عن الطبرانيّ أنّه أخرج من رواية عبد العزيز بن عبد الله القرشيّ عن سعيد بن أبي عروبة عن القاسم بن عبد الغفار عن عمرو بن شرحبيل، قال: سمعتُ النبيّ ﷺ يقول: «اللّهم انصر من نصر عليّاً، اللّهم أكرم من أكرم عليّاً، اللّهم اخذل

٢. تاريخ بغداد، ج ٢، ص ٢٩٩.

١. تهذيب التهذيب، ج ٥، ص ٦٥-٦٩.

٤. العبدات، ج ٦، ص ٧١-٧٤ تهذيب التهذيب، ج ٨، ص ٤٧.

٣. التكميل (٨٩) ٦٦١.

٥. الغدير، ج ١، ص ٥٧، رقم ٩٣.

٥. قاموس الرجال، ج ٤، ص ٢٩١.

من خذل علياً...»^١

و في نسخة الإصابة: شراحيل، بدل شرحبيل، وهو خطأ في النسخة؛ إذ لم يرد لشراحيل والد عمرو، ذكر في كتب التراجم إطلاقاً. مع أنه ذكره ابن عبد البر^٢، وكذا ابن الأثير^٣ بهذا العنوان: عمرو بن شرحبيل. فيبدو أن نسخة الإصابة قد أصابها تصحيف. نعم، ذكر ابن عبد البر أنه غير عمرو بن شرحبيل الهمداني، أبي ميسرة صاحب ابن مسعود، وذكر أنه لم يقف على نسبه، لكن رجّح ابن الأثير كونهما واحداً. قلت: وهو الصحيح؛ لأن ولادته كانت في أوائل الهجرة أو قبلها، فهو وإن كان تابعياً، لكنه أدرك النبي ﷺ وإن لم تكن له صحبة لصغر سنه، غير أنه يجوز سماعه منه وهو صبي مراهق.

١٨. زيد بن وهب

أبو سليمان الجعفي الكوفي. رحل إلى النبي ﷺ وهاجر إليه فلم يدركه، قبض ﷺ وهو في الطريق. وهو معدود في كبار التابعين، روى عن عليّ عليه السلام وابن مسعود وحذيفة وأبي الدرداء وأبي ذر، وروى عنه خلق كثير، منهم الأعمش، قال: إذا حدثك زيد بن وهب عن أحد، فكأنك سمعته من الذي حدثك عنه. وقد وثقه أصحاب التراجم. أخرج ابن حجر عن ابن خراش قال: كوفي ثقة وروايته عن أبي ذر صحيحة. سكن الكوفة، وكان في الجيش الذي مع عليّ عليه السلام في حربه الخوارج. وهو أول من جمع خطب عليّ عليه السلام في الجمع والأعياد وغيرها. توفي سنة (٩٦ هـ) وقد عمّر طويلاً.^٤

١٩. أبو الشعثاء الكوفي

هو سليم بن أسود المحاربي الكوفي. روى عن أبي ذر وحذيفة وسلمان وابن عباس

١. الإصابة، ج ٢، ص ٤٣، رقم ٥٨٦٩.

٢. الاستيعاب بإمام الإصابة، ج ٤، ص ٣٦٥.

٣. أسد الغابة، ج ٤، ص ١٤٤.

٤. تهذيب التهذيب، ج ٢، ص ٢٧؛ أسد الغابة، ج ٤، ص ٤٤٢؛ الإصابة، ج ١، ص ٨٣، رقم ٣٠٠١؛ الذافي، ج ٤، ص ٢٨٨؛ الهامش ٣؛ قاموس الرجال، ج ٤، ص ٢٨١.

و ابن مسعود، وكان خصيصاً به. قال أبو حاتم: لا يسأل عن مثله. وذكره ابن حبان في الثقات. قال الواقدي: شهد مع علي عليه السلام مشاهده. توفي سنة (٨٥ هـ).^١

٢٠. أبو الشعثاء الأزدي

هو جابر بن زيد الأزدي اليمحمدي الجوفي^٢ البصري، روى عن ابن عباس وعكرمة وغيرهما. قال ابن عباس: لو أن أهل البصرة نزلوا عند قول جابر بن زيد لأوسعهم علماً من كتاب الله. قال العجلي: تابعي ثقة. قال ابن سعد: مات سنة (١٠٣ هـ). قال قتادة - لما مات جابر بن زيد -: اليوم مات أعلم أهل العراق. وكان يخلف الحسن في الفتوى.^٣

٢١. الأصبع بن نباتة

التميمي ثم الحنظلي، أبو القاسم الكوفي. من أصحاب علي والحسن بن علي عليه السلام. قال العجلي: كوفي تابعي ثقة. قال ابن سعد: كان شيعياً، وكان على شرطة علي عليه السلام. قال ابن حبان: فتن بحب علي، فأتى بالمطاميات فاستحق الترك. قال ابن عدي: وإذا حدث عنه ثقة فهو عندي لا بأس بروايته، وإنما أتى الإنكار من جهة من روى عنه.^٤ قال سيّدنا الخوئي رحمه الله: هو من المتقدمين من سلفنا الصالحين، ذكره النجاشي وقال: الأصبع بن نباتة المجاشعي كان من خاصّة أمير المؤمنين عليه السلام وعمر بعده، روى عنه عهد الأستر، ووصيته إلى محمد ابنه.

و هو من العشرة الذين دعاهم الإمام أمير المؤمنين للحضور لديه. فقد روى ابن طاووس من كتاب الرسائل للكليني أنه عليه السلام دعا كاتبه عبد الله بن أبي رافع، فقال: أدخل علي عشرة من ثقاتي. فقال: سمّهم لي يا أمير المؤمنين. فقال: أدخل: أصبع بن نباتة، وأبا الطفيل عامر بن واثلة الكنانيّ، وزر بن حبّيش، وجويرية بن مسهر... حسبما أوردناه في ترجمة علقمة بن قيس.^٥ له روايات كثيرة في فنون العلم لا سيّما في الفقه والتفسير.^٦

١. تهذيب التهذيب، ج ٩، ص ١٦٥. ٢. نسبة إلى رب الجوف، محلة بالبصرة.

٣. تهذيب التهذيب، ج ٩، ص ٣٨، رقم ٦١١؛ راجع: حية الأولياء، ج ٣، ص ٨٥.

٤. قال العجلي: كان يتول بالرجعة. ٥. تهذيب التهذيب، ج ٩، ص ٣٦٦، رقم ٦٥٨.

٦. معجم رجال الحديث، ج ٣، ص ٢١٩، رقم ٨٥٠٩. ٧. رجال النجاشي، ج ١، ص ٨٠.

٢٢. زَرَّ بن حَبِيش

الأسديُّ أبو مريم الكوفيُّ مُحَضَّرٌ أدرك الجاهليَّة. كان من أصحاب ابن مسعود، ومن ثقات الإمام أمير المؤمنين عليه السلام على ما ذكرنا من حديث العشرة في ترجمة علقمة. قال ابن سعد: كان ثقة كثير الحديث. قال عاصم: كان زَرَّ من أعرب الناس. وكان ابن مسعود يسأله عن العربية. قال: كان أبو وائل عثمانيًّا وكان زَرَّ علويًّا، وكان مصلاًهما في مسجد واحد، وكان أبو وائل معظماً لَزَرَّ. قال ابن عبد البر في الاستيعاب: كان قارئاً فاضلاً. قال أبو جعفر البغدادي: قلت لأحمد: فَرَزُّ وعلقمة والأسود؟ قال: هؤلاء أصحاب ابن مسعود، وهم التبت فيه. مات سنة (٨٣ هـ)، وكان ابن (١٢٧).^١

٢٣. ابن أبي ليلى

هو محمد بن عبد الرحمان بن أبي ليلى الأنصاري، أبو عبد الرحمان الكوفي الفقيه، قاضي الكوفة. قال أبو حاتم، عن أحمد بن يونس، ذكره زائدة، فقال: كان أفقه أهل الدنيا. وقال العجلي كان فقيهاً صاحب سنة، صدوقاً جازعاً الحديث، وكان عالماً بالقرآن، وكان من أحسب الناس، وكان جميلاً نبيلاً. وأول من استقضاه على الكوفة يوسف بن عمر النخعي. قيل: كان سيئ الحفظ ولا سيما عند ما اشتغل بالقضاء فساء حفظه. قالوا: لا يُتَّهم بشيء من الكذب، وإنما يُنكر عليه كثرة الخطأ. قال الساجي: كان سيئ الحفظ لا يعتمد الكذب، فكان يمدح في قضائه، فأما في الحديث فلم يكن حجّة. قال: وكان الثوري يقول: فقهاؤنا ابن أبي ليلى وابن شبرمة. وقال ابن خزيمة ليس بالحافظ، وإن كان فقيهاً عالماً. توفّي سنة (١٤٨ هـ).^٢

١. هو شقيق بن سمة الأسدي الكوفي. أدرك النبي ﷺ ولم يره. قال عاصم: قيل لأبي وائل: أتجما أحب إليك، علي أو عثمان؟ قال: كان علي أحب إليّ ثم صار عثمان. مات بعد الجماجم سنة (٨٦ هـ). (تهذيب التهذيب، ج ٤، ص ٣٦١، رقم ٦٠٩).

٢. المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٢١-٣٢٢، رقم ٥٩٧.

٣. المصدر نفسه، ج ٩، ص ٣٠١-٣٠٣، رقم ٥٠١.

٢٤. عبدة بن قيس بن عمرو السلماني

كان من أصحاب عليٍّ عليه السلام وابن مسعود. أسلم قبل وفاة النبي ﷺ بسنتين، ولم يلقه. كان ابن سيرين من أروى الناس عنه وكان يقول: أدركت الكوفة وبها أربعة ممن يعدّ في الفقه. فمن بدأ بالحارث ثنى بعبدة أو العكس ثم علقمة الثالث وشريح الرابع. قال الشعبي: كان شريح أعلمهم بالقضاء وكان عبدة يوازيه. وعده ابن المديني في الفقهاء من أصحاب ابن مسعود. قال ابن نمير: وكان شريح إذا أشكل عليه الأمر كتب إلى عبدة. توفّي سنة (٧٢ هـ).^١ وسيأتي في ترجمة شعبة بن حجاج (من أتباع التابعين) ما يزيدك معرفة بمواضع الرجل من الحق الذي لمسه في الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وانحيازه عن مواضع العامة، سائر الناس.

٢٥. الربيع بن أنس البكري

و يقال: الحنفي البصريّ ثم الخراساني. روى عن أنس بن مالك وأبي العالية والحسن البصريّ، وأرسل عن أم سلمة. وعنه أبو جعفر الرازي والأعمش ومقاتل بن حيان وغيرهم. قال العجليّ وأبو حاتم: صدوق. وقال ابن معين: كان يتشيع فيشرط. وذكره ابن حبان في الثقات. توفّي سنة (١٣٩ أو ١٤٠ هـ).^٢

٢٦. الحارث بن قيس الجعفي الكوفي

من أصحاب ابن مسعود، وكانوا معجبين به قال علي بن المديني: قُتل مع عليٍّ عليه السلام. وعده ابن حبان في الثقات.^٣

٢٧. قتادة بن دعامة

قتادة بن دعامة، أبو الخطّاب السدوسي البصريّ، وُلد أكمه. كان تابعياً وعالمًا كبيراً،

٢. المصدر نفسه: ج ٣، ص ٢٣٨، رقم ٤٦١.

٤. الأكمه: الذي وُلد أكمه.

١. المصدر نفسه: ج ٧، ص ٨٤، رقم ٨٨٥.

٣. المصدر نفسه: ج ٢، ص ١٥٤، رقم ٢٦٦.

كان فقيه أهل البصرة عالماً بالأنساب وأشعار العرب. قال أبو عبيدة: كان أجمع الناس. وكان يُبَيِّح على باب داره كل يوم من يأتيه فيسأله عن خبر أو نسب أو شعر^١. وكان يحفظ الناس، لا ينسى ما حفظه أو قرأ عليه ولو مرة واحدة. قال علي بن المديني: انتهى علم البصرة إلى يحيى بن أبي كثير، وقتادة، كما انتهى علم الكوفة إلى أبي إسحاق، والأعمش، وانتهى علم الحجاز إلى ابن شهاب، وعمر بن دينار^٢. قال مطر بن الزرق: ما زال قتادة متعلماً حتى مات^٣. قال قتادة: ما قلت لمحدث قط: أعيد عليّ. وما سمعت أدنابي شيئاً قط، إلا وعاه قلبي. وقال: ما في القرآن آية إلا قد سمعت فيها بشي^٤.

قال أبو حاتم: سمعت أحمد بن حنبل وذكر قتادة، فأطرب في ذكره، فجعل ينشر من علمه وفقهه ومعرفته بالاختلاف والتفسير، ووصفه بالحفظ والفقه. وقال: قلما تجد من يتقدمه، أمّا المنل فلعل^٥. وقال الأثرم: سمعت أحمد يقول: كان قتادة يحفظ أهل البصرة، لم يسمع شيئاً إلا حفظه. وقرأ عليه صحيفة جابر مرة واحدة فحفظها، وكان يقول: الحفظ في الصغر كالنقش في الحجر. وقال له سعيد بن المسيّب - لما رأى منه العجيب من حفظه -: ما كنت أظن أن الله خلق من ذلك.

و قال ابن حبان في الثقات: كان من علماء الناس بالقرآن والفقه ومن حفاظ أهل زمانه^٦. كانت ولادته سنة (٦١ هـ). قال أبو إسحاق إبراهيم بن عليّ الذهلي: وُلِدَ عمر بن عبد العزيز، وهشام بن عروة، والزهرّي، وقتادة، والأعمش، ليالي قتل الحسين بن عليّ ابن أبي طالب عليه السلام وكانت شهادته عليه السلام يوم عاشوراء سنة (٦١) للهجرة^٧. وتوفي بواسط في الطاعون سنة (١١٨ هـ).

و عُمر فيه بأنه كان يقول بالتقدّر. قال ابن سعد: كان ثقة، مأموناً، حجّة في الحديث،

١. وفیات الأعيان، ج ٥، ص ٤٨٥ رقم ٥٤١.
٢. المصدر نفسه، ج ٦، ص ١٤٠، رقم ٧٩١.
٣. تهذيب التهذيب، ج ٨، ص ٣٥٣، رقم ٦٣٥ المخرج والتعديل، ج ٧ (ج ٣، ق ٦)، ص ١٣٣-١٣٥، رقم ٧٥٦.
٤. تهذيب التهذيب، ج ٨، ص ٣٥٤-٣٥٥، العبدات، ج ٨، ص ١، ق ٢.
٥. وفیات الأعيان، ج ٦، ص ٨٠، رقم ٧٨١.
٦. تهذيب التهذيب، ج ٨، ص ٣٥٣، رقم ٦٣٥ المخرج والتعديل، ج ٧ (ج ٣، ق ٦)، ص ١٣٣-١٣٥، رقم ٧٥٦.
٧. تهذيب التهذيب، ج ٨، ص ٣٥٤-٣٥٥، العبدات، ج ٨، ص ١، ق ٢.

وكان يقول بشيء من القدر. وأخرج ابن خلكان عن أبي عمرو بن العلاء، قال: حسبك قتادة، فلولاً كلامه في القدر^١.

ولكن مع ذلك فقد اعتمده القوم واعتبروه حجة في الحديث، كما قال ابن سعد. قال علي بن المديني: قلت ليحيى بن سعيد: إن عبد الرحمان يقول: أترك كل من كان رأساً في بدعة، يدعو إليها. قال: كيف تصنع بقتادة، وابن أبي رواد، وعمر بن ذر؟ وذكر قوماً، ثم قال يحيى: إن تركت هذا الضرب، تركت ناساً كثيراً^٢.

قلت: رمية بالقدر، أو شيء من القدر، إنما جاء من قبل قوله بالعدل، حسبما كان يقوله شيخه الحسن البصري، على ما تقدم في ترجمته. وكانت العامة ممن تأثروا بمذهب أبي موسى الأشعري وحفيده أبي الحسن الأشعري، كانوا يرون خلاف ذلك، وأن الأفعال كلها مخلوقة لله وعن إرادته، وليس للمعبود اختيار في عمله... عقيدة جاهلية أولى، كانت تمكّن من نفوس العرب، ولم تكد تتخلع بهم، ما دامت العامة وعلى رأسهم الأشعريان، منحرفين عن تعاليم آل بيت الرسول صلوات الله عليهم أجمعين.

* * *

هذا، وقد عُرِف قتادة السدوسي بالولاء لأهل البيت وعلى رأسهم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وفي التاريخ منه مواقف مشرفة سجلها أهل السير والحديث: أخرج ثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني بإسناده عن أبان بن عثمان البجلي، قال: حدثني الفضيل البرجمي، قال: كنت بمكة، وخالد بن عبد الله التيسري^٣ أمير، وكان في المسجد عند زمزم، فقال: ادعوا لي قتادة، فجاء شيخ أحمر الرأس واللحية، فدنوت

١. المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٨٥: الحفقات، ج ٥، ص ١٠٢.

٢. تهذيب التهذيب، ج ٨، ص ٣٥٣.

٣. كان عامراً بهنام بن عبد الملك علي الحوافين. وكان سجداً زنديقاً سحتاً عدواً للإمام أمير المؤمنين عليه السلام. كان يقول: لو أمرني همام بنخرب الكعبة لهدمتها ونقلت حجارتها إلى الشام. كان أبوه من أصل يهودي، وكان أبوه عبد الله بن يزيد مع معاوية في صفين. وكانت أمه روية نصرانية، كان بين لها قبة في مسجد الكوفة، وكان إذا أذن المؤذن ضرب لها النافوس، وإذا خطب الخطيب رفع النصارى أصواتهم حولها (مدينة البحار، ج ٨، ص ٦، تاريخ ل. د.).

لأسمع.

فقال خالد: يا قتادة، أخبرني بأكرم وقعة كانت في العرب، وأعزّ وقعة كانت في العرب، وأذلّ وقعة كانت في العرب!

فقال قتادة: أصلح الله الأمير، أخبرك بأكرم وقعة، وأعزّ وقعة، وأذلّ وقعة كانت في العرب واحدة!

فقال خالد: ويحك، واحدة؟! قال: نعم، أصلح الله الأمير. قال: أخبرني؟ قال قتادة: بدر! قال: وكيف ذا؟ قال: إنّ بدرأً أكرم الله بها الإسلام وأهله، وبها أعزّ الله الإسلام وأهله. فلما قُتلت قريش يومئذ، ذلّت العرب؛ فكانت أذلّ وقعة في العرب.

فقال له خالد: كذبت لعمر الله، إن كان في العرب يومئذ من هو أعزّ منهم! ثم قال خالد: ويلك يا قتادة، أخبرني ببعض أنصارهم؟ قال: خرج أبو جهل يومئذ، وقد أعلم يركب مكانه، وعليه عمامة حمراء، وبيده نرس مذهّب، وهو يقول:

ما تنتم الحرب الشמוש مني  ما تنتم الحرب الشמוש مني

لمثل هذا ولدتني أمي

فقال خالد: كذب عدو الله، إن كان ابن أخي لأفرس منه، يعني خالد بن الوليد، وكانت أمّه من بني قسر. ويلك يا قتادة، من الذي كان يقول: أوفي بميعادي وأحمي عن حسب؟ فقال: أصلح الله الأمير، ليس هذا يومئذ، هذا يوم أحد، خرج طلحة بن أبي طلحة، فخرج إليه علي بن أبي طالب  وهو يقول:

أنا ابن ذي الحوذين عبد المطلب  وهاشم المطعم في العام السغب
أوفي بميعادي وأحمي عن حسب

وهنا لم يتحمل خالد سماع منقبة لأُمير المؤمنين عليه السلام فقال - مغضباً -: كذب لعمري أبو تراب، ما كان كذلك.

فعند ذلك قام قتادة، وقال: أيها الأمير، ائذن لي في الانصراف، فجعل يفرج بيده ويخرج وهو يقول: زنديق ورب الكعبة، زنديق ورب الكعبة.^١
قال المحدث القمي: هذا يُنبؤك عن ولاء قتادة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

* * *

وله أيضاً مع الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام مواقف نذكر منها:
أخرج الكليني أيضاً بإسناده إلى أبي حمزة الثمالي، قال: كنت جالساً في مسجد رسول الله ﷺ إذ أقبل رجل، فقال لي: أتعرف أبا جعفر؟ قلت: نعم، فما حاجتك؟ قال: هيأت له أربعين مسألة أسأله عنها، فما كان من حق أخذته، وما كان من باطل تركته. فما انقطع كلامه حتى أقبل أبو جعفر وحوله أهل خراسان وغيرهم يسألونه عن مناسك الحج. فمضى حتى جلس مجلسه، وجلس الرجل قريباً منه. فلما انصرف الناس، التفت أبو جعفر إليه، فقال له: من أنت؟ قال: أنا قتادة بن دعامة البصري.
فقال له أبو جعفر: أنت فقيه أهل البصرة؟ قال: نعم، فقال: ويحك يا قتادة، إن الله تعالى خلق خلقاً من خلقه، فجعلهم حُججاً على خلقه، وهم أوتاد في أرضه، قوام بأمره، نجاء في علمه، اصطفاهم قبل خلقه أخذة عن يمين عرشه.

فسكت قتادة طويلاً، ثم قال: أصلحك الله، والله لقد جلست بين يدي النقيض، وقدام ابن عباس، فما اضطرب قلبي قدام واحد منهم، ما اضطرب قدامك!
فقال أبو جعفر: أتدري أين أنت؟ بين يدي «بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، يستبح نه فيها بالغدو والآصال، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة»^٢ فأنت ثم ونحن أولئك!

١. الكافي (الروضة) ج ٤، ص ١١٣-١١٤، رقم ٩١؛ بحار الأنوار، ج ١٩، ص ٣٩٨-٣٩٩.

٢. سفينة البحار، ج ٣، ص ٤١٥ (ق ١٢ د). ٣. التور (٢٤): ٣٧ و ٣٦.

فقال قتادة: صدقت والله، جعلني الله فداك، والله ما هي بيوت حجارة ولا طين^١.
 وأخرج - أيضاً - عن زيد الشحام، قال: دخل قتادة على أبي جعفر عليه السلام وجرى بينهما
 كلام حتى انتهى إلى تأويل قوله تعالى: «وَقَدْ رَأَوْا فِيهَا النَّبِيِّينَ يَكْرَهُونَ فِيهَا نِسَاءً وَآيَاتًا
 آمِنِينَ»^٢، فقال له الإمام: ذلك من خرج من بيته بزاز وراحلة وكراه حلال، يروم هذا
 البيت، عارفاً بحقنا، ويهوئنا قلبه، كما قال عز وجل: «فَاجْعَلْ أَفْتِدَاءَ مِنَ النَّاسِ شَهْوَى
 إِلَيْهِمْ»^٣. ولم يعن البيت فيقول: إليه. فنحن والله دعوة إبراهيم عليه السلام التي من هوأنا قلبه قبلت
 حرجته وإلا فلا. يا قتادة، فإذا كان كذلك كان آمناً من عذاب جهنم يوم القيامة. قال قتادة:
 لا جرم، والله لا فسرتها إلا هكذا. فقال له أبو جعفر: يا قتادة، إنما يعرف القرآن من خوطب
 به^٤.

قلت: هذا النمط من الكلام يعد من أسرار الولاية، لا يوضحون به إلا لأصحاب السر...
 ولا سيما مع إذعان قتادة لهذا الخطاب وتحمُّله هذا العتاب واستسلامه للأمر. ولعل
 انتقاده حصلت في نفسه بعد هذا التبريح، وهكذا تفعل الموعظة بأهلها إن صادفت
 نفوساً مستعدة.

مرآة حقايق في تبيين علوم سري

له كتاب في التفسير. ويرى فؤاد سركين أنه ربما كان تفسيراً كبيراً ضخماً. فقد
 استخدمه الخطيب البغدادي، كما في مشيخته. قال شواخ: واستخدمه الطبري أكثر من
 (٣٠٠٠) ثلاثة آلاف مرة. وربما نقل كل ما دته نقلاً، بالرواية التالية: «حدثنا بشر بن معاذ،
 قال: حدثنا يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة». وقد عرف التعليبي عدا ذلك روايتين
 أخرين لهذا الكتاب، كما يظهر من كتابه الكشف والبيان^٥.

١. الكافي، ج ٦، ص ٢٥٦ من كتاب الأصحمة: بحار الأنوار، ج ١٠، ص ١٥٤، رقم ٤، ج ٢٣، ص ٣٣٩، رقم ١٠.

٢. سبأ (٣٤): ١٨.

٣. إبراهيم (١٤): ٣٧.

٤. الكافي (الروضة)، ج ١٠، ص ٣١١-٣١٢، رقم ٤٨٥: بحار الأنوار، ج ٢٤، ص ٢٣٧، رقم ٦، ج ٢٤، ص ٣٤٩، رقم ٢.

٥. معجم مصطلحات القرآن الكريم، ج ٢، ص ٦٣، رقم ٩٩٩.

٢٨. زيد بن أسلم

أبو أسامة العدوي المدني، الفقيه المفسر، أحد الأعلام. كان مولى عمر بن الخطاب، وبرع حتى أصبح من كبار التابعين المرموقين، كانت له حلقة في مسجد المدينة، يحضرها جلّ الفقهاء، وربما بلغوا أربعين فقيهاً. قال الذهبي: ولزيد تفسير يرويه عنه ولده عبد الرحمان، وكان من العلماء الأبرار. قال ابن عجلان: ما هبت أحداً هبتي زيد بن أسلم.

قال ابن حجر: أخذ العلم من جماعة، منهم علي بن الحسين عليه السلام، قال: وقال يعقوب ابن شيبة: ثقة من أهل الفقه والعلم وكان عالماً بتفسير القرآن^١. وقد عدّه الشيخ أبو جعفر الطوسي من أصحاب الإمام السجاد عليه السلام وقال: كان يجالسه كثير^٢. وله رواية عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام.

فقد روى ابنه عبد الرحمان عنه عن عطاء بن يسار عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مسكر حرام، وكل مسكر خمر»^٣.

و روى عبد الرحمان (و في نسخة: عبد الله) عن أبيه زيد بن أسلم عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم، ألا إن الله يحب بغاة العلم»^٤. ومن ثمّ عدّه الشيخ في رجال الصادق أيضاً.

و استغرب سيّدنا الأستاذ الإمام الخوئي رحمته الله أن يكون زيد مولى عمر، ويدرك الصادق عليه السلام.

لكن زيد توفي سنة (١٣٦ هـ)^٥. وكانت إمامة مولانا الصادق عليه السلام بعد وفاة أبيه

١. حذات المفسرين: ج ١، ص ١٧٧-١٧٨، رقم ١٧٥، تقريب التهذيب: ج ١، ص ٣٧٢.

٢. تهذيب التهذيب: ج ٣، ص ٣٩٥ و ٣٩٦، رقم ٧٢٨.

٣. رجال العوسج: ص ٩٠، رقم ٥.

٤. المصدر نفسه: ج ١، ص ٣٠، أول حديث في فرض العلم وفقه.

٥. رجال العوسج: ص ١٩٧، رقم ٣٢.

٦. معجم رجال الحديث: ج ٧، ص ٣٣٥، رقم ٤٨٣٣.

٧. تهذيب التهذيب: ج ٣، ص ٣٩٦.

الباقر عليه السلام من سنة (١١٤ هـ) حتى نهاية عام (١٤٨ هـ).

هذا، وقد أخذ على زيد أنه كان يكثر من التفسير برأيه. قال الذهبي: تناكد ابن عدي بذكره في الكامل، فإنه ثقتة حجة، فروى عن حماد بن زيد، قال: قُدمت المدينة وهم يتكلمون في زيد بن أسلم، فقال لي عبيد الله بن عمر: ما نعلم به بأساً إلا أنه ينسّر القرآن برأيه^٢.

وقال مالك: كان زيد يحدث من تلقاء نفسه، فإذا قام فلا يجترئ عليه أحد؛ وثقة أحمد^٣.

قلت: وهذا نظير ما كان يؤخذ على الحسن البصري كثرة إرسائه، والمحدور نفس المحدور، فتنبه.

٢٩. أبو العالية

رُفيع بن مهران الرياحي البصري، أوردته الجاهلية، وأسلم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بستين. قال العجلي: تابعي ثقة من كبار التابعين المشهورين بالتفسير. روى عن علي عليه السلام وعبد الله ابن مسعود، وأبي بن كعب، وعبد الله بن عباس، وحذيفة، وأبي ذر، وأبي أيوب، وغيرهم من أكابر الأصحاب، وهو مجمع على وثاقته.

قال ابن أبي داود: ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقراءة من أبي العالية، وبعده سعيد بن جبير، وبعده السدي، وبعده النوري. مات سنة (٩٣ هـ)، وهو أول من أذن بما وراء النهر. وقال الحافظ شمس الدين الداودي: قرأ القرآن على أبي بن كعب وغيره، وسمع من ابن مسعود وعلي وطائفة. وعنه قتادة وخالد الحذاء والربيع بن أنس وأبو عمرو بن العلاء وطائفة.

و عن أبي خلدة عنه قال: كان ابن عباس يرفعني على سريره، وقريش أسفل منه.

٢. ميزان الاعتدال: ج ٢، ص ٩٨، رقم ٢٩٨٩.

٣. تهذيب التهذيب: ج ٣، ص ٣٨٤-٣٨٦.

١. التناكد: التضيق والتعاس.

٢. خلاصة تهذيب التهذيب: ص ٣٧٠.

و يقول: هكذا العلم، يزيد الشريف شرفاً، ويجلس المملوك على الأسرة.
قال: ثقة كثير الإرسال، وله تفسير رواه عنه الربيع بن أنس البكري، خرج حديثه الجماعة^١.

و قال السيوطي: و تروى عن أبي بن كعب نسخة كبيرة في التفسير، يرويها أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي. قال: وهذا إسناد صحيح، وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم منها كثيراً، وكذا الحاكم في مستدركه، وأحمد في مسنده^٢.
قال الدكتور شوّاح - عند الكلام عن تفسير الربيع بن أنس البكري البصري الخراساني المتوفى سنة (١٣٩ هـ) -: وقد أخذ منه الثعلبي في كتابه الكشف والبيان على أنه تفسير أبي العالية^٣.

٣- جابر الجعفي

هو جابر بن يزيد بن الحارث بن عبد يغوث الجعفي أبو عبد الله، ويقال أبو يزيد الكوفي عربي صميم، روى عن عكرمة وعطاء وطاووس وخيثمة والمغيرة بن شبيب وجماعة، وعنه شعبة والثوري وغيرهم، توفي سنة (١٢٨ هـ).
ذكر ابن حجر عن أبي نعيم عن الثوري: إذا قال جابر حدثنا وأخبرنا فذاك. وقال ابن مهدي عن سفيان: ما رأيت أورع في الحديث منه. وقال ابن علية عن شعبة: جابر صدوق في الحديث. وقال يحيى بن أبي بكير عن شعبة: كان جابر إذا قال: حدثنا وسمعت، فهو من أوثق الناس. وعن زهير بن معاوية: كان إذا قال: سمعت أو سألت، فهو من أصدق الناس. وقال وكيع: مهما شككتكم في شيء، فلا تشكوا في جابر ثقة^٤.
قال عادل نويهض: تابعي، فقيه إمامي، من أهل الكوفة. كان واسع الرواية غزير العلم بالدين. أثنى عليه بعض رجال الحديث، وأثمه آخرون بالتقول بالرجعة. مات بالكوفة. له

١. حديث المفسرين، ج ٤، ص ١٧٦-١٧٣، رقم ١٧٠.

٢. معجم مصنفات القرآن الكريم، ج ٢، ص ١٦٦، رقم ١٠٠٤.

٣. الإفتان، ج ٤، ص ٢٠٩.

٤. تهذيب التهذيب، ج ٢، ص ٤٧.

تفسير القرآن^١. وهكذا قال الزركلي في الأعلام^٢.

و عدّه الطوسي في رجال الإمامين محمد بن علي الباقر و جعفر بن محمد الصادق عليه السلام^٣.

و قال السيّد الصدر بشأنه: جابر بن يزيد الجعفي، إمام في الحديث و التفسير، أخذهما عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام^٤.

و قال النجاشي: جابر بن يزيد، أبو عبد الله. وقيل: أبو محمد الجعفي، عربي قديم، لقي أبا جعفر و أبا عبد الله. و مات في أيامه سنة (١٢٨ هـ)، له كتب منها: التفسير، تمّ ذكر سنده إليه.

و عدّه المفيد في رسالته العددية ممّن لا مطعن فيهم و لا طريق لدمّ واحد منهم. و عدّه ابن شهر آشوب من خواصّ أصحاب الصادق عليه السلام. و روى العلامة بإسناده إلى الحسين بن أبي العلاء: أن الصادق عليه السلام ترحّم عليه، و قال: أنه كان يصدق علينا.

و روى الكشي بإسناده إلى المنفلوطي بن عمر الجعفي، قال: سألت الإمام الصادق عليه السلام عن تفسير جابر. فقال: لا تحدّث به السفلة فيك يعونه^٥. و هذا يدلّ على أنّ تفسيره كان فيه شيء من الارتفاع. و هناك روايات تدلّ على أنّه كان يحمل أسراراً من آل بيت الرسول عليه السلام، و من تمّ رفضه القوم بالغلوّ و الرفض، و لكن مع صدق الحديث و الورع في الإيمان، و كفى به مدحاً و إخلاصاً في الدين.

قال النجاشي: و كان في نفسه مختلطاً. و هذا يعني الاعتلاء في عقيدته بشأن أئمة أهل البيت عليهم السلام فحسبوه غلوّاً. روى أبو عمرو و محمد بن عمر بن عبد العزيز الكشي بإسناده إلى ابن أبي عمير عن عبد الحميد بن أبي العلاء، قال: دخلت المسجد حين قُتل الوليد، فإذا الناس مجتمعون، فأتيهم فإذا جابر الجعفي عليه عمامة خضر حمراء، وإذا هو يقول:

١. معجم المفسرين، ج ١، ص ٢٣.

٢. الأعلام للزركلي، ج ٢، ص ٩٣.

٣. رجال الطوسي، ص ١١١ و ١٦٣.

٤. تأسيس الشيعة لعوم الإسلام، ص ٣٢٦.

٥. راجع: معجم رجال الحديث، ج ٤، ص ٢١٧.

حدّثني وصيّ الأوصياء و وارث علم الأنبياء محمد بن عليّ عليه السلام قال: فقال الناس: جُنّ جابر، جُنّ جابر.

و من ثمّ، قال جرير: لا أستحلّ أن أروي عن جابر، كان يؤمن بالرجعة. وقال أبو الأحوص: كنت إذا مررت بجابر الجعفيّ سألت ربّي العافية. إلى أمثال ذلك ممّا لم يتحمّله عقول العامة^١.

و من ثمّ كان أبو جعفر الباقر عليه السلام يوصيه بأن لا يُذيع من أسرارهم شيئاً ولا يحدث الناس بما لا تُطيقه عقولهم. قال له: يا جابر، حديثنا صعب مستصعب، لا يتحمّله إلا مؤمن ممتحن^٢.

و إلا فلا غمز في الرجل، كما قال شعبة: جابر صدوق في الحديث^٣.
و لسيدنا الأستاذ الخوئي رحمه الله كلام يُشيد به من شأن جابر، لشهادة الأجلّاء بجلالة قدره و علوّ مرتبته،^٤ و كفى.



قيمة تفسير التابعي

لقد اهتمّ أرباب التفسير بالمأثور من تفاسير الأوائل، و لا سيّما الصحابة و التابعين لهم بإحسان، و لم يكن ذلك منهم إلا عناية بالغة بشأنهم و بمواضعهم الرفيعة من التفسير. إن ذلك الحجم المتضخم من التفسير المنقول عن السلف الصالح، و أكثرها الساقط من التابعين. بعد أن كان المأثور عن ابن عباس منقولاً عن طريق متخرّجي مدرسته التابعين أيضاً. إن ذلك، إن دلّ فإنّما يدلّ على مبلغ الاهتمام بتفاسيرهم و الإجلال بمقامهم الرفيع. و ليس إلا لأنهم أقرب عهداً بنزول الوحي، و أطول بقاءً في الإحاطة بأسباب النزول، و أسهل تناولاً لفهم معاني القرآن الكريم. فإن كان القرآن قد نزل بلغة العرب و على أساليب كلامهم، فإنّ الأوائل أصنى ذهناً و أقرب تناوياً لتصاريف اللغة و مجاري ألفاظها

١. اختيار معرفة الرجال، ص ٩٦، رقم ٣٣٧ (ط مشهد).

٢. اختيار معرفة الرجال، ص ٩٣، رقم ٣٤١.

٣. معجم رجال الحديث، ج ٤، ص ٣٥.

٤. تهذيب التهذيب، ج ٤، ص ٤٩.

٥. تهذيب التهذيب، ج ٤، ص ٤٧.

و تعابيرها. إنهم أعرف بمواضع اللغة في عهد خلوصها، و أطول يداً في البلوغ إلى مجانيها من ثمرات و أعواد.

كما أنهم أمس جانباً بأحاديث الرسول ﷺ، و العلماء من صحابته الأخيار. فهم أقرب فهماً لأبعاد الشريعة في أصولها و الفروع، و الإحاطة بجوانب الكتاب و السنة و السيرة الكريمة.

فكان الاهتمام بشأنهم، و الرجوع إلى آرائهم و نظراتهم، و معرفة أقوالهم في التفسير، إنما هو لمكان تقدمهم و سبقهم في الحياة على قصب السبق في هذا المضمار، شأن كل متأخر في التفسير يرجع إلى آراء سلفه. لا ليتقلدها أو يتعبد بها، بل ليستعين بها و يستفيد في سبيل الوصول إلى أقصاها، و الصعود على أعلاها. فكان تمحيصاً و تحقيقاً في الاختيار، لا تقليداً، أو تعبداً برأي.

و لا شك أن الإحاطة بآراء العلماء سلفاً و خلفاً، هي من أكبر وسائل التوسعة في الفكر و الإحاطة في النظر، و بالتالي أكثر توسعاً في العلوم و المعارف و الصعود على مدارج الفضيلة و الكمال. هكذا تقدم العلم و ازدهرت معارف الإنسان.

فلآراء السلف قيمتها و وزنها في مسيل الرقي على مدارج الكمال. و لولاه لتوقف العلم على نقطته الأولى، و لم يخط خطواته تلك الواسعة، في مسيرته هذه الحثيثة، نحو التكامل و الازدهار.

* * *

قال الإمام بدر الدين الزركشي: و في الرجوع إلى قول التابعي روايتان عن أحمد. و اختار ابن عقيل المنع، و حكوه عن شعبة.

لكن عمل المفسرين على خلافه، و قد حكوا في كتبهم أقوالهم، كالضحاك بن مزاحم

١. هو عبد الله بن محمد بن عتيق الهاشمي: ذكره ابن سعد في الطبقة الرابعة من أهل المدينة. كان كبير العلم توفي سنة (١٤٥ هـ).

٢. هو شعبة بن الحجاج أبو نظام الواسطي ثم البصري أجمع الناس حديثاً و أوثقهم رواية. توفي سنة (١٦٠ هـ).

(١٠٥ هـ)، وسعيد بن جبير (٩٥ هـ)، ومجاهد بن جبر (١٠٣ هـ)، وقتادة بن دعامة (١١٧ هـ)، وأبي العالية الرياحي (٩٠ هـ)، والحسن البصري (١١٠ هـ)، والربيع بن أنس (١٣٩ هـ)، ومقاتل بن سليمان (١٥٠ هـ)، وعطاء بن أبي سلمي الخراساني (١٣٥ هـ)، ومرة بن شراحيل الهمداني (٧٦ هـ)، وعلي بن أبي طلحة الهمداني (١٤٣ هـ)، ومحمد بن كعب القرظي (١١٩ هـ)، وأبي بكر الأصم عبد الرحمان بن كيسان (ح: ٢٠٠ هـ)، وإسماعيل بن عبد الرحمان السدي الكبير (١٢٧ هـ)، وعكرمة مولى ابن عباس (١٠٥ هـ)، وعطية بن سعد بن جنادة العوفي (١١١ هـ)، وعطاء بن أبي رباح (١١٤ هـ)، وعبد الله بن زيد بن أسلم (١٦٤ هـ).

و من المبرزين في التابعين، الحسن، ومجاهد، وسعيد بن جبير. ثم يتلوهم عكرمة والضحاك.

قال: وهذه تفاسير القدماء المشهورين، وغالب أقوالهم تلثوها من الصحابة، ولعل اختلاف الرواية عن أحمد إنما هو فيما كان من أقوالهم و آرائهم. قلت: إن أريد التبعّد بأقوالهم، فلا. ولعل المانعين يريدون ذلك، ولكننا ذكرنا أن اعتبار آرائهم ونظراتهم إنما كان لأجل نقدهم وكونهم أقرب عهداً إلى نزول الوحي وأصفى ذهناً لفهم معانيه. وكان الرجوع إليهم لأجل التمهيص والنقد، لا التبعّد المحض. و من ثمّ اهتم القدماء بضبط تفاسيرهم وجمعها وتهذيبها، وسار على منهاجهم المتأخرون ولا يزال.

* * *

قال الحافظ أبو أحمد بن عدي: للكوفي^١ أحاديث صالحة، وخاصة عن أبي صالح^٢.

١. البرهان في علوم القرآن، ج ٢، ص ١٥٨.

٢. هو أبو النصر محمد بن السائب الكوفي النخعي الملقب بـ"نقدت فرجته" عند التعرض للناس من العراق إلى ابن عباس، ص ٢٤٨.

٣. هو باقر مولى أم هانئ بنت أبي طالب، وهو صاحب التفسير الذي رواه عن ابن عباس.

وهو معروف: بالتفسير، وليس لأحد تفسير أطول منه ولا أشيع فيه. وبعده مقاتل بن سليمان (١٥٠ هـ). إلا أن الكلبي يُفضل عليه.

ثم بعد هذه الطبقة نُفِت تفاسير تجمع أقوال الصحابة والتابعين، كتفسير سفيان بن عيينة (١٩٨ هـ)، ووكيع بن الجراح (١٩٦ هـ)، وشعبة بن الحجاج (١٦٠ هـ)، ويزيد بن هارون (٢٠٦ هـ)، والمفضل بن صالح (١٨١ هـ)، وعبد الرزاق بن همام الصنعائي (٢١١ هـ)، وإسحاق بن إبراهيم المعروف بابن راهويه (٢٣٨ هـ)، وروح بن عبادة (٢٠٥ هـ)، ويحيى بن قريش، ومالك بن سليمان الهروي، وعبد بن حميد بن نصر الكشي (٢٤٩ هـ)، وعبد الله بن الجراح (٢٣٧ هـ)، وهشيم بن بشير (٢٨٣ هـ)، وصالح ابن محمد اليزيدي، وعلي بن حجر بن أبياس السعدي (٢٤٤ هـ)، ويحيى بن محمد بن عبد الله الهروي، وعلي بن أبي طلحة (١٤٣ هـ)، وابن مردويه، أحمد بن موسى الأصبهاني (٤٠١ هـ)، وسعيد بن داود (٢٢٠ هـ)، والنسائي، وغيرهم. ووقع في مسند أحمد بن حنبل و البزار و معجم الطبراني وغيرهم، كثير من ذلك. ثم إن محمد بن جرير الطبري جمع على الناس أشباه التفاسير، وقرب البعيد، وكذلك عبد الرحمان بن أبي حاتم الرازي، وأضربهم^٢.

قال جلال الدين السيوطي: وكتاب ابن جرير الطبري أجل التفاسير وأعظمها، ثم ابن أبي حاتم، وابن ماجه، والحاكم، وابن مردويه، وأبو الشيخ ابن حبان، وابن المنذر، في آخرين. وكلها مسندة إلى الصحابة والتابعين وأتباعهم، وليس فيها غير ذلك، إلا ابن جرير، فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض، والإعراب والاستنباط، فهو يفوقها بذلك.

ثم قال: فإن قلت: فأبي التفاسير تُرشد إليه، وتأمر الناظر أن يعول عليه؟

١. أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري قال الذهبي: الإمام الجليل المنذر، ثقة صادق، فيه فلاح يسير، وموافاة لا تضل (ميزان الاعتدال: ج ٣، ص ٤٩٨-٤٩٩، رقم ٧٣٠٦).
٢. البرهان في علوم القرآن: ج ٣، ص ١٥٨-١٥٩.

قلت: تفسير الإمام أبي جعفر ابن جرير الطبري، الذي أجمع العلماء المعترفون على أنه لم يؤلف في التفسير مثله. قال النووي - في تهذيبه -: كتاب ابن جرير في التفسير لم يصنف أحد مثله.

قال: وقد شرعت في تفسير جامع لجميع ما يحتاج إليه، من التفاسير المنقولة، والأقوال المقولة، والاستنباطات، والإشارات، والأعاريب، واللغات، ونكت البلاغة، ومحاسن البدائع وغيره، ذلك بحيث لا يحتاج معه إلى غيره أصلاً، وسميته بمجمع البحرين ومطلع البدرين. وهو الذي جعلت هذا الكتاب (الإتقان) مقدمة له. والله أسأل أن يعين على إكماله، بمحمد وآله.

وهكذا ذكر في مقدمة الإتقان: أنه جعله مقدمة للتفسير الكبير الذي شرع فيه، وسماه بمجمع البحرين ومطلع البدرين، الجامع لتحرير الرواية وتقرير الدراية^١.

لكنه لم يذكر أنه أتمه وأخرجه للنشر أم لا^٢، والظاهر أنه لم يتمه، إذ لا أثر له إطلاقاً. نعم، أخرج كتابه الدر المنثور في التفسير بالماثور حافلاً بأقوال الصحابة والتابعين وتبعاتهم، مستوعباً ومستقصياً كل ما ورد بذلك من نقول وروايات، وبذلك كان أجمع كتاب في هذا الباب «التفسير القلي». وليس فيه شيء من تقرير الدراية أصلاً، وقد أصبح بذلك مخزناً كبيراً يجمع في طيه من كل رطب ويابس، والاعتبار فيها إنما هو بذكر السند، وهو المعيار لتمييز الصحيح عن السقيم عند العلماء.

* * *

وقال أحمد بن عبد الحلیم: إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة، ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين:

كمجاهد بن جبر، فإنه كان آية في التفسير، كما قال محمد بن إسحاق: حدثنا أبان بن صالح عن مجاهد قال: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى

١. الإتقان، ج ٨، ص ١٤.

٢. الإتقان، ج ٨، ص ٢١٤، ٢١٣.

٣. كشف الغطاء، ج ٣، ص ٥٩٩.

خاتمته، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها. وقال: ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئاً. وعن ابن أبي مليكة قال: رأيت مجاهداً يسأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه أواحه، فيقول له ابن عباس: اكتب، حتى سأله عن التفسير كله، ولهذا كان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به.

وكسعيد بن جبيرة، وعكرمة، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وأبي العالية، والربيع بن أنس (١٣٩ هـ). البصري الخراساني، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم. وقال: أعلم الناس بالتفسير أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس، كمجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة، وغيرهم من أصحاب ابن عباس كطاووس، وأبي الشعثاء، وسعيد ابن جبيرة وأمثالهم. وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود، ومن ذلك ما تميزوا به على غيرهم. وعلماء أهل المدينة في التفسير، مثل زيد بن أسلم (١٣٦ هـ) الذي أخذ عنه التفسير مالك، وكذا ابنه عبد الرحمن.



وعبد السيوطي من مبرزي التابعين مجاهداً، قال خفيف: كان أعلمهم بالتفسير، ولهذا علّى تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما من أهل العلم - كما قال ابن تيمية - وكان غالب ما أورده الثريائي في تفسيره عنه.

ومنهم سعيد بن جبيرة. قال الثوري: أخذوا التفسير من أربعة: عن سعيد بن جبيرة، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك. وقال قتادة: كان أعلم التابعين أربعة: كان عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك، وكان عكرمة أعلمهم بالسيرة، وكان الحسن أعلمهم بالحلال والحرام، وكان أعلمهم بالتفسير سعيد بن جبيرة.

ومنهم عكرمة مولى ابن عباس. قال الشعبي: ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة.

وكان ابن عباس يجعل في رجليه الكبل، يعلمه القرآن والسنة.
و منهم الحسن البصري، وعطاء بن أبي رباح، وعطاء بن أبي سلمة الخراساني،
ومحمد بن كعب القرظي، وأبو العالية، والضحاك، وعطية، وقنادة، وزيد بن أسلم، ومرة
الهمداني، وأبو مالك.
و يليهم الربيع بن أنس، وعبد الرحمان بن زيد بن أسلم، في آخرين. فهؤلاء قدماء
المفسرين، وغالب أقوالهم تلقوها عن الصحابة.
ثم بعد هذه الطبقة ألفت تفاسير تجمع أقوال الصحابة والتابعين، كتفسير سفيان بن
عيينة، ووكيع بن الجراح، وشعبة بن الحجاج، ويزيد بن هارون، وعبد الرزاق، وأدم بن
أبي أبياس، وإسحاق بن راهويه، وروح بن عباد، وعبد بن حميد، وسعيد، وأبي بكر بن
أبي شيبة وآخرين.^١



هذا، وقد تعلل بعضهم في اعتبار ما ورد من تفاسير التابعين؛ إذ ليس لهم سماع من
رسول الله ﷺ فهي من آرائهم، ويجوز عليهم الخطأ، كما لم يخص على عدالتهم كما
نص على عدالة الصحابة. فقد نقل عن أبي حنيفة أنه قال: ما جاء عن رسول الله، فعلى
الرأس والعين، وما جاء عن الصحابة تخيّرنا، وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن
رجال.

وقال شعبة بن الحجاج: أقوال التابعين ليست حجة، فكيف تكون حجة في التفسير؟
وقد عرفت عن أحمد روايتين، إحداهما بالقبول، والأخرى بالرفض.
قال الأستاذ الذهبي: والذي تميل إليه النفس، هو أن قول التابعي في التفسير لا يجب
الأخذ به، إلا إذا كان ممّا لا مجال للرأي فيه، فإنه يؤخذ به حينئذ عند عدم الريبة. فإن
ارتبنا فيه، بأن كان يأخذ من أهل الكتاب، فلنا أن نترك قوله ولا نعتمد عليه. أمّا إذا أجمع

١. توفي سنة (١٨٤ هـ). قال ابن خزيمة: كان من أهل العبادة والتشدد، ولم يكن من أحلاس الحديث (فيذيب
التعذيب: ج ٦، ص ١٧٧-١٧٩).
٢. الإقناع: ج ٤، ص ٢١٠-٢١٣.

التابعون على رأي فائده يجب علينا أن نأخذ به ولا نتعداه إلى غيره .

قلت: إن كان أريد التعبد بأقوال التابعين و التسليم لأرائهم، فهذا لا وجه له، ولا مبرر لذلك، فإنهم - كما قال أبو حنيفة - رجال ونحن رجال.

لكن مقصود البحث غير ذلك، وإنما هو الاعتبار العقلاني، بالنظر إلى أسبقيتهم و قربيتهم إلى منابع الوحي و مهبط التنزيل، و أمس بجوانب الشريعة، و أقرب تناولاً إلى أعتاب أعلام الصحابة و الأئمة الهداة، كما نبهنا، فضلاً عن أنهم أعرف بمواضع اللغة و أساليب العرب الفصحى ممن نزل القرآن بلغتهم و على أساليب كلامهم المعروف.

فكانت آراؤهم و نظراتهم المستنبطة من أصول متينة، المستفادة من مناهل صافية و ضافية، من خير الوسائل السليمة لفهم معاني القرآن الكريم. فهي بالاستعانة بها و الاستنادة منها أقرب منها إلى التعبد و التقليد.

و قد عرفت أن جلّ التابعين من متخرجي مدارس الصحابة الأولين كعبد الله بن مسعود، وابن عباس، الذي كان هذا بدوره متخرجاً من مدرسة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام. فجملة علومهم و أصول معارفهم مستندة إلى منابع أصيلة منتهية إلى مصدر الوحي الأمين، الأمر الذي يجعل الفرق واضحاً بين من كان شأنهم هذا، و بين من كان مستقى علمه بعيد المنال، ينتهي إليه بوسائل كثيرة، و في جهد بليغ. كما هي حالتنا الحاضرة بالنسبة إلى حالة التابعين، و هم على مشارف منابع الأولى يستقون منها بالمباشرة، و عن تناول قريب.

و على أي حال، فإنّ اجتهاد من كانت منابع في متناوله القريب، أصوب وأسدّ و أبين طريقاً، ممن كان على مراحل من منابع الاجتهاد. و لا أقل من كون اجتهاد السابقين دلائل تُبهر الدرب لاجتهاد اللاحقين، الأمر الذي لا ينبغي إنكاره.

مميزات تفسير التابعي

يمتاز التفسير في عهد التابعين بمميزات، تفضلها عن تفاسير الصحابة من وجوه:

أولاً: التوسع فيه. فقد تعرض التابعون لمختلف أبعاد التفسير، وحاضوا معاني القرآن، من مختلف الجهات والمناحي. بينما كان تفسير الصحابة مقتصرًا على جوانب محدودة من اللغة، وشأن النزول، وبعض المفاهيم الشرعية؛ لرفع ما أُبهم على الناس من هذه الجهات فحسب. فقد خطا تفسير التابعي خطوات أوسع وفي جوانب أكثر.

و من ثم فإن التفسير في هذا العهد، يشمل جوانب الأدب واللغة في أبعاد مترامية، وهكذا التاريخ للأمم سائلة، وأمم معاصرة مجاورة لجزيرة العرب، تاريخ حياتهم وبلادهم، على ما وصلت إليهم من أخبارهم، وحتى بعض لغاتهم وثقافتهم، مما يمس جانب القرآن. وهكذا دخل في التفسير بحوث كلامية نشأت ذلك العهد، وارتبطت مع كثير من آي القرآن بعض الربط، كآيات الصفات والمبدأ والمعاد، وما شابه.

وقد أخذ هذا التوسع بازدياد مطرد، وفي أبعاد مستجدة كلما توسعت العلوم والمعارف، وازداد التعرف إلى آداب وثقافات كان يملكها أُمم يدخلون في دين الله أفواجاً، ومعهم علومهم ومعارفهم، يحملونها ويجعلونها في خدمة الإسلام والمسلمين، وكانت لم تزل تتسع مع اتساع رقعة الإسلام.

ولا يزال حجم التفسير يتضخم؛ حيث وفرة العلوم والمعارف المساعدة لحل قسط وافر من مشاكل غامضة مما تحتضنه كثير من آيات كونيّة أو لافئة إلى خبايا أسرار الوجود. وللعلم والفلسفة في جميع مناحيهما حظهما الأوفر في هذا المجال.

* * *

ثانياً: تشكّله وتبته، ثم تدوينه. كان التفسير على عهد الصحابة كحاله في عهد الرسالة، منتشرًا على أفواه الرجال، وابتوتاً بين أظهرهم، محفوظاً في الصدور، لتصر خطاه وقرب مداه. ومقتصرًا على بضع كلمات لبضع آيات، كانت خافية المفاد، أو مبهمة المراد حينذاك.

أما وكونه منتظماً رتيباً، ومبتأً ذا تشكيل وتدوين، فهذا قد حصل أو أخذ في الحصول على عهد التابعين واتباع التابعين. كان أحدهم يعرض القرآن من بدئه إلى الختم، على شيخه يقرؤه عليه، يقف لدى كل آية آية يسأله عنها ويستفهم معانيها، أو يستعلم منه مقاصدها ومراميها، ولا يجوزها حتى يدونها في سجل، أو يكتبها في دفتر أو لوح، كان يحمله معه. وهكذا أخذ التفسير، يتشكّل ويتدوّن ذلك العهد.

قال مجاهد: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث مرّات، أقف عند كل آية، أسأله فيم أنزلت، وكيف نزلت. قال ابن أبي مليكة: رأيت مجاهداً يسأل ابن عباس عن تفسير القرآن، ومعه ألواح. فيقول له ابن عباس: اكتب. حتى سأل عن التفسير كله. ومن ثم قيل: أعلمهم بالتفسير مجاهد.

وكان ابن عباس يجهّد في تربية عكرمة مولاه، فرباه فأحسن تربيته، وعلمه فأحسن تعليمه، حتى أصبح فقيهاً، وأعلم الناس بالتفسير ومعاني القرآن^١. ولتأداة كتاب في التفسير، وربما كان كبير الحجم ضخماً. فقد استخدمه الخطيب البغدادي، كما استخدمه الطبري في أكثر من ثلاثة آلاف موضع من تفسيره^٢. وهكذا الجاهل بن يزيد الجعفي، والحسن البصري، وأبان بن تغلب، وزيد بن أسلم^٣، وغيرهم كتب معروفة في التفسير وعلوم القرآن.

قال عادلويهض: أبان بن تغلب، مقرئ جليل، مفسر، نحوي، لغوي، محدث، من أهل الكوفة. وثقه أحمد وابن معين وأبو حاتم. خرّج له مسلم والأربعة. من آثاره معاني القرآن وغريب القرآن. ولعله أوّل من صنّف في هذا الموضوع. توفي سنة (١٤١ هـ)^٤. وسنذكر في فصل قادم، بدء التدوين في التفسير، الأمر الذي تحقّق منذ عهد التابعين.

١. وقد سبق ذلك في ترجمته.

٢. راجع ترجمته هنا.

٣. معجم مصنفات القرآن الكريم: ج ٤، ص ٦٣، رقم ٩٩٩.

٤. فهرست مصنفي الشيعة (رجال النجاشي): ج ١، ص ٣١٤، رقم ٣٣٠.

٥. معجم مصنفات القرآن الكريم: ج ٤، ص ٦١.

٦. حقائق المفسرين: ج ١، ص ٨.

٧. المصدر نفسه: ج ١، ص ١٧٦.

٨. معجم المفسرين: ج ١، ص ٨٧.

و ثالثاً: النظر و الاجتهاد. كانت هي ميزة كبرى حظي بها عهد التابعين، أن قام عديد من كبار العلماء ذاك العهد، فأعملوا النظر في كثير من مسائل الدين، ومنها مسائل قرآنية، كانت تعود إلى: معاني الصفات، و أسرار الخليقة، و أحوال الأنبياء و الرسل، و ما شاكل. فكانوا يعرضونها على شريعة العقل، و يحاكمونها وفق حكمه الرشيد، و ربّما يؤوّلونها إلى ما يتوافق مع الفطرة السليمة.

و أوّل مدرسة أخذت في الاجتهاد و إعمال النظر لاستنباط معاني القرآن، مدرسة مكة، التي أسّادها الصحابي الجليل تلميذ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الموفق، عبد الله بن عباس. و كان متخرجوا هذه المدرسة هم الذين أسسوا بيان الاجتهاد في التفسير، و على يدهم شاعت و دأعت طريقة الاجتهاد في مناحي الشريعة المقدسة، على الإطلاق.

ثم مدرسة الكوفة، تأسست على يد عبد الله بن مسعود، و تخرجت منها علماء أفذاذ، أصحاب نظر و اجتهاد. و أصبحت مدرسة الكوفة بعدئذ معهد الدراسات الإسلامية، يقصدها رواد العلم من جميع أطراف البلاد، حيث محطّ جلّ الصحابة، و لا سيّما بعد مهجر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام. فقد ارتحل إليها العلم برمته، و أخذت مجامع الكوفة تحتضن الكبار من علماء الإسلام يومئذ، و عليهم دارت رحى العلم و فاضت ينابيع المعارف إلى أرجاء البلاد.

و لم تدم مدرسة مكة طويلاً، و أخذت بالأفول بعد وفاة صاحبها و مؤسسها عام (٦٨هـ) و تفرّق متخرجيها و انتشروهم في أكناف الأرض. فقد ارتحلوا إلى خراسان و مصر و الشام و سائر الديار. غير أن مدرسة الكوفة أخذت تزدهر و تزداد صيتاً و نشاطاً مع تقادم الأيام.

و هاتان المدرستان هما الأساس لشر العلم و بثّ المعارف بين العباد، و إن كانت إحداهما أخذت في الاندثار، بينما الأخرى استمرت في الازدهار و التوسّع و الانتشار. و أكثر العلماء التابعين بل الغالبية الساحقة، هم المتخرجون من هاتين المدرستين. فكان لهما الفضل الكبير على الأمة، في تثقيفهم و التنشيط في السعي وراء العلم و المعرفة.

و يعود الفضل في ذلك إلى الصحابيَّين الجليلين: ابن عباس وابن مسعود، وعلى رأسهما الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

* * *

هذا مجاهد بن جبر، متخرج مدرسة ابن عباس، وقد أجمعت الأمة على إمامته والاحتجاج بكلامه.

رُمي بحريّة الرأي في التفسير، وإن شئت فقل: حظي بقوة الفهم وحدة النظر ووفور العقل والذكاء.

نعم، حيث كانت عقلية الجمود، هي الساطية على غوغاء الناس حينذاك، كان توجيهه هكذا تُهم إلى أمثال هؤلاء الأفاضل، يبدو طبيعياً في ظاهر الحال.

قيل له: أنت الذي تفسّر القرآن برأيك؟! فبكى، وقال: إني إذن لجريء. لقد حملت التفسير (أي أصول مبانيه وطرائق استنباط معانيه) عن بضعة عشر رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

نعم، كان مجاهد يحمل ذهنية متحررة عن قيود الأوهام، وعقلية واعية تمكنه من إدراك الحقائق ولمسها في واقع أمرها، دون الانحصار على الظاهر والافتقار بالقشور. إنه كان يعرض الآي القرآنية - لغرض فهم معانيها - على المتفاهم العام من الألفاظ والكلمات، ثم على مباني الشريعة وشواهد التاريخ ونحوها، ممّا كان متعارفاً لفهم المعاني لدى العرف العام. لكن من غير أن يقتنع بذلك، حتّى يعرضها على فهم العقل ووافق الفطرة، من غير أن يختفي عنه شيء من الشواهد ودقائق الكلام.

قال - في تفسير قوله تعالى: «فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ»^١: «لَمْ يَمَسَّخُوا قِرَدَةً، وَإِنَّمَا هُوَ مِثْلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ، كَمَا قَالَ: «كَمَثَلِ الْجِبَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً»^٢ قَالَ: إِنَّهُ مَسَّخَتْ قُلُوبُهُمْ، فَجَعَلَتْ

١. هكذا ذكر الذهبي. وعن سفيان: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به. وعن الأعمش: إذا نطق خرج من فيه القول. (راجع: ترجمته فيما قد مر).

٢. الجمعة (٣): ٥.

٣. البقرة (٣): ٦٥.

كقلوب القردة، لا تقبل وعظاً ولا تنقي زجراً^١.

و قد تكلمنا عن تفسيره هذا لهذه الآية، في ترجمته السالفة، وذكر أوجه ترجيعه وكلام السلف وعلماء المفسرين بشأنه.

و قال - في تفسير قوله تعالى: «وَمَا أَنْزَلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا آيَةً مِنْكَ»^٢ - قال: مَثَلُ ضَرْبٍ لَمْ يَنْزِلْ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّبْرِيُّ: قَالَ قَوْمٌ: لَمْ يَنْزِلْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مَائِدَةٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا هَذَا مَثَلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ تَعَالَى لَخَلْقِهِ نَهَايَهُمْ بِهِ عَنْ مَسْأَلَةِ نَبِيِّ اللَّهِ الْآيَاتِ. ثُمَّ أَسَدَ ذَلِكَ إِلَى مُجَاهِدٍ^٣.

و عند تفسير قوله تعالى: «وَجُودُهُ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاطِقَةٌ»^٤، قال: تنتظر التواب من ربها. قيل له: إِنَّ نَاساً يَقُولُونَ: إِنَّهُ تَعَالَى يُرَى، فيرون ربهم، فقال: لا يراه من خلقه شيء^٥.

قال الأستاذ المذهبي: إِنَّ مَثَلِ هَذَا التفسير عن مجاهد، أصبح متكاملاً قوياً للمعتزلة فيما بعد، فيما ذهبوا إليه من مذاهب عقلية.

قلت: ليس مجاهد وحده ممن فتح باب الاجتهاد والنظر في مفاهيم القرآن، بل كان يرافقه - ذلك العهد - كثير من أرباب العشائر الجليلة، ممن سَمَّاهُمْ اللَّهُ تَعَالَى «أُولِي الْأَلْبَابِ»، وهم وفرة في أصحاب النبي ﷺ والتابعين لهم بإحسان. وفي هذا التأليف تنويه بجُلَّةِ من أعلامهم.

كما أَنَّ المعتزلة ليسوا هم وحدهم - ممن تبعوا طريقة العقل الرشيد، ونبذوا الجمود في الرأي وراء الظهور. ففيما عدا السلفيين الحفافة الجفافة وأذناهم الأشاعرة العراة، خلق كثير و زرافات من الأمة المرحومة، واكبوا أهل الاعتزال أو سبقوهم في هذا المضمار،

١. راجع: مجمع البيان، ج ١، ص ١٣٩؛ تفسير الصيرفي، ج ١، ص ٣٦٣؛ تفسير مجاهد، ص ٨٦-٨٧.

٢. المائدة (٥): ١١٤. ٣. تفسير الصيرفي، ج ٧، ص ٨٧.

٤. البقرة (٧٥): ٢٣٢.

٥. تفسير الصيرفي، ج ٢٩، ص ١٣٠. وقد أسبقنا الحديث عن ذلك أيضاً في ترجمته.

ولا يزال.

* * *

و من الموصوفين بحرّيّة الرأي و الاجتهاد في التفسير، عكرمة مولى ابن عباس، الذي ربّاه فأحسن تربّيته و علّمه فأحسن تعليمه، حتّى أصبح من الفقهاء و أعلم الناس بالتفسير و معاني القرآن^١.

كان يرى مسح الأرجل في الوضوء مستفاداً من الكتاب، كما فهمه شيخه ابن عباس، و يرفض ما استظهره سائر الفقهاء و يخطّوهم في استظهار الخلاف^٢.

و هكذا في المسح على الخُفّين كان ينكره أشدّ الإنكار. كان يقول: «سبق الكتاب المسح على الخُفّين»^٣، يعني: أنّ الكتاب جاء بالمسح على الأرجل. أمّا المسح على الخُفّين فأمر حادث، لا يجوز ترك القرآن بذلك.

أمّا القوم فكانوا يرون المسح على الخُفّين ناسخاً للمسح على الأرجل. ذكر الجعفيّ أنّ أبا يوسف كان يرى أنّ سنّة المسح على الخُفّين نسخت آية المسح على الأرجل^٤.

* * *

و زيد بن أسلم مولى عمر، الثّقيه المشهور، برع حتّى أصبح من كبار التابعين المرموقين. كانت له حلقة في مسجد المدينة يحضرها جلّ الفقهاء و ربّما بلغوا أربعين فتيهاً. له تفسير يرويه عنه ولده عبد الرحمان. قال ابن حجر: أخذ العلم من جماعة، منهم عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام، و عنده أبو جعفر الطوسي من أصحاب الإمام السجّاد. قال: كان يجالسهم كثيراً. له رواية عن الإمامين الباقر و الصادق عليهما السلام.

و قد أخذ عليه حرّيّته في الرأي و الاجتهاد، على خلاف مذهب الاحتياط و الوقوف لدى المأثور. قال حمّاد: قدمت المدينة و هم يتكلّمون في زيد بن أسلم. فقال لي عبيد الله

١. وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٣٦٥، رقم ٤٢٦.

٢. راجع: تفسير العبري: ج ٦، ص ٨٣-٨٢ مجمع البيان، ج ٣، ص ١٦٥.

٣. فيزيب التهذيب: ج ٧، ص ٢٦٨. ٤. أحكام القرآن، ج ٢، ص ٣٤٨.

ابن عمر: ما نعلم به بأساً إلا أنه يفسر القرآن برأيه. والمعروف عن أهل المدينة أنهم أصحاب وقف واحتياط.^١

* * *

هذا، وقد راج التفسير العقلي فيما بعد، ولا سيما عند المعتزلة ومن حذا حذوهم في تقديم العقل على ظاهر النقل.

* * *

هذا أبو مسلم محمد بن بحر الأصفهاني (٢٥٤-٣٢٢هـ) قد وضع تفسيره على أساس من التفكير الصحيح، وفق ما يرتضيه الدين الإسلامي الحنيف، من نبذ التقليد والتمسك بعري التحقيق «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا»^٢، «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَتَعْلَهُمْ يَفْكَرُونَ...»^٣.

هو عند ما ينشر قوله تعالى: «قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَنْ لَا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالنَّعِيِّ وَالْإِبْكَارِ»^٤ بأن زكريا لما طلب من الله تعالى آية تدلّه على حصول العلق (العقاد النخلة في رحم زوجته) قال: آيتك أن لا تكلم، أي تفسير مأموراً بأن لا تكلم ثلاثة أيام بلياليها مع الخلق (أي إذا جاءك الأمر بذلك، فاعلم أن الحمل يبيحى قد تحقق عند ذلك) أي تكون مشغولاً بالذكر والتسبيح والتلهيل، معرضاً عن الخلق والدنيا، شاكرًا لله تعالى على إعطاء مثل هذه الموهبة. فإن كانت لك حاجة، دلّ عليها بالرمز. فإذا أمرت بهذه الطاعة فاعلم أنه قد حصل المطلوب.

يقول الإمام الرازي بشأنه - وهو أشعري يخالفه في المذهب -: «و هذا القول عندي حسن معقول، وأبو مسلم حسن الكلام في التفسير، كثير الغوص على الدقائق والمطائف»^٥. هذه شهادة راقية من أكبر علم من أعلام التحقيق في الفلسفة والكلام، بشأن ألمع

١. حذات المفسرين، ج ٤، ص ٨٧٦ ميزان الاعتدال، ج ٢، ص ٨٨٠ راجع: ترجمته هذا.

٢. محمد (٤٧): ٣٤. ٣. النحل (١٦): ٤٤.

٤. ال عمران (٣): ٤١. ٥. التفسير الكبير، ج ٨، ص ٤١-٤٢.

شخصية بارزة، مارس عقله وشاور بابه عند تفهيم القرآن، ممن نبذ التقليد وأخذ في التدقيق.

و أنت إذا قارنت هذا التفسير لهذا الموضع بالذات، مع سائر التفاسير التي عرضها القوم، تجد الفرق بائناً واليون شاسعاً.

ذكر أبو جعفر الطبري: أن عدم التكلم هناك عن عجز، سلبه الله القدرة على الكلام، فيما سوى التسييح والتحميد؛ وذلك تمحيصاً له من هفوته وخطأ قبله في سؤاله الآية. قيل: إنه لما سمع نداء الملائكة يبشرونه بيبحى، جاءه الشيطان من فوره وقال له: يا زكريا، إن الصوت الذي سمعت ليس من عند الله، إنما هو الشيطان يسخر بك. قالوا: فشاك زكريا في مكانه، وقال: «أني يكون لي غلام». ومن ثم طلب من الله أن يجعل له آية، يرتفع بها شكه، فعاتبه الله على مسألته تلك، وأنه لا ينبغي لنبي أن يشك.

قال الطبري - فيما رواه -: إنما عوقب بذلك، لأن الملائكة مشافهة بذلك، فبشروته بيبحى، فلما سأل الآية بعد كلام الملائكة مشافهة، أخذ الله عليه بلسانه، فكان لا يقدر على الكلام إلا إيماءً^١.

وقال القرطبي: لما بشر بالولد ولم يبلغه عنده هذا في قدرة الله، طلب آية يعرف بها صحة هذا الأمر، وكونه من عند الله، فعاقبه الله بأن أصابه السكوت عن كلام الناس، لسؤاله الآية بعد مشافهة الملائكة إياه^٢. وهكذا أكثر المفسرين من أصحاب النقل في التفسير كابن كثير وأضرابه^٣.

غير أن أرباب التحقيق رفضوا تلك النقول المنافية لأصول العقيدة الإسلامية، ولا سيما فيما يمس جانب عصمة الأنبياء وحياتهم عن إمكان غلبة الشيطان على مشاعرهم.

قال الشيخ محمد عبده: ومن سخافات بعض المفسرين، والتي لا تليق بمقام

١. آل عمران (٣): ٤٠.
٢. تفسير الصبري: ج ٣، ص ١٧٧.
٣. الجامع لأحكام القرآن، ج ٤، ص ٨٠.
٤. راجع: تفسير ابن كثير، ج ١، ص ٣٦٣.

الأنبياء ﷺ زعمهم أن ذكرنا ﷺ اشتبه عليه وحي الملائكة ونداؤهم، بوحي الشياطين؛ ولذلك سأل سؤال التعجب، ثم طلب آية للتثبت. روى ابن جرير فيما روى: أن الشيطان هو الذي شككه في نداء الملائكة، وقال له: إنه من الشيطان.

قال: ولولا الجنون بالروايات مهما هزلت وسمعت، لما كان لمؤمن أن يكتب مثل هذا الهزل والسخف الذي يبذه العقل، وليس في الكتاب ما يشير إليه، ولو لم يكن لمن يروي مثل هذا إلا هذا، لكفى في جرحه، وأن يضرب بروايته على وجهه. فعفا الله عن ابن جرير؛ إذ جعل هذه الرواية مما يُسَرَّ.

ثم فسّر الآية وفق ما فسرها أبو مسلم: «قال رب اجعل لي آية»، أي علامة تتقدم هذه العناية وتؤذن بها «قال آيتك أن لا تكلم الناس...»، أي ترك ذلك مختاراً لتفرغ لعبادة الله^٢.



وهكذا في قصة إبراهيم الخليل و الطيور الأربعة: «قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءً ثم ادعهن يأتينك سعياً»^٣. قال الرازي: أجمع أهل التفسير على أن المراد قطعهن، غير أبي مسلم فإنه أنكر ذلك، وقال: إن إبراهيم ﷺ لما طلب إحياء الميت من الله تعالى أراه الله متالاً قَرَبَ إليه الأمر، والمراد بـ «فصرهن إليك»: الإمالة والتمرين على الإجابة، أي فعود الطيور الأربعة أن تعبير بحيث إذا دعوتها أجابتك وأنتك، فإذا صارت كذلك فاجعل على كل جبل واحداً حال حياته ثم ادعهن يأتينك سعياً. والغرض منه ذكر مثال محسوس في عود الأرواح إلى الأجساد على سبيل السهولة. وأنكر القول بأن المراد منه: فقطعهن.

١. أي الشك في جميع الأخبار مهما كان نوعها.

٢. المنار، ج ٣، ص ٢٩٨-٢٩٩. ولابد أن العلامة العياشي هنا كلام غريب رجح رأي سائر المفسرين وجوز اشتباه الأمر على الأنبياء لولا عذابه تعالى برفعه عنهم هو عجيب منه (راجع: المنار، ج ٣، ص ٢٩٨).

٣. البقرة (٢): ٢٦٠.

قال: واحتج على مذهبه بوجوه:

الأول: أن المشهور في اللغة في قوله: «فَصْرَهُنَّ»: أَيْلَهُنَّ. أمّا التقطيع والذبح فليس في الآية ما يدل عليه. فكان إدراجه في الآية إلحاقاً لزيادة بالآية لم يدل الدليل عليها، وأنه لا يجوز.

الثاني: أنه لو كان المراد بـ «صْرَهُنَّ»: قَطْعُهُنَّ، لم يقل: «إِيْلَهُنَّ»، فإن ذلك لا يتعدى إلى، وإنما يتعدى بهذا الحرف إذا كان بمعنى الإمالة. فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: فخذ إليك أربعة من الطير فصرهن؟ قلنا: التزام التقديم والتأخير من غير دليل ملجئ إلى التزامه خلاف الظاهر.

و أيضاً الضمير في «يَأْتِيَنَّكَ» عائد إليها لا إلى أجزائها، وعلى قولكم: إذا سعى بعض الأجزاء إلى بعض كان الضمير في «يَأْتِيَنَّكَ» عائد إلى أجزائها لا إلى الطيور أنفسها.

ثم إن الإمام الرازي يذكر حجج المشهور راداً على أبي مسلم، وقد نقلها صاحب تفسير المنار وحققتها، ويؤيد مذهب أبي مسلم في تفسير الآية في شرح و تفصيل، ثم قال: و جملة القول: أن تفسير أبي مسلم لهذه الآية هو المتبادر الذي يدل عليه النظم، وهو الذي يجعل الحقيقة في المسألة، وأحد في تقريب ذلك. وأخيراً قال: والله درّ أبي مسلم، ما أدق فهمه وأشد استقلاله فيه.

وهذه أيضاً شهادة بشأن أبي مسلم، من أكبر علماء التفسير في العصر الأخير.

* * *

هذا، ولأمثال أبي مسلم مواقف مشرفة تجاه سائر المفسرين الظاهريين، كانت نوافذ قلوب أمثاله مفتوحة، يسرون في ضوء العقل وعلى مناهج التنكير المتين.^١
و هذا إن دل فإنما يدل على مدى قوة الاجتهاد ودوره المجيد في تفسير القرآن الكريم، والذي فتح بابه بمصرعين، نبهاء السلف الصالح أيام الصحابة والتابعين،

١. التفسير الكبير، ج ٥، ص ٤١-٤٢. ٢. راجع: المنار، ج ٣، ص ٥٦-٥٨.

٣. وسنعرض نماذج من فاسيهم التي جاء فسجها على نفس المنوال: في فصول قادمة إن شاء الله.

و استمرت طريقتهم الحميدة، سنة حسنة متبعة حتى اليوم.

* * *

قال الرازي في تفسير قوله تعالى: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً فَمَرَّتَ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ وَرَبَّهُمَا لَنِ أَنْ آتِينَا صَالِحاً لَنُكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلْنَا لَهُ شُرَكَاءَ فَمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ»^١.
قال - بعد إيراد إشكال و اعتراضات على ظاهر الآية -: إذا عرفت هذا فنقول: في تأويل الآية وجوه صحيحة سليمة خالية عن هذه المفاسد:

الأول: فما ذكره الفقهاء^٢، أنه تعالى ذكر هذه القصة على تمثيل ضرب المنزل، وبيان أن هذه الحالة هي صورة حالة هؤلاء المشركين في جهلهم وقولهم بالشرك.

قال: وتقرير هذا الكلام، كأنه تعالى يقول: هو الذي خلق كل واحد منكم من نفس واحدة، وجعل من جنسها زوجها إنساناً يسلمونه في الإنسانية. فلما تغشى الزوج زوجته وظهر الحمل، دعا الزوج والزوجة ربهما لئن آتيتنا ولداً صالحاً سوياً لنعرفن من الشاكرين. فلما آتاهما الله ولداً صالحاً سوياً، جعل الزوج والزوجة لله شركاء فيما آتاهما، لأنهما تارة ينسبون ذلك الولد إلى الصانع، كما هو قول الطبائعين، وتارة إلى الكواكب كما هو دأب المنجمين، وتارة إلى الأصنام والأوتان كما هو قول عبدة الأصنام. ثم قال الرازي: وهذا جواب في غاية الصحة والساد، ثم ذكر بقية الوجوه، فراجع^٣.

* * *

وقد حمل العلامة جارا لله الرمخشري آية عرض الأمانة على السماوات والأرض (الأحزاب: ٧٢) على ضرب من التمثيل، ثم قال: ونحو هذا من الكلام كثير في لسان العرب، وما جاء القرآن إلا على طرقهم وأساليبهم؛ من ذلك قولهم: لو قيل للمشهم: أين تذهب؟ لقال: أسوي العوج. وكم لهم من أمثال على السنة البهائم والجمادات^٤.

٢. توفي سنة (٣٦٥ هـ).

١. الأعراف (٧): ١٨٩، ١٩٠.

٣. الكشاف، ج ٣، ص ٥٦٥.

٤. التفسير الكبير، ج ٥، ص ٨٦، ٨٧.

* * *

و يروي ابن كثير - في تفسير قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُنُوفٌ حَدَرُ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ...»^١ بإسناده إلى ابن جريج عن عطاء - قال: هذا مثل، يعني: أنها ضرب مثل لا قصة وقعت^٢.

* * *

رابعاً: رواج الإسرائيليات في هذا العهد. ففي هذا الدور دخل كثير من الإسرائيليات في التفسير؛ وذلك لكثرة من دخل من أهل الكتاب، في الإسلام في هذا العهد بالذات، وكان لا يزال عالفاً بأذهانهم من الأقاصيص وأساطير أسلافهم، ما يعود إلى بدء الخليقة وأسرار الوجود وبدء الكائنات وأخبار الأمم الخالية وأحاديث الأنبياء، وكثير من القصص الأسطورية التي جاءت في التوراة، وسائر الكتب السالفة.

و كانت النفوس ميالة لسماع تفاصيل ما جاء إجمالها في القرآن الكريم، ولا سيما فيما يعود إلى أحداث يهودية أو نصرانية، مما جاء في العهدين. فكان المسلمون يستمعون إلى أقاصيص هؤلاء، ويصفون بمسامعهم إلى تلك الأساطير.

و قد تساهل التابعون - رغم ما هي عليه من كراهة^٣ وأصحابه الكرام - فرجوا في التفسير بكثير من هذه الإسرائيليات، بدون تحريٍّ وتمحيص. وأكثر من روى عنه ذلك من مسلمي أهل الكتاب: عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه، وعبد الملك بن جريج، وأضرابهم. الأمر الذي يؤخذ على التابعين مساهلتهم هذه، كما هو مأخوذ على من جاء بعدهم، وسار على نفس المنوال من غير روية وتحقيق^٤.

و سوف نستعرض هذه الناحية عرضاً موسعاً، عند الكلام عن أسباب الوهن في التفسير بالمأثور، وأن الروايات التفسيرية غير نقيّة، هي بحاجة إلى تنقيح.

١. البقرة (٢): ٢٤٣.

٢. تفسير ابن كثير، ج ١، ص ٢٩٨.

٣. راجع: فجر الإسلام، ص ٢٠٥، التفسير والمفسرون، ج ١، ص ٨٣٠.

منابع التفسير في عهد التابعين

كان التلقي في التفسير هو العنصر الأولي، والأداة المفضلة لنهم كتاب الله تعالى، ذلك العهد؛ إذ كان التابعون يسرون في أثر الصحابة وكانوا تربيتهم بالذات، فانتهجوا منهجهم بطبيعة الحال. غير أنهم أخذوا بالتوسّع والتفتّح إلى آفاق واسعة الأرجاء، حسب توسّع رفعة الإسلام ودخول الأقوام في دين الله أفواجاً، ومعهم علومهم وآدابهم وثقافتهم، كما نهّنا. فازداد التبصّر والتفتّح إلى آفاق أوسع، والتطلّع إلى أرجاء أبعد.

ولا شك أنه كلما ازداد علم الرجل وتوسّعت ثقافته وتراامت معارفه، فإنه يزداد تبصّره ويتوسّع تفكيره وتفهمه للأمور، مهما كان نمطها، وأياً كان نسجها.

و بعد، فيمكننا تنويع المصادر التي كان التابعون يعتمدونها لنهم معاني كلام الله تعالى وتبيين مقاصده ومراميّه، إلى الأمور التالية:

أولاً: مراجعة الكتاب نفسه؛ حيث القرّان والدلائل في كلام أيّ متكلم، خير شهود على كشف مراده والوقوف على مراده. وهكذا القرآن «ينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه على بعض» و«أن الكتاب يصدّق بعضه بعضاً». كما قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

ثانياً: ملاحظة ما تلقّوه من أقوال الصحابة وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشأن تبيين معاني الكتاب. حيث الأسئلة حول لفيف من معاني القرآن كانت كثيرة على عهده صلى الله عليه وآله وسلم وكان عليه البيان، كما كان عليه البلاغ. ومن تلك الأسئلة وأجوبتها كانت وفرة وفيرة مدخّرة على أيدي الصحابة يؤدّونها إلى الذين اتبعوهم بإحسان.

وقد تقدّم حديث مسروق بن الأجدع، ووصفه لعلوم الأصحاب المتلقاة من النبي الكريم.

ثالثاً: مراعاة أسباب النزول والمناسبات المستدعية لنزول آية أو آيات أو سورة ونحوها؛ حيث كانت في متناولهم القريب، وهم الذين نقلوها إلينا فيما نقلوه من الآثار

و الأخبار.

و حيث كانت الآيات النازلة بشأنها، نافذة إلى جوانب و خصوصيات تحتضنها تلك الحوادث و المناسبات، فإنها بدورها تصبح خير دلائل على رفع كثير من الإيهام الوارد في الفاظ تلك الآيات بالذات. و كان أصحاب ذلك العهد (عهد التابعين) إما حضروا تلك المشاهد بأنفسهم، أو بإمكانهم الملاقاة مع شهود القضايا، و الأخذ منهم مشافهة.

وهذا من أكبر المصادر لرفع الإيهام عن وجه كثير من الآيات، و كان في متناولهم القريب. رابعاً: مراجعة اللغة في صميمها، و لا سيما أشعار العرب و هي ديوانها و دائرة معارفها، للموقوف على مزايا اللغة و أساليب كلام العرب. و القرآن نزل على نملها و على نفس نسجها في التعبير و البيان، و إن كان في أسلوب رقى و على نسج أقوى.

و كان ابن عباس يوصي أصحابه بل يحضتهم على مراجعة أشعار العرب للتعرف إلى غريب القرآن. و لقد عُدَّ زعيم هذه الناحية من التفسير بالخصوص، حتى لقد قيل بشأنه: إنه هو الذي أبدع الطريقة اللغوية لتفسير القرآن.

كان يقول: الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا حرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها، فالتمسنا ذلك منه. و أيضاً قوله: إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب.

خامساً: أنحاء العلوم و المعارف التي تعرف إليها المسلمون، بفضل التوسّع في رقعة الإسلام. و ازدحام وفود الآداب و الثقافات المستوردة عليهم، يحملها أمم ذووا حضارات عريقة، كانوا يدخلون في دين الله أفواجا.

و قد أسلفنا أن التوسّع في الاطلاع على العلوم و المعارف، مهما كان نمطها، فإنه يزيد

١. المذاهب الإسلامية لتفسير القرآن، ص ٦٩ (التفسير و المفسرون، ج ١، ص ٧٥). وفي مذاهب التفسير الإسلامي، ص ٩٠، وهو الذي متى الطريقة اللغوية في تفسير القرآن.

٢. الإفتاح، ج ٣، ص ٥٥.

في قوة الفهم وإمكان لمس حقائق الأمور، و يرتفع مستوى قدرة الاستنباط بدرجات، لا يبلغها من أعوزة النيل منها بنسبة إغوازه.

وهكذا استناد التابعون - و من بعدهم - بالعلوم والمعارف المستجدة، والمستزادة مع تقادم الأيام، استفادوا بها في فهم معاني كلام الله تعالى، وقد «أُنزِلَ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

سادساً: اعتمادهم على ما فتح الله عليهم من طريق الاجتهاد والنظر في كتاب الله تعالى، وقد روت لنا كتب التفسير كثيراً من أقوال هؤلاء التابعين في التفسير، قالوها بطريق الرأي والنظر والاجتهاد، مما لم يصل إلى علمهم شيء فيها عن رسول الله ﷺ أو عن أحد الصحابة. فكانوا يعملون النظر فيها، بإمعان النظر في دلائل وقرائن كانت تساعد على فهم الآية، مما مرّت الإشارة إلى بعضها، وغير ذلك من أدوات الفهم ووسائل البحث والتنقيب.

الأمر الذي ساعد على فتح باب الاجتهاد بشأن التفسير، وفي سائر شؤون الشريعة، واستمرت الطريقة المرضية عبر التاريخ، وقد نوّنها عنها.

سابعاً: استنادهم إلى نصوص من كتب المتقدمين، مما جاء إجماله في القرآن، وتعرضت لتفاصيلها كتب السالفين، مما لم يحتمل فيه التحريف. كجوانب من تاريخ أنبياء بني إسرائيل وسيرة ملوكهم وما شابه من قصصهم وأخبارهم.

و ذلك ككثير من قصص إبراهيم الخليل ولوط ويوسف، ففي التوراة ما في القرآن من تفاصيل أخبارهم، سوى أن القرآن جاء بالصحيح المعقول منها، مختزلاً، بينما في التوراة صور معرّفة ومرفوضة لدى العقل السليم، سوى بعض لقطات وخطفات جاءت سليمة، يمكن الاستفادة منها أحياناً. الأمر الذي كان نبهاء الصحابة والتابعين يعنون به بالذات،

١. الفرقان (٣٥): ٦.

٢. وهذا نظير ما وقف عليه المولى أبو الكلام آزاد بشأن «ذوي القرنين» من الدلائل في التوراة أنه كوروش الملك الفارسي الذي قام بإعادة بناء البيت وتحريم ذبائح أسرافيل، الذين كان قد اضحيدهم الطاغية بخت نصر ملك بابل يومذاك.

دون الاستناد المطلق من غير تحرر أو تحقيق «فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَنْبَابِ»^١.

* * *

أمّا الأخذ من أهل الكتاب، والانصياع لهم في كل ما يسطّرون، فهذا كان ممّا يتحاشاه الصحابة والتابعون، نعم، سوى شرادم من غوغاء العوام، أو أهل الدغل من الساسة الحاكمة على البلاد، على ما نسرد قعشتهم في فصله القادم إن شاء الله. فالذي ذكر الذهبي، من اعتماد التابعين، في فهم معاني كتاب الله تعالى، على ما أخذوه من أهل الكتاب ممّا جاء في كتبهم^٢، فإنه - على إطلاقه - مرفوض. وقد فُتدنا مزاعم الرجوع إلى أهل الكتاب، فيما حسبه بشأن الصحابي الجليل عبد الله بن عباس.

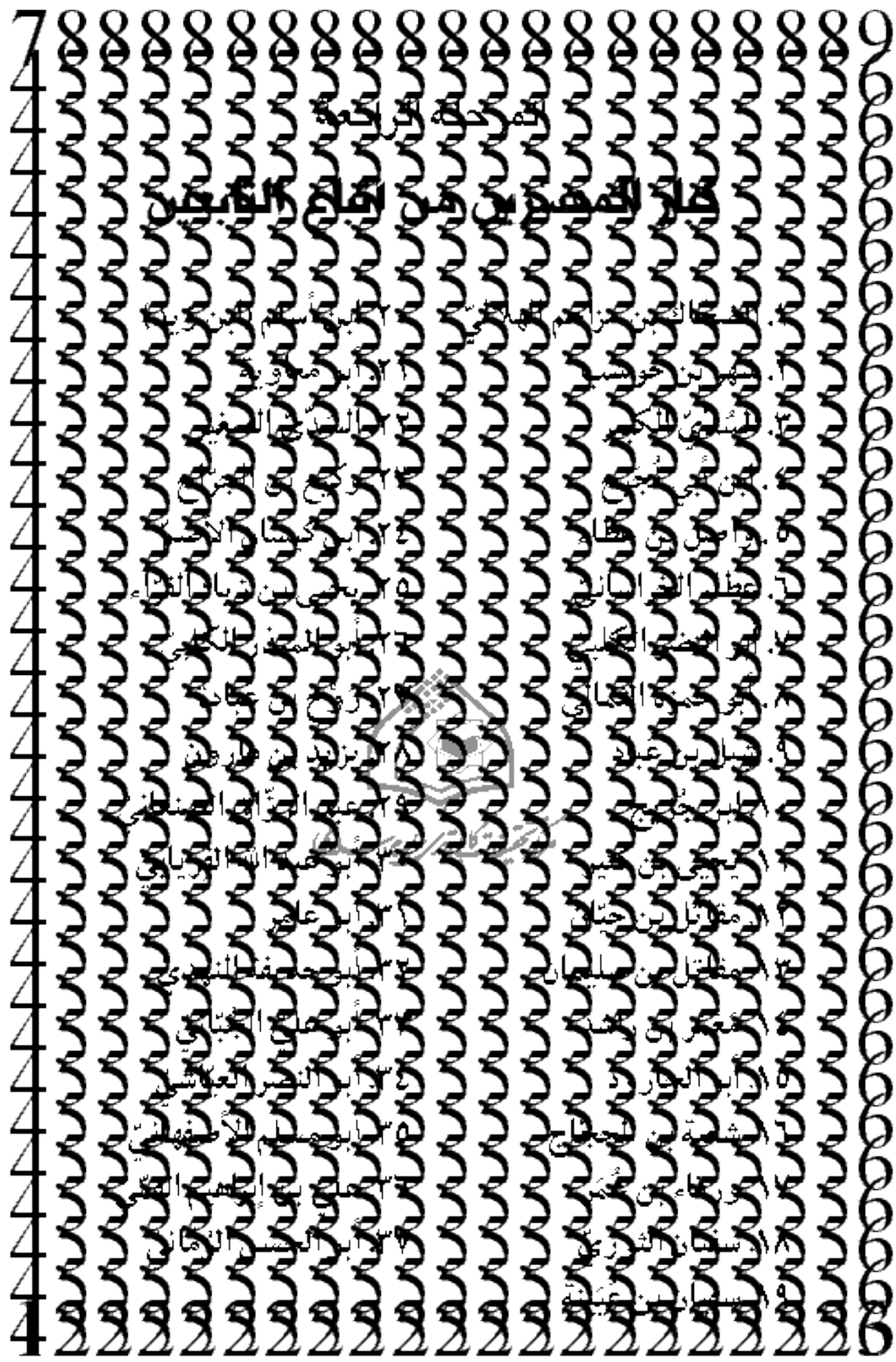


٢. التفسير والمفسرون: ج ٨، ص ٩٩.

١. الزمر (٣٩): ١٧ و ١٨.



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی





مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

كبار المفسرين من أتباع التابعين

و يلي عهد التابعين رجالٌ كبار تزعموا رُكَّب الثقافة الإسلامية، وقادوها أحسن قيادة، بما جعلت تزدهر وتُتسع سعة الآفاق، وتطرّد مع أطراد الزمان. وتلك تفاسير جمّة ذوات اعتبار، أصبحت تراثنا الإسلامي العريق، خلّفتها ذلك العهد (عهد أتباع التابعين) لتكون قدوة مشرقة في سماء التفسير عبر الأيام.

فتلك تفاسيرهم القيّمة - سواء من النمط التقليدي الأثري أم النظري الاجتهادي -، أصبحت أهمّ مصادر التفسير فيما بعد، وكان منها مستفاهم الرحيق، كالطبري والطوسي والرازي والطبرسي وابن كثير وأضرابهم، من جهابذة المفسرين الأعلام.

و إليك ألّمع رجال هذا الدور من أتباع التابعين:

١. الضحّاك بن مزاحم الهلالي

هو أبو القاسم الخراساني (١٠٥ هـ) مفسّر فحل، أخذ العلم من كبار التابعين كسعيد ابن جبير، لقيه بالزيّ فأخذ عنه التفسير. ذكره ابن حبان في النقّات، وقال: لقي جماعة من التابعين له آراء ونظرات قيّمة في التفسير، بما يجعله على قمّة من العلم بمعاني القرآن. روى ابن كثير بإسناده إليه بشأن «الثرائب» أنّها العظام بين

الرجلين^١، وبذلك انحلت مشكلة عويصة حار فيها المفسرون^٢.
له تفسيران صغير وكبير، كانا مراجع سائر التفاسير، ومنهما أخذ الطبرسي وغيرهما من أعلام المفسرين.

عده الشيخ أبو جعفر الطوسي من أصحاب الإمام زين العابدين عليه السلام. وقد روى عنه القمي (علي بن إبراهيم) في تفسيره الأثري^٣ الذي التزم فيه أن لا يروي إلا عن ثقة الأمر الذي يدل على وثاقة الرجل عند أصحابنا الإمامية. واستظهر المامقاني كونه إمامياً، ولعله من جهة تربيته في أحضان مهد التشيع، كوفة العلم والولاء. وقد تقدمت ترجمته عند الكلام عن سادس الطرق إلى ابن عباس.

٢. شهر بن حوشب

هو أبو سعيد الأشعري (١١١ هـ). روى عن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم وبلال المؤذن وأبي عبيد مولى النبي صلى الله عليه وسلم وسلمان وأبي ذر وجابر وأبي أمامة وأبي سعيد الخدري وغيرهم، من كبار الأصحاب والتابعين. وروى عنه كثير من أقرانه.
وثقه أحمد واستحسن حديثه وكان يثني عليه. وذكر الترمذي عن البخاري قال: شهر، حسن الحديث وقوي أمره. وعن ابن معين: إنه ثبت. وقال العجلي: تابعي ثقة، يروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث في القراءات، لم يأت بها غيره. وقال أيوب بن أبي الحسين الندي: ما رأيت أحداً أقرأ لكتاب الله منه.

قال أبو جعفر الطبري: كان فقيهاً قارئاً عالماً. وقال أبو بكر البرقاني: لا نعلم أحداً ترك حديثه غير شعبة، لشبهة عرضت له. وقد روى له البخاري ومسلم والباقون.^٤
و عده الشيخ في أصحاب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بعنوان: شهر بن عبد الله بن

١. تفسير ابن كثير، ج ٥، ص ٤٩٨.

٢. راجع: التمهيد، ج ٦، ص ٦٥.

٣. راجع: تفسيره لسورة الناس.

٤. تهذيب التهذيب، ج ٤، ص ٣٦٩-٣٧٢؛ تهذيب الكمال للمزي، ج ٨، ص ٤١٣.

حوشب^١، وبما أنه يروي عن بلال^٢ (و بلال توفي بالشام في طاعون عمواس سنة ١٨ هـ) فلا بد أنه عند استشهاد الإمام أمير المؤمنين قد تجاوز الثلاثين.

وهو الذي روى إيداع الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كتيبه والوصية عند أم سلمة، حين أراد المسير إلى الكوفة، فلما رجع الإمام الحسن عليه السلام دفعها إليه. رواه الكليني (في كتاب الحجّة في باب الإشارة والنص على الحسن بن علي) بإسناده إلى أبي بكر الحضرمي عن الأجلح وسلمة بن كهيل وداود بن أبي يزيد وزيد اليمامي، قالوا: حدثنا شهر بن حوشب...^٣

و روى علي بن إبراهيم في تفسيره للآية: «وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا يُؤْمِنُ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ»^٤ بالإسناد إلى أبي حمزة الثمالي عن شهر بن حوشب، قال: قال لي الحجاج: إن آية في كتاب الله قد أعيتني! قلت: آية آية هي؟ فقرأ الآية، وقال: والله لأني أمر باليهودي والنصراني فيضرب عنقه، ثم أرمقه بعيني، فما أراه يحرك شفتيه حتى يحمّد. فقلت: أصلح الله الأمير، ليس على ما تأولت! قال: كيف هو؟ قلت: إن المسيح ينزل قبل قيام الساعة، فلا يبقى أهل ملّة إلا آمن به قبل موته، وبصلي عليه المهدي (من آل محمد). قال: ويحك، أني لك هذا؟ ومن أين جئت به؟ فقلت: حدثني به محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: جئت بها والله من عين صافية^٥.

و رواه عنه الطبرسي في تفسيره، وزاد في آخره: قيل: لشهر: ما أردت بذلك؟ قال: أردت أن أغيظه^٦. وهي مجاهرة بالحق في وجه الطاغوت، الأمر الذي يحمّد عليه أهل الحق والولاء.

هذه الحجّاج في رمضان أو شوال عام (٩٥ هـ)، وكان بدء إمامة الباقر عليه السلام منذ شهر صفر أو أخريات محرم نفس العام. فكان الحجّاج قد أدرك أيام إمامة الباقر ثمانية أشهر،

١. تهذيب الكمال، ج ٤، ص ٤١٣.

٢. النساء (٤): ٥٩.

٣. مجمع البيان، ج ٣، ص ١٣٧.

٤. رجال الطبرسي، ص ٤٥.

٥. الكافي، ج ١، ص ٢٩٨، رقم ٣.

٦. تفسير النعماني، ج ١، ص ١٥٨.

فلا بد أن القضية وقعت خلالها، فلا وقع لما ذكره البعض: إنه لم يدرك الباقر عليه السلام و روى الكليني أيضاً عن علي بن إبراهيم، بإسناده إلى أبي حمزة الثمالي، عن شهر بن حوشب، فيما سألته الحجّاج عن مشاهد النبي صلى الله عليه وآله فقال: شهد رسول الله بدر في ثلاثمائة و ثلاثة عشر، وشهد أحد في ستمائة، وشهد الخندق في تسعمائة. فقال له الحجّاج: عمّن؟ قال: عن جعفر بن محمد. فقال الحجّاج: ضلّ والله من سلك غير سبيله.^١

قال العلامة المجلسي: ولعلّ هنا تصحيفاً من الرواة، فوهم الوالد بالولد. والصحيح هو الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام.^٢ الإمام الذي كان يحترمه ويعظم من شأنه الخليفة عبد الملك، فكيف يعامله الحجّاج!

و لعلّ ولأيه هذا لآل البيت جعله موضع غمّز البعض، يقول عنه ابن حجر: صدوق، كثير الإرسال والأوهام، وقد عرفت توثيق الأكابر له.

يروى عنه التفسير بالأسانيد: الطبري والطبرسي والقمي وغيرهم. وهذا الأخير يروي عنه عن طريق أبي حمزة، عن الإمام الباقر عليه السلام.

وقد عدّ المفسرون رواياته في التفسير في عداد روايات أتباع التابعين، كما في الضحاك وأمثاله.

٣. السدي الكبير

هو إسماعيل بن عبد الرحمان بن أبي كريمة السدي، أبو محمد القرشي مولاهم الكوفي (١٢٨ هـ)، وهو السدي الكبير، كان يقعد في سدة باب الجامع بالكوفة. من كبار أتباع التابعين، والمرجع الأوفر للتفسير النقلي (الأثري) المزدحم في تفسير الطبري و الدر المنثور وغيرهما، من أئمة التفسير بالمأثور.

وثقه الأئمة، وروى له أصحاب الصحاح من غير ترديد، ولم يغمزوا فيه سوى إفراطه

١. قاموس الرجال، ج ٥، ص ٩٣؛ ج ٥، ص ٤٤٣ (الطبعة الحديثة).

٢. الكافي، ج ٥، ص ٤٤-٤٦. ٣. راجع: مرآة العقول، ج ٨، ص ٣٨٣.

٤. تقريب التهذيب، ج ١، ص ٣٥٥.

في الشَّيخ، على ما سبقنا الكلام فيه، في الرابع من الطرق إلى ابن عباس.
له تفسير حافل، وصفه جلال الدين السيوطي بأنه من أحسن التفاسير. قال:
وهذا التفسير يورد منه ابن جرير كثيراً، وكذا الحاكم في مستدركه يخرج منه أشياء
ويصححها.

قال الخليلي: هذا التفسير يورده السديّ بأسانيد إلى ابن مسعود وابن عباس.
وهذا التفسير قد جمع سوارده الدكتور محمد عطا يوسف، وطبعه في مصر.
عده الشيخ من أصحاب الأئمة: السجاد والباقر والصادق (عليه السلام)، وقد وصفه بالمفسر
الكوفي، ممّا جعل الوحيد البهبهانيّ يعبّده مدحاً لائحاً بشأنه، وإجلالاً لمقامه، وقد
اعتمده الشيخ في التفسير. وله حديث طريف بشأن الأخنس بن زيد، وكان قد وطأ جسم
الحسين (عليه السلام) أسلفنا ذكره.

٤. ابن أبي نجيع

هو أبو يسار عبد الله بن أبي نجيع يسار الشافعي الكوفي (١٣١ هـ). له تفسير يرويه عن
مجاهد، واعتمده أهل الحديث والتفسير، وثقه أحمد، وعده الذهبي من المشايخ
المعتمدين. روى عنه البخاري في التفسير.

يقول ابن تيمية: تفسير ابن أبي نجيع عن مجاهد من أصحّ التفاسير، بل ليس بأيدي
أهل التفسير كتاب في التفسير أصحّ من تفسيره^١. وفي الطبري منه النقل الكثير.
وقد طبع هذا التفسير طبعة أبيقة باهتمام مجمع البحوث الإسلامية بباكستان سنة
(١٣٦٧ ق.)، واستوفينا الكلام عنه عند ترجمة مجاهد، فراجع.

٥. واصل بن عطاء

هو أبو حذيفة واصل بن عطاء المعتزلي، المعروف بالغزال (١٣١ هـ). كان رأس

١. راجع: تفسير سورة الإخلاص، ص ٩٤.

٢. الإفتاء، ج ٤، ص ٢٠٨.

الاعتزال^١، وأحد الأئمة البلغاء المتكلمين، في علوم الكلام وغيره، وكان يُلغى بالراء فيجعلها غيناً. قال أبو العباس المبرد في حقه: كان وأصل بن عطاء أحد الأعاجيب، وذلك أنه كان أُلغى قبيح اللغاة في الراء، فكان يخلص كلامه من الراء ولا يُفطن لذلك، لاقتداره على الكلام وسهولة الفاظه عليه.

يقول الشاعر المعتزلي وهو أبو الطروق الضبي يمدحه، على قدرته في اجتتاب الراء على كثرة ترددها في الكلام، حتى كأنها ليست فيه:

عليم بإبدال الحروف وقامع
لكل خطيب يغلب الحق باطله
وقال آخر:

و يجعل البر قمحاً في تصرفه
و خالف الراء حتى احتال للشعر
و لم يطق مطراً، والتول يعجله
فعاذ بالغيث إشفاقاً من المطر

وله من التعانيف، كتاب أصناف المراجعة وكتاب التوبة وكتاب معاني القرآن.

قيل: كان يجيز التلاوة بالمعنى. قال الذهبي^٢، وهذا جهل.

و كان يميل إلى بني هاشم، فكان ممن لقي أبا هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية، وصحبه وأخذ عنه^٣. وحكي أن محمد^٤ وأبراهيم ابني عبد الله بن الحسن كانا ممن دعاهم وأصل إلى القول بالعدل، فاستجابا له. وذلك لما حج وأصل، ودعا الناس بمكة والمدينة. وحكى أبو القاسم البلخي أن عبد الله قال لابنه محمد: كل خصالك محموداً يا بني إلا قولك بالتندر (أي القول بالاستطاعة). قال: يا أبه، أفشي؟ أقدر على تركه أو لا أقدر على تركه؟ فقال: لا عاتبتك عليه أبداً. قال أبو القاسم: يقول: إن كنت أقدر على تركه (أي ترك

١. وذكروا في وجه تسميتهم بذلك: أن وأصل كان يجلس إلى الحسن البصري؛ فبما سهر الاختلاف؛ وقالت الطوائف بكثير مرقكي الكبار؛ وقالت الجماعة بأنهم يترنون وإن فسقوا، خرج وأصل عن الفريقين؛ وقال بالسنلة بين المنزلةين؛ لا أكثر ولا إيمان؛ فعرض الحسن؛ ولحقه عمرو بن عبيد وقرئ معه قد اعتزلوا من حلقه الحسن؛ فسموا المنزلة (راجع: الأقسام للسمعاني، ص ٣٣٨).

غير أن الصحيح أنهم إنما سموا المنزلة؛ لأنهم ظلموا بعزل الذات عن الصفات بشفاعة تعالى. ومن ثم سمي من خالفهم (و هم الأشاعرة) بالمذاهبة.

٢. سير أعلام النبلاء للذهبي، ج ٥، ص ٤٦٥. ٣. أنالي المرقضي، ج ١، ص ١٦٥.

القول بالاستطاعة) فهو قولي، وإن كنت لا أقدر، فلم تعاتبني على شيء لا أقدر عليه.^١
يقال: إنه كان ناقماً على أهل الجمل. كان يقول: لو شهدت عندي عائشة وعلي
وطليحة على باقية بقتل لم أحكم بشهادتهم.^٢ فسئل عن علي رضي الله عنه فقال:
وما شر الثلاثة أم عمرو؟^٣
لكن ابن حجر أنكر هذه النسبة إليه؛ إذ لا تليق بشأنه الرفيع. قال: وما أظن إلا وهماً
في حق وأصل.^٤
على أنه كان يستجيب الراء - مهما كلف الأمر - فكيف ينطق بنصف بيت فيه الراء
مكرراً؟!^٥

٦. عطاء الخراساني

هو عطاء بن أبي مسلم ميسرة البلخي نزيل الشام (١٣٥ هـ). روى عن الصحابة،
ولاسيما عن ابن عباس مرسلاً، ولزم التابعين وأخذ عنهم، منهم: سعيد بن جبير،
وعبد الله بن بريدة، ويحيى بن يعمر، وعطاء بن أبي رباح، وخلق.
وتفقه ابن معين، وقال ابن أبي حاتم عن أبيه: ثقة صدوق، وكان حريصاً على نشر
العلم. قال: أوتق أعمالي في نفسي نشر العلم.^٦
و وصفه أبو نعيم الأصفهاني بالفقه والكمال. قال: كان فقيهاً كاملاً، وواعظاً عاملاً،
تزود للارتحال، تيقناً للانتقال، وذكر عنه عظات وحكماء استوعبت صفحات.^٧
له كتاب النسخ والمنسوخ وكتاب في التفسير صغير، استفاد منه الطبري عن طريق
عمران بن بكار الكلاعي، عن يحيى بن صالح، عن أبي الأزهر نصر بن عمرو اللخمي،

١. المصدر نفسه: ص ٨٦٩. ٢. ميزان الاعتدال: ج ٥، ص ٣٦٩.

٣. عجزه بصاحبك الذي لا تصيحنا (حيات المفسرين: ج ٢، ص ٣٥٦، بالهامش).

٤. لسان الميزان: ج ٤، ص ٢١٥.

٥. راجع: البيان والبيان للجاحظ: ج ١، ص ٣٧. معجم الأدياء لحموي: ج ٥، ص ٥٦٧، رقم ٩٩٥. وفيات الأعيان: ج ٤، ص ٧، رقم ٨٦٨.

٦. تهذيب التهذيب: ج ٧، ص ٢١٣. ٧. حية الأولياء: ج ٥، برقم ٣١٧، ص ١٩٣-٢٠٩.

قال: سمعت عطاء الخراساني...^١

٧. أبو الفضر الكلبي

هو محمد بن السائب، العالم النساب، والمفسر المصطلح (١٤٦ هـ). قال ابن خلكان: صاحب التفسير و علم النسب، كان إماماً في هذين العلمين^٢. وقال ابن عدي: والكلبي أحاديث صالحة وخاصة عن أبي صالح، وهو رجل معروف بالتفسير، وليس لأحد تفسير أطول ولا أشيع منه. وبعده مقاتل بن سليمان، إلا أن الكلبي يفضل على مقاتل...^٣ و تفسير الكلبي هذا لا يزال موجوداً منعماً بالحياة، لكنه مع الأسف قابع وراء المخطوطات، في تنايا المكتبات القديمة. وقد استقصى فؤاد سزگين نسخه المخطوطة في عاثة المكتبات، في تركيا ودمشق و بغداد. وأغرب في قوله: لم يُنفذ الطبري في تفسيره من هذا التفسير، وإنما أفاد منه في تاريخه قليلاً^٤. وقد استقصينا موارد إفادته منه في التفسير، فبلغ عددُ جمّاً حسبما يأتي^٥.

وقد استوفينا الكلام عن الرجل بتفصيل، عند التاسع من الطرق إلى ابن عباس.

مركز تحقيقات كتب توير علوم رسي

٨. أبو حمزة الثمالي

هو ثابت بن دينار الثمالي الأزدي الكوفي، توفي سنة (١٤٨ هـ). كان معظماً عند أئمة أهل البيت السماع منهم عليه السلام.

قال الفضل بن ساذان: سمعت الثقة يقول: سمعت الرضا عليه السلام يقول: أبو حمزة الثمالي في زمانه كلقمان (أو كسلمان) في زمانه، وذلك أنه خدم أربعة منّا: علي بن الحسين (السجاد) ومحمد بن علي (الباقر) وجعفر بن محمد (الصادق) وبرهنة من عصر موسى بن جعفر (الكاظم) عليه السلام وعده ابن شهر آشوب من خواص الإمام الصادق عليه السلام. وقد وثقه

٢. وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٣٠٩، رقم ٦٣٤.

١. تاريخ التراث العربي، ج ١، ص ٧٩.

٣. الكامل لابن عدي، ج ٥، ص ١٣٠، رقم ١٦٢٦.

٤. في الجزء العاشر من هذا الكتاب.

٥. تاريخ التراث العربي، ج ١، ص ٨١.

الصدوق والنجاشي والطوسي وابن داود والعلامة.

وقال ابن النديم بشأنه: من النجباء الثقات. وقال السيد حسن الصدر: شيخ الشيعة في الكوفة، والمسموع قوله فيهم. وقال الحافظ صارم الدين: هو من رموز الشيعة وأعلامهم. أما العامة فضعفه بعضهم لخلوه في التشيع، حسب زعمهم.

وقد وثقه الحاكم النيسابوري في المستدرک، فقد أخرج له أحاديث، وحكم بصحتها. وقال معقباً على بعضها: هذا صحيح الإسناد، فإن أبا حمزة الثمالي لم يقيم عليه إلا الغلو في مذهبه. في حين أنه صرح في خطبة مستدرکه أنه أخرج أحاديث، رواها ثقات، قد احتج بمثلها الشيخان أو أحدهما^١.

و من ثم فإن الكثير من محدثي العامة و علمائهم لم يأنهوا لثقة الرجلين بشأنه، وأخرجوا له أحاديث واحتجوا بحديثه. فقد أخرج له ابن كثير، والترمذي، وابن ماجه، والخطيب البغدادي، وابن أبي شيبة، وأبو جعفر الطحاوي، والحاكم، وابن قتيبة، وأبو نعيم وغيرهم.

و في التفسير أخرج له الطبري، والثعلبي، وابن كثير، والقرطبي، والسيوطي، وأبو حيان الأندلسي، والبغوي، والحاكم، وأبو الفرج، والبيهقي، وابن عدي، وابن الأثير، وابن إسحاق وغيرهم. هذا فضلاً عن اعتناء كبار علماء الشيعة ومحدثيهم ومنسريهم بأحاديثه في مجال الفقه والتفسير، وغيرهما^٢.

٩. شبل بن عباد

هو أبو داود شبل بن عباد المكي (١٤٨ هـ) من القراء المفسرين. روى عنه الطبري في التفسير والتاريخ، والثعلبي في الكشف والبيان، وغيرهما^٣. وثقه أحمد وابن معين، وذكره ابن حبان في الثقات^٤.

١. راجع تفصيل ذلك: مقدمة تفسيره الذي استخرجه الأستاذ عبد الرزاق حوز الدين، ص ٣٣٢.

٢. المصدر نفسه، ص ٢٤٢.

٣. تاريخ التراث العربي، ج ١، ص ٨٦.

٤. تهذيب التهذيب، ج ٤، ص ٣٠٥.

١٠. ابن جريج

هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، من أصل رومي، ولد بمكة سنة (٨٠ هـ) ومات بها سنة (١٥٠ هـ). كان فقيه الحرم وإمام أهل الحجاز، وأول من تصدّى لجمع الحديث وتدوينه وتبويبه، في مكة المكرمة.

وصفه أحمد بكز العلم، قال: كان ابن جريج من أوعية العلم، وكان مولعاً بطلب العلم من عند أهلها، حريصاً عليه، وكان صادق اللهجة صريحاً في مقالته. قال سليمان بن النضر: ما رأيت أصدق لهجة من ابن جريج. روى عنه الأئمة وكبار المفسرين.

له تفسير جامع، كان قد أخذ منه الطبري والنعلبي وغيرهما^١. وكان عند السيد ابن طاووس منه نسخة جيدة عتيقة، وصفها في كتابه سعد السعود^٢. واستخرجه علي حسن عبد الغني، وطبعه في مصر طبعة أنيقة^٣.

عده الشيخ من رجال الإمام الصادق عليه السلام وكان الإمام يرجع الناس إليه. وكان يرى جواز المتعة. أسند عنه الكليني في الكافي الشريف^٤، ووقع في إسناد الصدوق في الفقيه^٥. وقد استوفينا الكلام عنه عند خامس الطرق إلى ابن عباس.

١١. يحيى بن كثير

هو أبو النضر يحيى بن كثير (ح ١٥٠ هـ) من أصحاب الحسن البصري، وله عن عطاء ابن السائب رواية. وعده ابن حجر من رواة الإمام جعفر من محمد الصادق عليه السلام ونقل عن الساجي أنه معروف بالتشيع^٦. ومن ثم تركه بعضهم. وللطبرسي عنه في تفسيره روايات^٧.

١٢. مقاتل بن حيان

هو أبو إسحاق مقاتل بن حيان البجلي البلخي الخزاز (ح ١٥٠ هـ) وهو ابن دوال دور،

١. المصدر نفسه، ج ٦، ص ٤٠٤.

٢. سعد السعود، ص ٣٢١ (ط نجف).

٣. راجع: تاريخ التفسير للدكتور عبد الوهاب العالقي، ص ١١٥.

٤. من لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ٦٠، باب ٤٦، رقم ٢.

٥. الكافي، ج ٥، ص ٤٥١، رقم ٦.

٦. مجمع البيان، ج ١، ص ٦٥.

٧. تهذيب التهذيب، ج ١١، ص ٣٦٧.

ومعناه الخراز. روى عن عمته عمرة وسعيد بن المسيب وعكرمة وشهر بن حوشب وقنادة والضحاك وجماعة.

وتقه ابن معين، وذكره ابن حبان في الثقات. قال ابن حجر: كان مقاتل ناسكاً فاضلاً، وهم أربعة إخوة: مقاتل والحسن ويزيد ومصعب أبناء حبان.

١٣. مقاتل بن سليمان

هو أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي الخراساني، صاحب التفسير (١٥٠هـ). روى عن عطاء بن أبي رباح وعطية بن سعد العوفي ومجاهد والضحاك وغيرهم، من أعلام التابعين.

كان شعبة بن الحجاج لا يذكره إلا بخير. وسئل مقاتل بن حبان عنه، فقال: ما وجدت علم مقاتل بن سليمان في علم الناس إلا كالمحرا الأخضر في سائر البحور. وقال الشافعي: الناس عيال على مقاتل في التفسير. ووصف ابن عيينة تفسيره بكثرة العلم. وقال عباد بن كثير: ما بقي أحد أعلم بكتاب الله منه. قال القاسم بن أحمد الصفار: قلت لإبراهيم الحربي: ما بال الناس يطعنون على مقاتل؟ قال: حسد منهم له.

له في القرآن كتب، منها تفسيره الكبير، وهو من أقدم التفاسير، المتبقية آثارها في نسخ عتيقة. وقد جمع شتاتة والنسخ الماثلة منه في المعاهد العلمية، الدكتور عبد الله شحاتة، وحقّقها وقام بنشرها، على ما سذكر.

١٤. معمر بن راشد

هو أبو عروة ابن أبي عمرو البصري (١٥٣هـ). هاجر بعد موت الحسن إلى اليمن، وبنى هناك مدرسة قرآنية، تزوّد منها خلق كثير. أخذ العلم عن كبار التابعين، أمثالهم قنادة. وأخذ عنه الكثير، أشهرهم محمد بن جعفر غندر^٢، وعبد الرزاق

١. تهذيب التهذيب، ج ١٠، ص ٢٧٨.

٢. المصدر نفسه، ص ٢٧٩.

٣. يضم الغين المعجمة وسكون النون وفتح الدال وراه همزة (الأندلس) للسمعاني، ج ٤، ص ٣١٤.

الصنعاني^١، وهشام الدستوائي^٢، وشعبة بن الحجاج، والثوري، والصنعانيون بأجمعهم، وآخرون.

قال معمر: جلست إلى قتادة وأنا ابن أربع عشرة سنة فما سمعت منه حديثاً إلا كأنه ينش في صدري. وعده علي بن المديني وأبو حاتم فيمن دار الإسناد عليهم. وقال أحمد: ما انضم أحد إلى معمر إلا وجدت معمرًا يتقدمه في الطلب. كان من أطلب أهل زمانه للعلم. وقال ابن جرير: عليكم بهذا الرجل - يريد معمرًا - فإنه لم يبق أحد من أهل زمانه أعلم منه.

وذكره ابن حبان في الثقات، قال: وكان فقيهاً حافظاً متقناً ورعاً. قال الخليلي: وأنتى عليه الشافعي. ولما أتى صنعاء أجمع أهلها على أن يقتدوه بها فزوجه منهم^٣.

١٥. أبو الجارود

هو زياد بن المنذر الهمداني الكوفي البخاري^٤ المكنوف، وكان ملقباً بالشرحوب^٥. ذكره البخاري في فصل من مات بين الخمسين إلى الستين بعد المائة. أخذ العلم من وجهاء التابعين كعطية العوفي والأصمعي بن نباتة والحسن البصري، وكان منقطعاً إلى الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام.

وله تفسير كتبه عنه، وأدرجه جامع تفسير القمي ضمن التفسير، من أوائل سورة آل

١. صاحب التفسير والتدريج العريضة في اللغة والحديث والتفسير.

٢. يفتح الدال وسكون السين المهملة وخمسة التاء وفتح الميم وفي آخره ألف. نسبة إلى بلدة بالأهواز يقال لها: دسكوا. اشتهر بها جماعة أشهرهم أبو بكر هشام بن أبي عبد الله - في اسمه سبيل - لقب بأبى المؤمنين في الحديث (المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٧٦؛ تهذيب التهذيب، ج ١١، ص ٤٣).

٣. تهذيب التهذيب، ج ١٠، ص ٣٤٤.

٤. نسبة إلى خازف - بضم الخاء - وراء مفتوحة بعدها فاء - بعض من همدان نزل الكوفة (الأنساب للسمعاني، ج ٣، ص ٣٠٥).

٥. حكى أن أبا الجارود سمي شرحوباً، ونسبت إليه الشرحوبية من الزيدية. وذكروا أن شرحوباً اسم شيطان أعصى سكن البحر. وكان أبو الجارود مكنوفاً أعصى أعصى الناب (رجال الكشي، ص ٣٢٩، رقم ٤١٣). والذيطان اسم لكل ذي منظر قبيح فيقول.

عمران إلى آخر القرآن. فتراه مزيجاً من التفسيرين مع إضافات عن غيرهما. وقد أخذ عنه الطبرسي في تفسيره.

كان من خواص الإمام الباقر، ثم الإمام الصادق (عليه السلام). ولما نهض زيد ضد آل مروان، انضم إلى أتباعه، وأسس الفرقة السرحونية، منشعبة من الزيدية، وترك مصاحبة الإمام، وجاهر بمقابله، فكان موضع نفرة الإمام (عليه السلام).

وقد ضعفه الفريقان، لموضعه هذا المتأرجح غير الثابت، على طريق مستقيم. لكن تفسيره هذا لا بأس به، ولعله من عمله حالة الاستقامة.

١٦. شعبة بن الحجاج

هو أبو إسحاق بن الورد العتكي الأزدي^١ بالولاء، الواسطي ثم البصري (١٦٠ هـ). علم من الأعلام، محققاً نابهاً وفقيهاً بارعاً، عالماً بالحديث والتفسير.

أخذ العلم من أعلام التابعين: أبان بن تغلب، وجابر الجعفي، والسدي الكبير، والحكم ابن عتيبة الكندي، وعاصم بن أبي الجود، وابن أبي ليلى، وعطاء بن السائب، وعطاء الخراساني، وقتادة بن دعامة، ومحمد بن إسحاق بن عمار... إلى ثلاثمائة إنسان، أوردتهم ابن حجر بأسمائهم بتفصيل^٢. وعنه أخذ خلق كثير.

فكان المحور للأخذ من جميع من سبق، والأداء بأمانة إلى اللاحقين. وموضعه الاجتماعي حينذاك مرموق إليه، قل من يوجد مثله في كثرة المشيخة، وكثرة الوفود إليه. ومن ثم قال أحمد بن حنبل بشأنه: كان شعبة بن الحجاج أمة وحده في معرفة الرجال، وبصره بالحديث، وتبئته وتنقيته للرجال. وقال أيوب: هو فارس في الحديث، فخذوا عنه. وقال الطيالسي: قال لي حماد بن سلمة: إذا أردت الحديث فالزم شعبة. وقال حماد

١. إسحاق بكسر الهمزة اسم (علم). وفتح الهمزة: بلدة. وكتبه شعبة أبو إسحاق بكسر الهمزة.

٢. العتكي: بفتح العين والهمزة وكسر الكاف. نسبة إلى «عتك» بن من الأزدي.

٣. قال الحاكم: شعبة إمام الأئمة في معرفة الحديث بالبصرة. رأي أنس بن مالك وعمر بن سلمة الصحابيْن سمع من أربعين من التابعين (تهذيب التهذيب، ج ٥، ص ٣٤٦).

ابن زيد: ما بُالي من خالفني إذا وافقني شعبة، فإذا خالفني شعبة في شيء، تركته. وقال ابن مهدي: كان النوري يقول: شعبة، أمير المؤمنين في الحديث. وقال الشافعي: لولا شعبة ما عُرف الحديث بالعراق.

و هناك شهادات راقية بصدقه وأمانته، وإخلاصه في العمل، والزهد في الدنيا، والإجتهاد في العبادة، والإحسان إلى الناس.. ممّا يطول، أورد قسماً منها ابن حجر في ترجمته^١.

قال ابن حبان: كان شعبة من سادات أهل زمانه، حفظاً وإتقاناً وورعاً وفضلاً، وهو أول من فتش بالعراق عن أمر المحدثين، وجانب الضعفاء والمتروكين، وصار علماً يقتدى به، وتبعه عليه بعده أهل العراق^٢.

قال ابن معين: وكان شعبة - فوق ذلك - صاحب نحو وشعر. قال الأصمعي: لم ير أحداً أعلم بالشعر منه. كان يقول: تعلّموا العربية فإنّها تزيد في العقل. أي كان خير معين لنهم النص^٣.

عده الشيخ أبو جعفر الطوسي من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام. كما عده ابن حجر الإمام ممن أخذ شعبة العلم عنه^٤. وذكر أبو سعيد: أن شعبة كان ممن يحدث عن الإمام الصادق عليه السلام.

و كان شديد الميل إلى التشيع إلى حدّ الترفّض - حسب تعبير القوم - وكان يستقي العامة. ذكر الخطيب البغدادي عن ابن الفضل بإسناده إلى يزيد بن زريع - وكان ممن تغيّر في أخريات حياته^٥ - قال: قدم علينا شعبة البصرة، ورأيه رأي سوء خبيث - يعني الترفّض - فما زلنا به حتّى ترك قوله، ورجع وصار معنا^٦.

١. المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٤٤.

٢. المصدر نفسه، ص ٣٤٥.

٣. المصدر نفسه، ص ٣٤٦.

٤. رجال الطوسي، ص ٤١٨.

٥. تهذيب التهذيب، ج ٤، ص ٣٣٩.

٦. حية الأولياء، ج ٣، ص ١٩٩.

٧. تهذيب التهذيب، ج ١١، ص ٣٢٨.

٨. تاريخ بغداد، ج ٥، ص ٣٦٠.

قلت: أ ترى مثل شعبة - و هو أمير العلم واليقين - يترك مذهبا كان قد أتقنه، لقوله قالها الأوساط؟!

يقول أبو داود الطيالسي: كنا عند شعبة بن الحجاج في البيت، وجرا ب معلق^١، فالتفت فإذا هو في السقف. فقال: ترون ذلك الجراب؟ والله لقد كتبت فيه عن الحكم بن عتيبة، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ لو حدثتكم به لرقتكم! قلت: ولم هذا الاعتناء بشأن روايات أسندها عن علي بالذات، من أحاديث الرسول؟! وما كانت مضامينها التي كان سماعها يوجب الهزة في النفس، والبهجة في الروح؟! نعم، إنما كانت مما يجب إخفاؤها عن أعين الجهلاء! الأمر الذي يؤكد على منهجه الخاص بعيداً عن مسيرة العامة. هذا ولا سيما وهو تربية الكوفة معهد الحضارة والولا، لآل بيت الرسول!

وهناك رواية له عن سمك، عن عبيدة السلماني، عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بشأن العول في الميراث، أفتى بما تراه العامة من حصول النقص على الزوجة، فيما إذا مات رجل وترك ابنتيه وأبويه وزوجة؟ قال عليه السلام: صار تمن المرأة تسعاً! قال سمك: قلت لعبيدة: وكيف ذلك؟ فأجابه بأنه خلاف ما يراه الإمام من عدم العول وعدم نقص في سهم المرأة. وأضاف: الحق هو ما يراه الإمام، وإن أباه قوماً - يعني بهم العامة -.

فتبادل مثل هذا الكلام بين عبيدة وسمك. ورواية شعبة لهذا الحوار، لدليل لا تح على مواضعهم من الإمام، الذي كان الحق يدور معه حيثما دار، كما نوه به الرسول الكريم ﷺ فتدبر جيداً.

١٧. ورقاء بن عمر

هو ابن كليب أبو بشر الشكري الكوفي، نزيل المدائن، أصله من مرو، وقيل: خوارزم

٢. تاريخ بغداد، ج ٩، ص ٢٦٠.

١. الجواب - بكسر الجيم: ورقاء من جدد.

٣. راجع: تهذيب الأحكام، ج ٩، ص ٢٥٩.

(ح ١٦٠ هـ). وصفه الذهبي بالإمام الثقة، الحافظ العابد.

أخذ العلم من كثير من التابعين، منهم: زيد بن أسلم وسماك بن حرب وعبد الله بن أبي نجیح وعاصم بن أبي النجود وعطاء بن السائب وأضرابهم. وأخذ عنه كبار الأئمة: شعبة بن الحجاج - وهو أكبر منه؛ قال الذهبي؛ وروايته عنه في صحيح مسلم - وابن المبارك وابن نمير ويزيد ووكيع وأبو داود وأبو النضر والفرجاني، وغيرهم.

قال أبو داود: قال لي شعبة، عليك بورقاء، فإنك لا تلقى بعده مثله؛ فقل لأبي داود: ما يعني بقوله؟ قال: أفضل وأورع وخير منه.

له تفسير عن ابن أبي نجیح عن مجاهد. وقد رجّحه ابن معين على تفسير قتادة عن مجاهد. وكذا تفسير ابن جريج عنه، لأن هذا مرسل ولم يسمع ابن جريج من مجاهد. وتنسیره هذا اعتمده العلماء، ونقل عنه الطبري والعلبي بكثرة^١.

١٨. سفيان الثوري

هو أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري^٢. (٩٧-١٦١ هـ). كان إماماً في علم الحديث وغيره من العلوم، وأجمع الناس على دينه وأورعه وزهده وثقته، وهو أحد الأئمة المجتهدين^٣.

أخذ العلم عن جم من الأقطاب: كجابر الجعفي وسماك بن حرب والأعمش وشعبة وعاصم بن بهدلة وابن أبي ليلى وابن أبي نجیح وابن جريج وعطاء بن السائب وابن إسحاق، وأمثالهم كثير. وعده الشيخ من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام ممن أسند عنه^٤. وأخذ عنه الأعلام من الخلف: كأبان بن تغلب - ومات قبله - وحفص بن غياث وزوج بن عبادة وسفيان بن عيينة والطيالسي والأعمش - وهو من شيوخه - وكذا شعبة

١. تهذيب التهذيب، ج ١١، ص ١١٣؛ سير أعلام النبلاء، ج ٧، ص ٥١٩؛ تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ٣٣٠؛ ميزان الاعتدال،

ج ٤، ص ٣٣٢؛ تاريخ بغداد، ج ٨٣، ص ٥١٥؛ تاريخ التراث العربي، ج ١، ص ١٨٦؛ معجم المفسرين، ج ٢، ص ٧١٨.

٢. نسبة إلى بعض من همدان وبعض من قميم. وسفيان هذا من قميم (الأقصاب لسماعني، ج ١، ص ٥١٧).

٣. وفیات الأعيان، ج ٢، ص ٣٨٦؛ رقبه، ص ٢٦٦. ٤. رجال القوسي، ص ٢١٢.

- وكان من أقرانه - ومالك بن أنس وابن إسحاق - وهو من شيوخه - ومعمّر بن راشد - كان من أقرانه - وكيع بن الجراح ويحيى بن سعيد القطان، وخلق كثير.

عن شعبة وابن عيينة وابن معين وغير واحد: إنه أمير المؤمنين في الحديث، وعن الثوروثي عن أحمد - وذكر سفيان - لم يتقدمه في قلبي أحد. ثم قال: أتدري من الإمام؟ الإمام سفيان الثوري. وقال شعبة: إن سفيان، ساد الناس بالورع والعلم. قال الخطيب: كان إماماً من أئمة المسلمين، وعلماً من أعلام الدين، مُجمَعاً على إمامته؛ بحيث يُستغنى عن تركيته، مع الإتقان والحنظ والمعرفة والضبط والورع والزهد إلى غيرها من نعوت وأوصاف ذكرتها الأئمة بشأنه^١.

وكان يحيى بن سعيد القطان ينضله على مالك بن أنس في كل شيء؛ في الحديث، وفي الفقه، وفي الزهد. على ما رواه عنه يحيى بن معين. وكان يقول: رأي سفيان أحب إلي من رأي مالك. لا يُسَكَّ في هذا. كما وأن فضيل بن عياض كان يفضل الثوري في فقهه على أبي حنيفة، يقول: وكان - والله - سفيان أعلم من أبي حنيفة^٢.

* * *

كان سفيان الثوري قد نشأ في الكوفة، وهي أحضان حضارتها النابعة من صميم الإسلام، والنابضة بحيوية الولاء لأهل البيت عليهم السلام وعلى ذلك تضامّت معالم العلم والولاء في ديار كوفان، وفي هذا الجو الوضي نبغ الثوري وأماؤه من علماء وفقهاء ومحدثين كبار. فلا غرو من مدرسة الكوفة أن تتجه اتجاهها في التشيع الأصيل، وجرياً مع القادة من آل بيت الرسول.

نعم، كان سفيان الثوري ذا نزعة شيعية، وفق بيئته، والتربية التي تربى عليها، على يد أفاضل الشيعة العلماء الكبار.

لكن هناك رواية عن زيد بن الحباب (مات سنة ٢٠٣ هـ) أن أربعة من المحدثين

١. راجع: تهذيب الكمال، ج ٧، ص ٣٥٣، رقم ٢٣٨٩، تاريخ بغداد، ج ٩، ص ١٥٢، رقم ٤٧٦٣.

٢. راجع: تاريخ بغداد، ج ٩، ص ١٦٤. ٣. حجة الأولياء، ج ٢، ص ٣٥٨.

- عمّار بن رزّيق الضبيّ، وسليمان بن قرّم الضبيّ، وجعفر بن زياد الأحمر، وسفيان الثوريّ - خرجوا يطلبون الحديث، وكانوا يتشيّعون. فخرج سفيان إلى البصرة فلقي عبد الله بن عون بن أربطان (توفي: ١٥٢ هـ)، وأيوب بن أبي تميمة كيسان السخثياني (توفي: ١٣١ هـ)، فترك الشيع.

لا شك أنّه حديث مُفْتَعَل؛ إذ كيف ينخلع جهنم - توطدت أركانه على أساس حكيم - عن ذاتياته التي تلقّاها من فحول، لمجرد لقاء نفرٍ لا شأن لهم سوى تعاطي الحديث؛ وكان سفيان منضلاً عليهما بفقهه ودرايته، وليس لمجرد روايته، كما كان غيره^١.

ثم إن زيدا لا يذكر مستنده في هذا النقل؛ حيث أنّه لم يدرك حياة ابن عون ولا أيوب في الوقت الذي لقيهما الثوريّ فيما فرض، ولا بدّ أنّه قبل الثلاثين بعد المائة؛ ولعلّه لم يولد زيد بعد حينذاك؛ فمن الذي حضر المشهد وحدث زيدا بما شهد، بعد أمد غير قصير؟
على أن زيد بن الحباب كان كثير الخطأ، وكان مدّلساً يقلّب حديث الثوريّ - كما قال أحمد وابن معين - فضلاً عن روايته عن المجاهيل وفيها المناكير - كما قال ابن حبان^٢.
فيا ترى كيف يصدق قول مثله - وبهذا الإسناد المنقطع - على مثل الثوريّ ذلك العبد الصالح الذي كابد الأمرين في مكافحة الظلم، وبجاهد في نشر العلم، وتثبيت معالم الدين^٣.

* * *

هذا، وفي روايتنا ما يشي بدمّه، وأنّه كان منحرفاً في عقيدته، وربّما رُميه بكونه

١. ذكره العبري في منتهى ذيل المذيل، ص ١٤٣؛ ملحق المجدّد الثامن من التاريخ.

٢. هذا عبد الله بن المبارك يقول: ما أجد من الفقهاء أفضل من سفيان بن سعيد، ما أدرى ما عبد الله بن عون! (تاريخ بغداد، ج ٩، ص ١٥٧)، كما وأن أيوباً يرى الثوريّ رجلاً مفضلاً يقول: ما قدم علينا من الكوفة أفضل من سفيان الثوريّ (حياة الأولياء، ج ٢، ص ٣٦٩). وكان سفيان يحذّر على أيوب عنايته بمجرّد الحديث. كان يقول: ما غدت على أيوب شيئاً سوى الحديث. يريد: إعجابه بنفسه (حياة الأولياء، ج ٢، ص ٣٦٩).

٣. راجع: تهذيب التهذيب، ج ٣، ص ٤٠٤.

٤. راجع فضلاء مع سفيان الوقت (المهدي العباسي) ونشره في البلاد هرباً منه (وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٣٨٦ رقم ٣٦٦)؛ (حياة الأولياء، ج ٦ و ٧).

صاحب يدعة؛ لكنّها روايات واهية الإسناد مضطربة الحفاد؛

فقد روى المكشي حديث اعتراض النوري على الإمام الصادق عليه السلام ارتياده تيباً جليداً، فمرة ينسبه إلى ابن عيينة، وأخرى إلى النوري، يروي عن العياشي عن الحسين بن اشكيب عن الحسن بن الحسين المروزي - مجهول - عن يونس عن أحمد بن عمر - مجهول - قال: سمعت بعض (?) أصحاب أبي عبد الله عليه السلام وذكر الحديث، فالإسناد، سلسلة المجاهيل.

وذكر أيضاً أنه وجد في كتاب أبي محمد جبريل بن أحمد الفاريابي، يتحدث عن ابن عيسى عن ابن الفضيل عن عبد الله بن عبد الرحمان - ولعله الأصم كان من كذابة أهل البصرة - عن الهيثم بن واقد عن ميمون بن عبد الله - مجهول - قال: أتى قوم بأبي عبد الله من الأمصار يسألونه الحديث... وذكر أحاديث نسبوها إلى النوري - وفيها الأعاجيب المستنكرة، باد عليها ملامح التعمّل والافتعال - يبدو أنها صنعت لغرض ما، وفي آخره كلام الإمام الصادق عليه السلام بشأن البصرة ودم أهلها، وأنهم أهل القول بالتندر الذي فيه الحرية على الله، وبغض أهل البيت، وكذبهم على آل الرسول، واستحلال الكذب عليهم. ولعله إشارة إلى ما رمى به الحسن البصري عن العدا لأهل البيت، وقوله بالتندر، وكذا سفيان الثوري على ما اتهمه خصومه الأمر الذي يؤكد على دس في هذا الحديث حتماً، بعد ما عرفت من ولاء الحسن لآل البيت وإخلاصه المودة في آل الرسول. أمّا سفيان فأجدر به أن يكون موالياً للمعتزة، بعد كونه تربية معهد الولاء لأهل البيت.

ثم إن هذا القائل ذهب عنه أن سفيان الثوري كان إمام أهل الكوفة، فيها نشأ وترعرع، وتربى على أحضانها، وظل عاكفاً على أعتابها مدة حياته، ولم يخرج من الكوفة خروجاً بلا عودة إلا بعد الخمس وخمسين ومائة^١، أي قُبل وفاته بست سنوات. وظل هارباً من سطوة السلطان إلى أن قضى نحبته في إحدى مختبئاته بالبصرة، سنة إحدى

١. تهذيب الكمال: ج ١٧ ص ٣٦٣.

٢. رجال المكشي: رقم ٧٣٩ و ٧٤٠.

و ستين بعد المائة. و مع ذلك فقد وهموا بشأن الرجل، فحسبوه إمام أهل البصرة، في حين أنه لم يكذب يحضرها إلا خائفاً يترقب!

هذا المحقق التستري يأتي برواية عن الإمام الصادق عليه السلام يذكر فيها سفيان، وينعته بفتيهمكم - مخاطباً لعبد الرحمان بن الحجّاج، وهو بصريّ في زعم التستري^١ - في كلام له مع الإمام بشأن تجويزه الإحرام لأهل مكة، للحجّ من الجعرانة^٢. يحاول نصّح الإمام أن لا ينعل^٣.

و قد استشعروا الذمّ بشأنه من هذا الحديث^٤ و الحديث مضطرب في نصّه^٥. و ذكر ابن النديم - عند الكلام عن الزيدية: أن أكثر المحدثين الأوائل على هذا المذهب، مثل سفيان بن عيينة و سفيان الثوريّ و صالح بن حيّ و ولده و غيرهم^٦. و ذكر أبو النرج الأصمّهانيّ - في ترجمة عيسى بن زيد بن عليّ - أنه أتى سفيان الثوريّ يسأله عن مسألة من السيرة، فأبى أن يجيبه خوفاً من السلطان، ولما عرفه أنه عيسى بن زيد، ترحّب به و عانقه و أجلسه في مكانه، و جلس بين يديه و أجاب مسأله، و هو يبكي عطفاً عليه. ثم أقبل على الجلّساء، و قال: إن حبّ بني فاطمة و الجزع لهم ممّا هم عليه من الخوف و القتل و التطريد ليكني من في قلبه شيء من الإيمان. ثم قال لعيسى: قم، بأبي أنت، فأخف شخصك، لا يصيبك من هؤلاء شيء، نخافهم^٧.

و ذكر السيّد محسن الأمين العامليّ أن ابن رسته، عدّ سفيان الثوريّ - في كتابه الأعلام النفسية - من الشيعة. و في هامش البيان و التبيين للجاحظ، تعليق حسن

١. قاموس الرجال: ج ٥، ص ١٤٩ (ط حديث).

٢. موضع بين مكة و العائف هي مكة أقرب، منها الحرم النبي مرجعه من غزاة حنين (معجم البلدان: ج ٣، ص ٤٣).

٣. الكافي: ج ٤، ص ٣٠١. ٤. قاموس الرجال: ج ٥، ص ١٤٩ (ط ح).

٥. إذ فيه ما لم يعمل به الأصحاب، و لأجاز الأعداء به إلا بتأويل بعيد، كالصوف و السعي بعد الإحرام بالحجّ و بين المذهب إلى عرفات و كالأحرام بالحجّ من الجعرانة الذي هو خلاف النصوص، و عليه وقع اعتراض الثوريّ حسب ظاهر الرواية. و غير ذلك ممّا يجده المراجع في مفاته و الله العالم.

٦. النهرست لابن النديم: ص ٣٦٧. ٧. مناقب العالبيين: تحقيق السيّد أحمد عسقر: ص ٤٦.

السندويي المصري (ج ٢، ص ٨٧): سفيان الثوري، كان من التابعين وأهل الحديث مع الفقه والورع والتقوى، وكان شيعي الرأي، طُلب للتضامن فلم يقبل، فطلبه السلطان ليأخذه بتشييعه، ففرّ وظل متوارياً بالبعصرة حتى مات ودُفن عشاءً. وفيه يقول الشاعر:

تحرّز سفيان وفرّ بدينه وأمسى شريك مرصداً للدرهم^١

قال الذهبي: قد كان سفيان رأساً في الزهد والتأله والخوف، رأساً في الحفظ، رأساً في معرفة الآثار، رأساً في الفقه، لا يخاف في الله لومة لائم، من أئمة الدين - إلى قوله -: وفيه تشيع يسير. (إذ كان يقدم علياً على عثمان)^٢.

غير أن الحقيقة تشهد بأن سفيان كان على تشيع وفير، وبمعناه الشامل في كلا جانبي الولاء والتبرّي من الأعداء. نعم، كان على اتقاء شديد رغم صراحة لهجته وعدم خشيته من لومة لائم، وكان كلما حاول التصريح بمكنون ضميره منعته الأحباء حفظاً على نفسه. يروي أبو نعيم بإسناده إلى مؤمل بن إسماعيل، قال: سمعت سفيان الثوري يقول: منعنا الشيعة أن نذكر فضائل علي عليه السلام^٣.

و هل كان زیدياً كما حسبه ابن النديم أو إمامياً كما قد يقال؟ فهذا لم يثبت ولا شاهد له، ولا فهم أصحابنا ذلك بشأنه. ومن ثم قال العلامة - و تبعه ابن داود -: سفيان ليس من أصحابنا، أي إمامياً حسب المصطلح. لكنه ثقة أمين خاضع الولاء لآل بيت الرسول، فرحمة الله عليه.

وقد أخذ برواياته الأصحاب فيما رواه عن جابر الجعفي وعن الإمام الصادق وعن السكوني وغيرهم^٤.

١. أعيان الشيعة، ج ٧، ص ٣٦٤، وشريك هذا قد قيل القضاء بالكوفة من قبل المهدي العباسي؛ لما أن رقبته سفيان وقد وثقه سفيان على ذلك (راجع: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٣٨٧ و ٣٩٠، رقم ٣٦٦).

٢. سير أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٣٤١. ٣. حبة الأولياء، ج ٧، ص ٣٧.

٤. خلاصة الرجال، ص ٢٣٨ رجال ابن داود، ص ٢٤٨، رقم ٣١٧.

٥. روى عنه الكليني بالإسناد إليه في الكافي، والشيخ في التهذيب والاستبصار (معجم رجال الحديث، ج ٨، ص ٦١، رقم ٥٣٤٢).

وله في التفسير كتاب في حجم صغير برواية أبي جعفر محمد عن أبي حذيفة النهدي عنه صححه ورثبه وعلق عليه وقام بنشره «امتيار علي عرشي» مدير مكتبة الرضا برامبور - الهند^١. وذكر المحقق في المقدمة كلام سفيان: «سلوني عن المناسك والقرآن، فإنني بهما عالم». مما يدل على اضطلاع التام بعلمي الفقه والتفسير، فكان جديرًا بالاهتمام بشأن هذا التفسير الصغير في حجمه، الكبير في محتواه.

١٩. سفيان بن عيينة

هو أبو محمد سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي الكوفي. أصله من الكوفة، وُلد بها للنصف من شعبان سنة (١٠٧ هـ)، وهاجر إلى مكة واستقر بها سنة (١٦٣ هـ)، إلى أن توفي بها يوم السبت أول يوم من رجب سنة (١٩٨ هـ) ودفن بالحجون^٢. قال ابن خلكان: كان إماماً عالماً ثباتاً، حجة زاهداً ورعاً، مجمعاً على صحته حديثه وروايته^٣. قال أبو نعيم الأصفهاني: الإمام الأمين، ذو العقل الرصين، والرأي الراجح الركين، المستبط للمعاني، والمرتبط للمباني، أبو محمد سفيان بن عيينة الهلالي. كان عالماً ناقدًا، وزاهداً عابداً. علمه مشهور، وزهده معمر^٤. قال المزني: كان يعد من حكماء أهل الحديث^٥. وقال الذهبي: الإمام الكبير، حافظ العصر، شيخ الإسلام، أبو محمد الهلالي الكوفي ثم المكي وطلب الحديث وهو حدث بل غلام، ولقي الكبار وحمل عنهم علماً جمًا، وأتقن وجود وجمع وصنف، وعمر دهرًا (٩١ سنة)، وازدحم الخلق عليه، وانتهى إليه علو الإسناد، ورُحل إليه من البلاد، وألحق الأحفاد بالأجداد^٦. وكان أدرك نيفًا وثمانين نفسًا من التابعين^٧ وأخذ منهم العلم.

أخذ العلم من كبار السلف المرموقين كابان بن تغلب، وجابر بن يزيد الجعفي،

١. مجمع المفسرين، ج ١، ص ٢١١-٢١٢.

٢. تهذيب التهذيب، ج ٤، ص ١٣٠-١٣٢.

٣. وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٣٩١.

٤. حلية الأولياء، ج ٧، ص ٢٧٠، رقم ٣٩٠.

٥. تهذيب الكمال، ج ١٤، ص ٣٧٦.

٦. سير أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٥٤٤، رقم ١٣٠.

٧. وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٣٩٢. حكى الحميدي عنه أنه قال: أدركت سبعاً وثمانين تابعيًا (تهذيب التهذيب، ج ٤، ص ١٤١).

وسفيان الثوري وسليمان الأعمش، وشعبة بن الحجاج وعاصم بن بهدلة، وعبد الله بن أبي نجيح، وعطاء بن السائب، ومحمد بن السائب الكلبي، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، ومعمّر بن راشد، وأضرابهم من فحول، وعمدتهم الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام.

وروى عنه كبار الأئمة كالإمام أحمد بن حنبل، وقال بشأنه: ما رأيت أحداً من الفقهاء أعلم بالقرآن والسنن منه^١. والإمام محمد بن إدريس الشافعي، وقال بشأنه: ما رأيت أحداً من الناس فيه جزالة العلم ما في ابن عيينة، وما رأيت أحداً أكنأ عن الفتيا منه. وزوج بن عبادة، والزبير بن بكار، وسفيان الثوري - وهو من شيوخه - وسليمان الأعمش - وهو من شيوخه - وشعبة بن الحجاج - وهو من شيوخه - وعبد الملك بن جريج - وهو من شيوخه - وعبد الرزاق بن همام، وخلق كثير.

وقال يحيى بن سعيد: ما بقي من معلّمي الذين تعلّمت منهم غير سفيان بن عيينة. قيل: يا أبا سعيد، سفيان إمام في الحديث؟ قال: سفيان إمام اليوم منذ أربعين سنة. وقال بشر بن المنضل: ما بقي على وجه الأرض أحد يشبه سفيان بن عيينة^٢. عدّه الشيخ وكذا البرقي في أصحاب الإمام الصادق عليه السلام. وقال الصدوق: سفيان بن عيينة ثلثي الصادق وروى عنه وبقي إلى أيام الرضا عليه السلام. وذكره ابن داود في التسم الأول، وعدّه من الممدوحين^٣. ومن تمّ اعتمده الأصحاب وأخذوا برواياته. ذكر السيّد الأمين عن الشيخ أبي جعفر الطوسي: أن الإماميّة مجمعة على العمل برواية سفيان بن عيينة، ومن ماتله من الثقات^٤.

١. تهذيب الكمال، ج ١٧، ص ٣٦٩. ٢. تهذيب التهذيب، ج ٤، ص ٨٣٨.

٣. تهذيب الكمال، ج ١٧، ص ٣٧٧.

٤. رجال الطوسي، ص ٢١٢، رقم ١٦٣، مجمع رجال الحديث، ج ٨، ص ١٥٧.

٥. عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص ١٨، باب ٣٠، رقم ٣٥.

٦. رجال ابن داود، ص ١٠٤، القسم الأول، رقم ٧٠٢.

٧. أعيان الشيعة، ج ١٧، ص ٢٦٧، وكأني استند من كلام الشيخ في عدة الأصول (ج ١، ص ٣٨٠) من العمل بروايات الموقر بهم من العامة.

و بالفعل قد أخذ برواياته شيخ المفسرين علي بن إبراهيم القمي، وكذا تلميذه ثقة الإسلام الكليني في الكافي الشريف، و شيخ الطائفة أبو جعفر الطوسي في التهذيب^١. وهذا الأخذ بروايات الرجل دليل على وثاقته و اعتماد الأصحاب له. أمّا أنه إمامي فلا^٢ وقد عرفت كلام ابن النديم؛ وأكثر المحدثين على مذهب الزيدية مثل سفيان بن عيينة و سفيان الثوري وغيرهما^٣.

و ذكرنا أن ذلك هو مقتضى تربيتهم الكوفية (معهد الولاء، لآل البيت) وليس بمعنى اعتناق مذهب رسمي خاص، تجاه سائر المذاهب الشيعية. بل الجهة العامة الجامعة بين مذاهبهم في الولاء لأهل البيت و التبزي من أعدائهم، الأمر الذي كان قد اعتنقه جلّ المحدثين و النخهاء الكبار ذلك العهد.

هذا ابن عدي يذكر جماعات من كبار المحدثين و ينعتهم بالتشيع (في كلا جانبي الولاء و التبزي) كجعفر بن سليمان و عبد الرزاق بن همام و ابن عيينة، و أخراهم. يروي حديثاً بشأن معاوية^٤ عن طريق عبد الرزاق عن ابن عيينة بالإسناد إلى أبي سعيد الخدري، ثم يروي عن عبد الرزاق عن جعفر بن سليمان بنفس الإسناد. ثم يقول: و جعفر ابن سليمان هذا هو يعدّ في الشيعة من أهل البصرة، و عبد الرزاق أيضاً يعدّ في الشيعة. و هذا الحديث أشبه من ابن عيينة، على أن ابن عيينة كوفي!

و قد قال ابن عيينة في حديث له، قيل له: فيه ذكر عثمان؟ قال: نعم، و لكنني سكت، لأنني غلام كوفي^٥.

و لذلك قال ابن حجر: و نسبته ابن عدي إلى شيء من التشيع^٦. و هو التشيع بمعناه العام

١. راجع: صحيح رجال الحديث: ج ٤، ص ١٥٨.

٢. قال العلامة: سفيان بن عيينة ليس من أصحابنا ولا من عبادنا (خلاصة الرجال، ص ٢٢٨). و تبعه على ذلك ابن داود في رجاله (ص ٢٤٨، رقم ٣١٥) و بذلك يجمع بين قوله هذا و قوله فيما سبق في القسم الأول (ص ٨٠٤، رقم ٧٠٢) ممدوحاً!

٣. الفهرست لابن النديم: ص ٢٦٧.

٤. إذا رأيت معاوية على منبري فاقبوه.

٥. تهذيب التهذيب: ج ٤، ص ٨٣١.

٦. الكامل لابن عدي: ج ٥، ص ٣١٥.

الذي عليه عامة أئمة المسلمين!

وله في التفسير اليد الطولى، قال ابن مهدي: عند سفيان بن عيينة من المعرفة بالقرآن وتفسير الحديث ما لم يكن عند الثوري^١.

و بالفعل فإن له تفسيراً برواية سعيد بن عبد الرحمان المخزومي - قال ابن حجر: هو ثقة في ابن عيينة^٢ - هو من أقدم التفاسير الأثرية ذوات الاعتبار. قام بتحقيقه ونشره أحمد صالح البخاري، وقدم له مقدمة تمحل فيها كثيراً، حاول تفنيد شبهة التشيع عن ابن عيينة، وإثبات أنه من أعلام أهل السنة والجماعة! ذاهلاً أن عامة أئمة المسلمين ذلك العهد كانوا على رفض من يدع المبتدعين، مستمسكين بالعروة الوثقى: العترة الطاهرة، فكانوا شيعة أهل البيت، ولكن بمعناها العام كما نبهنا^٣.

و إليك من تنسيده نموذجاً من خضم آرائه بشأن السلف:

روى عن يحيى بن سعيد، عن عبيد بن جحش أنه سمع ابن عباس يقول: مكثت سنة و أنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن المتظاهرين، فما أجد له موضعاً أسأله فيه، حتى خرج حاجاً وصحبته حتى إذا كان بمنزلة الظهران ذهب لحاجته، وقال: أدركني بأداة من ماء، فلما قضى حاجته ورجع، كئبه بالأداة، فحسبها عليه. فرأيت موضعاً، فقلت: يا أمير المؤمنين، من المرأتان المتظاهرتان على رسول الله ﷺ؟ فما قضيت كلامي حتى قال: عائشة وحفصة^٤.

قال محقق الكتاب: والحديث صحيح متفق عليه، أخرجه البخاري ومسلم والطبري والبيهقي، كما أورده أغلب المفسرين بالأثر كابن كثير والشوكاني وغيرهما^٥.

١. جذات المفسرين، ج ١، ص ٨٩٦.

٢. تهذيب التهذيب، ج ٤، ص ٥٥، رقم ٨٦.

٣. راجع: تاريخ التفسير، ص ١٣٥.

٤. الظهران: واد قرب مكة وعند يقال لها: منى، تضاف إلى هذا الوادي فيقال: منى الظهران (معجم البلدان، ج ٤، ص ٦٣).

٥. تفسير الطبري، ج ٢٨، ص ٨٠٤.

٦. راجع: تاريخ التفسير، ص ١٣٩، ١٤٠.

٢٠. ابن أسلم (ابن زيد)

هو عبد الرحمان بن زيد بن أسلم العدوي المدني (١٨٢ هـ)، وقد وصفه الشيخ بالشوخي^١ -نسبة إلى قبيلة تنوخ اليمنية- ويكنى بأبي زيد أيضاً^٢. محدث مفسر، له كتاب في التفسير ورسالة في الناسخ والمنسوخ.

قال فؤاد سزگين: «أما تفسيره فأكثره شروح لغوية، ويبدو أنه كان أحد المصادر ذات الشأن لتفسير الطبري». قال: «أفاد منه الطبري في حوالي (١٨٠٠) موضع بالرواية التالية: «حدثني يونس بن عبد الأعلى (٢٦٤ هـ) قال: حدثنا عبد الله بن وهب، قال: قال عبد الرحمان بن زيد بن أسلم...».

و أفاد التعليق من هذا التفسير في الكشف والبيان^٣. وهكذا الطبرسي في كثرة، معبراً عنه بابن زيد وأحياناً بأبي زيد، وقد يأتي باسمه الصريح.

و أخذ عنه كبار المفسرين أمثال عبد الرزاق بن همام (٢١١ هـ)، ووكيع بن الجراح (١٩٦ هـ)، وكذا سفيان بن عيينة (١٩٨ هـ) وأخيراً^٤.

قال الإمام الحافظ أبو أحمد عبد الله بن عدي الجرجاني بشأنه: له أحاديث حسان، وهو ممن احتمله الناس وصدقه بعضهم، وهو ممن يكتب حديثه^٥. قال الحافظ شمس الدين الداودي: أخرج له الترمذي وابن ماجه^٦.

عده الشيخ أبو جعفر الطوسي من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام^٧. ولنقطة الإسلام الكليني له روايات في أبواب مختلفة من الكافي الشريف وكذا الشيخ في التهذيب. وعمل برواياته الأصحاب^٨.

١. رجال الطوسي: ص ٣٣٣، رقم ١٨٣.

٢. جاءت هذه التسمية في الكامل لابن عدي: ج ٤، ص ٢٧٣.

٣. تاريخ التراث العربي: ج ١، ص ٤٨؛ حقات المفسرين: ج ١، ص ٢٦٥، رقم ٣٥٥؛ معجم المفسرين: ج ١، ص ٢٦٥.

٤. راجع: تهذيب التهذيب: ج ٦، ص ١٧٧-١٧٩، رقم ٣٥٨.

٥. حقات المفسرين: ج ١، ص ٢٦٦.

٦. الكامل لابن عدي: ج ٤، ص ٣٧٣.

٧. معجم رجال الحديث: ج ٩، ص ٣٣٧-٣٣٨.

٨. رجال الطوسي: ص ٣٣٣، رقم ١٣٨.

٢١. أبو معاوية

هو هُثَيْم بن بِشِير السُّلَمِيُّ الواسِطِيُّ، بخاريّ الأصل نزيل بغداد (١٨٣ هـ). الحافظ الكبير أبو معاوية ابن أبي خازم، من مشايخ الإمام أحمد بن حنبل، فقيه محدث، ومفسر خبير. وكان تفسيره أحد مصادر الطبري في التفسير والتاريخ. وأخذ عنه التعليق أيضاً وغيره من المفسرين بالأثر^١.

و ذكر ابن النديم في الفهرست أن له كتباً في الفقه والمغازي والقراءات^٢. قال الداودي: وتفسيره هذا يرويه عنه أبو هاشم زياد بن أيوب بن زياد البغدادي. قال: سمع الزهريّ وعمرو بن دينار ومنصور بن زاذان وحسين بن عبد الرحمان وأبا بشر وأيوب السختيانيّ وخلقاً كثيراً، وعنى بهذا الشأن وفاق الأقران. حدث عنه شعبة ويحيى بن سعيد القطان وأحمد بن حنبل وقتيبة وزياد بن أيوب ويعقوب الدورقيّ والحسن بن عرفة وعدد كثير^٣.

قال أحمد: لزمّت هُثَيْمًا أربع سنين ما يكلفه عن شيء إلا مرتين هيبةً له. وسئل أبو حاتم عنه، فقال: لا يسأل عنه في صدقه وأمانته وصلاحه. قال ابن حجر: إلا أنه كان يدلس، ويروي عن حمّص لم يره ولم يسمعه. قال له ابن المبارك: لم تدلس وأنت كثير الحديث؟! فقال: كبيرك (يريد بهما الأعمش والثوري) قد دلسا. قال أحمد: لم يسمع من جماعة ولكنه حدث عنهم^٤. قال الذهبي: كان مذهبه جواز التدليس بن. قال: لا نزاع في أنه كان من الحفاظ الثقات إلا أنه كثير التدليس^٥.

٢٢. السُّدِّي الصغير

هو محمد بن مروان بن عبد الله بن إسماعيل، حفيد السُّدِّي الكبير^٦ (١٨٦ هـ). صاحب

١. تاريخ التراث العربي، ج ١، ص ٤٨٨. ٢. الفهرست لابن النديم، ص ٣٣٦.

٣. حذات القراء الداودي، ج ٢، ص ٣٥٢، رقم ٦٦٩. ٤. راجع: تهذيب التهذيب، ج ١١، ص ٦٦.

٥. ميزان الاعتدال، ج ٤، ص ٣٠٧، تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ٢٤٩.

٦. راجع: الكنى والألقاب، لقمي، ج ٢، ص ٣١١.

تفسير، وراوى تفسير محمد بن السائب الكلبي. روى عنه الأكابر كالأصمعي وهشام بن عبيد الله الرازي ويوسف بن عدي وأبي إبراهيم الترمذي ومحمد بن عبيد المحاربي وصالح بن محمد الترمذي والحسن بن عرفة، وغيرهم من أعلام الأمر الذي يدل على اعتناء الأئمة به، وإن حاول بعض رجالنا العائمة تضعيفه على عاداتهم بشأن أهل الولاء. وقد تكلمنا بشأنه في ختام الحديث عن تاسع الطرق إلى ابن عباس، وأوضحنا موضع الاعتماد منه.

٢٣. وكيع بن الجراح

هو أبو سنيان وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسي الكوفي الحافظ (١٩٦ هـ)، من كبار الحفاظ والعلماء الزهاد في عصره.

قال أحمد بن حنبل: ما رأيت أوعى للعلم من وكيع ولا أحفظ منه، وكان مطبوع الحفظ. وقيل له: إن فلاناً يتكلم في وكيع، فقال: من كذب بأهل الصدق فهو الكذاب. وكان صديقاً لحنظل بن غياث فلما أُوِيَ القضاء هجره.

قال أحمد: ما رأيت مثل وكيع في الحفظ والإسناد والأبواب مع خشوع وورع، وزاد: ويذكر بالفقه فيحسن ولا يتكلم في أحد. قال: وكان إمام المسلمين في وقته، وكان يقول: عليكم بمصنفات وكيع. وكانت الرحلة إليه في زمانه. قال ابن عمارة: ما كان بالكوفة في زمان وكيع أفقه منه ولا أعلم بالحديث، وكان جهيداً. قال ابن سعد: كان ثقة، مأموناً، عالياً، رفيع القدر، كثير الحديث، حجة. وقال العجلي: كوفي، ثقة، عابد، صالح، أديب، من حفاظ الحديث، وكان يُفتي.

قال يحيى بن معين: رأيت عند مروان بن معاوية لوحاً مكتوباً فيه أسماء شيوخ مع تعقيب كل بنعت، فلان رافضي وفلان كذا، وفلان كذا... وكان فيه: ووكيع رافضي؟

١. نسبة إلى رؤاس: وهو بن من قيس عيلان.

٢. تهذيب الكمال: ج ١٩، ص ٣٩٩؛ تهذيب التهذيب: ج ١١، ص ٣٧-٣٨؛ ميزان الاعتدال: ج ٤، ص ٩٤.

و مروان هذا من الحفاظ الكوفيين واعتمده الأئمة. ذكره ابن حبان في الثقات. و عن ابن معين: ثقة ثقة. وقال علي بن الحسين بن الجنيد عن ابن نمير: كان يلتقط الشيوخ من السكك. قال العجلي: ثقة ثبت، ما حدث عن المعروفين فصحيح. مات فجأة سنة (١٩٣هـ).^١

قال مروان بن محمد الطاطري: ما رأيت أخشع من وكيع، وما وُصف لي أحد إلا ورأيت دون العسفة إلا وكيعاً، فإني رأيت فوق ما وُصف لي^٢. و مروان الطاطري من الأعلام الأثبات. وكان أحمد بن حنبل يُشي عليه، ويقول: إنه كان يذهب مذهب أهل العلم. قال عبد الله بن يحيى: ما رأيت أخشى منه. وقال أبو سليمان الداراني: ما رأيت مسلماً خيراً منه. و ذكره ابن حبان في الثقات. مات سنة (٢١٠هـ).^٣

و كان وكيع نابغة منذ نعومة أظفاره، وكان يُرجى فيه الشموخ والاعتلاء. قال محمد ابن خلف التميمي: سمعت وكيعاً يقول: أتيت الأعمش فقلت: حدثني. فقال لي: ما اسمك؟ فقلت: وكيع. قال: اسم نبيل^٤، ما أحسب إلا سيكون لك نبأ. وقال ابن جرير لو كيع: باكرت العلم، وكان لو كيع ثمانين عشرة سنة.

قال محمد بن عبد الله الموصلي: سمعت قاسماً الجرمي قال: كان سفيان الثوري يدعو وكيعاً وهو غلام، فيقول: يا رؤاسي، تعال أي شيء سمعت؟ فيقول: حدثني فلان كذا. قال: و سفيان يبتسم ويتعجب من حفظه. ونظر إلى عيينة فقال: ترون هذا الرؤاسي، لا يموت حتى يكون له شأن. ولما مات سفيان جلس وكيع بن الجراح في موضعه^٥.

مشايخه كثير فوق العد، منهم: السفينان و شريك النخعي و شعبة بن الحجاج و سليمان الأعمش و ابن جرير و ابن أبي ليلى و أبو حمزة النمايني، وأضرابهم من أعلام.

١. تهذيب التهذيب، ج ١٠، ص ٩٨، رقم ٨٧٧. ٢. تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ٣٠٨، رقم ٣٨٤.

٣. تهذيب التهذيب، ج ١٠، ص ٩٦، رقم ٨٧٥.

٤. النبل: النجابة والنضل. يقال: وُثِقَ بوقع وكاعة فهو وكيع، إذا شد وسب.

٥. تهذيب الكمال، ج ١٩، ص ٣٩٩، رقم ٤٠٠، تاريخ بغداد، ج ١١، ص ١٦٣، حلية الأولياء، ج ٢، ص ٣٦٨، رقم ٤٣٧.

و روى عنه الأئبات وكبار أئمة الرواة كأحمد بن حنبل و علي بن المديني و محمد بن سليمان الأتباري و يحيى بن معين، و أمثالهم في خلق كثير.

قال أبو بكر المروزي: قلت لأحمد بن حنبل: من أصحاب التوري؟ قال: يحيى و وكيع و عبد الرحمان و أبو نعيم. قلت: قدمت و كيعاً على عبد الرحمان؟ قال: وكيع، شيخ^١.

له كتب، منها: تفسير القرآن رواه عنه محمد بن إسماعيل الحسائي^٢. و استخدمه التعلي في الكشف و البيان^٣ و كذا الطبري في جامع البيان^٤. توفي منصرفاً من الحج بئيد (بليدة في نصف طريق مكة من الكوفة) في محرم سنة (١٩٦ هـ).^٥

٢٤. ابن كيسان الأصم

هو أبو بكر عبد الرحمان بن كيسان الأصم (ح ٢٠٠ هـ). كان معاصراً لهشام بن الحكم (١٩٠ هـ) و من طبقة أبي الهذيل العلاف (٢٢٦ هـ) و أقدم منه. ذكره عبد الجبار الهمداني في طبقات المعتزلة، فقال: كان من أفصح الناس و أروعهم و أفقهم، و له تفسير عجيب. و من تلامذته إبراهيم بن إسماعيل بن علي^٦.

و كان من المعتزلة ذوي المكنة له تفسير للقرآن و مجموعة المقالات في الأصول، نالا تقدير كبيراً. أفاد من تفسيره التعلي في كتابه الكشف و البيان^٧، و الطبرسي في مجمع البيان^٨، و غيرهما من كبار المفسرين.

٢٥. يحيى بن زياد الفراء

هو أبو زكريا يحيى بن زياد (٢٠٣ هـ). له في التفسير: معاني القرآن، طبع في ثلاث مجلدات. و سوف نتكلم عنه عند الكلام عن التفاسير الأدبية.

١. طبقات المفسرين، ج ٢، ص ٣٥٧.

٢. المصدر نفسه، ص ٣٩٥-٣٩٦.

٣. راجع: تفسير الصبري في آية الغار من سورة براء.

٤. تاريخ التراث العربي، ج ١، ص ١٨٩.

٥. راجع: لسان الميزان، ج ٣، ص ٤٣٧.

٦. الفهرست لأبن النديم، ص ٣٣١.

٧. تاريخ التراث العربي، ج ١، ص ٤٧٦-٤٧٧.

٨. راجع: مجمع البيان، ج ١، ص ٣٣٦، ذيل الآية ١٥٤ من سورة البقرة، ص ٣٤٩، ذيل الآية ١٥٦.

٢٦. أبو المنذر الكلبي

هو هشام بن محمد بن السائب بن بشر الكلبي (٢٠٤ هـ) من الأعلام المشاهير، بل هو ركن من أركان النهضة الشرقية، وأساطين العلم وصناديد العرفان، أيام كانت الحضارة الإسلامية بالغة ذلك الشأو البعيد، وذلك الصيت الباقي على توالي الأيام^١.

يقول ابن النديم: إنه عالم بالنسب وأخبار العرب وأيامها ومثالبها ووقائعها. أخذ العلم عن أبيه محمد وجماعة من الرواة. قال: قال لي أبي: أخذت نسب قريش عن أبي صالح، وأخذته أبو صالح عن عقيل بن أبي طالب^٢.

يقول السمعاني: أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب، من أهل الكوفة، صاحب النسب. يروي عن أبيه وجماعة (عددهم)، وعقبه بقوله: وكان غالياً في الشيعة^٣. وذكر القمي حكاية عنه بشأن أبيه: إنه صاحب التفسير، كان من أهل الكوفة قائلاً بالرجعة. وابنه هشام، ذانسب عال، وفي الشيعة غالا^٤.

و قال الذهبي: أبو المنذر الأخباري النسابي العلامة. روى عن أبيه أبي المنذر الكلبي المنستر، وعن مجاهد. وحدث عنه جماعة، وعن ابن عساكر: إنه رافضي^٥.

و قال أبو العباس النجاشي: هشام بن محمد بن السائب أبو المنذر الناسب، العالم بالأيام، المشهور بالفضل والعلم. وكان يختص بمذهبنا، وله الحديث المشهور. قال: اعتللت علّة عظيمة نسيت علمي، فجلست إلى جعفر بن محمد فسقاني العلم في كأس، فعاد إليّ علمي. وكان أبو عبد الله عليه السلام يقربه ويُدنيه ويسّطه^٦.

و له آثار كثيرة. فإن كان أبوه خلف كتابه الكبير في التفسير، فإن الولد خلف أكثر من مائة كتاب و تأليف^٧.

١. من كلام أحمد زكي في مقدمة كتاب الأضواء، ص ١٥.

٢. الفهرست لابن النديم، ص ١٤٥-١٤٦.

٣. الأضواء لسمعاني، ص ٨٦.

٤. الكنى والألقاب، ج ٣، ص ١١٨.

٥. رجال النجاشي، ج ٢، ص ٣٩٩، رقم ١١٦٧.

٦. الكنى والألقاب، ج ٣، ص ١١٨.

٧. ميزان الاعتدال، ج ٤، ص ٣٠٤.

٢٧. رُوح بن عُبَادَة

هو أبو مُحَمَّد، رُوح بن عُبَادَة بن العلاء القيسي، أصله من البصرة (٢٠٥ هـ). الحافظ المنسَر. قال علي بن عبد الله: من المحدثين قوم، لم يزالوا في الحديث، لم يُسْغَلوا عنه. نشأوا فطلبوا، ثم صنفوا ثم حدثوا، منهم: رُوح بن عُبَادَة. وسئل ابن معين عن رُوح؟ فقال: ليس به بأس، صدوق. حديثه يدل على صدقه. قيل ليحيى: رُعموا أن القطان كان يتكلم فيه! فقال: باطل ما تكلم القطان فيه بشيء، هو صدوق^١.

أخذ العلم عن الثقات الأثبات: مالك والأوزاعي وابن جريج وابن عون وشعبة والسفياني وأضرابهم. وأخذ عنه الأكابر: أبو خيثمة وأحمد وأبو قدامة وبن دار وعلي بن المديني وابن راهويه، وخلق كثير.

قال الخطيب: كان رُوح من أهل البصرة فقدم بغداد وحدث بها مدة طويلة، ثم انصرف إلى البصرة فمات بها. وكان كثير الحديث، وصنف الكتب في السنن والأحكام، وجمع التفسير، وكان ثقة^٢.

وقد أفاد من تفسيره الطبري والثعلبي وغيرهما من أعلام المفسرين بالآثر^٣.



٢٨. يزيد بن هارون

هو أبو خالد يزيد بن هارون بن زاذان الواسطي، أصله من بخارا (٢٠٥ هـ). أحد الأعلام الحفاظ المشاهير. قال أحمد: كان حافظاً للحديث، صحيح الحديث عن حجاج ابن أرطاة. وقال أبو حاتم: ثقة إمام صدوق، لا يسأل عن مثله.

أخذ العلم من الأعلام كالثوري وشعبة ومحمد بن إسحاق والربيعي وأمثالهم. وأخذ منه الثقات كأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه ويحيى بن معين وعلي بن المديني وأضرابهم.

٢. تاريخ بغداد، ج ٨، ص ٤٠١.

١. تهذيب التهذيب، ج ٣، ص ٢٩٣، رقم ٥٤٩.

٣. تاريخ التراث العربي، ج ١، ص ٩١.

كان محدثاً ومفسراً، له كتاب الفرائض وكتاب التفسير، أفاد منه الطبري في التفسير والتاريخ برواية مجاهد بن موسى بن فروخ المتوفى سنة (٢٤٤ هـ).
وكان على مذهب السلفيين الظاهريين. وكان ينكر القول بخلق القرآن، على ما ذكره الذهبي في تذكرة الحفاظ، ووصفه بشيخ الإسلام القدوة^١.

٢٩. عبد الرزاق الصنعاني

هو عبد الرزاق بن همام بن نافع أبو بكر الصنعاني^٢ (٢١١ هـ). الحافظ الكبير، صاحب التصانيف.

قال ابن عدي: ولعبد الرزاق بن همام أخصاف وحديث كثير، وقد رحل إليه ثقات المسلمين وأنتمهم، وكتبوا عنه ولم يروا بحديثه بأساً، إلا أنهم نسبوه إلى التشيع. وقد روى أحاديث في فضائل أهل البيت ومثالب آخرين، زعمها ابن عدي مناكيراً^٣.

قال الذهبي: وثقه غير واحد، وحديثه مخرج في الصحاح، وله ما ينفرد به، ونقموا عليه التشيع. وما كان يخلو فيه بل كان يحب علياً ويبغض من قاتله. وكان ثقة من أوعية العلم^٤.

مرزوقية كبرى علوم

أخذ العلم عن عكرمة و ابن جريح والأوزاعي ومالك والشافعية وخلق، وعمدتهم معمر بن راشد. وعنه أخذ الأئمة: ابن عيينة - وهو من شيوخه - ووكيع وأبو أسامة وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين وخلق كثير^٥.

١. المصدر نفسه، ج ١، ص ٩٦-٩٣؛ تهذيب التهذيب، ج ١١، ص ٣٦٦؛ تاريخ بغداد، ج ١٤، ص ٣٣٧-٣٤٨؛ تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ٣١٧، ٣٣٠.

٢. هذه التسمية إلى «صنعاء» والمنسوب فيها بالخيار بين إنيات النون بعد الألف وإسقاطها، ويقال فيه صنعاني، وهو الأصل في كل اسم في آخره ألف (الأندلس لسعدي، ج ٣، ص ٥٥٦).

٣. الكامل، ج ٥، ص ٣١٥.

٤. تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ٣٦٤، رقم ٣٥٧. قال بخلة الشيعري: كنت عند عبد الرزاق فذكر رجس معاوية، فقال: لا أقدر مجسماً بذكر ولد أبي سفيان! (ميزان الاعتدال، ج ٤، ص ٦١٠).

٥. تهذيب التهذيب، ج ٦، ص ٣١١.

و عن علي بن هاشم: قال عبد الرزاق: كتب عتي ثلاثة، لا أبالي أن لا يكتب عتي غيرهم: كتب عتي ابن الشاذكوني، وهو من أحفظ الناس. وكتب عتي يحيى بن معين، وهو من أعرف الناس بالرجال. وكتب عتي أحمد بن حنبل، وهو من أزهّد الناس.

قال أبو بكر ابن أبي خيثمة: سمعت يحيى بن معين - وقيل له: إن أحمد بن حنبل قال: إن عبيد الله بن موسى يزد حديثه للتشيع - فقال: كان والله الذي لا إله إلا هو، عبد الرزاق أغلى في ذلك منه مائة ضعف، ولقد سمعت من عبد الرزاق أضعاف أضعاف ما سمعت من عبيد الله!

و قال عبد الله بن أحمد: سألت أبي، قلت: عبد الرزاق كان يتشيع ويفرط في التشيع؟ فقال: أمّا أنا فلم أسمع منه في هذا شيئاً. ولكن كان رجلاً تعجبه الأخبار!

قال محمد بن إسماعيل الفزاري: بلغني - ونحن بصنعاء - أن أحمد ويحيى تركا حديث عبد الرزاق، فدخّلنا غمّ شديد، فوافيت ابن معين في الموسم فذكرت له، فقال: يا أبا صالح، لو ارتدّ عبد الرزاق ما تركنا حديثه! الأمر الذي يدل على عناية بالغة من الأئمة بعبد الرزاق.

له: الجامع الكبير في الحديث وكتاب التفسير، حققه وأخرجه للطباعة الدكتور محمود محمد عبده عميد كلية الدعوة بجامعة الأزهر. وطبع طبعة أنيقة في بيروت - دار الكتب العلمية: ١٤١٩ هـ.

٣٠. أبو عبد الله الغريابي

هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن واقد الرقي الغريابي، نزيل قيسارية من ساحل الشام (٢١٢ هـ). الثقة الحافظ شيخ الشام، حدّث عن الأوزاعي والثوري - ولازمه -

١. تهذيب الكمال: ج ١١، ص ٤٤٧-٤٤٨.

٢. تهذيب التهذيب: ج ٦، ص ٣١٤؛ ميزان الاعتدال: ج ٢، ص ٦١٢.

وجريير بن حازم وخلق. وعنه البخاري والثرقني وابن أبي مريم وأمم سواهم. قال البخاري: كان من أفضل أهل زمانه. وقد ارتحل إليه أحمد بن حنبل، فبلغه موته، فعدل إلى حمص.

وله كتاب التفسير، رواه عنه عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مريم، وكتب في مختلف أبواب الفقه. خرج له جماعة. وأُكر عليه ابن معين حديثه عن ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد: «الشعر في الأنف أمان من الجذام»؛ قال: هذا باطل. روى عنه البخاري ستة وعشرين حديثاً.

وقد أفاد منه الطبري في التاريخ والتفسير، والتعليق في التفسير، وغيرهما.

٣١. أبو عامر

هو: قبيصة بن عقبة بن محمد أبو عامر الكوفي (٢١٥ هـ). روى عن الثوري والجزّاح والد وكيع، وحماد بن سلمة وحمزة الزيات وغيرهم. وروى عنه البخاري وعبد بن حميد وأبو عبيد القاسم بن سلام وأحمد بن حنبل وآخرون. ذكره ابن حبان في الثقات. روى عنه البخاري أربعة وأربعين حديثاً. له كتاب في التفسير أفاد منه الطبري والتعليق، وغيرهما من أعلام المفسرين.

٣٢. أبو حذيفة النهدي

هو موسى بن مسعود أبو حذيفة النهدي البصري (٢٤٠ هـ). المحدث المفسر، من شيوخ البخاري. وروى له أبو داود والترمذي وابن ماجه. قال الدارقطني: قد أخرج له البخاري، وهو كثير الوهم، تكلموا فيه. وقال الساجي: كان يصحّف، وهو لين. وقال الحاكم: كثير الوهم سيئ الحفظ، وفيه ضعف.

وأخرج له الطبري في التفسير والتاريخ، والتعليق في التفسير، وغيرهما من أصحاب

١. حذبات المفسرين، ج ٢، ص ٣٩٦، رقم ٦١١؛ تهذيب التهذيب، ج ٩، ص ٥٣٧؛ تاريخ التراث العربي، مع ادج ١، ص ٩٣.

٢. تهذيب التهذيب، ج ٨، ص ٣٤٧؛ تاريخ التراث العربي، مع ادج ١، ص ٩٤.

التفسير بالأثر:

٣٣. أبو علي الجبائي

هو أبو علي محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي^١ المعتزلي (٣٠٣ هـ). رأس المعتزلة وشيخهم وكبيرهم، ومن انتهت إليه رئاستهم. كان رأساً في الفلسفة والكلام. وله مقالات و تصانيف منها: التفسير في عشر مجلدات صنّته على أصول مذهب الاعتزال، وقد ردّ عليه الأشعري في كتابه تفسير القرآن و الردّ على من خالف البيان من أهل الإفاك والبهتان.

و يقال: إن ابن فورّك قد أخذ كثيراً من تفسير الجبائي. وقد أفاد منه الشيخ أبو جعفر الطوسي كثيراً في تفسيره الكبير التبيان. والشيخ أبو علي الطبرسي في مجمع البيان. وقد ذكر الشيخ أبو جعفر الطوسي في مقدمة تفسيره: أن المتكلمين - ومنهم الجبائي- قد أسرفوا القول في الكلام عند تفسير الآيات بما لا ينبغي. وله أيضاً كتاب متشابه القرآن. أفاد منه ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة من غير أن يذكره^٢.

مركز تحقيق كتب علوم اسلامی

٣٤. أبو الفضر العياشي

هو أبو الفضر محمد بن مسعود بن عياش السمرقندي (٣٢٠ هـ). أصله من سمرقند، وقيل: إنه من بني تميم. قال ابن النديم: من فقهاء الشيعة الإمامية، أوجد دهره و زمانه في غزارة العلم. و لكتبه بنواحي خراسان شأن من الشأن. و عدد كتبه إلى مائتين و ثمانية كتب، في مختلف العلوم

١. تهذيب التهذيب، ج ١٠، ص ٣٧٨ تاريخ التراث العربي، مع ١، ج ١، ص ١٤.

٢. نسبة إلى تجّاء، قرية في ضواحي البصرة.

٣. حذات المنشورين، ج ٢، ص ١٨٩ معجم المنشورين، ج ٢، ص ١٨٩ مقدمة التبيان، ج ١، ص ١٩ شرح نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٤، ٥١ و ٥٤.

والمعارف، منها: كتاب التفسير، وكتاب التنزيل، وكتاب فضائل القرآن، وكتاب باطن القراءات. وله أيضاً كتب في السير.

كان عامي المذهب ثم انضم إلى الخاصة، وهو حديث السن. أخذ من أصحاب علي بن الحسن بن فضال، وجماعة من شيوخ الكوفيين والبغداديين والقميين. واتفق على العلم والحديث تركه أبيه سائرهما - أي جميعهما - وكانت ثلاثمائة ألف دينار، وكانت داره معهد روّاد العلم بين ناسخ ومقابل، أو قارئ ومعلق، ملؤها الناس.

وهو شيخ أبي عمرو ومحمد بن عمر بن عبد العزيز الكشي صاحب كتاب الرجال المشهور^١، وسيوافيك الكلام عن تفسيره القيم الذي بتره الزمان على طول الدهر، مع الأسف الشديد.

٣٥. أبو مسلم الأصفهاني

هو محمد بن بحر الأصفهاني أبو مسلم الكاتب المرسّل البليغ، المتكلم الجدي (٣٢٢هـ). كان الوزير أبو الحسن علي بن عيسى بن داود الجراح يشاقله ويصله. قال محمد بن إسحاق: له من الكتب جامع التأويل لمحكم التنزيل على مذهب الاعتزال أربعة عشر مجلداً، وغيره من الكتب. ووصفه أبو علي التنوخي، بالكاتب المعتزلي العالم بالتفسير، وغيره من صنوف العلم^٢.

والمشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي - شيخ الطائفة - وصف جميل عن تفسيره وتفسير علي بن عيسى الرّماني، يقول: وأصلح من سلك في ذلك (الطريقة العقلية في فهم معاني القرآن) مسلكاً جميلاً مقتصداً، محمد بن بحر، أبو مسلم الأصفهاني، وعلي ابن عيسى الرّماني، فإن كتابيهما أصلح ما صنف في هذا المعنى...^٣

١. الفهرست لأبن النديم، ص ٢٨٨-٢٩١ الكنى والألقاب، ج ٢، ص ٤٩٠-٤٩١.

٢. الوافي بالوفيات لصالح الدين الصفدي، ج ٢، ص ٢٤٤، رقم ٦٤٦ معجم الأدباء، لياقوت الحموي، ج ٥، ص ٢٣٩، رقم ٨٣٨. ٣. راجع مقدمة التبيان، ج ١، ص ٣١.

و هذا التفسير من أهم تفاسير السلف، والذي سلك مؤلفه مسلكاً وسطاً بين طريقتي العقل والنقل، و جمع بين الدراية و الرواية، و أحسن و أجاد.

هذا الإمام الرازي - و هو يخالفه في المذهب (كان يتظاهر بالسلفية الأشعرية) - نراه معجباً بنظرات و آراء أبي مسلم في تفسيره هذا، و يستفيد منه الكثير البالغ - هو عندما يأتي على تفسير الآية (٤١) من سورة آل عمران «قَالَ آيُكَ أَنْ لَا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا زَمْزَاءً»، يذكر ثلاثة أقوال، و القول الثاني لأبي مسلم: أمر بقوم العسمة ثلاثة أيام، و يحق به بقوله: و هذا القول عندي حسن معقول. و أبو مسلم حسن الكلام في التفسير، كثير الغوص على الدقائق و اللطائف.

و هذا التفسير - على عظمته - قد ضاع اليوم. و قد قام بجمع شتاته سعيد الأنصاري الهندي مقتصراً على ما أورده الفخر الرازي في تفسيره، و سماه ملتقط جامع التأويل لمحكم التنزيل و طبع في جزء صغير.

و أخيراً قام الدكتور السيد محمد رضا الغياتي الكرماني و بإشراف مني، بجمع آرائه التفسيرية من أئمة الكتب: تأليف عشرة، عشرة أعلام من كبار العلماء، مع بعض الشرح و التبيين فيما دعت الحاجة إليه، و طبع و نشر عدة مرات، و يحمل عنوان آراء و نظرات أبي مسلم التفسيرية. و قد قدمنا نماذج من آراء أبي مسلم فيما سبق الكلام عن ميزات تفسيره التابعي.

٣٦. علي بن إبراهيم القمي

هو أبو الحسن، علي بن إبراهيم بن هاشم القمي (ح ٣٦٠ هـ). الشيخ الجليل، الحافظ الفقيه المفسر، من مشايخ نقّة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني المتوفى (٣٢٩ هـ).

قال النجاشي: ثقة، ثبت، معتمد، صحيح المذهب. سمع فأكثر و صنف كتباً، منها - في

القرآن - كتاب الناسخ والمنسوخ وكتاب التفسير^١، ووصفه الذهبي بأنه رافضي جلد^٢ له تفسير فيه مصائب^٣.

وأما وصف تفسيره بأن فيه مصائب، فلعله ناظر إلى هذا التفسير المنسوب إليه اليوم، وفيه كلام يأتي عندما نستعرض التفاسير الأثرية، وأن الأمر بشأنه ملتبس، كما وأن هذا الوجود مزيج من روايات منسوبة إلى القمي، وروايات أخرى عن أبي الجارود، وغيره من الرواة، ونسبته إلى القمي لعله تغليب أو مدسوس.

ولم ينقل عنه الكليني شيئاً في جامعه الحديثي الكافي الشريف، في حين كثرة روايته عن القمي نفسه!

وقال الشيخ عباس القمي، هو من أجل رواة أصحابنا، ويروي عنه مشايخ أهل الحديث. ولم نقف على تاريخ وفاته، إلا أنه كان حياً في سنة (٢٠٧ هـ) لأن الصدوق روى عن حمزة بن محمد العلوي بقم في رجب سنة (٣٣٩ هـ) قال: أخبرني علي بن إبراهيم بن هاشم، فيما كتب إلي سنة (٣٠٧ هـ) ...، فلا بد أنه توفي بعد هذا التاريخ، رحمة الله عليه.

مركز تحقيقات كتب نور علوم رسولي

٣٧. أبو الحسن الرماني

هو أبو الحسن علي بن عيسى الرماني النحوي (٢٨٤ هـ) وكان يُعرف بالإخشيدي وبالوراق. كان إماماً في العربية، علامة في الأدب، في طبقة الفارسي والسيرافي، معتزلياً. أخذ عن الرجاج والسراج وابن دريد.

قال أبو حيّان: لم ير مثله قطّ علماً بالنحو، ووزارة بالكلام، وبصراً بالمقالات، واستخراجاً للعويص، وإيضاحاً للمشكل، مع تأله وتنزه ودين وفصاحة، وعفاف ونظافة. وكان يمزج النحو بالمنطق، حتى قال الفارسي: إن كان النحو ما يقوله الرماني

١. رجال النجاشي، ج ٢، ص ٨٦، رقم ٦٧٨. ٢. الجلد: هو الشديد القوي.

٣. ميزان الاعتدال، ج ٣، ص ٨١٨، رقم ٥٧٦٦.

٤. راجع: عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص ٥٧، باب ١٤، رقم ٢٤ (الكافي والأعلام، ج ٣، ص ٨٤).

فليس معنا شيء، وإن كان النحو ما نقوله نحن فليس معه منه شيء.

وكان متفناً في علوم كثيرة من القراءات، والنقد، والنحو، والكلام على مذهب المعتزلة. قال الجفطي^١: له نحو مائة مؤلف، وكان مع اعتزاله شيعياً. له في القرآن: إعجاز القرآن باسم: النكت في إعجاز القرآن. والتفسير باسم الجامع الكبير في التفسير^٢، وقد اعتمده الشيخ في تفسيره الكبير التبيان. ونعته -منضماً إلى تفسير أبي مسلم- بأصلح ما صنف في التفسير العقلي النظري، على أسس وقواعد منطقية رصينة.

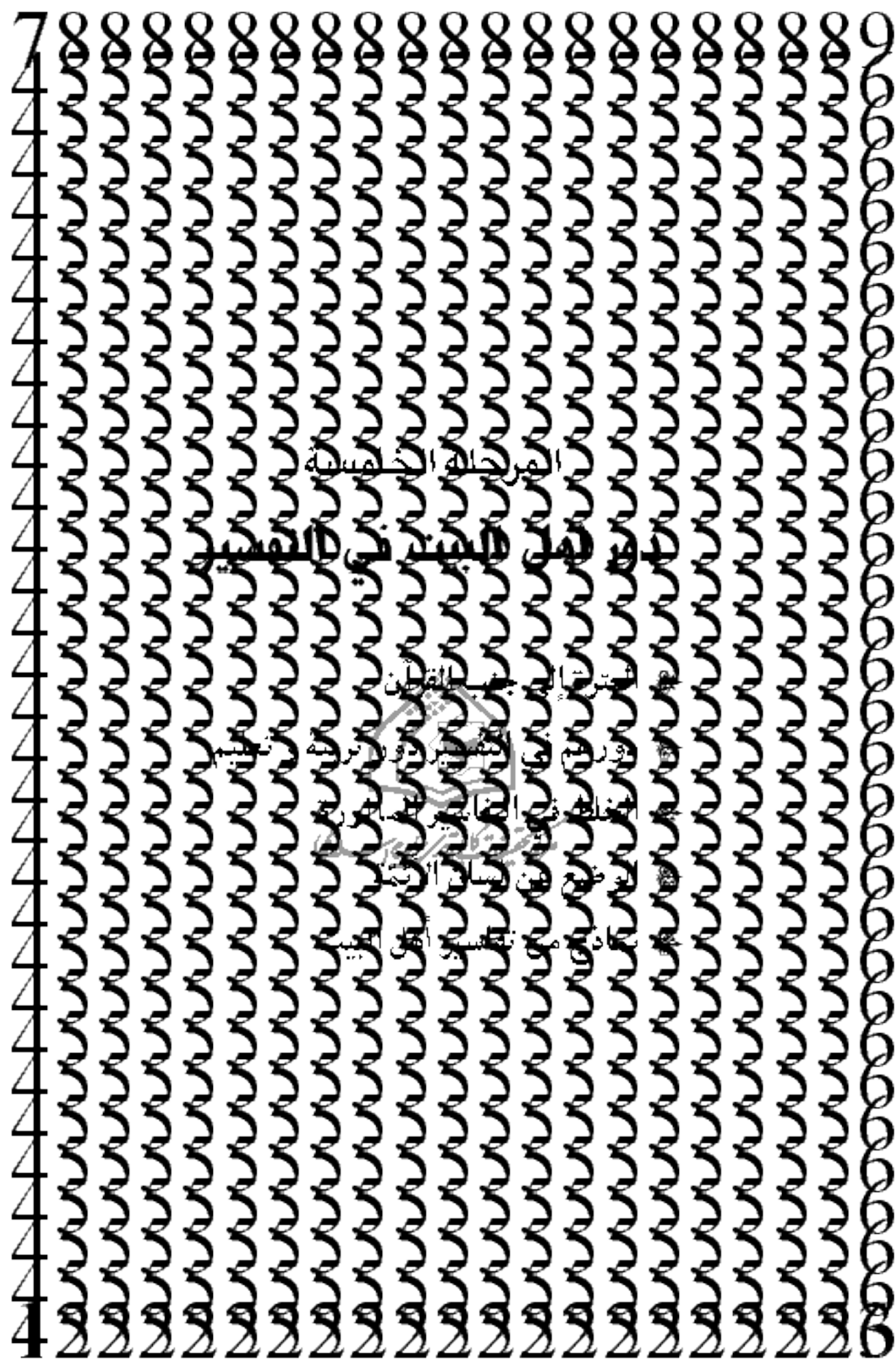
وقد لخص تفسيره اللغوي، المفسر عبد الملك بن علي الهروي (٤٨٩ هـ) وأسماء المنتخب من تفسير الرقائي، ذكره الثعلبي في تفسيره الكشف والبيان^٣.



١. اللفظ بكسر الهمزة وسكون الفاء: مدينة بُنيت في ضيعة يُقَطُّ بمصر العليا، وإليها ينسب الوزير صاحب جمال الدين الأكرم أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني الجفطي. أصلهم قديماً من أرض الكوفة انتقلوا إليها فأقاموا بها، ثم انتقل إلى حلب وإلى الوزارة لصاحبها الملك العزيز (معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٨٣).

٢. حذات المفسرين، ج ٨، ص ٤١٩-٤٢١، رقم ٣٦٥.

٣. معجم المفسرين، ج ٨، ص ٣٣٤.





مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

دور أهل البيت في التفسير

العقرة إلى جنب القرآن

(هم وريثة الكتاب و حملته و خزنة علومه و معارفه)

«ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا»^١

أوصى رسول الله ﷺ بشأن العقرة الطاهرة إلى جنب كتاب الله العزيز الحميد وجعلهما خلفه الباقي في أُمَّته، و عبّر عنهما بالثقلين -محركة- كل شيء نفيس مصون -و لن يفترقا حتى يردا عليه الحوض- كناية عن توأما لهما حتى انقضاء العالم، يتداولان علمين للأمة ما إن تمسكوا بهما لن يضلوا أبداً. حديث مستفيض، بلفظ «كتاب الله و عترتي» أو «كتاب الله و أهل بيتي» أو بالجمع بين التعبيرين «عترتي أهل بيتي» ليكون أحدهما تبييناً للآخر و توضيحاً له، و على التعابير، فهو متفق على صحته و إحكام طرقه و أسانيده، قال العلامة الأميني: هذا الحديث مما اتفقت الأمة و الحفاظ على صحته^٢.

١. فاطر (٣٤): ٣٣.

٢. قال السيد محمد توفيق الزبيدي: الثقل -محركة- متاع المسافرين وحمله، وكل شيء خفيف نفيس مصون، له قدر و وزن، نقل عن العرب قال الفيروزباني: و منه حديث «إني فارق فيكم الثقلين كتاب الله و عترتي»، قال الزبيدي: جعلهما ثقلين إعظاماً لندرجهما و تفضيلاً لهما، قال نقيب سماعنا ثقلين: لأن الأخذ بهما و العمل بهما نقل (تاج العروس بشرح الناموس للزبيدي، ج ٧، ص ٢٤٥).

٣. الغدير، ج ٦، ص ٣٣٠، بالهامش: رقم ٤ (ط بيروت).

قال الحافظ ابن حجر الهيتمي: «ولهذا الحديث طرق كثيرة عن بضع وعشرين صحابياً».

١- الصواعق المحرقة، باب وصية النبي بشأن أهل البيت، ص ١٣٦.

وإليك الأهم من مصادر هذا الحديث في الصحاح المعروفة:

أ- روى مسلم في باب فضائل علي من كتاب فضائل الصحابة، بحذو أسانيد عن زيد بن أرقم، قال: خطب رسول الله ﷺ بغدير خم، فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر، ثم قال: «أنا بعد ألا أنا» الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا ذاك فيكم ثقلين، أوليما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتبه، وإن واستمسكوا به، ثم قال: «أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، قالها ثلاثاً» (صحيح مسلم، ج ٧، ص ٣٢ و ٣٣، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي).

فمثل زيد عمن يكون أهل بيته قال: من حرمته عليه المصدة، هم آل علي وآل عقیل وآل جعفر وآل عباس، وفي أن تكون ذواتهم منهم. رواه مسلم هنا بأربعة طرق كلها صحاح.

ب- وروى الترمذي بإسناده عن جابر بن عبد الله قال: رأيت رسول الله ﷺ في حجته يوم عرفة وهو على ناقته المقصواء ينصب، يقول: «يا أيها الناس إني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي» (المسنن لترمذي، ج ٥، ص ٦٦٢ و ٦٦٣، باب مناقب أهل النبي ﷺ).

و بإسناده أيضاً عن زيد بن أرقم عنه ﷺ: «إني ذاك فيكم ما إن تمسكتكم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما» الحديث، رقم ٣٧٨٨ و ٣٧٨٩.

ج- ورواه الدارمي في سننه (ج ٢، ص ٣١ و ٣٢) بإسناده عن زيد بن أرقم، كما في صحيح مسلم.

د- وروى أحمد بإسناده عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إني ذاك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وأتبعهما لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض...» (مسند أحمد، ج ٣، ص ٤٤٧ و ٤٤٨، تخلفوني فيهما (ص ١٧)، وراجع: ص ٢٦ و ٥٩، وفي ج ٤، ص ٣٦٧ عن زيد بن أرقم عن ما رواه مسلم، وكذا في ص ٣٧١ إشارة، وعن زيد بن ثابت: «إني ذاك فيكم خليفين» (ج ٥، ص ١٨٣ و ١٨٤).

هـ- وأخرج الحاكم عن زيد بن أرقم: «إني قد تركت فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله تعالى وعترتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما...» (المستدرک، ج ٣، ص ١٠٩ و ١١٠ و ١٤٨)، قال الحاكم بشأن الحديث بإسناده في المواضع الثلاثة، هذا حديث صحيح على شرط الشيخين.

و- والمثني الهندي في كنز العمال (ج ١، ص ٣٨١، رقم ١٦٥٧ و ص ٣٨٤، رقم ١٦٦٧، مؤتمنة الرسالة).

ز- وأبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء (ج ٩، ص ٦٤).

ح- ومرتضى الحسيني الفيروز آبادي في فضائل الحسنة (ج ٢، ص ٤٣-٤٣).

ط- وابن حجر الهيتمي في الصواعق المحرقة (ص ١٣٦ و ٧٤)، وفيه أيضاً بدل «عترتي» «سنتي» ولكنه لم يستند إلى أصل وثيق.

ي- قال ابن كثير ذيل آية المودة في القربى من سورة الشورى:

«وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «في خطبته بغدير خم: «إني ذاك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي، وأتبعهما لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض»، وجعل يمد أحاديث وردت بنفس التعبير، قالها رسول الله ﷺ في مواضع كثيرة، حيث كان يجد مجتمع أصحابه، ولا سيما في أخريات سني حياته الكريمة (تفسير ابن كثير، ج ٤، ص ١١٣).

المستفاد من حديث الثقلين أمور

أولاً: لزوم مودّتهم. قال ابن حجر الهيتمي: وفي هذه الأحاديث، لا سيّما قوله ﷺ: «انظروا كيف تخلّفوني فيهما، وأوصيكم بعشرتي خيراً، وأذكركم الله في أهل بيتي»، الحثّ الأكيد على مودّتهم ومزيد الإحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم وتأدية حقوقهم الواجبة والمندوبة، كيف وهم أشرف بيت وُجد على وجه الأرض فخراً وحسباً ونسباً.

قال: وفي قوله ﷺ: «لا تقدّموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا، ولا تعلموهما فإنهم أعلم منكم»، دليل على أنّ من تأهل منهم للمراتب العلية والوظائف الدينية كان مقدّماً على غيره. ويدلّ عليه التصريح بذلك بشأن قريش، فأهل البيت النبويّ الذين هم غرّة فضلهم ومحتدّ فخرهم والسبب في تميّزهم على غيرهم، بذلك أخرى وأحقّ وأولى... وأخيراً قال: وصحّ عن أبي بكر أنّه قال: ارقبوا محمّداً في أهل بيته، أي احفظوا عهده وودّه في أهل بيته.

و عند ذكره لتأويل الآية: «وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُؤُونَ»^١. أسند إلى أبي سعيد الخدريّ، أنّ النبيّ ﷺ قال: «وقفوههم إنّهم مسؤولون عن ولاية عليّ». قال: وكان هذا هو مراد الواحديّ بقوله: روى - في الآية - أنّهم مسؤولون عن ولاية عليّ وأهل البيت؛ لأنّ الله أمر نبيّه أن يعرف الخلق أنّه لا يسألهم على تبليغ الرسالة أجراً إلا المودّة في القربى. والمعنى: أنّهم يسألون هل والوهم حقّ الموالاة كما أوصاهم النبيّ ﷺ أم أضاعوها وأهملوها، فتكون عليهم المطالبة والتبعة^٢.

قال الهيتمي: وأشار الواحديّ بقوله: «كما أوصاهم» إلى الأحاديث الواردة في ذلك، وهي كثيرة، تمّ ذكر طرفاً منها، ومن جملتها حديث الثقلين. وذكر متنوّع متونه، وفي

١. الصواعق المحرقة، ص ٨٣٦-٨٣٧. والرواية عن أبي بكر هذه، أخرجهما البخاريّ في الصحيح، قال: ارقبوا محمّداً ﷺ في أهل بيته. (جامع البخاريّ، ج ٥، ص ٣٦، باب مناقب قرابة النبيّ ﷺ). وأخرجه بإسناد آخر في باب مناقب الحسنين (ج ٥، ص ٣٣). ٢. المصاحف (٣٧) ٣٤.

٣. أخرجه الحافظ الكبير الحاكم الحسكانيّ بعدّة طرق. راجع: شواهد التنزيل، ج ٢، ص ١٠٦-١٠٨.

رواية «كتاب الله وسنتي». وقال: وهي المراد من الأحاديث المقتصرة على الكتاب؛ لأنَّ السُّنة مبيَّنة له فأغنى ذكره عن ذكرها. قال: والحاصل أنَّ الحثَّ وقع على التمسك بالكتاب والسُّنة، وبالعلماء بهما من أهل البيت. وأخيراً قال: ويستفاد من مجموع ذلك بقاء الأمور الثلاثة إلى قيام الساعة.

ملحوظة: قال الهينمي: إنَّ للحديث طرقاً كثيرة وردت عن نيف وعشرين صحابياً. وفي بعض تلك الطرق أنَّه عليه السلام قال ذلك بحجَّة الوداع بعرفة، وفي أخرى أنَّه قاله بالمدينة في مرضه وقد امتلأت الهجرة بأصحابه، وفي تالته أنَّه قال ذلك بغدير خم، وفي رابعة أنَّه قال لما قام خطيباً بعد انصرافه من الطائف.

قال: ولا تنافي؛ إذ لا مانع من أنَّه عليه السلام كرَّر عليهم ذلك في تلك المواضع وغيرها اهتماماً بشأن الكتاب العزيز والعتر الطاهرة.

ثانياً: تداوم إمامتهم ما تداومت أيتام هذه الأُمَّة عبر الأزمان، وكونهم مراجع الخلق بعد رسول الله عليه السلام في فهم الشريعة ومعاني القرآن، مرجعية عاصمة، نظير عصمة القرآن، ومرجعيته عبر الخلود.

قال السيّد الأمين العاملي - بعد ذكر أحاديث الثقلين التي رواها أجلّاء علماء السُّنة وكابر محدّثيهم، في صحاحهم بأسانيدهم المتعدّدة، وثبّق على روايتها الشريقان -:

«دلت هذه الأحاديث على عصمة أهل البيت من الذنوب والخطأ، لمساواتهم فيها بالقرآن التاب عصمتهم، في أنَّهم أحد الثقلين المُخلفين في الناس، وفي الأمر بالتمسك بهم كالتمسك بالقرآن. ولو كان الخطأ يقع منهم لما صحَّ الأمر بالتمسك بهم الذي هو عبارة عن: جعل أقوالهم وأفعالهم حجّة. وفي أنَّ المتمسك بهم لا يضلُّ كما لا يضلُّ المتمسك بالقرآن. ولو وقع منهم الذنب أو الخطأ لكان المتمسك بهم يضلُّ. وأنَّ في اتّباعهم الهدى والنور كما في القرآن، ولو لم يكونوا معصومين لكان في اتّباعهم الضلال. وفي أنَّهم حبل

ممدود من السماء إلى الأرض كالقرآن، وهو كناية عن أنهم واسطة بين الله تعالى وبين خلقه، وأن أقوالهم عن الله تعالى، ولو لم يكونوا معصومين لم يكونوا كذلك.

و في أنهم لن يفارقوا القرآن ولا يفارقهم مدة عمر الدنيا. ولو أنهم أخطأوا أو أذنبوا لفارقوا القرآن وفارقهم.

و في عدم جواز مفارقتهم بتقدم عليهم بجعل نفسه إماماً لهم، أو تقصير عنهم وائتمام بغيرهم، كما لا يجوز التقدم على القرآن بالإفتاء بغير ما فيه أو التفسير عنه باتباع أقوال مخالفين.

و في عدم جواز تعليمهم ورد أقوالهم، ولو كانوا يجهلون شيئاً لوجب تعليمهم، ولم ينه عن رد قولهم.

و دلت هذه الأحاديث أيضاً على أن منهم من هذه صفته في كل عصر وزمان بدليل قوله (عليه السلام): إنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض، وأن اللطيف الخبير أخبره بذلك. و ورود الحوض كناية عن انقضاء عمر الدنيا. فلو خلا زمان من أحدهما لم يصدق أنهما لن يفترقا حتى يردا عليه الحوض.

ثالثاً: أنهم الراسخون في العلم والمصداق الأوفى لوصف أهل الذكر، الذين يعلمون تفسير القرآن وتأويله، فهم وحدهم مراجع الأئمة، في فهم معاني الكتاب ودرس آياته عبر العصور، إنهم أبواب الهدى ومصابيح الدجى وسفن النجاة.

قال الهيثمي - في مقارنة لطيفة بين «الكتاب» و «العترة» -: تسمى رسول الله (صلى الله عليه وآله) القرآن و عترته ثقلين؛ لأن الثقل كل نفيس خطير مصون. وهذان كذلك؛ إذ كل منهما معدن للمعلوم المذنبية والأسرار والحكم العلية والأحكام الشرعية. ولذا حث رسول الله (صلى الله عليه وآله) على الاقتداء والتمسك بهم والتعلم منهم، وقال: «الحمد لله الذي جعل فينا الحكمة أهل البيت». وقيل: سُمِّيَا ثقلين؛ لثقل وجوب رعاية حقوقهما.

١. أعين المذبح، ج ١، ص ٣٧٠، في السماع من دلائل فضل علي (عليه السلام) على سائر الصحابة؛ وندوة الغدير، ج ٣، ص ٣٩٧-٣٩٨.

ثم الذين وقع الحثّ عليهم منهم إنما هم العارفون بكتاب الله وسنة رسوله؛ إذ هم الذين لا يفارقون الكتاب إلى الحوض، ويؤيده الخبر السابق «ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم». وتُميّزوا بذلك عن بقيّة العلماء؛ لأنّ الله أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وسرّفهم بالكرامات الباهرة والمزايا المتكاثرة.

وفي أحاديث الحثّ على التمسك بأهل البيت إشارة إلى عدم انقطاع متأهل منهم للتمسك به إلى يوم القيامة، كما أنّ الكتاب العزيز كذلك. ولهذا كانوا أماناً لأهل الأرض - حسبما يأتي -. ويشهد لذلك قوله ﷺ: «في كلّ خلف من أمّتي عدول من أهل بيتي ينفون عن هذا الدين تحريف الضالّين والتمحال المبطلين وتأويل الجاهلين، ألا إنّ أئمتكم وفدكم إلى الله عزّ وجلّ فانظروا من توفدوا».

ثمّ أحقّ من يتمسك به منهم إمامهم وعالمهم عليّ بن أبي طالب - كرم الله وجهه - لمزيد علمه ودقائق مستنبطاته، ومن ثمّ قال أبو بكر: عليّ عترة رسول الله ﷺ. وقال في قوله تعالى: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ»^١؛ أشار ﷺ إلى وجود هذا المعنى في أهل بيته وأنهم أمان لأهل الأرض كما كان هو أماناً لهم. وفي ذلك أحاديث كثيرة، منها ما رواه الحاكم وصححه على شرط الشيخين: «التجوم أمان لأهل الأرض من الغرق وأهل بيتي أمان لأئمتي من الاختلاف، فإذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس».

وقال: وجاء من طرق عديدة يقوّي بعضها بعضاً: «إنّما مثل أهل بيتي فيكم كمثّل سفينة نوح من ركبها نجا». وفي رواية مسلم: «و من تخلف عنها غرق». وفي رواية: «هالك»، «وإنّما مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطّة في بني إسرائيل، من دخله عُثِر له»^٢. روى ثقة الإسلام الكليني بإسناده إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ الله تبارك وتعالى طهرنا وعصمنا وجعلنا شهداء على خلقه وحجّته في أرضه، وجعلنا مع القرآن،

٢. الأندال (٨): ٣٣.

١. السواعن المحرقة، ص ٩٠ و ٩١.

٣. السواعن المحرقة، ص ٩٠ و ٩١.

و جعل القرآن معناه لا يفارقه ولا يفارقنا».

و روى - أيضاً - عن الإمام أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال - في قول الله عز وجل: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً»^١ - : نزلت في أمة محمد (صلى الله عليه وآله) خاصة. في كل قرن منهم إمام منا شاهد عليهم، و محمد (صلى الله عليه وآله) شاهد علينا^٢. وفي كلامه (عليه السلام) إشارة إلى قوله (صلى الله عليه وآله): «يحمل هذا الدين في كل قرن عدول، ينفون عنه تأويل المبطلين و تحريف الغالين و انتحال الجاهلين، كما ينفي الكير خبث الحديد»^٣. و سأل عبيدة السلماني و علقمة بن قيس و الأسود بن يزيد النخعي، الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) من ذا يسألونه عما إذا شكل عليهم فهم معاني القرآن؟ فأجابهم الإمام (عليه السلام): «سلوا عن ذلك علماء آل محمد»^٤.

و قال الإمام أبو جعفر الباقر (عليه السلام) لعمر بن عبيد^٥: «فإنما على الناس أن يقرأوا القرآن كما أنزل، فإذا احتاجوا إلى تفسيره، فالأئمة بنا و إينا يا عمرو»^٦.

و قال (عليه السلام): «إن العلم الذي نزل مع آدم - كناية عن العلم الذي كان يحمله الأنبياء منذ البداية - لم يرفع، و العلم يتوارث، و كان علي (عليه السلام) عالم هذه الأمة. قال: و إنه لم يمت منا عالم قط إلا خلفه من أهله من علم مثل علمه، أو ما شاء الله...»^٧.

قال الإمام الصادق (عليه السلام): «إنا أهل بيت لم يزل الله يبعث منا من يعلم كتابه من أوله إلى آخره»^٨.

١. النساء (٤): ٤١.

٢. الكافي: ج ١، ص ١٩٠ و ١٩١، رقم ١ و ٥.

٣. رجال الكشي: ص ٤٠، رقم ٥. و الكبر: زكي أو جلد غليظ ذو حافات يفتح فيه الحذاء لإزالة الحديد.

٤. بصائر الدرجات: ص ١٩٦، رقم ٩.

٥. عمرو بن عبيد هذا كان من زعماء المعتزلة و من العلماء الزهراء و كان متفصلاً إلى آل أبيان، البيت الموالي لهم؛ وله معهم مواقف مشرفة. قال حفص بن غياث: ما وصف لي أحد إلا وجدته دون الصفة إلا عمرو بن عبيد فوجدته فوق ما وصف لي. قال: و ما لبث أحداً زهد منه. توفي سنة (١٤٣ هـ) (تهذيب التهذيب: ج ٨، ص ٧٠). و المنصور الدوانيقي في وصف زهده كلام جميل. يقول: «كنكم يماني رؤيد. كنكم يعلب صيد. غير عمرو بن عبيد» (وفيات الأعيان: ج ٣، ص ٦١، رقم ٥٠٣).

٦. تفسير قرأت الكوفي: ص ٣٥٨، رقم ٣٥١.

٧. الكافي: ج ١، ص ٣٢٢، رقم ٢.

٨. بصائر الدرجات: ص ١٩٤، رقم ٦.

نعم، كان ذلك هو مقتضى تلازم الكتاب و العترة، فلا يمكن الاهتداء بأحدهما بعيداً عن الآخر؛ إذ كما أن للكتاب موضع التشريع والتأسيس، كان للعترة موضع التفصيل والتبيين، كما كان ذلك لرسول الله ﷺ.

هكذا عرفت الصحابة والذين اتبعوهم بإحسان، هذا الموضع الرفيع لآل البيت، ولا سيما رؤسهم ورؤيسهم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام. فكانوا يراجعونهم فيما أشكل عليهم من مسائل الشريعة ومفاهيم القرآن، مدعين لهم هذا المقام السامي. هذا الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود، ومن أكابر الصحابة قدراً وأجلاتهم شأناً، تراه يذعن برفعة مقام شاخص هذا البيت الإمام أمير المؤمنين. والله قد تتلمذ على يده حتى في حياة صادق الرسالة الأمين - صلوات الله عليه -.

أخرج أبو جعفر الطوسي - في أماليه - بإسناده إلى ابن مسعود، قال: قرأت على النبي ﷺ سبعين سورة من القرآن أخذتها من فيه، وقرأت سائر القرآن على خير هذه الأمة وأقضاهم بعد نبيهم، علي بن أبي طالب صلوات الله عليه.

أخرج ابن عساكر في ترجمة الإمام بإسناده إلى عبيدة السلماني قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول: لو أعلم أحداً أعرف بكتاب الله مني ببلغه المطايا... فقال له رجل: فأين أنت من علي؟ قال: به بدأت، إني قرأت عليه.

و أخرج عن زاذان عنه، قال: قرأت على رسول الله ﷺ تسعين سورة، وختمت القرآن على خير الناس بعده. قيل له: من هو؟ قال: علي بن أبي طالب.

وهو القائل: القرآن أنزل على سبعة أحرف، ما منها حرف إلا له ظهر و بطن. وأن علي بن أبي طالب عنده منه علم الظاهر والباطن.

١. الأمالي للطوسي، ج ٢، ص ٣١٩. وإذ كنا نعرف أن السور المكية (٨٦) سورة، نعرف أن ابن مسعود قد تحلم القرآن من عن علي عليه السلام في وقت مبكر، أيام كونهم في مكة قبل الهجرة إلى المدينة.

٢. تاريخ دمشق لأبن عساكر، ج ٣، ص ٣٥، رقم ١٠٤٩، ترجمة الإمام.

٣. المصدر نفسه، رقم ١٠٥١، راجع: سعد المسعود، ص ٢٨٥ بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٠٥.

٤. تاريخ دمشق، رقم ١٠٤٨.

و أخرج الحاكم الحسكاني بإسناده عن علقمة، قال: كنت عند رسول الله ﷺ فسئل عن عليّ، فقال: «قسّمت الحكمة عشرة أجزاء، فأعطي عليّ تسعة أجزاء، وأعطيت الناس جزءاً واحداً».

ولابن عباس الصحابي العظيم أيضاً شهادات راقية بشأن الإمام. وكذا غيره من أجلّ الأوصياء، قد مرّت الإشارة إليها في ترجمة الإمام، وهكذا تصريحات من أعلام التابعين لا نعيد ذكرها.

الأمر الذي دعا بنهاء الأئمة في جميع الأدوار، أن يجعلوا من نعمة أهل البيت، قدوتهم في كلّ أبعاد الشريعة، ولا سيّما طريقة فهم القرآن واستنباط معانيه والوقوف على دقائق تعابيره وظرائف نكاته. وكان قولهم هو فصل الخطاب، والقول الفصل في جميع الأبواب. هذا أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني صاحب الملل والنحل (٤٦٧-٥٥٤هـ) يحاول - عند دراسته لتفسير القرآن - أن يجعل رائده علماً من أعلام هذا البيت الرفيع، معتقداً أن الصحيح من القول، لا يوجد إلا عندهم لا عند غيرهم. وإليك بعض كلامه بهذا الشأن:

«و حصّل الكتاب بحمليّة من عشرة الطائفة ونسبته من أصحابه الزاكية الزاهرة، يتلونه حقّ تلاوته، ويدرسونه حقّ دراسته، فالقرآن تركته، وهم ورثته، وهم أحد الثقلين، وهم مجمع البحرين، ولهم قاب قوسين، وعندهم علم الكونين، والعالمين... وكما كانت الملائكة ﷺ معقبات له من بين يديه ومن خلفه تنزيلاً، كذلك كانت الأئمة الهادية، والعلماء الصادقة معقبات له من بين يديه ومن خلفه تفسيراً وتأويلاً» «إِنَّا لَنَحْنُ تَرْثُنَا الذِّكْرُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»^١. فتتزيّل الذّكر بالملائكة المعقّبات، وحفظ الذّكر بالعلماء الذين يعرفون تنزيله وتأويله، ومحكمه ومتشابهه، وناسخه ومنسوخه، وعامّه وخاصّه، ومجمله ومفصّله، ومطلّقه ومقيّده، ونصّه وضامره، وظاهره وباطنه. ويحكمون فيه

بحكم الله، من مفروغه ومستأنفه، وتقديره وتكليفه، وأوامره وزواجره، وواجباته ومحظوراته، وحلاله وحرامه، وحدوده وأحكامه، بالحق واليقين، لا بالظن والتخمين، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب.

و لقد كانت الصحابة - رضي الله عنهم - متفقين على أن علم القرآن مخصوص بأهل البيت عليهم السلام؛ إذ كانوا يسألون علي بن أبي طالب عليه السلام هل خصصتم أهل البيت دوننا بشيء سوى القرآن؟ وكان يقول: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا بما في قراب سيقي هذا. فاستثناء القرآن بالتخصيص دليل على إجماعهم بأن القرآن وعلمه: تنزيله وتأويله مخصوص بهم. ولقد كان جبر الأئمة عبد الله بن عباس عليه السلام مصدر تفسير جميع المفسرين، وقد دعاه رسول الله ﷺ بأن قال: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل. تتلمذ لعلي عليه السلام حتى فقهه في الدين وعلمه التأويل.

و لقد كنت على حدائق سني أسمع تفسير القرآن من مشايخي سماعاً مجرداً، حتى وقفت فعلقته على أستاذي ناصر السبكي أبي القاسم سلمان بن ناصر الأنصاري رحمته الله. تعلقاً ثم أطلعني مطالبات كلمات شريفة عن أهل البيت وأوليائهم - رضي الله عنهم - على أسرار دفينه وأصول متينة في علم القرآن، وفهمني من هو في شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة الطيبة: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين»^١ فطلبت الصادقين طلب العاشقين، فوجدت عبداً من عباد الله الصالحين، كما طلب موسى عليه السلام مع فتاه، «فوجدنا عبداً من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً»^٢. فتعلمت منه مناهج الخلق والأمر، ومدارج التضاد والترتيب، وجهي العموم والخصوص، وحكمي المنروع والمستأنف. فشبت من هذا المعاء الواحد دون الأمعاء التي هي مآكل الضلال ومداخل الجهال، وارتويت من شرب التسليم بكأس كان مزاجه من تسليم، فاهتديت إلى لسان القرآن: نظمته وترتيبه وبلاغته وجزالته وفصاحته

١. صحت مكتوبة كانت عند من النبي ﷺ يحمله في قراب سيقه (مسند أحمد، ج ١، ص ١٥١).

٢. الكهف (١٨): ٦٥.

٣. التوبة (٩): ١١٩.

و براعته»^١.

و من طريف ما يذكر هنا، ما شهد به مثل الحجاج بن يوسف الثقفي بشأن هذا البيت الرفيع، حسبما رواه علي بن إبراهيم القمي في تفسيره: أن أباه حدثه عن سليمان بن داود المنقري عن أبي حمزة الثمالي عن شهر بن حوشب (ت ١١١)، قال: قال لي الحجاج بن يوسف: بأن آية في كتاب الله قد أعيتني! فقلت: أيها الأمير، آية آية هي؟ فقال: قوله: «وإن من أهل الكتاب إلا نؤمنن به قبل موته»^٢، والله لأمر باليهودي والنصراني فيضرب عنقه، ثم أرمقه بعيني، فما أراه يحرك شفتيه حتى يحمداً! فقلت: أصلح الله الأمير، ليس على ما تأولت! قال: كيف هو؟ قلت: إن عيسى بن مريم ينزل قبل يوم القيامة إلى الدنيا، فلا يبقى أهل ملّة يهودي ولا نصراني إلا آمن به قبل موته، ويصلي خلف المهدي. قال: ويحك، نبي لك هذا، ومن أين جئت به؟ فقلت: حدثني به محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال: جئت بها، والله من عين صافية^٣.

كان الحجاج قد حسب أن الضمير في قوله تعالى «قبل موته» يعود إلى «من أهل الكتاب» فجاء تفسير الإمام بإرجاع الضمير إلى المسيح؛ وبذلك زالت علقته. و أورد الإمام الرازي الحديث بلفظ آخر، فاسمها إلى محمد ابن الحنفية، قال: فأخذ ينكت في الأرض بقضيب، ثم قال: لقد أخذتها من عين صافية^٤.

دورهم في التفسير دور تربية وتعليم

كان الدور الذي قام به أئمة أهل البيت عليهم السلام في تفسير القرآن الكريم، هو دور تربية وتعليم، وإرشاد إلى معالم التفسير، وأنه كيف ينبغي أن يفهم معاني كلامه تعالى، وكيف الوقوف على دقائق ورموز هذا الوحي الإلهي الخالد، فقد كانت تفاسيرهم للقرآن،

١. عن مقدمة تفسيره الذي أسماه «مناقب الأسرار ومصالح الأبرار» ج ١، ص ١٠٤-١٠٦، تحقيق الدكتور شب.

٢. كان من فقهاء التابعين ومن النزاه العلماء (تهذيب التهذيب، ج ٤، ص ٣٦٩).

٣. النساء (٤): ٨٩.

٤. تفسير القمي، ج ١، ص ١٥٨؛ مجمع البيان، ج ٣، ص ٨٣٧.

٥. التفسير الكبير، ج ١١، ص ١٠٤.

المأتورة عنهم ﷺ تفاسير نموذجية، كانوا قد عرضوها على الأمة وعلى العلماء، لكي يتعرفوا إلى أساليب التفسير، تلك الأساليب المعتمدة على أصول متينة وقواعد رصينة. وأن في الحجم الغفير من التفسير الوارد عنهم ﷺ ما يُنبؤك عن حرصهم الشديد على تعليم هذه الأمة كيف ينسرون القرآن الكريم، وإيقافهم على نكت وطرف من هذا الكلام البارع. نعم، كانوا ﷺ ورثة القرآن العظيم، وحملته إلى الناس، في أمانة صادقة وأداء وإفاء كريم. و سوف نذكر نماذج من تفاسير مأتورة عن أئمة أهل البيت ﷺ، هي شواهد على كونها مناهج تعليمية لكيفية التفسير، وطريقة استنباط معانيه الحكيمة.

الخلط في التفاسير المأتورة

هناك في التفسير المأتور عن أئمة أهل البيت ﷺ بعض الخلط بين تفسير الظاهر و تفسير الباطن، كما حصل خلط بين بعض التطبيقات و التفسير؛ حيث كان المنصوص عليه معسداً أو من أبرز مصاديق الآية، فحسبها البعض تفاسير. فكان من الضروري التمييز بين الأمرين، و فصل أحدهما عن الآخر، ليُعرف وجه الصواب.

من ذلك ما ورد في تفسير قوله تعالى: «فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» بأنهم آل محمد ﷺ. فقد وردت هذه الآية في سورة النحل: «مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ». وفي سورة الأنبياء: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ»^١.

و ظاهر الآيتين يقتضي بكون الخطاب موجّهاً إلى المشركين، الذين استغربوا نزول الوحي على بشر أو على رجل منهم؛ حيث قالوا: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ»^٢، و قال تعالى: «أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ»^٣.

فرفعاً لاستغرابهم أفسح لهم المجال كي يتساءلوا بذلك أهل الكتاب ممن يلونهم

١. الأنبياء (٣١): ٧.

٢. يونس (١٠): ٣.

٣. النحل (١٦): ٤٣.

٤. الأنعام (٦): ٩١.

وكانوا يعتمدونهم. ومن ثم جاءت في الآية الأولى: «إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ بِالنَّبِيِّاتِ وَالنُّبُرِ»، أي لا تعلمون الكتاب ولا تاريخ الأنبياء والأمم السالفة، فعليكم بمراجعة من يعلم ذلك من أهل الكتاب.

كما جاء تعقيب الآية الثانية بقوله: «وَمَا جَعَلْنَاهُمْ حَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ». أي حيث استغرابهم أن يكون النبي يأكل الطعام ويمشي في الأسواق. هذا هو ظاهر معنى الآيتين: تفسير «أهل الذكر» بـ «أهل الكتاب». لكن ورد في التأويلهما، ما يقتضي بالعموم، بأن تشمل الآية كل ذوي العلم من أهل الثقافة والمعرفة، وعلى رأسهم أئمة أهل البيت (عليهم السلام).

وذلك بالنسبة لخصوصيات المكتنفة بالكلام، والأخذ بعموم اللفظ وعموم الملائكة (أي عموم مناط الحكم) وهو ما يقتضيه العقل من رجوع الجاهل إلى العالم إطلاقاً، وفي جميع مجالات العلم والمعرفة، بما يعم جميع الثقافات.

فهذا من التأويل الذي هو مفاد باطن الآية، وليس من التفسير الذي هو مفاد ظاهرها. هذا المولى محسن الفيض الكاشاني، حسب من هذه الروايات الواردة بتفسير الآية بأهل البيت، تفسيراً حقيقياً حسب ظاهر اللفظ قال: «في الكافي والتميمي والعياشي عنهم (عليهم السلام) في أخبار كثيرة: رسول الله «الذكر» وأهل بيته المسؤولون وهم «أهل الذكر» وأضاف: أن الاستفادة من هذه الأخبار أن المخاطبين بالسؤال هم المؤمنون دون المشركين، وأن المسؤول عنه هو كل ما أشكل عليهم دون كون الرسل رجالاً. قال: وهذا إنما يستقيم إذا لم يكن «وَمَا أَرْسَلْنَا» ردّاً للمشركين، أو كان «فَأَسْأَلُونَا...» كلاماً مستأنفاً، أو كانت الآية متما غير نظمه، ولا سيما إذا عُلّق قوله «بِالنَّبِيِّاتِ وَالنُّبُرِ» بقوله «أَرْسَلْنَا»، فإن هذا الكلام، بينهما. وأمّا أمر المشركين بسؤال أهل البيت عن كون الرسل رجالاً لا ملائكة، مع عدم إيمانهم بالله ورسوله، فمما لا وجه له.

انظر إلى هذا التكلف الذي وقع فيه لتوجيه ما حسبه تفسيراً للآية، فلو أنه أخذ تأويلاً لها مستخلصاً عموم المراد من ظاهر اللفظ؛ وذلك لعموم مناط الحكم في المراجعة والسؤال؛ لكان قد استراح بنفسه.

نعم، وردت الآية بشأن المشركين، وهم جهال، ليسألوا أهل الكتاب؛ لأنهم علماء. وهذا الدستور العقلاني عام في ملائكة ومناظره، فليكن عاماً في خطابه وشموله. هكذا يستفاد العموم من اللفظ ويستخلص الشمول من الملائكة، ويسمى ذلك تأويلاً، أي مآل الكلام في نهاية المراد.

وهكذا قوله تعالى: «قُلْ أَزَأَنتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ»^١ فقد فسرها قوم حسبما ورد من روايات في تأويلها، فحسبوها مفسرات. قال علي بن إبراهيم - بصدد تفسير الآية -: «رَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ إِمَامُكُمْ غَائِبًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِإِمَامٍ مِنْهُ، وَاكْتَفَى بِذَلِكَ وَاسْتَشْهَدَ بِحَدِيثِ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَ: مَاؤُكُمْ: أَبَوَابُكُمْ، أَيْ الْأُئِمَّةُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْأُئِمَّةُ أَبْوَابُ اللَّهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ، «فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ»، يَعْنِي يَعْلَمُ الْإِمَامُ^٢.

وكناية «الماء المعين» عن العلم الصافي عن أكدار الشبهات، أمر معروف، قال تعالى: «وَأَنْ تَوَكَّلْ عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَنَّكُمْ مَاءً عَذْقًا»^٣. وهكذا جاء في تفسير الصافي للمولى محسن الفيض^٤.

غير أن ذلك تأويل للآية وليس تفسيراً لها؛ حيث أخذ «الماء» في مفهومه الأعم من الحقيقي والكناي، أي فيما يورث الحياة ويوجب تداومها وبقائها، إن مادياً أو معنوياً، ليضم الماء الزلال والعلم الصافي جميعاً، وبهذا المعنى العام يشمل كلا الأمرين. فاستخلص من هذا العموم من لفظ الآية، يعتبر تأويلها.

وفي رواية الصدوق - في الإكمال - تصريح بذلك؛ حيث سئل الإمام موسى بن جعفر عليه السلام عن تأويل هذه الآية بالذات، فقال: إذا فقدتم إمامكم فلم تروه فماذا

١. تفسير النخعي: ج ٢، ص ٣٧٩.

٢. الملك (٦٧): ٣٠.

٣. تفسير الصافي: ج ٢، ص ٨٢٧.

٤. الجني (٧٣): ٨٦.

تصنعون؟^١ ليمتاز التأويل عن التفسير.

وقوله تعالى: «وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُكَلِّمَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ»^٢.
فالآية - حسب ظاهرها - وردت بشأن قوم موسى واستضعاف فرعون لهم، فأراد الله أن يرفع بهم ويستذل فرعون وقومه.

لكن الآية في مفادها العام وعهد بنصر المستضعفين في الأرض ورفعهم على المستكبرين، في أي عصر وفي أي دور، سنة الله التي جرت في الخلق. لكن على شرائط يجب توفرها كما توفرت حينذاك على عهد موسى وفرعون، فإن عادت الشرائط وتهيأت الظروف، فإن السنة تجري كما جرت أول الأمر.

وبذلك جاء تأويل الآية بشأن مهدي هذه الأمة، واستخلاص المستضعفين في الأرض على يده من يبر المستكبرين.

قال الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): «لنحطن الدنيا علينا بعد شماسها عطف الضروس على ولدها»^٣، ثم تلا هذه الآية.

وفي كتاب الغيبة قال أمير المؤمنين (عليه السلام): «هم آل محمد - صلوات الله عليه - يبعث الله مهديهم بعد جهدهم، فيعزهم ويذل أعدائهم». والروايات بهذا المعنى كثيرة جداً^٤.
فقد جاء ذكر موسى وقومه وفرعون وقومه، والمقصود - في باطن الآية - كل مستضعف في الأرض ومستكبر فيها.

قال الإمام السجّاد: والذي بعث محمد بالحق بشيراً ونذيراً، إن الأبرار منا أهل البيت وشيعتهم بمنزلة موسى وشيعته، وإن عدونا وأشياعهم بمنزلة فرعون وأشياعه^٥.

١. إكمال الدين، ج ٢، ص ٣٦٠، الباب ٣٤، رقم ٣. ٢. القصص (٢٨): ٥.

٣. نهج البلاغة، ج ١، رقم ٢٠٩. يذلل: شمس الغروب شمساً وشمساً: إذا استعصى على راحته. والضروس: الدافة السنية التي تعش حاليها.

٤. راجع: تفسير الصافي، ج ٢، ص ٢٥٣.

٥. المصدر نفسه، ص ٢٥٤: جوامع الجامع لصبرسي، ص ٣٤٣.

و عبثاً حاول بعضهم جعل ذلك تفسيراً مباشراً للآية، وأخذ فرعون وهامان لفظاً كنايةً بحثاً عن مطلق العتاة في الأرض^١.

و نظير هذه الآية في شمولها العام، وتأويلها بشأن المهدي المنتظر - عجل الله تعالى فرجه الشريف - قوله تعالى: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا»^٢.

فإن مصداقها الحقيقي المنطبق على بساط الأرض كله، إنما يتحقق بظهور المهدي وإزالة الإسلام على كافة وجه الأرض، عند ذلك تكون العبادة لله في الأرض خالصة من الشرك، لا يشرك به أحد من خلقه.

قال الإمام الصادق عليه السلام: نزلت في القائم وأصحابه^٣، أي بشأنهم في تأويل الآية. و هكذا قوله تعالى: «وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ»^٤.

قال الإمام الباقر عليه السلام: هم أصحاب المهدي في آخر الزمان^٥. هذه الآية كالآية السابقة تبشير لعباد الله الصالحين: أنهم سيرثون الأرض ويخلفون المستكبرين فيها في نهاية المطاف، وتنتج الأرض بكاملتها تحت سلطتهم العادلة مدى الآباد. وهو وعد صادق «أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَنْ يُكَذِّبَ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ»^٦.

و هذا الوعد - بما في الكلمة من شمول عام - لا يتحقق كلاً إلا بعد ظهور الإمام الغائب - عجل الله فرجه - لأنه عليه السلام هو الناطق بالحق الصريح، والحاكم بالعدل من غير منازع يومذاك.

١. راجع في ذلك: محاولة التفسير في تفسيره، ج ٣، ص ١٣٣.

٢. الغيبة النعماني، ص ٢٤٠، رقم ٣٥.

٣. البرهان في تفسير القرآن، ج ٣، ص ١٢٥.

٤. النور (٢٤): ٥٥.

٥. الأنبياء (٢١): ١٠٥.

٦. يونس (١٠): ٥٥.

جاء في مزامير داوود (أصحاح: ٣٧): «لا تَغْرُ من الأشجار ولا تحسد عقال الإِثم، فإنَّهم مثل الحشيش سريعاً يُقْطعون، ومثل العُشب الأخضر يَذْبُلون، أَتَكُل على الربِّ و أفعل الخير. اسكن الأرض و ارع الأمانة، و تَلذَّذ بالربِّ يعطيك سؤل قلبك - إلى قوله - و الذين ينتظر الربِّ هم يرثون الأرض... أمَّا الودَّعاء فيرثون الأرض و يتلذَّذون في كثرة السلامة، لأنَّ الباركين منه يرثون الأرض، و الملعونون منه يُعْطعون... الصديقون يرثون الأرض و يسكنونها إلى الأبد...»^١.

و الآية الكريمة طابقت المزامير (زبور داوود) و وعد الحق حتم و لا يخلف الله الميعاد.

و قد فصل الكلام في ذلك، الطبرسي في مجمع البيان، فراجع^٢.
و قوله تعالى: «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا - إلى قوله - مَتَاعاً لَكُمْ»^٣.

قال الإمام أبو جعفر الباقر (عليه السلام): إلى علمه الذي يأخذه عن يأخذه^٤.
لا شك أنَّ العلم غذاء الروح كما أنَّ الطعام غذاء الجسد. فكما يجب على الإنسان أن يعرف أنَّ الطعام الصالح و الغذاء النافع الكافل لسلامة الجسد و صحَّة البدن، هو الذي يأتيه من جانب الله، و أنَّه تعالى هو الذي هيأ له ترفيحاً لمعيشته، كذلك يجب عليه أن يعلم أنَّ العلم النافع و الغذاء الصالح لتنمية روحه و تزكية نفسه، هو الذي يأتيه من جانب الله، و على يد أوليائه المخلصين الذين هم أئمة الهدى و مصابيح الدجى، فلا يستطرق أبواب البعداء الأجانب عن مهابط وحي الله، و مجاري فيضه المستدام.

قال الحكيم الرباني الفيض الكاشاني: لأنَّ الطعام يشمل طعام البدن و طعام الروح جميعاً كما أنَّ الإنسان يشمل البدن و الروح. فكما أنَّه مأمور بأن ينظر إلى غذائه

١. العهد العتيق، مزامير داوود، ص ٢٦-٢٧، الأصحاح ٣٧، ٣٨.

٢. مجمع البيان، ج ٤، ص ٦٦-٦٧.

٣. عبس (٨٠): ٢٤-٢٣.

٤. رجال الكشي، ص ١١٨٩ (ط نجف).

الجسمانيّ ليعلم أنّه نزل من عند الله، فكذلك غذائه الروحانيّ الذي هو العلم، ليعلم أنّه نزل من عنده تعالى بأن صبّ أمطار الوحي إلى أرض النبوة وشجرة الرسالة، وينبوع الحكمة، فأخرج منها حبوب الحقائق وفواكه المعارف، ليغتذي بها أرواح الثابطين للمتريبة، فقولهُ ﷺ: «علمه الذي يأخذه عمّن يأخذه» أي ينبغي له أن يأخذ علمه من مهابط الوحي ومنايع الحكمة، أهل بيت رسول الله ﷺ الذين أخذوا علومهم من مصدر الوحي الأمين، خالصة صافية ضافية.

قال: وهذا تأويل الآية، الذي هو باطن الآية، مراداً إلى جذب ظاهرها حسبما عرفت.

الوضع عن لسان الأئمة

من المؤسف جداً أن نجد كثرة الوضع في التفاسير المنسوبة إلى السلف الصالح، ولا سيما أئمة أهل البيت ﷺ؛ حيث وجد الكذابون - من رفيع جاه آل الرسول ﷺ بين الأئمة، ومواقع قبولهم من الخاصة والعامة أرضاً خصبة استثمروها لترويج أباطيلهم وتفيق بضائعهم المزجاة. فصاروا يضعون الحديث ويختلقون لها أسانيد، يرتفعون بها إلى السلف والأئمة المرضيين؛ كي تحظى بالقبول والتبليغ.

وفي أكثر هذه المفتريات ما يتنافى وقدسيّة الإسلام وتعارض مع مبانيه الحكيمّة، فضلاً عن منافرتها لدى الطبع السليم والعقل الرشيد.

ولحسن الحظ، أن غالبية أسانيد هذه الروايات المفتعلة، أصبحت مقطوعة أو موهونة برجال ضعاف أو مشهورين بالوضع والاختلاق.

و من ثمّ فإنّ الجوامع الحديثيّة التي حوت على أمثال هكذا تفاسير مأثورة نقلاً عن الأئمة ﷺ لم تكّد تصحّ منها إلا القليل النادر، على ما تُنبّه عليه.

* * *

ففي مثل تفسير أبي النصر محمد بن مسعود العياشي (توفي سنة ٣٢٠ هـ) الذي كان

من أجمع التفاسير المأثورة، قد أصبح مقطوع الإسناد، حذف أسانيده بعض الناسخين لعذر غير وجيه، وبذلك أُسقط مثل هذا التفسير الثمين عن الحجية والاعتبار، والذي وصل إلينا من هذا التفسير هو قسم من أوله، مع حذف الإسناد، وبإلأسف.

وهكذا تفسير فرات بن إبراهيم الكوفي (توفي حدود ٣٠٠ هـ) وقد أُسقط أسانيده أيضاً، ومثلهما تفسير محمد بن العباس ماهيار المعروف بابن الحجّام (توفي حدود ٣٣٠ هـ) لم يوجد منه سوى روايات متقطعة الإسناد.

هذه تفاسير كانت بروايات مسندة إلى أئمة أهل البيت، وقد أصبحت مقطوعة الإسناد فاقدة الاعتبار، لا يجوز الاستناد إليها في معرفة آراء الأئمة عليهم السلام في التفسير.

* * *

وأما مثل تفسير أبي الجارود، زياد بن المنذر الهمداني الخارفي الملقب بسرحوب^١ (توفي سنة ١٥٠ هـ) الذي يرويه عن الإمام أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام فضعيف كما لا اعتبار به؛ لأنه من زعماء الزيدية المنحرفين عن طريقة الأئمة، وإليه تُنسب الفرقة الجارودية أو السرحوبية. فقد ورد لعنه عن لسان الصادق عليه السلام، قال: لعنه الله، إنه أعمى القلب أعمى البصر. وقال فيه محمد بن سلمان: أبو الجارود لم يمت حتى شرب المسكر وتولى الكافرين^٢.

وعن أبي بصير قال: ذكر أبو عبد الله الإمام الصادق عليه السلام ثلاثة نفر: كثير النوا، وسالم بن أبي حفصة، وأبا الجارود. فقال: كذّابون مكذبون كذّار، عليهم لعنة الله^٣.

* * *

والتفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام فيه تفسير فاتحة الكتاب وآيات متقطعة من سورة البقرة حتى الآية رقم (٢٨٢) إلى قوله تعالى: «وَلَا يَأْتِ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا». وهذا آخر الموجود من هذا التفسير. زعموا أنه من إملاء الإمام أبي محمد الحسن بن علي

١. سرحوب: اسم ابن أوى، ويقال: إنه شيطان أعمى يسكن البحر.

٢. النهرست لابن النديم، ص ٢٦٧. ٣. معجم رجال الحديث، ج ٧، ص ٣٣٣.

العسكري، أملاه على أبي يعقوب يوسف بن محمد بن زياد، وأبي الحسن علي بن محمد ابن سيّار، كانا من أهل أستر آباد، وحضرا سامراء في طلب العلم لدى الإمام عليه السلام. وراوي عنهما أبو الحسن محمد بن القاسم الخطيب، المعروف بالمفسر الأستر آبادي. غير أنّ الثّنين الأوّلين مجهولان، وراوي عنهما أيضاً مجهول، فهنا ثلاثة مجهيل حتّوا بهذا التفسير المبتور^١.

* * *

و هناك لأحمد بن محمد السياريّ (توفي سنة ٢٦٨ هـ) تفسير متقطع مختصر اعتمد المأثور عن الأئمّة، غير أنّه ضعيف الحديث، فاسد المذهب، مجنّب الرواية، كثير المراسيل. حسبما وصفه أرباب التراجم. وكان القمّيّون - المحتاطون في نقل الحديث - يحذفون من كتب الحديث ما كان برواية السياريّ^٢.

* * *

و تفسير النعمانيّ المنسوب إلى أبي عبد الله محمد بن إبراهيم النعمانيّ من أعلام القرن الرابع (توفي سنة ٣٦٠ هـ)، تفسير مجهول، لم يعرف واضعه، وإنما نسب إلى النعمانيّ عشواً ولم يثبت. فقد عُرّي هذا التفسير المشتمل على توجيه الآيات المتعارضة - فيما زعمه واضعه - إلى ثلاثة من شخصيات لامعة في تاريخ الإسلام، هم: السيّد المرتضى علم الهدى، وسعد بن عبد الله الأشعريّ القميّ، والنعمانيّ هذا. والجميع مكذوب عليهم، يتحاشاه قلم علم من أعلام الدين القويم^٣.

* * *

و أمّا التفسير المنسوب إلى علي بن إبراهيم القميّ (توفي سنة ٣٢٩ هـ) فهو من صنع أحد تلاميذه المجهولين، هو: أبو الفضل العباس بن محمد العلويّ، أخذ شيئاً من التفسير

١. راجع: الذريعة ج ٤، ص ٢٨٥ معجم رجال الحديث ج ١٢، ص ١٤٧ وج ١٧، ص ١٥٦-١٥٧.

٢. راجع: الذريعة ج ١٧، ص ٥٢ معجم رجال الحديث ج ٢، ص ٢٨٣-٢٨٤.

٣. راجع ما كتبناه بشأن هذه الرسالة المجهولة الانساب، في الجزء الثامن، ص ١٩١.

بإملاء شيخه علي بن إبراهيم، و مزجه بتفسير أبي الجارود، الآنف، وأضاف إليه شيئاً مما رواه هو عن غير طريق شيخه بسائر الطرق، فهو تفسير مزيج ثلاثي الأسانيد. ولم يُعرف لحد الآن من هذا العباس العلوي، واضع هذا التفسير.

كما أن الراوي عن أبي الفضل هذا أيضاً مجهول، فلم يصح الطريق إلى هذا التفسير. كما لم يعتمد أرباب الجوامع الحديثية، فلم يرووا عن الكتاب، وإنما كانت رواياتهم عن علي بن إبراهيم بإسنادهم إليه لا إلى كتابه، فهو تفسير مجهول الانتساب.

* * *

و في القرن الحادي عشر، قام مؤلفان كبيران، هما: السيّد هاشم بن سليمان البحراني المتوفى سنة (١١٠٧ أو ١١٠٩ هـ). و عبد علي بن جمعة الحويزي المتوفى (١٠٩١ هـ)، فجمعوا المأثور من أحاديث أهل البيت الواردة في التفسير، من الكتب الآنف، وما جاء عرضاً في سائر الكتب الحديثية، أمثال الكافي وكتب الصدوق وكتب الشيخ، ونحوها.

فجاء ما جمعه السيّد البحراني باسم البرهان، والشيخ الحويزي باسم نور الثقلين. و قد استتملا على تفسير كثير من الآيات القرآنية بصورة منقطعة، ولكن حسب ترتيب السور، من كل سورة آيات، و من غير وفاء بتفسير كامل الآية، سوى الموضع الذي تعرّض له الحديث المأثور.

* * *

غير أن غالبية هذه الروايات مما لا يؤزن بالاعتبار؛ حيث ضعف إسنادها، أو إرسالها، أو مخالفة مضامينها مع أصول العقيدة أو مباني الشريعة، فضلاً عن مخالفة العلم أو العقل الرشيد، الأمر الذي يوهن صدور متليها عن أئمة أهل البيت عليهم السلام؛ إذ يجب تنزيه ساحتهم عن صدور مثل هذه الأخبار الضعاف.

و لناخذ لذلك مثلاً التفسير المنسوب إلى علي بن إبراهيم التميمي، فإنه من أحسن التفاسير المعتمدة على النقل المأثور، سوى اشتماله على بعض المعاييب - و من حسن الحظ إنها قليلة إلى جنب محاسنه الكثيرة - و من ثم فإنها معدودة في جنب محاسنه غير المعدودة «كفى المرء نبلاً أن تعدّ معاييه» و نُشير إلى بعضها كنماذج:

فقد جاء فيه، تفسيراً لقوله تعالى: «الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً»^١: «أن حواء برأها الله من أسفل أضلاع آدم... تجد ذلك في مواضع من هذا التفسير^٢.

في حين أن المراد هنا: الجنس، أي من جنسه، كما في قوله تعالى: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً»^٣.

و قوله تعالى: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ نَكَمٍ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً»^٤.

و قصّة خلقة حواء من ضلع آدم، ذات منشأ إسرائيلي تسرّب في التفسير.

* * *

و هكذا قصّة المَلَكَيْنِ يَبَلْ هَارُوتَ وَمَارُوتَ، كُفْرًا - و العياذ بالله - و زنيا و عبداً للمصنم، و مسخت المرأة نجمة في السماء^٥، و غير ذلك ممّا ينافي عصمة الملائكة المنصوص عليها في القرآن الكريم^٦.

و قصّة الجنّ و النّسّاس، خُلِقُوا قَبْلَ الْإِنْسَانِ، فكانوا موضع عبرة الملائكة^٧.

و كذا تسمية آدم و حواء وليدهما بعبد الحارث، فجعل الله شريكاً^٨.

و قصّة: أن الأرض على الحوت، و الحوت على الماء، و الماء على الصخرة، و الصخرة

١. النساء (٤): ١.

٢. تفسير التميمي: ج ١، ص ٤٥ و ص ١٣٠ و ج ٢، ص ١١٥ (ط نجف).

٣. النحل (١٦): ٧٣.

٤. الروم (٣٠): ٢١.

٥. تفسير التميمي: ج ١، ص ٥٦.

٦. المصدر نفسه: ج ٢، ص ٥١.

٧. المصدر نفسه: ج ١، ص ٣٦.

٨. المصدر نفسه: ص ٢٥١.

على قرن ثور أملس، و الثور على الثرى... تمّ لا يعلم بعدها شيء^١.
كلّها أساطير بائدة، جاءت في هذا التفسير عشوً، و من غير ما سبب معقول.

* * *

و جاء فيه ما ينافي عصمة الأنبياء كما ينافي مقام قداستهم بين الناس.
فتلك قصّة داود و أوريا - على ما جاءت في الأساطير الإسرائيلية - جاءت في هذا
التفسير مع الأسف^٢.

و هكذا قصّة زينب بنت جحش على ما ذكرته النصص العاميّة^٣.
و قصّة شكّ زكريّا و عقوبته بصوم ثلاثة أيّام و غلق لسانه^٤.
و قصّة حجر موسى^٥ و ابتلاء أيّوب و نتن جسده^٦، و فوات سليمان صلاة العصر^٧،
و همّ يوسف بارتكاب الفاحشة^٨، و أنّه الذي نسي ذكر ربّه^٩، و أنّ موسى دفن بلا غسل
و لا كنس^{١٠}، و قوله للربّ: إن لم تغضب لي فمست لك نبّي^{١١}.
و ما إلى ذلك من أساطير ألصقت بأنبياء الله العظام، و حاشا الأئمّة عليهم السلام أن يتكلّموا
بمثلها.

مرکز تحقیق و ترویج علوم و معارف اسلامی

و جاء فيه ما ينافي العلم، فتد ورد بشأن الخسوف و الكسوف غرائب و عجائب:
جاء في تفسير قوله تعالى: «وَجَعَلْنَا النُّيْلَ وَانْهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ النَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ
النَّهَارِ مُبْصِرَةً»^{١٢}.

أنّ من الأوقات التي قدّرها الله، البحر الذي بين السماء و الأرض، و أنّ الله قدّر فيها

- | | |
|---------------------------------|-----------------------------------|
| ١. المصدر نفسه: ج ٢: ص ٥٨ - ٥٩. | ٢. المصدر نفسه: ص ٣٣٠ - ٣٣٢. |
| ٣. المصدر نفسه: ص ١٧٣ - ١٧٤. | ٤. المصدر نفسه: ج ١: ص ١٠١ - ١٠٢. |
| ٥. المصدر نفسه: ج ٢: ص ١٩٧. | ٦. المصدر نفسه: ص ٣٣٩ - ٣٤٠. |
| ٧. المصدر نفسه: ج ٢: ص ٣٤. | ٨. المصدر نفسه: ج ١: ص ٣٤٦. |
| ٩. المصدر نفسه: ص ٣٤٤ - ٣٤٥. | ١٠. المصدر نفسه: ج ٢: ص ١٤٦. |
| ١١. المصدر نفسه: ص ١٤٥. | ١٢. الإسراء (١٧) - ١٢. |

مَجَارِي الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنَّجُومِ وَالْكَوَاكِبِ. تَمَّ قَدْرُ ذَلِكَ كُلِّهِ عَلَى الْفَلَكِ، ثُمَّ وَكَّلَ بِالْفَلَكِ مَلَكًا مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، يَدِيرُونَ الْفَلَكَ، فَإِذَا دَارَتِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجُومُ وَالْكَوَاكِبُ مَعَهُ، نَزَلَتْ فِي مَنَازِلِهَا.

وَإِذَا كَثُرَتْ ذُنُوبُ الْعِبَادِ وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَهُمْ بِآيَةٍ، أَمَرَ الْمَلَكَ الْمُوَكَّلَ بِالْفَلَكِ أَنْ يَزِيلَ الْفَلَكَ الَّذِي عَلَيْهِ مَجْرَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنَّجُومِ وَالْكَوَاكِبِ. فَيَأْمُرُ الْمَلَكُ أُولَئِكَ السَّبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ أَنْ يَزِيلُوا الْفَلَكَ عَنْ مَجَارِيهِ. فَيَزِيلُونَهُ فَتُصَوِّرُ الشَّمْسُ فِي الْبَحْرِ فَيَطْمَسُ حَرَّهَا وَيُغَيِّرُ لَوْنَهَا، وَكَذَلِكَ يُفْعَلُ بِالْقَمَرِ. فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُخْرِجَهُمَا وَيُرُدَّهُمَا أَمَرَ الْمَلَكَ أَنْ يَرُدَّ الْفَلَكَ إِلَى مَجَارِيهِ، فَتُخْرِجُ الشَّمْسُ مِنَ الْمَاءِ وَهِيَ كَدْرَةٌ، وَالْقَمَرُ مِثْلَ ذَلِكَ.

وَجَاءَ فِي مَسَاحَةِ الْأَرْضِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ: أَنَّ الْأَرْضَ مَسِيرَةٌ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، مَسِيرَةُ أَرْبَعُمِائَةِ عَامٍ خُرَابٍ، وَمَسِيرَةُ مِائَةِ عَامٍ عِمْرَانٍ. وَالشَّمْسُ سِتُّونَ فَرَسَخًا فِي سِتِّينَ، وَالْقَمَرُ أَرْبَعُونَ فَرَسَخًا فِي أَرْبَعِينَ.

وَعَلَّلَ أَحَرِيَّةَ الشَّمْسِ مِنَ الْقَمَرِ بِمَا يَلِي:

أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الشَّمْسَ مِنْ نُورِ النَّارِ وَصَفْوِ الْمَاءِ، طَبَقًا مِنْ هَذَا وَطَبَقًا مِنْ هَذَا، حَتَّى إِذَا صَارَتْ سَبْعَةَ أَطْبَاقٍ، أَلْبَسَهَا اللَّهُ لِبَاسًا مِنْ مَرٍّ، فَمِنْ هُنَاكَ صَارَتِ الشَّمْسُ أَحَرَّ مِنَ الْقَمَرِ. قُلْتُ: فَالْقَمَرُ؟ قَالَ: إِنْ اللَّهَ خَلَقَ الْقَمَرَ مِنْ ضَوْءِ النَّارِ وَصَفْوِ الْمَاءِ طَبَقًا مِنْ هَذَا وَطَبَقًا مِنْ هَذَا، حَتَّى إِذَا صَارَتْ سَبْعَةَ أَطْبَاقٍ، أَلْبَسَهَا اللَّهُ لِبَاسًا مِنْ مَاءٍ، فَمِنْ هُنَاكَ صَارَ الْقَمَرُ أَبْرَدَ مِنَ الشَّمْسِ.

* * *

وَجَاءَ فِيهِ مِنْ قِصَصِ أُسَاطِيرِيَّةٍ مَا يَنَافِي الْعَقْلَ وَالْعَادَةَ.

كَقِصَّةِ الرَّجُلِ الَّذِي عَقَلَتْ رَجُلُهُ بِالْهِنْدِ أَوْ مِنْ وَرَاءِ الْهِنْدِ، وَقَدْ عَاشَ مَا عَاشَتْ الدُّنْيَا^١. وَقِصَّةِ مَلِكِ الرُّومِ وَحُضُورِ الْإِمَامِ الْحَسَنِ وَيَزِيدَ لَدَيْهِ، وَمَحَاكَمَتِهِ لِهَاجِرٍ فِي أَسْئَلَةٍ

٢. المصدر نفسه: ج ١، ص ١٦٦-١٦٧.

١. راجع: تفسير القمّي: ج ٢، ص ١٨٧-١٨٨.

غريبة، طرحها عليهما^١.

و قصّة عناق كانت لها عشرون أصبعاً في كلّ أصبع ظفران كالمنجلين^٢.

و قصّة إسرافيل كان يخطو كلّ سماء خطوة، وإنّه حاجب الربّ تعالى^٣.

و كان الوزغ ينفع في نار إبراهيم و الضفدع يطئنّها^٤.

و أنّ يأجوج و مأجوج يأكلون الناس^٥.

كما فُسّرت كلمات بأشياء أو بأشخاص لا مناسبة بينهما. فقد فُسّرت البعوضة

بأمير المؤمنين (عليه السلام) وكذا دابة الأرض به^٦، وهكذا الساعة في قوله تعالى: «تِلْكَ كَذِبُهَا

بِالسَّاعَةِ» أي بعلي (عليه السلام) والورقة بالسقط، والحبّة بالولد^٧، والمشرقين برسول الله

وعلي (عليهما السلام)، والمغربين بالحسن والحسين (عليهما السلام)، وكذا البحرين بعلي وفاطمة (عليهما السلام).

و البرزخ برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)^٨، وكذا الثقلان في قوله تعالى: «سَنَقَرُكُمْ أَيْهَا الثَّقَلَانِ»

بالعترّة و الكتاب^٩، و فُسر الفاحشة بالخروج بالسيف^{١٠}.

مرکز تحقیقات کتب و علوم اسلامی

نماذج من تفاسير أهل البيت (عليهم السلام)

و بعد، فإليكم نماذج من تفاسير مأتورة عن أهل البيت (عليهم السلام)، هي مناهج تعليميّة

لكيفيّة دراسة القرآن الكريم و طريقة استنباط معانيه الحكيمّة. أخذنا الأهمّ منها مأخوذة

من كتب ذوات اعتبار، و في أسانيد صحيحة لا غبار عليها.

١. المصدر نفسه: ج ٢، ص ٢٦٩-٢٧٢.

٢. المصدر نفسه: ص ١٣٤.

٣. المصدر نفسه: ص ٢٨.

٤. المصدر نفسه: ص ١٧٣.

٥. المصدر نفسه: ص ١٢٦.

٦. المصدر نفسه: ج ١، ص ٣٥.

٧. المصدر نفسه: ج ٢، ص ١٣١-١٣٦.

٨. المصدر نفسه: ص ١١٣، الفرقان (٢٥): ١١.

٩. المصدر نفسه: ج ١، ص ٢٠٣.

١٠. المصدر نفسه: ج ٢، ص ٣٤٤.

١١. المصدر نفسه: ج ٢، ص ٣٤٤، الرحمن (٥٥): ٣١.

١٢. المصدر نفسه: ج ٢، ص ١٩٣.

فمنها: ما ورد في تفسير آية الوضوء، وآية التقصير في الصلاة، وآية خمس الغنائم، وقطع يد السارق، وتحريم الخمر، وجزاء قتل المؤمن، والطلاق الثلاث، ومتعة النساء والحج، والرجعة قبل الحشر الأكبر، ومسألة البداء في التكوين. وإليك:

الأول: آية الوضوء

قوله تعالى: «وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ».

أ) مسح الرأس

روى ثقة الإسلام أبو جعفر الكليني بإسناده عن طريق علي بن إبراهيم إلى زرارة، سأل أبا جعفر الباقر عليه السلام قال: ألا تخبرني من أين علمت وقلت: إن المسح ببعض الرأس؟ فضحك الإمام عليه السلام ثم قال: يا زرارة، قال رسول الله ﷺ ونزل به الكتاب. ثم فصل الكلام فيه وقال: لأن الله عز وجل يقول: «فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ» فعرفنا أن الوجه كله ينبغي أن يغسل، ثم قال: «وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ» ثم فصل بين الكلامين فقال: «وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ» فعرفنا حين قال: «برؤوسكم» أن المسح ببعض الرأس، لمكان الباء...^١ يعني أنه غير الأسلوب وزاد حرف الوصل «الباء» بين الفعل ومتعلقه، مع عدم حاجة إليه في ظاهر الكلام؛ حيث كلا الفعلين (الغسل والمسح) متعديان بأنفسهما، يقال: مسح مسحاً، كما يقال: غسله غسلًا. فلا بد هناك من نكتة معنوية في هذه الزيادة غير اللازمة حسب الظاهر؛ إذ زيادة المباني تدل على زيادة المعاني.

وقد أشار عليه السلام إلى هذا السر الخفي بإفادة معنى التبويض في المحل الممسوح، استنباطاً من موضع الباء هنا. ذلك أنه لو قال: وامسحوا برؤوسكم، لاقتضى الاستيعاب، كما في غسل الوجه.

فقوله: «وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ» يستدعي التكليف بالمسح مرتبطاً بالرأس، أي أن

١. الكافي، ج ٣، ص ٣٨، رقم ٤.

٢. المائدة (٥): ٦٧.

٣. قال ابن مالك: علامة الفعل المعذى أن يوصل بها غير مستدرة نحو عمل.

التكليف هو حصول ربط المسح بالرأس، الذي يتحقق بأول إمرار اليد المبتلة بأول جزء من أجزاء الرأس؛ إذ حين وضع اليد على مقدم الرأس - مثلاً - وإمرارها، يحصل ربط المسح بالرأس، وعنده يسقط التكليف؛ لأنَّ المكلف به قد حصل بذلك، ولا تعدد في الامتنال، كما قرّر في الأصول.

فكانت زيادة «الباء» هي التي دللتنا على هذه الدقيقة في شريعة المسح، بعد ورود القول به من رسول الله ﷺ، فيا له من استنباط رائع مستند إلى دقائق الكلام.

هذا، وغير خفي أنَّ هذه الاستفادة الكلامية لا تعني استعمال الباء في معنى التبويض - كما وهمه البعض - بل إنَّ بنية الكلام وتركيبه الخاص (بزيادة ما لا لزوم فيه ظاهراً) هو الذي أفاد هذا المعنى، أي كفاية مسح بعض الرأس. فالتبويض في الممسوح مستفاد من جملة الكلام لا من خصوص الباء؛ إذ ليس التبويض من معاني الباء البتة، فلا موضع لما نازع بعضهم في كون الباء تنيد التبويض.

قال الشيخ محمد عبده: ونازع بعضهم في كون الباء تنيد التبويض، قيل: مطلقاً، وقيل: استقلالاً. وإِنما تُفيده مع معنى الإلصاق، ولا يظهر معنى كونها زائدة.

والتحقيق أنَّ معنى الباء: الإلصاق لا التبويض أو الألفة، وإِنما العبرة بما ينهمه العربي من: مسح بكذا أو مسح كذا، فهو يفهم من: مسح رأس اليتيم أو على رأسه، ومسح بعنق الفرس أو ساقه أو بالركن أو بالحجر، أنه أمرٌ يده عليه. لا يستقيّد ذلك بمجموع الكفّ الماسح، ولا بكلّ أجزاء الرأس أو العنق أو الساق أو الركن أو الحجر الممسوح. فهذا ما يفهمه كلّ من له حظٌّ من هذه اللغة، ممّا ذكر، ومن قوله تعالى: «فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ» - على القول الراجح المختار أنَّ المسح باليد لا بالسيف - ومن مثل قول الشاعر:

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مَنَى كُلِّ حَاجَةٍ وَ مَسَّحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحٌ

و أخيراً ينتهي إلى القول بأنَّ ظاهر الآية الكريمة أنَّ مسح بعض الرأس يكفي في

الامتثال، وهو ما يسمى مسحاً في اللغة، ولا يتحقق إلا بحركة العضو الماسح ملصقاً بالممسوح، فلفظ الآية ليس من المعجمل^١.

وهكذا استدلل الإمام عليه السلام لعدم وجوب استيعاب الوجه واليدين في مسحات التيمم بدخول «الباء» في قوله تعالى: «فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ»^٢، إذ لم يقل: امسحوا وجوهكم وأيديكم، لئلا يفيد الاستيعاب فيهما.

* * *

و لم يحتمل محمد بن إدريس الشافعي في آية الوضوء «وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ» غير هذا المعنى، أي المسح لبعض الرأس. قال: «وكان معقولاً في الآية أن من مسح من رأسه شيئاً فقد مسح برأسه، و لم تحتل الآية إلا هذا، وهو أظهر معانيها، أو مسح الرأس كله. قال: ودلت السنة على أن ليس على المرء مسح رأسه كله. وإذا دلت السنة على ذلك، فمعنى الآية: أن من مسح شيئاً من رأسه أجزأه»^٣.

و زاد - في الأتم - «إذا مسح الرجل بأي رأسه شاء إن كان لا شعر عليه، وبأي شعر رأسه، بأصبع واحدة أو بعض أصبع أو بطن يده، أو أمر من يمسح به أجزأه ذلك. فكذلك إن مسح بزعتيه أو إحداهما أو بعضهما أجزأه»^٤، لأنه من رأسه.

وقد بين وجه المعقولية في الآية بقوله: «لأنه معلوم أن هذه الأدوات موضوعة لإفادة المعاني، فمتى أمكن استعمالها على فوائد مُضمَّنة بها وجب استعمالها على ذلك، وإن كان قد يجوز وقوعها صلة للكلام وتكون ملغاة. لكن متى أمكن استعمالها على وجه الفائدة، لم يجز لنا إلغاؤها، ومن أجل ذلك قلنا: إن الباء في «الآية» للتبعية. ويدل على ذلك أنك إذا قلت: مسحت يدي بالحائط كان معقولاً مسحها ببعضه دون جميعه، ولو قلت: مسحت الحائط كان المعقول مسح جميعه دون بعضه. فقد وضح الفرق بين إدخال

١. المائدة (٥): ٦.

٢. المنار، ج ٦، ص ٢٦٧-٢٦٨.

٣. أحكام القرآن للشافعي: ١٠٠ جمع و قريب أي بكر البيهقي صاحب السنن، ج ١، ص ٤٤.

٤. الأتم للشافعي، ج ١، ص ٤١.

الباء وبين إسقاطها، في العرف والملة. ثم أُيد ذلك بما رواه عن إبراهيم^١، قال: إذا مسح بعض الرأس أجزأه، قال: ولو كانت «امسحوا رؤوسكم» كان مسح الرأس كله. قال: فأخبر إبراهيم أن «الباء» للتبعيض، وقد كان عند أهل اللغة مقبول القول فيها^٢.

قال الرازي: حجة الشافعي أنه لو قال: مسحت المنديل، فهذا لا يصدق إلا عند مسحه بالكلية، أما لو قال: مسحت يدي بالمنديل، فهذا يكفي في صدقه مسح اليدين بجزء من أجزاء ذلك المنديل^٣. وهذا الذي ذكره الشافعي، وإن كان يتوافق - في ظاهره - مع نظرة الإمام الصادق^{عليه السلام}، ولعله ناظر إليه، لكنه يتخالف معه في مواضع:

أحدها: زعمه أن «الباء» استعملت - هنا - بمعنى التبعيض نظير «من» التبعيضية، في حين أنه لم تأت «الباء» في الملة للتبعيض، ولا شاهد عليه أثبتته. وإستناده إلى كلام إبراهيم النخعي غير وجيه؛ لأنه لم يصرح بذلك، بل إن كلامه ككلام الإمام الصادق يهدف إلى أن موضع «الباء» هنا أفاد أجزاء مسح بعض الرأس - بالبيان الذي تقدم - وهذا يعني أن «الباء» - في موضعها الخاص هنا - تفيد التبعيض في مسح الرأس وهذا غير كونها مستعملة في معنى التبعيض، كما عرفت.

الثاني: أن التمثيل بالمنديل غير صحيح؛ لأن المنديل مما يُمسح به وليس ممسوحاً؛ إذ لا يقال - في العرف والملة - مسحت المنديل، فتولنا: مسحت يدي بالمنديل، يفيد كون اليد هي الممسوحة لا المنديل.

الثالث: أن الشافعي لم يشترط أن يكون المسح باليد، قال: فإذا رش الماء على جزء من رأسه أجزأه^٤. ولا ندري كيف يكون الرش مسحاً؟! ولعله أخذ بالملاك قياساً،

١. هو إبراهيم بن يزيد النخعي الكوفي الفقيه، كان منفي أهل الكوفة، قال ابن حجر: كان رجلاً صالحاً فقيهاً متوفياً قبل التكلّف، مات سنة (٩٦ هـ) وهو محتف من الحجّاج (تهذيب التهذيب، ج ١، ص ١٧٧).

٢. أحكام القرآن، ج ٢، ص ٣٤١. ٣. التفسير الكبير، ج ١١، ص ١٦٠.

٤. راجع: الفقه على المذاهب الأربعة للجزيري، ج ١، ص ٦٦٠-٦٦١.

٥. زعماً بأن المصوب هو من بعض الرأس بالماء بأن سب كان، حتى وإن لم يصدق عليه المسح وهو من القياس المستنبط، وهو غير حجة عندنا بعد أن كان خروجاً عن لفظ النص الوارد في الشريعة.

خروجاً عن مدلول لفظ الشرع!

و الحنفية قالوا بكفاية مسح ربع الرأس من أي الأطراف، ويُشترط أن يكون بثلاث أصابع. أمّا المالكية و الحنابلة فقد أوجبوا مسح الرأس كله، وأغفلوا موضع «الباء»^١. كما أن المذاهب الأربعة جميعاً أغفلوا جانب «الباء» في آية التيمم، فأوجبوا مسح الوجه كله، وكذا مسح اليدين مع المرفقين^٢.

يقول القرطبي - وهو مالكي المذهب -: «أمّا الرأس فهو عبارة عن الجملة التي منها الوجه، فلما عين الله الوجه للغسل بقي باقيه للمسح، ولو لم يذكر الغسل للمسح جميعه، ما عليه شعر من الرأس وما فيه العينان والأنف والضم. قال: وقد أشار مالك في وجوب مسح الرأس إلى ما ذكرناه، فإنه سئل عن الذي يترك بعض رأسه في الوضوء، فقال: أريت إن ترك غسل بعض وجهه أكان يجزئه؟ قال: ووضح بهذا الذي ذكرناه أن الأذنين من الرأس، وأن حكمهما حكم الرأس. وأمّا «الباء» فجعلها مؤكدة زائدة ليست لإفادة معنى في الكلام. قال: والمعنى: وامسحوا رؤوسكم»^٣.

مركز تحقيق كتب علوم إسلامي

ب) مسح الرجلين

من المسائل المستعصية التي اشغلت فراغاً كبيراً في التفسير والأدب الرفيع، هي مسألة مسح الأرجل في الوضوء مستفاداً من كتاب الله تعالى. فقد زعم بعضهم أن القراءة بالخفض تتوافق مع مذهب الشيعة الإمامية في وجوب المسح، والقراءة بالنصب تتوافق مع سائر المذاهب. ولكل من الفريقين دلائل وشواهد من السنة أو الأدب ولغة العرب، يجدها الطالب في مطالعها. غير أن الوارد عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) في تفسير الآية الكريمة، هو التصريح بأن

١. راجع: المصدر نفسه، ص ٥٦، ٥٨ و ٦١. ٢. المصدر نفسه، ص ٦١.

٣. تفسير القرطبي، ج ٦، ص ٨٧.

القرآن نزل بالمسح على الأرجل، وهكذا نزل به جبرائيل، وعمل به رسول الله ﷺ، وأمير المؤمنين وأولاده الأطهار، وهكذا خيار الصحابة وجُلّ التابعين لهم بإحسان.

فقد روى الشيخ بإسناده الصحيح إلى سالم وغالب ابني هذيل عن أبي جعفر عليه السلام سؤاله عن المسح على الرجلين؟ فقال: هو الذي نزل به جبرائيل عليه السلام.

يعني: أن الذي يبدو من ظاهر الكتاب هو وجوب مسح الرجلين، عطفاً على الرؤوس، ولا يجوز كونه عطفاً على الوجوه والأيدي، لاستلزامه الفصل بالأجنبي، وهو لا يجوز في مثل القرآن. وهذا سواء قرئ بخفض الأرجل أم بنصبها. أمّا على قراءة الخفض فظاهر، وقد قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وحمزة من السبعة، وشعبة أحد راويي عاصم. لكن مقتضاها المسح لبعض الأرجل، كما في الرأس. أم قرئ بالنصب عطفاً على المحل؛ لأن محل «برؤوسكم» نصب مفعولاً به لا مسحوا، وهو فعل متعدٍ يقتضي النصب. وقد أقيمت «البناء» إقحاماً لحكمة إفادة التبعيض، حينما عرفت.

و قد قرأ النصب أيضاً ثلاثة من السبعة: نافع وابن عامر والكسائي. وحنس الراوي الآخر لعاصم، وهي القراءة المسندة إلى أبي عبد الرحمن السلمي عن أمير المؤمنين عليه السلام. وقد مضى شرحها في فصل القراءات من التمهيد.

غير أن القراءة بالنصب تستدعي الاستيعاب^٢، لتعلق الفعل «امسحوا» بالمسحوح بلا واسطة، وحيث حُدّت الأرجل بالكعبين كالأيدي بالمرققين، كان ظاهره إرادة استيعاب ما بين الحدين (من رؤوس الأصابع إلى الكعبين)، الأمر الذي يؤكد صحة قراءة

١. الاستيعاب: الشيخ الطوسي، ج ١، ص ٢٤، رقم ٨٩/٨٧.

٢. التمهيد، ج ٣، ص ١٥٦ و ٢٦١.

٣. في الاستيعاب، حوالاً من رؤوس الأصابع إلى الكعبين، فقد روى الكليني بإسناده الصحيح إلى أحمد بن محمد ابن أبي نصر البزنطي عن الإمام أبي الحسن الرضا عليه السلام: سأله عن المسح على القدمين كيف هو؟ فوضع كفه على الأصابع فمسحها إلى الكعبين إلى ظاهر القدم، فقالت له: إن رجلاً قال بأصبعين من أصابعه هكذا قال: لا إلا بكه (الكافي، ج ٣، ص ٣، رقم ٦).

أمّا ما ورد من الاجتزاء بثلاثة أصابع فإن المسح على بعضها فيو دافع إلى جانب العرض (المصدر نفسه، رقم ٥).

النصب، وهي القراءة التي جرى عليها المسلمون، وهي المختارة حسب الضوابط التي قدّمناها. وعلى أيّ تقدير، سواء أُقِرَّ بالخنض أم بالنصب، فهو عطف على الرؤوس، وليس عطفًا على الأيدي، فلا موجب لإرادة الغسل في الأرجل.

و من ثمّ فظاهر الكتاب هو المسح كما نصّ عليه أئمة أهل البيت عليهم السلام. وعن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: ما نزل القرآن إلّا بالمسح ^١. وعن ابن عباس: أن في كتاب الله المسح، و يأبى الناس إلّا الغسل ^٢.

و هذا استنكار على العامة في مخالفتهم لظاهر القرآن، المتوافق مع قواعد الفنّ في الأدب والأصول.

قال الشيخ محمد عبده: والظاهر أنّه عطف على الرأس، أي وامسحوا بأرجلكم إلى الكعبين.

قال: اختلف المسلمون في غسل الرجلين ومسحهما، فالجماهير على أن الواجب هو الغسل، والشيعة الإمامية أنه المسح. وذكر الرازي عن المقال أن هذا قول ابن عباس وأنس بن مالك وعكرمة والشعبي وأبي جعفر محمد بن علي الباقر، قال: وعمدة الجمهور في هذا الباب عمل المصدر الأول، وهو يؤيده من الأحاديث القولية. وقد أسهب المقال ونقل عن الطبري اختياره الجمع بين الأمرين، ثمّ ردّفه بكلام الألويسي وتعامله على الشيعة بما يوجد مثله في كتب أهل السنة، في كلام يطول، وإن شئت فراجع ^٣.

الثاني: آية قصر الصلاة

من الآيات التي وقعت موضع بحث وجدل من حيث دلالتها على المراد، هل المقصود بيان صلاة الخوف فقط أم يعمّ صلاة المسافر أيضاً، فما وجه دلالتها؟ ذهب المفسّرون إلى تعميم دلالتها استناداً إلى فعل النبي صلى الله عليه وآله والأئمة وسائر

١. راجع وسائل الشيعة، ج ١، ص ٢٩٥، رقم ١٠٩٥.

٢. المنار، ج ٦، ص ٢٢٧-٢٣٥.

٣. المصدر نفسه، رقم ١٠٩٤.

المسلمين، منذ العهد الأول كانوا يتصرفون من الصلاة استناداً إلى هذه الآية الكريمة، الواردة - بظاهرها - في صلاة الخوف فقط.

قال تعالى: «وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكُمْ وَلْتَاخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكُمْ وَلْتَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَعْلَمُونَ عَنِ اسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِينُونَ عَلَيْكُمْ مِثْلَةً وَاحِدَةً...»^١.

ظاهر العبارة، أن جملة الشرط «إِنْ خِفْتُمْ» قيد في الموضوع، يعني القصر في الصلاة - عند الضرب في الأرض - مشروط بوجود الخوف، و من ثم جاء شرح صلاة الخوف في الآية التالية لها.

و الفتنة - هنا - الشدة والمحنة والبلاء، أي خوف أن يفجعوكم بالقتل والنهب والأسر، كما في قوله تعالى: «عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَرَأَيْنَاهُمْ أَنْ يُفْتِنَهُمْ»^٢، وقوله: «وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ»^٣ أي يفجعوك ببلية وشدة ومصيبة.

قال الطبرسي: ظاهر الآية يقتضي أن القصر لا يجوز إلا عند الخوف، لكننا قد علمنا جواز القصر عند الأمن ببيان النبي ﷺ، ويحتمل أن يكون ذكر الخوف في الآية قد خرج مخرج الأعم الأغلب عليهم في أسفارهم، فإنهم كانوا يخافون الأعداء في عاقبتها، ومثلها في القرآن كثير^٤.

قال المحقق الفيض: قيل: كأنهم ألغوا الإتمام وكان مظنة لأن يخطر ببالهم أن عليهم نقصاناً في التقصير، فرفع عنهم الجناح؛ لتطيب نفوسهم بالتقصير ويطمئنوا إليه^٥.

* * *

١. النساء (٤): ١٠٦-١٠٧.
٢. يونس (١٠): ٨٣.
٣. المائدة (٥): ٤٩.
٤. الإسراء (١٧): ٨٣.
٥. مجمع البيان: ج ٣، ص ١٠١.
٦. تفسير الصافي: ج ١، ص ٣٨٨-٣٨٩.

و روى أبو جعفر الصدوق بإسناده الصحيح عن زرارة ومحمد بن مسلم، إنهما قالَا:
 قلنا للإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام: ما تقول في الصلاة في السفر، كيف هي، وكم هي؟
 فقال: إن الله - عز وجل - يقول: «وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ
 تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ»^١ فصار التقصير في السفر واجباً كوجوب التمام في الحضر.
 قالَا: قلنا: إنما قال الله - عز وجل -: «فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ» ولم يقل: افعلوا، فكيف
 أوجب ذلك كما أوجب التمام في الحضر؟

فقال عليه السلام: أو ليس قد قال الله - عز وجل -: «إِنَّ الصَّلَاةَ وَالْمَرْوَةَ مِنَ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ
 الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا»^٢، ألا ترون أن الطواف بهما واجب مفروض؛
 لأن الله - عز وجل - ذكره في كتابه وصنعه نيته عليه السلام، وكذلك التقصير في السفر شيء، صنعه
 رسول الله ﷺ، وذكره الله تعالى ذكره في كتابه.

قالَا: قلنا له: فمن صلى في السفر أربعاً أعيد أم لا؟
 قال: إن كان قد قرئت عليه آية التقصير وفُسر له، فصلّى أربعاً أعاد، وإن لم يكن
 قرئت عليه ولم يعلمها فلا إعادة عليه. والصلاة كلها في السفر، الفريضة ركعتان كل
 صلاة، إلا صلاة المغرب، فإنها ثلاث يسن فيها التقصير، تركها رسول الله ﷺ في السفر
 والحضر ثلاث ركعات. وقد سافر رسول الله ﷺ إلى ذي حُسب^٣ - وهي مسيرة يوم من
 المدينة، يكون إليها بريدان: أربعة وعشرون ميلاً - فقصر وأفطر؛ فصارت سنة، وقد سَمَّى
 رسول الله ﷺ قوماً صاموا حين أفطر الحُصاة.

قال: فهم الحُصاة إلى يوم القيامة، وإنا لنعرف أبناءهم وأبناء آبائهم إلى يومنا هذا.

و هذا الحديث - على طوله - مشتمل على فوائد جمّة:

١. البقرة (٢): ٢٨٨.

٢. النساء (٤): ١٠١.

٣. قال رافقت الحموي: يضم أوله و دائره واد على مسيرة ليلة من المدينة (معجم البلدان: ج ٢، ص ٣٧٢).

٤. من لا يحضره الفقيه: ج ١، ص ٢٧٨-٢٧٩، رقم ٨٢٦٦.

أولاً: عدم منافاة بين وجوب التقصير في السفر، وبين قوله تعالى في الآية الكريمة: «فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ»، نظير نفي الجُنَاح الوارد في السعي بين الصفا والمروة، فإنه واجب بلا شك.^١

وإنما جاء هذا التعبير لدفع توهم الحظر؛ حيث شعر المسلمون بأن التكليف هو التمام، كما في سائر العبادات، لا تختلف سفرًا وحضرًا، سوى الصوم والصلاة؛ فدفعاً لهذا التوهم نزلت الآية الكريمة.

ثانياً: إن الآية دلت على مشروعية التقصير في السفر، وقد فعله رسول الله ﷺ وفعله المسلمون، وكذلك الأئمة بعده، ولم يتم أحد منهم الصلاة في السفر. فمقتضى قواعد علم الأصول، عدم جواز الإتمام؛ لأن الصلاة عبادة، وهي توقيفية، ولم يعلم مشروعية التمام في السفر، لا من الآية ولا من فعل الرسول وصحابته الأخيار، فمقتضى القاعدة عدم الجواز. لأن الشك دائر بين التعيين والتخيير، والشك في التكليف في مقام الامتناع، يقتضي الأخذ بالاحتياط، الذي هو التقصير في الصلاة؛ إذ يشك في مشروعية ما زاد على الركعتين، ولا تصح عبادة مع الشك في مشروعيةها.

ثالثاً: إن الإمام باقر لم يتعرض للخوف الذي جعل بظاهره شرطاً في الآية، فكأنه باقر فهم أنه موضوع آخر مستقل عن موضوع السفر، وليس قيداً فيه. فالخوف بذاته سبب مجوز للتقصير، كما أن السفر أيضاً سبب، ولا ربط لأحدهما بالآخر.

فالآية وإن كانت ظاهرة في القيد، وأن أحدهما قيد للآخر، لكن فعل الرسول ﷺ وأصحابه وسائر الأئمة، دلنا على هذا التفصيل، وأن كلا منهما موضوع مستقل لجواز التقصير. وهكذا فهم الإمام باقر، وفهمه حجة علينا بالإضافة إلى عمل الرسول ﷺ.

الثالث: آية الخمس

قال الله تبارك وتعالى: «وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَلِذِي

١. راجع ما فُتِنَ به في الجزء الأول، ص ٢٥٦.

الْقُرْبَى»^١

نزلت هذه الآية بعد واقعة بدر؛ حيث لم يخمس رسول الله ﷺ غنائم بدر. قال عبادة ابن الصامت: فاستقبل رسول الله ﷺ بالمسلمين الخمس فيما كان من كل غنيمة بعد بدر^٢، وهي عامة تشمل كل الغنائم الحربية. عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية فغنموا، خمس الغنيمة^٣.

ولكن جاء في تفسير أهل البيت عليه السلام: شمول الآية لكل ما يغنمه الإنسان في حياته من تجارة أو صناعة أو زراعة فكل ما ربحه الإنسان في مكاسبه، مما هو فاضل مؤونته - مؤونة نفسه وعياله - طول السنة، ففيه الخمس^٤.

هكذا ورد عن ثمة أهل البيت عليه السلام حيث أخذوا من لفظ «الغنيمة» عمومها اللغوي الشامل لكل ربح وفائدة؛ لأن «الغنم» مطلق الفوز بالشيء، كما قاله الخليل في العين، فقولهم: «ما غنمتم» كان الموصول عاماً يشمل كل ما فاز به الإنسان من غنيمة أو ربح أو فائدة.

قال الإمام أبو جعفر محمد بن علي الجواد عليه السلام: «فأما الغنائم والفوائد، فهي واجبة عليهم في كل عام. قال الله تعالى: «وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَيُلْزِمُ سَوِي وَنِذَى الْقُرْبَى...». والغنائم والفوائد - يرحمك الله - فهي الغنيمة يغنمها المرء، والفائدة يفيدها، والجائزة من الإنسان للإنسان التي لها خطر، والميراث الذي لا يحسب...»^٥.

و عن الإمام أبي الحسن موسى عليه السلام سألته سماعة عن الخمس، فقال: في كل ما أفاد الناس من قليل أو كثير^٦.

قال الطبرسي: قال أصحابنا: إن الخمس واجب في كل فائدة تحصل للإنسان من

١. الأذفال (٨): ٤١.

٢. الدر المنثور، ج ٣، ص ١٨٧؛ تفسير الصري، ج ١، ص ٣.

٣. راجع وسائل الشيعة، ج ٢، ص ٣٤٩.

٤. المصدر نفسه، ص ٣٥٠، رقم ٣٥٨٧/٢.

٥. الدر المنثور، ج ٣، ص ١٨٥.

٦. المصدر نفسه، رقم ٣٥٨٦/١، ٥.

المكاسب وأرباح التجارات، وفي الكنوز والمعادن والغوص وغير ذلك. قال: ويمكن أن يستدل على ذلك بهذه الآية، فإن في عرف اللغة يطلق على جميع ذلك اسم «الخُم» و«الخُميمة»^١.

* * *

و أمّا مستحقّ هذا الخمس، فهم آل الرسول وذريته الأطيبون، إن شاءوا أخذوه وإن شاءوا تركوه للمعوزين من فقراء المسلمين، أو في وجوه البرّ وفي سبيل الله. وقد سأل نجدة الحروريّ عبد الله بن عباس عن ذوي القربى الذين يستحقّون الخمس، فقال: إنا كنا نرى أنّهم، فأبى ذلك علينا قومنا، فقال: لمن تراه؟ فقال ابن عباس، هو لقربى رسول الله ﷺ قسّمه لهم رسول الله ﷺ وقد كان عمر عرض علينا من ذلك عرضاً رأيناه دون حقّنا فرددناه عليه وأبينا أن نقبله. وكان عرض عليهم أن يُعين ناكحهم، وأن يقضي عن غارمهم، وأن يُعطي فقيرهم، وأبى أن يزيدهم على ذلك. وأخرج ابن المنذر عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، قال: سألت عليّاً عليه السلام عن الخمس، فقلت: يا أمير المؤمنين، أخبرني كيف كان صنع أبي بكر وعمر في الخمس نصيبكم؟ فقال: أمّا أبو بكر فلم تكن في ولايته الخمس، وأمّا عمر، فلم يزل يدفعه إليّ في كلّ خمس، حتّى كان خمس السوس وچند يسابور، فقال: - وأنا عنده - هذا نصيبكم أهل البيت من الخمس، وقد أحلّ بعض المسلمين واشتدّت حاجتهم. فقلت: نعم. فوثب العباس بن عبد المطلب، فقال: لا تعرض في الذي لنا... ثمّ قال: فوالله ما قبضناه ولا قدرت عليه في ولاية عثمان.

و عن زيد بن أرقم، قال: آل محمّد ﷺ الذين أعطوا الخمس، آل عليّ وآل عباس وآل جعفر وآل عقیل^٢.

و في الصحيح عن الإمام أبي جعفر محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام، قال: ذو القربى هم قرابة

١. الدر المختار ج ٣، ص ٨٦.

٢. مجمع البيان ج ٤، ص ٥٤٤.

الرسول. والخمس لله وللرسول ولنا. وفي حديث الرضا عليه السلام: فما كان لله فلرسوله، وما كان لرسول الله فهو للإمام.

والتصحيح عندنا: أن الخمس كله للإمام - الذي هو ولي أمر المسلمين - يضعه حيث يشاء، نعم، عليه أن يعول منه فقراء بني هاشم من نصف الخمس، فإن احتاجوا زادهم من عند نفسه. والمسألة محررة في الفتنة، على اختلاف في الأقوال.

الرابع: آية القطع

روى أبو النضر محمد بن مسعود العياشي، بإسناده إلى زرقان صاحب ابن أبي داود قاضي القضاة، قال: أتني بسارق إلى محضر المعتصم، وقد أقر على نفسه بالسرقة، وسأل الخليفة تطهيره بإقامة الحد عليه. فجمع الخليفة لذلك الفقهاء، وقد أحضر محمد بن علي الجواد عليه السلام، فسألهم عن موضع القطع.

فقال ابن أبي داود: من الكر سوع (طرف الزند) واستدل بآية التيمم، ووافقهم قوم. وقال آخرون: من المرفق، نظر إلى آية الوضوء. فالتفت الخليفة إلى الإمام الجواد مستفتياً برأيه في ذلك، فاستعناه الإمام. لكنه أصر على معرفة رأيه، وأقسم عليه بالله أن يخبره برأيه.

فقال الإمام: أما إذا أقسمت عليّ بالله، إني أقول: إنهم أخطأوا فيه السنة، فإن القطع يجب أن يكون من مفصل أصول الأصابع، فيترك الكف.

قال الخليفة: وما الحجة في ذلك؟

قال الإمام: قول رسول الله ﷺ: «السجود على سبعة أعضاء، الوجه واليدين والركبتين والرجلين» فإذا قطعت يده من الكر سوع أو المرفق، لم يبق له يد يسجد عليها، وقد قال الله تعالى: «وَأَنْ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ»، يعني به هذه الأعضاء السبعة التي يسجد عليها «فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا»، وما كان لله لم يقطع.

فأعجب المعتصم ذلك، وأمر بقطع يد السارق من مفصل الأصابع دون الكف^١.
انظر إلى هذه الالتفاتة الرقيقة التي تُنبّه لها الإمام ولم يلتفت إليها سائر الفقهاء، ذلك
أن اليد في آية القطع وقعت مجملة قد أُبهم المراد منها، فلا بدّ من تبينها إمّا من السنّة
أو الكتاب ذاته. وقد التفت الإمام عليه السلام لوجه الشبّه إلى السنّة مدعماً بنصّ الكتاب، فبيّن
أن راحة الكف هي إحدى المواضع السبعة التي يجب على المصلّي أن يسجد عليها،
وذلك بنصّ الحديث الوارد عن الرسول ﷺ، وهذا كبيان الصغرى. ثمّ أردفه ببيان
الكبرى المستفادة من الآية الكريمة الشاملة بعمومها لكلّ مسجد، سواء الموضع الذي
يسجد فيه، أو العضو الذي يسجد عليه، كلّ ذلك لله. وما كان لله لا تشمل عقوبة الحدّ، لأنّ
العقوبة إمّا ترجع إلى ما للعبد المذنّب، ولا تعود على ما كان لله تعالى. وهو استنباط
ظريف جدّاً.



و ممّا يُستغرب في المقام ما ذكره الجزيري تعليلاً لوجوب القطع من مفصل الكف، أي
الزند، قال: لأنّ السرقة تقع بالكف مباشرة، والساعد والعضد يحملان الكف، والعقاب
إمّا يقع على العضو المباشر للجريمة، ولذلك قطع اليمى أولاً؛ لأنّ التناول يكون بها في
غالب الأحيان^٢.

قلت: هذا التعليّل يقتضي وجوب القطع من مفصل الأصابع، كما عليه فقهاء الإماميّة
وبه رواياتهم؛ لأنّ الأصابع هي التي تناوش المتاع المسروق، والكفّ تحمل الأصابع.
وقد ذكر ابن حزم الأندلسي أن عليّاً عليه السلام كان يقطع الأصابع من اليد ونصف القدم من
الرجل، وكان عمر يقطع كلّ ذلك من المفصل، وأمّا الخوارج فرأوا القطع من المرفق أو
المنكب^٣.

١. تفسير الجاسني، ج ٩، ص ٣١٩، ٣٢٠ راجع: وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٤٨٩-٤٩١، باب ٤: حدّ القطع، وآية نزع يد
السارق، من سورة المائدة (٥): ٣٨.

٢. الفقه على المذاهب الأربعة، ج ٥، ص ١٥٩. ٣. المحجّ، ج ١١، ص ٣٥٧، رقم ٣٢٨٤.

الخامس: تحريم الخمر

لم ترد آية في المنع عن شرب الخمر، بل نطز التحريم صريحاً، وإِنما هو أمر بالاجتناب عنه أو ممّا ينبغي الانتهاء منه، ممّا هو ظاهر في الإرشاد إلى حكم العقل محضاً، الأمر الذي قد يوهّم أنّها غير محرّمة في شريعة الإسلام!

و من ثمّ سأل المهديّ العباسيّ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام عن ذلك، قال: هل هي محرّمة في كتاب الله عزّ وجلّ، فإنّ الناس إنّما يعرفون النهي عنها ولا يعرفون التحريم لها؟ فقال له الإمام عليه السلام: بل هي محرّمة في كتاب الله، يا أمير المؤمنين.

قال: في أيّ موضع هي محرّمة في كتاب الله، يا أبا الحسن؟ فقال: في قول الله عزّ وجلّ: «قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَ الْأَشْهُمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ...»^١.

قال عليه السلام: أمّا «ما ظهَرَ» فهو الزنى المعلن، ونصب الرايات التي كانت ترفعها الفواحش للفواحش في الجاهليّة، وأمّا «ما بَطَّنَ» فيحكي ما تكج من الآباء، لأنّ الناس قبل البعثة إذا كان للرجل زوجة ومات عنها، تزوّجها ابنه من بعده إذا لم تكن أمّه.

قال: وأمّا «الأشْهُم» فإنّها الخمر، بعينها. وقد قال تعالى في موضع آخر: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا...»^٢.

فالتفت المهديّ إلى عليّ بن يقطين - وكان حاضراً المجلس ومن وزرائه - وقال: يا عليّ، هذه والله فتوى هاشميّة! فقال ابن يقطين: صدقت والله يا أمير المؤمنين، الحمد لله الذي لم يخرج هذا العلم منكم أهل البيت، فما صبر المهديّ أن قال: صدقت يا رافضيّ، وكان يعرف منه الولاء لآل البيت^٣.

وبهذه المقارنة الدقيقة بين آيتين قرآنيّتين يُعرف التحريم صريحاً في كتاب الله، الأمر الذي أعجب المهديّ العباسيّ، واستعظم هذا التنبّه الرقيق والذكاء المُرهِف الذي حظي به

١. البقرة (٢): ٢١٩.

٢. الأعراف (٧): ٣٣.

٣. الكافي، ج ٤، ص ٤٠٦.

البيت الهاشمي الرفيع.

وهكذا روي عن الحسن تفسير «الإثم» في الآية «بالخمر»^١.
قال العلامة المجلسي: المراد بالإثم ما يوجب، وحاصل الاستدلال أنه تعالى حكم في تلك الآية بكون ما يوجب الإثم محرماً، وحكم في الآية الأخرى بكون الخمر والميسر مما يوجب الإثم، فثبت بمقتضاها تحريمهما^٢.

* * *

و الكناية بالإثم عن الخمر؛ لأنها أم الخبائث ورأس كل إثم^٣، كان قد شاع ذلك الوقت
وقبله، وتعارف استعماله. أنشد الأخفش:

شربت الإثم حتى ضلّ عقلي كذاك الإثم يذهب بالعقول
وقال آخر:

نهانا رسول الله أن نقرب الخنا وأن نشرب الإثم الذي يوجب الوزر^٤
و أيضاً قال قائلهم في مجلس أبي العباس:
نُشِرِبَ الإِثْمَ بِالصُّوَاعِ جَهَاراً وَ تَرَى الْمِسْكَ بَيْنَنَا مُسْتَعَاراً^٥
وقد صرح الجوهري بوروده في اللغة قال: وقد سُمِّيَ الخمر إثمًا، ثم أنشد البيت
الأول. كذلك عدّها الفيروز آبادي أحد معانيه.

* * *

و أمّا إنكار جماعة أن يكون الإثم اسماً للخمر، فهو إنما يعني الإطلاق الحقيقي دون

١. مجمع البيان، ج ٤، ص ٤١٤. ٢. مرآة العقول، ج ٣٦، ص ٣٦٤.

٣. شرح الكشي بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام: قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْخَمْرَ رَأْسُ كُلِّ إِثْمٍ» (الكافي، ج ٥، ص ٤٠٣).

٤. مجمع البيان، ج ٤، ص ٤١٤.

و الحداء: الفحش من الكلام واستعبر لكل أمر نبيح. وقد كثر بالإثم عن الخمر فإنها إذا لم تكن بمعنى الوزر لم يكن يوجب الوزر، ولم يصح تعلق الشرب به.

٥. ذكره ابن سيده (ابن منظور) لسان العرب.

و الصواع: إناء يشرب فيه. و مستعار متداول في لغاتهم بأيدينا فاستعملته.

المجاز والاستعارة، فكل معصية إثم، غير أن الخمر لشدة تأثيمها سُميت إثمًا؛ لأنها رأس المآثم وأصلها وأساسها، كما بُهنا. وإلى هذا يرجع كلام ابن سيده، قال: وعندي أنه إنما سُمّيت إثمًا؛ لأن شربها إثم، فهو من الإطلاق الشائع الدائر على الألسن، وضعا ثانويًا عرفيًا بكثرة الاستعمال. نعم، ليس من الوضع اللغوي الأصل.

وإلى هذا المعنى أيضًا يرجع إنكار ابن الأنباري أبي بكر النحوي أن يكون الإثم من أسماء الخمر، لا إنكار استعماله فيها مجازًا شائعًا. قال الزبيدي: وقد أنكر ابن الأنباري تسمية الخمر إثمًا، وجعله من المجاز، وأطال في ردّ كونه حقيقة.^١ قلت: وهو كذلك بالنظر إلى أصل اللغة.

وأنكره ابن العربي رأسًا قال: «لا حجة فيما أنشده الأخفش؛ لأنه لو قال: شربت الذنب أو شربت الوزر لكان كذلك، ولم يوجب أن يكون الذنب أو الوزر اسمًا من أسماء الخمر، كذلك الإثم. قال: والذي أوجب التكمّل بمثل هذا، الجهل باللغة، وبطريق الأدلة في المعاني. لكن الفارق أن العرب استعملت «الإثم» في الخمر وتعارف استعماله في عرفهم، حتّى حصّ به على أثر الشياخ، أمّا «الذنب» و«الوزر» فلم يتعارف استعمالهما في ذلك، ولو تعارف لكان كذلك.

قال القرطبي - في ردّه -: أنه مروي عن الحسن، وذكره الجوهري مستشهدًا بما أنشده الأخفش، وهكذا أنشده الهروي في غريبه، على أن الخمر: الإثم. قال: فلا يبعد أن يكون «الإثم» يقع على جميع المعاصي وعلى الخمر أيضًا لغةً، فلا تناقض.^٢

السادس: قتل المؤمن متعمدًا

قال تعالى: «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا»^٣.

١. تلح العروس: ج ٨، ص ٨٧٩.

٢. النساء (٤): ٩٣.

٣. لسان العرب: ج ٣، ص ٨.

٣. تفسير القرطبي: ج ٨، ص ٣٠٩.

هذه الآية دلّت على أن قاتل المؤمن مخلّد في النار، ولا يخلّد في النار إلا الكافر الذي يموت على كفره؛ لأنّ الإيمان مهما كان فإنّه يستوجب المنوبة، ولا بدّ أن تكون في نهاية المطاف، على ما أسلفنا^١.

كما أنّها صرّحت بأنّ الله قد غضب عليه ولعنه، ولا يلعن الله المؤمن إطلاقاً، كما في الحديث عن الإمام أبي جعفر عليه السلام^٢.

ومن ثمّ وقعت أسئلة كثيرة من أصحاب الأئمة بشأن الآية الكريمة:

روى الكليني بإسناده إلى سماعة بن مهران، سأل أبا عبد الله عليه السلام عن الآية، فقال: «من قتل مؤمناً على دينه فذلك المتعمّد الذي قال الله عزّ وجلّ: «وَأَعَدُّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً»»، قال: فالرجل يقع بينه وبين الرجل شيء، فيضربه بسيوفه فيقتله؟ قال: «ليس ذلك المتعمّد الذي قال الله عزّ وجلّ...».

وهكذا أسئلة أخرى من عبد الله بن بكير وعبد الله بن سنان وغيرهما بهذا الشأن^٣. فقد بيّن الإمام عليه السلام أنّ من يقتل مؤمناً لإيمانه، إنّما عمد إلى محاربة الله ورسوله وابتغاء الفساد في الأرض، وليس عمله لغرض شخصي يرتبط بذاته، إنّما هو إرادة محق الإيمان من على وجه الأرض. ولا شك أنّ محارب الله ورسوله، ومخلّد في النار -إن مات على عقيدة الكفر- و غضب الله عليه، ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيماً. وهكذا سار مفسّرو الشيعة على هدى الأئمة في تفسير الآية^٤.

أمّا سائر المفسّرين ففسّروه بقتل العمد الموجب للدية^٥، ولم يبيّنوا وجه الخلود في النار، والغضب واللعة من الله.

١. التمهيد: ج ٣، ص ٣٢٦؛ رقم ٣١/٥٣؛ بحث المنسوخات وح ٣، ص ٣٦٧.

٢. في حديث صويل روى الكليني في الكافي: ج ٤، ص ٣١؛ وسائل الشيعة: ج ١٩، ص ١٠، رقم ٢.

٣. الكافي: ج ٤، ص ٢٧٥-٢٧٦؛ راجع: تفسير العياشي: ج ١، ص ٢٧٧، رقم ٥٣٦.

٤. راجع: البيان: ج ٣، ص ٣٩٥؛ مجمع البيان: ج ٣، ص ٩٣؛ تفسير الصافي: ج ١، ص ٣٨٦؛ الميزان: ج ٥، ص ٥٢؛ كنز الدقائق للمذهبي: ج ٢، ص ٥٧٦؛ تفسير العياشي: ج ١، ص ٢٧٧.

٥. راجع: التفسير الكبير: ج ١٠، ص ٣٣٧؛ تفسير القرطبي: ج ٥، ص ٣٣٩؛ تفسير ابن كثير: ج ١، ص ٥٣٦؛ المنار: ج ٥، ص ٣٣٩.

السابع: الطلاق الثلاث

مما وقع الخلاف بين الفقهاء قديماً ولا يزال هي مسألة الطلاق الثلاث بلفظ واحد، فقد ذهب فقهاء الإمامية إلى أنها طلاق واحد لعدم فصل الرجوع بينهما. أما باقي الفقهاء فأقروها ثلاثاً وكانت بائنة.

و قد عدت أئمة أهل البيت عليهم السلام ذلك مخالفاً للكتاب والسنة، قال تعالى: «فَطَلِّقُوهُنَّ نِعَظْمَهُنَّ»^١، وقال: «أَنْطَلِقُ مَرَّتَانٍ فَمَسَاكُ مَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَانٍ - إِلَى قَوْلِهِ - فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ»^٢.

فقد روى عبد الله بن جعفر بإسناده إلى صفوان الجمال عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أن رجلاً قال له: إني طَلَّقْتُ امرأتي ثلاثاً في مجلس؟ قال: ليس بشيء، ثم قال: أما تقرأ كتاب الله: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ نِعَظْمَهُنَّ»^٣ كلما خالف كتاب الله والسنة فهو يرد إلى كتاب الله والسنة^٤.

و بإسناده إلى إسماعيل بن عبد الخالق، قال: سمعت الصادق عليه السلام يقول: طَلَّقَ عبد الله ابن عمر امرأته ثلاثاً، فجعلها رسول الله ﷺ واحدة، وردّه إلى الكتاب والسنة^٥.



قال الشيخ: معنى قوله تعالى: «فَطَلِّقُوهُنَّ نِعَظْمَهُنَّ» أن يطلقها وهي طاهر من غير جماع، ويستوفي باقي الشروط، أي يكون الطلاق في حالة تمكنها أن تعتد عدتها. فمعنى «نِعَظْمَهُنَّ»: قبل عدتهن. وهكذا قرئ أيضاً. قال الشيخ: ولا خلاف أنه أراد ذلك - أي تفسيراً وتوضيحاً للآية - وإن لم تصح القراءة بهذا.

وفي سنن البيهقي عن ابن عمر: قرأ النبي ﷺ «فِي قَبْلِ عِدَّتِهِنَّ»، وفي رواية: «لِقَبْلِ

١. الطلاق (٦٥): ١. ٢. البقرة (٢): ٢٢٩، ٢٣٠.

٣. قرب الإسناد للحميري، ص ٣٩، وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٣١٧، رقم ٢٥.

٤. قرب الإسناد، ص ٦٩، وسائل الشيعة، رقم ٢٦. ٥. البيان، ج ١٠، ص ٢٩، ٣٠.

٦. الخلاف للشيخ الطوسي، ج ٢، ص ٢٤، ٢٥، كتاب الطلاق.

عدّتهن»^١.

و في شواذ ابن خالويه: «فَطَلَّقُوهُنَّ فِي قَبْلِ عَدَّتِهِنَّ» عن النبي و ابن عباس و مجاهد^٢.
قال الطبرسي: إنه تفسير للقراءة المشهورة: «فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ» أي عند عدّتهن،
و مثله قوله: «لَا يُحْلِيهَا نَوَاقِيها» أي عند وقتها^٣.

فقال الرمخسري: فَطَلَّقُوهُنَّ مُسْتَقْبَلَاتٍ لِعَدَّتِهِنَّ، كقولك: أتيتك ليلة بقيت من الشهر، أي
مستقبلاً لها. و في قراءة رسول الله ﷺ: «في قبل عدّتهن»^٤.

قال الرازي: اللام - هنا - بمنزلة «في»، نظير قوله تعالى: «هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا
مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ»^٥. و الآية بهذا المعنى؛ لأن المعنى: فَطَلَّقُوهُنَّ فِي
عَدَّتِهِنَّ، أي في الزمان الذي يصلح لعدّتهن^٦.

قال الرمخسري: اللام في «لِأَوَّلِ الْحَشْرِ» هي اللام في قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا
لِحَيَاتِي»^٧، و قولك: جئتك لوقت كذا. و المعنى: أخرج الذين كفروا عند أول الحشر. و معنى
«أَوَّلِ الْحَشْرِ»: أن هذا أول حشرهم إلى الشام، و كانوا من سبط لم يصبهم جلاء قط، و هم
أول من أخرج من أهل الكتاب من جزيرة العرب إلى الشام، و هذا أول حشرهم^٨.
قال ابن المنير - في الهامش - : كما أنه يريد بها اللام التي تصحب التاريخ، كقولك: كتبت
لعام كذا و شهر كذا.

إذن فمعنى الآية الكريمة: فَطَلَّقُوهُنَّ لِمَبْدَأِ عَدَّتِهِنَّ، أي في زمان يمكن بدء العدة منه.

* * *

و الطلاق ينقسم - في الشريعة - إلى طلاق سنة و طلاق بدعة. و الأول ما كان مجتمعاً
للمشروط، ففي المدخول بها: أن تكون في طهر غير مواقع فيه، فتطلق تطليقة ثم تترك حتى

٢. الشواذ لابن خالويه، ص ١٥٨.

٤. الكشاف، ج ٤، ص ٥٥٦.

٥. التفسير الكبير، ج ٣، ص ٣٠.

٨. الكشاف، ج ٤، ص ٤٩٩.

١. التفسير الكبير، ج ٤، ص ٣٦٧.

٣. مجمع البيان، ج ١، ص ٣٠٣، ٣٠٤.

٥. الحشر (٥٩): ٢.

٧. النجر (٨٩): ٣٤.

تنتضي عدتها، ثم يُعقد عليها وتُطلق ثانية على نفس الشرائط، وهكذا في الثالثة. وهذا من أحسن طلاق السنة.

و يجوز أن يراجعها زوجها في عدتها ويأها تم يطلقها، أو يطلقها بعد الرجوع من غير وطء. وهذا من الطلاق العدِّي، كل هذا من الطلاق السني الجائز بالاتفاق. ويقابله الطلاق البدعي، وهو الطلاق غير المستجمع للشرائط.

قال الشيخ: الطلاق المحرم (البدعي) هو أن يطلق مدخولاً بها، غير غائب عنها غيبة مخصوصة، في حال الحيض، أو في طهر جامعها فيه، فإنه لا يقع عندنا (الإمامية) والعقد ثابت بحاله. وقال جميع الفقهاء: أنه يقع وإن كان محظوراً، ذهب إليه أبو حنيفة وأصحابه، ومالك، والأوزاعي، والثوري، والشافعي.

وقال - أيضاً -: إذا طلقها ثلاثاً بلفظ واحد كان مبدعاً، وقعت واحدة عند تكامل الشروط عند أكثر أصحابنا، وفيهم من قال: لا يقع شيء أصلاً. وقال الشافعي: المستحب أن يطلقها طليقة، فإن طلقها تسين أو ثلاثاً في طهر لم يجامعها فيه، دفعة أو متفرقة، كان ذلك مباحاً غير محظور، ووقع، وبه قال أحمد وإسحاق وأبو ثور.

وقال قوم: إذا طلقها في طهر واحد تسين أو ثلاثاً، دفعة واحدة أو متفرقة، فعل محرماً وعصى وأثم. وفي الثقات من قال بالحرمة إلا أنه يقع، وهم أبو حنيفة وأصحابه ومالك. والخلاصة أن الشافعي وأحمد لا يريان ذلك طلاق بدعة، فيجيزان الطلاق الثلاث بلفظ واحد وإن كان الثاني والثالث لغير عدة، فإنه جائز ونافذ أيضاً.

أما أبو حنيفة ومالك فيريان بدعة وإثمًا، لكنه يقع نافذاً^١.

وعلى أي تقدير، فالمذاهب الأربعة متفقة على وقوع الطلاق الثلاث بلفظ واحد. قال الجزيري: فإذا طلق الرجل زوجته ثلاثاً دفعة واحدة، بأن قال لها: أنت طالق ثلاثاً، لزمه ما نطق به من العدد، في المذاهب الأربعة، وهو رأي الجمهور^٢.

١. راجع: الخلاف ج ٤ ص ٣٤٤ م ٣، و ص ٣٤٦ م ٣.

٢. راجع: سنن الشافعي ج ٤ ص ١١٦ الهامش. ٣. الفقه على المذاهب الأربعة ج ٤ ص ٣٤١.

و هذا من جملة الموارد التي خالف الفقهاء صريح الكتاب، لزعم أنه وردت السنة به، إنما تأويلاً لنص الآية أو نسخاً لها فيما زعموا. حاشا لفقهاء الإمامية، لم يخالفوا الكتاب في شيء، كما هم عملوا بالسنة الصحيحة الواردة عن طرق أهل البيت (عليه السلام).

وقد أصر أئمة أهل البيت على أن مثل هذا الطلاق (ثلاثاً بلفظ واحد) مخالف لصريح الكتاب، وما كان مخالفاً للكتاب فهو باطل يجب ضربه عرض الجدار.

إذ قوله تعالى: «فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ» يشمل الطلاق الثاني والطلاق الثالث، لم يقم للمعدة؛ حيث كانت العدة عدة للطلقة الأولى فحسب.

قال الإمام الصادق (عليه السلام) لابن شميم: «إذا طلق الرجل امرأته على غير طهر وغير عدة كما قال الله عز وجل، ثلاثاً أو واحدة، فليس طلاقه بطلاق. وإذا طلق الرجل امرأته ثلاثاً وهي على طهر من غير جماع بشاهدين عدلين فقد وقعت واحدة وبطلت الثنتان. وإذا طلق الرجل امرأته ثلاثاً على العدة كما أمر الله عز وجل فقد بانّت منه ولا تحلّ له حتى تنكح زوجاً غيره»^١.

إذن فالطلقة الثانية وكذا الثالثة، لم تقع للمعدة حسبما ذكره الله تعالى في كتابه، ومن ثم وقع الطلاق الثلاث بلفظ واحد، موضع إنكار رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في الجرة، على مخالفة صريح الكتاب:

أخرج النسائي من طريق معمر بن عتبة عن أبيه بكير بن الأشج، قال: سمعت محمود بن لبيد قال: أخبر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً، فقام غضبان، ثم قال: أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم! حتى قام رجل وقال: يا رسول الله، ألا أقنله؟^٢ وذكر الشارح المراد به قوله تعالى: «الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ - إلى قوله - وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا»^٣، فإن معناه: التطبيق الشرعي تطليقة بعد تطليقة على التفريق دون الجمع،

١. وسائل الشريعة، ج ٨٥، ص ٣١٩، رقم ٢٨.

٢. سنن النسائي، ج ٢، ص ١١٦، راجع: المحلى، ج ١٠، ص ٨٧.

٣. البقرة (٢): ٢٢٩، ٢٣٠.

والإرسال مرة واحدة ولم يُرد بالمرتين التنية. ومثله قوله تعالى: «ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ» أي كَرَّةً بعد كَرَّةٍ، لا كَرَّتَيْنِ اثنتين. ومعنى قوله: «فَامْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ»^١ تخيير لهم - بعد أن علمهم كيف يطلقون - بين أن يمسكوا النساء بحسن العشرة - وهو الرجوع إليها - وبين أن يسرحوهن السراح الجميل الذي علمهم. والحكمة في التفريق ما يشير إليه قوله تعالى: «لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثَ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا»^٢ أي قد يقبل الله تعالى قلب الزوج بعد الطلاق، من بغضها إلى محبتها^٣.

وهكذا روى أصحاب السنن: أن ركائنه طلق امرأته ثلاثاً في مجلس واحد، فحزن عليها وندم، فأتى رسول الله ﷺ وذكر ندمه وحزنه الشديد على ذلك، فسأله رسول الله: كيف طلقته ثلاثاً؟ قال: في مجلس واحد؛ فقال رسول الله: إنما تلك واحدة فارجعها إن شئت، فارجعها.

وفي حديث ابن عباس: أن عبد يزيد طلق زوجته وتزوج بأخرى، فأتم النبي ﷺ فشكت إليه. فقال النبي لعبد يزيد: راجعها، فقال: إني طلقته ثلاثاً يا رسول الله. قال: قد علمت، راجعها، وتلا: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ»^٤. قال أبو داود: أن ركائنه طلق امرأته لثلاثة (أي الثلاث البائن) فجعلها النبي ﷺ واحدة. ومعنى ذلك: أن الثلاث بلفظ واحد - من غير مراجعة بينهما - تكون الواحدة منهن للعدة، دون مجموع الثلاث.

فتلاوة النبي ﷺ للآية تلميح إلى عدم وقوع الثلاث جميعاً للعدة سوى واحدة، ومن ثم كانت رجعية وليست بائية.

و من غريب الأمر أن جمهور الفقهاء، مع علمهم بأن الثلاث بلفظ واحد مخالف

١. الملك (٦٧): ٤.

٢. البقرة (٢): ٢٢٩.

٣. العلق (٦٥): ١.

٤. سنن الدلائل، ج ٢، ص ٨١٦.

٥. السنن الكبرى، ج ١، ص ٢٢٩.

للكتاب والسنة. أمّا الكتاب فلما عرفت، وأمّا السنة فلما رواه مسلم في الصحيح بإسناده إلى ابن عباس، قال: كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة، فقال عمر بن الخطاب: إن الناس قد استعجلوا في أمر قد كانت لهم فيه أناة، فلو أمضيناه عليهم؛ فأمضاه عليهم^١.

نرى الفقهاء مع علمهم بذلك، فإنهم تبعوا سنة عمر، وتركوا صريح الكتاب وسنة الرسول والعصاة المرضيين.

يقول الجزيري: إن الأئمة سلّموا جميعاً بأنّ الحال في عهد النبي ﷺ كان كذلك، ولم يطلع أحد منهم في حديث مسلم. وكلّ ما احتجّوا به: أنّ عمل عمر و موافقة الأكثرين له مبني على أنّ الحكم كان مؤقتاً، فنسخه عمر بحديث لم يذكره لنا، والدليل على ذلك الإجماع. قال: ولكن الواقع أنّه لم يوجد إجماع، فقد خالفهم كثير من المسلمين. ومما لا شك فيه أنّ ابن عباس من المجتهدين المعول عليهم في الدين، فتقليده جائز، ولا يجب تقليد عمر فيما رآه... قال: ولعلّه كان تحذيراً للناس من إيقاع الطلاق على وجه مغاير للسنة، فإنّ السنة أن تطلق المرأة في أوقات مختلفة، فإذا تجرّأ أحد على تطبيقها دفعة واحدة فقد خالف السنة، وجزاؤه أن يعامل بقوله زجر^٢.

و ناقش ابن حزم الأندلسي فيما أخرجه النسائي عن طريق مخرمة، عن أبيه بكير بن عبد الله بن الأشج، أنّه سمع محمود بن لبيد... الخ بأنّ خبر محمود مرسل لا حجة فيه، وأنّ مخرمة لم يسمع من أبيه شيئاً.

وكذا ناقش فيما أخرجه مسلم، عن طريق محمد بن رافع، بإسناده إلى ابن عباس، بجهالة ابن رافع هذا^٣.

أمّا محمود بن لبيد فزعموا أنّه لم تصح له رؤية ولا سماع من النبي؛ لأنّه كان طفلاً

١. صحيح مسلم: ج ٤، ص ٨٨٣. فروع الطلاق كانت سنة جاهلية لم ينفه النبي ﷺ فكيف ولماذا عادت تلك السنة؟

٢. الفقه على المذاهب الأربعة: ج ٤، ص ٣٤١-٣٤٢.

٣. المحلى: ج ١٠، ص ١٦٨.

فقد صحَّ قول الجزيري: لم يطعن أحد في حديث مسلم؛ حيث كان طعن ابن حزم موهوناً إلى حد بعيد.

* * *

و بعد، فمما يُبحث على الاعتزاز، ذلك موقف فقهاء الإمامية جنباً إلى جنب، من صراحة الكتاب و الصحيح من سنة الرسول ﷺ حتى وإن خالفهم الجمهور. وهذا من بركات تعاليم أئمة أهل البيت عليهم السلام التابطين على صلب الشريعة و الحافظين لناموس الدين، «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم».

الثامن: حديث المتعة

قال تعالى: «فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً».

أ) متعة النساء

وقع الخلاف في هذه الآية الكريمة، هل هي منسوخة الحكم، وما ناسخها، هل هو الكتاب أم السنة الشريفة؟

ذهب أئمة أهل البيت عليهم السلام إلى أنها محكمة لا يزال حكمها ثابتاً في الشريعة، ليس لها ناسخ لا في الكتاب ولا في السنة، وإليه ذهب جملة الأصحاب والتابعين.

و خالفهم فقهاء سائر المذاهب، نظراً لمنع عمر ذلك، وكان يشدد عليه، كما افترضوا له دلائل من الكتاب و السنة، لم تثبت عند أئمة النقد و التمهيص..

* * *

قال ابن كثير: وقد استدلَّ بعموم هذه الآية على نكاح المتعة. ولا شك أنه كان مشروعاً في ابتداء الإسلام، ثم نُسح بعد ذلك... وقد روي عن ابن عباس وطائفة من الصحابة القول بإباحتها للضرورة، وهو رواية عن أحمد. وكان ابن عباس، وأبي بن كعب، وسعيد

ابن جبير، والسُّدِّيُّ يقرأون «فَكَاسْتَمْتَعْتُ بِهِ مِنْهُنَّ» - إلى أجل مسمى - فَاتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ فَرِيضَةً» - قراءةً على سبيل التفسير - وقال مجاهد: نزلت في نكاح المتعة.
قال: ولكن الجمهور على خلاف ذلك.

* * *

وقال ابن قتيب الجوزي: الناس في هذا (حديث المتعة) طائفتان:
طائفة تقول: إنَّ عمر هو الذي حرَّمها ونهى عنها، وقد أمر رسول الله ﷺ باتباع ما سنَّه الخلفاء الراشدون، ولم تر هذه الطائفة تصحيح حديث سبرة بن معبد في تحريم المتعة عام الفتح، فإنه من رواية عبد الملك بن الربيع بن سبرة الجهنبي، عن أبيه عن جده، وقد تكلم فيه ابن معين. ولم ير البخاري إخراج حديثه في صحيحه مع شدة الحاجة إليه، وكونه أصلاً من أصول الإسلام، ولو صحَّ عنده لم يصبر عن إخراجها والاحتجاج به. قالوا: ولو صحَّ حديث سبرة لم يخف على ابن مسعود، حتى يروى عنه: أنهم فعلوها، ويحتج بالآية. وأيضاً لو صحَّ لم يقل عمر: إنها كانت على عهد رسول الله ﷺ وأنا أنهى عنها وأُعاقب عليها، بل كان يقول: إنه ﷺ حرَّمها ونهى عنها. قالوا: ولو صحَّ لم تُفعل على عهد الصديق وهو عهد خلافة النبوة خاتمة. قالوا: لو صحَّ لم يصحَّ حديث عليّ عليه السلام.

قال: والطائفة الثانية رأت صحة حديث سبرة، ولو لم يصحَّ فقد صحَّ حديث عليّ عليه السلام أن رسول الله ﷺ حرَّم متعة النساء، فوجب حمل حديث جابر على أن الذي أخبر عنها بفعلها لم يبلغه التحريم، ولو لم يكن قد اشتهر حتى كان زمن عمر، فلما وقع فيها النزاع ظهر تحريمها واشتهر. قال: وبهذا تأتلف الأحاديث الواردة فيها.

* * *

وذهب القرطبي - من المفسرين - إلى أن الآية ليست بشأن المتعة، وإنما هي بشأن النكاح التام. قال: ولا يجوز أن تحمل الآية على جواز المتعة، لأن النبي ﷺ نهى عن

نكاح المتعة وحرّمه؛ ولأنّ الله تعالى قال: «فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ» و معلوم أنّ النكاح بإذن الأهلين هو النكاح الشرعيّ بوليّ وشاهدين، ونكاح المتعة ليس كذلك.

قال: وقال الجمهور: المراد نكاح المتعة الذي كان في صدر الإسلام، ونسختها آية ميراث الأزواج؛ إذ كانت المتعة لا ميراث فيها. وقالت عائشة والقاسم بن محمّد: تحريمها ونسخها في القرآن، وذلك قوله تعالى: «وَالَّذِينَ هُمْ يُفْرَوِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ»^١، وليست المتعة نكاحاً ولا ملك يمين.

ونُسب إلى ابن مسعود أنّه قال: المتعة منسوخة بنسختها الطلاق والعدة والميراث. وقال بعضهم: إنّها أُبيحت في صدر الإسلام ثمّ حرّمت عدة مرّات. قال ابن العربي: و أمّا متعة النساء فهي من غرائب الشريعة؛ لأنّها أُبيحت في صدر الإسلام، ثمّ حرّمت يوم خيبر، ثمّ أُبيحت في غزوة أوطاس، ثمّ حرّمت بعد ذلك، واستقرّ الأمر على التحريم. وليس لها أخت في الشريعة إلا مسألة القبلة؛ لأنّ النسخ طرأ عليها مرّتين، ثمّ استقرّت بعد ذلك.

و قال غيره - ممّن زعم أنّه جمع طرق الأحاديث في ذلك -: إنّها تقتضي التحليل والتحريم سبع مرّات.

و قال جماعة: لا ناسخ لها سوى أنّ عمر نهى عنها... و روى عطاء عن ابن عباس، قال: ما كانت المتعة إلا رحمة من الله رحم بها عباده، ولولا نهى عمر عنها ما زنى إلا شقيّ^٢. و هكذا روى ابن جرير الطبريّ بإسناده إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «لولا أنّ عمر نهى عن المتعة ما زنى إلا شقيّ»^٣. و يروى «إلا شقيّ» بالفاء المفتوحة، أي قليل من الناس^٤.

١. المؤمنون (٢٣): ٥٤.

٢. تفسير القرطبي، ج ٥، ص ١٣٠-١٣٢.

٣. تفسير الطبريّ، ج ٥، ص ٩.

٤. قال ابن الأثير: من قولهم: غابت الشمس إلا شقيّ، أي قليلاً من ضوءها عند غروبها. وقال الأزهري: «إلا شقيّ» أي إلا أن يشقى، يعني يشرف على الرّثي ولا يواقع. فأقام الاسم وهو الشقيّ مقام المصدر الحرفيّ، وهو الإشتاء على الشيء.

* * *

قال ابن حزم الأندلسي: كان نكاح المتعة - وهو النكاح إلى أجل - حلالاً على عهد رسول الله ﷺ ثم نسخها الله تعالى على لسان رسوله، نسخاً باتاً إلى يوم القيامة. وقد ثبت على تحليلها بعد رسول الله ﷺ جماعة من السلف، منهم من الصحابة: أسماء بنت أبي بكر^١، وجابر بن عبد الله الأنصاري^٢، وابن مسعود^٣، وابن عباس^٤، وعمرو بن حريث^٥، وأبو سعيد الخدري^٦، وسلمة ومعيد ابنا أمية بن خلف^٧. قال: ورواه جابر عن جميع الصحابة، مدة رسول الله ﷺ ومدة أبي بكر وعمر إلى قرب آخر خلافته.

قال: ومن التابعين: طاووس وعطاء وسعيد بن جبير وسائر فقهاء مكة^٨.

* * *

١. أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (ص ٢٧) عن مسلم الترمذي قال: دخلنا على أسماء بنت أبي بكر فسألناها عن متعة النساء، فقالت: فعلناها على عهد النبي (الغدير، ج ٢، ص ٣٠٩).
٢. وفي صحاحه جرت بين ابن عباس وعروة بن الزبير في المتعة، فقال له ابن عباس: سل أباك يا عروة (زاد المعاد لابن القيم، ج ١، ص ٣١٣). وكذا بينه وبين محمد بن عبد الله فقال له ابن عباس: فسل مجمر، سمع في المتعة مجمر بن الزبير (العقد الفريد، ج ٤، ص ١٤). وفي صحاحه الراغب (ج ٢، ص ٩٤): عثر عبد الله بن الزبير عبد الله بن عباس بتحليله المتعة، فقال له: سل أباك كيف سمعت المجامر بينها وبين أباك! فسألها، فقالت: سأولئك إلا في المتعة (الغدير، ج ٢، ص ٢٠٨).
٣. راجع تفصيل النسخة في سراج الذهب للمعديني (ج ٣، ص ٩١-٩٢): راجع أيضاً صحيح مسلم (ج ٤، ص ٥٥-٥٦).
٤. يأتي الحديث عنه: وهو الذي أعلن صريحاً أنها كانت بإباحة منذ عهد الرسول وإلى النصف من خلافة عمر: حتى نفي عنها عمر لأسباب، يأتي ذكرها. وينشد من زعم أنه كان يمنع رسول الله أيام حياته.
٥. فقد ذكر النووي عنه أنه قرأ: «فما استمتعتم به منهن إلى أجل» (شرح مسلم، ج ٩، ص ١٧٩).
٦. وهو المشهور بفتحوا الإباحة في ربيع مكة، وسارت عنه الركبان في سائر البلدان (فتح الباري، ج ١، ص ١٤٨).
٧. وهو الذي استمتع بمولاه فأحبها في أيام عمر (المصدر نفسه، ج ١، ص ١٤٩).
٨. وهو الذي واكب جابرأ في الإعلان بإباحة المتعة منذ عهد الرسول (المصدر نفسه، ص ١٥١) عمدة القارئ لسيفي، ج ٨، ص ٣١٠).
٩. نسب ذلك إلى كل منهما: أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح: أنه لم يرق عمر إلا أم تراة قد خرجت حتى فسألها عمر: فقالت: استمتع بي سمرة، وفي أخرى: معبد (فتح الباري، ج ٤، ص ١٥١) الإسماعيلي، ج ٤، ص ٦٣.
٨. المحلى، ج ٩، ص ٥١٩-٥٢٠، رقم ١٨٥٤.

و بعد، فالذي يشهد به التاريخ و متواتر الحديث، أنَّ المتعة (النكاح المؤقت) كانت ممَّا أُحلَّه الكتاب و جرت به السنَّة و عمل بها الأصحاب، منذ عهد الرسالة و تمام عهد أبي بكر و نصفاً من خلافة عمر، حتَّى نهى عنها و شدَّد عليه لأسباب و علل، كان يرى أنَّها تُخوِّله صلاحية المنع.

أخرج مسلم من طريق عبد الرزاق قال: أخبرنا ابن جريج عن عطاء، قال: قدم جابر بن عبد الله معتمراً فجعَّناه في منزله، فسأله القوم عن أشياء ثمَّ ذكروا المتعة، فقال: نعم، استمتعنا على عهد رسول الله ﷺ و أبي بكر و عمر...

و أيضاً عن ابن جريج قال: أخبرني أبو الزبير قال: سمعت جابر بن عبد الله يقول: كنَّا نستمتع بالقبضة من التمر و الدقيق، الأيام على عهد رسول الله ﷺ و أبي بكر، حتَّى نهى عنه عمر في شأن عمرو بن حريث.

و في حديث قيس عنه قال: رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل... ثمَّ قرأ عبد الله: «يا أيُّها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أخلَّ الله لكم ولا تعبدوا إنَّ الله لا يحبَّ المعتدين»^١. و كان استشهاد به هذه الآية تدليلاً على أنَّ الله يحبُّ أن يؤخذ برخصه، و لا سيَّما الطيبات، ما لم ينه عنه الشارع الحكيم ذلك، إشارة إلى أنَّ نهْي مثل عمر لا تأثير له في حكم شرعيٍّ مستدام بذاته.

أمَّا قصَّة عمرو بن حريث فهو ما أخرجه الحافظ عبد الرزاق في مصنَّفه عن ابن جريج، قال: أخبرني أبو الزبير عن جابر قال: قدم عمرو بن حريث الكوفة فاستمتع بمولاه، فأُتي بها عمر و هي حبلى، فسأله فاعترف، قال: فذلك حين نهى عنها عمر^٢. و قريب منها قصَّة سلمة و معبد ابني أمية بن خلف:

أخرج عبد الرزاق بسند صحيح عن عمرو بن دينار عن طاووس عن ابن عباس، قال:

١. صحيح مسلم، ج ٤، ص ١٣١.

٢. المصدر نفسه، ص ٨٣٠، و الآية من سورة المائدة (٥): ٨٧.

٣. فتح الباري، ج ٤، ص ١٤٩؛ أخرجه عبد الرزاق في مصنَّفه عن ابن جريج (الغدير، ج ٢، ص ١٧٢، ١٧٣).

لم يَرْعَ عمر إلا أمّ أراكّة قد خرجت حبلى، فسألها عمر، فقالت: استمتع بي سلمة بن أميّة^١.
و ذكر ابن حجر - في الإصابة - أن سلمة استمتع من سلمى مولاة حكيم بن أميّة
الأسلمي فولدت له، فجحد ولدها.

و زاد الكلبي: فبلغ ذلك عمر فنهى عن المتعة، وروى أيضاً أن سلمة استمتع بامرأة
فبلغ عمر فتوعدّه^٢.

قال ابن حجر: القصة بشأن سلمة و معبد ابني أميّة واحدة، اختلف فيها هل وقعت لهذا
أو لهذا^٣.

و أخرج مالك و عبد الرزاق عن عروة بن الزبير: أن خولة بنت حكيم دخلت على عمر
ابن الخطاب، فقالت: إن ربيعة بن أميّة استمتع بمرأة مؤدّة فحملت منه. فخرج عمر بن
الخطاب - يجرّ رداءه فرعاً فقال: هذه المتعة! ولو كنت تقدّمت فيها لرجمت، أي لو
أعلنت بالمنع قبل ذلك.



و أخرج أبو جعفر الطبري في تاريخه بالإسناد إلى عمران بن سودة، قال: صليت
الصبح مع عمر، ثم انصرف و قمت معه، فقال: الحاجة؟ قلت: حاجة. قال: فالحق، فلتحقت.
فلما دخل أذن لي، فإذا هو على سرير ليس فوقه شيء. فقلت: نصيحة؟ فقال: مرحباً
بالناصح غدوّاً و عشياً. قلت: عابت أمّك عليك أربعاً فوضع رأس درّته في ذقنه و وضع
أسفلها على فخذه، ثم قال: هات!

فذكر أولاً: أنّه حرّم العمرة في أشهر الحج^٤. و لم يفعل ذلك رسول الله ﷺ و لا أبو

١. فتح الباري: ج ٥، ص ٨٥١.

٢. الإصابة: ج ٥، ص ٦٣، رقم ٣٣٦٣.

٣. فتح الباري: ج ٥، ص ٨٥١.

٤. الدر المختور: ج ٥، ص ٤١.

٥. كانت العرب في الجاهلية يرون العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور (جامع البخاري: ج ٥، ص ١٧٥) صحيح
مسلم: ج ٤، ص ١٥٦. وقد كافح النبي ﷺ هذه العادة الجاهلية و أصدر عن محاربتها و نهضها قولاً و عملاً.
و من ثم فإن ما قام به عمر كانت محاولة لإعادة رسم غالب شرائع شريعة الإسلام.

راجع: الغدير (ج ٥، ص ٣١٧) نجد الدعوة إلى الاعتماد في غير أشهر الحج عوداً إلى الرأي الجاهلي عن قصد أو
غير قصد.

بكر، وهي حلال، فاعتذر عمر: أنهم لو اعتصموا في أشهر الحج لأروها مجزية عن حجهم.
و الثاني: أنه حرم متعة النساء، وقد كانت رخصة من الله. نستمتع بقبضة ونفارق عن
ثلاث، فاعتذر عمر: أن رسول الله أحلها في زمان ضرورة، والآن قد رجع الناس إلى
السعة.

و الثالث: أنه حكم بعناق الأمة إن وضعت ذابطها بغير عتاقة سيدها^١. فقال عمر:
ألحقت حرمة بحرمة وما أردت إلا الخير، واستغفر الله.
و الرابع: أنه يأخذ الرعيّة بالشدة والعنف، فأجاب عمر بما حاصله: أن ذلك ممّا لا بدّ
منه في انتظام الرعيّة^٢.

قصة المنع من المتعتين

و الذي يبت من الأمر بتأ أن عمر هو الذي حال دون تداوم شريعة المتعة، وأنها كانت
محللة حتى أصدر الخليفة المنع منها، لا عن سابقة نسخ أو تحریم. تلك قولته المعروفة:
«متعتان كانتا على عهد رسول الله، وأنا محرمهما ومعاقب عليهما: متعة النساء، و متعة
الحج».

و هذا الكلام وإن كان ظاهره منكراً - كما قال ابن أبي الحديد المعتزلي^٣ - فله مخرج
و تأويل اختلف الفقهاء فيه.

و في ذلك يقول الإمام الرازي: ظاهر قول عمر: وأنا أنهى عنهما، أنهما مشرعتان غير
منسوختين، وأنه هو الذي نسخهما. و ما لم ينسخه الرسول فلا نسخ له أبداً.
ثم أخذ في تأويل كلامه بأن المراد: أنا أنهى عنهما لما ثبت عندي أن النبي نسخها. قال:
لأنه لو كان مراده أن المتعة كانت مباحة في شرع محمد ﷺ وأنا أنهى عنها، لزم تكفيره

١. الأمة ذات الولد لا تباع ولا تفتل لتتحرر بعد موت سيدها، و تكون من نصيب ولدها في الإرث.

٢. لخصه عن تاريخ الصيرفي، ج ٤، ص ٣٥، حوادث سنة ٣٣ (ط المعارف) و قد ابن أبي الحديد في شرح نهج
البلاغة (ج ٢، ص ١٣١) عن الصيرفي و شرح الغريب من ألفاظه رواية عن ابن قتيبة.

٣. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٤، ص ١٨٣.

و تكفير كل من لم يحاربه، ويفضي ذلك إلى تكفير أمير المؤمنين؛ حيث لم يحاربه ولم يرد عليه ذلك القول^١.

وأغرب التسلطاتي في شرحه على البخاري، حيث قوله: إن نهي عمر كان مستنداً إلى نهي النبي ﷺ، وكان خافياً على سائر الصحابة، فبيته عمر لهم؛ ولذلك سكتوا أو وافقوا!!^٢.

اللهم إن هذا إلا تخرّص بالغيب، و تفسير كلام بما لا يرضى صاحبه!!
و أشد غرابة ما ذكره القوشجي - في شرحه على تجريد الاعتقاد للمخواجه نصير الدين الطوسي - قال: إن عمر قال على المنبر: أيها الناس ثلاث كنّ على عهد رسول الله ﷺ و أنا أنهي عنهنّ و أحرّمهنّ و أعاقب عليهنّ: متعة النساء، و متعة الحجّ، و حيّ على خير العمل، ثم اعتذر بأن ذلك ليس ممّا يوجب قدحاً فيه، فإن مخالفة المجتهد لغيره في المسائل الاجتهادية ليس ببدع!!^٣

انظر إلى هذا الرجل العالم المتجاهل، كيف يجعل من صاحب الرسالة الذي لا ينطق إلا عن وحي يوحى إليه، كيف يجعله عدلاً لا يفرّد من آحاد أئمة، ولا سيّما مثل ابن الخطّاب الذي أعلن صريحاً و مراراً: كل الناس فقهاء ميمون^٤.

و بعد، فلنعطف الكلام عن حديث المتعنين الذي أعلن به عمر على رؤوس الأشهاد:
١. أخرج البيهقي في سننه بالإسناد إلى أبي نضرة قال: قلت لجابر بن عبد الله الأنصاري: إن ابن الزبير ينهى عن المتعة وإن ابن عباس يأمر بها! قال: على يدي جرى الحديث، تمتعنا مع رسول الله ﷺ و مع أبي بكر، فلما ولى عمر خطب الناس فقال:

١. التفسير الكبير، ج ١، ص ٥٣-٥٤.

٢. إرشاد الساري بشرح البخاري للتسلطاتي، ج ١، ص ٧٧.

٣. شرح التجريد الاعتقاد للقوشجي، آخر باب بحث الإمامة.

٤. وقد عند ابن أبي الحديد (شرح صحيح البلاغة، ج ١، ص ١٨١) باباً ذكر فيه موارد أفضى فيها عمر ثم نقضها، وراجع أيضاً نوادر الأثر في عم عمر للعلامة الأميني (الغدير، ج ٦، ص ٨٣-٣٢٥) وكان مستظلاً في هذا العرض.

«إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الرَّسُولُ، وَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هَذَا الْقُرْآنُ. وَإِنَّمَا كَانَتَا مَتَعَتَانِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ، وَأَنَا أَنْهَى عَنْهُمَا وَأُعَاقِبُ عَلَيْهِمَا، إِحْدَاهُمَا: مَتَاعُ النِّسَاءِ، وَلَا أَقْدِرُ عَلَى رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً إِلَى أَجَلٍ إِلَّا غَيَّبْتَهُ بِالْحِجَارَةِ، وَالْأُخْرَى: مَتَاعُ الْحَجِّ»^١.

٢. وأُخْرِجَ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ أَيْضاً عَنْ أَبِي نَضْرَةَ، قَالَ: كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَأْمُرُ بِالْمَتَاعَةِ، وَكَانَ ابْنُ الزُّبَيْرِ يَنْهَى عَنْهَا، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَجَابِرٍ، فَقَالَ: عَلَى يَدَيَّ دَارَ الْحَدِيثِ. تَمَتُّعْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا قَامَ عُمَرُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ يُحِلُّ لِرَسُولِهِ مَا شَاءَ بِمَا شَاءَ، وَإِنَّ الْقُرْآنَ قَدْ نَزَلَ مَنَازِلَهُ، فَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ، وَأَبْتُوا نِكَاحَ هَذِهِ النِّسَاءِ، فَلَنْ أُوتِيَ بِرَجُلٍ نَكَحَ امْرَأَةً إِلَى أَجَلٍ إِلَّا رَجَمْتَهُ بِالْحِجَارَةِ»^٢.

٣. وأُخْرِجَ أَبُو بَكْرٍ الْجَعْفَانِيُّ بِإِسْنَادِهِ إِلَى شُعْبَةَ عَنْ قَتَادَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا نَضْرَةَ يَقُولُ: كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَأْمُرُ بِالْمَتَاعَةِ وَكَانَ ابْنُ الزُّبَيْرِ يَنْهَى عَنْهَا، قَالَ: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَجَابِرٍ فَقَالَ: عَلَى يَدَيَّ دَارَ الْحَدِيثِ، تَمَتُّعْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا قَامَ عُمَرُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ يُحِلُّ لِرَسُولِهِ مَا شَاءَ بِمَا شَاءَ، فَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ، وَانْتَهَوْا عَنْ نِكَاحِ هَذِهِ النِّسَاءِ، لَا أُوتِيَ بِرَجُلٍ نَكَحَ امْرَأَةً إِلَى أَجَلٍ إِلَّا رَجَمْتَهُ»^٣.

قَالَ الْجَعْفَانِيُّ: فَذَكَرَ عُمَرُ الرِّجْمَ فِي الْمَتَاعَةِ وَجَاءَ أَنْ يَكُونَ عَلَى جِهَةِ الْوَعِيدِ وَالتَّهْدِيدِ لِيَنْزَجِرَ النَّاسُ عَنْهَا^٤.

٤. وَذَكَرَ بِشَأْنِ مَتَاعِ الْحَجِّ، وَهِيَ إِحْدَى الْمَتَعَتَيْنِ اللَّتَيْنِ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: «مَتَعَتَانِ كَانَتَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَا أَنْهَى عَنْهُمَا وَأُضْرِبُ عَلَيْهِمَا: مَتَاعُ الْحَجِّ، وَمَتَاعُ النِّسَاءِ»^٥.

وَهَكَذَا رَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ الْقَيْمِ الْجَوَزِيُّ، قَالَ: تَبَيَّنَ عَنْ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ^٦.

١. السنن الكبرى، ج ٤، ص ٢٠٦.
٢. صحيح مسلم، ج ٤، ص ٣٨.
٣. أحكام القرآن، ج ٢، ص ١٤٧. واستند السرخسي إلى ما روي عن عمر أنه قال: «لَا أُوتِيَ بِرَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً إِلَى أَجَلٍ إِلَّا رَجَمْتَهُ وَلَوْ أَدْرَكْتَهُ مِتْنَا لِرَجْمَتِ قَبْرِهِ» (المبسوط، ج ٥، ص ١٥٣).
٤. أحكام القرآن، ج ١، ص ٢٩٠-٢٩١.
٥. زاد المعاد لابن قيم، ج ٢، ص ١٨٤.
٦. أحكام القرآن، ج ١، ص ٢٩٠-٢٩١.

و قال شمس الدين السرخسي: وقد صحَّ أن عمر نهى الناس عن المتعة، فقال: متعتان كانتا...^١

و ذكره القرطبي بنفس اللفظ^٢، والنحر الرازي بلفظ: «متعتان كانتا مشروعتين...»^٣. إلى غير ذلك من تصريحات أعلام الفقه^٤ والتفسير، تُبَيِّن عن تواتر حديث منع المتعتين منعاً مستنداً إلى نهى عمر بالذات، وليس مستنداً إلى شريعة السماء.

* * *

الأمر الذي دعا بكثير من النبهاء أن يأخذوا من قوله عمر هذه دليلاً على الجواز، استناداً إلى روايته تاركين رأيه إلى نفسه، إذ لا حجّة لرأي في مقابلة الشريعة، كما لا اجتهاد في مقابلة النص.

يذكر ابن خلكان - في ترجمة يحيى بن أكرم - أن المأمون العباسي أمر فنودي بتحليل المتعة. فدخل عليه ابن أكرم فوجده يستاك، ويقول - وهو مغتاظ - متعتان كانتا على عهد رسول الله و علي عهد أبي بكر و أنا أنهي عنهما! و من أنت يا جعل؟^٥

و في لفظ الخطيب: و من أنت يا أحوّل حتّى تنهى عمّا فعله النبيّ و أبو بكر؟^٦ و ذكر الراغب أن يحيى بن أكرم - وكان قاضياً في البصرة نعيه المأمون - قال لشيخ بالبصرة: بمن اقتديت في جواز المتعة؟ قال: بعمر بن الخطاب! قال: كيف، و عمر كان أشدّ الناس فيها؟ قال: لأنّ الخبر الصحيح أنّه صعد المنبر، فقال: إنّ الله و رسوله قد أحلّا لكم متعتين و إنّي محرّمهما عليكم و معاقب عليهما. فقبلنا شهادته و لم نقبل تحريمه!^٧

* * *

و هناك من الصحابة و التابعين من ثبتوا على القول بالتحليل الأوّل منذ عهد

١. المبسوط للسرخسي، ج ٥، ص ٣٧.

٢. تفسير القرطبي، ج ٥، ص ٣٩٢.

٣. التفسير الكبير، ج ١٠، ص ٥٣-٥٢.

٤. راجع: المحلى، ج ٧، ص ١٠٧.

٥. وفيات الأعيان، ج ٦، ص ١٤٩، ١٥٠، و جعل معناه للجمع.

٦. تاريخ بغداد، ج ١٤، ص ٨٩٩.

٧. معاجز الراغب الأصيلاني، ج ٥، ص ٩٤ (الغدير، ج ٦، ص ٢١٣).

الرسول ﷺ ولم يستسلموا لنهي عمر، وجاهروا في مخالفته إنما في حياته أو بعد مماته. هذا جابر بن عبد الله الأنصاري هو أول من جاهر بالتحليل، وأعلن بالمخالفة لنهي عمر.

و هذا أبو سعيد الخدري قد عرفت مواكبتة مع جابر في إعلام المخالفة.

و عبد الله بن مسعود قرأ: «إلى أجل مُسمى...» بملاً من الناس.

و أبي بن كعب كان يقرأ قراءة ابن مسعود.

و سعيد بن جبير، و طاووس، و عطاء، و مجاهد، و سائر فقهاء مكة، و أصحابهم حسبما تقدم الكلام عنهم.

و يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «لولا أن عمر نهى عن المتعة ما زنى إلا شقي - أو - إلا شقي،^١ على ما سبق بيانه.

و كذلك ابن عباس في قوله: يرحم الله عمر، ما كانت المتعة إلا رحمة من الله رحم بها أمة محمد ﷺ، و لولا نهيه ما احتاج إلى الرضى إلا شقي - أو - إلا شقي.^٢

و قد عرض ابن الزبير بابن عباس في قوله: إن ناساً أعمى الله قلوبهم كما أعمى أبصارهم يفتنون بالمتعة، فناداه ابن عباس: إنك لجلت جاني فلعمري لقد كانت المتعة تُفعل على عهد إمام المتقين - يريد رسول الله ﷺ - فقال له ابن الزبير: فجزّ ببنفسك فوالله لن فعلتها لأرجمك بأحجارك.^٣

و هذا ابنه عبد الله تراه لا يكثر بنهي نهاه أبوه تنادياً دون سنة سنّها رسول الله ﷺ و نطق بها الكتاب. فقد أخرج أحمد في مسنده عن أبي الوليد، قال: سأل رجل ابن عمر عن المتعة وأنا عنده (متعة النساء)، فقال: والله ما كنا على عهد رسول الله ﷺ زانين ولا مسافحين.^٤

١. تفسير الصري: ج ٥، ص ٩.

٢. الدر المنثور: ج ٢، ص ٤١.

٣. صحيح مسلم: ج ٤، ص ٣٣؛ شرح صحيح مسلم للنووي: ج ٩، ص ٨٨.

٤. مسند الإمام أحمد: ج ٣، ص ٩٥.

* * *

و هكذا نجد كبار الصحابة و التابعين و من ورائهم الفقهاء، لم يأبهوا بنهي عمر عن متعة الحج، مع تصريحه بالمنع و إردافه لها مع متعة النساء. و ما ذلك إلا من جهة عدم اعتبار أبي اجتهد في مقابلة نص الشريعة.

هذا ابن عمر نراه كما لم يكثر بنهي أبيه عن متعة النساء، كذلك لم يكثر بنهيه عن متعة الحج:

روى الترمذي بإسناده إلى ابن شهاب أن سالماً حدثه أنه سمع رجلاً من أهل الشام، وهو يسأل عبد الله بن عمر عن التمتع بالعمرة إلى الحج، فقال عبد الله: هي حلال. فقال الشامي: إن أباك قد نهى عنها! فقال عبد الله: رأيت إن كان أبي نهى عنها، و صنعها رسول الله، أم أبي نتبع، أم أمر رسول الله؟ فقال الرجل: بل أمر رسول الله ﷺ، فقال: لقد صنعها رسول الله ﷺ.

و كذلك روى ابن إسحاق عن الزهري عن سالم، قال: إني لجالس مع ابن عمر في المسجد؛ إذ جاءه رجل من أهل الشام فسأله عن التمتع بالعمرة إلى الحج، فقال ابن عمر: حسن جميل. قال: فإن أباك كان ينهى عنها؟ فقال: ويذاك، فإن كان أبي نهى عنها و قد فعله رسول الله ﷺ و أمر به، أفبقول أبي أخذ أم بأمر رسول الله؟ قم عني. قال القرطبي: أخرجه الدارقطني.^١

و هكذا نرى سعد بن أبي وقاص لم يأبه بمنع عمر تجاه سنة سنّها رسول الله ﷺ، رواه الترمذي أيضاً بإسناده إلى شهاب، عن محمد بن عبد الله بن الحارث: أنه سمع سعد بن أبي وقاص و الضحّاك بن قيس، و هما يذكران التمتع بالعمرة إلى الحج، فقال الضحّاك: لا يصنع ذلك إلا من جهل أمر الله. فقال سعد: بس ما قلت، يا ابن أخي! فقال الضحّاك: فإن عمر قد نهى عن ذلك، فقال سعد: قد صنعها رسول الله، و صنعها معه.^٢

١. جامع الترمذي: ج ٣، ص ١٨٨-١٨٩، كتاب الحج، رقم ٨٣٤.

٢. تفسير الترمذي: ج ٣، ص ٣٨٨. ٣. جامع الترمذي: ج ٣، ص ١٨٥، رقم ٨٣٣.

و هذا عمران بن الحصين يحدو حدوهما في جرأة و صراحة، يقول: «إن الله أنزل في المتعة آية و ما نسخها بآية أخرى. و أمرنا رسول الله ﷺ بالمتعة و ما نهانا عنها، قال رجل فيها برأيه ما شاء»، يريد عمر بن الخطاب، على ما صرح به الرازي^١ و ابن حجر^٢. أخرجه ابن أبي شيبة و البخاري و مسلم^٣.

و أخرجه أيضاً أحمد في مسنده عنه قال: «نزلت آية المتعة في كتاب الله تبارك و تعالي، و عملنا بها مع رسول الله ﷺ فلم تنزل آية تنسخها، و لم يئة عنها النبي حتى مات^٤».

و عمران هذا من فضلاء الصحابة و فقهاءهم، و قد بعنه عمر ليُفتِّه أهل البصرة، ثقةً بمكان فتنه و أمانته. قال ابن سيرين: كان أفضل من نزل البصرة من الصحابة^٥.

قال الشيخ أبو عبد الله المفيد - في جواب من سألته عن قول مولانا جعفر بن محمد الصادق عليه السلام «ليس مثاً من لم يقل بمتعتها»^٦ أن المتعة التي ذكرها الإمام الصادق عليه السلام هي النكاح المؤجل الذي كان النبي ﷺ يباحها لأئمة في حياته و نزل بها القرآن أيضاً، فتؤكد ذلك بإجماع الكتاب و السنة فيه؛ حيث يقول الله: «وَ أُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ قُلْ أَتُؤْمِنُونَ بِمَا نُنَزِّلُ مِنْ آيَاتِنَا فَرِيشَةً»^٧، فلم يزل على الإباحة بين المسلمين لا يتنازعون فيها، حتى رأى عمر بن الخطاب النهي عنها، فحظرها و شدد في حظرها و توعد على فعلها، فتبعه الجمهور على ذلك، و خالفهم جماعة من الصحابة و التابعين فأقاموا على تحليلها إلى أن مضوا لسبيلهم، و اختص بإباحتها جماعة من الصحابة و التابعين و أئمة الهدى من آل محمد عليه السلام، فلذلك أضافها

١. أوردته الإمام الرازي بشأن جملة النساء (التفسير الكبير، ج ١٠، ص ٥٣).

٢. قال ابن حجر: لأنه أنزل من نهى عنها و كان من بعده (عثمان و معاوية) كان تابعاً له في ذلك (فتح الباري، ج ٣، ص ٣٤٥).

٣. الدر المختور، ج ١، ص ٣١٦؛ راجع: صحيح مسلم، ج ٤، ص ٤٨-٤٩ أوردته بالفاظ مختلفة و متقاربة تماماً. و أوردته البخاري في تفسير سورة البقرة باب فمن تمنع (ج ٢، ص ٣٣) و في كتاب الحج باب التمتع على عهد رسول الله (ج ٢، ص ١٧٦).

٤. مسند الإمام أحمد، ج ٤، ص ٤٣٦.

٥. النساء (٤)، ٥٤.

٦. الإنباء، ج ٣، ص ٢٦-٢٧.

الصادق عليه السلام بقوله: متعتنا^١.

لا نسخ ولا تحريم

وبعد، إذ عرفت أن القوم لم يكذبوا أن يصدقوا منع عمر ذاته لشريعة سننها الكتاب والسنة، التمسوا لتبرير موقفه ذلك معاذير وتعاليل، لا تكاد تُشفي العليل ولا تُروِي الغليل.

قال الشيخ محمد عبده: والعمدة عند أهل السنة في تحريمها وجوه:
أولها: ما علمت من منافاتها لظاهر القرآن في أحكام النكاح والطلاق والعدة، إن لم نقل لنصوصه.

ثانيها: الأحاديث المصرحة بتحريمها تحريماً مؤبداً إلى يوم القيامة، وقد جمع متونها وطرقها مسلم في صحيحه.

ثالثها: نهى عمر عنها في خلافته، وإسناده بتحريمها على المنبر، وإقرار الصحابة له على ذلك.

مركز تحقيق كتب علوم اسلامی

قال: وكان إسناده التحريم إلى نفسه (أنا محرّمهما) فمجاز، ومعناه: أنه مبين لتحريمهما. وقد شاع مثل هذا الإسناد، كما يقال: حرّم الشافعي البيد وأحلّه أو أباحه أبو حنيفة. لم يعنوا إثمهما شرّاً ذلك من عند أنفسهما، وإنما يعنون أنّهم يبتوه بما ظهر لهم من الدليل. قال: وقد كنّا قلنا: إن عمر منع المتعة اجتهداً منه، ثم تبين لنا أن ذلك خطأ، فنستغفر الله منه^٢.

ولننظر في هذه البنود باختصار:

أما التنافي مع ظاهر الكتاب أو نصّه، فلم يشين وجهه بوضوح؛ إذ المتمتع بها زوجة

١. المسائل المروية (المسألة الأولى) المصبوعة ضمن رسائل المفيد، ص ٢٧، ٢٨، ٢٩.

٢. المنار، ج ٥، ص ١٥، ١٦.

عند القائل بها، ولها أحكام تغاير أحكام الدائمة، فطلاقها انقضاء أجلها، وعدتها كعدة الأمة؛ نصف عدة الحرة الدائمة.

قال المحقق: ولا يقع بها طلاق، وتبين بانقضاء المدة، وعدتها: حيضتان أو خمسة وأربعون يوماً، ولا يثبت بينهما ميراث، إلا إذا شرط على الأشهر. ولو أخل بالمهر مع ذكر الأجل بطل العقد، ولو أخل بالأجل بطل متعة، والعقد دائماً.

وذكر الشيخ محمد عبده وجهاً آخر للشافعي مع القرآن؛ حيث قوله عز وجل في صفة المؤمنين: «وَالَّذِينَ هُمْ يُرْوَجُونَ أَتَى عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ»^٤، قال: والمرأة المتمتع بها ليست زوجة ليكون لها مثل الذي عليها بالمعروف، والشيعة أنفسهم لا يعطونها أحكام الزوجة ولو أزمها، فلا يعدونها من الأربع، ولا يكون بها إحصان، وذلك قطع منهم بأنه لا يصدق على المستمتعين «مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ»، وليس لها ميراث ولا نفقة ولا طلاق ولا عدة^٥.

لكن أسبقنا أنها زوجة وإن كانت تخالف حكمها أحكام الدائمة. واستدل الشهيد الثاني^٥ على أنها زوجة بنفس الآية؛ حيث عد ابتغاء ما وراء الزوجة وملاك يمين سفاهاً. والسورة مكية، نزلت قبل الهجرة بفترة طويلة؛ حيث نزلت بعدها - وهي برقم ٧٤ - اثنتا عشرة سورة إلى تمام العدد (٨٦) السورة المكية. ولا شك إنها كانت محللة ذلك العهد، وآخر تحريمها - على الفرض - بعد سنة الفتح (عام أوطاس سنة ٨ للهجرة)، ولازمه أن المسلمين كانوا مسافحين في تلك الفترة، إذا لم يكن المتمتع بها زوجة؛ إذ لم تكن ملك

١. راجع: شرائع الإسلام للمحقق الحلي، ج ٣، ص ١؛ بداية المجتهد لابن رشد، ج ٤، ص ١٠١.

٢. شرائع الإسلام، ج ٤، ص ٣٠٧، ٣٠٦.

٣. المؤمنون (٢٣)، ص ٥ و ٦.

٤. المنار، ج ٥، ص ١٣-١٤.

٥. راجع: الروضة البهية لزمن الدين الشهيد الثاني، ج ٥، ص ٢٩٩ و ٢٣٦ (ط نجف).

يمين أيضاً.

كما أن تحليل الأمة عند القائل بإباحته داخل في ملك يمين، بنفس دليل الحصر في الآية.

نعم، ذكرنا أن طلاقها انقضاء أمدها، وأن لها عدة نصف عدة الدائمة، ونفقتها أجرتها، والميراث حكم تعديّ خاص، يمكن أن لا يجعله الشارع في موارد، منها: القتال، وخارج الملة، والمتقرب بالأب مع وجود المتقرب بالأبوين أو الأم، وغير ذلك مما هو تخصيص في عموم الكتاب.

على أن فتها أهل السنة يجيزون نكاح الكتابية ولا يقولون بالتوارث بينهما،^١ وذلك تخصيص في عموم الكتاب، كما هنا حرفاً بحرف. كما أنهم لا يرون الإحصان بملك يمين،^٢ فكذلك المتعة عندنا، وهو حكم خاص ثابت في الشريعة بالتعبد. أما مسألة العدة فقد عرفت أن الشيخ اشتبه عليه الأمر، فتدبر.



و أما الأحاديث التي هي عمدة استدلالهم على التحريم، فقد ادّعى ابن رشد الأندلسي تواترها، لكنه كلام مكلف على هوأه، إذ لا تعدو رواية التحريم إسنادها إلى ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ:

١- علي بن أبي طالب عليه السلام.

٢- سلمة بن عمرو بن الأكوع.

٣- سبرة بن معبد الجهني.

أما الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام فمقتعلة عليه بلا شك؛ لأنه عليه السلام كان من أشد الناقمين على عمر في تحريمه المتعة، ولو لا نهيه ما زنى إلا شقياً، فكيف يؤنب على عمر أمراً سبقه تحريم رسول الله، لا سيما وروايته هو بذلك؟!

١. بداية المجتهد ج ٤، ص ٣٨١.

٢. المصدر نفسه.

٣. المصدر نفسه، ص ٦٣.

٤. المصدر نفسه، ص ٤٧٠.

* * *

وكذا الرواية عن سلمة أيضاً لا أصل لها، وإنما هي فرية ألصقوها بصحابي كبير، ومن ثم لم يورد البخاري رواية التحريم عنه، بل العكس أورد عنه رواية الإباحة، رغم عقد الباب للتحريم.

فقد أسند عنه وجابر، قالوا: كنا في جيش فأتانا رسول الله ﷺ، فقال: إنه قد أُذن لكم أن تستمتعوا فاستمتعوا. وأيضاً عنه قال: قال رسول الله ﷺ: أيما رجل وامرأة توافقتا فِعْشَرَةً ما بينهما ثلاث ليال، فإن أحبا أن يتزايدا أو يتتاركا تتاركا.

وهنا يأتي البخاري ليجتهد في الموضوع قائلاً: قال أبو عبد الله: وبني علي عن النبي أنه منسوخ!! وكذلك روى مسلم عن سلمة وجابر - إلى قوله - «أذن لكم أن تستمتعوا» فقال مسلم: يعني متعة النساء.

* * *

نعم، تفرد مسلم عن البخاري في إسناد حديث النهي إلى سلمة، عن طريق فيه ضعف، تركه البخاري لذلك.

روى مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يونس بن محمد عن عبد الواحد بن زياد عن أبي عمير عن إياس بن سلمة عن أبيه قال: «رخص رسول الله ﷺ عام أوطاس في المتعة ثلاثاً ثم نهى عنها».

و أبو بكر بن أبي شيبة هذا، هو عبد الرحمن بن عبد الملك الحزامي، ضعفه أبو بكر بن أبي داود، وقال أبو أحمد الحاكم: ليس بالمتين عندهم. وابن حبان مع عدّه في الثقات وصفه بأنه ربما أخطأ. وفي لفظ ابن حجر: ربما خالف. قال: ولم يخرج عنه البخاري

١. قال ابن حجر: وليس في أحاديث الباب التي أوردتها التصريح بذلك، لكن قال في آخر الباب: إن علياً بين أنه منسوخ (فتح الباري، ج ٩، ص ١٤٣).

٢. المصدر نفسه، ص ١٣٨.

٣. صحيح مسلم، ج ٤، ص ٣٨.

٤. ميزان الاعتدال، ج ٢، ص ٧٨؛ رقم ٤٩١؛ المغني في الضعفاء للذهبي، ج ٢، ص ٣٨٣؛ رقم ٣٥٩٨.

سوى حديثين^١.

وكذا عبد الواحد بن زياد، كان مدلساً، يدلس في حديثه عن الأعمش. قال أبو داود الطيالسي: عمداً إلى أحاديث كان يرسلها الأعمش فوصلها كلها، وقد بينه التطنائي. وقال ابن معين: ليس بشيء، وكانت له مناكير نقتت عليه. ووصفه الذهبي بأنه صدوق، يَغرب^٢.

وهكذا حديث سبرة الجهني، لم يروه عنه سوى ابنه الربيع، ومن ثم لم يُخرجه البخاري^٣، وإنما أخرجه مسلم بإسناده إلى عبد الملك بن الربيع بن سبرة، عن أبيه عن جده قال: أمرنا رسول الله ﷺ بالمتعة عام الفتح حين دخلنا مكة، ثم لم نخرج منها حتى نهانا عنها^٤. كما لم يُخرج مسلم للربيع عن أبيه حديثاً غير حديث المتعة، ولم يأت ذكره في غير هذا الباب^٥. الأمر الذي يُثير الريب بشأن الربيع، وحديثه ذلك عن أبيه حديثاً لم يروه عنه غيره إطلاقاً؟!

قال ابن قسيم الجوزي - بعد تقسيمه للناس إلى طائفتين بشأن حديث المتعة، طائفة تقول: إن عمر هو الذي حرّمها ونهى عنها - قال: ولم تر هذه الطائفة تصحيح حديث سبرة ابن معبد في تحريم المتعة، فإنه من رواية عبد الملك بن الربيع بن سبرة عن أبيه عن جده. وقد تكلم فيه ابن معين، ولم ير البخاري إخراج حديثه في صحيحه، مع شدة الحاجة إليه، وكونه أصلاً من أصول الإسلام، ولو صحّ عنده لم يقصر عن إخرجه والاحتجاج به^٦.

١. تهذيب التهذيب: ج ٦، ص ٢٣٦.

٢. المغني في الصحاح: ج ٢، ص ٤١٠، رقم ٣٨٦٧؛ ميزان الاعتدال: ج ٢، ص ٢٧٣، رقم ٥٢٨٧.

٣. إذ لم يُخرج عن الربيع في صحيحه شيئاً، ولا عن أبيه سبرة سوى ما علقه في أحاديث الأنبياء فقال: ويروى عن سبرة بن معبد وأبي الشموس أن النبي ﷺ أمر بالقضاء الصوام، يعني من أجل بقاء نعوه، ووصه الصيراني من طريق الحميدي عن حرمة بن عبد العزيز بن الربيع بن سبرة (تهذيب التهذيب: ج ٣، ص ٤٥٣ و ج ٦، ص ٣٣٦).

٤. صحيح مسلم: ج ٤، ص ١٣٣-١٣٢.

٥. راجع: الجمع بين رجال الصحيحين: ج ١، ص ١٣٥.

٦. أوردنا تمام كلامه فيما تقدم، راجع: زاد المعاد لابن قسيم: ج ٢، ص ١٨٤.

قال ابن حبان - في ترجمة عبد الملك هذا -: مُدَّكَر الحديث جَدُّ، يروي عن أبيه ما لم يتابع عليه. قال: وسئل يحيى بن معين عن أحاديث عبد الملك عن أبيه عن جدّه، فقال: ضعاف^١.

هذه حالة الأحاديث المُزَيَّاة، والتي استندها القوم دليلاً على التحريم، فتدبر، واقتض ما أنت قاضٍ.

محاورة مفيدة

و يتناسب هنا أن ننقل محاورة وقعت بين الشيخ أبي عبد الله المفيد، وشيخ من الإسماعيلية كان على مذهب الجماعة يُعرف بابن لؤلؤ. قال المفيد: حضرت دار بعض قواد الدولة، وكان بالحضرة شيخ من الإسماعيلية، فسألني: ما الدليل على إباحة المتعة؟ فقلت له: الدليل على ذلك قول الله عزّ وجلّ: «وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ هَٰذَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا»^٢.

فأحلّ - جلّ اسمه - نكاح المتعة بصريح لفظها، ولم يكر أو صافها من الأجر عليها، والتراضي بعد الفرض له، من الإزدیاد في الأجل، وزيادة الأجر فيها.

فقال: ما أنكرت أن تكون هذه الآية منسوخة بقوله: «وَالَّذِينَ هُمْ يَفْرُوجُهُمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاعِلُونَ»^٣. فحظر الله تعالى النكاح إلا للزوجة أو ملك يمين. وإذا لم تكن المتعة زوجة ولا ملك يمين، فقد سقط من أحلّها.

فقلت له: قد أخطأت في هذه المعارضة من وجهين: أحدهما: إنك ادّعت أن المستمتع بها ليست بزوجة، ومخالفتك يدفعك عن ذلك،

١. كتاب المجروحين والضعفاء لابن حبان، ج ٤، ص ١٣٣-١٣٣، تهذيب التهذيب، ج ٣، ص ٢٤٤ و٢٤٥.

٢. المؤمنون (٣٣): ٥٠-٥١.

٣. النساء (٤): ٣٤.

و يثبتها زوجة في الحقيقة.

والثاني: إن سورة المؤمنون مكّية، وسورة النساء مدنيّة، والمكّي مُتقدّم على المدني، فكيف يكون ناسخاً له وهو متأخّر عنه، وهذه غثلة شديدة!

فقال: لو كانت المتعة زوجة لكانت تراث، ويقع بها الطلاق.

فقلت له: وهذا أيضاً غلط منك في الديانة؛ وذلك أن الزوجة لم يجب لها الميراث، ويقع بها الطلاق من حيث كانت زوجة فقط، وإنما حصل لها ذلك بعسفة تزيد على الزوجية^١.

و الدليل على ذلك أن الأمة إذا كانت زوجة لم تراث ولم تُورث^٢. والقاتلة لا تراث، والذميّة لا تراث والأمة المبيعة تبين بغير طلاق^٣، والملاعنة أيضاً تبين بغير طلاق^٤، وكذلك المختلعة^٥، والمرتدة عنها زوجها^٦، والمُرّضة قبل الفطام بما يوجب التحريم من لبن الأم^٧، والزوجة تبين بغير طلاق^٨.

و كلّ ما عدّدناه زوجات في الحقيقة، فبطل ما توهمت. فلم يأت بشيء.

فقال صاحب المدار - وهو رجل أعجمي، لا معرفة له بالنقح وإنما يعرف الظواهر -: أنا أسألك في هذا الباب عن مسألة: هل تزوّج رسول الله ﷺ متعة، أو تزوّج أمير المؤمنين؟ فلو كان في المتعة ما تركاها!

فقلت له: ليس كلّ ما لم يفعله رسول الله ﷺ كان محرّماً، وذلك أن رسول الله

١. يعني أن مسألة العلق ليست من لوازم الصيغة للزوجية، بل لكونها دائمة أو نحو ذلك مما هو خارج الصيغة.

٢. بناء على أن الممّوك لا يملك.

٣. يعني إذا بيعت الأمة المزوجة ولم يأتها مالكها الجديد بالزواج، فإن الزوجية تنفسخ حالاً بغير طلاق.

٤. بناء على أن الدعان يوجب الفرقة من غير حاجة إلى طلاق.

٥. بناء على عدم الحاجة إلى الطلاق وكفاية صيغة الطع.

٦. إذا ارتدت الزوجة تبين منه زوجته بغير طلاق.

٧. إذا أرضعت أم الزوجة وليدتها أي وليدة زوجة الرجل، حرمت عليه؛ إذ لا ينكح أبو المرتضع في أولاد صاحب اللبن. وكذا لو أرضعت الزوجة الكبيرة المدخول بها الزوجة الصغيرة حرماً؛ لأن الأولى أصبحت أم الزوجة، والثانية بنت المدخول بها.

والأئمة عليهم السلام لم يتزوجوا الإماء ولا نكحوا الكتائيات ولا خالعوا، ولم يفعلوا كثيراً من أشياء كانت مباحة، وبعد أن تبادلت مسائل من هذا القبيل، قال الشيخ المفيد:

فقلت له: إن أمرنا مع هؤلاء المتفقهة عجيب، وذلك أنهم مطبقون على تبديعنا في نكاح المتعة مع إجماعهم على أن رسول الله ﷺ قد كان أذن فيها، وأنها عملت على عهده، ومع ظاهر الكتاب وإجماع آل محمد عليهم السلام على إباحتها، والاتفاق على أن عمر حرمها في أيامه، مع إقراره بأنها كانت حلالاً على عهد رسول الله ﷺ.

فلو كنا على ضلالة فيها لكنا في ذلك على شبهة، تمنع ما يعتقد المخالف فينا من الضلال والبرادة منا، وفيمن خالفنا من يقول في النكاح وغيره بضد القرآن وخلاف الإجماع والمذكر في الطباع - ثم جعل يعدد موارد منها - ثم قال: وهم يتولى بعضهم بعضاً، وليس ذلك إلا لاختصاص قولنا بآل محمد عليهم السلام.

ب) متعة الحج

تنقسم فريضة الحج إلى تمتع وقرآن وإفراد. والأول فرض من نأى عن مكة، ولم يكن أهله حاضري المسجد الحرام، فحجاً بالعمرة إلى الحج، فإذا طاف وسعى، قصر وخرج عن إحرامه، حتى إذا كان يوم التروية أهل بالحج، وذهب إلى عرفات. وكان له بين تحلله وإحرامه هذا أن يتمتع بما كان قد حرم عليه لأجل إحرامه؛ ومن ذلك جاءت هذه التسمية.

ولا زال يعمل بها المسلمون على مختلف مذاهبهم، جرياً مع نص الكتاب وسنة الرسول وعمل الأصحاب. غير أن عمر حاول المنع منه، لما استهجنه من توجه الناس إلى عرفات ورؤوسهم تقطر ماءً، اجتهداً مجرداً في مقابلة النص الصريح. وقد عرفت تشديده بشأن المتعتين، لكن تعليله لذلك يبدو أغرب.

١. راجع تلك الموارد في الفصول المختارة من العيون والمحاسن للشيخ المفيد، ص ١٣٣-١٣٢، فإنه متعاً.

٢. المصدر نفسه، ص ١٣٣-١١٩ (ط نجف).

أخرج مسلم بإسناده عن أبي موسى أنه كان يُنتهي بالمتعة، فقال له رجل: رو يدك ببعض فتياك، فإنك لا تدري ما أحدث أمير المؤمنين في النسك بعد، حتى لقيه بعد فساله، فقال عمر: كرهت أن يضلوا معرّسين بهن في الأراك^١، ثم يروحون في الحجّ تقطر رؤوسهم^٢، ولعلها بقيّة من عقائد قديمة^٣، وقع مثلها في حياة الرسول ﷺ ممّا أثار غضبه.

فقد أخرج مسلم بإسناده عن عطاء: أن جماعة من صحابة النبي ﷺ أهلكوا بالحجّ مفرداً، فقدم النبي صباح رابعة مضت من ذي الحجة، فأمرهم أن يحلّوا ويعصّبوا النساء، قال عطاء: لم يعزم عليهم ولكن أحلّهنّ لهم. فقال بعضهم لبعض: ليس بيننا وبين عرفة إلاّ خمس، فكيف يأمرنا أن نُفضي إلى نساءنا فنأتي عرفة، تقطر مذاكيرنا.

فبلغ ذلك النبي ﷺ فقام فيهم، وقال - مُستغرباً هذا الفضول من الكلام -: قد علمتم أنّي أتقاكم الله وأصدقكم وأبرّكم، ولولا هديي لحللت كما تحلون. ولو استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي. فحلّوا. قال جابر: فحللتنا، وسمعنا وأطعنا.

وفي رواية: فكبر ذلك علينا وضاق به صدورنا. وفي أخرى: كيف نجعلها متعة وقد سمينا الحجّ، فقال ﷺ: افعلوا ما أمركم به، ففعلوا^٤.

وفي حديث طويل أخرجه مسلم بإسناده إلى الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، عن أبيه عن جابر، يشرح حجّ رسول الله ﷺ حتى ينتهي إلى قوله ﷺ: «فمن كان منكم ليس معه هدي فليحلّ وليجعلها عمرة» قال: فقام سراقه بن مالك بن جعشم، فقال: يا رسول الله، أيعامنا هذا أم لأبد؟ فقال ﷺ: بل لأبد أبدي^٥.

قال العلامة الأميني: ولم يكن نهي عمر عن المتعتين إلاّ رأياً محضاً واجتهاداً مجرداً

١. يقال: أعرس الرجل بامرأته إذا بنى بها، والأراك: موضع قريب من مكة.

٢. صحيح مسلم، ج ٤، ص ٤٤-٤٦، باب: نسخ التحلّ.

٣. قال ابن قيم الجوزي: كانت العرب في الجاهلية تكره العمرة في أشهر الحجّ، وكانوا يقولون: إذا أبحر الدبر وعنى الأثر وانسخ صفر فقد حلت العمرة لمن اعتمر، (زاد المعاد لابن قيم، ج ١، ص ٣٩٤ جامع البخاري، ج ٢، ص ١٧٥؛ صحيح مسلم، ج ٤، ص ٥٦).

٤. راجع: صحيح مسلم في عدة روايات، ج ٤، ص ٣٦-٣٨؛ جامع البخاري، ج ٤، ص ١٧٥-١٧٦.

٥. صحيح مسلم، ج ٤، ص ٣٩-٤٣، وفي المحلّ (ج ٧، ص ٨٨) بل لأبد الأبدي.

تجاه النقص، أما متعة الحج فقد نهى عنها لما استهجنه من توجه الناس إلى الحج ورؤوسهم تقطر ماءً. لكن الله سبحانه أبصر منه بالحال، ونبيه ﷺ كان يعلم ذلك حين شرع بإباحة متعة الحج حكماً باتاً أبدياً^١.

قال ابن قتيب: ومنهم من يعدّ النهي رأياً رآه عمر من عنده، لكرهته أن يظل الحاج معرّسين بنسائهم في ظل الأراك. قال أبو حنيفة عن حماد عن إبراهيم النخعي عن الأسود ابن يزيد، قال: بينما أنا واقف مع عمر بن الخطاب بعرفة عشية عرفة، فإذا هو برجل مرجل شعره ينوح منه ريح الطيب، فقال له عمر: أمحرم أنت؟ قال: نعم. فقال عمر: ما هيأتك بهيأة محرم، إنما المحرم الأشعث الأغبر الأذفر^٢. قال: إني قدمت متمتعاً وكان معي أهلي، إنما أحرمت اليوم. فقال عمر - عند ذلك -: لا تتمتعوا في هذه الأيام، فإنني لو رخصت في المتعة لهم لمعرّسوا بهن في الأراك ثم راحوا بهن حجاجاً.

قال ابن قتيب: وهذا يبين أن هذا من عمر رأي رآه^٣.



مذاهب الفقهاء في حج التمتع من تحقيقات كميته علوم راسدي

ذهب الفقهاء من الإمامية إلى أفضلية حج التمتع على الأفراد والقرآن، وأنه فرض من نأى عن مكة^٤.

وقالت الشافعية: بأفضلية الأفراد ثم التمتع ثم القرآن، إن كان قد اعتمر في عامه؛ لأن تأخير العمرة عن عام الحج عندهم مكروه^٥.

وقالت المالكية: بأفضلية الأفراد ثم القرآن ثم التمتع^٦.

١. الخديري، ج ٦، ص ٣١٣.

٢. الذفر - بالضم: كذا: يقع على العيب والكراهة، ويترق بينهما بما يضاف إليه ويوصف به، والمراد هنا الريح الكريهة.

٣. زاد المعاد لابن قتيب، ج ٤، ص ٣١٤. وهكذا ذهب ابن حزم أن هذا رأي رآه عمر (المحلى، ج ٤، ص ١٠٣).

٤. شرائع الإسلام، ج ١، ص ٣٣٦، ٣٤٠. ٥. الفقه على المذاهب الأربعة، ج ١، ص ٦٨٨.

٦. المصدر نفسه، ص ٦٩٠.

و الحنابلة: أفضلها التمتع ثم الأفراد ثم القرآن.^١
 و الحنفية: أفضلها القرآن ثم التمتع ثم الأفراد.^٢
 و المذاهب الأربعة جميعاً قائلون بالتخيير.

التاسع: حديث الرجعة

قال تعالى: «وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ»^٣.
 هذه الآية الكريمة أظهر آية دللتنا على ثبوت الرجعة، وهي الحشرة الصغرى قبل الحشرة الكبرى يوم القيامة؛ حيث التعبير وقع في هذه الآية بحشر فوج من كل أمة، أي جماعة منهم وليس كلهم. أمّا الحشر الأكبر فهو الذي قال فيه تعالى: «وَحْشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نَعَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا»^٤. وقد تكرر قوله تعالى: «وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا»^٥.
 قال الإمام الصادق (عليه السلام): هذا في الرجعة، فقليل له؛ إن القوم يزعمون أنه يوم القيامة! فقال: فيحشر الله يوم القيامة من كل أمة فوجاً ويدع الباقين؟! لا، ولكنه في الرجعة، أمّا آية القيامة فهي: «وَحْشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نَعَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا»^٦.
 و مسألة الرجعة، حسبما تعتمد الشيعة الإمامية، وهي رجعة أموات إلى الحياة قبل قيام الساعة، ثم يموتون موتهم الثاني. ليست بدعاً من القول إلى جنب قدرة الله تعالى في الخلق، كما قص في كتابه من قصة عزيز، وأصحاب الكهف، والذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف، والسبعين رجلاً من قوم موسى، وغير ذلك، مما وقع في أمم خلقت، فلا بدع أن يقع في هذه الأمة مثلها.

و لعلمائنا الأعلام بهذا الشأن دلائل و مسائل استقصوا فيها الكلام نذكر منها:

* * *

١. المصدر نفسه، ص ٦٩٣.

٢. الكهف (١٨): ٤٧.

٣. الأنعام (٦): ٦٢ و ٢٨ و يونس (١٠): ٢٨ و سبأ (٣٤): ٤٠.

٤. تفسير الصافي، ج ٢، ص ٣٤٧-٣٤٨.

٥. المصدر نفسه، ص ٦٩٢.

٦. النمل (٢٧): ٨٣.

والمصدق ﷺ في رسالة الاعتقاد بيان وافٍ بشأن إثبات الرجعة، استشهد بآيات جاء فيها ذكر الأحياء للأموات في هذه الحياة، فبعثهم الله أحياء بعد ما أماتهم، فعاشوا زمناً ثم ماتوا موتهم الثاني. نظير ما نقوله في الرجعة، يعود أقوام إلى الحياة ويعيشون فترة ثم يموتون قبل قيام الساعة. كل ذلك دليل على إمكان الرجعة، وأنها ليست بدعاً من القول، أو يستكر إلى جذب قدرة الله تعالى في الخلق. والآيات التي استشهد بها هي:

١. قوله تعالى: «أَلَمْ نَرِ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مَوْتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ»^١. هؤلاء قوم حزقيل - ويقال له ابن العجوز^٢ - فرّوا من القتال أو الطاعون، فأماتهم الله، فخرج حزقيل في طلبهم فوجدهم موتى، فدعا الله أن يعيد إليهم الحياة، فأحياهم الله، فرجعوا إلى الدنيا وسكنوا الدور، واكلوا الطعام ونكحوا النساء، ومكنوا ما شاء الله ثم ماتوا بأجلهم^٣.

٢. قوله: «أَوَكُلَّاذِي مَرَّةٍ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ - إلى قوله - وَنَجَعْنَا آيَةَ لِلنَّاسِ»^٤. هو عزير، وقيل: أرميا، وكلاهما مروى، الأول عن الإمام أبي عبد الله، والثاني عن الإمام أبي جعفر عليه السلام. وروى عن علي عليه السلام أن عزير خرج من أهلها وأمركه حامل، وله خمسون سنة، ثم لما رجع وهو على سنه الأولى وجد ابنه أكبر منه، ابن مائة سنة، وهذا من آيات الله^٥.

٣. وقوله تعالى: «وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»^٦. قال الطبرسي: أي تم أحييناكم لاستكمال آجالكم.

قال: واستدل قوم من أصحابنا بهذه الآية على جواز الرجعة. وقول الثائل: لا تجوز إلا

١. البقرة (٢): ٢٥٣.

٢. وذلك أن الله كانت عجوزاً فسألت الله الولد وقد كبرت فوجهه له لها (المصدر نفسه، ص ٣٤٦).

٣. روى ذلك حمزان بن أعين عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام (مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٤٧).

٤. البقرة (٢): ٢٥٩.

٥. البقرة (٢): ٥٥-٥٦.

في حياة النبي لتكون دليلاً على نبوته، باطل؛ لأنه عندنا بل عند أكثر الأئمة يجوز إظهار المعجزات على أيدي الأئمة والأولياء. وقال أبو القاسم البلخي: لا تجوز الرجعة مع الإعلام بها، لاستلزامه الإغراء بالمعاصي الكمالاً على التوبة عند الكثرة. وجوابه: أن الرجعة التي نقول بها ليست لجميع الناس فلا إغراء؛ إذ لا قطع برجع أي أحد.

٤. وقوله تعالى - خطاباً مع عيسى عليه السلام -: «وَإِذَا تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِأَذْنِي»^١. قال الصدوق: وجميع الموتى الذين أحياهم عيسى المسيح بإذن الله، عاشوا فترة ثم ماتوا بأجلهم. ٥. وأصحاب الكهف: «لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً»^٢ تم بعنهم الله، قال تعالى: «فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَّةً ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَتْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَّاداً - إِلَى قَوْلِهِ - وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ»^٣.

قال الصدوق: وحيث كانت الرجعة في الأمم السالفة، فلا غرو أن يقع مثلها في هذه الأمة، كما في الحديث: يكون في هذه الأمة ما وقع في الأمم السالفة^٤. ٦. وزاد أبو عبد الله المفيد الاستدلال بقوله تعالى: «قَالُوا رَبُّنَا آمَنَّا اثْنَيْنِ وَأَحْيَيْنَا اثْنَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ»^٥، فهذا الاعتراف والاستدعاء كان يوم القيامة، والمراد بالحياتين والمماتين: الحياة قبل الرجعة والحياة بعدها. وكذا الموتان قبل وبعد الرجعة؛ وذلك لأنهم ندموا على ما فرط منهم في تبيات الحياتين، ومعلوم أن لا عمل نافعاً ولا تكليف إلا في الحياة الدنيا.

وقد استوفى الكلام حول الآية بمناسبة المقام، حسبما يأتي عند نقل كلامه. ٧. وهكذا قوله تعالى: «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»^٦. حيث سئل عن هذا النص، فأجاب من وجوه: وقال: وقد قالت الإمامية: إن الله تعالى ينجز الوعد

١. مجمع البيان، ج ١، ص ١١٥. ٢. المائدة (٥): ١٨٠.

٣. الكهف (١٨): ١٦٨-١٦٩.

٤. عوائد الصدوق، ص ٢٣ بحار الأنوار، ج ٥٣، ص ١٢٨-١٢٩.

٥. غافر (٤٠): ١١. ٦. غافر (٤٠): ٥١.

بالنصر للأولياء قبل الآخرة عند قيام القائم، والمكررة التي وعد بها المؤمنين في العاقبة.

٨. واستدل الصدوق أيضاً بقوله تعالى: «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ»^١.

قال: يعني في الرجعة، وذلك أنه يقول: «نَبِيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ»^٢، والتبيين يكون في الدنيا^٣.

٩. وذكر جابر الله الزمخشري في حديث ذي القرنين عن علي أمير المؤمنين عليه السلام، سأله ابن الكوا: ما ذو القرنين، أم ملك أم نبي؟ فقال: ليس بملك ولا نبي، ولكن كان عبداً صالحاً. ضُرب على قرنه الأيمن في طاعة الله فمات، ثم بعته الله. فضُرب على قرنه الأيسر فمات، فبعته الله؛ فسُمِّي ذا القرنين. وفيكم مثله^٤، يعني نفسه عليه السلام.

قال السيّد رضي الدين بن طاووس: قول مولانا علي عليه السلام: «و فيكم مثله» إشارة إلى ضرب ابن ملجم له، وأنه يعود إلى الدنيا بعد وفاته كما رجع ذو القرنين. وهذا أبلغ من روايات الشيعة في الرجعة.

١٠. وروى الشيخ حسن بن سليمان في كتابه المحتضر حديث الأئمة الاثني عشر، رواه سلمان الفارسي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال سلمان: فبكيت وقلت يا رسول الله، فأني لسلمان لإدراكهم؟ قال: يا سلمان إناك مدركهم وأمتالك ومن تولاهم حقيقة المعرفة. قال سلمان: فشكرت الله كثيراً، ثم قلت: يا رسول الله، إني مؤجل إلى عهدهم؟ قال: يا سلمان، اقرأ: «ثُمَّ وَدَدْنَا لَكُمْ أَنْكَرَةً عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ تَغْيِراً»^٥. قال سلمان: قلت بعهد منك يا رسول الله؟ قال: إي... وكل من هو منا ومظلوم فينا، ثم ليحضرن إبليس وجنوده وكل من محض الإيمان محضاً ومحض الكفر محضاً. حتى

١. أجوبة المسائل الحكيمة، ص ٨٤، مسألة ١٢ (بحار الأنوار، ج ٥٣، ص ١٣٠).

٢. النحل (١٦): ٣٨.

٣. عنائد الصدوق، ص ٢٢ (بحار الأنوار، ج ٥٣، ص ٨٣٠).

٤. الكشاف، ج ٤، ص ٧٤٣ (الكيف (١٨): ٨٨-٨٣).

٥. سعد السعود، ص ٦٥.

٦. الإسراء (١٧): ٦٧.

تَوَخَّدَ الْأَوْتَارَ وَالتَّارَاتِ، وَلَا يَظْلَمُ رَبُّكَ أَحَدًا. وَنَحْنُ تَأْوِيلُ هَذِهِ الْآيَةِ: «وَأُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُكِنِّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ...»^١. قَالَ الْعَلَّامَةُ الْمَجْلِسِيُّ: وَرَوَاهُ ابْنُ عِيَّاشٍ فِي الْمَقْتَضِبِ بِإِسْنَادِهِ إِلَى سَلْمَانَ أَيْضًا^٢. قُلْتُ: وَهَذَا مِنْ تَأْوِيلِ الْآيَتَيْنِ وَتَفْسِيرِ مَعَانِي الْقُرْآنِ الْبَاطِنَةِ.

* * *

قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الطَّبْرَسِيُّ: وَاسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ - سُورَةُ النَّمْلِ: ٨٣ - عَلَى صَحَّةِ الرَّجْعَةِ مِنْ ذَهَبٍ إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْإِمَامِيَّةِ. بَأَن قَالَ: إِنَّ دُخُولَ «مَنْ» فِي الْكَلَامِ يُوجِبُ التَّبْعِيضَ، فَدُلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْيَوْمَ الْمَشَارَإِلِيهِ فِي الْآيَةِ يَحْشُرُ فِيهِ قَوْمٌ دُونَ قَوْمٍ، وَلَيْسَ ذَلِكَ صِفَةً يَوْمِ الْقِيَامَةِ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ سُبْحَانَهُ: «وَوَحْشَرْنَا لَهُمْ فَلَمَّ نُغَادِرُ مِنْهُمْ أُحْدًا»^٣.

قَالَ: وَقَدْ تَظَاهَرَتِ الْأَخْبَارُ عَنْ أُتَمَّةِ الْهَدْيِ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ عليه السلام فِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيُعِيدُ عِنْدَ قِيَامِ الْمَهْدِيِّ قَوْمًا مِمَّنْ تَقَدَّمَ مَوْتُهُمْ مِنْ أَوْلِيَائِهِ وَشِيعَتِهِ، لِيَفُوزُوا بِتَوَابِ نَعِصْرَتِهِ وَيَسْتَهْجُوا بِظُهُورِ دَوْلَتِهِ، وَيُعِيدُ أَيْضًا قَوْمًا مِنْ أَعْدَائِهِ لِيَسْتَنْتَمَ مِنْهُمْ وَيَنَالُوا بَعْضَ مَا يَسْتَحَقُّونَهُ مِنَ الْخَزْيِ وَالْهَوَانِ.

قَالَ: وَلَا يَشَكُّ عَاقِلٌ أَنَّ هَذَا مَقْدُورٌ لِلَّهِ تَعَالَى خَيْرٌ مَسْتَحِيلٌ فِي نَفْسِهِ. وَقَدْ فَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ فِي الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ، وَنَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ فِي عِدَّةٍ مَوَاضِعَ، مِثْلَ قِصَّةِ عُزَيْرٍ وَغَيْرِهِ عَلَى مَا فَسَّرْنَاهُ فِي مَوْضِعِهِ.

قَالَ: إِلَّا أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْإِمَامِيَّةِ تَأَوَّلُوا مَا وَرَدَ مِنَ الْأَخْبَارِ فِي الرَّجْعَةِ، إِلَى رَجُوعِ دَوْلَةِ الْحَقِّ، دُونَ رَجُوعِ الْأَشْخَاصِ بِأَحْيَاءِ الْأَمْوَاتِ. وَأَوَّلُوا الْأَخْبَارَ الْوَارِدَةَ فِي ذَلِكَ، مَا ظَنُّوا أَنَّ الرَّجْعَةَ تُنَافِي التَّكْلِيفَ.

قَالَ: وَلَيْسَ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِيهَا مَا يُلْجِئُ إِلَى فَعْلِ الْوَاجِبِ وَالِامْتِنَاعِ مِنَ النَّهْيِ، وَالتَّكْلِيفُ يَصَحُّ مَعَهَا كَمَا يَصَحُّ مَعَ ظُهُورِ الْمَعْجَزَاتِ الْبَاهِرَةِ وَالْآيَاتِ الْقَاهِرَةِ.

قال: ولأن الرجعة لم تثبت بظواهر الأخبار ليتطرق إليها التأويل، وإنما المعوّل في ذلك إجماع الشيعة الإماميّة، وإن كانت الأخبار تعضده^١.

* * *

و للعلامة المجلسيّ كلام مسهب حول مسألة الرجعة، أورد أكثر من مئتي حديث عن مصادر معتبرة، ثم يقول: وكيف يشك مؤمن بحقيّة الأئمة الأطهار، فيما تواتر عنهم في قريب من مئتي حديث سريع رواها نيف وأربعون من الثقات العظام والعلماء الأعلام، في أزيد من خمسين من مؤلفاتهم... ثم يأخذ في تعداد مَن أُلّف في ذلك بالخصوص، أو أورد أحاديثه في كتابه من قدماء أصحابنا ومتأخريهم. ويأخذ بالاستشهاد بآيات، وكذا روايات عن غير طرق أهل البيت، ممّا يمتّ مسألة الرجعة أو تكون نظيرة لها، فراجع^٢.

* * *

و كان بين السيّد إسماعيل بن محمّد الحميريّ والقاضي سوار^٣ مناوشة وعداة على عهد المنصور العباسي. فمما جرى بينهما - فيما رواه الشيخ أبو عبد الله الحميد بإسناده إلى الحرث بن عبد الله الربيعي - قال: كنت جالساً في مجلس المنصور، وهو بالجسر الأكبر، وسوار عنده، والسيّد ينشده:

إنّ الإله الذي لا شيء يُشبهه	آتاكم الملك للمدنيا وللدن
آتاكم الله ملكاً لا زوال له	حتّى يقاد إليكم صاحب الصّين
و صاحب الهند مأخوذ برُمته	و صاحب الترك محبوس على هون
حتّى أتى على القصيدة والمنصور مسرور.	

فقال سوار: هذا والله يا أمير المؤمنين يُعطيك بلسانه ما ليس في قلبه، والله إنّ القوم الذين يدين بحبهم لغيركم، وإنّه لينطوي على عداوتكم.

١. مجمع البيان، ج ١٧، ص ٢٣٤-٢٣٥.
٢. بحار الأنوار، ج ٥٣، ص ٣٩-٤٤، باب ٢٩ الرجعة.
٣. هو سوار بن عبد الله بن قدامة بن عرفة، وينتهي نسبه إلى كعب بن العنبر بن عمرو بن نعيم. ولأه المنصور قضاء البصرة سنة ١٣٨ هـ، ومات بها سنة (١٥٦ هـ) (تهذيب التهذيب، ج ٤، ص ٣٦٩).

فقال السيد: والله إنه لكاذب، وإني في مديحك لصادق، ولكنه حملة الحسد؛ إذ رأك على هذه الحال. وأن انقطاعي ومودتي لكم أهل البيت لمعرق لي فيها عن أبي، وأن هذا وقومهم لأعداؤكم في الجاهلية والإسلام، وقد أنزل الله عز وجل في أهل بيت هذا «إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ الْجُبُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ»^١.

فقال المنصور: صدقت.

فقال سوار: يا أمير المؤمنين، إنه يقول بالرجعة، ويتناول الشيخين.

فقال السيد: أما قوله: بأنني أقول بالرجعة، فإن قولي في ذلك على ما قال الله تعالى: «وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ»^٢، وقد قال في آخر: «وَنَحْشُرَنَّهُمْ فَلَمَّ تَغَادَر مِنْهُمْ أَخْدَاءُ»^٣. فعلمت أن ههنا حشرين: أحدهما عام والآخر خاص. وقال سبحانه: «رَبَّنَا أَمَنَّائِثَيْنِ وَأَحْيَيْنَا ائْتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ»^٤، وقال الله تعالى: «أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُنُوفٌ حَدَرِ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ»^٥، وقال الله تعالى: «فَأَمَّا لَهُ إِلهٌ مِائَةُ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ»^٦.

فهذا كتاب الله عز وجل. وقد قال رسول الله ﷺ: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ فِي صُورَةِ الذَّرِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وقال ﷺ: «لَمْ يَجْرُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ شَيْءٌ إِلَّا وَبِكَوْنٍ فِي أُمِّي مِثْلَهُ حَتَّى

١. يقال: أعرق الرجل: أي سار عريفاً، أي أصيلاً في الشرف، أي مودتي ذات عرق وأصله قديمة.

٢. الحجرات (٤٩): ٤. نزلت في بني العبر، كان النبي ﷺ سبي يوماً منهم فجازوا في فدائهم، فأعتق نصفهم وفادى النصف، وكانوا مذنبوا النبي جعلوا ينادونه من وراء الحجرات ليخرج إليهم، وكان ذلك منهم سوء أدب؛ إذ لم يعرفوا مقام النبي. يقول تعالى: «وَلَوْ أَنَّهُمْ ضَبَّروا حَتَّىٰ خُورَجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ» الحجرات (٤٩): ٥-٥ (مجمع البيان ج ٩: ص ١٣١). وكان سوار من بني العبر، وكان عثمانياً خرج مع أصحابه الجمل أيضاً. وفي ذلك يقول السيد الحميري يهجو به من حضر المنصور:

يا أمين الله يا منصور يا غير الولاء	إن سوار بن عبد الله من شيز القضاة
نحتي جسمي لكم غير سرات	جده سارق عنز فجرة من فحجرات
والذي كان ينادي من وراء الحجرات	يا هذات اخرج البنا إنا أهل هذات

(الفصول المختارة، ص ٦١) وراجع أخبار السيد الحميري في الأظاني (ج ٧، ص ٣٩٧-٣٩٨) ولا سيما ما

جرى بينه وبين القاضي سوار فإنه متع.

٣. النمل (٣٧): ٨٣.

٤. الكهف (١٨): ٤٧.

٥. البقرة (٢): ٢٤٣.

٦. البقرة (٢): ٢٤٩.

المسخ والخسف والقذف». وقال حذيفة: «والله ما أبعد أن يمسح الله كثيراً من هذه الأكمة قردة وخنزير».

فالرجعة التي نذهب إليها هي ما نطق به القرآن وجاءت به السنة. وإنني أعتقد أن الله تعالى يرد هذا - يعني سواراً - إلى الدنيا كلباً أو قرداً أو خنزيراً أو ذرة، فإنه والله متجبر متكبر كافر، فضحك المنصور.

و قال الشيخ أبو عبد الله المنيد، في جواب من سألته عن قول مولانا جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام): «ليس منا من لم يقل بمتعتنا ولم يؤمن برجعتنا» أهي حشر في الدنيا مخصوص للمؤمنين أو لغيرهم من الظلمة الجائرين يوم القيامة؟

فأجاب عن المتعة بما أسلفنا، ثم قال: وأما قوله (عليه السلام): من لم يؤمن برجعتنا فليس منا، فإنما أراد بذلك ما اختصته من القول به، في أن الله تعالى يحيي قوماً من أمة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد موتهم قبل يوم القيامة. وهذا مذهب مختص به آل محمد (عليهم السلام)، وقد أخبر الله عز وجل في ذكر الحشر الأكبر: «وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا» وقال في حشر الرجعة قبل يوم القيامة: «وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يَكُذِّبُ بَيِّنَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ». فأخبر أن الحشر حشران: حشر عام وحشر خاص. وقال سبحانه يخبر عن حشر من الظالمين أنه يقول في القيامة يوم الحشر: «وَلَنَا أُمَّتَانِ اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْنَا اثْنَتَيْنِ فَأَعْرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ».

و للمعامة في هذه الآية تأويل مردود، وهو: أن المعنى بقوله: «أُمَّتَانِ اثْنَتَيْنِ» أنه خلقهم أمواتاً ثم أماتهم بعد الحياة.

١. الفصول المختارة، ص ٤٤٤ و ٤٥٦ و ٥٥٧ (ط قم، ١٣٩٦ هـ) بحار الأنوار، ج ٥٣، ص ٩٣٠-٩٣٢.

٢. ذكر الفخر الرازي أن كثيراً من المفسرين قالوا بأن الموعظة الأولى هي الحالة الخاصة عند كون الإنسان طفلة وعقده، ورجع ذلك بقوله تعالى: «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْْوَناً فَأَعْيَاكُمْ». و رتب على ذلك إنكار الحياة البرزخية في القبر (التفسير الكبير، ج ٢٧، ص ٣٩).

وهذا باطل لا يجري على لسان العرب؛ لأن الفعل لا يدخل إلا على ما كان بغير الصفة التي انطوى اللفظ على معناها، ومن خلقه الله ميتاً لا يقال له: أماته، وإنما يقال ذلك فيمن طرأ عليه الموت بعد الحياة؛ ولذلك لا يقال: جعله الله ميتاً إلا بعد ما كان حياً. وهذا بين. قال: وقد زعم بعضهم أن المراد بقوله: «أَمَتْنَا اثْنَيْنِ» الموتة التي تكون بعد حياتهم في القبور للمسائلة، فتكون الأولى قبل الإحياء والثانية بعده.

وهذا أيضاً باطل من وجه آخر، وهو: أن الحياة للمسائلة ليست لتكليف فيندم الإنسان على ما فاتته في حياته، وندم القوم على ما فاتهم في حياتهم مرتين، يدل على أنه لم يرد حياة المسائلة، لكنه أراد حياة الرجعة التي يكون لتكليفهم الندم على تفريطهم، فلم يفعلوا فيندمون يوم العرض على ما فاتهم من ذلك.

* * *

وسأل السيد المرتضى علم الهدى عن حقيقة الرجعة؛ لأن شذاذ الإمامية يذهبون إلى أن الرجعة رجوع دولتهم في أيام القائم عليه السلام، من دون رجوع أجسامهم. فأجاب عليه السلام بأن الذي تذهب الشيعة الإمامية إليه: أن الله يعيد عند ظهور إمام الزمان المهدي عليه السلام قوماً ممن كان قد تضرع موته من شيعته، ليفوزوا بتواب نصرته ومعونته ومشاهدة دولته، ويعيد أيضاً قوماً من أعدائه لينتقم منهم، فيلتذوا بما يشاهدون من ظهور الحق وعلو كلمة أهله.

والدلالة على صحة هذا المذهب أن الذي ذهبوا إليه بما لا شبهة على عاقل في أنه مقدور لله تعالى غير مستحيل في نفسه، فإننا نرى كثيراً من مخالفتنا ينكرون الرجعة إنكار من يراها مستحيلة غير مقدورة.

وإذا ثبت جواز الرجعة ودخولها تحت المقدور، فالطريق إلى إثباتها إجماع الإمامية على وقوعها، فإنهم لا يختلفون في ذلك، وإجماعهم قد بينا في مواضع من كتبنا أنه حجة.

١. أمّا قوله تعالى: «وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَمَانًا» فإن المبت يصدق على ما لا حراك فيه ولا حياة منذ البداية، فغير الموت من الأربعين.

٢. المسائل المروية (ضمن رسائل النعميد): ج ٤، ص ٣٦-٣٧، رقم ٣.

وقد بيّنا أنّ الرجعة لا تنافي التكليف، وأنّ الدواعي مترددة معها؛ حيث لا يفتن ظانّ أنّ تكليف من يعاد باطل. وذكرنا أنّ التكليف كما يصحّ مع ظهور المعجزات الباهرة والآيات القاهرة، فكذلك مع الرجعة؛ لأنّه ليس في الجميع ملجئ إلى فعل الواجب والامتناع من فعل التبيح.

فإنّما من تأوّل الرجعة من أصحابنا، على أنّ معناها رجوع الدولة والأمر والنهي، من دون رجوع الأشخاص وإحياء الأموات، فإنّ قوماً من الشيعة لمّا عجزوا عن نصرّة الرجعة وبيان جوازها وأنها تنافي التكليف، عوّلوا على هذا التأويل للأخبار الواردة بالرجعة. وهذا منهم غير صحيح؛ لأنّ الرجعة لم تثبت بظواهر الأخبار المنقولة، فيطرق التأويلات عليها، فكيف يثبت ما هو متطوع على صحّته بأخبار الآحاد التي لا توجب العلم؟! وإنّما المعوّل في إثبات الرجعة على إجماع الإماميّة.



وقال الإمام كاشف الغطاء -ردّاً على من زعم أنّ القول بالرجعة ركن من أركان التشيع-:

«و ليس التدين بالرجعة في مذهب التشيع بلازم، ولا إنكارها بضارّ، وإن كانت ضروريّة عندهم، ولكن لا يناط التشيع بها وجوداً وعدماً. وليست هي إلّا كـبعض أنباء الغيب، وحوادث المستقبل، وأشراط الساعة، مثل: نزول عيسى من السماء، وظهور الدجال، وخروج السفينائي وأمثالها، من القضايا الشائعة عند المسلمين. وما هي من الإسلام في شيء، ليس إنكارها خروجاً منه، ولا الاعتراف بها بذاته دخولاً فيه. وكذا حال الرجعة عند الشيعة.

١. رسائل الشريف المرتضى، ج ١، المسائل الرازمة (المسألة الثامنة)، ص ١٦٢-١٦٣؛ بحار الأنوار، ج ٥٣، ص ١٣٨-١٣٩.

٢. يقول أحمد أمين: فالبيرونيّ ظهرت في التشيع بالقول بالرجعة (فجر الإسلام، ص ٣٧٦؛ راجع أيضاً: ص ٣٦٩، ٣٧٠ و ٣٧٣).

ثم قال: هل ترى المتهمين على الشيعة بحديث الرجعة قديماً وحديثاً، عرفوا معنى الرجعة والمراد بها عند من يقول بها من الشيعة؟ وأي غرابة واستحالة في القول أن سيحبي الله سبحانه جماعة من الناس بعد موتهم، وأي نكر في هذا بعد أن وقع مثله بنص الكتاب الكريم. ألم يسمع المتهمون قصة ابن العجوز التي قصها الله سبحانه بقوله: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ»، ألم تمرّ عليهم كريمة قوله تعالى: «وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً»، مع أن يوم القيامة تحشر فيه جميع الأمم، لا من كل أمة فوج.

قال: وحديث الطعن بالرجعة كان دأب علماء السنة من العصر الأول إلى هذه العصور، فكان علماء الجرح والتعديل منهم إذا ذكروا بعض العظماء من رواة الشيعة ومحدثيهم ولم يجدوا مجالاً للطعن فيه لوثاقته وورعه وأمانته نبزوه بأنه يقول بالرجعة. فكانتهم يقولون: يعبد صنماً أو يجعل لله شريكاً. ونادرة مؤمن الطائفة مع أبي حنيفة معروفة. وأنا لا أريد أن أثبت - في مقامي هذا ولا غير - صحة القول بالرجعة، وليس لها عندي من الاهتمام قدر صغير أو كبير، ولكنني أردت أن أدل «فجر الإسلام» على موضع غلطته وسوء تعامله»^٢.

* * *

وقال العلامة العميد الشيخ محمد رضا المظفر: الذي تذهب إليه الإمامية أخذاً بما جاء عن آل البيت عليهم السلام أن الله تعالى يعيد قوماً من الأموات إلى الدنيا في صورهم التي كانوا عليها، فيعزّ فريقاً ويذلّ فريقاً آخر، ويدين المحقّين من المبطلين، والمظلومين منهم من الظالمين؛ وذلك عند قيام مهدي آل محمد عليه السلام.

ولا يرجع إلّا من علت درجته في الإيمان أو من بلغ الغاية من الفساد، ثم يصيرون بعد ذلك إلى الموت، ومن بعده إلى الشور وما يستحقّونه من الثواب أو العقاب، كما حكى الله

٢. النمل (٣٧): ٨٣.

١. البقرة (٢): ٢٤٣.

٣. أصل الشيعة وأصولها العلامة الإمام الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء رحمته الله، ص ١٤٩، ١٥٠.

تعالى في قرآنه الكريم، تمنى هؤلاء المرتجعين الذين لم يصلحوا بالارتجاع، فنالوا مقت الله أن يخرجوا ثالثاً لعلهم يصلحون: «قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروجٍ من سبيل»^١.

نعم، قد جاء القرآن الكريم بوقوع الرجعة إلى الدنيا، وتظافرت به الأخبار عن بيت العصمة، والإمامية بأجمعها عليه إلا قليلون منهم تأولوا ما ورد في الرجعة، بأن معناها رجوع الدولة والأمر والنهي إلى آل البيت بظهور الإمام المنتظر، من دون رجوع أعيان الأشخاص وإحياء الموتى.

ثم يتعرض للنقاش حول إمكان الرجعة، والروايات الواردة بشأنها، وأنها مما تواترت عن أئمة آل البيت، ولا موضع للتشنيع بها على الشيعة، وأخيراً يقول:
و على كل حال فالرجعة ليست من الأصول التي يجب الاعتقاد بها والنظر فيها، وإنما اعتقادنا بها كان تبعاً للآثار الصحيحة الواردة عن آل البيت عليهم السلام الذين ندين بعصمتهم من الكذب، وهي من الأمور الغيبية التي **أخبروا عنها**، ولا يمتنع وقوعها^٢.

* * *

و فسر الآية (النمل: ٨٣) من لا يعتد بالرجعة بأنه حشر ثانٍ إلى النار، بعد الحشر الأكبر من القبور.

قالوا: والمراد بالنوج هم الزعماء وقادة الضلال، يُحشرون إلى النار في مقدمة أتباعهم، فيساق أبو جهل والوليد بن المغيرة وشعبة بن ربيعة بين يدي كتار مكة، وهكذا يُحشر قادة الأمم بين أيديهم إلى النار^٣.

قال الرمخشري: «فهم يورعون» أي يُحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا فيكبكبوا في النار. قال: وهذه عبارة عن كثرة العدد وتباعد أطرافه، كما وصفت جنود سليمان بذلك^٤.

١. عقائد الإمامية للمفكر: ص ٨٠-٨٤ رقم ٣٣.

٢. الكشاف: ج ٣، ص ٣٨٥.

٣. غافر (٤٠): ١١.

٤. روح المعاني: ج ٢٠، ص ٣٣.

قال تعالى: «وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فَانطَبَرُوا لَهُمْ يَوْمَئِذٍ أَبَدًا»^١.
غير أن الذين يُحشرون إلى النار هم أعداء الله جميعاً وليس فريق منهم، قال تعالى:
«وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ»^٢. قوله: يوزعون، أي يدفع بعضهم بعضاً
فيتدافعون إلى النار لكثرتهم وازدحامهم.
أمّا تلك الآية فالحشر والتدافع كان بالفوج فحسب، وليس كل أعداء الله. والتفسير
بالرعماء والقادة أمام الأتباع والسفلة، تخرّص بالغيب لا مستند له.

العاشر: مسألة البداء

البداء في التكوين كالنسخ في التشريع، أمر واقع، وقد صرح به الكتاب وتواترت به
الروايات، عن أهل بيت العصمة.
وهو كالنسخ، له معنى باطل ومستحيل على الله تعالى، وهو عبارة عن نشأة رأي
جديد، هذا المعنى مستحيل على الله، ولا تصح نسبة إليه تعالى شأنه.
وله معنى آخر، هو محقول، عبارة عن ظهور أمر بعد خفائه على الناس. كان يعلم به الله
منذ الأزل، وقدره كذلك منذ البدء، ولكن لمصلحة في التكليف أخفاه ثم أبداه لوقته. كما
في مسألة النسخ، كان الأمد (أمد التكليف) معلوماً لله ومقدراً من البدء، سوى أن الناس
حسبوا دوامه واستمراره استناداً إلى ظهور اللفظ في الدوام، ما لم يأت ناسخ.
وهكذا الأجل في مسألة البداء، له ظاهر يعلمه أولوا البصائر في أسرار الوجود، وله
واقع يعلمه علّام الغيوب، فيبيده لوقته وفق حكمته.

فالبداء من البدو، أي الظهور، إنما يحصل للناس، وكانت نسبته إلى الله مجازاً
بالمنااسبة؛ لأنه الذي يظهره لهم. وتشبيهه في التعبير، كأنه بدا لله، وهو في الحقيقة إبداء منه
تعالى. وإليك من دلائل الكتاب ما يدلّك على هذه الحقيقة، مشفوعة بنبد من كلمات
الأئمة الأطهار.

١. قال تعالى: «نَكُلُّ أَجَلَ كِتَابٍ يُعْهِ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ»^١.
الآجال مقدرة في الأزل حسب استعدادات الأشياء والأشخاص كل بحسب ذاته وطبعه، لولا عروض الطوارئ المغيّرة للآجال، والتي لا يعلمها سوى الله، ومن ثمّ يحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب، أي العلم النهائي المكنون في اللوح المحفوظ. فعلمه تعالى التدبيري لأحوال الخلق علمان: علم مخزون لا يعلمه سوى الله، وهو المسمّى باللوح المحفوظ، وعلم علّمه ملائكته وأنبياءه وسائر أوليائه، وهو الذي يصير فيه البداء، المعبر عنه بلوح المحو والإثبات.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ، عِلْمٌ مَكُونٌ مَخْزُونٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ، مِنْ ذَلِكَ يَكُونُ الْبَدَاءُ، وَعِلْمٌ عَلَّمَهُ مَلَائِكَتُهُ وَرُسُلُهُ وَأَنْبِيَآهُ وَنَحْنُ نَعْلَمُهُ»^٢.
قوله: «مِنْ ذَلِكَ يَكُونُ الْبَدَاءُ» أي منشأ البداء هو ذلك العلم الأزلي المخزون الذي لا يتغيّر. فهناك علم يكون منه البداء، وهو اللوح المحفوظ، وعلم يكون فيه البداء، وهو لوح المحو والإثبات.

قال عليه السلام: «مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْدُو لَهُ فِي شَيْءٍ لَمْ يَعْلَمْهُ أَمْسٌ، فَابْرَوْا مِنْهُ»^٣. وهذا هو معنى البداء الباطل، المستحيل على الله سبحانه وتعالى.

٢. وقال تعالى: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ»^٤.
فهناك أجلان: أجل قُضِيَ وقُدِّر حسب طبائع الأشياء واستعداداتها، يعلمه من يعلم من أسرار طبيعة الوجود، حسبما علّمه الله، وفيه البداء، وأجل مسمّى عنده في علمه المخزون الذي لا يتغيّر، ويكون منه البداء حسب تعبير الإمام الصادق عليه السلام.
وقد احتار الإمام الرازي في تفسير هذه الآية والآية الأولى. قال في قوله تعالى: «وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ»: اختلف المفسّرون على وجوه:
الأول: «قَضَىٰ أَجَلًا»: آجال الماضين، «وَأَجَلٌ مُّسَمًّى»: آجال الباقين.

٢. بحار الأنوار ج ٤، ص ١٠٩، ١١٠، رقم ٢٧.

٤. الأنعام (٦): ٢.

١. الرعد (١٣): ٣٩.

٣. المصدر نفسه: ص ١١١، رقم ٣٠.

- الثاني: أن الأول أجل الموت، والثاني أجل القيامة.
- الثالث: أن الأول أجل هذه الحياة، والثاني أجل الحياة البرزخية.
- الرابع: القبض عند النوم، والقبض عند الموت.
- الخامس: مقدار ما انقضى من العمر، ومقدار ما بقي من العمر.
- السادس: وهو قول الحكماء: أحدهما: الآجال الطبيعية، والثاني: الآجال الاخترامية^١.
- وقال في قوله تعالى: «يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ...»: في هذه الآية قولان:
- القول الأول: إنها عامة في كل شيء، فهو تعالى يزيد في الرزق وينقص، وكذا في الأجل والسعادة والشقاء والإيمان والكفر، وهو مذهب جماعة من السلف.
- القول الثاني: إنها خاصة ببعض الأشياء، قال: وعلى هذا التقرير ففي الآية وجوه:
- الأول: المحو والإثبات، بنسخ حكم سابق وإثبات حكم لاحق.
- الثاني: المحو من ديوان الحفظ ما ليس بحسنة ولا سيئة.
- الثالث: إثبات الإثم بالذنوب ومحوه بالتوبة.
- الرابع: يمحو ما يشاء، أي يتوفى من جاء أجله، ويثبت من لم يجرئ أجله فيبقى.
- الخامس: يثبت في ابتداء السنة، فإذا انتهت محامد.
- السادس: يمحو نور القمر ويثبت نور الشمس.
- السابع: يمحو الدنيا ويثبت الآخرة.
- الثامن: أنه في الأرزاق والمحن والمصائب يثبتها في الكتاب ثم يزيلها بالدعاء والصدقة.
- التاسع: تغيير أحوال العبد، فما مضى محو وما حضر إثبات.
- العاشر: يزيل ما يشاء ويثبت من حكمه لا يطلع على غيبه أحد.^٢
- انظر كيف ذهبت به المذاهب حائرًا، وقد ظل الطريق بعد أن فقد الدليل: أبواب الأئمة من أهل البيت الطاهرين.

٢. المصدر نفسه: ج ٩، ص ٦٥٦.

١. التفسير الكبير: ج ٣، ص ١٥٣.

فهرس الآيات

الفاتحة

٤ مالك يوم الدين ٣١٥

البقرة

- ٧ ختم الله على قلوبهم و على سمعهم ٩١
- ٢٢ و السماء بناءً و أنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات ٤٠
- ٢٨ كيف تكفرون بالله و كنتم أمماتًا فأوحى إليهم أن يرجعوا ٥٠٨، ٥٠٧، ٢٠٧
- ٣٠ و إذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها ٢٣٠
- ٣٤ و إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ١٤٦
- ٤٣ و أقيموا الصلاة و آتوا الزكاة ١٥٨، ٥٨، ٥٤، ١٦٤
- ٥٥ و إذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى ٥٠١
- ٥٦ ثم بعثناكم من بعد موتكم ٥٠١
- ٦٤ قلوا فضل الله عليكم و رحمته ٩٥
- ٦٥ فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ٢٨٨، ٢٨٩، ٣٦٩
- ٨٨ و قالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله ٩١

- ٩٦ يود أحدكم لو يعمر ألف سنة ٢١٧
- ١٠٢ وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت... وما هم بضارين به من أحد ٩٠
- ١٤٢ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء ١٣٣، ٢٥٧
- ١٥٥ ولنسألنكم بشيء من الخوف والجوع ١٨٦
- ١٥٨ إن الصفا والمروة من شعائر الله ٢١٩، ٤٦٠
- ١٥٩ إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من الأنباء والهدى ١٣٣
- ١٨٥ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس ٣٨، ٣٩
- ١٨٧ والآن يا شروهن وابتنوا ما كتب الله لكم واكلوا واشربوا ١٨٢
- ١٨٩ هي مواقيت للناس والحج وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ٢٠
- ١٩٥ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ٢٥
- ٢٠٠ وإذا قضيتُم مناسككم فاذكروا الله ٢١٨
- ٢٠٧ ومن الناس من يشتري نفسه ابتغاء مرضات الله ٣٠٧
- ٢١٠ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام ٢٢٣، ٢٢٦
- ٢١٩ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ٤٦٦
- ٢٢٠ يسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ١٧٣
- ٢٢٣ نسألوكم حوث لكم ٢٦١، ٢٦٢
- ٢٢٨ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ١٦٥
- ٢٢٩ الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ٤٧٠، ٤٧٣، ٤٧٤
- ٢٣٠ وإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره ٤٧٠، ٤٧٣
- ٢٣١ ولا تتخذوا آيات الله هزواً ٤٧٣
- ٢٤٠ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً ١٦٨

- ٢٤٣ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم ٣٧٧، ٥٠١، ٥٠٦، ٥١٠
- ٢٥٧ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ٧١
- ٢٥٩ أو كالمذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها ٥٠٦، ٥٠١
- ٢٦٠ قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ٣٧٤، ٣٧٥
- ٢٦٩ يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة ١٨١
- ٢٧٥ وأحل الله البيع وحرم الربا ١٦٥
- ٢٨٢ واتقوا الله وعلّمكم الله ٥٣، ٤٤٥
- ٢٨٦ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ١٣٢

أل عمران

- ٧ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات ٤٠
- ٧ هن أم الكتاب ١٢
- ٧ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشاء منه ٢٢، ٦٢
- ٧ وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم ٤٢، ٤٤، ٥٦
- ٢٦ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء ٩٢
- ٣١ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني ٩٤
- ٤٠ أنى يكون لي غلام ٣٧٣
- ٤١ قال رب اجعل لي آية ٣٧٢، ٣٧٤، ٤٢٢
- ٧٧ ولا ينظر إليهم يوم القيامة ٢٩١
- ٩٣ قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ١١٤
- ٩٧ والله على الناس حج البيت ٣٣، ٥٨، ١٥٨، ١٦٤، ١٦٩، ١٧٠

- ١٠٤ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ١٢٣، ١٣٣
- ١٢٨ هذا بيان للناس وهدى ١٨، ١٣٣
- ١٦٤ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً ٢٨
- ١٧٣ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم ٩٣
- ١٨٧ لتبينه للناس ولا تكتُمونه ٤٦
- ١٩٠ إن في خلق السماوات والأرض ٧٦
- ١٩١ ربنا ما خلقت هذا باطلاً ٧٦

النساء

- ١ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ٢٥٦، ٤٤٨
- ٢ واتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ١٧٣
- ٤ وإن طس لكم عن شيء منه نفساً ١٧٣، ٣٣٠
- ٦ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح ١٧٣
- ١٢ من بعد وصية يوصي بها أو دين ١٦٦
- ١٧ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء ٢٨٤
- ٢٤ فما استمتعتم به منهن فاتوهن أجورهن ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٨٩، ٤٩٥
- ٢٥ فأنكحوهن بإذن أهلهن ٤٧٩
- ٢٨ وخلق الإنسان ضعيفاً ٢٩٧
- ٢٩ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم ٣٣٦، ٣٣٨، ٣٣٩
- ٤١ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشييد ٤٣٣
- ٥٩ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ٢٣

- ٨٢ و لو ردّوه إلى الرسول وإلى أُولي الأمر منهم ٢٣، ٩٣
- ٩٢ و من يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم ١٦٥، ٣٣٨، ٤٦٨، ٤٦٩
- ١٠١ و إذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦١
- ١٠٢ و إذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة ٤٥٩
- ١٠٣ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ١٥٨، ١٦٥
- ١٢٢ من يعمل سوءً يجز به ١٧٤
- ١٤٢ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ١٧٤
- ١٥٩ و إن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ٣٨٧، ٤٣٧
- ١٦٤ و كلم الله موسى تكليماً ١٠٣
- ١٧٤ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ١٨



البائدة

- ٢ غير متجانف لآثم ٢٦٥
- ٦ و امسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين ٧٧، ٧٨، ٤٥٢، ٤٥٤
- ١٢ يحرفون الكلم عن مواضعه ١٣١
- ٢٥ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ٢٨٥
- ٢٨ و السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ٧٢
- ٤٩ و احذرهم أن يفتنوك ٤٥٩
- ٦٠ من لعنه الله و غضب عليه ٢٨٩
- ٦٧ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ١٩٣
- ٦٨ قل يا أهل الكتاب لستم على شيء ١١٤

- ٨٢ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود ٩٢
- ٨٣ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ٩٣
- ٨٤ وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ٩٣
- ٨٥ فأناهم الله بما قالوا جنات ٩٣
- ٨٦ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ٩٣
- ٨٧ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ٤٨٦
- ٨٩ فكفارنا إ طعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم ١٧٠
- ١٠٢ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ٢٠
- ١١٠ وإذا تخرج الموني بإذني ٥٠٢
- ١١٤ ربنا أنزل علينا مائدة من السماء ٣٧٠
- ١١٧ وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ١٤٥



مركز تحقيقات كتاب وعلوم اسلامی

الأنعام

- ٢ هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً ٥١٣، ٥١٤
- ٧ ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه ٤٠
- ١٩ وأوحى إلي هذا القرآن لأذكركم ١٢٩، ١٣٤
- ٢٢ و يوم نحشرهم جميعاً ٥٠٠
- ٣٧ وقالوا لولا نزل عليه آية من ربنا ٤٠
- ٨٢ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ٢٠، ١٦٦
- ٨٢ نرفع درجات من نشاء ٩٢
- ٩٠ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ٥٠

- ٩١ الكتاب الذي جاء به موسى نوراً ١١٤، ٤٣٨
- ٩٩ إذا أتمر و بنعه ٢١٤
- ١٠٣ لا تدركه الأبصار و هو يدرك الأبصار ٦٧
- ١١٠ و نقب أفندهم و أبصارهم ٧٢، ٩١
- ١١٤ و هو الذي أنزل إليكم الكتاب ١٨، ٤٠
- ١٢٥ فمن يره الله أن يهد به بشرح صدره للإسلام ١٧١
- ١٢٨ و يوم نحشرهم جميعاً ٥٠٠
- ١٥١ و لا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق ٨٣
- ١٥٣ و أن هذا صراطي مستقيماً ١٠٣

الأعراف

- ٣٣ قل إنما حرّم ربّي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ٦٦، ٤
- ٤٣ الحمد لله الذي هدانا لهذا ٩٥
- ٥٣ هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله ٢٣، ٣٣
- ٥٨ و البلد الطيب يخرج نباته بأذن ربّه ٩٠
- ٨٩ افتح بيننا و بين قومنا بالحق ٢١٥
- ١٤٦ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون ٥٢
- ١٥٦ و اكتب لنا في هذه الدنيا حسنة ١٤٤
- ١٧٦ و لو شئنا لرفعناه بها و لكنّه أخذنا إلى الأرض ٧٢
- ١٨٧ لا يجليها لوقتها ٤٧١
- ١٨٩ هو الذي خلقكم من نفس واحدة و جعل منها زوجها ٣٧٦

- ١٩٠ فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء ٣٧٦
- ٢٠١ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا ٢٨٤

الأضال

- ١٧ و ما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ٩٥
- ٢٤ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول ٢٨، ٧٠، ٩١
- ٢٥ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ١٩٤
- ٢٩ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ٥٣
- ٣٣ و ما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ٤٣٢
- ٤١ واعلموا أن ما غنمتم من شيء فأن الله خمسده ٢٤، ٤٦٦، ٤٦٢



النوبة

- ٣٧ إنما النسيء زيادة في الكفر ٢٠
- ٤٠ فأنزل الله حكيمته عليه ٢٥١
- ٩٧ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً ٩٣
- ١٠٠ رضي الله عنهم ورضوا عنه ١٨١
- ١٠١ و ممن حولكم من الأعراب منافقون ٩٣
- ١١٢ الناس العابدون الحامدون السائحون ١٦٩
- ١١٩ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ٤٣٦

يونس

- ٢ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم ٤٣٨

- ٢٨ و يوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم ٥٠٠
- ٢٧ و تفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ١٨
- ٥٥ أفإن وعد الله حق ٤٤٢
- ٦٤ لهم الشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ١٧١
- ٨٢ على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم ٤٥٩

عود

- ١ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ٣٧
- ٥٦ إن ربني على صراط مستقيم ١٠٣
- ٦١ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ٣٠



يوسف

- ٢ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ١٣٠
- ٣٧ لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا تنبأكما بتأويله ٣٣
- ٧٦ نرفع درجات من نشاء ١٨١
- ١٠٠ هذا تأويل رؤياي من قبل ٣٣

الرعد

- ٣ و من كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ١١٦
- ١٢ هو الذي يربكم الرق خوفاً وطمعاً ٢٢٨

- ١٧ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ١٨١، ٢٥٩
- ٢٨ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ٧٠
- ٢٩ الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم ٥٠
- ٣١ ولو أن قرآننا سئرت به الجبال أو قطعت به الأرض ٢٠٩
- ٣٩ يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ٤١، ٢٢٢، ٢٢٧، ٥١٣، ٥١٤
- ٤١ أو لم يروا أنا أنزلنا الأرض تنقصها من أطرافها ١٨٦

إبراهيم

- ٤ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ١٣٨، ١٤٠
- ٣٧ فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ٣٥٣
- ٤٢ وأفئدتهم هواء ١٤٦



مركز تحقيقات كتابية وعلوم إسلامية

الحجر

- ٩ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ١١٤، ١٤٤، ٤٣٥
- ٩١ كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين ١٧٠

النحل

- ٣٢ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ١٧١
- ٣٨ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يمت ٥٠٣
- ٣٩ ليسين لهم الذي يختلفون فيه ٥٠٣
- ٤٢ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر ٤٣٩، ٤٣٨، ٢٦٠

٤٤ و أنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم .. ١١، ١٨، ٤٠، ٥٠، ٦٩، ٧٦، ١٣٣، ١٥٧، ١٥٩، ٢٥٢، ٢٥٧، ٢٦٠، ٢٧٢

٤٧ أو يأخذهم على نخوف فإن ربكم لرؤوف رحيم ١٨٥، ٢١٥

٧٢ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ٤٤٨

٨٩ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ١١، ١٨، ٦٧، ١٥٧، ٢٥٧

٩٠ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ٥١

١٠٣ وهذا لسان عربي مبين ٢١٣

الإسراء

٦ ثم رددنا لكم الكثرة عليهم وأمددناكم ٥٠٣

١٢ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل ٤٤٩

٢٥ ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين ٢٨٣، ٢٨٥

٢٩ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ١٠٥

٢٥ وزفوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً ٢٣

٥٨ في الكتاب مسطوراً ٢١٦

٥٩ وآتينا ثمود الناقة منصرة فظلموا بها ٦١

٧٢ وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك ٤٥٩

٧٨ أقم الصلاة لذالك الشمس ١٦٥

٩٥ لنزلنا عليهم من السماء ملكاً ٤٠

٩٧ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم ١٧١

١١٠ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ٢٠٩

الكهف

- ١١ فضرربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً ٥٠٢
- ١٢ ثم بعثناهم لنعلم أيّ الحزبين أحصى ٥٠٢
- ١٨ و نقلهم ذات اليمين و ذات الشمال ٩١
- ١٩ و كذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم ٥٠٢
- ٢٥ لتوا في كهفهم ثلاثمائة سنين و ازدادوا تسعاً ٥٠٢
- ٤٧ و حشرناهم فلم يغادر منهم أحداً ٥٠٧، ٥٠٦، ٥٠٤، ٥٠٠، ٢٥٠
- ٦٥ فوجدناهم من عبادة آتيناهم رحمة من عندنا ٤٣٦
- ٧٨ ما أتوك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ٢٢
- ٨٢ ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبراً ٢٢



صريم

- ٢٧ فأنت به قومها نجده قالوا يا مريم لقد جئت شيئا جونا ١٤٥

طه

- ٢٤ اذهب إلى فرعون إنه طغى ٦٠
- ١٠٤ أمثالهم طريقة ٢٨٠
- ١١١ و عنيت الوجوه للحجّ القيوم ١٤٤

الأنبياء

- ٧ و ما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر ٤٣٨

- ٨ و ما جعلناهم جسداً لَّا يأكلون الطعام ٤٣٩
- ٢٠ يسبحون الليل و النهار لَّا يفترون ٢٢٧، ٢٢٨
- ٣٠ و جعلنا من الماء كل شئ حي ١٧٥
- ٤٤ أولا يرون أنا أنادي الأرض ننقصها من أطرافها ١٨٦
- ١٠٥ و لقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرتجوا عمارتي الصالحون ٤٤٢

الحج

- ٢٤ و هدا إلى الطيب من القول ٥١
- ٧٨ و ما جعل عليكم في الدين من حرج ٢١٥، ٢١٢، ٧٨



الؤمنون

- ٥ و الذين هم لفرجهم حافظون ٤٧٩، ٤٩١، ٤٩٥
- ٦ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ٤٧٩، ٤٩١، ٤٩٥
- ٧ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ٤٩١، ٤٩٥
- ٥٧ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ١٨٣
- ٦٠ و الذين يؤتون ما آتوا و قلوبهم رجلة ١٨٣
- ٦١ أولئك يسارعون في الخيرات و هم فيها سابقون ١٨٤
- ٧٢ و إنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم ١٠٣
- ٧٦ فما استكانوا لمربهم و ما يتضرعون ١٧٢
- ١٠٤ تفتح و جوههم النار و هم فيها كالمحون ١٧٦

النور

- ٢٠ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ١٧٢
- ٣٥ الله نور السماوات والأرض ٩٦
- ٣٦ و٣٧ يوت أذن الله أن ترفع... رجال لا تلهيهم تجارة ٣٥٢
- ٥٥ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ٤٤٢

الفرقان

- ١ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ١٣٣
- ٦ أنزل الذي يعلم السر في السماوات والأرض ٣٨٠
- ٧ وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ٢٠٩
- ١١ بل كذبوا بالساعة ٤٥١
- ٢٠ وما أرسلنا قبلك من المرسلين ٢٠٩
- ٢٢ يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ٢٣
- ٣٢ لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ٤٠
- ٣٣ ولا يأتوك بمثل إلا جئناك بالحق ١٨، ١٧
- ٣٤ الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم ١٧١

الشعراء

- ١١٩ وأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ٢١٤
- ١٩٦ وإِنَّهُ لَنبِيٍّ ذِي الْقُوَلِينَ ١٣٢، ١٣١، ١٢٩

النمل

- ١٧ و حشر لسليمان جنوده من الجن و الإنس ٥١٢
- ٢٥ و إني مرسله إليهم بهدبة فناظره بهم يرجع المرسلون ٢٩١
- ٥٢ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ٢٣١
- ٨٢ و إذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض ٢٥٠
- ٨٢ و يوم نحشر من كل أمة فوجاً ٢٥٠، ٥٠٦، ٥٠٧، ٥١٠، ٥١١
- ٨٧ و يوم ينفخ في الصور ففرع من في السماوات ٢٥٠

القصص

- ٥ و نريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ٤٤١، ٤٠٤
- ١٤ و لما بلغ أشده و استوى آتياه حكماً ٢٩
- ١٧ قال رب بما أنعمت علي فئن أكون ظهيراً للمجرمين ٢٩
- ٢٤ رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير ٢٧٩
- ٨٦ و ما كنت ترجوا أن يلقى إليك الكتاب ٩٥

العنكبوت

- ٢٩ و تأتون في ناديتكم المنكر ١٧٢
- ٦٩ و الذين جاهدوا فينا لنهديتهم سبيلنا ٦٧

الروم

- ٢١ و من آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ٤٤٨

لقمان

- ١٢٣ إنَّ الشُّرَكَ لظُلُمٌ عَظِيمٌ ٢٠
 ٢٧ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ٢٠٩

السجدة

- ١٧ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ٣٤

الأحزاب

- ٢٣ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ٢٥٧
 ٢٢ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ٣٠٥، ٣٠٢



سبا

- ١٥ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ابْنٌ يُرِيدُ الْفَيْءَ ١٧٥
 ١٨ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَبْرًا وَفِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ ٣٥٣
 ٢٨ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ١٣٣
 ٤٠ وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ٥٠٠

فاطر

- ١ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلُ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنَحَةٍ مَّتَنًى وَثَلَاثَ ... ١٨٦، ٢١٦
 ٩ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ١١٦، ١١٨
 ٣٢ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ١٧٦، ٤٢٧

يس

- ٧٨ قال من يحيي العظام و هي رميم ١٢٥
٧٩ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ١٢٥

الصافات

- ٢٤ و ققوهم انهم مسؤلون ٤٢٩
١٢٥ أندعون بعلاً ٢١٦
١٥٩ سبحان الله عما يصفون ٦٧

ص

- ٢ ولات حين مناص ٢٢
٢٩ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ٧٥، ٦٩، ٥٠، ٤٩
٣٣ فطفق مسجاً بالسوق و الأعراق ٤٥٣

الزمر

- ٥ يكور الليل على النهار ١١٧
١٧ و أنا بوا إلى الله ليعلم البشري مشر عماد ٣٨١
١٨ الذين يستمعون القول فيشعون أحسنه ٣٨٠، ٥١
٢٨ قرأنا عريباً غير ذي عوج ٧٥
٦٠ و يوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله ٣٢٤
٦٨ و نفخ في الصور ١٧٤

غافر

- ١١ قالوا ربنا أمتنا اتنين وأحييتنا اتنين ٢٠٧. ٢٠٢. ٥٠٦. ٥٠٧. ٥٠٨. ٥١١
- ٤٠ و من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى ٥٠
- ٥١ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ٥٠٢

فصلت

- ١٩ و يوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ٥١٢
- ٢٨ يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ٢٢٧
- ٤٤ أولئك ينادون من مكان بعيد ٢٩٧



الشورى

- ١١ ليس كمنته شيء ٦٧
- ٥٢ وإني لك لنهي إلى صراط مستقيم ١٠٣

الزخرف

- ١ حم ٣٨
- ٢ و الكتاب المبين ٣٨. ٣٥
- ٣ إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ٣٥. ٣٨. ٧٥. ٢١٣
- ٤ وإني في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم ٣٥. ٣٨. ٤١
- ٦٧ إنا خلأه يومئذ بعضهم لبعض عدو ٢٩٧

الدخان

- ١ حم ٣٨
- ٢ و الكتاب المسين ٣٨
- ٣ إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين ٣٨
- ٤ فيها يفوق كل أمر حكيم ٣٨
- ٥ أمراً من عندنا ٣٨
- ٥٨ فإنما يسترناه بلسانك لعنهم يتذكرون ٧٥

الجمانية

- ٢٠ هذا بصائر للناس وهدى ١٨



الأحقاف

- ٢٥ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ٢٢

محمّد

- ١٧ و الذين احدثوا زادهم هدى و آتاهم تقواهم ٥١
- ١٨ فيل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ٣١٢
- ١٩ فاعلم أنه لا إله إلا الله ٥٤
- ٢٠ و يقول الذين آمنوا لو لا نزلت سورة ٤٠
- ٢٤ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ٣٧٢، ٧٥، ٦٩
- ٢٨ و إن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ١٧٥، ١٣٤

الفتح

- ١١ سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلنا أموالنا ٩٣
 ١٢ وكنتم قوماً بوراً ٢١٦

الحجرات

- ٤ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات ٥٠٦
 ٥ ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم ٥٠٦
 ٧ ولكن الله حبب إليكم الإيمان ٩٤
 ٨ فضلاً من الله ونعمة و الله عليم حكيم ٩٥
 ١٢ يا أيها الناس إنا خلقناكم ٩٥



ق

- ١٠ والنخل باسقات لها طلع نضيد ١٧٣
 ٣٧ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب ٩١

النجم

- ٣٢ و يجرى الذين أحسنوا بالحسنى ٢٨٤
 ٦١ وأنتم سامدون ٢١٦

القمر

- ١٧ ولقد يسئرون القرآن للذكر فهل من مدكر ١١٨، ٧٥

٤٨ يوم يسحون في النار على وجوههم ١٧١

الرحمان

٩ وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ٢٦

٢٢ المرجان ٢٢٦، ٢٢٢

٣١ سفرغ لكم أيها الثقلان ٤٥١

٥٢ فيهما من كل فاكهة زوجان ١١٩

الرافعة

٢٨ في سدر مخضود ١٥٩

٦٣ أفرأيت ما تحرقون ٩٦

٦٤ أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ٩٦

٧٧ إنه لقول كريم ٥٢، ٤٢

٧٨ في كتاب مكنون ٥٢، ٤٢

٨٠ لا يمسه إلا المطهرون ٥٢، ٤٢

الحديد

٢١ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ٤٧٧

الحشر

٢ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب ٤٧١

١٩ و لا تكونوا كالذين نسوا الله ٩١، ٧٢

٢١ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً ٤٠

الصف

٢ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ٢٣٢

٣ كرم مقتداً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ٢٣٢

الجمعة

٢ هو الذي بعث في الأميين رسولاً ٢٥٧، ١٩

٥ كمثل الحمار يحمل أسفارا ٣٦٩، ٢٨٨



الغابن

٩ و من يؤمن بالله و يعمل صالحاً نحقر الله حسبه ٥٠

الطلاق

١ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ٤٧٤، ٤٧٣، ٤٧١، ٤٧٠

٢ و من يتوكل على الله فهو حسبه ٧٠

التحریم

٤ إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ٢٠٨

الملك

- ٤- تم ارجع البصر كرتين ٤٧٤
 ٣٠- قل أرايتم إن أصبح ماءكم غوراً ٤٤٠، ٢٧

القلم

- ١٢- عتال بعد ذلك زليم ٢١٤
 ١٥- إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ٢٠٨

النعارج

- ٣٧- عن اليمين و عن الشمال عزيز ٢١٤



الجن

- ٢- والله تعالى جد ربنا ٢١٥
 ١٦- وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً ٤٤٠، ٢٥٧
 ١٨- وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ٤٦٤، ٧٣

المرقل

- ٦- إن ناشئة الليل هي أشد وطناً وأقوم قبلاً ٢١٦

المنذر

- ٢٩- لو احة للسور ٢٦١

٢١٧ ٥١ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ

القيامة

٢١٦ ١١ كَلَّا لَا وَزَرَ

٣٧٠، ٢٩٠ ٢٢ وَجْهَهُ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ

٣٧٠، ٢٩٠ ٢٣ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ

الإنسان

٩٠ ٣٠ وَمَا تَشَاوُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ



النبا

١١٦ ٦ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِثَادًا

١١٧ ٧ وَالْجِبَالِ أَوْنَادًا

مركز تحيت تكميل علوم إسلامي

النازعات

١١٧ ٣٠ وَالْأَرْضِ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا

عبس

٤٤٣، ١٩٧، ١٨٤، ٢٨ ٢٤ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ

٤٤٣، ١٨٤ ٢٥ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا

٤٤٣، ١٨٤ ٢٦ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا

٢٧ فأنبتنا فيها حنأً	٤٤٣ . ١٨٤ . ٤٥
٢٨ و عنباً و قضمأً	٤٤٣ . ١٨٤ . ٤٥
٢٩ و زببنا و نخلأً	٤٤٣ . ١٨٤
٣٠ و حدائق عنبأً	٤٤٣ . ١٨٤
٣١ و فاكهة و آبأً	٤٤٣ . ١٨٦ . ١٨٥ . ١٨٤ . ٤٥
٣٢ متاعاً لكم و لآئعامكم	٤٤٣ . ١٨٤ . ٤٥

النكوير

١٥ الخنس	٣٤٤
١٦ الجوارى الكنس	٣٤٤
٢٩ و ما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين	٩٠



مركز تحققات كتابية و علوم إسلامية

الانشاق

٧ فأما من أوتى كتابه يمينه	٢٠
٨ فسوف يحاسب حساباً يسيراً	٢٠
١٤ إنه ظن أن لن يحور	٢١٦

البروج

٢١ بل هو قرآن مجيد	٤١
٢٢ في لوح محفوظ	٤١

الأعلى

- ١٨ إن هذا لفي الصحف الأولى ١٢٩، ١٣١
 ١٩ صحف إبراهيم و موسى ١٢٩

الغجر

- ١٠ و فرعون ذي النؤاد ١١٦
 ٢٤ يا ليتني قدمت لحياتي ٤٧١
 ٢٥ فيومئذ لا يعذب عباده أحد ١٤٥
 ٢٦ و لا يوتق وثاقه أحد ١٤٥

القدر

- ١ إنا أنزلناه في ليلة القدر ٣٩



الزلزلة

- ٤ يومئذ تحدث أخبارها ١٧٦

الكوثر

- ٢ فصل لو بئس و النحر ١٧٢

السد

- ١ نتبت يدا أبي لهب و تبت ٢٩٥

الإخلاص

- ١ قل هو الله أحد ٢٨٥، ٢٤٤، ٨٢
- ٢ الله المصمد ٢٤٤
- ٣ لم يلد ولم يولد ٢٤٤
- ٤ ولم يكن له كفواً أحد ٢٤٤





مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی